

رؤية نفسية لروائع مختارة من الشعر العربي

الدكتور
محمود محمد ميلاد

دار عمار


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



رؤية نفسية لروائع مختارة من الشعر العربي

الدكتور
محمود محمد ميلاد

دار عمار للنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٤هجري _ ٢٠٠٤م

رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(٢٠٠٣/٧/١٥٣٧)

٨١١,٠٩

ميلاد، محمود محمد

رؤية نفسية لروائع مختارة من الشعر العربي/محمود محمد ميلاد. _ عمان: دار عمار، ٢٠٠٣.

ج١ (   ) ص.

ر.إ.: ٢٠٠٣/٧/١٥٣٧.

الواصفات: /الشعر العربي//العصر الحديث//النقد الأدبي//التحليل الأدبي/

❖ تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر: ٢٠٠٣/٧/١٦٢٨



عمّان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري
تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ - ص.ب ٩٢١٦٩ عمّان ١١١٩٢ الأردن

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مقدمة عامة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير المرسلين وآله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين. يصعب على الدارس أن يلم بالمعرفة الكاملة عن عباقرة الشعر العربي على مدى عمره القصير، وما قدموه من نقل دقيق للأحاسيس ووصف صادق لمشاعر الإنسان ومعاناته، وقد زخرت المكتبة العربية والعالمية بنفائس إبداعاتهم، حيث مازالت وستبقى طوداً شامخاً على مر الأزمان والعصور.وقف الشاعر العربي منذ فجر الحياة يرصد الواقع الإنساني ويصور خلجات النفس البشرية تجاهه، فتراه تارة حزيناً ينفض غبار الهموم عن المقهورين، وتارة أخرى يقف وسط ساحة الحرب والطعان يستنهض الهمم لتحقيق النصر، أو يقف على الأطلال يبكي ديار الأحبة، ويتأمل بنفس حزينة لوعة الفراق.إن التجوال في حدائق الأدب العربي وما تضمنته من روائع القول والبيان والتعبير والفصاحة والبلاغة، يجعل الباحث في حيرة من أمره تتجاذبه دوافع الشوق في المتابعة كي يغني أو يمتع ما بقي من عمره في قراءة هذا الأدب الرائع، ويندم على لحظات عمره التي مرت بدون معرفة هذا الشعر الذي يعد غذاء النفس والروح لما فيه من بدائع الكلام وفصاحة التعبير والبيان.ولدى الناس مواقف متعددة من أراء الشعراء فمنهم المحب ومنهم المبغض، وهنا لا مجال لهذا الأمر، أن ما يهم هذا العمل هو الجانب النفسي والإنساني في الشعر العربي كونه رصد الواقع بعين ثاقبة وإذن مرهفة، وقد عرف الناس العناية باللباس وأعطوه الكثير من الوقت والمال والاهتمام، وكذلك غذاء الجسد بالطعام حيث اهتموا بأطعمتهم وتفننوا في أنواعها وطعومها، وقلائل هم الذين عرفوا بيان القول، وفصاحته وضرورته للنفس في اشد حالاتها، فالقول الجميل واجب شرعي وإنساني، ونسوا أن الكلمة الطيبة دواء شاف للروح من تعب الحياة وعرقها وأثقالها، (فالرسول الكريم صلوات الله عليه وسلامه:بين أن الكلمة الطيبة صدقة)، فكم من كلمة رفعت من مقام، وشفت مريضاً من سقام، وكم من كلمة جلبت بلاء؟.فلقد استطاع عباقرة الشعر العربي – والعالمي بوجه عام – إن يكونوا علماء النفس البشرية وحكماءها حيث عالجوا الأمراض الإنسانية والنفسية بكافة أنواعها وأشكالها الجسدية والاجتماعية والأخلاقية والنفسية والسياسية..من خلال أقوالهم الصائبة، ووصفهم الدقيق لخلجات النفس في أدق أحاسيسها.إن قراءة الشعر العربي والوقوف عند بيانه الإيجابي، وترك الجوانب السلبية وما فيها من أقوال مثل الخروج عن المألوف كالشتم والسباب وغير ذلك، هو ما تحاول هذه الدراسة المتواضعة أن تنهل من مورده لشعراء العصر الجاهلي وحتى الوقت الحاضر وفق التسلسل الأبجدي لرواد الأدب العربي دون أي محاكمة أو نقد، وما يدّرس هو الجوانب الإنسانية والنفسية بغض النظر عن المواقف تجاه هذا الشاعر أو ذاك، التي ينظر بها البعض لبعض الشعراء.إن إيفاء الشعر العربي حقه من الدراسة والتدريس لم يعط

إلا القليل،على الرغم من أنه ضرورة ملحه لعلاج الأحاسيس النفسية والإنسانية، فقلما استطاع الشعر العربي أن ينفذ إلى أعماق النفس البشرية ويصفها أجزل وصف، وينقل مشاعرها أجود نقل من خلال إسقاطه لانفعالاته، فلو تأمل القارئ بإمعان قول أحدهم:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه   لا يذهب العرف بين الله والناس

إن هــذا القول الفصيح يعد دواء للروح البشرية، ودعوة لها لفعل الخير من أجل التواصل والعطاء الإنساني في زمن قل فيه العطاء والوفاء ناهيك عن قول أحدهم:

دع الأيام تفعل ما تشاء   وطب نفساً إذا حكم القضاء

ولا تجزع لحادثة الليـــالي   فـــما لحوادث الدنيا بـــقاء

نداء لعدم الاكتراث بالأحزان التي تقع على الإنسان، لأنها عابرة ولا تدوم مهما طالت، أليست هي دعوة صادقه للصبر والتأمل في ملمات الزمان، إنها دعوة لحث النفوس على الاستمرار بخط الحياة من أجل العيش وسط زحام الحياة الصاخب، والتسليم بقضاء الخالق عز وجل وقدره، وكذلك القول التالي لأبي نواس حين عرج على الطلل يبكيه ويسائل الأيام ويلومها في قوله:

يا دار ما فعلت بك الأيام   ضامتك والأيام ليس تضام

عرم الزمان على الذين عهدتهم   بك قاطنين وللزمان عرام

وفي قصيدة أخرى له يعلن توبته وطلب الصفح عما أسلف من معاصي وآثام فيقول مستنجداً:

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة   فلقد علمت بأن عفوك أعظم

ما لي إليك وسيلة إلا الرجا   وجميل عفوك ثم إني مسلم

وهكذا نرى أن الشعر العربي وثيق الصلة بحياة العرب، ما جل منها وما صغر، يحمل في طياته الصفاء والكدر والخير والشر.فلو تأملنا قول عنترة يخاطب عبلة:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل   مني وبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف لأنها   لمعت كبارق ثغرك المتبسم

ما هذا القول الرائع ؟ والصادر من أعماق قلب قائله!فلقد أخرجته عواطف أصيلة، ازدحمت في صدر الشاعر، فانطلقت تجري على لسانه بكل بساطة وصدق.فهي من فيض شعوره الصافي، ومن أشعاره الوجدانية التي تضج بها روحه الإنسانية ونفسه المولهة بعبلة، وهي في أحلك اللحظات شدة. فالأدب ذلك التعبير اللفظي العاطفي المثير، فهو تصوير لعواطف الإنسان ومشاعره نحو مظاهر الكون والحياة بألفـــاظ مخــتارة منتقاة بدقة وعناية، يشخص فيها كل ما يحسه الأديب من انفعالات، بصدق وقوة، وتوضـــع وضعاً خاصاً، بحيث تتحول هذه الألفاظ في نفس مستقبلها، قارئاً كان أم سامعاً، إلى أصلها

الأول مـــن مشاعر وأحاسيس. ولذلك لا بد أن يكون الأديب ذا موهبة خاصة، قد فطره الله عليها، تجعله حاضر البديهة، قوي الملاحظة، واسع الخيال، سريع التأثر، مرهف الحس، رقيق الشعور، قادراً على الإبداع الأدبي ويثير غرائز النفس. والأدب نتاج فكري إنساني، فهو من الظواهر الإنسانية، يتأثر بمـــا يـــتأثر به الإنسان من البيئة والظروف والمناسبات والأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافـــية والدينـــية وغيرها. ولذلك عند دراسة النص الأدبي لا بد من معرفة ما أحاط بصاحبه من ظـــروف وأحوال، وستكون هذه الرؤية النفسية لروائع مختارة من الشعر العربي محاولة متواضعة من محـــب ومتـــيم بتذوقه للشعر العربي، بحيث تتناول قصائد مختارة وفق عصوره المتعاقبة بترتيب أبجدي للشـــعراء بغض النظر عن فحولة الشعراء ومكانتهم وقيمتهم، ومن زاوية أخرى كون الشاعر عالماً بالـــنفس وأغوارها يقول ما يشعر به، وما يحس به، ولأنه بذكائه ورهافة حسه يرى الأمور ويعالجها وفق عاطفة جياشة قد تكون صادقة، وأحياناً مصطنعة وحسب الظروف، وذلك انطلاقا من منهج في عـــلم النفس يسمى منهج الاستبطان[1] وكذلك وفق منهج التنفيس الانفعالي الاسقاطي(من الأساليب الإســـقاطية)[2] ، هـــذان المنهجان أساسيان في دراسة وفهم السلوك الإنسان ودوافعه، وبهذا التحليل البســـيط نتمنى فيه أن نوفق في تسليط الضوء على السلوك الإنساني ودوافعه، ولاسيما عندما يسقط الشاعر انفعالاته وأحاسيسه النفسية في تناول موضوعات يشعر بها، ويصلح هذا الأسلوب في دراسة الجوانب الانفعالية، والأمل بعونه تعالى كبير في ولوج طريق شاق يتصف بالوعورة والقسوة، ولكل فرد نصيب في الاجتهاد، ونسأل الله حسن الصواب بما اجتهدنا ونسأله العفو فيما أخطأنا، والله ولي التوفيق.

د. محمود محمد ميلاد

---

[1] - منهج الاستبطان:يقوم على تأمل الفرد لمشاعره ووصفها من خلال التعبير عنها وهو من المناهج التي تستخدم لدراسة السلوك الإنساني.والشاعر يخضع لهذا المنهج من خلال ما يعبر عن هيجانات متنوعة.

[2] - المناهج الأسقاطية في علم النفس: هي أساليب واختبارات متعددة تعطى للمفحوص ويطلب إليه الأجابه عليها ومن خلال ما يقوله وما يفعله يمكن قراءة سلوك الفرد إلى حد ما، وتعتبر النتاجات الأدبية مادة خام لمعرفة اتجاهات وأراء وهموم مؤلفيها في أغلب الأحيان، ومن جهة أخرى يعد النتاج الأدبي والفني مرآة حقيقة للواقع والحياة بأبعادها المتنوعة في تسليط الضوء على حياة المجتمعات.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

نماذج من العصر الجاهلي

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



مقدمة العصر الجاهلي

قال عمرو بن العاص في وصية لأبنه جاء فيها:
(والٍ عادل خير من مطر وابل، وأسد حطوم خير من والٍ ظلوم، ووالٍ ظلوم خيرٌ من فتنةٍ تدوم، عثرةُ الرجلِ عظم يجبرُ، وعثرةُ اللسان لا تبقي ولا تذر، وقد استراح من لا عقل له).

يعد الشعر العربي الجاهلي، ذلك التراث العظيم، والذي ينسب إلى العرب قبل الإسلام، ذاك النتاج العاطفي الذي يعبر فيه صاحبه عن مشاعره الدقيقة، وأحاسيسه الرقيقة وعواطفه العميقة، فهو التعبير المثير للنفس والحافز لدوافعها، وذلك الفكر الكبير، يلقي وينشد، ويروى عن طريق الروايات الشفهية، فلم يدون في حينه إلا بعد زمن طويل.ولم ينل من الوسائل الدقيقة للمحافظة عليه ما كفل له البقاء سليماً من الشوائب منذ وجوده. ومما يؤسف له أن كثيراً من هذا الأدب قد ضاع بسبب عوادي الزمن والاضطرابات السياسية والأحقاد النفسية الدفينة، وإحراق المؤسسات الحضارية على يد الأعداء.وقد نجى قدر عظيم من هذه الآثار الأدبية الجاهلية الصحيحة من الفناء، والتي لا يرقى إليها الشك ، وبقي الكثير من النصوص المشبوهة التي يدور حولها الجدل،ومن المعروف أن كل أثر أدبي له قيمته وأهميته في تاريخ شعب من الشعوب، سيكون عرضة للشك والاتهام والطعن والزيادة عليه، أو الانتقاص منه لأسباب عديدة. وتمتاز أساليب الشعر العربي الجاهلي بجودة السبك ومتانة التركيب، وفخامة النسج وشدة الأسر، وتظهر فيها طبيعة جوهم، وبساطة حياتهم، فلا نجد المزخرف المتكلف ولا الأداء المتصنع، إنما يبدو الجمال الطبيعي والسبك القوي عفوياً، والأداء الفطري جلياً. لذلك شاع الإيجاز في أساليب الشعر، ولأن طبيعة العرب تأنف الاستقصاء وتكره التحليل والحشو، فالعربي يتصف بذكاء القلب وحدة الخاطر، فهو يكتفي بتناوله المعنى بالإشارة العابرة واللمحة الخاطفة، فحياتهم البسيطة لا تسعفهم إلى الإطالة.والعربي ابن الصحراء المترامية الأطراف، كان دأبه، وهو يقطعها على ظهر راحلته، الغناء، فتهتز به اهتزازات توقيعية في بطئها وإسراعها، مما يوحي إليه بالأوزان الملائمة لهذه الاهتزازات التي يحدو بها، وتخير العربي في الجاهلية الكلمات المتسقة مع النغم الذي يجيش في النفس، وتصرف في بعضها فحرك الساكن وسكن المتحرك وقصر الممدود ومد المقصور، ورخم بعض الأسماء إلى غير ذلك من الضرورات الشعرية، وتصرف في الأوزان نفسها بحذف وزيادة وتسكين وتحريك. فقد مثل البيئة خير تمثيل وأصدق انفعال، وتناول كل جوانبها، فتحدث في الحرب والسلم، في مثله العليا وقيمه الاجتماعية، في عاداته وطبيعة أهله، ووصف العصر وخيراته، كما وصف بؤسه وشقاءه وما يترل به من جدب وقحط، ومن صور لحرّ الهاجرة، ولفح

ريـــاح السموم إلى صور ريح الشمال التي تخرس الناس وتثنيهم عن السفر، فكل قصيدة أو مقطوعة من هذا الشعر بما فيها من صور وتشابيه وموسيقى وأنغام، وما تحمل من ريح البادية وطعم الصحراء، مـــا هي إلا انعكاس لروح ونفسية العصر السائدة وقيمه وأخلاقه هي عمل نفسي إبداعي تجلت فيه العواطف والانفعالات أمام الواقع المعاش، لا يشذ عن ذلك إلا القليل النادر عند بعض الشعراء الذين اتصلوا بالحاضرة المدنية، فوفدوا على ملوك الحيرة والشام واليمن وأخذوا بأسباب الحضارة. فصارت اللغـــة التي يتغنى بها الناس موزونة تلائم حركاتها الأنغام التي يتغنون بها، والشاعر العربي يرتاح جداً للغته العربية الغنية المطواعة، والتي تتميز عن باقي اللغات العالمية الأخرى. لم تكن موضوعات الشعر مـــرتجلة عـــلى غـــير نظام، بل كان الشاعر يمهد للموضوع الذي يختاره، فيجعل له مقدمة طللية (المطلـــع)، ينتقل بعدها إلى ذكر الأحباب الراحلين، وتذكر أيام الهوى. ثم يفخر أمام حبيبته ببطولته العظـــيمة ووقائعـــه الشـــديدة، وقد يتداخل فخره بنفسه بفخره بقبيلته، وفي رحلته التي تجشم فيها الأهـــوال والأخطار يصحب معه الناقة أو الجواد، فيصف رفيقته (الناقة أو الجمل) والمشاهد الكثيرة مـــن الطبـــيعة القاســـية في اللـــيل المظـــلم، والصحراء اللافحة، وهطول بعض الأمطار والنجوم الدالة. والمعارك مع الحيوانات، فيصف الصراع العنيف الذي يخرج منه منتصرا دائما، وبعد أن يشبع الشاعر حاسته الفنية من رسم هذه اللوحات الرائعة والقصص الممتعة يعود إلى نفسه، ويستيقظ من جديد ويلخص تجاربه في حكم شاردة، وتأمل في هذه الدنيا ومصير الإنسان في نهاية رحلة العمر مهما طال أو قصر، لتكون زاداً يغذي النفوس فترتاح إلى نغماته، فهو إذن علاج النفوس من خلال الكلمة والمقولة الرائعة الساحرة. فالطلل أو (المطلع) عند الشاعر الجاهلي قطعة من حياته التي لا تهرم، وكلما مضى جزء منها لا يستطيع الإنسان رده مهما حاول، فكأن البكاء على الطلل أصبح يعني البكاء على الحياة نفسها، فهو يمثل نقطة الانطلاق في تفكير الشاعر الجاهلي، أو بمعنى آخر إنه الصخرة المتمردة البائسة أمام حقيقة الموت والفناء، وسبب تفجير كثير من الفنون الإنسانية. والمتتبع للمقدمات الطللية في العصـــر الجاهـــلي، ســـوف يخلط الصراع بين البقاء والفناء(صراع النفس ودوافعها)، ويجد ذلك بوضوح في معلقة امرئ القيس التي يقول في مطلعها:

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي وهل يعمن من كان في العصر الخالي

وهل يعمن إلا سعيد مخلد قليل الهموم ما يبيت بأوجال

ديار لسلمى عافيات بذي خال ألح عليها كل أسحم[3] هطال

---

[3] –الأسحم: السحاب الأسود. والهطال: المطر الدائم. (أن هذه الديار قد تعفت ودرست لإلحاح المطر عليها ولزومه إياها).

وقـــف الشـــاعر أمام تلك الأطلال الدارسة يحييها ويطلب لها السلامة، لكنها أبت عليه الجواب فما تجيـــب، ذلـــك لأن أهلها رحلوا عنها وعمها الخراب بعد أن كانت عامرة وآهلة بهم، مخلفين الألم والحسرة والهم.وبعد هذا المشهد الدرامي من الخراب، يطالعنا التساؤل عن الخوف والاضطراب من الفـــناء فـــيقول:وهل يسعد بالنعيم إلا من كان مخلداً لا يلحقه البلى والفناء الذي هو سنة الحياة.إن الـــزمن ومـــرور الأيـــام وتـــوالي الشـــهور والسنين، لكفيل بفناء أي شيء كما فعل بتلك الديار الدارسة.تلك الديار التي عبثت بها الأمطار المتتالية المسببة في تغيير معالمها إلى هذا الخراب الذي آلت إلـــيه. إن في وقوف الشاعر على الأطلال يعبر عن إحساسه العميق بالحنين إلى ملاعب الصبا، حيث يـــرى حقيقة الموت التي تثير في نفسه المخاوف.إنه يرى فيها النهاية الحتمية لطبيعة الحياة، فإقفار تلك الأطلال وفناؤها، إقفار وفناء للحياة نفسها.

<u>ورحم الله الشاعر لبيد بن ربيعة بقوله</u>:

ألا كلُ شيءٍ ما خلا الله باطلُ   وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائلُ

امرؤ القيس

حكمة صينية:

(إنــك لــن تستطيع أن تمنع طيور الهمّ أن تحلق فوق رأسك، ولكنك تستطيع أن تمنعها أن تعشّش في رأسك).

("ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً، لا صحو اليوم ولا سكر غداً، اليوم خمر وغداً أمر "):

خليلي لا في اليوم مصحى لشارب ولا في غدٍ إذ ذاك ما كان يشرب

ما هذا الابن العاق الذي يأتيه خبرُ مقتل والده وهو عاكف على الصيد واللهو والانغماس في ملذاته ؟ويطلــق هذه المقولات التي ذهبت مثلاً في عقوق الوالدين ؟ ويروى أنه ولد سنة**497**م وتوفي سنة **545**مـــيلادية.ومـــتى يملـــك الأبـــناء الحق في الخروج عن عصمة الآباء ؟ فلقد قيل: أن أبا الملك الضليل(والد امرىء القيس) كان قد طرده وأقسم أن لا يقيم معه، أنفة من قولة الشعر، فكان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاذ القبائل:من طي وكلب وبكر ابن وائل، فإذا صادف غديراً أو روضـــة أو موضـــع صيد أقام فذبح لمن معه في كل يوم فأكل وأكلوا معه وشرب الخمر وسقاهم وغنـــته قـــيانه، ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء ذلك الغدير، وفي رواية أخرى أن أباه طرده بسبب شـــعره بفاطمة ابنة عمه، وكان عاشقاً لها حيث يقول: (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل).ولما بلغ ذلك أباه قرر قتله ودعا مولى له يقال ربيعه فقال له:اقتل امرأ القيس وائتني بعينيه، فذبح العبد ربيعة جزرا فأتاه بعينيه، وبعد فترة ندم أبوه على ذلك فقال: أبيت اللعن ! وحزن عليه، فقال العبد ربيعة يا سيدي:إني لم أقتله، قال: فأتني به. فرده إلى أبيه، فنهاه عن قول الشعر لأن الملوك كانت تأنف قول الشعر، ثم أن امرأ القيس قال قصيدته: (ألا انعم صباحاً أيها الطلل البالي)، فبلغ ذلك أباه فطرده من دون عودة، وبينما امرؤ القيس منغمس بملذاته يأتيه خبر مقتل أبيه، ويروى أن حجراً أبا امرىء القـــيس كـــان ملكاً في بني أسد، وكانت له عليهم إتاوةٌ في كل سنة مؤقتة؛ فغبر ذلك دهراً ثم بعث جابيه الذي كان يجبيهم، فمنعوه ذلك، وضربوا رسله وكان حجر آنذاك في تهامة، فبلغ ذلك حجراً فسار إليهم بجند من جند أخيه وأخذ سراقم، فجعل يقتلهم بالعصا ـــ فسموا عبيد العصا ـــ وأباح الأموال، وصيرهم إلى تهامة وآلى بالله ألا يساكنهم في بلد أبداً، إلا أنهم طلبوا الصفح عنهم فرق لهم حجـــر وسمح لهم، لكنهم غدروا به وانتهبوا أسلابه والأموال، وطعنه الأسدي برمح في خاصره وهو غافل، ولما طعن ولم يجهز عليه، أوصى ودفع كتابه إلى رجل وقال له: انطلق إلى أبني نافع وكان أكبر ولده، فإن بكي وجزع فاتركه، ومر على أولادي واحدا واحداً، حتى تأتي امرأ القيس وكان أصغرهم فأيهم لم يجزع فأدفع إليه سلاحي وخيلي وقدوري ووصيتي، وكان قد بيَن في وصيته من قتله وكيف

كان خبره، فانطلق الرجل بوصيته إلى نافع ابنه: فأخذ التراب فوضعه على رأسه. ثم استقراهم واحداً واحداً فكلهم فعل ذلك، حتى أتى امرأ القيس فوجده مع نديم يشرب الخمر ويلاعبه النرد؛ فقال له: قـــتل حجر. فلم يلتفت إلى قوله، وأمسك نديمه فقال له امرؤ القيس: اضرب فضرب حتى إذا فرغ قـــال: مـــا كنـــت لأفسد عليك لعبك.ثم سأل الرسول عن أمر أبيه كله فأخبره. فقال: الخمر عليّ والنساء حرام حتى أقتل من بني أسد مائة وأجز نواصي مائة وفي ذلك يقول:

أرقتُ ولـــم يأرق لمـــا بي نافع وهاج لي الشوقَ الهمـــومُ الروادعُ

فعـــند ذلـــك قال مقولته (اليوم خمر وغداً أمر) ثم شرب سبعاً فلما صحا آبى أن لا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يدهن بدهن (طيب) ولا يقرب النساء حتى يدرك بثأر أبيه.حيث قال:

أرقت لبرق بليلٍ أهـــل يضيء سناه بأعلى الجبل

أتاني حديث فكذبتـــه بأمر تزعزع منـــه القلل

بقتل بـــني أســـدٍ ربهم ألا كـــل شيء سواه جلل

فأين ربيعـــه عـــن ربها وأين تميـــم وأين الخـــول

يفجـــع الولد العاق بمقتل والده وكم هي مؤلمة أنباء كهذه، فيعمد إلى وساوس النفس عله لا يصدق الخـــبر اليقين، لكن أنى للنفس ؟ وأحلام اليقظة التي تمتطيها النفس لدقائق بتكذيب مخاوف النفس ؟ فسرعان ما ينجلي ضباب الأحلام؛ وتظهر شمس الحقيقة الساطعة، ولم يلبث الدهر أن قلب لهذا الفتى العاكف على اللهو والصيد والمجون أيام السرور. فإذا أبوه يقتل، وإذا هو موتور، ولا بد له من أخذ ثأره على عادة العرب(وللأسف ما زال ولاء الإنسان في عصرنا الحاضر للعادات والتقاليد أكثر من ولائه للحق والعدل والمساواة)، ولا بد من أن يجاهد في سبيل استعادة ملك آبائه وملك قبيلته على بني أسد قتلة أبيه.ويبدو أن قتلة والد امرىء القيس خافوا هول العاقبة، فأرسلوا إليه وفداً للمفاوضة وعرضـــوا عليه احد ثلاثة خيارات:القصاص أو الفداء أو النظرة حتى تضع الحوامل، فتعقد الرايات وتكـــون الحرب فقال: (" لقد علمت العرب أن لا كفء لحجر في دم، وإني لن أعتاض به جملاً أو ناقة، فأكسب بذلك سبة الأبد، فنهضوا عنه") وقد عرفوا أنه طالبهم.وقال امرؤ القيس وهو متوجه إلى القسطنطينية ومعه رفيق لعله عمرو ابن قميئة:

أرى أم عمرو دمعُها قد تحدرا بكاءً على عمرو وما كان أصبرا[4]

إذا نحن سرنا خمسَ عشرة ليلةً وراء الحساء من مدافع قيصرا[5]

---

[4] -بكت أم عمرو لما فارقها ابنها هذه المرة مع أنها كانت تصبر على فراقه .

[5] -يعني أنه سار خمس عشرة ليلة حتى بلغ الأرض التي يسيطر عليها قيصر .مدافع : مساقط المياه من الجبال .

إذا قلتُ : هذا صاحبٌ قد رضيتُه   وقرت به العينان بُدلتُ آخرا
كذلك جدي : ما أصاحبُ صاحباً   من الناس إلا خانني وتغيرا

يصف وداع الأم لولدها في لحظات الفراق ودموعها الملتهبة، ويبين مدى أثرها الفعال في ثني الإرادة عن قرارها في أغلب الأحيان والتراجع، ويجد امرؤ القبس نفسه محرجاً بهذا الرفيق الذي تندبه أمه ولم يجد بداً من الطلب إلية بالعودة إلى أمه الباكية عليه، ويبين أنه لا بد من قهر الهموم والانتصار عليها بالإرادة القوية ولا يفيد سوى الصبر وطرد المخاوف في مثل هذه المواقف الحرجة:

فدع ذا وسل الهم عنك بجسرة   ذمولٍ إذا صام النهار وهجرا
عليها فتى لم تحملِ الأرضُ مثله   أبر بميثاق وأوفى واصبرا
تذكرتُ أهلي الصالحين وقد أتت   على حملي خُوصُ الركاب وأوجرا[6]
فلما بدت حورانُ والآل دونها   نظرتَ فلم تنظر بعينك منظراً[7]
تقَطعَ أسبابُ اللُبانة والهوى   عشيةَ جاوزنا حماةَ وشيزرا[8]
بكى صاحبي لما رأى الدربَ دونه   وأيقنَ أنا لا حقان بقيصرا[9]
فقلتُ له : لا تبكِ عينك إنما   نُحاول مُلكاً أو نموتَ فنعذرا

لا بـــد من طرد الأفكار السيئة من الرأس وإشغال الفكر بذكرى الأهل كي ترتاح النفس من عناء الشقاء والتعب، وهنا يقدم طريقة نفسية لعلاج الهموم بالتحول لموضوع أخر محبب للنفس كذكرى تطرد الوساوس، ويبتهج عندما قاده المسير إلى حوران وحماة وشيزر، وتنهمر الدموع بلحظات الفرج والســعادة بعـــد عـــناء طويل بتحقق الأمل والحلم. ويروى أنه خرج إلى قيصر القسطنطينية لطلب المســاعدة، فأكــرمه ورفع منزلته، وضم إليه جيشاً كثيفاً، ولما سار بالجيش اندس رجل إلى (جو ستنيان قيصر القسطنطينية) من بني أسد يقال له الطماح فقال له: (إن امرأ القيس غوي عاهر، وإنه لما انصرف عنك بالجيش ذكر أنه كان يراسل ابنتك ويواصلها وهو قائل في ذلك أشعاراً يشهرها بها في العرب، فيفضحها ويفضحك). فبعث إليه القيصر حينئذ بحلة مسمومة ومنسوجة بالذهب وقال له: إني أرسلت إليك بحلتي التي كنت ألبسها تكرمة لك، فإذا وصلت إليك فألبسها باليمن والبركة، فلما وصلت إليه لبسها واشتد سروره بها، فأسرع السم وسقط جلده، فلذلك سمي ذا القروح، وقال في ذلك:

---

[6] –خوص الركاب (النوق– الخيل) التي تسير في أشد ساعات النهار حراً .
[7] –الآل : السراب . حوران : جبل وسهل في بلاد الشام .
[8] –حماة وشيزر: بلدتان بين حمص وحلب شمالي الشام .
[9] – الدرب : ممر في جبال الامانوس بين بلاد الشام وبلاد الروم.

لقد طمح الطماح من بعد أرضه ليلبسني ممـــا يلبس أبؤسا

ومـمـــا يقـــال أيضـــاً أنه قد رأى قبر امرأة من أبناء الملوك ماتت هناك و دفنت في سفح جبل يقال له عســـيب، فســـأل عنها فأخبر بقصتها، وقد ازداد به الألم، فأوصى أن يدفن إلى جوارها، وأن يكتب القول التالي على قبره فقال:

أجارتنا إن المزارَ قريبُ وإني مقيمٌ ما أقام عسيبُ

أجارتنا إنا غريبانِ ها هنا وكل غريبٍ للغريب نسيبُ

يدرك نهاية مشوار الحياة الصعب، ويجد نفسه في أمر لا بد منه ويبين بروعة شدة قسوة الموت في بلاد الغـــربة بعيداً عن الأهل، وما أمرها من لحظات؟ فيجعل من جيران القبر أهل و نسبة، علّه يخفف من وطـــأة الألم وشـــدته على النفس.ثم مات فدفن إلى جنب تلك المرأة، فقبره هناك بالقرب من أنقره العاصـــمة التركية حاليا. ولعل أن أجمل مقياس للصور الناجحة هو القدرة على نقل الفكرة والعاطفة بأمانـــة ودقة. لله درك !! كم أنت رسام بارع ؟لقد نقلت صورة جوادك فوصفت الشكل والحركة والصوت!!:

وقد أغتدي والطير في وكناها بمنجردٍ قيد الأوابد هيكل

مكر مفر مقبلٍ مدبرٍ معاً كجلمود صخرٍ حطه السيل من علِ

كميتٍ يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتزل

نعم إنه وصف رائع لفرسه الأشقر، فقد صور سرعته تصويراً بديعاً، فجعله قيداً لأوابد الوحش، إذا انطلقت في الصحراء، فإنها لا تستطيع إفلاتا منه كأنه قيد يأخذ بأرجلها. وهو لشدة حركته وسرعته يخيل إليك كأنه يفر ويكر في الوقت نفسه وكأنه يقبل ويدبر في آن واحد، وكأنه جلمود صخر يهوي به السيل من ذروة جبل عال، وإن لبده لشدة حركته، ليسقط عنه ويتزلق كما تتزلق الصخرة من منحدر بعيد:

مسح إذا ما السابحات على الونى أثرن غباراً بالكديد المركل

على العقب جياش كأن اهتزامه إذا جاش فيه حميه إلى مرجل

يطير الغلام الخف عن صهوته ويلوى بأثواب العنيف المثقل

دريرٍ كخذروف الوليد أمره تقلب كفيه بخيط موصل

له أيطلا ظبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل[10]

ويبين امرؤ القيس حالة الجري لحصانه وهو يصب الجريَ صباً، ويسبق كل الخيل سبقاً، لا يثير غباراً

[10] -تتفل : ولد الثعلب

ولا نقعاً إنما ما إن يحركه راكبه حتى يغلي غليان القدر لا يني ولا يفتر، وإذا براكبه لا يستطيع الثبات عليه، وما أشبهه في سرعة انطلاقه بلعبة الخذروف الدوارة التي يلعب بها الصبيان، ويكمل وصفه لفرسه الضامر كأنه ظبي نافر، فله خاصرتاه النحيلتان، بل كأنه نعامة خفيفة فله ساقاها الضئيلتان الصلبتان، وهو يهوي في الأرض كأنه الذئب الفزع، ويقفز كأنه الثعلب الخائف:

كأن على الكتفين منه إذا انتحى مداك عروسٍ أو صراية حنظل

لم يترك الشاعر جانباً من الصورة إلا ووفاه حقه، فقد شبه صلابة الجواد وصلابة حافره بالصخر الجلمود وجعل الجلمود متدهوراً من فوق الجبل، لأن ذلك أسرع لوقوعه، هذه الصخرة ملساء يزل عنها الماء لنعومتها، وهو يريد ظهر الفرس وكأنها تسبح مثيرة وراءها الغبار بحوافرها القاسية لشدة وقعها، ثم يصف حركة الفرس السريعة حتى أن الغلام الخف يسقط عن ظهره، هذه الصور الدقيقة الواضحة كانت من أهم الأسباب التي جعلت امرأ القيس على رأس شعراء العصر الجاهلي. ويقال إن أول استعارة جاءت في الشعر الجاهلي كانت لامرؤ القيس في وصفه الليل ونتابع المسير إلى امرئ القيس في ذلك الليل الحزين والذي لا يرحب به الشاعر، بقدر ما ينتظر زواله وأفوله أملاً في انبلاج الصباح وإشراقته التي تخلصه من همومه وحالته النفسية الكئيبة مودعاً ديار الأحبة حيث يقول:

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلَ بسقطِ اللوى بين الدخُولِ فحَوملِ
فتوضِحَ فالمقراةِ لمن يعفُ رسْمُها لما نسجَتها من جنَوبٍ وشَمألِ

كم هو مؤلم الوقوف على أطلال الحبيبة ورؤية ما آلت إليه ديارها بعد أن هجرتها، وقد درست آثارها وعفت معالمها وأصبحت موطناً للحيوانات،و خيمت عليها الوحشة والرهبة،فتحركت مشاعر اللوعة وطلب من رفيقيه التوقف معه عن السير ليسترجع ما فات من ذكريات ، ويذرف الدمع حزنا على ما مضى وتخفيفاً مما يجد ، ووفاء بحق هذه الديار:

تـرَى بَعرَ الأرَامِ في عَرَصَاتِـها وَقيعانِـها كأنـهُ حَـبُّ فُلفُـل
كأنّي غَـداةُ البينِ يـومَ تحمَلـوا لَدى سَمُراتِ الحَـي ناقفُ حنظلِ
وُقُوفـاً بـها صحبي علي مطيِّهُم يَقُولـونَ لاتـهلك أسـىً وتَجمل

وعادت به الذاكرة إلى تلك اللحظة القاسية التي بدأت فيها أحزانه، وذلك حين رأى موكب الحبيبة في صباح مبكر يبدأ رحلة الفراق، وظل هو وحيداً بين شجيرات ذات أشواك وقد تملكه الحزن والألم وعلاه الهم والغم، وظهر عليه القلق والاضطراب، وأخذ الدمع ينهمر مدراراً من عينيه حتى بلل صدره ومحمله، والبكاء يشفي الإنسان أحياناً، فما يريقه من عبرات كأنما يغسل آثار الحزن من نفسه ولكن هل يجدي البكاء عند آثار بالية؟ وهل يرجع ما كان من أنس وبهجة؟:

وإن شِفائي عَبرةٌ مُهراقةٌ فَهل عندَ رسمٍ دارسٍ من مُعَوَّلِ
ففاضت دُموعُ العينِ مني صَبابةٌ على النحرِ حتى بلّ دمعيَ محملي

يقف على الأطلال الدارسة وتنهمر دمعة على ذاك الماضي الذي مضى بقرب الأحبة وها هي الأيام بسيرها السريع تغير معالم الديار فأصبحت خالية تجوب بها الريح، وينكفي الشاعر حزيناً باكياً وما فائدة الدموع غير المرارة والحسرة:

ألا رُب يومٍ لك منهن صالحٌ ولا سيما يومٍ بدارةِ جُلجُلِ
ويومَ عقرتُ للعذارى مَطيتي فيا عَجَباً من كَورها المُتحمَّلِ
فظلَّ العذارى يرتمينَ بلحمِها وشَحمٍ كَهُداب الدمقسِ المُفتَّلِ
ويومَ دخلت الخدرَ خدر عنيزةٍ فقالت : لك الويلات انك مُرجلي
تقول وقد مال الغبيط بنا معاً عقرت بعيري يا امرأ القيس فأنزل
فقلت لها : سيري وأرخي زِمامه ولا تُبعديني من جناكِ المعلل
أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

ويمضي في تذكر لحظات جميلة قضاها مع أحبته ، ويتذكر كيف عقر ناقته لحبيبته وللفتيات وكرمه لهن، وماذا تفيد الذكريات غير اجترار الآلام في مثل هذه الأحوال إنه النكوص للماضي:

وإن كنت قد ساءتك مني خليقة فسلي ثيابي من ثيابك تنسل
أغرك مني إن حبك قاتلي وأنك مهما تأمري القلب يفعل
وَأنكِ قَسَّمتِ الفُؤادَ فَنِصفُهُ قتيلٌ ونصفٌ في حَديدٍ مُكبلِ

ويرسم لوحة جميلة في منتهى الروعة والإتقان مبيناً أن حبه لها، قد تمكن منه مكاناً يؤدي به إلى الهلاك وهي عليمة بأنها أخذت نصف فؤاده وتركته بالنصف الآخر:

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلبٍ مُقتلِ
فقالت: يمينَ اللهِ مَالك حيلةٌ وما إن أرى عنك الغواية تنجلي

ويصور بصورة بارعة وفاء الحبيبة وتعلقها به وإن قلبه معلق بها، لكنه يغامر من أجلها بروحه، وما أخطر مغامرات أهل الهوى ! وكم من عاشق قاده شوقه إلى التهلكة !:

وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلي

تثير هذه الذكريات الهموم، وما اشد الهموم في الليل، وما أقسى الليل على المهموم، إنه يقض مضجعه ويطير النوم من عينيه، ويلفه ظلام حالك، ويأخذه في دوامة تقلبه هنا وهناك لا يعرف أين هو، ولا كيف يسير، ولا ماذا يفعل، ويلقي عليه بأحماله وأثقاله حتى ليكاد يزهق أنفاسه، ويطول كأنه لا

ينتهي، ويقف كأنه لا يتحرك، ويتمنى أن يسفر الصبح، ولكن ماذا يفيد الإصباح ذا القلب الحزين:

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف إعجازاً وناء بكلكل

يتصور امرؤ القيس الليل بسواده وهمومه كأنه أمواج لا تنتهي، ويحس كأنه طال وأسرف في الطول حتى ليظن كأن نجومه شدت بحبال وأمراسٍ من الجنادل والجبال، فهي لا تتحرك ولا تزول، كأنما سمرت في مكانها، فهي لا تجري ولا تسير:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح فيك بأمثل

فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل

كأن الثريا علقت في مصامها بأمراس كتانٍ إلى صم جندل

فالهموم منذ الصباح لا تزال، والحزن كما هو، فماذا يفعل؟ إنه لا حيلة له إلا أن يترك هذا المكان في أقرب وقت ممكن، وبأقصى سرعة، فينهض منتفضاً:

وبيضةِ خدرٍ لا يرامُ خباؤها تمتعتُ من لهوٍ بها غيرَ مُعجل

تجاوزتُ أحراساً إليها ومعشراً عليَّ حِراصاً لو يُسرُون مقتلي

يسبق الطيور قبل أن تغادر أماكن مبيتها، ويغدو ممتطياً صهوة جواده في رياضة ممتعة مصوراً حصانه بمنتهى الدقة. لله درك أيها الشاعر ! فلقد صدق الذين قالوا عنك: (لقد وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل في بيت واحد!)، ما أجمل هذا الوصف الرائع للهموم ؟وأنت تتجرع همها، فتقدم عملاً فنياً مشوقاً لحالة النفس في قلقها وضجرها فتحسب الليل وطوله وكأن نجومه قد شدت بأربطة إلى جبل يذبل(جبل يقع في شبه الجزيرة العربية) ولكن إذا ذهبنا بعيدا، نفتش عما وراء الصورة والإبداع النفسي الذي يعبر عن خلجات النفس البشرية بدقة وبأحسن تعبير من إيحاء وخيال نجد أن الشاعر لا يبغي المعنى الظاهري المباشر، إنما يريد تصوير الليل الطويل المكثف بالهموم ويشبه هموم ومخاوف وتوتر النفس وكأنها ليل كالبحر الهدار، وكالجمل الذي يتمطى بصلبه وينوء بكلله وهو يحمل الهموم المضنية ليلقي بها على صدر الشاعر، ويا له من ليل طويل، فالنجوم قد توقفت عن المسير وكأنها ربطت بحبال محكمة الفتل إلى صخور ضخمة ثابتة. كل هذه الصور تعكس ذلك التوتر النفسي الذي كان يطبق على الشاعر أثناء ليله الطويل.فهو يتمنى زوال الليل ويترقب مجيء النهار عله يحمل إليه من أمل مزهر أخضر. إن هذا البيان الذي يتضمن دعوة النفس للصبر وتحمل قسوة الحياة أليس علاجاً ناجعاً من خلال بيان بسيط وموجز؟ لعلنا نتعلم " أن في الحياة أموراً تجري وفق نظام دقيق وعلينا الصبر".وكتب لامرئ القيس أن لا تجري حياته على هذه الوتيرة من الفراغ الذي أراده في بداية حياته لاقتناص اللذات في إتباع المرأة واللهو بها والمتعة بركوب الخيل والصيد عليها، فحدث

فقـــد أبـــوه وانقلبت حياته من حياة لاهية إلى حياة جادة ومحاولة عاثرة في الأخذ بثأر أبيه وإرجاع سلطان كندة على بني أسد، وكأنه كان يحس بما ينتظره حين قال في مطولته (ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي):

كأني لم أركب جواداً للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

ولم أسبأ[11] الزق الروي ولم أقل لخيلي كري كرة بعد إجفال

وقـــد نظم امرؤ القيس هذه القصيدة في إبان الدورة الثانية من حياته ولم نر منه في هذه الدورة سوى الحـــزن والألم العميق، فهذا أبوه حجر يقتل وهؤلاء أعمامه يلقون المصير نفسه، ومن قبلهم قتل جده الحـــارث. وهـــو يســـعى في ســـبيل الأخذ بثأر أبيه، والمنذر بن ماء السماء يطلبه وتتحاماه القبائل والعشائر، وهو يتنقل فيما بينها يستغيث ولا مغيث. وربما لقي في أول الأمر شيئاً من العون، ولكن ذلك لم يستمر فقد ازوروا عنه، وهو يطلب من يجيره، وعين المنذر تتبعه، وسيف المنذر مسلط يلمع أمام عينيه.فكان طبيعياً أن يشكو الدهر وأن يتحدث عن مصيره في هذه القصيدة:

أرانا موضعين لأمرٍ غيبٍ ونسحر بالطعام والشراب

عصافير و ذبان ودودٌ وأجرأ من مجلحة الذئاب

وكلّ مكارم الأخلاق صارت إليه همتي و به اكتسابي

فبعض اللـــوم عاذلتي فإني ستكفيني التجارب وانتسابي

إلى عرق الثرى وشجت عروقي وهذا الموت يسلبني شبابي

لقد ضاع منه الماضي بكل أحلامه، وهو ينظر أمامه في الأفق البعيد بل القريب، فلا يرى إلا وادي العـــدم الذي يشد الناس إليه جميعاً رحالهم، وهم يتعللون عنه بالطعام والشراب وبالأحلام والأماني، وهـــو في انـــتظارهم، وهم جادون في المسير إليه. ويصغر الناسأمام حقيقة الفناء وتصغر أطماعهم في عيـــنه، ويـــراهم ضـــعافاً كالعصافير والذباب والدود، ومع ذلك يسقطون على أطماعهم كالذئاب الضارية، ويطلب إلى عاذلته أن تكف عن لومه لتركه اللهو، فإن التجارب غيرت شخصيته خلال ما مر به من أهوال الحياة:

ونفسي سوف يسلبها وجرمي فيلحقني وشيكا بالتراب

وأركب في اللهام[12] المجر حتى أنال مآكل القحم الرغاب

أبعد الحارث الملك بن عمرو وبعد الخير حُجرٍ ذي القباب[13]

---

[11] -أسبأ: أشتري ،الزق : دن الخمر

[12] -اللهام :الجيش الكثيف ،القحم :شدة الزحام ،الرغاب: الواسعة

أُرجى من صروف الدهر لينا و لم تغفل عن الصم الهضاب
و أُعلم أنني عما قليل سأُنشب في شبا ظفر وناب
كما لا قى أبي حجرٌ وجدي و لا أنسى قتيلا بالكلاب[14]

رحــل قطار العمر سريعاً ووجد أمرؤ القيس نفسه منهكاً وأدرك أن لحظات الزمان العابرة لن تعود. وهنا راح يتحسر في لوعة من غدر الزمان فها هو ينتسب، فلا يجد أمامه إلا موتى، وهو يترقب نفس الأجــل المحتوم، وكأنه شخص آخر سوى هذا الشخص الذي كان يركب الخيل وينضبها في الفلاة الواســعة، والذي كثيراً ما انتظم في جيوش أبيه الكثيفة، فلا يظفر إلا بالخيبة واليأس القاتل. وماذا يرجو بعد هذه الصخور الصلبة من أبائه ؟ وقد واراه التراب.إنه ينتظر المصير نفسه فالموت يفتح فاه، وأظفاره وأنيابه توشك أن تفترسه افتراساً كما افترست جده الحارث وأباه حجراً وعمه شرحبيل يوم موقعــة الكــلاب.وخلاصة القول إن امرأ القيس من أقدم الشعراء الذين وصلت أخبارهم تامة فهو شــاعر وجداني قدمه النقاد على معاصريه من شعراء الجاهلية وعلى جميع الشعراء الذين جاءوا بعده وحجتهم بأنه أول من وقف على الأطلال وأول من شبه النساء بالغزلان والخيل بالعقبان، وأول من وصــف الليل والخيل والصيد ثم هو واسع الخيال لتقلبه في النعيم ولكثرة أسفاره في البادية والحضر، واعتدلــت شخصيته النفسية بعد التجارب المؤلمة التي مر بها، فقد صفعته الحياة بوجه قاس بعد لهوه وعرف أن اللهو لا يدوم وقد تكون المصائب درساً تعيد للنفوس اللاهية إلى رشدها ووعيها. فالسلوك الســوي ثمرة التربية الأسرية المتواصلة، وامرؤ القيس لم ينل هذه العناية، بل كان لاهياً منصرفاً وراء ملذاتــه، ولعلــه أصبح من هؤلاء الناس الذين أدركوا جدية الحياة بكل معنى الكلمة. وربما يصدق القــول التالي عليه:وستعلم يا ولدي بعد رحيل العمر، أنك تطارد خيط دخان، وجزى الله خيراً قائل الحكمة التي تقول:

(لا يصلح العطار ما أفسد الدهر، واصبر لكل مصيبة وتجلد، واعلم بأن الدهر غير مُخلِد).

[13] -القباب : الخيام الكبيرة

[14] -قتيل موقعة الكلاب هو عمه شرحبيل

حاتم الطائي

يروى:

(أنـــه لما أتي بسبايا(طيء) إلى الرسول الكريم صلوات الله عليه وسلامه، وقفت جاريـــة، ثـــم قالـــت: يا محمد(تخاطب النبي) أن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب، فأني ابنة سيد قومي، وأن أبي كان يفك العاني(الأسير) ويشبع الجائع، ويكســو العاري، ولم يرد طالب حاجة قط.أنا ابنة حاتم الطائي.فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا جارية هذه صفة المؤمن، ولو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه. خلو عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق. أنها أصدق شهادة من أنبل إنسان صلوات الله عليه تقال في حق حاتم الطائي الذي لا يعُرف له تاريخ ولادة ويروى أنه توفي سنة**578**م. يضع نصـــب عينـــيه شـــعار للكـــرم يطرحه ويلتزم به قولاً وعملاً، فنال وساماً تحمله الأجيال ما دامت الحـــياة.ســـلوك سوي بكل المقايس والأبعاد النفسية، سواء من كرم، أم إنسانية، أم أخلاق عالية، يضحي لأجل الآخرين، إنه يمثل أنموذجاً للشخصية السوية المتوازنة أنه مثال يحتذى به للعيش كي يعم السلام والأمان على الجميع.إنه حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي: عفيف من طيء، وورث الكرم إلى حـــد الإسراف من والداته التي كانت غنية وكريمة أما والده فكان ممسكاً بعض الإمساك، وقد تزوج مرتين وكانت زوجته نوار تلومه على كرمه ثم تزوج ماوية بنت عفزر من بنات ملوك اليمن وكانت تحب الكرم والكرماء.وقال حاتم يبدي رأيه في المال وفي الفقر والغنى:

أماويُّ قد طالَ التجنبُ والهجرُ وقـــد عذرتني مـــن طِلابكمُ العـــذرُ

أماويّ إن المال غادٍ ورائحٍ ويبقى من المال الأحاديثُ والذكرُ

أماويّ إني لا أقولُ لسائلٍ إذا جاء يوماً : حل في مالنا نزرُ[15]

أمـــاويُّ إمـــا مانـــعٌ فَمبيَّـــنٌ وإمـــا عَطـــاءٌ لا يُنهنهـــهُ الزجـــرُ

هـــا هو حاتم يعلم الأجيال درساً في القيم الإنسانية بحديثة لزوجته والتي ترجو منه الإقلاع عن كرمه وسط صحراء مقفرة خشية الفقر، ويرد عليها معلم القيم وسيد الكرم:أيتها الزوجة الطيبة كل ما في هـــذا العـــالم إلى زوال، دعينا نحمد الله على ما أنعم علينا من بركاته وعطائه، ولننفق في سبيله، ففي أموالـــنا حقوق للفقراء، وعلينا أن ندرك فضل الله علينا وما دام الله منعماً علينا لماذا نخاف ونقلق ! دعيني انفق مالي للسائلين، ولنقدم أفضل ما عندنا وما نملك، بوركت يا حاتم وجزاك الله خيراً يا من صنت القيم وبذلت في سبيلها كل ما بوسعك:

أماويّ ما يُغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت نفسٌ وضاق بها الصدر[16]

---

[15] –نزر: قلة

إذا أنا دَلاني الذين أُحبُّهم لملحودة زُلجٌ جوانُبها غُبرُ
وراحوا عِجالاً ينفُضون أكفُهمُ يقولونَ قد دمى أناملنا الحَفرُ
أماوي إن يُصبح صداي بقفرةٍ من الأرض لا ماءٌ هناكَ ولا خمر
تَرَي أن ما أهلَكت لم يكُ ضرني وأن يدي مما بخلتُ به صفر

ويمضي مبيناً ماذا يفيد الغنى عندما تأتي الفرد سكرات الموت، فهل تدفع عنه الموت؟ دعيني أموت فقيراً وعندما يهال التراب عليّ ويتركني الناس في حفرتي وحيداً، سيترحم ويحزن الناس بصدق عليَّ، فما رأيت غنياً بخيلاً يسلم من ألسنة الناس وما أنفقه لا يقودني إلى الموت أبدا وما مات فقير إلا بقدر من الله فالآجال محتومة ومقدره:

أماوي إني رُبَّ واحدِ أُمِّه أجَرتُ فلا قَتلٌ عَليه ولا أسرُ
وإنِّيَ لا آلو بمالٍ صَنيعَة فأولُهُ زادٌ وآخِرهُ ذُخرُ
كسينا صُروفَ الدَهرِ ليناً وغلظةً وَكُلاًّ سَقاناهُ بكأسيهما الدهرُ
فما زادنا بأواً على ذي قرابةٍ غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقرُ

ما سر هذا الذكر الحسن الذي تتناقل الأيام خبره وتتداوله الأقوام؟ نعم جدير بالفرد أن يقف في محطة الكرم والجود. هاهو صاحب الشهرة التي ملأت الآفاق أخباره، يطلب من زوجته أن تكف عن اللوم في إقراء الضيف وإغاثة السائل، ويبين لها بنفس متبصرة مدركة وواعية أن كل ما في هذا العالم إلى زوال، فلماذا نمسك الرحمة عن الآخرين؟ أما يحسب الإنسان أن لحظات العمر قليلة؟ ولا بد من الرحيل عن هذه الدنيا ! لماذا التقتير على النفس؟ أليس حاتم مثالاً تتعلم منه الأجيال دروس الكرم والعطاء والتضحية ؟أليس الخالق عز وجل يمدح الذين يضحون من أجل الآخرين قال تعالى:(ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة..)ألا تذكرنا هذه بقصة علي ابن طالب وزوجته فاطمة البتول رضوان الله عليهما عندما طرق سائل باب البيت وقدما له الزاد وبقيا بدون طعام وهم في وقت الإفطار وبأمس الحاجة للطعام.

وقد علم الأقوامَ لو أن حاتماً أراد ثراء المال كان له وفر
عنُينا زماناً بالتصعلك والغنى كما الدهر في أيامه العسُر واليسر
وما ضر جاراً يا ابنة القوم فاعلمي يجاورني ألا يكون له ستر
بعيني عن جاراتِ قومي غفلةٌ وفي السمع مني عن حديثهم وقر

[16] حشرجت النفس:قرب خروجها .

ويمضـــي حـــاتم موضحاً آداب احترام الأهل والجيران، وكيف يغض بصره وكذلك سمعه أثناء مرور جارته، وفي الوقت نفسه يبين أن مسار الحياة فيه اليسر وفيه العسر، لكن بتعاون وتعاضد بني البشر تزول الصعوبات، ويشير أن غناء الفرد وثروته الطائلة وفقره المدقع قد لا يعطيانه لا الذل، ولا العز، ولكن الأخلاق والقيم الإنسانية هي نسب الفرد وغناه وفقره، ويقول حاتم في آداب، وقواعد الكرم على ناقته:

وما أنا بالساعي بفضل زمامها لتشربَ ماء الحوض قبل الركائب

وما أنا بالطاوي حقيبةَ رحلها لأبعثها خفاً وأتركَ صاحبي

إذا كنتَ رباً للقلوص فلا تدع رفيقك يمشي خلفها غير راكب

أنخها فأردفه فإن حملتكُما فذاك وإن كان العقاب فعاقب

يـبين حاتم الطائي أسس المعاملة الإنسانية وكيف يجب إن تكون من خلال قوله وتطبيقه الفعلي لهذا السلوك فهو يتأخر عن القوم أثناء الورود لشرب الماء كي يفسح المجال للأخرين، ويبين أنه من العار أن تركب وتدع رفيقك يمشي متعباً.ومن أقوله في مشاركة الناس طعامه:

أيا ابنةَ عبدِ الله وابنةَ مالكٍ ويا ابنة ذي البُردينِ والفرس الورد[17]

إذا ما صنعتِ الزاد فالتمسي لهُ أكيلاً فاني لستِ آكلهُ وحدي

أخاً طارقاً أو جارَ بيتٍ فإنني أخاف مذمات الأحاديثِ من بعدي

واني لعبدُ الضيف ما دام ثاوياً وما فيّ إلا تلك من شيمة العبدِ

ويطالـــب زوجته بأن تلتمس من يتناول الطعام معه فهو لا يستطيع تناول الزاد وينعم به وقد يكون هناك من بحاجة إلى الزاد، أية أخلاق هذه ! وأي سلوك إنساني هذا؟ رقد قال:

هل الدهر إلا اليومُ أو أمسِ أو غدُ كـــذاكَ الزمـــانُ بينَـــنا يترددُ

يَرُدُّ علينــــا لَيلَـــةٌ بَعــدَ يومهـــا فلا نَحنُ ما نَبقى ولا الدهرُ يَنفُدُ

لنا أَجَـــلٌ إمَـــا تَناهــى إمــامُـــهُ فَنحـــنُ علـــى آثـــارهِ نَتَـــوردُ

فملاً فِداكَ اليومَ أُمي وخالتـــي فـــلا يأمُرنـــي بالدنيـــةِ أســـود

ويوضح بجلاء أن أيام الدهر تجري بسرعة، ويزول مع أيامه المحسن والمسيء، فلماذا لا يفعل الإنسان الخـــير؟ ويـــا للغـــرابة أن نعم الله لا تنفد ولا تحصى على الإنسان ! فلماذا يخاف الناس من نفادها !،ويوصي بالابتعاد عن المعاصي لأنها سبب البلاء والشقاء:

[17] –البردين : الثوبين . الورد : الأحمر (كناية عن الغنى والشجاعة)

فأقسمت لا أمشي إلى سر جارة ... مدى الدهر ما دام الحمامُ يغردُ
ولا أشتري مالاً بغدرٍ علمتهُ ... ألا كُل مالٍ خالطَ الغدرُ أنكد
إذا كان بعضُ المال رَبّاً لأهله ... فاني بحمدِ الله مالي مُعَبدُ
يُفكّ به العاني ويُؤكَلُ طيباً ... ويعُطى إذا من البخيل المُطرد
إذا ما البخيلُ الخبّ أخمد نارهُ ... أقول لمن يَصلى بناريَ : أوقدوا

ويصوغ حاتم قواعد السلوك الإنساني في الحفاظ على الجار، وحماية حرمة الجيرة وصيانتها، ويشير لماذا المال موجود ؟ أليس لجعل حياة الناس أفضل ويعيب حاتم على المرابين ومدخري الأموال، وما المال وجد إلا لإغاثة الملهوف ومساعدة الفقراء، فالبخل من أشد العيوب قبحاً، ويطلب من خدمه أن يوقدوا النار كي يهتدي إليها عابرو السبيل وغيرهم من مرتادي طرق السفر من أجل إكرامهم، بينما البخلاء يطفئون الرحمة في قلوبهم، ألا فتعساً لهم:

توسع قليلاً أو يكُن ثم حَسبنُا ... وَموقِدُها الباري أعفُّ وأَحمَدُ
كذاكَ أُمورُ الناسِ راضٍ دَنيةً ... وَسامٍ إلى فَرعِ العُلا مُتَوردُ

ويقف حاتم من لوم زوجته موقفاً نبيلاً بحيث يعلمها قيم الحياة ومنهجها السليم:

مهلاً نوارُ أقلي اللومَ والعذلا ... ولا تقولي لشيءٍ فاتَ ما فَعَلا
ولا تقولي لمالٍ كُنتُ مُهلكَه ... مَهلاً وإن كُنتُ أعطي الجنَّ والخبلا
يَرى البَخيلُ سَبيلَ المالِ واحِدَةً ... إن الجَوادَ يرى في مالِه سُبُلا
فاصدُق حديثكَ إن المَرءِ يتبعُهُ ... ما كان يَبني إذا ما نَعشُهُ حُمِلا
ليتَ البَخيلَ يَراهُ الناسُ كُلهُمُ ... كمَا يَراهُم فَلا يُقرى إذا نَزلا
لا تَعذِليني عَلى مالٍ وصَلتُ به ... رَحماً وَخَيرُ سَبيلِ المالِ ما وصَلا
يَسعى الفتى وَحِمامُ الموتِ يُدرِكُهُ ... وكُلُّ يومٍ يُدنِي للفَتى الأجَلا

ويمضي حاتم معاتباً زوجته بأن تكف عن اللوم في إنفاقه المال، فيبين لها أن سعادته تكمن في إنفاقه ماله في طريق الخير والإحسان. بوركت يا حاتم فلقد نلت وسام الكرم الذي لم ينله أحد قبلك ، ويمضي الطلب من زوجته ترك اللوم مفنداً أوهامها ومخاوفها فيقول:

وعاذلةٍ هبت بليلٍ تلومُني ... وقد غابَ عيوقُ الثُريا فعرَّدا
تلومُ على إعطائي المالَ ضلةً ... إذا ضَنَّ بالمالِ البخيلُ وَ صَرَدا
تقولُ ألا أمسك عليك فإنَّني ... أرى المال عند الممسكين معبدا
ذريني وحالي إنّ مالكِ وافرٌ ... وكلُّ امرىء جار على ما تعوَّدا

أعـــاذل لا آلـــوك إلاّ خليقتي   فلا تجعلي فوقي لسانـــك مبـــردا

ذريني يكُن مالي لعرضـــي جُنَّـــةً   يقي المالُ عرضي قبل أن يتبـــدَّدا

أريني جواداً مات هـــزلاً لعلّنـــي   أرى ما ترين أو بخيلاً مخلّـــدا

ويسخر من اللوم الذي تجيده زوجته في مواقف كهذه، وحرصها وخوفها متعجباً أنه ما مات كريم من الفقر!!:

و إلاّ فكُفّي بعض لومك و اجعلي   إلى رأي من تلحين رأيك مسنـــدا

ألم تعلمي أني إذا الضيفُ نابنـــي   وعزَّ القرى أقري السديف المسرهدا

يقولون لي أهلكت مالك فاقتصد   وما كنتُ لولا ما تقولون سيِّـــدا

كلوا الآن من رزق الإله و أيسروا   فإنّ على الرحمن رزقكـــم غـــدا

ويطلب منها أن تكف عن لومه فيقول حسبنا الرحمن خير رازقاً:

وأنّي لأستَحيِي صِحابِي أن يَـــروا   مكانَ يدي في جانبِ الزادِ أقرَعـــا

أُقَصِرُ كَفّـــي أن تَنـــالَ أكُفّهـــم   إذا نحنُ أهوَينـــا وحاجاتُنـــا معَـــا

وإنكَ مهما تُعطِ بَطنـــكَ سُـــؤلَهُ   وفَرجَكَ نالا مُنتهـــى الـــذمِّ أجْمَعـــا

أبيتُ خَميصَ البطنِ مُضطَمِرَ الحشى   حَياءً أخـــافَ الـــذَمَّ أن أَتَضلعـــا

ويشير إلى آداب تناول الطعام وكيفية احترام الضيف وما هي أصول التعامل والحديث معه فيضع يده قـــرب الطعام متظاهراً أنه يأكل كي يشجع ضيفه لله درك أيها النبيل الكريم الجواد وكم نحن بحاجة لمعلمين أمثالك في ثنايا هذه الحياة.ويقول حاتم عن مكارم النفس:

أما والذي لا يَعلـــمُ الغيبَ غَيـــرُهُ   وَيحيّ العظامَ البيضَ وهـــيَ رميـــمُ

لقد كُنتُ أطوي البطنَ والزادُ يُشتهى   مخـــافَـــةَ يومـــاً أن يُقـــالَ لئيـــمُ

وما كانَ بي مـــا كانَ والليلُ مِلبَـــسٌ   رِواقٌ لـــهُ فَـــوقَ الإكـــامِ بَهيـــمُ

أَلُفٌّ بِحِلسي الزادَ مـــن دونِ صُحبتِي   وقـــد آبَ نَجـــمٌ واستَقَـــلَّ نُجـــومُ

هذه الأخلاق النبيلة تنم عن شخصية متوازنة تجيد فهم مالها وما عليها إنه يضحي بنفسه لأجل إسعاد الآخرين يعلم الناس الصبر على المكاره وحسن التصرف والمعاملة وآداب الطعام مع الآخرين.

إنـــه مـــثال الشخصية السوية بكل صفاتها وسماتها وحركاتها وأقوالها.إن المتتبع لشخصية حاتم الطائي يـــلمس فيها الوفاء والصدق والإيثار والتضحية إنه مدرسة الأخلاق وخريج جامعة الصحراء العربية والتي أنتجت رجالاً عظاماً.وكم يكون الإنسان جميلاً عندما يزهد في الدنيا فيحبه الله، وكذلك عندما يزهد فيما عند الناس فيحبونه.

قال الإمام علي رضي الله عنه:
(إذا سألت كريماً حاجة فدعه يفكر، فإنه لا يفكر إلا في خير، وإذا سألت لئيماً حاجة فعاجله فإنه إن فكر عاد إلى طبعه).
وعن أبي بكر رضي الله عنه:(صنائع المعروف تقي مصارع السوء).

زهير بن أبي سلمى

مما يروى أنه:

(ضل أحد الأعراب في صحراء، وحين أوشك أن يهلك جوعاً وعطشاً عثر على كيس من الجلد، وكم راعه أن يجده مملوءاً ذهباً وهاجاً، وهو الذي لم يقع طوال عمره على قطعة منه، وحين تأمله في غيظ قذف به الأرض وهو يقول:ليت لي بكل دينار تمرة. بل ليت لي به جميعاً جرعة ماء بارد....).

كان الشعر خبز العرب اليومي يجري على ألسنتهم بسهولة تامة، فلم يتركوا شيئاً مما وقعت عليه أعينهم أو سمعته آذانهم أو اعتقدوه في أنفسهم إلا نظموه شعراً جميلاً، ولا يخفى أن المنظوم من كل شيء أجمل وآنق من المنثور وهو أسهل على الحفظ وأدوم على البقاء، ومعلوم أن أمة العرب يسحرها البيان وتروعها البلاغة ويستبد بإعجابها الشعر الجيد البليغ.وكان لا بد لكل قبيلة من شاعر يذود عنها وينازل خصومها ويناضل عن شرفها، ومن مظاهر تقديرهم للشعر إذا نبغ شاعر في قبيلة أتت القبائل المجاورة وهنأتهم، فوضعت المآدب واجتمع النساء يلعبن المزاهر كما يصنعن في الأعراس.

الشاعر الحكيم زهير بن أبي سلمى الذي يصعب تحديد زمان ولادته، لكن اتفق الرواة على أنه توفي سنة 609م،نظر إلى الحياة نظرة واقعية، فعرف أخلاق الناس بحكمته وسعة صدره وما يخالجهم من نوازع، كونه عاشر الناس وعايشهم في الخير والشر فذاق من أذاهم ما آلم نفسه، فراح يقول حكمه بأسلوب وعظي ملموس ويضرب الأمثلة الحسية والبراهين المادية:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا أبالكَ يسأم

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

عفوا أيها الحكيم مالك تسأم الحياة وتتمنى الموت، فيجيب بكل ثقةٍ لا ينفع الحذر من القدر، فكل شيء إلى أجل مسمى، ولا يطرق الموت باب أحد إلا بموعده المحتوم:

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

واعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غدٍ عم

ويوصي محذرا بني البشر أن كتمان الأمور والحقائق والخوف عليها لا يحميها من الانكشاف والظهور ولا بد من جلائها ذات يوم، وقد نخاف من المستقبل ونرغب معرفته، وأحمق كل من يدعي معرفة المستقبل، ومن الأجدر أن نعيش اليوم بحلاوته ومرارته، فالخالق الذي أعان على هذا اليوم يمكننا من مواجهة صعوبات الغد:

ومن لا يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم

ويطلب من الإنسان أن يكون متسامحاً وعليه أن لا يدقق بصغائر الأمور إلى حد الإفراط ولاسيما في معاملة الناس، بل ومن واجب الإنسان أن يمد يد العون والمساعدة للآخرين، ويؤكد أن من لا يساعد الناس سوف يتولون عنه بالذم والقدح:

ومن يجعل المعروف من دون عرضه   يفره ومن لا يتق الشتم يشتم

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه   يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه   ولو نال أسباب السماء بسلم

ما هذه النظرة الثاقبة للحياة أيها الحكيم ؟أنك تنظر للحياة نظرة تأمل وعبرة فوجدت الموت نصيب كـــل إنســـان، فإذا لم يصبه اليوم فسيناله غداً وإن أخطأ، ومن يعش دهراً فسوف يهرم حتى يدركه الموت.والفرد في نظرك مجبر في حياته أن يعاشر الناس ويصانعهم محابياً مدارياً، وألا فسوف ينال الظلم والإذلال، ومـــا أجمل نصيحتك للناس عندما تنظر إلى المال، فتبين أن لا خير فيه إذا لم ينفق في صالح الغير، ويبذل بنفس كريمة سخية بعيدة عن الأنانية ومعاني الحياة الرخيصة، والمال يجب أن يبذل دون الشرف، والأجمل رأيه في الضعيف في مجتمع القوة بأنه لا خير فيه، إن لم يقو في حياته سحقه الأقوياء، وكذلك أمر الجبان الذي يفر من المنية خائفاً، وهو لا يعلم أنه لا بد له من النهاية مهما تفنن في سبل الوقاية حتى لو ارتقى سلماً إلى السماء؟. عفوا أيها الحكيم أنت: العالم بأمور الناس فماذا تقول بعد أن اختبرت أخلاقهم ودخائل نفوسهم ؟ فتنهد ثم راح يقول:

ومن يغترب يحسب عدواً صديقه   ومن لا يكرِّم نفسه لا يكرَّم

بوركـــت أيها الشاعر الطيب في هذه النصائح التي لا غنى للفرد عنها، وأن خير فضيلة هي أن يكرم الفـــرد نفسه بإبعادها عن الأخطاء والدنايا وسط مجتمع لا يرحم، وهنا تبرز البيئة الجاهلية وظروف حـــياتها النفسية القاسية كواقع لا مفر منه، فلقد فرضت من طاعة القبيلة طاعة عمياء، وهو لا ريب مبدأ ظالم سارت عليه الغالبية العظمى من الناس.ووسط ذلك الظلام لا نعدم وجود خيوط من نور، وشـــعاع من الحق آمنت به قلة من أصحاب العقول الراجحة والآراء السديدة، هؤلاء كرهوا الظلم ومساندة الظالم ونفروا من الحرب وويلاتها، من هؤلاء زهير بن أبي سلمى والنابغة الذبياني. قام زهير بدور مهم في بناء حياة قبيلته، فأسدى نصائحه لبني قومه من أجل تجنب ويلات الحرب، ودافع عنهم وافـــتخر بأمجـــادهم، كونهـــم كـــرماء يســـاعدون الفقـــراء وذوي الحاجات، ويمدون يد العون للمحتاجين.وهذا العمل في نظره لا يقل بطولة عن بطولات المعارك.لذلك ظل زهير يبتدىء ويعيد في مدح هرم بن سنان، لأنه تحمل ديات قومه مع حصن بن حذيفة الفزاري، وتداركا قبيلتهما قبل الفناء وقال في ذلك:

قد جعل المبتغون الخير في هرم والسائلون إلى أبوابه طرقاً
إن تلق يوماً على علاته هرماً تلق السماحة منه والندى خلقا
وليس مانع ذي قربى وذي رحم يوماً ولا معدما من خابط ورقا
ليث بعثر يصطاد الرجال إذا ما الليث كذب عن أقرانه صدقا
لو نال حي من الدنيا بمكرمة أفق السماء لنالت كفه الأفقا

يحمل هموم الإنسانية بين خافقيه، يريد السلام للجميع، لكن العادات والتقاليد تترك بصماتها على عقول الناس، وللأسف يصحبون أسرى لها، هذا ما أخاف الحكيم ودفعه للذود عن القيم، فاستحق رجل السلام في صحراء قاحلة أن ينال وسام السلام مدى الحياة. وظل زهير يدبج مدائحه في هرم بن سنان ،ولعل أروعها داليته والتي يقول فيها مصوراً كرمه وشجاعته وفصاحته وسبقه إلى المآثر المحمودة:

سواء عليه أي حين أتيته أساعة نحس تتقى أم بأسعد
إذا ابتدرت قيس بن عيلان غاية من المجد من يسبق إليها يسود
فلو كان حمدٌ يخلدُ الناس لم تمت ولكن حمد الناس ليس بمخلد

إنه هرم الطيب يعطي الناس في السعة وفي القلة، ويدفع عن قومه بلسانه وبيده وسلاحه، وإذا تسابق الناس إلى غاية، كان بلا شك هو الفائز من الجميع، ولو أن حمداً يخلد به مستحقه لكان هرم أول خالد لكثرة مناقبه ومكارمه.فهو لكرمه الفياض يسعى الناس إليه من كل حدب وصوب، ويسلكون إلى أبوابه كل طريق فيجزل لهم في العطاء، حتى حين تضيق يده يجود بما يملك، فهو إلى جوار جمعه الكرم المفرط لديه، فهو يتصف بالشجاعة المفرطة حتى ليتفوق على الليث في جرأته وطلبه لفريسته، إنه يطعن الطعنات النجلاء، وما ينفك عن ذلك حتى تنحسر غمرة الحرب، فإذا كان السلم رأيته وسط الندى يبهرك بكلامه الطيب كما يبهرك بيده وسلاحه وطعانه ونزاله. ويتابع زهير في شعره طويلاً عن حروب داحس والغبراء مشيداً بهرم بن سنان والحارث بن عوف سيدي بني مرة، اللذين حقنا دماء عبس وذبيان بعد أن طال عليهما الأمد في تلك الحروب، إذ تحملا ديات القتلى، ويقال إنها كانت ثلاثة آلاف بعير أدياها في ثلاث سنين:

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم
يميناً لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم[18]

[18] -السحيل :غير المبرم،يريد أنهما خير عشيرتهما في كل أمر أبرماه.

تداركتما عبساً وذبيان بعد ما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم[19]

وقد قلتما إن ندرك السلم واسعاً بمالٍ ومعروفٍ مـن الأمر نسلم

فأصبحتما منها على خير موطنٍ بعيدين فيها من عقـوق ومأثم[20]

عظيمين في عليا معد وغيرها ومن يستبح كنزاً من المجد يعظم

هـذه الأخلاق العالية لزهير جعلته يشيد بالسلم والسلام، فكان بذلك خارجاً على ذوق الجاهليين وأشـعارهم التي تدوي بفكرة الأخذ بالثأر والترامي على الحرب، ترامي الفراش على النار وها هو يصور الحرب في صور بشعة، ووجه الكلام إلى الأحلاف المتحاربين قائلاً: هل أقسمتم أن تفعلوا مالا ينبغي ولا يحمد عقباه؟ لا تظهروا الصلح، وفي نيتكم الغدر، لأن الله سيدخره لكم، ويحاسبكم عليه، إن عـاجلاً أو آجـلاً وليست الحرب إلا ما علمتوها وكما تعرفوها عن خبرة وتجربة، فقد ذقتموها واكتويـتم بنارها، فإذا أثرتموها تأججت وطحنتكم طحن الرحا، ولن تخلف لكم إلا المحن والمصائب والآلام:

ألا أبلغ الأحلاف عـني رسـالة وذبيان هل أقسمتم كل مقسم

فلا تكتمن الله ما في صدوركـم ليخفى ومهما يكتـم الله يعلم

يؤخر فيوضع فـي كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجـل فينقم

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم[21]

متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً وتضر إذا أضريتموها فتضرم

فتعرككم عرك الرحى بثفالها وتلقح كشافاً ثم تحمل فتتئم[22]

فتغلل لكم مـا لا تغـل لأهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم

فتنتج لكم غلمان أشأم ، كلهم كأحمر عادٍ ثم ترضع فتفطم[23]

فنان بارع يصور الحرب في صور مخيفة قبيحة، فهي تارة أُسد ضارية، وتارة نار مشتعلة، وتارة رحى تطحـن الـناس، وتـارة تلد ولكنها لا تلد إلا زراري شؤم. يقف الإنسان إزاء شخصية ممتازة من شخصـيات الشـعر الجاهلي فيها بر ورحمة، وفيها نزعة قوية إلى الخير، فهو يصف سيدي بني مرة

---

[19] -منشم:امرأة عطارة كانت في مكة ،غمس قوم أيديهم في عطرها وتعاهدوا على الحرب حتى فنوا عن آخرهم .فهو يشبه قبيلتي عبس وذبيان بهم.

[20] -يريد أنهما لم يشتركا في تلك الحروب،فهما يوديان،عن غيرهما الديات .

[21] -المرجم : المظنون ، تبعثوها : يهيجوها ، تضرم : تشتعل

[22] -تعرككم: تطحنكم ،الثفال : الجلد الموضوع تحت الرحى ، تتئم :تلد توءما

[23] -أشأم :مشئوم ، وأحمر عاد : أراد أحمر ثمود وهو قدار عاقر الناقة ،وكان شؤماً لقومه .

وعشيرهما بالشجاعة ونجدة ممن يستغيث بهم، حتى ليكادون يطيرون إليه طيراناً بسوابقهم وخيلهم وكأنهم جان، فيقول:

إذا السنة الشهباء بالناس أجحفت ... ونال كرام المال في الحجرة الأكل[24]

رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم ... قطيناً بها حتى إذا نبت البقل[25]

وفيهم مقامات حسان وجوههم ... وأندية ينتابها القول و الفعل

على مكثريهم رزق من يعتريهم ... وعند المقلين السماحة والبذل

وإن جئتهم ألفيت حول بيوتهم ... مجالس قد يشفى بأحلامها الجهل

وإن قام فيهم حاملٌ قال قاعد ... رشدت ؛ فلا غُرمٌ عليك و لا خذل

وما يك من خير أتوه فإنما ... توارثه آباءُ آبائهم قبل

وهل ينبت الخطى إلا وشيجهُ ... وتُغرسُ إلا في منابتها النخل

ويستمر في مديحه هم بالكرم في أحلك السنين المجدبة، حتى إن الناس ليرحلون إليهم ويقطنون حول خيامهم، وكلما سألوهم شيئاً وهبوه لهم، وهم في أثناء ذلك يقامرون بخير إبلهم حتى يطعموها للسائلين والمحاجين، وأشاد بمجالسهم وبأنهم عقلاء حكماء ويشفون بآرائهم الصائبة جهل الجهلاء، وذكر فضل آبائهم وأحسابهم، فقال إنهم ورثة مجد قديم توارثه الأبناء عن الآباء، وساق دليلاً على ذكاء الفروع بذكاء الأصول من الرماح والنخيل، فلا يولد الكريم إلا في البيت الكريم. ثم قال إنما نريد الصلح بين قوم كثيري العدد، إذا ائتمروا أمراً كان عصمة للناس وهم كرام أقوياء، لا ينال الموتور وتره منهم، ولا يسلم من ارتكب في حقهم جريمة، ويبين زهير لهم بأنهم قد جربوا إن تركوا الحرب مرة، ثم رجعوا وحاربوا، حيث دبت المنايا فيهم، وكانت العاقبة وخيمة، وإذا جنى أحدهم جناية يجر إليهم ما لا ينبغي عقباه من ويلات، وخاصة إذ أضمر في نفسه فعلة السوء، فلم يظهرها، ولم يترك تنفيذها، وفعل ما أراد، لا لقصد إثارة العامّة ولكن للأخذ بالثأر، ويمضي زهير في تقدير رجال السلام والمواقف بأنهم عظماء القوم فهؤلاء الذين يستحقون أحسن الثناء وأعظم التقدير:

لحى حلال يعصم الناس أمرهم ... إذا طرقت إحدى الليالي بمعظم

كرام فلا ذو الضغن يدرك تبله ... ولا الجارم الجاني عليهم بمسلم

رعوا ما رعوا من ظمئهم ثم أوردوا ... غماراً تفرى بالسلاح وبالدم

فقضوا منايا بينهم ثم أصدروا ... إلى كلٍّ مستوبل متوخم

---

24 -السنة الشهباء: المجدبة ،الحجرة: السنة شديدة البرد.

25 -قطيناً : ساكنين

لعمري لنعم الحي جــر عليهم   بنا لا يواتيهم حصين بن ضمضم

فشد ولــم ينظر بيــوتا كثيرة   لدى حيث ألقت رحلها أم قشعم

ثم أراد أن يــتم المشروع بنجاح عظيم، وينفذ تنفيذا صحيحاً كاملاً عن رضا تام واقتناع حقيقي من جميع الأطراف، فساق لهم حكماً تساعد في تخطي العقبات منها: أن من يرفض الصلح فسوف يكتوى بــنار الحــرب الضروس، والموفون بالعهود محمودون ومكرمون، وليهنأ الميالون للخير بالأمن هؤلاء الذين يحبون السلام، وأن الحذر لا ينجي من القدر، والبخيل بالفضل على أهله منبوذ ومذموم، ومهين نفســه مهــان، ولا عز للمرء إلا بقومه، والضعيف مأكول، والقوي مهاب، وتارك المجاملة للناس في أكــثر الأمور يصاب بما يكره، وصانع المعروف حفاظاً على الشرف مصون العرض.محفوظ الكرامة، والجزاء من جنس العمل:

ومــن يعص أطراف الزجاج فإنه   يطيع العوالي ركبت كــل لهذم

ومن يوف لا يذمم ومن يفض قلبه   إلى مطمئن الــبر لا يتجمجم

مــا أجمل هذا البيان الذي يثلج الصدور بفصاحته ومشيراً أن في الحياة قواعد وسننا وحكما ومعايير تصون الكرام وتحفظهم، والويل ثم الويل لمن يتجاوز حدود القيم فيظل مدى الحياة مسبة الدهر:

ومــن هاب أســباب المنايا ينلنه   ولو رام أســباب السماء بسلم

ومــن يغترب يحسب عدواً صديقه   ومن لا يكرم نفسه لــم يكرم

واخــذ زهير يمدح هرماً ويمجده، وهرم يغدق عليه، ومن طريف ما يروى أن هرماً " حلف أن مدحه زهير إلا أعطاه ولا يسأله إلا أعطاه ولا يسلم عليه إلا أعطاه: عبداً أو وليدة أو فرساً، فاستحيا زهير ممــا كــان يقبل منه، فكان إذا رآه في ملأ قال: عموا صباحاً غير هرم، وخيركم استثنيت ". وتبين الدلائل أن زهير عاش في سعة من المال بفضل ما ورثه عن خاله، وكان فيه توقر ونبل ولعل ذلك ما جعــل شــعره يخلــو من الفحش والعهر، فهو من ذوق آخر غير ذوق امرئ القيس المفتون بالنساء وتصوير مغامراته القصصية معهن، وكان يؤمن باليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب حيث يقول:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم   ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

يوخر فيوضع في كتاب فيدخر   ليوم الحساب أو يعجل فينقم

ومــن خــلال قراءة شخصية زهير يجده الفرد إنه إزاء شخصية ذكية وحكيمة، خبرت الحياة بكل أبعادها، فأحبت السلام وعظمت السلام ودعت إلى إليه مهما تغيرت الظروف والأحوال، فبين أن من طبــيعة الحياة التقلب والتغير، ولكن لا متعة في الحياة إلا بالسلام العادل الصحيح.وليكن السلام من حــق كل من في الوجود من الإنسان إلى الجماد، فكان شخصية حاذقة رأت الديار وما آلت إليه من

خـــراب ودمار وضياع وتشرد وفناء، وقد سكنتها الوحوش في أمن واستقرار بعد أن هجرها الناس بسبب الحروب الطاحنة التي لا تبقي ولا ترحم، فراح يدعو القوم للسلام، وأخذ يوجه الظعائن حتى يصـــلن إلى مكان يصلح للإقامة لهن في أمن وسلام، وراح يصف الساعون إلى الصلح بالكرم وسعة الأخـــلاق والصـــدر والحـــلم لتضحيتهم في سبيل السلام، وناشد المتحاربين أن يثوبوا إلى رشدهم، ويفتحوا عيونهم على ما نزل بهم، ويقف ك لواحد منهم عند حده، كي يعرفوا أن لا قيمة للحياة إلا بالسلام في ظل العدل والمبادىء القويمة.يمثل زهيرا شخصية المرشد النفسي والحكيم البارع الذي فتح بـــاب السلام وسط جليد الزمان المتراكم بأحقاد العادات والتقاليد فيما يخص الثأر، فنال وسام بطل الســـلام،فلقد شـــبه الحرب بصور مرعبة بما تنتجه من أجيال غير سوية ولفت أنظار القوم إلى حجم البلاء من خلال إثارة نفسية خاطب بها عقول الحكماء مما أنار لهم درب السلام.

سأل الإمام أحمد بن حنبل حاتم الأصم وكان من الحكماء:
كيف السبيل إلى السلامة من الناس؟
قال: تعطيهم مالك ولا تأخذ من مالهم، ويؤذونك ولا تؤذيهم، وتقضي مصالحهم ولا تكلفهم بقضاء مصالحك.قال :إنها صعبة يا حاتم.فأجاب: وليتك تسلم).

الشنفرى

قال الإمام علي رضي عنه:
(إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره، وإن أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه.).

تضيق الحياة به، فيقرر الرحيل بعيدا عن أهله الذين رعوه صغيرا، ويعصر الألم شريان قلبه بعد أن يكتشف إنه أسير قوم أذلوا أهله وسبوا أمه، وتزداد جراح النفس أتساعاً. ويرى العيش وسط الوحوش أفضل وأهون من الحياة وسط أناس يضمرون كرهاً ويدعون حباً. إنها حقيقة البحث عن الحنان والحياة الكريمة وسط ركام الظلم الذي يقرره الآخر على غيره. إنه ثابت بن أوس الأزدي يمني الأصل، لا يُعرف له تاريخ ولادة، وتشير الروايات أن وفاته في أغلب الظن كانت سنة525ميلادية من أشهر عدّائي العرب يعيش متشرداً ويغير وحده أو بجماعة من أصحابه العدائين أمثاله كقريبه تأبط شراً ثم عامر بن الأخنس وعمرو بن براق متنقلا من حي إلى حي مروعاً النساء والأطفال باعثاً الرعب والإضطراب في نفوس الرجال، وكان يُضرب به المثل في سرعة الركض ومدى القفز، وقيل كانت الخيل لا تلحقه وإذا تتبعته لاذ بالجبال أو اعتصم بالأودية. ويبدو أن الشنفرى وقع في أسر بني سلامان بن مفرج من بني فهم (من قيس عيلان من عرب الشمال)،حيث أسره أسد بن جابر وهو صغير فنشأ فيهم كأنه واحد منهم، ثم عرف حقيقة أمره، وكم كانت صدمته النفسية مريرة وقاسية ؟ إن جراح الجسد تندمل بمرور الزمن؛ لكن آلام النفس وجراحها يصعب شفاؤها لأنها تبقى نازفة مادامت تلامس وعي الإنسان وشعوره، ويقسم على الانتقام، ومما يروى عنه أنه حلف ليقتلن مائة رجل من بني سلامان، فقتل تسعة وتسعين، وقد احتالوا عليه في كمين نصب له، فأمسكه رجلٌ منهم عداء هو أُسيد بن جابر وقتله، فمر به رجل منهم فرفس جمجمته احتقاراً له فدخلت شظية منها برجله فمات متأثراً بالجرح الذي أحدثته، فتم بذلك مائة قتيل من بني فهم.ويقول الشنفرى في التصعلك وقلة المبالاة بمصير الجسد بعد الموت موضحاً فلسفته النفسية في الصبر والتجلد قائلاً لأعدائه:

فلا تقبروني إن قبري مُحرمٌ ... عليكم ولكن أبشري أمَّ عامرِ[26]
إذا احتملوا رأسي وفي الرأس أكثري ... وغُودر عند المُلتقى ثم سائري[27]
هنالك لا أرجو حياةً تسرني ... سجيسَ الليالي مُبسلاً بالجرائر[28]

لله درك أيها الصعلوك ! ! ألهذه الدرجة تقدم جسدك نذراً لوحوش الفلاة من ضباع وغيرها !! لاشك

---

[26] -أم عامر : الضبع (أبشري بأن تأكلي من لحمي)

[27] -عند الملتقى:في مكان المعركة.

[28] -سأبقى طول الدهر في عنقي الجرائم الكثيرة التي كنت قد ارتكبتها في حياتي .

في أنك أوجدت فعلةً لا مثيل لها ؟ أليس هذا من قبيل الشجاعة في الإقدام والثقة بالنفس.وها أنت لا تسـلم نفسك للأعداء ولا تمكنهم منك في ساحة الحرب إلا جثة هامدة، تفرح في افتراسها السباع والضـباع، ولا تضيرك شعائر الدفن التي يتغنى بها الناس ويحرصون عليها، بينما تقدم جسدك طعاماً للوحـوش، ولا تبـتغي حياة فضلى بعد ما اقترفته يداك من آثام ومعاصٍ ترتعد لها البنان. للشنفرى أشعار متفرقة في الفخر والحماسة يصف فيها غاراته وشدة بأسه وأشهرها المعروفة" لامية العرب "تقع في 86 بيتاً، والسبب الذي دفعه لنظمها يقال: إهانة أهابت بنفسه العزيزة أن يترك أهله ويهيم على وجهـه مـع الوحوش، وقد نظم هذه القصيدة يعاتب قومه مفتخراً بانفراده في البراري ومصاحبته للسباع واصفاً صبره وما شاهد في تيهه، وما أتاه من أعمال العدو والبطولة.كان الشنفرى ابناً للقفار ورفيقاً للضواري، كما كان عزيز النفس رقيقها، إذ جار عليه أهله لكنه لم يتذلل لهم، بل ترك العيش معهم لأن الأرض واسعة، وتتسع للحر الكريم فيقول:

أقيموا بني أمي صدورَ مطيكم فإني إلى قومٍ سواكم لأميلُ[29]
فقد حُمتِ الحاجاتُ والليلُ مقمرٌ وشُدت لطياتٍ مطايا وأرحُلُ[30]
وفي الأرض منأىً للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متُعزلُ[31]
لَعَمرُكَ ما بالأرض ضيقٌ على أمرىءٍ سَـرىَ راغباً أو راهباً وهو يعقلُ

لكـنه يؤثـر سكنى البراري مع الوحوش لأن الوحوش أفضل من الأهل، فهي تحفظ السر ولا تخذل الجاني، ما هذا الموقف وأنت الفارس الشجاع ؟ فيجيب ومبيناً وبوضوح: أن فقدان الأمن الاجتماعي والنفسـي للفـرد من حب وتقدير ومعاملة حسنة.. يقوده للعيش بعيداً عن أناس لا يقيمون للقيم الإنسانية حدوداً ؟ ، فيرحل باحثاً عن بديل يعوضه عنهم فيقول:

ولي دونكم أهلونَ : سيدٌ عَمَلسٌ وأرقط زهلول وعرفاءُ جيألُ[32]
هم الأهلُ لا مِستودعُ السرِ ذائعٌ لديهم ولا الجاني بما جَرّ يخذلُ[33]
وكلٌ أبيٌ باسلٌ غير أنني إذا عرضت أُولى الطرائدِ أبسلُ

إنـه يفضل الوحوش على الناس، ولكنه يفضل نفسه على تلك الوحوش، و يفترش الأرض ويستغني عـن الجميع بقلبٍ قوي وشجاع، وبنفس الوقت يتلهف للحنان الذي فقده ولم يجده، ويفخر بسيف

---

[29] –بني أمي : قومي . أقيموا صدور مطيكم : ارفعوها من مباركها ارحلوا. أميل: محب

[30] –حمت الحاجات: تهيأت . الطية : النية .شدت المطايا: تجهزت النياق للسفر.

[31] –منأى : مكان بعيد . القلى: الكره والبغض . متعزل :مكان بعيد عن الناس .

[32] –سيد:ذئب .أرقط:القوي على السفر.أرقط: النمر.الزهلولالضبع.س.عرفاء: الضبع.جيأل: الضبع.

[33] –الجاني : المعتدي . جر : اعتدى ، ارتكب جرما .

صقيل وقوس حين وقت الضرورة:

وأني كفاني فقدَ من ليس جازيا بحسني ولا في قُربه متعلل[34]

ثلاثةُ أَصحابٍ : فؤادٌ مشيَّعٌ وأبيض إصليتٌ وصفراءُ عيطلُ[35]

ويعدد أصحابه الأوفياء فيجد قلبه المفعم بحب الخير وسيفه الذي يذود به عن نفسته وحيوانات البيئة التي لا تعرف الغدر، فيبين بجدارة صفاء البيئة ونقاؤها:

هَتوفٌ من المُلس المُتونِ يزينها رصائعٌ قد بيطت إليها ومحملُ

إذا زلَ عنها السهمُ حَنتْ كأنها مُرزَأةٌ ثكلى ترنُ وتُعْول

ولست بمهيافٍ يُعشّي سوامه مُجدعةً سقبانها وهيَ بُهلُ[36]

ويمدح نفسه بأنه ليس بالمخنث ولا العاجز بل هو صبور على الجوع، ويفضل استفاف التراب على أن يتفضل إنسان ويتطاول عليه لأن نفسه حرة لا تُقيم على الضيم ولا تقبله:

وإن مُدتِ الأيدي إلى الزاد لم أكن بأعجلهم إذ أجشعُ القوم أعجل[37]

ومـا ذاك إلا بَسطةٌ عن تفضلٍ عليهم وكان الأفضل المتفضّلُ

أديمُ مطالَ الجوعِ حتى أُميتَهُ وأضربُ عنه الذكرَ صفحاً فأذهلُ

وأستفُّ تُربَ الأرضِ كي لا يرى له عليِّ منَ الطولِ امرؤٌ متطولُ

ويحرص على الآداب الاجتماعية إن مُدت الأيدي إلى الزاد، لم يكن بأعجل القوم، فهو يعرف آداب الطعام واحترام الآخرين، وسواء أكان فقيراً حيناً وغنيٌ حيناً آخر، فينال الغنى همته العنيده الشجاعة، إلا أنه لا يجزع من الفقر، ولا يحاول إخفاءه كما لا يزدهي بالغنى، وأن صبره يحتمل كل شيء كالحية. ويبين أنه مترفع عن النميمة:

ولولا اجتنابُ الذامِ لم يلفَ مشربٌ يُعاش بـه إلا لديّ ومأكل

ولكن نفساً مُرةً لا تُقيمُ بي على الضيم إلا ريثما أتحول

وأطوي على الخُمص الحوايا كما انطوت خيُوطةُ ماريّ تُغارُ وتفتلُ

وأغدو على القوتِ الزهيدِ كما غدا أزلُّ تَهاداه التنائفُ أطحل

غدا طاوياً يعارضُ الريحَ هافياً يخوتُ بأذنابِ الشّعابِ ويعْسلُ

---

[34] -ليس جازيا بحسني:لايثيب على صنع المعروف ــ ولا في قربه متعلل: ليس في مجاراته نفع أو أمل بنفع.

[35] -فؤاد مشيع: قلب جريء مقدام شجاع . إصليت : السيف المجرد من غمده وكناية أن هذا السيف لا يغمد.

[36] -المهياف : الراعي الذي يبعد إبله في طلب المرعى على غير علم ويجوعها :يعشي : يحبسها إلى العشي.مجدعة: سيئة الغذاء .البهل : عدم وجود اللبن في ضرع الناقة .السقبان :الذكرمن ولد الناقة .

[37] -الجشع : النهم ، الطمع مع دناءة النفس .

يرســـم الشـــاعر لوحة رائعة الجمال في وصفه للجوع ومقاساته ألامه، مبيناً احتماله الألم وترفعه عن الآثام التي يقع بها ضعيفو الإرادة وهنا يكشف عن أغوار النفس الإنسانية في احتمال الشدائد:

فلمَّا لواهُ القــوتُ مــن حيث أمَّــهُ دعــا فأجــابته نظــائرُ نُحَّلُ

مُهلهلةٌ شيبُ الوجـــوهِ كــأنــها قِداحٌ بكــفيّ ياســرٍ تَقَلْــقَلُ

أو الخَشْـــرَمُ المبعوثُ حثحَثَ دَبــرَهُ مَحَابيضُ أرداهُنَّ سَــامٍ مُعَسِّلُ

مُهَرتَةٌ فُــوهٌ كــأن شُــــدُوقــها شُقُوقُ العِصيِّ كالحــاتٌ وَبُسلُ

فَضَجّ وضَــجتْ بالبَراحِ كــأنــها وإياهُ نــوحٌ فوقَ عــلياء ثُكلُ

وأغضى وأغضت واتسى واتستْ به مَرَاميلُ عَــزَّاها وعَــزَّتهُ مُرملُ

شكا وشكت ثم ارعوى بعدُ وارعوت وللصَّـــبرُ إن لم ينفع الشكوُ أجملُ

وفــاءَ وفــاءت بادراتٍ ، وكــلُّها على نكظٍ ممــاًّ يكــاتمُ ، مجمــلُ

ويمضـــي في وصف تقلصات معدته وصريرها وشدة الجوع، لكن صبره على احتمال الألم أقوى من ضرب السهام، فيضرب المثل في قهر نزعات النفس وتعويدها احتمال الشدائد، ويبين صراع الدوافع النفسية وكيفية ترويضها وضبطها بما يلائم القيم والمبادىء الأخلاقية:

وتشربُ أسآري القطا الكدرُ ؛ بعدما سرت قــرباً ، أحناؤها تتصلصلُ

همَمتُ وهمّتْ ، وابتدرنــا وأسدلتْ وشــمرّ مني فــــارطٌ متمهلُ

فــوليتُ عنها ، وهـــي تكـــبو لعقرهِ يباشـــرُهُ منها ذقونٌ وحوصــلُ

فـــلا جَـــزَعٌ مـــن خلــةٍ مُتَكَشِّفٌ ولا مـــرحٌ تحـــت الغِــنى أتخيلُ

لله درك أيها الشاعر! كم أنت عظيم في تحمل الجوع وقسوته؟ و ياللك من معلم ناجح في تعليم الأخر الصـــبر عـــلى المكاره واحتمال الشدائد ومكابدة الجوع في سبيل عزة النفس وكرامتها ؟وكم كنت بارعاً في كلامك عن شدة الجوع وضرباته المؤلمة على النفس ؟ لكنك تردع نفسك الأبية عن الوقوع في الخطــأ وما أروعك عندما تحتمل الجوع والعطش لتسمح لطيور القطا بتناول الماء ضارباً المثل في الإيـــثار والتضـــحية وفي الرفق بحيوانات البيئة وطيورها، وكأنك عالم نفسي بخبايا النفس عندما تبين اصطدام الدوافع بالأهداف وكيفية تعليم النفس قواعد الصبر على احتمال الجراح:

ولا تزدهـــي الأجهال حِلمي ولا أرى ســؤولاً بأعقاب الأقاويـــل أنملُ

وليلةِ نحـــسٍ يصطلي القوس ربــها وأقطعــهُ اللاتـــي بـــها يتنبــلُ

فقالوا : لقد هـــرت بليلٍ كلابُنـــا فقلنا : أذئبٌ عسَّ؟أن عسَّ فُرعُلُ

فلم تَـــكُ إلا نبــأةٌ ثم هـــومت فقلنــا قطــاةٌ ريــعَ أجـــدلُ

فإن يَكُ مــن جــنٌ لأبرحَ طـــارقاً   وإن يَكُ إنساً ماكها الإنسُ تفعلُ

إنه يعيب على الآخرين جهلهم بشجاعته وأخلاقه العالية ويبين لهم أن الرجال، هم الذين من تعركهم الحــياة، فوارس البيداء الذين لا يخشون عتمة الليل وما فيه، إنه يعطي الدروس ويضرب الأمثال في الشجاعة والحلم:

بعيدِ بمسِّ الدهــنِ والفــلى عُهــدُهُ   له عَبَسٌ عاف من الغســل مُحولُ

وخَــرقٍ كظهر الترس قفْــر قطعتهُ   بعاملتين ظــهرهُ ليــس يعمــلُ

وألحقــتُ أولاهُ بأخــراه موُفيــاً   على قُنــةٍ أقعــي مِراراً وأمــثل

تَرُودُ الأراوي الصحمُ حولي كأنــها   عَــذارى عليــهنَّ المــلاءُ المُذيلُ

ويركُــدْنَ بالآصــالِ حولي كأنني   مِنَ العُصمِ أدفى ينتحى الكيحَ أعقلُ

نعــم إنه رقيق النفس وتظهر رقة تلك النفس تحت ثوبها الخشن فهي أليفة الهموم، وتأتيها الهموم " مــن تحــتُ ومــن علُ " ولكن تلك النفس تخنقها الزفرة والأنين من اغتراب القيم والأخلاق بين البشر.وهكذا كان الشنفرى شاعر العاطفة البدوية والثورة النفسية وشاعر الطبيعة في قسوتها وشدة وعورتهــا، الــذي قــرر العيش مع الوحوش بديلاً عن الوحوش البشرية(والمقصود الأفراد الذين لا يقيمون للقيم الإنسانية والأخلاقية أي اعتبار)، ولو دقق الفرد في هذا التطرف والانحراف السلوكي والنفســي الذي جاء به هذا الشاعر، لوجد أن وراء هذا السلوك ظروف وأسباب قاهرة دفعته لهذا الاتجاه من العيش، إن روح الشنفرى روح رقيقة عذبة تتمنى العيش بسلام، لكن ظروف السبي التي وقعــت عليه وعلى أمه واكتشافه بعد فترة الحقيقة المرة والمريرة وسوء المعاملة والاحتقار والازدراء، فضلاً عن قوانين الثأر، جعلت منه متشرداً حتى بدا للقارىء أنه مجرم مروع للنساء والأطفال ! وكم من منحرف ! وللأسف يتم صنعه وتصنيعه وسط ظروف القهر والظلم !!.

رحم الله ذاك الحكيم الذي قال:

" لا تســألوا الــناس مــا فعلوا وإنما لنعد إلى الصفاء والوفاء والعدل وحب الخير للجميع، أنها قوانين الخالق عز وجل للإنسان، ولا تنسوا أبداً أنه ما من مخلوق إلا ومفطور على حب الخير وفعله".وجزى الله الحكيم النبي سليمان الحكيم عليه السلام خيراً بقوله الرائع:

(طريق الجاهل مستقيم في نظره، وإصلاح الموجود خير من انتظار المفقود).

طرفة بن العبد

تنام عيناك والمظلوم منتبه　　　يدعو عليك وعين الله لم تنم

أرفع مظلمتي إليه، أعرض حالي عليه،أحسن ظني به، أتوكل عليه ، أرضى بحكمه، أطمئن إلى كفايته، وأردد قوله تعالى:(وأفوض أمري إلى الله).

إلى ديان يوم الدين نمضي　　　وعند الله تجتمع الخصوم

يحرم عطف الأبوة ويقسو عليه الأعمام ويطمعون في مال أبيه وترعاه أم حنون، ويعيش حياة التشرد أنه انموذج حي لإهمال الحياة الاجتماعية، وإيضاح دورها المهم في تنشئة الأجيال، أنه ضحية الطمع والظلم البشري فينشأ ويترعرع في غياب المعاملة والاحترام، أنه عمرو بن العبد بن سفيان من بني سعد ابن مالك بن ضُبيعة من بكر بن وائل.ولد في البحرين سنة**538**م وتوفي سنة**564**م، ومات أبوه وهو صغير فكفله أعمامه، وأبى أعمامه من بني سعد بن مالك أن يقسموا له نصيبه من إرث أبيه، وظلموه حقه وأساءوا تربيته وهضموا حقوق أمه، فنشأ مع أمه وردة بنت عبد العزى في بؤس، فاندفع الطفل وراء أهوائه يلهو ويسكر ويبذر فطرده قومه.وراح يجوب البلاد حتى بلغ أطراف جزيرة العرب، ثم عاد عن غيه ورجع إلى قومه يرعى إبل معبد أخيه لأبيه، فسرقت الإبل لانصرافه للشعر والنظم، فنصره سيدان من قومهما امتدحهما، فاستطاع أن يرد الإبل لكنه عاد إلى حياة اللهو، ووصل في تجواله بلاط الحيرة فقربه عمرو بن هند، إلا أن لسانه حال دون بقائه، فهجا صهره وهجا الملك، فأوقع الملك به، وقُتل وهو دون الثلاثين من عمره، وفضلاً عن ذلك فإن طرفة عاش عيشة المتشرد الصعلوك البائس مدة غير وجيزة، ولم يصحبه في تشرده سوى ناقته، فكانت له الرفيق الوحيد والعزاء النفسي الذي يرتاح إليه ويأنس به، ومن ثم فليس غريباً أن نرى الشاعر يغرق في وصفها، وقد اخشوشن لسانه وألفاظه وتعبيره، أنه الحرمان الاجتماعي في غربته النفسية.اشترك طرفة في حرب البسوس، ولكنه بلغ من جودة الشعر بحداثة سنه ما بلغه شعراء آخرون بكثرة شعرهم وطول أعمارهم، فهو من أصحاب المعلقات، وشعر طرفة بدوي خالص كثير الغريب متين التركيب، يمثل خلجات النفس أدق تعبير، وقد برع في الحماسة والفخر والهجاء وفي الحكمة التي استمدها من حياته ومن معاملة أهله له، وأكثر حكمه في الحياة والموت، ويرى طرفة إلى الحياة على أنها فرصة سانحة يجدر بالإنسان أن يستفيد منها، إذ ليس بعد الموت عنده حياة أخرى، وهو كثير اللوم للأغنياء الذين لا يتمتعون في حياتهم بأموالهم، وكان يرى في الموت أمراً لا بد منه، ينزل بكل إنسان بالغني والفقير والكريم والبخيل والشجاع والجبان، فإذا كان كذلك؛ فلم لا يروي الإنسان نهمه من لذات الحياة الهاربة ؟ فيرضي نفسه بما وجب عليه من النجدة وفعل الخير، وبذل المال للفقير الملهوف، وتلبية

داعـــي الشجاعة والإقدام، ويشبع تهافت جسده على ما يتاح له من المتع قبل فوات الأوان، ويعد طرفة في شعره مثالاً لمنهج التنفيس الانفعالي في وصف مشاعر النفس والتعبير عما يجيش بداخلها:

ألا أيهذا اللائمي اشهد الوغى وأن أحضر اللذات هل أنت مخلدي[38]

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

لعمرُك إن الموت ما أخطأ الفتى لك الطول المرخى وثنياه باليد[39]

أرى قبر نحّامٍ بخيلٍ بماله كقبر غويٍ في البطالة مُفسدِ[40]

ويزعم طرفة أنه لقومه يتفانى في خدمتهم، قبل أن يكون لنفسه سواء في الحرب أم في السلم، و يشعر بهـــذا الواجـــب شعوراً قوياً، فيندفع له مغامراً ملبياً داعي القوم من دون أي إبطاء مؤكداً أنها سمات الرجال العظيمة:

إذا القوم قالوا:" من فتى؟" خِلتُ أنني عُنيتُ فلم أكسل ولم أتبلدِ

وفي الوقـــت نفسه يستجيب لنداء القوم بل، فهو لكل من يحتاج إليه، يتحرى الأماكن العالية ليقُيم على ذراها فيراه السائل ويقصده ولا يرجع دون عون ومساعدة له، ويدعوه المُستنجد فهو للمعوزين بماله وللمنكوبين بساعده:

ولستُ بحـــلال التلاع مخافةً ولكن متى يسترفدِ القومُ أرفدِ[41]

أنـــه يحرص على كرامة النفس العربية البدوية، ويدرك ما تحب وما تكره؛ فيعمل على إسعاد قومه، وكأنـــه عـــالم بأســـرار الـــنفس وخـــباياها فـــيما تصبو، وما ترغب إليه، فيوفر لها كل ما يضمن عزهاوكرامتها، فإن حالف وجوده أماكن اللهو، فيشارك القوم بأفراحهم ولا يبخل بمنحهم السعادة، ويألف مجالس الشيوخ كي يتعلم الحكمة والوقار لأنه يرى فيها الخير:

وأن تبغني في حلقة القوم تلقني وإن تقتنصني في الحوانيت تصطد

وهـــو كريم يجود بما يملك حتى ولو اقتضى الأمر التضحية بروحه ، فهو يقدمها عربوناً ،إذ لا معنى للبـــخل مـــع الموت، كما أنه صاحب حزم وثقة بالنفس واعتداد بالذات، فهو رجل شجاعة وإقدام وصدق في شرف محتد:

ولكن نفى عنّي الرجال جراءتي عليهم وإقدامي وصدقي ومحتدي

---

[38]—اللائمي : يا من تلومني على الحرب واللذات هل أنت تخلدني إن انصرفت عنها .

[39] – يقول إن الموت لا ينجو منه أحد وإن أبطأ أحيانا في حلوله .

[40] – النحام : الحريص على جمع المال . الغوي : الضال،يقول لا فرق بعد الموت بين قبر الحريص على المال وقبر الجواد .

[41]—حلال التلاع : يتحرى الأماكن العالية. يسترفد : يطلب الرفد وهو الإعانة .

لعَمرك ما أمري عليّ بغُمة نهاري و لا ليلي عليّ بسرمد
إذا أبتدر القوم السلاح وجدتني منيّعاً إذا بلت بقائمه يدي [42]

ويبين: إن نادم لا ينادم إلا الأشراف، وإن شرب فعلى غناء القيان كما يفعل الأشراف، و يأبى بعد الموت إلا أن ينعى كالسيد المؤمل الذي كانت تعقد له الرايات، ولِمَ لا ؟ أليس هو فارس القبيلة!:

فإن مُتُ فانعيني بما أنا أهله وشُقي عليّ الجيبَ يا ابنة مَعبد
ولا تجعلني كامرئ ليس همه كهمي و لا يُغني غنائي ومشهدي [43]
فلو كنتُ وغلاً في الرجال لضرني عداوة ذي الأصحاب والمتوحد [44]

وفضـــلاً عن كرامة النفس، فإنه يحرص في غير ساعات الجد على أن يهب جسمه المتعة، ويروي نهم نفســـه بـــالملذات والمتع، التي ما وجدت إلا للتمتع بها، والتي هي في عُرفه بريئة من الإثم، والإثم في (نظـــره الإلحـــادي) هـــو العار الذي يناله الذي من ينافي الكرم والشجاعة وسائر المثل السائدة في الجاهلية:

فدعني أروي هامتي في حياتها ستعلم أن مُتنا غداً أينا الصدي [45]

ويطيـــب اللقـــاء مع الشاعراليتيم المهمل، الذي مات أبوه، وهو بعد حدث، فكفله أعمامه إلا أنهم أساءوا تربيته، وضيقوا عليه، فهضموا حقوق أمه البعيدة عن قومها، ولنسأله عن طفولته، لكنه يجيبنا متهدداً قومه بقوله: حيث يذكر ظلم أعمامه له في ميراث أبيه:

ما تنظرون بحقِ وردةَ فيـــكمُ ؟ صَغُرَ البنونَ ورهطُ وردةَ غُيبُ
قد يبعثُ الأمرَ العظيمَ صغيرُهُ حتى تظلُّ له الدماءُ تصببُ
والظلمُ فرَّقَ بين حيِّي وائلٍ بكرٌ تُساقيها المنايا تَغلِبُ

يـــتأوه الشـــاعر من نار الظلم، وكم هو قاسٍ ظلم الأهل والأقارب؟ أنه يجرح القلب ويدمي العين، فتصبح الحياة لا معنى لها، وماذا بمقدوره أن يفعل؟ ، فينطلق ليجد في الانحراف واللهو وشرب الخمور بديـــلا عن الأهل والأقارب، وهكذا يسير الطفل اللاهي الذي ما كاد طرفة يفتح عينيه للحياة حتى قذف بذاته في أحضانها، يستمتع بملذاتها من غير ما حرج من لهو وسكر ولعب، مبذراً حتى الإسراف مكابـــراً لا يـــريد النصيحة عن تبذيره وطيشه، وساعد ذلك تربية سيئة لا توازن فيها وغياب تربية

---

[42] – بلت :ظفرت ، بقائمه : بمقبض السيف

[43] يغني:عامليني كرجل ليست له همتي.يغني: يفيد ويدفع الحوادث. المشهد : حضور القتال وغيره .

[44] – أتوغل: الضعيف الخامل.المتوحد: المنفرد.

[45] –الهامة : طائر يعتقد الجاهلون أنه يخرج من جمجمة القتيل فيظل يشكو الظمأ حتى يرتوي بدم القاتل .

أسرية تكسبه وتعلمه القيم والأخلاق، فزاد ذلك في سيطرة الأهواء ثروة ومآثر خلفها له أبوه، فنفخته اعتداداً بالنفس وكبراً، وخلقت فيه إيماناً بصحة ما يرى وما يفعل وفساد رأي من يخالفه، وكان خالياً من العقيدة الدينية يضطرب في بيئة مادية لا ترمي إلى أبعد من المادة، وبما في جسده من اندفاع نحو الشهوة، وقد غشت الأهواء نظر الشاعر عن الحقائق، وأضعفت إيمانه بها، فضل طريق الحقيقة معتقداً وعملاً، وهكذا يتجلى لنا بوضوح غياب الحنان الأسري والتقدير الاجتماعي، مما اضطر قومه إلى طرده بسبب تطرفه في سلوكه الغريب حيث يقول:

وما زالَ تَشرابي الخمورَ ولذّتي ... وبَيعي وإنفاقي طريفي ومُتلدي[46]

إلى أن تحامتني العشيرةُ كُلُها ... وأُفرِدتُ إفرادَ البعيرِ المُعبدِ[47]

فراح عندئذ على ناقته يضرب في البلاد، فتارة يغزو وطوراً يأوي إلى مغاور الجبال، حتى بلغ اطراف جزيرة العرب، وربما بلغ الحبشة. وبعد أن ذاق من الأيام علقماً تأوب إلى عشيرته وثاب إلى رشده، وفي عزمه أن ينقاد لأقطابها، فيركن إلى الحياة الرشيدة الحكيمة، حياة قد هيأ له أن يعرف قيمتها في ما انتابه من عنت التشرد وقسوته وذل الغربة ووحشتها:

كنتُ فيكم كالمغطي رأسهُ ... فانجلى اليومَ قِناعي وخُمُر[48]

فاضطرته الحال أن يرعى إبل معبد أخيه لأبيه، ولكن آنى للشاعر الشاب الفخور بنفسه وبقومه أن يحسن رعاية الإبل؟ فأهملها بسبب الشعر والنظم، ففقدت فطالبه أخوه معبد بها، فلجأ إلى ابن عمٍ له أسمه مالك فخذله ولامه على ما فعل وما لم يأت من سوء فعله. ؛ فنصره سيدان من قومه امتدحاهما فرد بذلك إبل أخيه، ومال على ما تبقى من مال يُحي به حياته السالفة من لهو وعبث إرضاء لشبابه النهم للملذات، وكبريائه المستحكمة، غير آبهٍ لنصحٍ ولا لزجر. ومسته الحاجة مرة ثانية فترك قومه وطاف في البلاد حتى بلغ بلاط الحيرة، حيث كان خاله المتلمس وصهره عبد عمرو بن بشر، فأكرمه الملك عمرو بن هند وقربه، إلا أن الشاعر لم يتورع من هجاء صهره لتصرفه السيئ مع زوجته أخت الشاعر فهجاه بقوله:

ولا خيرَ فيه غير أن له غنىً ... وأن له كشحاً إذا قامَ أهضما[49]

يشتم صهره بشتائم ويصفه بصفات تسيء له، إلا أن هذا الأمر لم يروق لصهره، ومن جيد شعر طرفة

---

[46] –الطريف : الحديث المكتسب من المال . المتلد : المال القديم المورروث .

[47] – تحامتني : توقتني واجتنبتني . المعبد : المطلي بالقطران لجربه .

[48] –الخمر :الأستار ويعني: كنت قبلا أعمى البصيرة مضللاً وقد زال الآن ضلالي وعرفت الحقيقة .

[49] –الأهضم : النحيف اللطيف وفي هذا القول تهكم لأن عبد عمرو بن بشر الذي كان سميناً فوصفه بلطف الخصر .

في الحكمة في أثناء هجائه لعبد عمرو بن بشر زوّج أخته الخرنق:

وأعلمُ علماً ليس بالظن أنه   إذا ذلّ مولى المرء فهو ذليلُ
وإن لسانَ المرء مالم تكن له   حَصاةٌ على عوراته لدليلُ[50]
وان امرأًلم يعفُ يوماً فكاهةً   لمن لم يُرِد سوءاً بها لجهول[51]

وراح يستمر في هجاء صهره بأقذع الهجاء، مما أودى به إلى طرق وعرة أوصلته للهلاك، وهجا الملك أيضا وأخاه قابوساً:

فليتَ لنا مكانَ الملكِ عمرٍو   رغوثاً حول قُبتنا تخورُ[52]
لعَمركَ إن قابوسَ بن هندٍ   لَيخلُطُ مُلكه نوَ كٌ كثيرُ[53]

ولداعي غضب وشى عمرو بن بشر(صهره) بالشاعر، فأوغر صدر الملك على الشاب المستهتر فأوقع به ولقي ما اقترفه لسانه من جزاء. وأخذ في سجنه يذكر إخوانه الذين تخلوا عنه:

أسلمني قومي ولم يغضبوا   لسوءةٍ حلت بهم فادحه
كم من خليلٍ كنتُ خاللتُه   لا تركَ اللهُ لهُ واضحه[54]
كلهمُ أروغُ من ثعلبٍ   ما أشبهَ الليلةَ بالبارحه

يشكو خيانة الأهل والأصدقاء وغدرهم به، ويصفهم بالثعالب الماكرة ويستشهد بتغيرات الأيام وتقلباتها، قُتل طرفة وهو دون الثلاثين، وعلى ما يُروى أن عمرو بن هند كتب لكل من طرفة والمتلمس، وكان في نفسه كره وحقد عليهما كتاباً إلى عامله بالبحرين، وأوهمهما أنه أمر لهما بعطاء لهما يجريه لهما على يد عامله بالبحرين، وقال لهما: أن يمضيا إليه في الحال وإذ كانا في الطريق شكّ المتلمّس في كتابه ففضه، وإذا فيه أمر بقتله. فمزق الكتاب وألقاه في نهر هناك، ثم قال لطرفة أن يطلع على مضمون كتابه أيضا، فلم يفعل بل سار حتى قدم إلى عامل البحرين ودفع إليه الكتاب، فلما وقف عليه أوعز إلى طرفة بالهرب لما كان بينه وبيّن الشاعر من نسب، فأبى فحبسه الوالي وكتب إلى عمرو بن هند قائلا:" ابعث إلى عملك من تريد فإني غير قاتله " فبعث ملك الحيرة رجلاً من تغلب، واستعمله على البحرين فجيء بطرفة إليه فقال له: "إني قاتلك لا محالة فاختر لنفسك ميتة تهواها " فقال: " أن كان ولا بد فاسقني الخمر وافصدني " ففعل به ذلك فما زال ينزف دمه حتى مات. وقد

---

[50] –حصاة : عقل

[51] –الجهول : الفرد الذي لا يميز بين الهجاء والفكاهة أو لا يغفر فكاهة بريئة لرجل جاهل .

[52] – الرغوث : الناقة الحلوب .

[53] – النّوك :الُحمّق .

[54] –واضحه: المقصود بها سن واحدة من أسنان الفم .

رثت الخِرنق أخاها طرفة وبكته بكاءً شديداً ومما يروي لها فيه قولها:

عَددنا له ستاً وعشرينَ حِجةً   فلما توفاها استوى سيداً ضخما[55]

فُجعنا به لما رَجَونا إيابه   على خَيرِ حالٍ لا وليداً ولا قحماً[56]

قال طرفة معلقته ليبسط شكواه من أهله، ويعلن آراءه في الحياة كما ضمنها بعض ما كان يفتخر به الجاهلي عادة من الشجاعة والكرم، وتعد معلقة طرفة من أدل القصائد على خصائص الشعر الجاهلي وعلى العقلية البدوية، وكان يتوقع من الناس ولا سيما من يظنهم أكفاء له أن يعاملوه، كما يعامل هو الناس من بذل مالٍ ونجدة، ثم ما لقيه من ذوي قرباه من الاضطهاد على اثر تبذيره ماله في اللهو ورغبته في بسط آرائه في ذلك الاضطهاد، لكن طرفة بدأ معلقته بذكر الأطلال ووقوفه بها هو وأصحابه، فظهر عليه الأسى حتى كاد يهلك:

لخولةَ أطلالٌ ببرقةِ ثهمدِ   تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليدِ[57]

وقُوفاً بها صحبي عليّ مطيهم   يقولون : " لا تهلك أسى وتجلد "

ثم عاد بذكرياته إلى الماضي فاسترجع ساعة الفراق وعرض موكب الارتحال وضخامته وسيره السريع يشق الوديان والجبال، غير مبال بما يصادفه من عوائق وهنا يحس أن الهم قد تملكه، واظلم عليه المكان وضاق الأفق حوله، فلم يجد بداً من اللجوء إلى مسلية همومه، تلك هي ناقته، فأخذ يصورها أدق تصوير، كما تحدث عن سيرها وجريها ونشاطها وذكائها، فقد دربت أحسن تدريب وهي معتادة الغدو والرواح وسرعة السير وراكبها آمن، ثم أخذ يمدح شجاعته ومروءته:

إذا القوم قالوا: "من فتى ؟ خلت   إنني عُنيت فلم أكسل ولم أتبلد

ويتحدث عن نفسه بأنه شخصاً كريم الأخلاق، ذا مكانة اجتماعية ممتازة وبطلاً شهماً ذائع الصيت:فهو في ذروة المجد، ندمائه من علية القوم يسرف في الأنفاق والاتلاف حتى غضبت منه العشيرة، ويقصده الفقراء والأغنياء:

ولستُ بحلالِ التلاع مخافةً   ولكن متى يسترفدِ القوم أرفد

فان تبغني في حلقةِ القومِ تلقني   وان تقتنصني في الحوانيت تصطد

إلى أن تحامتني العشيرةُ كلها   وأُفردت إفرادَ البعير المعبد[58]

---

[55] –الحجة : السنة . الضخم : العظيم

[56] – القحم : الشيخ الهرم .

[57] –أثر الوشم : يعني بروز عروق اليد وتعرج جلدها بسبب التقدم بالعمر بالإنسان .

[58] –تحامتني : تجنبتني . المعبد : المدهون بالقطران لأنه اجرب .

فان كنتَ لا تستطيع دفع منيتي فدعني أُبادرها بما ملكت يدي
لعمرُك أن الموت ما أخطأ الفتى فكالطول المرخى وثنياه باليد
متى ما يشأ يوماً يقُده لحتفهِ ومن يك في حبل المنية ينقد
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد[59]
أرى الموت أعدادَ النفوس ولا أرى بعيداً غداً ما أقرب اليوم من غد !
أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة و ما تنقُصِ الأيامُ والدهرُ ينفد

ثم يذكر أمانيه في الحياة ومتعته منها، أنه يحب الناس ويحبونه ويألفهم ويألفونه، وهنا يتعجب من سلوك الظالمين والمعتدين والوشاة والمفسدين، وبخاصة إذا كانوا من الأقارب الذين يجب أن يكونوا عوناً وسنداً وملجأً، فسلوكهم المعيب بعضهم مع بعض مؤلم أشد الألم، واعتداء أحدهم على الأخر شديد المرارة، وأنكى من ضرب السيوف، ولهذا يحز في نفسه أن يكون له ابن عم يسيء إليه ويعتدي عليه مع أنه لا يستحق ذلك فيقول:

فما لي أراني وابن عمي مالكاً متى ادنُ منه ينأ عني ويبعُد
يلوم ولا أدري علام يلومني كما لامني في الحي قُرط بن أعبد
وأيأسني من كل خير طلبته كأنا وضعناه إلى رمس مُلحد
على غير ذنب قلته غير أنني نشدت فلم أغفل حمولة معبد
وإن أدع للجلى أكن من حماتها وإن يأتك الأعداء بالجهد أجهد
وإن يقذفوا بالقذع عرضك أسقهم بكأس حياض المـوت قبل التهدد
فلو كان مولاي امرؤ هو غيرهُ لفرج كربي أو لأنظرني غدي[60]
ولكن مولاي امرؤ هو خانقي على الشكر والتسآل أو أنا مفتدى[61]
وظلمُ ذوي القربى أشد مضاضة على النفسّ من وقع الحسام المهند
فذرني وخُلقي إنني لك شاكرٌ ولو حل بيتي نائيا عند ضرغد[62]
أنا الرجل الضربُ الذي تعرفونه خشاشٌ كرأس الحية المتوقد
حُسام إذا ما قمت منتصراً به كفى العودَ منه البدءُ ليس بمعضد[63]

---

[59] العقيلة:تار.العقيلة: خيرة المال.الفاحش: السيء الخلق.المتشدد: البخيل ويعني به هنا الموت .

[60] –مولاي : يقصد ابن عمه مالكاً . لأنظرني غدي :تأنى وصبر علي وفرج كربتي.

[61] –يقصد أن ابن عمه يجبره على شكره وأن يسأله دائما حتى يعطيه ماله الذي هو له عنده .

[62] –أي دعني أعيش كما أحب وسأظل شاكراً لك على كل حال حتى ولو ابتعدت عنك كثيراً.ضرغد:أسم مكان.

[63] –معضد : سيف تمتحن به الشجر(مقص الشجر) .كفى العود من البدء : تكفي منه الضربة الأولى لتفعل فعلها.

أخي ثقة لا ينثني عن ضريبة إذا قيل : مهلاً قال حاجزه : قدي"[64]

إذا ابتدر القومُ السلاحَ وجدتني منيعاً إذا بُلت بقائمه يدي [65]

فان متّ فانعيني بنا أنا أهله وشُقي عليّ الجيبَ يا ابنةَ معبد

و لا تجعليني كامرئ ليس همه كهمي و لا يُغني غنائي ومشهدي

بطيء عن الجُلى سريعٍ إلى الخنا ذليلٍ بإجماع الرجالِ مُلهدِ

فلو كنت وغلاً في الرجال لضرني عداوة ذي الأصحاب والمتوحد

وهنا اشتط غضباً وثارت حميته لهذا السلوك الذي يتنافى مع ما يستحقه من التكريم والتعظيم، فانطلق ثانـــية مفتخراً بنفسه، فصفاته تجعله في مصاف العظماء، فهو وإن كان فقيراً فإنه شديد نشيط، يتوقد ذكـــاء وفطـــنة، ولا يفارق السيف الذي لا يثني ضربته وقطعه أسرع من الصوت، وهو كريم ترهبه الإبل إذا دخل عليها بسيفه لأنها تعلم أنه لا بد قاتلها وموته خسارة لا تعوض، فلن يملأ فراغه إنسان، وهـــو كريم طموح، سريع إلى العظائم، بطيء عن الدنايا، نابه الذكر، ذائع الصيت، ويرهبه الجميع، أفراداً وجماعات، لا يغمه ولا يطول عليه ليل، فلا تستعصي عليه مشكلة يحبس نفسه على الشدائد، وفي الحروب وموطن الهلاك، ثم يختم قصيدته بأن الحياة كثيرة العجائب، والأيام تظهر الخفي وتسوق إليك من ينبئك بدون أن تكلفه أو تطلب منه:

سبتدي لك الأيام ما كنتَ جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزودِ

ويأتيك بالأخبار من لم تبع له بتاتاً ولم تضرب له وقت موعد

لعمرك ما الأيام إلا مُعـــارةٌ فما استطعت من معروفها فتزود

عن المرء لا تسأل وابصر قرينه فان القـــرين بالمقـــارن مُقتدي

فطـــرفة لا يحـــب الحياة للحياة، لأنه يائس منها إذ يرى الموت لا يبقي على أحد، فهو حزين بسبب سرعتها وزوالها، وبنفس الوقت مفكر لا ينقاد لحزنه والإنعكاف عليه والبكاء الطويل الذي لا يجدي نفعاً، بل يعمد إلى لذة الحياة التي يحبها والتي يريد أن ينصرف إليها انصرافا سريعاً، لأن الحياة قصيرة وفانـــية، وهذه اللذة هي في نظره ثانوية وهو يتركها حالما يدعوه واجب اجتماعي أو واجب نفسي، وهي لا تمنعه من ركوب الأخطار والسعي إلى الموت كما يسعى إليه الموت، فإباحيته إذن لا تخلو من اقتصـــاد ولـــذة الحياة قائمة على شرب الخمر والاستمتاع بالحب، فيبيع في سبيلها الطريف والمتلد، وينصرف إليها في اطمئنان انصرافاً رقيقاً عن تفكير، لا ذلك الانصراف الغليظ، و يستغرب لوم قومه

---

[64] -يقطع كل ما أصابه ولا يرتد عنه .

[65] -منيعاً: لا يوصل إليه.بلت: ظفرت به وتمكنت منه.

له في حال كون الفقير والغني بقيا على جنبه: الأول لإحسانه والثاني لشرفه:

رأيتُ بــني غــَبراءَ لا ينكرونني　　و لا أهل هذاك الطِراف المُمددِ[66]

ومــن خلال قراءة شعر طرفة، وما عبر فيه عن أحاسيس وجدانية داخلية يتجلى بوضوح مدى أثر الحــرمان الأسري والاجتماعي الذي كان السبب في هذا النمط من السلوك البديل والتعويضي عن الأهــل.إن حــياة الشــاعر تبين بوضوح دور التنشئة الاجتماعية في تشكيل شخصية الإنسان، فهو أنمــوذج حي للمعاناة والقهر الاجتماعي وغياب الرعاية الاجتماعية والأسرية التي تكسب الإنسان مــزايا الحــياة الإنســانية الصحيحة، وعلى المربين الانتباه أن أساليب الضغط و الإكراه لا تنجب شخصــيات متوازنة.وعلى المربين أن يدركوا أن الأطفال زينة الحياة، قال تعالى:(**المال والبنون زيــنة الحــياة الدنيا**)[67]،ولا يعلم مقدار هذه الزينة سوى الذين حرمهم الله الأولاد، ورحم الله الشاعر العربي حطان بن المعلى عندما يقول:

لولا بنُيات كزغب القــطا　　رُددن مــن بعــضٍ إلى بعــضِ

لكان لــي مُضطربٌ واسعٌ　　في الأرض ذات الطول والعرضِ

وإنــما أولادُنــا بــينــنا　　أكبادُنــا تمشي علــى الأرض

لو هبتِ الريحُ على بعضهم　　لا متنعت عيــني مــن الغمضِ

فهيا إلى زينة الحياة الدنيا لنربيها أفضل تربية ونحميها من متاعب الحياة، فهم الأكباد التي تمشي على الأرض، ولا ضير إذا كنت الغريق فلماذا الخوف من البلل.

ورحم الله القائل:

إذا لم تصن عرضاً ولم تخشَ خالقاً　　وتستح مخلوقاً فما شئت فاصنع

---

[66] – بني غبراء : الفقراء . الطراف : البيت . الممدد : الواسع العظيم

[67] –سورة الكهف الآية 49

عمرو بن كلثوم التغلبي

قال باكون:

(ليس هناك من هو أتعس حظاً ممن يشيع جنازة مجده بيديه).

شموخ وعزة نفس وكبرياء، ولم لا ! فهو سيد وابن سيد، لا يعُرف تاريخ ولادته ولكنه توفي أغلب الظن سنة584م، فهو لا يقبل الإهانة فيمثل طغيان العاطفة على العقل ليدق عنق الملك بسيفه دون هوادة انتقاماً لكرامته، فيدفعه هيجان الغضب كالسيل الجارف الذي يقتلع كل شيء بطريقه، أنه الانفعال السكوسوباتي[68]. كانت قبيلة تغلب منتشرة في الجزيرة الفراتية من أعالي الشام والعراق وضواحيها، وكانت من أعز القبائل حتى قيل: " لو أبطأ الإسلام لأكلت بنو تغلب الناس "، وهكذا نشأ عمرو بن كلثوم في بيئة عزيزة، فامتلأت نفسه بأمجاد تغلب قبيلته، فأبوه كلثوم سيد قومه وأمه ليلى بنت المهلهل أخي كليب المشهور، ففي هذا الجو من الرفعة والسؤدد نشأ معجباً بنفسه وبقومه عزيز الجانب، وقد أصبح سيداً لقومه وهو في الخامسة عشرة من عمره، ويُروى أن العداوة بين بكر وتغلب من جراء حرب البسوس لم تنته بتوقف المعارك، فلما جاء عمرو ابن هند (سنة 554م) رغب في حسم النزاع بين بكر وتغلب فجمع بينهم، ثم أخذ من كل قبيلة مائة رجل وجعلهم عنده رهائن، فكانوا دائماً معه يرحلون برحيله وينزلون بنزوله ويغزون معه، وإذا حدث أن غدرت إحدى القبيلتين، فقتلت أحداً من أفراد القبيلة الأخرى، أخذ عمرو بن هند المقتول من رهائن القبيلة المعتدية. وذات يوم أرسل عمرو بن هند جماعة من الرهائن التي في يديه من بني بكر وبني تغلب في أمر من أموره فنزلوا في طريقهم إلى نبع ماء بالطرفة وهي موقع لبني شيبان وبني تيم اللات أحلاف بني بكر، فقيل إن بني شيبان وبني تيم أجلوا التغلبيين عن الماء فمات التغلبيون عطشاً، وما جرى أن هلك التغلبيون وسلم البكريون منهم، فغضب بنو تغلب وطلبوا ديات أبنائهم من بكر بحجة أن أحلافاً لبكر كانوا السبب في الكارثة، وكادت الحرب تعود من جديد فعمد عمرو بن هند إلى التوفيق والاحتكام، فجمع إشرافهما وسادتهما في مجلسه للبت في الخلاف، وقد انتدبت تغلب شاعرها عمرو بن كلثوم للذود عنها فأنشد قسماً من معلقته، وكان في كلامه شديد الإعجاب بنفسه وبقومه لم يرع للملك مقاماً ولا حرمة، ولم يعترف له ولقومه بعظمته وسلطانه، وأتى بعده الحارث بن حلزة المعروف بسياسته ودهائه وشدة ذكائه، وتكلم مادحاً الملك عمرو بن هند ومشيداً به وبحكمته، مما أدى إلى تغلبه على خصمه

[68] -الانفعال السكوسوباتي: يعني أن الفرد يبدو هادئاً ويعيش الفرد حياة عادية فهو من حيث المظهر إنسان سوي وما أن تعصف به مشكلة حتى ينفجر كالبركان الثائر الذي يحطم ويقتلع كل ما يقف بطريقه، أنه الانفعال السكوسوباتي الذي يبدل شخصية الفرد من حالة الهدوء إلى حالة الثورة الطائشة.

عمـــرو بن كلثوم في الخصومة، وصدر الحكم لصالحه عند الملك عمرو بن هند الذي حكم للبكريين عـــلى بني تغلب، فانصرف ابن كلثوم وقومه غاضبين. ومما يروى أن الملك عمرو بن هند كان مزهواً فخوراً بنفسه فقال يوماً لندمائه " هل تعلمون أحدا من العرب تأنف أمه من خدمة أمي ؟" فقالوا: نعم أيهـــا الملك أمها أم عمرو بن كلثوم". قال: " ولِمَ ؟ " قالوا : " لأن أباها المهلهل ربيعة وعمها كليب وائل أعز العرب وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب وابنها عمرو وهو سيد قومه " . فأرسل الملك عمـــرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله أن يزير أمه.ففعل وكان الملك عمرو بن هند قد أوعز إلى أمه أن تنحي الخدم وتستخدم ليلى إذا دعا بالطُرف(الطعام). فدعا الملك عمربن هند بمائدة، ثم دعـــا بالطُرف فقالت هند: " ناوليني يا ليلى ذلك الطبق ". فقالت ليلى: " لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها ".فأعادت عليها، فصاحت ليلى: " وأذلاه يا لتغلب " فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم في عـــروقه ووجهه فوثب إلى سيف الملك عمرو بن هند وهو معلق بالرواق، وليس هناك سيف سواه، فضـــرب بـــه رأس الملك عمرو بن هند، ونادى في بني تغلب، فانتهبوا ما في الرواق، وساقوا نجائبه وساروا نحو الجزيرة، وفي ذلك نظم ابن كلثوم بعض معلقته:

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظـــرنا نُخـــبركَ اليقينا[69]

بأنا نُورد الرايات بيضاً و نصدرهن حُمراً قد روينا[70]

ثم وجـــه اللـــوم العنيف إلى الملك عمرو بن هند لاستماعه للوشاة، وسلوكه مع قومه سلوكاً مزرياً، محاولا النيل من كرامتهم، أو الانتقاص من هيبتهم، وهنا يتهكم به الشاعر مرة أخرى يطالبه بالتريث، ثم يصـــف إباء قومه وعزهم، وعنادهم وصلابتهم، ويذكر عدداً من سادة قومه وعظمائهم، ويذكر الشـــاعر أن من يحاول المساس بقومه يدقون عنقه، فهم أقوى الناس وأنبلهم، وأشدهم شكيمة، وفي الوقت ذاته أوفى الناس بالعهود:

ورثنا المجد قد علمت معد نطاعن دونه حـــتى يبينا

وأيامٍ لنا غُرّ طوالٍ عصينا الملكَ فيها أن ندينا[71]

بأيّ مشيئةٍ عمروَ بنَ هندٍ تكونُ لقيلهم فيها قطينا[72]

بأي مشيئة عمروَ بنَ هندٍ تطيع بنـــا الوشاة وتزدرينا[73]

---

[69] -أبوا هند: يا عمرو بن هند.

[70] - نأخذ راياتنا إلى الحرب بيضا ثم نرجع بها حمراً من دم الأعداء .

[71] -أيام: معارك.طوال.طوال: مشهورة حاربنا الملوك حتى لا نخضع لهم.

[72] -القيل : الملك أو الرئيس . القطين : الخادم

[73] -ازدرى : احتقر

تهددنا وتوعدنا رويداً ! متى كنُا لأمكَ مقتوينا[74]

فإن قناتنا يا عمروُ أعيت على الأعداء قبلك أن تلينا[75]

ثم راح يذكر مواقف قومه في الشدائد، فهم يصمدون وقت الخطر، وبأنهم يعودون من حروبهم بملوك أعدائهـم أسـرى في حين يرجع الآخرون بالنهاب والسبايا، ثم انتقل إلى تحذير بني بكر خصومهم، ونبهم إلى معرفة حقيقة قومه قبل أن يقدموا على أي تصرف ضدهم، فهم أصحاب الكتائب الخبيرة بالطعن والرمي والمدججين بكل أنواع الأسلحة، ولاسيما بالسيوف والدروع المحكمة التي تترك الصدأ أثراً لها على جلود الأبطال من طول لبسهم إياها:

إليكم يابنيَّ بكر أليكم ألما تعرفوا منا اليقينا

ألما تعلموا منا ومنكم كتائب يَطعِننَّ ويرتمينا

ورثناهن عن آباء صدق ونورثها إذا متنا بنينا

ثـورة عاطفـية قويـة، وهيجان شديد فهو سيد في قومه يعتز بسيادته وسيادة قبيلته، وينتصر لتلك السيادة. نزق حاد لا يحترم الملك، ولا يقيم له كبير وزن، فتخطى حدود الحقيقة، وكأن قصيدته أشبه بنشيد قومي حماسي:

ونحن غَداةَ أوقد في خزازى رفدنا فوق رفِد الرافدينا[76]

وكنُا ألا يمنين إذ التقينا وكان ألا يسرين بنو أبينا

فصالوا صولةً في من يليهم وصُلنا صولةً في من يلينا[77]

فآبوا بالنهابِ وبالسبايا وأُبنا بالملوك مُصَفدينا[78]

ثم راح يذكـر أن البطولة في قومه ليست مقصورة على الرجال، بل إن البطولة في نسائهم كذلك، فـلهن دور عظـيم في الحرب، فهن مع كرمهن وجمالهن وأصلهن وما هن فيه من ترف ورفاهية وما كفلوه لهن من الحماية والاهتمام_ إذا دقت ساعة الخطر يمتلئن حمية وثورة، ويتوقدون حماسة وغيرة، ويقمن بإعداد ما يلزم الجيش من مؤن وذخائر، ويطالبن الجنود باستلاب الأعداء وانتزاع أسلحتهم، وبرمي الأسرى في الأغلال، وهم يؤمنون إذا لم يحموهّن فلا يستحقون الحياة، ولا يحميهن إلا ضرب تتطاير منه سواعد الأعداء شظايا:

---

[74] -- مقتوون : خدم (يعملون بالخدمة)

[75] -يعني أن نفوسنا لم تذل للملوك قبلك حتى تذل لك الآن .

[76] -خزازى : اسم جبل ومعركة من معارك العرب.

[77] -صال :هجم . يلي: يقرب من .

[78] -مصفدون : مقيدون بالأصفاد .

على آثارنا بيضٌ حسانٌ   نُحاذر أن تقُسمَ أو تهونا[79]
ظعائنُ من بني جُشَمِ بن بكر   خلطنَ بميسمٍ حسباً ودينا[80]
أخذن علــى بعولتهن عهداً   إذا لاقــوا كتائب معلميــنا
ليستلبن أبــداناً وبيضــاً   وأسرى في الحــديد مقرنيــنا
يقُتْنَ جيادنا ويقلن : "لستم   بعولتنا إذا لم تمنعونا"[81]
إذا لم نحمهنّ فلا بقينا   لشيءٍ بعدهنّ و لا حيينا
إذا الملك سام الناس خسفاً   أبينا أن نُقرّ الذلّ فينا[82]
ألا لا يحسَبِ الأعداء أنا   تضعضعنا وأنا قد ونينا[83]
كأنا والسيوفُ مسللاتٌ   ولدنا الناسَ طُراً أجمعينا[84]

ثم راح يرفع قدر قومه فوق جميع الناس، وقال أن القبائل تعرف أن قومه الحماة في الشدائد، الكرام في القحــط، الأوائل المقدمون في كل شيء، يدين لهم الجميع بالولاء، وفيهم المقدرة والكفاية، وهم الأباة الصناديد، فلا يجرؤ أحد على المساس بكرامتهم وألا كان جزاؤه أنكى وأعنف، وأقر الجميع لهم بالإجلال والتعظيم، وفيهم الكثرة والقوة في البحر والبحر:

وقد علم القبائلُ من معد   إذا قُببٌ بأبطحها بنينا[85]
بأنا العاصمون بكل كحل   وأنا البــاذلون لمجتــديــنا
وأنا المنعمون إذا قدرنا   وأنا المهلكون إذا أتيــنا
وأنا المانعون لماَ أردنا   وأنا النازلون بحيث شيــنا
ونشرب إن وردنا الماء صفواً   ويشرب غيرنا كدراً وطيــنا
لنا الدنيا ومن أضحى عليها   ونبطشُ حين نبطش قادرينا
ألا لا يجهلن أحدٌ علينا   فنجهلَ فوقَ جهل الجاهلينا[86]

---

[79] –بيض: نساء.تهون:أن تقسم: نخاف أن يأسرهن الأعداء فيقسمن بين المتحاربين.تهون: تذل.

[80] –الظعينة : المرأة . ميسم : علامة جمال تضاف إلى جمالهن شرف النسب والحسب .

[81] –يقتن جيادنا: يعلفن خيولنا . تمنعونا : تحافظون علينا ،تحمونا .

[82] –خسفاً :ظلماً ويعني إذا الملك ظلم كل الناس فنحن وحدنا لا نقبل بظلمه .

[83] –وني : الضعف.

[84] –يعني إذا سللنا سيوفنا في الحرب شعرنا كأننا ولدنا جميع الناس يجب علينا أن نحميهم ولنا القدرة على ذلك .

[85] –القبة : الخيمة من جلد وتكون للملوك والرؤساء . ألا بطح :الأرض المستوية .

[86] –الجهل : يعني هنا ضد الحلم والأخلاق   إذا سفه أحد علينا أخلاقنا زدنا عليه في السفاهة .

إذا بلغ الفطامَ لنا صبيٌّ تَخِرّ له الجبابرُ ساجدينا !

ملأنا البر حتى ضاق عنا وظَهرُ البحر نملأهُ سفينا

فخـــر ومبالغة شديدة وثقة بالنفس وهنا تظهر دوافع النفس وصراعاها في إبراز فضائلها وقوها أمام الأعداء والأصدقاء، ملأت معلقة ابن كلثوم الأفاق، وأخذت شهرة واسعة في عالم الأدب، وكان بنو تغلـــب صغاراً وكباراً يحفظوها ويتغنون بها لما حوته من الحماسة القبلية والمجد القومي، حتى قال فيهم بعض البكريّين:

ألهى بني تغلبٍ عن جُلِ أمرهم قصيدةٌ قالها عمرو بنُ كلثومِ

يُفاخرون بها مُذ كان أولهم يا للرجالِ لشعرٍ غير مسؤومِ

لـــدى الوقـــوف عند شخصية الشاعر عمرو بن كلثوم تبدو جلياً قوة الانفعال الشديد وعدم ضبطه والسيطرة عليه، الذي يقتلع كل شيء، أنه الكبر والغرور الذي يمثل أنفة البدوي الذي لا يقبل الذل، ولا يرتضـــي الضـــيم.وهنا ندرك مدى خطورة الانفعالات على النفس الإنسانية وما تتركه من آثار مدمـــرة على الفرد والمجتمع والحياة، ولذا فليحرص كل فرد على هدوء أعصابه، فلقد قتل الشاعر الملك انتقاماً لغروره وكبريائه وإرضاء لدوافعه المتصارعة في موقف طائش.والحديث النبوي الشريف يـــبين أن الشديد ليس بالصرعة، وإنما الشديد من يمسك نفسه عند الغضب.وكم حري بالإنسان أن يجاهد أهواءه كما يجاهد أعداءه !!وجزى الله خيراً القائل:

إذ كنت بين الجهل والحلم قاعدا وخيرت أنى شئت فالحلم أفضل

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال:سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

(مـــن كانـــت الدنيا همهُ، فرق الله عليه أمرهُ، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له.ومن كانت الآخرةُ نيتهُ، جمع الله له أمرهُ، وجعل غناه في قلبه وأتتهُ الدنيا وهي راغمةٌ).

عنترة بن شداد العبسي

قال أفلاطون:

(مـن القبـيح أن نكسـح من كرومنا فضل الورق والقضبان. ولا نكسح من أنفسنا الشـهوات. ومـن القبـيح أن نمتنع من الطعام اللذيذ لتصح أبداننا. ولا نمتنع عن القبائح لتصفو أنفسنا).

عفيف النفس مترفع عن كل دنيء، كريم شجاع رقيق الشعور، فكان صادقاً حيث باح بخوالج نفسه في شـعر إنسـاني مؤثر، فجاء غزله لوعة كاوية ودمعة سارية وسلوكه مثالاً يحتذى به. ولدسنة**525** وتوفي**615**م لأم حبشية الأصل واسمها زبيبة حيث سباها شداد العبسي في إحدى غاراته، وكان يعد من أشراف قومه، فقام عنترة في بيت أبيه بما يقوم به العبيد، فرعى الإبل والخيل، و لا بد لأبن الأمة مـن أن تجري في رقبته تقاليد الجاهلية القاضية باستعباد أولاد الإماء، فنشأ قوي الشكيمة واشتدت سـاعده، فلم يعد أحد يجرؤ على التحرش به، والتجاوز على حقه، لكنه ترقب الفرص لأجبار أبيه على الاعتراف به وإلحاقه بنسبه، وما إن عُرف عنترة بالشجاعة حتى راح يقود الكتائب في غزوات متوالية على أعداء قومه من طيء وغطفان وحنيفة وغيرهم، وراح في حرب داحس والغبراء يبرز قائداً عنـيداً شـديد الشكيمة، ويقضي معظم أيامه على صهوة جواده عليه درعه وحسامه، ويملأ الأرض حوله بذكر شجاعته الحكيمة البعيدة عن التهور والمفعمة بنبل أخلاقه. ولكن تلك الانتصارات لم تمح ولم تُزل الاحتقار له من صدور أبناء قومه، بل جلبت وأضافت إليه الحسد، ففاض حاسدوه بالتعبيرات والشـتائم، فكان ذلك مبعث ألم حياته كلها، ومما زاد عنترة ألماً أنه أحب ابنة عمه عبلة، فنفرت منه ونفـر بها ذووها لظواهر الشاعر(أسواده وفلح شفتيه، ثم لكونه غير أصيل في عروبته من جهة أمه). فقضـى عنـترة حـياته يسترضي ابنة عمه ويتحبب إليها بذكر مآسيه ووقائعه العظيمة من شجاعة وفصاحة وكرم أخلاق، مما يغطي سواد جلده وشوائب نسبه. ويبدو عنترة من ناحية أخرى بطل الحب العفـيف المعذب الذي يغامر في سبيل ابنة عمه، وّيغالي في طلبها ولكن بينه وبينها عقبات صعاباً من عمه مالك وابن عمه عمرو، ومزاحمة من عمارة بن زياد عليها وكلهم شديدو الغيرة، وكلهم شديدو الرقابة والعناد، وتزداد العقبات ازدياداً بالغاً، وتشتد كذلك حاجة عبس إلى فارسها المغوار، ويشتد بطشـاً وأقدامـا في ذلـك المـيدان الواسـع، ويبعث الضربات أثر الضربات فتطير النفوس قبل الأجسام. وقبل كل شيء كان عفيف النفس تسمو به عفته فوق ما عرف عنه عند كثير من الشعراء، فهو إن زار امرأة لم يزرها إلا وزوجها حاضر فيقول:

أغشى فتاة الحي عند حليلها وإذا غزا في الجيشِ لا أغشاها

و إن بدت جارته غض طرفه صيانة للأخلاق والقيم وضمان حق الجيرة، فهو مثال الإنسان العصامي

الأبي والذي يرعى حرمة الحقوق ويصونها ويزود عنها:

وأغضُّ طرفي ما بدت لي جارتي حتى يُوارى جارتي مأواها

والسبب في ذلك يتجلى في أن عنترة مالك لزمام نفسه ولا يتبع هواها، فسلوكه سوي يراعي فيه الأعراف والعادات والقيم والمثل العليا، وهذا يبين بجلاء عفته وسمو أخلاقه وتميزه في عصر جاهلي كادت تكون تلك الخصال الحميدة والفريدة بالصفات النادرة:

إني امرؤٌ سمحُ الخليقة ماجدٌ لا أُتبعُ النفسَ اللجوجَ هواها

وتتسع عفته اتساعاً عظيماً، وإذا هي تترفع عن كل دنيء، وهذا عنترة يترفع عن اغتنام الأسلاب من الأعداء في حومة الوغى، فسلوكه السوي مثالاً للفارس الشجاع الأبي الذي لا يجهز على جريح مادام لا يرفع سلاحه ولا يشهره:

هلا سألتِ الخيلَ يا ابنةَ مالك إن كنتِ جاهلةً بما لم تعلمي

يُخبركِ من شهدَ الوقيعةَ أنني أغشى الوغى وأعفُّ عندَ المغنم

وكذلك يترفع عن المسألة وعن المأكل غير الكريم الذي لا يليق بكرامة الإنسان، ويقهر نفسه باحتمال الألم والصبر حتى يحين وقت الطعام اللائق به:

ولقد أبيتُ على الطوى وأظلُّهُ حتى أنالَ به كريمَ المأكلِ[87]

ويترفع عن الإساءة والدنية إلى الغير لأنه سهل المعاشرة، طيب الأخلاق، فهو حليم صبور، و سلوكه قويم وما حدث قط أن ظلم أحداً، ما لم يظُلمه أو يتجاوز الحدود عليه، وكم من مرةٍ في المعارك عفا عن الجرحى والمصابين لأنهم أصبحوا غير قادرين على الحرب:

أثني عليّ بما عَلمتِ فإنني سهلٌ مخالقتي إذا لم أُظلمِ[88]

ولكن صبره هذا ليس ضعفاً كما يتضح من القول السابق، فإن ظُلمه أحد طالب بحقوقه، وكانت مطالبته شديدة والويل لمن يظلمه فسينال العقاب المرير الذي يستحقه:

فإذا ظلمتُ فإن ظُلمي باسلٌ مُرٌّ مذاقتُهُ كطعمِ العلقمِ

فهو يعرف حقوق غيره، فإذا غزا لا يفكر في سبي النساء أبداً لأنه يؤمن بكرامة الإنسان وعزته من غير مهر لأن نفسه تأبى العار، ولا يأخذ سلعة أحد إلا ويعطي عنها ضعف ما يأخذ.وعنترة إلى ذلك كريم، وكرمه عن سجيّة فهو يُحسن استعمال المال في لهوه، فيشرب الخمر ويستهلك ماله فيما "عِرضه وافرٌ لم يُكلمِ "ولم يدنس بالسوء، وإذا دعا داعي الندى والعطاء أجاب بقلب رحب ويد

---

87 – الطوى : الجوع .

88 – المخالقة : المعاشرة بخلق حسن .

مبسوطة:

فإذا شَربتُ فإنــني مُستهلِكٌ مالي وعِرضي وافرٌ لم يُكلمِ
وإذا صحَوتُ فما أقصرُ عن ندَي وكما عَلِمتِ شمائلي وتكرُمي

فعنترة فارس شجاع وشريف، فالشجاعة طبع فيه والفروسية حاله الطبيعية، بل الإقدام على الوقائع والدفاع عن عشيرته شفاء لنفسه وبرء لسقمها فهو درعها الحصين أثناء الملمات:

ولقد شفى نفسي وأبرأ سُقمها قِيلُ الفوارس : " ويكَ عنترَ أَقدمِ "

ويوضــح أنــه لا يزال على صهوة جواده مستعداً لكل طارىء، يسهر لأجل راحة أهله وعشيرته، فيقتحم الأهوال جلداً صاباً صعب المراس حيث تخشاه الفوارس وتتقي طعناته:

إذ لا أزالُ على رِحالهِ سابحٍ نَهدٍ تعاوِرُهُ الكماةُ مُكلمِ

يقتحم الموت غير هيّاب لكونه بطل الوقائع فلا يخشى الفرسان، وينقض عليهم كالصاعقة التي لا تبقي ولا تذر:

فعليه أقتحم الهياج تقحماً فيها وأنقضُ انقضاضَ الأجدل

إلا أن شــجاعة عنترة ليست تهوراً فقد كان مقتصداً في شجاعته مفكراً في طريقة استعمالها لا يبذل مــنها إلا بمقدار مجتهداً في استعمال هذا المقدار لنيل الكثير من التأثير. وقد ذكر صاحب الأغاني أنه قيل لعنترة: " أنت أشجع العرب وأشدها" قال:" لا". قيل: "فبماذا شاع لك في هذا الناس؟ ".قال: " كنت أُقدم إذا رأيت الإقدام عزماً وأحجم إذا رأيت الإحجام حزماً ولا أدخل موضعاً لا أرى لي منه مخــرجاً.وكنت اعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثني عليه وأقتله ".وبلاء عنترة في الحروب لم يقسِ قلبه بل كان رقيق الشعور قوي العاطفة، وذلك لأنه " عز بعد ذلة وتحــرر بعد رقّ". فالعذاب والذل يدخلان النفس فيختلطان بها ويصفيان عواطفها ويلطفان مزاجها، وهذه الرقه رافقت الشاعر في جميع المواطن فهو رقِيق القلب حتى على عدوه الذي يقتله، وحتى على فرسه الذي يخوض به المعارك:

فأزوَرَّ من وقَعِ القنا بِلبَانِه وشكا إليَّ بعبرةٍ وتحمحُمِ
لو كان يدري ما المُحاورَةَ اشتكى ولكانَ لو عَلِمَ الكَلامَ مكلمي

لله درك أيها الفارس كم أنت فنان!! تجاوزت براعة الفن في نقل مشاعر حصانك عندما تصفه، وتبدع في نقــل مشــاعره، لعلك صنعت لوحة أدبية تعد من روائع الأدب في تبادل الأحاسيس بين الفارس وجــواده!.وســبب تــألم عنترة لأنه كان مستعبداً وهو الحر واسود البشرة وهو الأبيض السريرة، ومحسوداً تهزأ به قبيلته وهو الكريم العالي النفس، ومحروماً وهو المحب الصادق الخالص المحبة، والعفيف

في محبته. وقد رافقه الألم طول حياته يعمل في عقله فيزيد من أفكاره ووساوسه النفسية ويؤلم شخصيته ويصقلها، ويعمل في خياله فيصفيه، ويعمل في قلبه فيرقق عاطفته ودوافعه، وكان عنترة صادقاً في تفكيره وخياله وعاطفته وشعوره، وظهر على صدقه صبغة فطرية ساذجة، فراح يتحدث بلواعج نفسيه وكأنه عالم نفسي يستبطن[89] مشاعره من غير رثاء ولا تلون، فكان غزله يصدر عن قلب متيم بحب عبلة حباً شريفاً وشديداً، وهو لا يرغب في سواها وهي العالمة بهذه الرغبة الملحة الأمينة:

ولئن سألتَ بذاكَ عبلةَ خَبَّرَت أن لا أريدُ من النساء سواها

وحبه لعبلة صادق وسخي حتى يطيب له ويسره أن يبذل لها نفسه بكل رضا، وساعده عقله الكبير وحكمته أن يبتعد عن كل ما يسوؤها، ويتجنب كل ما يضايقها، أليس هذا علماً بخفايا المشاعر الإنسانية ! بوركت في نقل المشاعر ووصفها !! وهذا يسمى منهج التداعي الحر في علم النفس عندما يطلق عنترة العنان للنفس في أن تعبر وتقول ما يخطر ببالها من مشاعر وأحاسيس دفينة:

وأجيبُها إما دعت لعظيمةٍ وأعِينُها وأَكُفُّ عما ساها

هذا الحب هو حب فيه تألم ومعاناة، لأن الحبيبة بعيدة، وأن كانت صورها أبداً حاضرة يمكن استدعاؤها من مخزون الذاكرة، إلا أن عنترة صبغ الغزل بصبغة الألم الذي يمازجه شيء من اليأس والقنوط، فاللوعة عنده ناطقة بلسان الشوق، وكم هي صعبة محطات الانتظار عند العشاق، لأن قطار مسافات الزمن لا يسير كما يتمنى الولهان، فأيام اللقاء ثواني بتقويم أهل الهوى تنقضي بسرعة؟:

قالوا : " اللقاءُ غداً بمنعرجِ اللوى واطولَ شوقِ المُستهامِ إلى غدِ !

وقد يتحول الشوق إلى نار محرقة، وما أجمل عنترة !! عندما يستنطق المشاعر والأحاسيس والانفعالات عندما وهي تتكلم عن ذاتها بهذه الحرقة والأنين ؟ :

وتَخالُ أنفاسي إذا ردَّدتها بينَ الطُّلولِ محَت نقوشَ المبرَدِ

اللوعة ناطقة بلسان الشكوى والتظلم، ولقد أحسنت التعبير عن الألم والمعاناة ؟:

وقد أبعدوني عن حبيبٍ أُحبُهُ فأصبحتُ في قفرٍ عنِ الأنسِ نازحِ

و تستحول اللوعة إلى دمعة منحدرة وتنهمر رقراقة فاضحةً ما في القلب من جوى، ويشعر الآخرون بجرح الشوق والحنين للحبيبة؟ وهل بمقدور القلب المفجوع إخفاء ألامه إن أخفى دموعه؟:

أُعاتِبُ دهَراً لا يَلينُ لناصحِ وأُخفي الجوى في القلب والدمعُ فاضحي

---

[89] -يستطبن نفسه: أي يتأمل نفسه من الداخل فيقول ويصف ما بها من أنين وحرقة وألم وهذا هو التأمل الذاتي ووصف المشاعر.

ويعـــبّر عـــن لواعج نفسه، ولكنه أراد من جهة أخرى أن يُسكت معيريه وحساده ويملأ عين عبلة، فتنســـى لونـــه وما يرميه به خصومه، فأشاد بأمجاده في ساحات القتال وحسن بلائه في حرب داحس والغبراء:

إن كنتُ في عَددِ العبيدِ فهمتي فوقَ الثُّريا والسِّماكِ الأعزلِ[90]

ويذابلي ومهندي نِلتُ العُلى لا بالقَرابة والعديدِ الأجزلِ[91]

و يســـتدعي عـــبلة لتشهده في المعارك وتسمع عنه، بل هي دائما أمام عينيه يخاطبها وينبه فكرها إلى أعمالـــه الغراء، ويحرضها على تتبع مواقفه، فتوقن أنه أفضل من حساده ومعيريه، ومن ميزات عنترة وصـــفه لشجاعة الفارس الذي يهاجمه مفاخراً، ففارسه بطل عنيد جبار، لكن عنترة يصرعه ويفاجئه بضربة أو طعنة وهو أسلوب مؤثر في الافتخار:

ومُدَججٍ كَرِهَ الكماةُ نزالهُ لا مُمعنٍ هرَباً ولا مُستسلِمِ

جادت يداي له بعاجلِ طعنةٍ بمثقفٍ صدقِ الكُعوب مقَّومِ

فتركتُهُ جَزَرَ السباعِ ينهشنهُ يَقضُمنَ حُسنَ بنانه والمِعصَمِ

و يتكـــلم في وصـــف الأسلحة وصليل سيوفها وطعنات رماحها، ويعتمد على وقائع تاريخية، ويدع لخياله أن يضخم الحوادث الحربية ويصبغها بالصبغة الملحمية، كما يضخم الجو الحربي ويرسم أبعاده بأروع التفاصيل، فإذا هي في جوها الملحمي غير مكروهة ومحببة للنفوس:

إذا ما مشوا في السابغاتِ حَسِبتهم سيولا وقد جاشت بهن الأباطحُ[92]

يبث عنترة الحياة بشعره فيظهر رونقها في وصفه وقصصه بحيث يترك أثاراً واضحة على كافة أشعاره، ومـــن أســـاليبه في ذلك الانفعال الوجداني والتشخيص والتشبيه المؤثر فتراه يشخص فرسه والرماح وصليل السيوف وصهيل الخيل في مشهد حي يعيشه الفرد ويحس به:

فأزورَّ من وقعِ القنا بلبانهِ وشكا إلي بعبرةٍ وتحمحُمِ

فجاءت لغة عنترة في شعره الحماسي متوثبة متدافعة، ينفخ فيها النفس الحماسي البطولي، فتجري مع طعنات الرماح وجلبة المقاتلة واندفاع الخيول في موسيقى تحمل على الحماسة وتدفع إلى الإقدام:

والخَيلُ تَعلمُ والفوارسُ أنني فرقتُ جمعهمُ بضربةِ فيصلِ[93]

---

[90] –السماك الأعزل :كوكب

[91] –الذابل : الرمح

[92] –السابغات: الدروع الطويلة . الأباطح:.الأباطح : جمع أبطح وهو مسيل واسع فيه رمل وحصى .

[93] –الفيصل : السيف القاطع

ويمتلىء شعر عنترة الحماسي بالانفعالات النفسية والهيجانات العاطفية المتألمة الشاكية المسترضية، وفي أشد ساحات المعركة ضراوة، تتناوشه صور الحبيبة المشرقة مع لمعان السيوف:

ولقد ذكرتُكِ والرماحُ نواهلُ   مني وبيضُ الهند تقطُرُ من دَمي

فوددتُ تقبيلَ السيُّوفِ لأنها   لمعت كبارقِ ثغرِكِ المُتبسمِ

ومما يروى أن عنترة قد عمّر طويلاً، وكانت له أيام مشهورات في حرب داحس والغبراء فحارب الفرس في معركة ذي قار (عام البعثة 610م).ولما وصل خبر تلك المعركة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (" هذا أول يوم أخذت فيه العرب من العجم بحق "). اشتهر عنترة بفنين من فنون الشعر هما: الغزل والحماسة، فكان غزله عفيفاً خلوا في بعض الأحيان وخشناً في بعضها الأخر، واشتهر بالحماسة وحماسته قسمان:أولهما حوادثه الشخصية، وثانيهما هجومه في قومه بني عبس على الأعداء.

ويقال أنه مات قتيلا في إحدى المعارك من قبل الأسد الرهيص جبار بن عمرو الطائي، ولعل عنترة مات عزباً لم يتزوج عبلة على حسب زعم بعض المصادر، فعبلة تزوجها رجل غيره، وقد نظم عنترة معلقته في أعقاب حرب داحس والغبراء ليعاتب عبلة، ويفتخر أمامها بشجاعته وكرمه وليعاتب أباه وعمه اللذين ضنّا بعبلة زوجاً له:

هل غادرَ الشعراءُ من متردمِ   أم هل عرفتَ الدارَ بعد توهمِ[94]؟

ثم راح يخاطب عبلة مفتخراً بخصاله وسجاياه الحميدة:

إن تُغدفي دوني القناعَ فإنني   طبٌّ بأخذ الفارس المستلئمِ[95]

أثني عليّ بما علمتِ فإنني   سهلٌ مخالقتي إذا لم أُظلمِ[96]

فإذا ظُلمت فإنّ ظلمي باسلٌ   مُرٌّ مذاقته كطعم العلقمِ[97]

ولقد شربتُ من المدامة بعدما   ركَدَ الهواجرُ بالمشوف المُعلمِ[98]

بزجاجةٍ صفراءَ ذاتِ أسرّةٍ   قُرنت بازهرَ في الشمال مُفَدّمِ[99]

فإذا شربتُ فإنني مستهلكٌ   مالي وعرضي وافرٌ لم يُكلمِ[100]

---

[94] –متردم: المكان المتهدم والمعنى هل ترك الشعراء طللاً لم يقفوا بعد عليه (فعنترة لم يعد يعرف طلل عبلة بل توهمه توهماً)

[95] –اغدف القناع : أسدله على الوجه . طب: حاذق ،عالم وخبير .المستلئم :اللابس الدرع.ويعني أنه يتغلب على الفارس الذي يلبس درعاً ولا يتغلب على امرأة تسدل على وجهها قناعاً ؟

[96] –سهل مخالقتي : معاشرتي سهلة .

[97] – باسل : كريه . العلقم: نبات مر .

[98] –المدامة : الخمر .ركد الهواجر : سكن الحر وشدته .المشوف المعلم : الدينار الذي تظهر نقوشه بوضوح .

[99] –أسرة : خطوط . ازهر : ابريق من فضه براق مفدم : صاف شفاف

يــبين عنــترة صفاته الأخلاقية من شجاعة وإقدام وتسامح وطيبة قلب، ويحك يا عنترة: أنت أقوى الفرسان، وكل صفات الرجولة متوافرة فيك وتنحني أمام الغرام لتبين له صفاتك، وأنت علم في رأسه نار !!:

وإذا صحوت فما أُقصر عن ندى   وكما علمتِ شمائلي وتكرمي
هلاّ سألتِ الخيل ياأبنة مالك   إن كنت جاهلة بما لم تعلمي ؟
يُخبرْكِ من شهِد الوقيعةَ أني   أغشى الوغى وأعِفّ عند المغنم
ومدجج كرِهَ الكماةُ نزاله   لا مُمعنٍ هرباً ولا مستُسلم
جادت يداي له بعاجل طعنةٍ   بمثقف صدقِ الكعوب مقوم
فشككتُ بالرمح الأصم ثيابه   ليس الكريم على القنا بمحرم

ويمضي عنترة بإخبار ابنة عمه المتجاهلة له، بأن المعارك تعرف شمائله الطيبة في العفو والصفح لأجلها، وكـــم مـــن فـــارس خشي الفرسان نزاله فعاجله عنترة بضربة قاتله، جعلت بقية الأعداء مذعورين مشدوهين بفعلته.ووقف عنترة ذات مرة على أطلال ديار الأحبة فانسابت من جوارحه قصيدة شوق تضج بها جوارحه فيقول (خليُّ القلب):

يـــا دَارُ أيـــنَ ترَحَّـــلَ السُّكانُ   وَغَـــدت بهم مـــن بَعدنـــا الأظعـــانُ
بـــالأمسِ كـــانَ بكَ الظباءُ أوانساً   واليـــومَ فـــي عَرصـــاتكِ الغُربـــانُ
يـــا دَارَ عَبلَـــةَ أيـــن خيـــمَ قَومُها   لَمـــا سَرتْ بِهِمُ المَطـــيُّ وبـــانـــوا
نَـــاحَتْ خَميـــلاتُ الأرَاكِ وقد بَكى   مـــن وَحشـــةٍ نَـــزَلتْ عَليـــه البـــانُ

يقـــف عـــلى الأطـــلال ويسألها أين الأهل والأحبة؟ فلا يسمع سوى الريح والغربان التي تنعق في عرصاتها، فيعود إلى نفسه حزينا مهموماً، ويمضي متسائلاً أين حطت بهم الرحال بلوعة المشتاق؟:

يَـــا دارُ أروَاحُ المَنـــازِلِ أهلُـــهَا   فَـــإذا نـــأوا تَبكيـــهُمُ الأبـــدَانُ
يـــا صَاحِبي سَل ربـــعَ عَبلةَ واجتهد   إن كـــانَ للربـــعِ المُحيـــلِ لـــسانُ
يـــا عَبل مـــا دَامَ الوصـــالُ لَيالياً   حَـــتى دَهانـــا بَعـــدهُ الهُجـــرانُ
لَيـــتَ المَنـــازلَ أخبَرتْ مُســـتخبِراً   أيـــنَ اســـتقرَّ بأهلهـــا الأوطـــانُ

نعـــم أن الديار المقفرة من الأهل والأحبة تحزن القلب وتدمي العين، ويتمنى لو أن تخبره هذه المنازل المقفرة أين حل الربع ؟، كي يرسل سلاماً وشوقاً من قلب أضناه البعد والهجر لمن سكنوا الجوارح!!:

[100] –وافر : موفور . يكلم : يجرح .

يـا طـائراً قـد باتَ يندب إلفهُ ويَنُـوحُ وهـو مُولَّـةٌ حَـيرَانُ
لو كُنـتَ مِثلي مـا لبستَ مُلوناً حُسِـناً ولا مـالتْ بـكَ الأغصـان
أيـنَ الخَلـيُّ القلبِ ممـن قلبـهُ مـن حَـرِّ نِـيرَانِ الجـوى مَـلانُ
عُرِّنِي جَناحَكَ واسْـتعرْ دمعي الذي أفنَـى ولا يفنَـى لـهُ جَرَيـانُ
حَتَّـى أطـيرَ مُسـائلاً عن عَبلة إن كـان يُمكـنُ مِثلـيَ الطـيران
ويطلب من ذاك الطائر الحزين، أن يتبادلا الهموم ويتمنى عليه أن يعيره جناحه عسى يستطيع اللحاق بالأحبة، لكن أنى له الطيران وهو المجروح؟ وهيهات لمجروح ومقهور الطيران!ولعنترة العبسي شعر في الفخر والحديث عن الزمان والشكوى من جوره فيقول:
بان الشَباب وأمسى الشَيبُ قـد أزِفا ولا أرى لِشَباب ذاهِبٍ خَلَفـا
إذا كشف الزمـان لك القنـاعا ومـدّ إليـك صرف الدهـر باعـا
فلا تـخش الـمنية والتقيـها و دافـع مـا استطعت لـها دفاعـا
و لا تـختر فراشـاً مـن حرير و لا تـبكِ الـمنـازل والبقـاعـا
هكـذا الـزمان كشف عن أقنعته الموجعة لعنترة، وجعله يتألم لرحيل الشباب، وكم هي الحياة أشد قسوة عندما يطرق المشيب أبواب الشباب !!:
و حولـك نسوة يندُبـن حـزنا و يهـتكن البـراقـع واللـفاعـا
يقـول لك الطبيب دواك عندي إذا مـا جـسّ كفـك والذراعـا
ولو عرف الطبـيب دواء داءٍ يـرد الـموت مـا قاسى النـزاعـا
ومـاذا يفـيد البكاء والنحيب والعويل أيها الطبيب الذي تجتهد وتبحث عن المرض العضال المنذر بـالهلاك، وما بوسعك أن تفعل، سامحك الله أيها الطبيب فليس لدواء الحب من شفاء إلا من أحبهم القلب، ولكن هيهات؟ فقد امتلأت قافلة الشباب بالمشيب الذي يبشر بالموت وأهلا ومرحباً بالموت شافياً:
و في يوم المصـانـع قـد تركنا لنـا بفـعالنـا خـبرا مشـاعـا
أقمـنا بالـذوابـل سوق حرب وصيـرنـا النفـوس لـها مصـاعا
حصـاني كـان دلال الـمنايا فخاض غـمارها وشـرى و بـاعـا
وسيفي كـان في الهيـجا طبـيباً يداوي رأس مـن يشكو الصـداعـا
لا احد بمقدوره يستطيع أن ينفي بطولة عنترة، فلقد كان سيف عنترة طبيباً لمداواة الأوجاع والصداع في ساحات الوغى، وكم من معركة قادها بسيفه؟ وحقق الأمن والسلام لأهل الحبيبة ! والوقائع التي

حقق فيها تقر وتشهد بفروسيته بشأن ذلك:

أنا العبد الذي خُبرتَ عنه   وقد عاينتني فدع السماعا
ولو أرسلت رمحي مع جبان   لكان بهيبتي يلقى السباعا
ملأت الأرض خوفا من حسامي   وخصمي لم يجد فيها أتساعا
إذا الأبطال فرت خوف بأسي   ترى الأقطار باعا أو ذراعا

ومن روائع الدرر التي قالها عنترة العبسي في الفخر والحكم البالغة، حيث راح يمارس إرشاداً نفسياً لقومه بقوله:

لا يحملُ الحقدَ من تعلو بهِ الرُتبُ   ولا ينالُ العُلا من طَبعُهُ الغَضَبُ
ومن يكُن عَبدَ قومٍ لا يُخالفُهم   إذا جَفوهُ ويسترضي إذا عَتَبوا
قَد كُنتُ فيما مَضى أرعى جِمالَهُمُ   واليومَ أحمي حِماهُم كُلما نُكبوا
للهِ دَرُّ بني عَبسٍ لقد نَسلوا   منَ الأكارمِ ما قد تَنسُلُ العَرَبُ
لئن يعيبوا سَوادي فَهوَ لي نَسبٌ   يَومَ النِزالِ إذا ما فاتني النسبُ

صعبة الحياة وكم هي مملة ومؤلمة؟ عندما يجازى صاحب الخير بالنكران والجحود ممن أحبهم القلب وخاصة الأهل والأحبة ! لعل الموت أرحم من قهر وظلم الإنسان لأخيه الإنسان وتنكره له بعد عهد طويل من المحبة والوفاء!، سامح الله بني عبس على فعالهم، فلهم أن يعيبوا سواد عنترة حسبما يرغبون ويقولوا بشتمه ما يحلو ويطيب لهم:

إن كُنتَ تعلمُ يا نُعمانُ أن يدي   قَصيرةٌ عنكَ فالأيامُ تنقلبُ
اليوم تعلمُ يا نُعمانُ أي فَتىً   يَلقى أخاكَ الذي قد غَرَّهُ العُصَبُ
إن الأفاعي وإن لانت ملامِسُها   عِندَ التَقلُّبِ في أنيابِها العَطَبُ
إذا التقيتَ الأعادي يوم مَعركةٍ   تَركتُ جَمعَهُمُ المغرورَ يُنتهَبُ
لِيَ النُفوسُ وللطيرِ اللحومُ   وللوحشِ العِظامُ وللخيالةِ السَلَبُ
ما زِلتُ ألقى صُدورَ الخيلِ مُندفقاً   بالطَعنِ حتى يَضِجَّ السرجُ واَللَبَبُ
وَالنَقعُ يَومَ طِرادَ الخَيلِ يَشهدُ لي   والضَربُ والطعنُ والأقلامُ والكُتُبُ

يعصر الألم قلبه المنكسر لكنه سيظل كبيراً في حربه وطعانه غنياً بحبه أبياً في معاملته وشهماً في جسارته، ولينكر فروسيته من ينكر! وينساه من ينسى بطولته وشجاعته، فالمعارك والوقائع هي الفيصل بين الأقوال والأفعال، ففيها تبان الرجال.ولعل من أروع فخره ما قاله عندما وقع في الأسر، فتنطلق زفرات الحنين وآهات الشوق إلى الأحبة لؤلؤاً يتدحرج على وجناته فيقول:

فَخرُ الرِجالِ سَلاسِلٌ وقُيودُ   وكَذا النِساءُ بَخانِقٌ وعُقودُ
وَإِذا غُبارُ الخَيلِ مَدَّ رِواقَهُ   سُكري بِهِ لا ما جَنى العُنقودُ
يا دَهرُ لا تُبقِ عَلَيَّ فَقَد دَنا   ما كُنتُ أَطلُبُ قَبلَ ذا وَأُريدُ
فَالقَتلُ لي مِن بَعدِ عَبلَةَ راحَةٌ   وَالعَيشُ بَعدَ فِراقِها مَنكودُ

يحق له الفخر بهذه الأغلال والقيود الموجعة لأنها تزين عنقه كما تزين الأساور والحلى أعناق النساء، فأهلا بالموت الذي فيه راحته بعد عبلة لأنه يرى لا خير في حياة دون ابنة عمه عبلة:

يا عَبلَ إِن تبكي عليَّ فقد بَكى   صَرفُ الزَمانِ عليَّ وهو حَسودُ
يا عَبلَ إِن سَفَكوا دمي فَفَعائِلي   في كُلِّ يومٍ ذِكرُهُنَّ جَديدُ
لهفي علَيكِ إِذا بقيتِ سبيَّةً   تَدعينَ عَنتَرَ وهوَ عَنكِ بَعيدُ
ولقد لقيتُ الفُرسَ يا ابنةَ مالكٍ   وَجُيوشُها قد ضاقَ عَنها البيدُ
وتَموجُ مَوجَ البَحرِ إِلا أَنَّها   لاقت أُسوداً فوقَهُنَّ حَديدُ
يا عبلَ كم من جَحفَلٍ فَرَّقتُهُ   والجَوُّ أَسوَدُ والجِبالُ تَميدُ
فَسَطا عليَّ الدَهرُ سَطوةَ غادِرٍ   والدهرُ يَبخَلُ تارةً ويَجودُ

كما أنه يتأسف لدموع عبلة المنهمرة بسبب أسره والواقعة في الأسر أيضا، ويعز عليه ذلك، ويعزيها مرشداً وموجهاً، بأن الحياة فيها السار والمؤلم وها هو يقع ضحية الأسر وها قد جنى الزمان عليه بالأسر، فالرجال العظام هم الذين يذوقون الآلام، ويوصها بأن لا تخاف عليه ولا تحزن رأفة وإشفاقاً عليها، ويذكرها بأنه شهد الموت وسط المعارك والقتال ولم يخف قط، ويمضي عنترة بإرسال أشواقه لها وللأحبة من خلال سجنه قائلاً:

أُعاتِبُ دهراً لا يلينُ لعاتبٍ   وأَطلُبُ أمناً من صُروفِ النوائِبِ
وتوعدُني الأَيّامُ وعداً تَغُرُّني   وأعلمُ حَقّاً أَنَّهُ وعدُ كاذِبِ
خَدَمتُ أُناساً واتَّخذتُ أَقارِباً   لِعَوني ولَكِن أَصبحوا كالعقارِبِ
يُنادونني في السلمِ يا ابنَ زبيبةٍ   وعندَ صدامِ الخيلِ يا ابنَ الأَطايِبِ

يعاتب الدهر، و منذ متى كان الدهر منصفاً ورحيماً به! وللأسف يرى محبة الناس له من قومه فقط في أيام الحرب، ووقت السلم يكون مكروهاً مذموماً، وما هو عندهم إلا سوى العبد الأجرب، يا للغرابة في أخلاق الناس وطباعهم المتقلبة ؟ أليست هذه شواهد نفسية حقيقية لمعاناة واقعية تعكس تعامل الناس على مر العصور؟:

ولولا الهوى ما ذَلَّ مثلي لمثلهم   ولا خضَعَت أُسدُ الفَلا للثعالِبِ

سيَذكُرُني قومي إذا الخيلُ أَصبحت تجولُ بها الفُرسانُ بينَ المضارِبِ
فإن هُم نسوني فالصوارِمُ والقنا تُذكِّرهُم فعلي ووقعَ مضارِبي
فيا ليتَ أَنَّ الدهرَ يدنـي أَحبَّتي إليَّ كما يُدني إليَّ مصائبي

نعم إن حبه ووفاءه وإخلاصه هو السبب ونقطة ضعفه التي تجعله ذليلاً لقومه في ذلك، ويتساءل منذ متى كانت الأسود تنحي للثعالب!!، ولكنهم ويا للأسف نسوا انتصاراته في الحرب وأمنيته أن يقربه الدهر من ابنة عمه عبلة كما تدنو منه المصائب في ساحات الطعن:

وليتَ خيالاً منكِ يا عبلَ طارقاً يرى فيضَ جفني بالدُموعِ السواكِبِ
سأصبِرُ حتّى تطَّرِحني عواذلي وحتّى يَضجَّ الصبرُ بينَ جوانبي
مَقامُكِ في جَوِّ السَماءِ مَكانُهُ وباعي قَصيرٌ عن نَوالِ الكَواكِبِ

وسيظل طيف عبلة نوراً يشع في قلبه ما دام ينبض بالحياة رغم فيض الآلام ووجعها، وقهر الزمان وغدر الأهل لكنه سيصبر رغم استحالة المنال ووعورته.وينشد عنترة العبسي أجود العبرات في الشوق وقسوة الزمان وغدره فيقول:

حَسَناتي عِندَ الزَمانِ ذُنوبُ وَفَعالي مَذَمَّةٌ وعُيوبُ
ونصيبي من الحبيبِ بعادٌ ولغَيري الدُنُوُّ منهُ نصيبُ
كُلُّ يومٍ يُبري السُقامَ مُحبٌّ من حَبيبٍ وما لِسُقمي طَبيبُ
فَكَأَنَّ الزمانَ يهوى حبيباً وكَأَني عَلى الزَمانِ رَقيبُ
إنَّ طيفَ الخيالِ ياعَبلَ يَشفي وَيُداوي بِهِ فُؤادي الكَئيبُ
وهَلاكي في الحُبِّ أهونُ عِندي من حياتي إذا جفاني الحبيبُ
ولقد ناحَ في الغُصونِ حَمامٌ فَشَجاني حَنينُهُ والنَحيبُ

يصف لواعجِ الشوق التي لا ترحم و يندب غدرَ الزمان وقسوته عليه ويحلم بطيف عبلة عله يشفي جراحه كي ينفض عنه غبار الهموم والأوجاع التي تراكمت عليه، حتى حنت طيور الحمام ورقت لحزنه وشكواه:

باتَ يشكو فِراقَ إِلفٍ بَعيدٍ وينادي أنا الوحيدُ الغريبُ
ياحَمامَ الغُصونِ لو كنتَ مثلي عاشقاً لَم يَرُقكَ غُصنٌ رطيبُ
فاتركِ الوَجدَ والهوى لمُحبٍّ قَلبُهُ قد أذابَهُ التعذيبُ
كُلَّ يومٍ له عِتابٌ معَ الدهرِ وأمرٌ يحارُ فيهِ اللبيبُ
وَبلايا ما تنقضي وَرزايا ما لها من نهايةٍ وخُطوبُ

سائلي يا عبيلَ عنــي خبيــراً وشُجاعاً قــد شَيبتــهُ الحُــروبُ
فَسَينبيكِ أن في حَـــدِّ سَيفــي مَلَكَ المــوتِ حاضرٌ لا يَغيــبُ
يَضحكُ السيفُ في يدي ويُنادي ولهُ فــي بَنانِ غَيــري نَحيــبُ
فَدعَوني من شُربِ كأسِ مُــدامٍ من جَــوارٍ لَهُنَّ ظَرفٌ وطيــبُ

ويطلــب مــن حمام الغصون والأيك انقضاء الخطوب وأهوالها التي تقرع قلبه الحزين منتظراً وحالماً بالفــرج بجــوار أحبته، مبيناً شجاعته وأقدامه في معارك الفخار والبطولة.ويمضي عنترة شاكياً غدر الــزمان وقسوته وعزوف قومه عنه، ولاسيما عندما وقع في الأسر، فتنساب أروع الأقوال المؤثرة في النفس:

دهتني صُروفُ الدهرِ وانتشَبَ الغدرُ ومن ذا الذي في الناس يصفو لُه الدهرُ
وكم طرقتنــي نكبــةٌ بعــد نكبــةٍ فَفَرَّجتُهــا عنــي ومــا مَسنــي ضُــرُ
ولولا مَنانــي والحُســامُ وهِمَّتــي لما ذُكــرت عَبــسٌ ولا نالهــا فَخــرُ
بَنَيتُ لَهُــم بَيتــاً رفيعــاً من العُــلا تَخرُّ لــهُ الجَــوزاءُ والفَــرغُ والغَفــرُ
وها قد رَحلتُ اليــومَ عَنهــم وأمرُنا إلى من لهُ في خَلقِــهِ النهــيُ والأمــرُ
سَيذكُروني قومــي إذا الخَيــلُ أقبَلت وفي الليلــةِ الظلمــاءِ يُفتَقَــدُ البَــدرُ
يعيبــونَ لونــي بالسَــوادِ جَهالــةً ولولا سوادُ الليــلِ مــا طلــعَ الفجرُ
وإن كان لونــي أســوداً فَخصائلــي بياضٌ ومــن كفــي يُستنــزلُ القطــرُ
محوتُ بذكري في الورى ذكرَ من مضى وســدْتُ فلا زيــدٌ يُقــالُ ولا عَمــرُو

يــبين عنترة غدر الزمان المستمر له، ويندد بنكران العشيرة لبطولته طالما نذر حياته لها وكم من مرة قــدم روحه قرباناً فداء لأهله وعشيرته، ويتألم لتكبرهم وترفعهم عنه وبالحديث عن سواد لونه بينما نسوا سواعده البيضاء في ساحات الوغى والطعان.إن شخصية عنترة شخصية البطل الشجاع الكريم القــويم الســلوك امتازت بالحكمة والطيبة والشهامة ولم يعرف عنها الانحراف، فيمثل التوزان بكل المقايس النفسية، لقد استطاع من خلال أقواله ومواقفه أن ينقل مشاعره وانفعالاته أحسن نقل.فمثل الشخصــية الســوية الــتي ناضلت من أجل المساواة والقيم ومحاربة الفروق الطبقية، لقد مثل ثورة الإنسان السوي على العادات والتقاليد البالية، ودعا للتمسك بالقيم والأخلاق، فعمل مرشداً نفسياً في انفعالاته وكل مواقفه، وضرب أروع الأمثلة في الوفاء وصون الأهل ودرء الأخطار عنهم، وهكذا يدفــن في الدنــيا الملك بجانب الخادم، والرئيس بجوار الحارس، والشاعر المشهور مع الفقير الخامل، والغــني مع المسكين والفقير والكسير، ولكن داخل القبر أعمال مختلفة ودرجات متباينة، قال تعالى(

وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون).

رحم الله هنري بيرجسون عندما قال:

(كثيراً ما نرى الأشياء على غير حقيقتها، لأننا نكتفي بقراءة العنوان، ومن الأفضل أن لا تتخذ قراراً حتى تدرسه من جوانبه كافة، ثم استخر الله وشاور أهل الثقة، فإن نجحت فهذا المراد، وألا فلا تندم).

لبيد بن ربيعة العامري

حكمة:

(مــر السيد المسيح عليه الصلاة والسلام بقوم من اليهود، فقالوا له شراً.فقال بهم خيراً.فقيل له: أنهم يقولون شراً، وتقول: خيراً ؟!فقال: كل واحد ينفق مما عنده).

ونرحل لبعض حكماء العصر الجاهلي، الذين نود التعرف على حكمهم والإفادة من بعضهم، إنه لبيد بــن ربيعةالذي لا يُعرف له تاريخ ولادة ولكنه توفي سنة661م، حيث نجد حكمه منثورة في قصائد مــتعددة له، وتنساق في نغمة روحية صافية في تسبيح الله وذكر الدين مستنيرة بضوء عبرة الماضين وموعظــتهم، وقــد ألبس هذه الحكمة نغماً حزيناً كئيباً تتجلى في رثاء أخيه وفي بكاء موتاه.فاتجه في نفســه وأفكاره إلى الله، وهو يدري أن كل شيء يؤول إليه، وان كل ما في الدنيا هالك إلا وجهه الكــريم فإنــه باق أزلي، ويعلم أن كل نعيم في الحياة مصيره الزوال، وإن الناس يذهم الموت ويفرق بينهم، وكل فرد صائر إلى يوم الحساب، يوم تكشف السرائر ويعلم الإنسان ما قدمت يداه وإلى أين صــائر، حيث يقول لبيد واعظاً الناس ومنبها لهم أن كل ما تراه العين سيحل به يوما الهلاك،وهذا ما قدره عز وجل وحكم به، وسيؤول إليه الأمر من قبل ومن بعد وفق أسلوب رقيق اللفظ:

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم — بلى :كل ذي لب إلى الله واصل

ألا كل شيء ما خلا الله باطل — وكل نعيم لا محالة زائل

وكل أناس سوف تدخل بينهم — دويهة تصفر منها الأنامل

وكل امرئ يوما سيعلم سعيه — إذا كشفت عند الله المحاصل

حمل لبيد حكمه أثقال السنين بسلوكه وهموم الدهر قولاً وفعلاً، وعمل مرشدا لبني البشر إلى حقيقة الحياة المريرة، والتي يبدو منها سأمه وضجره، وعلى الأخص في هذا القول:

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع — وتبقى الجبال بعدنا والمصانع

فلا جزع أن فرق الدهر بيننا — وكل فتى يوما به الدهر فاجع

وما الناس ألا كالديار وأهلها — بها يوم حلوها وغدوا بلاقع

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه — يحور رماداً بعد إذ هو ساطع

وما البر إلا مُضمراتٌ من التقى — وما المال إلا عارياتٌ ودائع

وما المال والأهلون إلا وديعة — ولا بد يوماً أن ترد الودائع

يــنظر لبــيد إلى نفسه وإلى الناس وكأنهم أبناء فناء والجميع صائرون إلى البلى، وتبقى حركة الزمان

خـــالدة مســـتمرة تدور ولا تتعب.فالنجوم طوالع كل يوم والبيوت ثابتة لا تتحرك، ودولاب العمر يدور، وينشغل الناس بمتع الدنيا من دون حساب وهم في غفلة، ومن بين هؤلاء الذين أفناهم الدهر أخوه (اربد) الذي يضيق به ويحبه وما ينفع الحب والحرص ما دام قدر الله وأمره نافذ لا محالة؟ وما يفـــيد الجزع واليأس فلا سبيل إلى كل ذلك ما دامت هذه سنة الحياة، وما دام جميع الناس لا يسلم أحد منهم من نوازل الدهر.فالناس كل الناس قد كتب عليهم العذاب وترقبهم المصائب من كل باب، وبعد هذه العبر والشواهد فهل يجوز أن نستهين بالدنيا.والذي يتأمل في الموت ويفكر في فناء الناس، لا يفرح بشيء من متاع الدنيا ولا يجزع إن ألمت به المصائب أو نزلت عليه الكوارث.وينظر الإنسان إلى الديـــار فيراها عامرة آهلة زاهرة وما هي إلا أيام حتى لا تجد منها غير رسوم مقفرة، وآثار بالية تتناوح بها الرياح في عرصاتها، وتقضي على الرسوم التي تركها الإنسان والتي تبقى ويزول واضعها، والمـــرء كما يراه لبيد يشبه النار في سرعة زواله وفنائه، فهو ما أن يراها ساطعة منيرة حتى تعود بعد لحظـــات رماداً هادئاً بالياً لا خير فيه، ولا مطمع في مغانم الدنيا ومفاتنها، فالإنسان في هذه الحياة لا يملك بيده سلاحاً يستطيع أن يدافع به عن نفسه، وإن كان ما يجمعه من مال ما هو إلا وديعة مستردة في يوم من الأيام؛ حتى أنه نفسه وديعة أيضاً على هذه الأرض، ولا بد له من يوم فيعود فيه إلى بارئه وخالقـــه، فيمضي مع أقرانه وخلانه وجيرانه إلى وادي الفناء، وكأنهم إبل يزجرها راعيها، يسوق ما تفرق منها ليضمه إلى القطيع السائر، وهنا يؤكد لبيد حقيقة كبرى وهي: أن الموت يصيب كل حي ولا ينجو منه أحد.فيقول:

إنما يحفظ التقى الأبرار ... وإلى الله يستقر القرار

وإلى الله ترجعون وعند الله ... وِردُ الأمور والإصدار

كل شيءٍ أحصى كتاباً وعلماً ... ولديه تجلت الأسرار

إن يكن في الحياة خيرٌ فقد ... أُنظِرتُ لو كان ينفع الأنظار[101]

عشتُ دهرا ولا يدوم على ... الأيام إلا يرمرم وتعار[102]

فهـــو يتحدث عن التقوى والأبرار والعمل الصالح، وأن الناس معروضون على الله يوم القيامة، وقد أُحصي كل شيء في كتاب، والموت حق لاشك فيه، وعلى كل إنسان أن يفكر في مصيره.

بـــدأ لبيد معلقته بالحديث عن حال الديار وما آلت إليه. فقال: إن معالمها قد درست حتى كادت لا تـــرى، فقد هجرت منذ سنين وأصبحت لا يدخلها آمن ولا خائف لخرابها، و هطلت عليها سحب

---

[101] -الأنظار : التأخير

[102] -يرمرم وتعار : جبلان في نجد

الربيع والأمطار الشديدة في شدة أحياناً، وفي لين أحياناً، وفي الليل، وفي الصباح، وفي العشى، وأيام الدجن، برعود يتجاوب صداها فطال نباها، وتناسلت فيها قطعان البقر والظباء والشاء، فوقف يسأل الأطلال ولكنه تعجب من سؤاله حينما وجد نفسه يتكلم مع أثار صم لا تستطيع الكلام:

عفت الديار محلـها فمقامها   بمـنى تأبـد غـولها فرجامها

رزقت مرابيع النجوم وصابها   ودق الرواعد جودها فرهامها

فعلا فروع الأيهقان وأطفلت   بالجلهتين ظـباؤها ونعامها

فوقفت أسألها وكيف سؤالنا   صمًّا خوالد مـا بين كلامها

ثم اسـتعاد وقـت الفراق، فتحدث عن الظعائن وكانت هوادجهن قد كسيت بالقماش والستائر، وفرشـت بالأثاث الفاخر، وسار بهن الموكب حثيثاً، في وسط الوديان والجبال يلفها السراب، بينما يعتصر فؤاده الألم، ولكن لا حيلة له ولا حول:

شاقتك ظعن الحي يوم تحملوا   فتكنسوا قطناً تصر خيامها

حفزت وزايلها السراب كأنها   أجزاع بيشة أثلها ورضامها

ثم عاد يسأل نفسه: وماذا تتذكر ممن حالها بعيد عنك، وقد انقطع جديد وصلها وقديمه، وهي ليست من أهلك، وبينك وبينها مسافات بعيدة شاسعة ؟ ثم انتهى إلى قطع الصلة بمن تغير حاله:

بل ما تذكر من نوار وقد نأت   وتقطعت أسـبابها ورمـامها

مرية حلت بفيد وجاورت   أهل الحجاز فأين منك مرامها

فاقطع لبانة من تعرض وصله   ولشر واصل خلـة صرامـها

وقطـع الصلة يكون بمفارقته والتسلية عنه بالصبر. وخير ما يكون ذلك بالسفر على ناقة مدربة على الأسـفار حـتى صارت ضامرة، ومهما نالها من التعب والإعياء فإن نشاطها يظل كما هو، فتجري بسـرعة شديدة وهنا يقدم علاجاً نفسياً باعتماد الرحلات الترويحية لتعزية النفس وانشغالها بمؤثرات جديدة كي تخفف وتحل مكان المؤثرات السابقة المؤلمة، فيقدم نفسه كعالم نفساني يدرك جراح النفس:

بطليح أسـفار تركن بقية   منها فأحنق صلبها وسـنامها

فإذا تغالى لحمها وتحسـرت   وتقطعت بعـد الكلال خدامها

فلها هباب فـي الزمام كأنها   صهباء راح مع الجنوب جهامها

ثم أراد أن يوضـح سرعتها، فصورها بصورة أتان قد استبان حملها، تجرى هاربة من فحل يطاردها، وهو حمار عنيف فيه آثار طرد الفحول وضربها بأرجلها وعضها، فأخذ يعلو بها الهضاب والمرتفعات، وقد رابه منها امتناعها عليه ورغبتها فيه، وكانت الحجارة التي تتطاير بفعل الجري تجعل أعلاماً ليعرف

بها الطريق تثير خوفهما، فينطلقان بسرعة أكثر. ولما أنقضى موسم البرد، وكان قد طال صيامهما عن المــاء. وجاء الصيف فتطايرت أشواك السنابل وهبت الريح الشديدة الحرارة. عزما على ورود الماء، فانطلقا مسرعين يثيران غباراً كثيفاً يغطي الشمس، وقد حرص الحمار على أن تكون ((الأتان)) أمامه حتى لا تحاول الفرار أو العدول عن الطريق، إلى أن وصلا إلى جدول فتوسطا ناحية منه، وشققا عيناً محاطة بقصب منه ما هو مائل، ومنه ما هو قائم، وذلك حيث يقول:

أو ملمع وسقت لأحقب لاحه طرد الفحول وضربها وكدامها

يعلو بها حدب الاكام مسحجاً قــد رابه عصيانها ووحامها

فمضى وقدمها وكانت عادة منه إذا هــي عردت أقدامها

ثم أراد أن يزيد السامع بياناً عن سرعة ناقته، فأورد لها لوحة أخرى، تعد بحق من نفائس الأدب العربي في الوصف والتصوير والأحاسيس، وهي صورة بقرة وحشية مذعورة، أكل السبع ولدها، فتخلفت عــن القطيع، وظلت تبحث عن ولدها، وتصيح به لئلا يكون النبات قد أخفاه، ولكن ذئاباً كاسرة افترســته، والتهمت أشلاءه على حين غفلة من أمه، وباتت ليلة قاسية على الأم الثكلى، هطل فيها المطــر غزيراً على هذه الخميلة، وتلبدت السماء بالغيوم، فحجبت النجوم، وأطبق الظلام، وكانت البقرة بيضاء، فبدت في وسط السواد الحالك شديدة البياض، وخيمت الرهبة والوحشة على المكان. فامــتلأت الــبقرة فزعاً ورعباً، وتملكها القلق والاضطراب فتنحت جانباً، واحتمت بشجرة طويلة الفــروع في طرف كثيب رملي، ولكن المطر كان يهطل على ظهرها بغزارة فتزداد رعشة، حتى إذا أسفر الصبح، أسرعت مبكرة لتغادر مأواها، ولكن قوائمها كانت تزلق ولا تثبت على الأرض لكثرة مــا بها من الطين، وأخذت تجوب المكان، وتتردد بين الغدران ذهاباً وجيئة سبعة أيام بلياليها في حيرة وفــزع. حتى يئست من العثور على ولدها، وجف ضرعها، وبينما هي في حزنها وكآبتها سمعت صوتاً خفــيفاً لناس لا تراهم، والناس مصدر هلاكها، فزادت رعباً، وأحست أن الخطر محدق بها من كل جانب، فانطلقت بأقصى سرعة، ولكن الصيادين تبعوها، واستمروا في مطاردتها حتى أعياهم إدراكها أو نيــلها بــرماحهم، فأطلقوا عليها كلاباً مدربة ضارية فلما أحست البقرة أن الكلاب على وشك الــلحاق بهــا، التفتت إليهن وأنشبت فيهن قرونها الطويلة الحادة، فصرعت منهن وأصابت. فكانت سرعة هذه البقرة صورة لسرعة ناقة الشاعر التي بها يقضي حاجته حين يشتد الحر، ويكسو السراب جميع البقاع والوديان والجبال. وبها يؤدى ما عليه من الالتزامات حتى لا يكون عرضة للوم أو العتاب:

أفتلك أم وحشية مسبوغة خذلت وهادية الصوار قوامها

خنساء ضيعت الفرير فلم يرم عرض الشقائق طوفها وبغامها

صادفن منها غــرة فأصبنها إن المنــايا لا تطيش ســهامها
حتى إذا انحسر الظلام وأسفرت بكرت تزل عن الثرى أزلامها
حتى إذا يئست وأسحق حالق لم يبلـــه إرضــاعها وفطامها
وتسمعت رز الأنيس فراعها عن ظهر غيب والأنيس سقامها
حتى إذا يئس الرماة وأرسلوا غضفاً دواجن قافلا أعصامها
لتذودهن وأيقنت إن لم تذد أن قد أحم مع الحتوف حمامها

وبدأ القول لحبيبته: أنه يصل من يستحق المواصلة ويقطع من يستحق المقاطعة، ثم استمر قائلاً:إنه يترك الأمكـــنة التي يكرهها، وكثيراً ما قضى الليالي الحلوة اللذيذة، وطرد البرد والقحط بالطعام والكساء وإيقـــاد النيران وهو البطل الحامي، وإليه تناط حراسة أماكن الخطر في الأوقات العصيبة، ليلاً ونهاراً، وكذلك يقرىء ويحسن إذا نزل به الضيف أو الجار وجد عنده النعيم والخيرات:

أو لم تكن تدري نوار بأنني وصـــال عقد حبائل جذامها
تراك أمكنـــة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها
بل أنت لا تدرين كم من ليلة طلق لذيذ لهوهـــا وندامهـــا
قد بت ســـامرها وغاية تاجر وافيت إذ رفعت وعز مدامها
ولقد حميت الخيل تحمل شكتي فرط وشـــاحي إذ غدوت لجامها
أنكرت باطلها وبؤت بحقها يوماً ولم يفخر علي كرامهـــا
أدعو بهن لعاقـــر أو مطفـــل بذلت لجيـــران الجميع لحامها
والضيف والجار الغريب كأنما هبطا تبالـــة فخصبـــاً أهضامها

ثم تحـــدث عـــن نفسه وقومه، فافتخر بقبيلته بأنهم مأوى الأرامل والأيتام والفقراء، ويقدمون الطعام الكثير في أوقات الجدب، وهم في المحافل عظماء الرجال يعتمد عليهم ويحملون الأعباء، ويقومون بكل التكاليف والمشاق، ويؤدون الحقوق، ولا يرد لهم قول، وبيتهم عالي الشرف، الكهل منهم والغلام في الذروة، وحباهم الله بالأخلاق الحسنة وأعطاهم أفضل الحظ والأمانة، يسعون في الخير، ويرجع إليهم في كل أمر لا ينال منهم حاسد ولا يلحقهم لوم حاقد:

إنا إذا التقت المجامع لـــم يزل منـــا لزاز عظيـــمة جشامها
فضلا وذو كرم يعين على الندى سمح كسوب رغائب غنامها
من معشر سنت لهم آباؤهـــم ولـــكل قـــوم سنة وإمـــامها
لا يطبعون ولا تبـــور فعالهـــم إذ لا تميل مع الهوى أحلامها

فبنوا لنا بيتاً رفيعاً سمكه فسما إليه كهلها وغلامها
فهم السعاة إذا العشيرة أفظعت وهم فوارسها وهم حكامها
وهم ربيع للمجاور فيهم والمرملات إذا تطاول عامها
وهم العشيرة أن يبطىء حاسد أو أن يلوم مع العدا لوامها

لدى الرجوع إلى شعره نجد الحكمة الكبيرة المرشدة إلى تبصير الناس لحقيقة الحياة.فلقد اتصف شعره بالحكمة والموعظة الحسنة، فهو يمثل المرشد النفسي المدرك لغرائز النفس الإنسانية، والداعي إلى التأمل بهذه الحياة واعظاً البشر وهاديا للسلوك القويم، ومبيناً بوضوح فلسفة الحياة التي تسير على وفق سنن لا يمكن لعاقل تجاهلها، وأعطى الأمثلة الواعظة وقدم العبر متسائلاً وملفت النظر لحقائق مضت وانقضت ولن تعود.

.ورحم الله المفكر(مارتن لوثر)بقوله:

(ما سعادة الأمم بكثرة أموالها، ولا بقوة استحكاماتها، ولا بجمال مبانيها، وإنما سعادتها بأبنائها الذين تثقفت عقولهم، ورجالها الذين حسنت تربيتهم، واستنارت بصائرهم، واستقامت أخلاقهم. ففي هؤلاء سعادتها الحقة، وعظمتها الجوهرية).

النابغة الذبياني

(فتى كان يحميه من العار سيفه   ويكفيه سوءات الأمور اجتنابها)

انــه رمــز الشجاعة والحكمة فقد استطاع بذكائه أن يتلاءم مع أصعب الظروف قسوة، فهو مثال الصــحة النفســية الــناجحة والتكيف السوي، فقد ذاق مرارة الحياة بمختلف الألوان، لكن إرادته الصــامدة الثاقــبة جعلت منه رائد مدرسة مثالية في العيش وسط أعاصير عاتية، فأنقذ أهله بحكمته، وتــولى رئاسة الشعر ليحكم بين الشعراء في سوق عكاظ بعلمه وحكمته، وفي الوقت نفسه أضحى مثالاً للحنكة وحسن التصرف.فهو أبو إمامة زياد بن معاوية بن سعد بن ذبيان، لا تعرف متى كانت ولادتــه ويقال أنه توفي سنة654م، أحد شعراء الجاهلية الأعلام الذين لا يشق لهم غبار ولا ينازعهم مكانتهم منازع، ويعد رأس الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية، بعد امرىء القيس بشهادة ابن سلام، والــنابغة الذبياني، فشخصيته مرموقة متعددة الجوانب، فهو الجامع في نفسيته خصال الرجولة الحقة، الحكــيم البصــير بمواقع الكلم، الشاعر اللبق في مخاطبة الملوك أو مدحهم، والاعتذار لهم، السياسي المجرب والحنك، الذي يجيد مداورات السياسة وأحد أساليب رجالاتها، وبنفس الوقت الناقد الجريء الذي يناط به أمر الفصل بين الشعراء فيحسن التمييز بينهم عن خبرة بالشعر وطول باع، ولهذا كان الحكم المفضل في محافل"عكاظ " الأدبية.وظهر في عصر اشتبكت فيه قبيلته بعدة حروب منها حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان، فكان عيناً ساهرة على قومه وأحلافهم، وعاش في زمنٍ اشتدت فيه المنافسة بين الحيرة وغسان، فعرف كيف يستغل موقفه بين البلاطين الراغبين فيه، ولقب بالنابغة لغزارة شعره ولنبوغه وتفوقه فيه، واختلف الرواة في سبب تلقيبه به، فقيل لقوله في بعض شعره: (فقد نبغت لنا منهم شؤون)، وقيل لأنه قال الشعر بعد أن كبرت سنه ومات قبل أن يهتر ويذهب عقله، وعلى الأرجــح سمي بذلك لنبوغه في شعره وتفوقه به، فهو ذبياني أبا وأما وكان يكنى بأبي أمامة وأبي ثمامة وهمــا ابنتاه. بدأ حياته بالنزول على النعمان بن المنذر أمير الحيرة ولزومه له حيث راح يمدحه ويتغنى بمناقــبه، وســر النعمان بوفوده عليه فقربه إليه ونادمه، وأجزل له في العطايا والصلات حتى أصبح شــاعره الفــذ، وكــان بلاطه يموج بالشعراء أمثال أوس ابن حجر التميمي، والمثقب العبدي ولبيد العامري، ولكن أحداً منهم لم يكرمه النعمان إكرام النابغة. على أن حادثاً حدث اضطره إلى مغادرة بلاط المناذرة والتوجه إلى بلاط الغساسنة، إذ أوقعوا بذبيان وأحلافهم من بني أسد وقعة منكرة على أثر تعديهم على وادي أُقر الخصيب، وكانوا قد حموه ومنعوا أن ترتاده القبائل، وروي أن النعمان بن الحارث كان قد حمى وادي أقر وهو واد ذو خصب ومياه فاحتماه الناس، وتربعته بنو ذبيان فنهاهم

النابغة وحذرهم وخوفهم إغارة الملك، فتربعوه وعيروه خوفه من النعمان، وكان منقطعاً إليه. وارتادته ذبيان وأسد، فنكل بهما تنكيلا فظيعاً، وسبّا كثيراً منهما ومن نسائهما، فألم النابغة ذلك ألما شديداً فصور الواقع أدق تصوير في قوله:

لقد نهيتُ بني ذُبيانَ عن أُقرٍ   وعن ترَبُعهم في كل أصفار[103]
وقلتُ : يا قومُ إن الليثَ مُنقبضٌ   على براثنه لوثبة الضاري[104]
لا أعرفَن رَبرباً حُوراً مَدامعُها   كأن أبكارها نِعاجُ دُوارِ[105]
ينظرنَ شزراً إلى من جاء عن عُرُض   بأوجُهٍ مُنكراتِ الرق أحرار
يُذرينَ دمعاً على الأشفارِ مُنحدراً   يأمُلن رحلةَ حِصنٍ وابنَ سيار[106]
وعيرتني بنو ذُبيانَ خَشيتهُ   وهل علي بأن أخشاك من عار

فها هو يصور نساء ذبيان وقد أسرن، وهن يذرفن الدموع ويتلفتن يميناً وشمالاً، لعل بطلي قومهما حصن بن عيينة، وزبان بن سيار يقدمان بالجيوش، فيخلصانهن من ذل الأسر والعار، وفي بعض الروايات تجمع أنه كانت بينهن إحدى بناته.ولم يجد النابغة بدّا من أن يسعى إلى الغساسنة وأن يمدحهم، حتى يكفوا عن قومه، ويردوا الحرية إلى من سبوه منهم، فنزل بعمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر بن جبلة، ومدحه مدحاً رائعاً كما مدح أخاه النعمان، فعفوا عمن أسراه، وكان جزاهما من النابغة مديحه الرائع لهما، وظل عندهما يبالغان في إكرامه ويبالغ في مدحهما محاولا بكل ما استطاع أن لا يعودا إلى حرب قومه أو حرب أحلافهم.كان النابغة شاعراً بارعاً يعرف كيف يتخير ألفاظه وكيف ينوع معانيه، وخير مدائحه فيهم قصيدته البائية، حيث يبدأها بوصف الليل وما تجمع عليه فيه من الهموم:

كليني لهم يا أُميمةَ ناصبِ   وليلٍ أُقاسيهِ بطيءِ الكواكبِ[107]
تطاولَ حتى قلتُ ليسَ بمنقضٍ   وليسَ الذي يرْعى النجومَ بآيبِ[108]
وصدرٍ أراحَ الليلُ عازبَ همهِ   تضاعفَ فيه الحزنُ من كل جانبِ[109]

---

[103] -أُقر :واد ، تربعهم :إقامتهم ، أصفار : شهور فصل الربيع .

[104] -لبراثن : الأظفار ،الضاري : متعود الافتراس .

[105] حوراً:: القطيع من البقر الوحشي، فشبه النساء به.حوراً:شدة البياض والسواد. دوار: ما استدار من الرمل.

[106] -الأشفار :هدب العين.

[107] -كليني: دعيني، ناصب : متعب ،بطيء الكواكب : لا تغور نجومه بسرعة

[108] -بآيب: أي ليس يرجع إلى مسقطه.

[109] -وصدر :أي ورب صدر أراح الليل ماكان عازباً أي بعيداً من همه ، لأن المهموم يتعلل بالنهار فينشغل عن هومه.

أنه محزون يخاطب أبنته أمامه، ويشكو لها همومه وأشجانه لما وقع في قبضة الغساسنة من أسرى قومه، فتراه يصور الليل وهمه فيه تصويراً بديعاً، فالكواكب بطيئة لا تجري، حتى ليظن أن النجوم بأضوائها لن تؤوب، والليل يثقل على صدره بما يرد عليه من موجات الهم والحزن.وهي براعة استهلال رائعة تـــدل دلالـــة بيـــنة على شاعر يعرف كيف يجسم معانيه، وكيف يعبر عنها تعبيراً واضحاً مستقيماً بالصـــور، ثم راح يصور جيوش عمرو بن الحارث الغساني وآبائه وعشيرته وما تحقق من انتصارات مدوية قائلا:

إذا ما غزوا بالجيشِ حلقَ فوقَهم عصائبُ طيرٍ تهتدي بعصائب[110]

يصاحبنهُم حتى يغُرنَ مُغارَهم من الضارياتِ بالدماءِ الدوارب[111]

تراهنّ خلفَ القومِ خُزراً عيونُها جلوسَ الشيوخَ في ثيابِ المرانب[112]

لهُنّ عليهم عادةٌ قد عرَفنها إذا عرِضَ الخطيِّ فوقَ الكواثب[113]

فهُمْ يتساقونَ المنيةَ بينهم بأيديهمُ بيضٌ رقاقُ المضارب

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنّ سيوفُهم بهنّ فلولٌ من قراعِ الكتائب

يصـــور النابغة الموقف القتالي بشكل رائع ومؤثر بحيث يستثير دوافع النفس، فالنسور والعقبان خزر العيون وهي تسير خلفهم موقنة، بألها لا بد أن تجد زادها من أعدائهم، وألها على وشك الوقوع على ما تريد من هذا الزاد، ويمضي النابغة فيبين شجاعة الجيش، وما على خيله من أثر للطعان وجروح بـــين مقـــاتل مدم و فارس متجمد عليه الدم.ونلاحظ هنا الدقة في الوصف، وقد صورهم يتساقون كؤوس المنية، كناية عن جرأهم في دق طبول الحرب واقتحامهم لأهوالها، ثم صور كيف يثخنون القتل في أعدائهـــم، ولم يلبث أن جاء بصورة طريفة ظاهرها ذم وباطنها مدح شديد، فالغساسنة لا عيب فيهم إلا عيب واحد، وهو ليس في حقيقته عيباً، بل هو مفخرة من مفاخرهم، فسيوفهم بها فلول من طول قراعها ومضاربتها للكتائب.ثم انتقل يصورهم في سلمهم متحدثاً عن شيمهم وشمائلهم ودينهم ونعيمهم فيقول:

هم شيمةٌ لم يعُطها الله غيرهُم من الجودِ والأحلامُ غيُر عوازب

محلتُهم ذاتُ الإلهِ ، ودينُهم قويمٌ فما يرجونَ غيَر العواقب[114]

---

[110] –عصائب الطير:جماعات الطير من النسور التي تتبع المحاربين وتنتظر القتلى من الطرفين لتقع عليهم.

[111] –الضاريات: المتعودات ، الدوارب: المدربة وهي بمعنى الضراوة.

[112] –خزرالعيون:الذي ينظر بموخر عينه ،المرانب :ثياب سوداء.

[113] – الخطى : الرماح.

[114] –محلتهم:أي أن كتابهم كتاب الله لأنهم نصارى، ولا يخافون إلا عواقب أعمالهم بخوف الله.

رِقاقُ النعالِ طيبٌ حُجُزاتُهم   يُحيونَ بالريحانِ يومَ السباسب[115]

تُحيِيهِمُ بِيضُ الولائِدِ بينهُم   وأكسيَةُ الاضريجِ فوقَ المشاحب[116]

يصونون أجساداً قديماً نعيمه   بخالصة الأردان خضر المناكب[117]

يصفهم بالجود ورجاحة الأحلام والعقول، ثم يأخذ في وصفهم بأنهم متدينون بدين قويم، ولا يلبث أن يقول إنهم يخشون العواقب، فهم رقاق النعال وهم أعفاء النفس(غير ثقلاء في التعامل مع غيرهم) يحيون بالأزهار في يوم (الشعانين)[118] وهو من أعياد النصارى، كما أنهم يلبسون ثياباً بيض المناكب خضر الأكمام، فهو إنما يمدح الغساسنة باسم قومه وقد ضاقت عليه الدنيا بما رحبت، بسبب من أسُر منهم عند ممدوحيه، وكأنه يهيب بهم أن يردوا إليهم حريتهم، وفعلاً ردوها إليه ولم لا ! لما بهرهم به النابغة من هذا المديح الرائع، إذ صور دينهم وترفهم وما هم فيه من نعيم، وقد نظم النابغة:للغساسنة قصيدة رائعة وهو يرتحل عن ديارهم عائداً إلى الحيرة:

لا يُبعِدِ اللهُ جيزاناً تركتُهُمُ   مثلَ المصابيحِ تجلو ليلةَ الظُّلمِ

لا يَبرمونَ: إذا ما الأفقُ جَللهُ   بَردُ الشتاءِ من الإمحالِ كالأدم

هُمُ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ لهمُ   فضلٌ على الناسِ في اللأواء والنعم

أحلامُ عادٍ وأجسادٌ مُطهرةٌ   من المعقةِ والآفاتِ والإثمِ

فهو في ذلك يختلف عن شعراء البادية أمثال زهير في مديحه، إذ كانوا لا يعرفون هذه المعاني ولا تلم بخواطرهم، أما هو فعاش أغلب أيامه في الحيرة وفي بلاط الغساسنة.وعلى هذا النحو كانت سفارته لدى الغساسنة ذات فوائد جليلة لقومه وأحلافهم، ومازال يرعى مصالحهم عندهم حتى توفي عمرو ثم أخوه النعمان، فرأى أن يعود إلى النعمان بن المنذر، وكان قد غضب عليه غضباً شديداً، إذ كان يتخذه داعية له في قومه وكان يرى في نزوله بالغساسنة، ما يدفع ذبيان إلى أن تخرج على ولائها له، فهذا شاعرها وشريفها النابغة يلج في مديح خصومه. وكأنه يعلن بذلك ولاءه وولاء قبيلته لهم. وبذلك كان ذنب النابغة عظيماً، ويذكر أبن قتيبة، أن الرواة" اختلفوا في السبب" الذي حمل الملك النعمان على أن ينذر دم شاعره، على أنه يصعب الإحاطة بأبرز الدوافع التي أوقعت الجفاء بين أبي قابوس والنابغة ويقال إن السبب في مفارقة النابغة وذهابه إلى غسان لخبر يتصل بحادثة

---

115 --الحجزات :معاقد الثياب ،طيب حجزاتهم :كناية عن عفتهم .السباسب:(عيد الشعانين للنصارى في تلك الفترة) .

116 –الولائد: الإماء.الإضريج :لباس من الجلد الأحمر .أي أنهم ملوك ذوو نعمة حيث تقوم الإماء على خدمتهم وثيابهم من الخز.

117 –الأردان : الأكمام . وخلوصها :نصوع بياضها .

118 –يوم الشعانين:عيد من أعياد النصارى المقدسة يحتفلون به كل عام.

المتجردة.والمتجردة هذه، امرأة النعمان، وكانت فائقة الحسن، بارعة الجمال، وكان النعمان على ما يــروى(قصــيراً دميماً أبرش). وقد تعددت الروايات حول وصف النابغة للمتجردة، فمن قائلٌ بأن الــنابغة دخل على النعمان، ذات يوم، فرأى زوجته المتجردة وقد سقط نصيفها فاستترت منه بيدها. فأمره النعمان بأن يصفها له فأنشأ قصيدته، ومن قائل بأن المتجردة هي التي دخلت على النعمان وفي حضرته النابغة فسقط نصيفها. وأن النعمان قال له وعنده امرأته: صفها لي في شعرك يا أبا إمامة فقال قصيدته التي مطلعها:

أمِــنْ آلِ مَيــةَ رائــحٌ أو مُغتَــدِ	عَجــلانَ ذا زادٍ وغيــرَ مُـزَوَدِ
أفِــدَ التَــرَجــلُ غيــر أن ركابنــا	لمــا تــزُلْ بــرِحالنــا وكأن قَد
زَعــمَ البَــوارحُ أن رحلتنــا غــداً	وبذاكَ خَبرنــا الغُــدافُ الأسودُ[119]
لا مــرحباً بغــدٍ ولا أهــلاً بِــه	إن كانَ تفَــريقُ الأحبــةِ في غد[120]
حانَ الرحيــلُ ولَــم تُــودعْ مهدَراً	والصبــحُ والإمساءُ منها موعدي[121]
فــي إثْــرِ غــانيةٍ رمتكَ بسَهمِها	فأصــابَ قلبــك غير أن لم تُقصد
غَنيَتْ بــذلك إذ هُــمُ لكَ جيــرَةٌ	منهــا بعَطــفِ رســالةٍ وتَــوَدُدِ
ولقــد أصابَت قلبَــهُ مِــن حُبــها	عن ظَهــرِ مرنانٍ بسَهم مُصــرِد[122]
نظَــرَت بمُقلَــةِ شــادنٍ مُتــرَبِّــبٍ	أحــوى أحَــمِّ المُقلتيــنِ مُقلــد[123]
والنظمُ فــي سلــك يزينُ نحــرها	ذهــبٌ توقــدُ كالشهابِ المــوقد[124]
صفــراءُ كالسيراءِ أُكمِــلَ خَلقُــها	كالغُصــنِ فــي غُلوائــه المتــأود[125]
والبطــنُ ذو عُكــنٍ لطيــفٌ طيــهُ	والإتــبُ تنفُجُــهُ بثــديٍ مُقعــدِ[126]
محطُــوطةُ المتنيــنِ غيرُ مُفــاضــةٍ	ريــا الــروادف بضــةُ المتجــرد[127]
قامــت تراءى بيــن سجفَــي كلةٍ	كالشمسِ يومَ طُلُــوعها بالأســعدِ[128]

[119] -- الغداف: الغراب الأسود الذي أنذر بالرحيل إذ تعب وإخبر بالفراق إذ نعق حيث كانوا يتطيرون بنعيبها.

[120] --غد:يعني إن كان تفريق الأحبة في غد فلا قربه الله منا وابعده عنا.

[121] --مهدر: اسم جارية والمقصود أنها رمته بطرفها وأصابته بمحاسنها فقتلته إلا أنها لم تنفذ القتل ولو نفذته لاستراح.

[122] --مرنان : القوس ذات الرنين_ السهم المصرد.

[123] --المقلة:الشحمة التي تجمع البياض والسواد في العين. المقلد:لد الظبي.المقلد :الظبي المزين بالحلي والجواهر كناية عن حبيته.

[124] --النظم:الحلي من الجواهر.النحر : الصدر وكأنه النار الساطعة لجمال الحلي والجواهر التي تزين نحرها.

[125] --السيراء:ثوب من الحرير.وكأن المتجردة كالغصن الطويل في رقته ونعومته وجماله ورائحته الذكية.والمتأود :العود اللين السهل طيه.

[126] --البطن ذو عكن:أي أن لحمه ذو ثنيات.الإتب: الثوب.تنفجه: ترفعه.مقعد:منتصب، ويقصد طيات بطنها وثديها الناهد.

[127] --المتنين:يعني أن متنيها ناعمان ومكتنزان وهما عظام بالظهر.أي أن جسمها ممتلىء ومكتنز باللحم.

أو دُرةٍ صدفيةٍ غواصُها بَهِجٌ متى يَرَها يُهِلّ ويَسجُد[129]

أو دُميةٍ من مرمرٍ مرفوعة بُنِيَتْ بآجُرٍّ تُشادُ وقَرمَد[130]

سقطَ النصيفُ ولم تُرِد إسقاطَهُ فتناولَتهُ واتقَتنا باليَد[131]

بمُخضَبٍ رَخصٍ كأن بنانَهُ عَنمٌ يكادُ من اللطافة يعُقَدُ[132]

نظرتْ إليكَ بحاجة لم تَقضِها نَظَرَ السقيمِ إلى وُجُوه العُوَّد[133]

زَعمَ الهُمامُ بأن فاها باردٌ عَذبٌ مُقبلُهُ شهيٌّ المورد[134]

زَعمَ الهُمامُ ولم أذقهُ أنهُ عَذبٌ إذ ما ذُقتَهُ قلتَ: ازدد

زَعمَ الهُمامُ ولم أُذُقهُ أنهُ يُشفَى بِريَّا ريقها العطشُ الصدي[135]

لو أنها عَرَضَتْ لأشمَطَ راهِبٍ عَبَدَ الإلهَ صَرورةٍ مُتعبِّد[136]

لرَنا لبهجَتِها وحُسنِ حَديثِها ولَخالَهُ رُشداً وإن لم يَرشَد[137]

بتكلمٍ لو تستطيعُ سَماعَهُ لدنت له أروى الهضاب الصُخد[138]

ويشير ابن قتيبة قائلاً أن النابغة تمادى في وصف المتجردة بما حمل النعمان على إنذار دمه وأردف ابن قتيبة يقول: (وكان للنعمان نديم يقال له المنخل اليشكري يتهم بالمتجردة ويظن بولد النعمان منها، أنهم منه-وكان المنخل جميلاً و النعمان قصيراً دميماً، فلما سمع المنخل هذا الشعر قال للنعمان: ما يستطيع أن يقول مثل هذا الشعر إلا من قد جرب.فوقر ذلك في نفس الملك، وبلغ النابغة ذلك فخافه وهرب إلى غسان. وإذا كان النابغة يتفوق في المديح تفوقاً ظاهراً، فأنه يتفوق في الاعتذار، وكأن ذوقه الحضري هو الذي أعده لهذا التفوق، إذ نحس فيه رقة في اللهجة وإلحاحاً في التلطف محاولاً أن

---

128 -السجف:الستر الرقيق من الثوب ومعناه أنها غطت وجهها بالثوب الرقيق لكن سطوعه كان الشمس المشرقة بالضياء.

129 -شبهها بالدرة البحرية المسرة للنفس فالفرد الذي يراها يضع جبهته على الأرض شكراً لله على ما وهبه من نفاسة هذه الدرة وجلالة قدرها.

130 -هذه المرأة أشبه بالتمثال المصنوع من الرخام الأبيض والخزف الأحمر فهي مثل دمية بني لها بنيان مرتفع وحملت فيه فهو أصون لها وأحفظ لجسمها.

131 -النصيف : الخمار.

132 -البنان: الأصابع.العنم: شجر أغصانه لينه طرية وينبت بمكة المكرمة.

133 -يريد أنها لم تكن تقوى على بيان حاجتها خوفاً وحذراً وشبه نظرتها بنظرة المريض إلى زواره وهو غير قادر على الكلام.

134 -أراد بالهمام: الملك النعمان حيث يقول هو الذي يزعم بأن ثغرها بارد وتقبيله عذب ومورده شهي.

135 - ريا ريقها: رائحته. الصدي:الظمآن .

136 -الراهب الأشمط:الناسك العابد الذي خالطه شعر الشيب.الصرورة: أراد الراهب أي الذي لم يتزوج.

137 -رنا للشيء: نظر إليه ملياً.خاله:حسبه.

138 -يعني إنها عذبة الحديث لو سمعتها الوعول التي ولت نافرة من النسا لهبطت من الأعالي لتستمع بعذوبة كلامها حتى الحجارة الصماء القوية تلين و تستعذب حديثها.

يزيل من نفس النعمان ظنه السيئ فيه، وقد استعان بموهبته في اختراع الصور والمعاني والتدقيق فيها، مدبجاً في ذلك قصائد طوالا تعد من أروع ما خلفه العصر الجاهلي لا لطولها فحسب، بل لما فيها من صـــدق اللهجة والعاطفة وسهولة اللفظ وحسن ديباجته. وقد أسعفه في ذلك ذوقه الحضاري الذي خلصـــه من خشونة البدو والأنفة الجامحة، فراح يمدح النعمان بن المنذر ويعتذر إليه نافياً عن نفسه ما اهمه به بنو قريع عندما رموه بالمتجردة :

يـــا دارَ مَيــةَ بـــالعليـــاء فـــالسند أقوت وطـــال عليـــها سالفُ الأبد[139]

وقفـــتُ فيهـــا أُصيـــلانـــاً أسائلها عَيــتْ جَوابـــاً وما بالربع من أحدِ

وقف على تلك الديار بمفرده وحيداً باكياً ومثكلاً شاكيا، ومتعبا بعدم الإجابة، وتذكر من كان فيها مـــن أحـــبة، وهاهم اصحبوا خيالاً في ذاكرته يناجيه، ولا يجد سوى الحسرة والألم رفيقاً، وكم من الروعة إن يعيش الفرد مع آهات الذكرى! ولكن ليس لحد الإسراف:

أمست خَلاءً وأمسى أهلُها احتملوا أخنـــى عليهـــا الذي أخنـــى على لُبد[140]

فعـــد عما تـــرى إذ لا ارتجـــاعَ له وانـــمِ القتـــودَ علـــى عَيـــرانـــةٍ أُجُد[141]

كأن رَحلـــي وقد زالَ النهـــارُ بنا يـــومَ الجليلِ علـــى مُستأنسٍ وحِـــدِ

ألم شـــديد لا يحتمل، فـــالدار أضحت خالية من أهلها بسبب رحيلهم عنها، فلقد فسدت معالمها وتبدلـــت، ويصعب التعرف عليها، فما له إلا أن يحزم رحله باكياً وحيداً لا أنيس يخفف عنه جراحه سوى ناقته التي راحت تطارد حر الهاجرة وكأنها ثور بري لا يعبأ بالتعب:

قالت لـــه النفسُ : إني لا أرى طمعاً وإن مـــولاكَ لـــم يسلم ولـــم يصد

فتلـــك تُبلغُـــني النعـــمانَ إن لـــهُ فضـــلاً على الناس في الأدنى وفي البعد

و لا أرى فاعـــلاً فـــي الناس يُشبهه ولا أُحاشـــي من الأقـــوام مـــن أحَد

إلا سُليمـــانَ إذ قـــالَ الإلـــهُ لـــهُ: قُـــم في البريـــة فاحدُدها عـــنِ الفند

وخيسِ الجنِ! إنـــي قد أذِنتُ لهـــم يبنـــونَ تَـــدمُـــرَ بـــالصفاح والعمد

فمـــن أطـــاعكَ فانفعـــهُ بطـــاعته كما أطـــاعـــكَ وادلُلـــهُ على الرشد

ومن عَصـــاكَ فعاقِبـــهُ مُعـــاقَبَـــةً تَنهى الظَلـــومَ ولا تَقعُـــدْ على ضَمدِ

إلا لمثلـــكَ أو مـــن أنتَ ســـابقُـــهُ سَبقَ الجـــواد إذا استولى علـــى الأمد

---

[139] –نية: اسم امرأة. العلياء:المكان المرتفع من الأرض. أقوت:خلت من أهلها.

[140] –لبد:نسر عمر طويلاً حتى ضرب به المثل.

[141] –القتد:أخشاب الراحلة التي توضع على ظهر الجمل مع أمراسها.

وســاوس جمة تقولها له نفسه.! فالشاعر يحتار في وساوس نفسه، أهو الخوف الرهيب من العقاب؟ أم هــو الطمع في عطف من يمنح العطف؟ فالنعمان فاعل للخير ولا أحد بمقدوره أن يجاريه، فهو البحر بمكنونه فيشبه النعمان بسليمان الحكيم لعظيم ملكه، إذ لم يكن لأحد من المخلوقين مثل ملكه، فله من القــوة والشأن مثل ما لسليمان الحكيم من سلطة على الجن، الذين صنعوا أعمدة تدمر من الرخام الجمــيل الــرائع، ويبين النابغة أن النعمان صاحب جود وكرم وعطاء لا مثيل له ففي عطاياه بلسم للجراح وعفو عن المظلومين:

أحكُم كحكم فتاةِ الحي إذ نظرت ... إلى حمـامِ شراعٍ واردِ الثمــــد[142]

يحفهُ جانبا نيقٍ وتُتبعــــــُــهُ ... مثل الزجاجةِ لم تُكحل مــن الرمَدِ[143]

قالت: ألا ليتما هذا الحمامُ لنــا ... إلى حمامتـــنا ونصفُـــهُ فَقَـــد

فحسبوهُ، فألفوهُ، كما حَســـبَت، ... تسعاً وتسعينَ لم تنقُص ولم تَـــزد

فكملت مائةً فيها حمامتــُــها ، ... وأسرعت حِسبةً في ذلك العـــدد

فلا لعمرُ الذي مسحت كعبتهُ، ... ومــا هُريقَ على الأنصابِ من جسد[144]

والمؤمنِ العائذاتِ الطيرَ تمسحُها ... ركبانُ مكةَ بين الغيلِ والسعد[145]

ما قلتُ من سيئٍ مما أُتيتَ به ... إذاً فلا رفعت سَوطي إلى يدي

إلا مقالةَ أقوامٍ شَقيتُ بها ... كانت مقالتُهم قرعاً على الكبد

إذاً فعــاقبــني ربــي مُعــاقبةً ... قَرت بها عينُ من يأتيكَ بالفند

أُنبئتُ أن أبا قابوسَ أو عدَنيْ ... ولا قرارَ على زأرٍ من الأسد

مهلاً فِــداءٌ لك الأقوامُ كلهمُ ... وما أُثمرُ من مــالٍ ومن ولد

لا تقذفني بركنٍ لا كفاءَ لــه ... وإن تأثفــك الأعــداءُ بالرفــد[146]

فما الفُــراتُ إذا هَبّ الريــاحُ له ... ترمي أواذيُّــهُ العبــرَينِ بالــزبــد[147]

يَمُــدهُ كــلُ وادٍ مُتــرع لجــبٍ ... فيــه رِكــامٌ من الينبَــوتِ والخضد[148]

---

[142] -فتاة الحي: المقصود بها زرقاء اليمامة وهي من بقايا طسم وجديس وذكر أبو حاتم أن زرقاء اليمامة كان لها قطاة ومر بها سرب من القطا بين جبلين. فقالت:ليت هذا الحمام لي ونصفه إلى حمامتي فيتم لي مائة. فنظروا فإذا هي كما قالت.

[143] -نيق: اسم جبل وأثناء مرور الحمام بجانبه تجمع مع بعضه حتى صعب معرفة عدده.

[144] --مسحت:لمست من آجل البركة، هريق:سال الدم، الأنصاب: الحجارة التي تذبح عليها القرابين.

[145] -المؤمن : الذي آمنها من الخوف ، العائذات : اللاجئات إلى الحرم ، الغيل والسعد : أجمتان بين مكة ومنى.

[146] -تأثف: تجمع ، الرفد : الجماعات من الناس.

[147] -أواذيه: أمواجه. العبرين:أي جانبي النهر من الناحيتين.

يظل من خـوفه المـلاحُ معتصماً ... بالخيـزُرانَة بعـدَ الأيـنِ والنجد[149]
يوماً بأجـودَ منه سيبَ نافلـة ... ولا يَحُولُ عَطـاءُ اليـومِ دون غَـدِ
هـذا الثناءُ فإن تسمع به حسناً ... فلم أُعرض أبيـتَ اللعـنَ بالصفد
ها إن ذي عـذرةٌ إلا تكُن نفعت ... فـإنّ صـاحِبَهـا مُشـارِكُ النَكـد

يقسـم الـنابغة بأيمانه المغلظة أنه بريء مما يتهم به من غدر، ويستنزل غضب ربه عليه إن كان غير صادق، ولتشل يداه إن كان ما يقول الوشاة صحيحاً. ولا يلبث أن يصور نفسه ضعيفاً أمام النعمان وقوتـه وبطشـه، ويمـثله أسـداً جائعـاً يزأر، وقد وقع منه موقع الفريسة، وسرعان ما يعود إلى الاستعطاف، فالناس جميعاً من غساسنة فداء النعمان، بل إنه ليفديه بماله وولده، ويقول له لا ترمني بما لا أطـيق منك، وأنت الذي لا يستطيع الأعداء مهما تآزروا أن يثبتوا له، ثم يتابع النابغة استعطاف النعمان فيقول:

توهمتُ آيـاتٍ لهـا فَعَـرفتُـها ... لستةِ أعـوامٍ وذا العـامُ سـابعُ
رمادٌ ككُحـلِ العيـنِ لأيـاً أُبينـُهُ ... ونُؤيٌ كجذمِ الحوضِ أثلـمُ خاشع[150]
فكفكفتُ مـني عَبـرةً فـرَدَدتُهـا ... على النحـرِ منـها مُستهلٌ ودامع
على حيـن عاتبتُ المشيب على الصبا ... وقلتُ:ألمـا أصـحُ والشيبُ وازعُ
وقد حـالَ همٌ دون ذلـكَ شـاغلٌ ... مكانَ الشغـافِ تبتغيـه الأصابعُ

أراد معـرفة الديـار بعـد أن درست وتهدمت، فوجد نفسه كأنه لم يعرفها إلا بعد نظر واستدلال، لإفـراط انمحائها ودرسها، وحين نظر للديار وتغيرها وتذكر من كان فيها، أوقفته الصبابة فبكى ثم حذر نفسه بعد أن استهل دمعه على نحره وكف عينه عن البكاء، عما رأى من شيبه وكبره وقد عاتب نفسه على صباه في حين أن المشيب والكبر منعاه عن البكاء على الديار، ولأن الأحبة دخلوا في الفؤاد واستوطنوا فيه حتى أصابه من جراء ذلك داءً:

وعيدُ أبي قابوسَ في غير كُنهه ... أتاني ودوني راكسٌ فالضواجع[151]
فبتُ كأني ساوَرتني ضئيلةٌ ... من الرقشِ في أنيابها السمُ ناقع[152]

---

148 --يمده: يزيد ويقويه.مترع :مملوء .اللجب:ذو الصوت.الينبوت: شجر الخشخاش.الخضد:نوع من النبات يتكسر.

149 --الملاح:صاحب السفينة.الخيزرانة:السكان وهو ذنب السفينة.الأين:الإرهاق والإعياء. النجد: الكرب.والمقصود أن الخوف بلغ أشده عند الملاح حـتى لجأ إلى التمسك بسكان السفينة من ارتجاج أمواج نهر الفرات وهذا وصف لحال النعمان وشدة بأسه.

150 --النوي: حفرة حول الخيمة.خاشع: الشيء اللاصق بالأرض.شبه الرماد بكحل العين والقصود الإشارة إلى تصدع الديار ودرسها.

151 --في غير كنهه: حقيقته، راكس:واد في منازل بني أسد

152 --ساورتني :لدغتني ، ضئلة : أفعى دقيقة الجسم ، الرقش :أفعى منقطة نقطاً بيضاء وسوداء .

يُسهدُ من ليلِ التمـام سَليمُـهـا لحَلـي النساءِ في يديـه قعـاقع[153]

تنـاذرها الراقُونَ من سُوءِ سُمها تُطلقُـهُ طوراً وطوراً تُـراجـع

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني وتلك التي تستك منها المسامع

مقـالةُ أن قلتَ: سوفَ أنـالُهُ وذلك من تلقـاءِ مثلـكَ رائـع

لعمري وما عمري علـي بهـينٍ لقـد نطقت بُطـلاً علي الأقارع

أقـارعُ عوفٍ لا أحاولُ غيرها وُجُـوهُ قُرُودٍ تَبتغـي من تجادع

أتاكَ امـرُؤٌ مُستبطنٌ لِيَ بغضـةً لـه من عـدُوٍّ مثلُ ذلـك شافع

أتاكَ بقولِ هلهلِ النسجِ كـاذبٍ ولـم يأتِ بالحق الذي هو ناصع

أتاكَ بقـولٍ لم أكـن لأقـولهُ ولو كُبلت في ساعدي الجـوامع

حَلفتُ فلـم أترُكْ لنفسكَ ريبةً وهـلْ يأثمنْ ذو أمةٍ وهو طائعُ؟[154]

لكلفتـني ذنبَ امـرىءٍ وتركتَه كـذي العُرّ يُكوَى غيرُهُ وهو راتِعُ

فإن كنتُ لاذو الضغنِ عني مكذبٌ ولا حَلفي علـى الـبراءَة نـافع

ولا أنـا مأمـونٌ بشيءٍ أقـولهُ وأنتَ بأمـرٍ لا محالـةَ واقِـع

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلتُ أن المُنتأى عنك واسع[155]

خطاطيف حُجنٌ في حبالٍ متينة تمدُ بها أيـدٍ إليك نوازع

أتوعد عبداً لم يخُنك أمانةً وتترُك عبداً ظالماً وهو ضالع

وأنت ربيعٌ ينُعشُ الناس سيبُهُ وسيفٌ أعيرتهُ المنيةُ قاطع

أبى الله إلا عدله ووفاءه فلا النكرُ معروفٌ ولا العُرفُ ضائع

وتُسقى إذا ما شئتَ غيرَ مُصردٍ بزوراءَ في حافاتهـا المسكُ كـانع

إن وعـيدك أتـاني وأنا آمن في قومي وبمنازل بنيّ أسد ومن وراءهم، فإنك كالليل لامفر منه وبت مسهداً، كأنما لدغتني أفعى وهي أجمل صورة بارعة لوصف انفعالات النفس ومخاوفها، وقد أخذ يدقق فيها حتى يجسم ألمه، فهي أفعى من الرقش تستودع السم في أنيابها الحادة، فمن عضته لم يلطف به النوم مـن شـدة الألم، وهـي من الأفاعي الخبيثة التي قلما أجابت الرقى، وإن الرقاة والحاوين ليرهبونها

[153] -يسهد:يمنع من النوم.ليل التمام:ليالي الشتاء الطوال.قعاقع: إشارة إلى اساور الحلي التي توضع على الملدوغ لئلا ينام وينتشر السم في جسمه، وهذه من العادات توضع سبعة أيام حتى تنفد عنه الحمى.

[154] -العر : الجرب،داء لابد من استخدام الكي لعلاجه.

[155] -المنتأى: البعد

ويتخوفون من أن يطئوا حماها.ويصور النابغة للنعمان فزعه حين أتاه قولاً بأنه يلومه، ويتخيل النعمان كالليل الذي لا مفر لشخص منه من أن يطبق عليه. وعاد إلى الاستعطاف ويصور له أمانته وأنه لا يخون عهده، بينما من يختانون هذا العهد يقربهم ويرعاهم، ويختم اعتذاره إليه بمديحه والثناء عليه، فهو غيث منعش لأوليائه وسيف مصلت على أعدائه وقد براه الله لرعيته عادلا وفياً، لا يلقى المنكر بالمعروف ولا المعروف بالمنكر، ومن روائع اعتذاراه إليه قوله:

أتاني أبيتَ اللعن أنك لمتني   وتلك التي أهتم منها وأنصب[156]

فبتُ كأن العائداتِ فرشنني   هراساً به يُعلى فِراشي ويُقشبُ[157]

حلفتُ فلم أترُك لنفسكَ ريبةً   وليسَ وراءَ الله للمرءِ مذهبُ[158]

لئن كنتَ قد بُلغتَ عني خيانةً   لمبلغُكَ الواشي أغشُ وأكذبُ

ولكنني كنتُ امرأً لي جانبٌ   من الأرض فيه مُستراد ومذهبُ

ملوكٌ وإخوانٌ إذا ما أتيتهم   أحكمُ في أموالهم وأقربُ

كفعلكَ في قومٍ أراك اصطفُيتهم   فلم ترهُم في شكرِ ذلك أذنبُوا

فلا تتركني بالوعيد كأنني   إلى الناس مطليّ به القارُ أجرب

فلا تتركني بالوعيد كأنني   إلى الناس مطلي به القارُ أجربُ

ألم تر أن الله أعطاك سورةً   ترى كل ملكٍ دونها يتذبذبُ

فإنك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ   إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكبُ

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمه   على شعثٍ أيُ الرجال المهذب

فإن ألكُ مظلوماً فعبدٌ ظلمتهُ   وإن تكُ ذا عُتبى فمثلُكَ يُعتبُ

يصور النابغة نفسه حين بلغه لوم النعمان بمريض، قد أخذته آلام المرض وأهله يسوون له فراشه رحمة به وعطفا عليه، ويحلف له بأنه بريء مما اتهمه الواشون، إذ لا يزال يرعى أمانة عهده، وكل ما هناك أنه ألم بديار الغساسنة، فأكرموه وحكموه في أموالهم، فوجب عليه أن يشكر لهم يدهم وصنيعهم، كما يشكر النعمان من يرعاهم من الشعراء ويغدق عليهم ولا جحود لولائه، وما يلبث أن يرفعه على جميع الملوك من غساسنة وغير غساسنة، فهو كالشمس الساطعة وغيره من الملوك كالنجوم، يتوارون ويبهتون في ضيائه ومجده، وهي صورة باهرة لا شك أنها تركت أثراً بليغاً في نفس النعمان. وقد تلاها

---

[156] -ابيت اللعن: أتاني أمراً تلوم فيه وتلعن عليه.النصب: الأعياء الشديد والتعب.

[157] -العائذات:الزائرات من النساء في المرض .فرشن :أي بسطن لي.الهراس:نبات له شوك.يُقشّب:توتر وتململ من الوعيد.

[158] -الريبة :الشك أي حلفت بالله واقسمت أنني بريء وليس بعد اليمين بالله يمين.

باستعطافه، فصور له ما صبه عليه من غضب، وكأنه القار الذي يصب على الأجرب فيتحاماه الناس، ويعود إلى بيان منزلة، غيره من الملوك فهم لا يرتقون إلى مكانته، بل يضطربون دون سمائه، ويقول له: هب أن مديحي للغساسنة هفوة فاعف عني، فإن لكل شخص هفوة، وأين الأخ الذي لا يهفو ولا يعثر؟ ومثلك حري بأن لا يظلم أصفياءه ومن يخلصون له الولاء، فإن ظلمتني قبلت ظلمك، وإن أسدلت علي عفوك ورضاك فليس غريباً منك، فمثلك يعتب ويصفح الصفح الجميل.وقال في مدح النعمان بن المنذر فأثنى على كرمه ونبل فعاله بعنوان (له بَحْرٌ):

أمِنْ ظَلامَةَ الدمنُ البوالي ... بمُرفضِ الحُبيّ إلى وُعال[159]

فأمواهِ الدنا فعُويرِضاتٍ ... دَوارسَ بعَدَ أحياءٍ حِلالِ[160]

فلما أن رأيتُ الدارَ قفراً ... وخالفَ بالُ أهلِ الدارِ بالي

نَهَضتُ إلى عُذافِرةٍ صَموتٍ ... مُذكرةٍ تَجِلُ عنِ الكَلالِ[161]

فداءٌ لامرىءٍ سارت إليه ... بعذرةِ رَبِّها عمي وخالي[162]

ومن يَغرِف من النعمان سجلاً ... فليسَ كمَن يُتيهُ في الضلالِ[163]

فإن كنتَ امرأً قد سؤتَ ظَنّاً ... بعَبدكَ والخطوبُ إلى تَبالِ

فأرسلْ في بني ذُبيان فاسأل ... ولا تعجل إلي عنِ السؤالِ

فلا عَمرُ الذي أُثني عَلَيهِ ... وما رفعَ الحجيجُ إلى إلالِ[164]

لَما أغفلتُ شُكركَ فانتصحني ... وكيفَ ومِن عَطائكَ جُلُّ مالي

ولو كَفّي اليمينُ بَغتكَ خَوناً ... لأفرَدتُ اليمينَ منَ الشّمالِ[165]

ولكن لا تُخانُ الدهرَ عندي ... وعندَ اللهِ تَجزِيَةُ الرجالِ

لَهُ بَحرٌ يُقَمِّصُ بالعدَولي ... وبالخُلُجِ المُحَمَّلَةِ الثقالِ[166]

ومما يروى من قول بأن النابغة عندما بلغه خبر النعمان بأنه عليل لا يرجى، فأقلقه ذلك ولم يملك

---

159 –ظلامة :اسم امرأة. الدمن:رسوم الديار. البوالي :البالية .المرفض: الرمل . الحبي ووعال : مكانان. ويريد القول :إن هذا الجيش أشبه بجبل لكثرته وضخامته.

160 –أمواه الدنا،عويرضات:اسماء امكنة . الدوارس:أي معالم البيوت تغيرت واندثرت. الأحياء: الأقوام. الحلال:من حل بالمكان وأقام فيه.

161 –العذافرة:الناقة القوية الشبيهة بالفحل والتي لا تتعب.الصموت :صفة الناقة النشيطة.الكلال:شدة التعب.

162 –العذرة: المعذرة . ربها:صاحبها.

163 –السجل: الدلو العظيمة،يعني أن من حظي عند النعمان فقد نال عطاء وبات في نجوة من السؤال والحاجة.

164 –أثني عليه: مدحه .إلال:اسم جبل في جوار مكة.

165 –بغتك خونا: أرادت خيانتك.

166 –يقمص:يتحرك. العدولي:السفينة المنسوبة إلى عدولى،من قرى البحرين.الخليج:سفن صغيرة .

الصبر على البعد عنه..فصار إليه وألفاه محموماً على سريره ينقل ما بين الغمر وقصور الحيرة فقال لعصام بن شهبرة حاجبه من بني جرم، مخاطباً:

أَلَمْ أُقسمْ عَلَيكَ لتُخبرَني أَمَحمُولٌ على النعشِ الهُمَامُ
فإني لا أَلامُ على دُخُولٍ ولكن ما وراءكَ ياعصام
فإن يهلكْ أَبو قابُوس يهلك ربيعُ الناسِ والشهرُ الحرام[167]
ونُمسكُ بعدَهُ بذناب عَيشٍ أجَبِّ الظَّهرِ ليسَ لهُ سنامُ

يقوده الشوق والحنين لمهد الوفاء، ويقرع باب ملكه حزينا كئيباً بما فعلته الأيام ويرتمي في أحضان أحب الناس إليه ولكن هيهات أن يصلح العطار ما أفسده الدهر، وهكذا الحياة بين مد وجذر وتغرق سفن الأحلام والأماني على مسافات العمر القصيرة، ومن خلال النظر في مراحل حياة النابغة والرؤية النفسية له: فهو يمثل الشخصية الحكيمة الذكية والقادرة على التكيف والتلاؤم مع أحلك الظروف واستطاع بعبقريته الفذة أن ينال احترام وتقدير الجميع من أعداء وأصدقاء.يعد النابغة أنموذج الشخصية القدوة التي تستطيع متابعة الحياة في العيش وسط أعاصير الحياة القاسية والظروف الصعبة، وجدير بنا أن نتعلم من سيرة حياة هذا الشاعر العظيم، والذي لم تمر لحظة من حياته إلا وفيها معاناة، لكن بتبصره وصبره وحلمه ورجاحة عقله وذكائه، أستطاع أن يجعل العيش ممكنا بل وطبيعي وسط ركام الهموم وليس مستحيلا، ومهما قويت آلام الحياة وصعوبتها، فيجب أن تكون إرادة الإنسان وإيمانه بالله وبالخير أقوى ألا بذكر الله تطمئن القلوب.وحري بنا أن نقود مراكب طموحاتنا ودوافعنا للعيش بسلام، علنا نتعلم من هذا الربان السالف ذكره الكثير والكثير في إدارة شؤوننا.

وما أجمل حكمة كونفوشيوس عندما يقول:

(خير لك أن تشعل مصباحاً ضئيلاً لا يكاد يُرى، من أن تنفق وقتك في استمطار اللعنة على الظلام).

---

167 -ربيع الناس: جعله بمنزلة الربيع في الخصب لكثرة عطائه وفضله، وكذلك قوله:والشهر الحرام فهو موضع أمن من كل مخافة لمستجير وغيره مثل الشهر الحرام.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

نماذج من العصر الإسلامي

مقدمة العصر الإسلامي

حكمة:

(يـا بُني، لا تكن عجولاً متسرعاً فإنك إذ ذاك تشبه شجرة اللوز التي تزهر قبل كل الأشجار، ويؤكل ثمرها بعد غيرها، بل كن سوياً عاقلاً كشجرة التوت التي تزهر آخر الأشجار، ولكن ثمرها يسبق كل الأثمار).

قاوم الإسلام الوثنية الجاهلية بكل ما انطوت عليه من كهانة وسحر وشعوذة وخرافة، وبذلك ارتقى بالعقل، إذ خلصه من الحماقات والترهات والخزعبلات، و مضى يحتكم في معرفة الكائن الأعلى الذي أنشـأ الكون ودبر نظامه، داعياً الإنسان إلى أن يتأمل في ملكوت السماوات والأرض، فإن من ينعم الـنظر في هـذا الملكـوت ونظامـه يعـرف أنـه لم يخلق عبثاً، وأن له صانعاً سوى كل شيء فيه وقـدره.وواضـح من ذلك أن القرآن الكريم اتجه إلى العقل في دعوته إلى الإيمان بوجود الله وقدرته وتدبـيره، وكذلـك الشـأن في الإيمان بوحدانيته.وينحي باللائمة على من لا يستخدمون عقولهم، فيشـبههم بالأنعـام التي لا تعقل، ويقول إنهم لا يمتازون في شيء عن الصم البكم العمي وقال جل شأنه: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والأنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصـرون بهـا..)[168].وأخذ الإسلام يرسي القواعد الاجتماعية لهذه الأمة، بحيث تكون أمة مثالية يـتعاون أفرادها على الخير، آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر، يسودهم البر والتعاطف، حتى كأنهم أسـرة واحـدة، وقد نظم الإسلام حقوق المرأة ورعاها خير رعاية فرد إليها حقوقها، وجعلها كفؤاً للرجل قال تعالى: (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف)[169] .ومضى الإسلام يعتد بحرية الإنسان وكرامته وحقوقه الإنسانية إلى أقصى الحدود، فدعا إلى تحرير العبيد وتخليصهم من ذل الرق. فالإسلام دين سلام للبشرية جمعاء دون استثناء يريد أن ترفرف عليها ألوية الأمن والطمأنينة، وأول ما كان من آثار القرآن الكريم أنه جمع العرب على لهجة قريش، وحقاً كانت هذه اللهجة تسود القبائل الشمالية في الجاهلية، غير أن هذه السيادة لم تكن تامة، فقد كان الشعراء يستخدمونها غالباً. أن الإسلام لم يرد ويمنع العرب عن الشعر ونظمه، فالرسول الكريم ﷺ اتخذه سلاحاً ماضياً ضد خصومه من مشركي قريش وأعداء رسالته، وكان الخلفاء الراشدون من بعده يرددونه على ألسنتهم، أن الإسلام لم ينهي عن الشعر إلا حين وقف معارضاً لدعوته، وقد مضى الخلفاء الراشدون مهتدين بهدي الإسلام ينهون عن الهجاء ويعاقبون فيه. اتصف الأدب في صدر الإسلام (العهد النبوي والراشدي) بأنه مخضرم؛ لأن

---

[168] -سورة:الأعراف الآية179

[169] -سورة الآية

أهله شهدوا الجاهلية والإسلام، لكن هذا الدين القويم أحدث تغييراً في كل مجالات حياة الناس، وكان طبيعياً أن يتأثر الأدب (الشعر والنثر) بالقيم الإسلامية فحدث تغير في معانيه وأغراضه، وكذلك في أسـلوبه. ورأى بعض الكتاب أن الإسلام قد ذم الشعر، وقلل من شأنه مستندين على قوله تعالى: (**ومـا علمناه الشعر وما ينبغي له)**[170] ، وقوله عز وجل : (**والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون)**[171]ومستدلين بحديثه عليه السلام : " **لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً .. خير له من أن يمتلىء شعرا**".لكن هذه الأدلة تذم نوعا معيـناً من الشعر، كالذي يحي عصبية أو يؤجج شهوة، أو يثير فتنة، أما الشعر الذي لا يتعرض لهذه الأغـراض فلـيس مذموماً، كما أن نفي الشعر عن النبي صلى الله عليه وسلم جاء بمثابة تتريه لمقام النبوة.إن الشعر الذي يدافع عن العقيدة وينشر الفضائل والقيم السمحة مطلوب بل وضروري. قال عليه الصلاة و السلام: " **إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر لحكمة**".فالإسلام يؤيد هذا الـنوع مـن الشعر، ويرفض ويعارض ما يدعو إلى الشر والرذيلة والكفر، وكان الرسولﷺ يسمع الشعر ويأمر الشعراء المسلمين برد الهجاء وسار الخلفاء على نهجه فأحبوا سماع الشعر وحفظوه ورووا أعفه وأحسنه.

إن الشعر في الإسلام وسيلة لنشر الدعوة والدفاع عن الدين، بل ولون من الجهاد باللسان.كما ذهب بعـض النقاد إلى أن الشعر ضعف في عهد الرسولﷺ والخلفاء بسبب انشغال المسلمين بالفتوحات وانبهارهم بالنصر، ثم راح يحث شعراءالإسلام أمثال: حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك على الدفاع عن العقيدة والتنافس في الدعوة إلى الجهاد والفتوحات. انبرى المسلمون للجهاد في سـبيل الله بأموالهم وأنفسهم وأسهم الشعراء في الجهاد بألسنتهم وأصبح الشعر وسيلة للدفاع عن العقيدة.وفي الغزوات كان المسلمون ينشدون الأشعار والأرجاز التي تلهب الحماسة وتمجد الشجاعة وتحـث عـلى التضحية والاستشهاد وقد سجل الشعراء بطولات المسلمين وانتصاراتهم وظفرهم في قصائد امتازت بالقصر وخلت من المقدمة الغزلية وجاءت من دون صقل، سهل لفظها وتركيبها، وقد اشـتهر في هذا العصر حسان بن ثابت، وكعب بن زهير، والخنساء، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، والنابغة الجعدي...وغيرهم..

وقال الإمام علي بن أبي طالب يوصي ابنه الحسن رضي الله عنهما:
يـا بُنّي، أوصيك بتقوى الله في الغيب والشهادة، وكلمة الحق في الرضا والغضب،

---

[170] -سورة ياسين- الآية69

[171] -سورة الشعراء الآيتان224-225

والقصـــد في الغنى والفقر. كم من نظرةٍ جلبت حسرةً وكم من كلمةٍ سلبت نعمة، لا شرف أعلى من شرف الإسلام، ولا كرم أعز من التقوى، ولا معقل أعز من الورع، ولا شــفيعَ أنجح من التوبةِ، ولا لباسَ أجملِ من العافية، ومن تعرض في أمورٍ من غير نظرٍ في العواقب فقد تعرض لفادحات النوائب.

أبو ذؤيبٍ الهذلي

حكمة:

(علـيك بمجالسة العلماء، واسمع كلام الحكماء، فإن الله ليحيي القلب الميت بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر).

هزه أعاصير الحياة العاتيه بقسوة، وتمتحن قوته وثباته، فتجده صخرة صلبة تقارع عوادي المحن، إنه خويلد بن خالد بن محرث من بني سعد بن هذيل، و ممن حَسُن إسلامهم، فندبه عثمان بن عفان رضي الله عـنه إلى الفتح في أفريقية سنه 646م، وخرج للجهاد مع خمسة من أبنائه، وتم قضاء الله سبحانه وتعالى وقدره أن هلك أبناء أبي ذؤيب الخمسة بالطاعون في مصر، فتابع طريقه إلى أفريقية وشهد فتح قـرطاجة حيث كانت عاصمة للروم. وعهد عبد الله بن أبي سرح إلى عبد الله بن الزبير وأبي ذؤيب الهـذلي بحمل خُمس الغنائم إلى المدينة، فلما وصلا إلى مصر لدغت حيةٌ أبا ذؤيب فمات سنة649م .

وسـئل حسان بن ثابت : من أشعر الناس؟ قال : أشعر الناس حياً هذيل وأشعر هذيل أبو ذؤيب".

وأكـثر شعر أبي ذؤيب الذي وصل إلينا مراثٍ ومنها يرثي أبناءه الخمسة الذين هلكوا في الطاعون واسـتطاع بشعره أن يثير كوامن النفس ودوافعها بعبارات تسلب اللب والعقل وهذا يشير لمعرفته الواسعة بخبايا النفس الإنسانية وما يستثيرها من هيجانات:

أمِنَ المنون وريبها تتوجعُ ؟ والدهر ليس بمُعتبٍ من يجزعُ[172]

قالت أُميمةُ : ما لجسمكَ شاحباً منذ ابتُذلتَ ؛ ومثل مالك ينفعُ[173] ؟

أم ما لجسمكَ لا يلائم مضجعاً إلا أقض عليك ذاك المضجع[174] ؟

فأجبتُها : أمـّا لجسمي إنه أودى بنيَّ من البلاد فودعوا[175]

جراح الموت وسهامه مؤلمه وقاسيه، فهي تتوالى وتصيب الكبير والصغير ولا ينتهي حربها على الحياة أبـدا، ولا يعنيها المفقود ولا المولود، لكنها بقسوتها تحيل الأوجاع والشحوب للجسم، فتجعله نحيلاً هشـاً ضعيفا لا يقوى على الحركة، وتمنعه من الرقاد، فكلها سهاد وعناء على فراق الأحبة، ومتى يجزع الدهر على أحد؟ هيهات وهيهات من قسوة المصاب، ودعنا نقول اللهم لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه، ويطلب الشاعر من اميمة الكف عن أسئلتها المحرجة:

أودى بنيّ وأعقبوني حسرةً بعد الرقُادِ وعبرةً ما تُقلع

---

172 – المنون : الدهر، الموت . اعتب : أرضى ويعني أن الموت لا يهتم بمن يحزن على هالك له .

173 –أبتذل :امتهن نفسه في العمل والسفر_ وأراك بعد أولادك تعمل فهزل جسمك مع أن مالك لا يغنيك عن العمل للكسب .

174 –أصبحت لا تستطيع النوم على فراش .

175 –أودى : هلك.

سبقوا هويَّ واعنقوا لهواهم فتخرَموا ولكل جنبٍ مصرعُ[176]

فغَبرتُ بعدهمُ بعيشٍ ناصب وأخال أني لاحقٌ مُستتبعُ[177]

ولقد حرَصتُ بأن أُدافع عنهمُ وإذا المنية أقبلت لا تُدفعُ

أخذهـم ريب المنونِ إلى مكان بعيد، وخلف العبرات والآهات التي لا ينتهي وجعها، وكم الحياة بعد الأحبة مؤلمة؟ لأنهم يسكنون الجوارح التي تلهج بذكرهم، ورحم الله القائل:(أنما أولادنا أكبادنا تمشي على الأرض)، فما لهم غادروا دون رجعة ؟ أنه السؤال المطروح بشكل دائم على ساحة الشعور! ، فلقد كانوا الحياة بعينها له! ، فلقد أصبح وحيداً يناجي الذكرى، وكم تمنى لو أن المنية أخذته مكانهم، لكن الآجال كلها في وقت محتوم وتأتي بأمر معلوم:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

فالعين بعدهمو كأن حداقها سُمِلَت بشوكٍ فهي عُور تدمعُ

حتى كأني للحوادث مروةٌ بصفا المشقّر كلُ يوم تُقرع

وتجلدي للشامتين أُريهمُ أني لريب الدهر لا أتضعضع

لا بُدَ مـن تلفٍ مُقيمٍ فانتظر : أبأرض قومك أم بأخرى المضجعُ

ولقد أرى أن البكاء سفاهةٌ ولسوف يُولعُ بالبكا من يفجع

يحطم الموت أسطورة التمائم والرقى التي يؤمن بها البعض لدفعه عنهم، نعم إنه القضاء إذا حل ضاق الفضاء، وما يفيد ذلك سوى الصبر، وليفرح الأعداء، ويشمتوا ما يحلو لهم ! وهل من سلامة لأحد مـن المـوت؟ وكيف يكون أقريباً أم بعيداً؟ لا يدري أحد أين يكون مضجع موته، فلا شماتة لأحد بالموت، وقد يعيب بعضهم البكاء على الأحبة، وأنه ما من محزون إلا وتكويه نيران الأسى ذات يوم؟ ألا يحـق له الـبكاء من جراحه؟ بلى لتنهمر الدموع وتنساب عبر أودية الألم، فهي أنشودة القلب الموجوع، بل أنها التنفيس الانفعالي الضروري:

وليأتين عليك يومٌ مرةً يُبكى عليك مقُنعاً لا تسمعُ

والنفسُ راغبةٌ إذا رغبتها وإذا ترُدّ إلى قليل تقنع

كم من جميعي الشملِ ملتئمي الهوى كانوا بعيشٍ واحدٍ فتصدعوا

فلئن بهم فجَعَ الزمان وريبه إني بأهل مودتي لمفجع

لا ريب أن أيام البلاء والمصاب قادمة ولا مهرب لأحد منها، ومهما تحلم النفوس بالأحلام السعيدة لا

---

[176] – هوي : هواي.بمعنى ماتوا قبلي بينما كان كنت أود أن أموت قبلهم . تخرمهم الموت : أخذهم واحداً واحداً .

[177] –غبر : بقي . ناصب : متعب .

بد لها من القناعة بقضاء الله وحكمته شاءت أم أبت، فكم من سعادة عامرة قهرها الفراق الأبدي! وتصـــدعت ليالي الأنس! وأفلت شمس اللقاء للأبد، والعزاء الوحيد أنه ما من إنسان إلا وسيحل به الـــبلاء يوما، وليس مقتصراً على أحد دون غيره. يمثل أبو ذؤيب الشخصية السوية التي تدرك قضاء الله وحكمـــته وتقتنع به، ويصف مشاعره في أجمل وصف مطلقاً العنان لانفعالاته وأحاسيسه المؤلمة، وكـــم هي المعاناة كبيرة عندما يفقد الفرد أبناءه الخمسة دفعة واحدة!! لكنه بقوة إيمانه وسعة صدره يحمَـــد الله على ما أصابه وما قدر له، فبين بمنتهى الروعة والتحليل النفسي مشاعره الصادقة ولوعته الحزيـــنة، وكيف على الفرد أن يصبر على المحن ويتلقاها بقلب المؤمن الصابر، أليس هذا هو جوهر حكمة الإرشاد النفسي، ولاسيما عندما يبين أن المصاب الذي حل به سيقع به الناس جميعا، ولا سلامة لأحد من الموت.

ورحم الله القائل:

(ثلاثة لا ينبغي للعاقل أن يستخف بهم: العلماء، والسلطان، والأخوان.فمن استخفّ بالعلماء أفسد دينه، ومن استخفّ بالسلطان أفسد دنياه، ومن استخفَ بالإخوان أفسد مُروءته).

أبو محجن الثقفي

قال برناردشو:
(ليست الفضيلة في أن تتجنب الرزيلة، بل في أن لا تشتهيها).

يطلق العنان لرغباته فينغمس فيها، ويتجاوز وقار الحشمة، ويتجرأ على البوح بها، ولكنه يلقى جزاء ذلك القصاص، ويودي به طيشه إلى غياهب السجون وأغلالها، لكنه يصحو ويعود للسلوك السوي، إنـــه عبد الله بن حبيب بن عمرو بن عمير من بني ثقيف من الطائف، ومن المخضرمين الذين أدركوا الجاهلـــية والإسلام، ويعد من الفرسان المعدودين في البأس والحرب والنجدة، ومن المعاقرين للخمر والمحدودين في شربها، ويروى عنه كيف أصر على شرب الخمر بعد التحريم القطعي لها، فراح يسعى وراء اللذة من دون مبالاة حتى امتزجت بها نفسه تماماً حين قال:

ألا سقني ياصاح خمراً فإنني بما أنزل الرحمن في الخمر عالم

وجُد لي بها صرفا لأزداد مأثما ففي شربها صرفا تتم المـــآثم

هي النار إلا أنني نلت لذة وقضيت أوطاري وإن لام لائم

ثكلـــتك أمـــك يا أبا محجن، أما تستحي من المجاهرة بالمعصية؟ والحديث النبوي الكريم ينص:(إذا ارتكبتم المعاصي فاستتروا)! صحيح إنك من الفرسان المشهود لهم بالوقائع الشديدة، فأين أنت...!!. ولكـــن أبا محجن لم يكن لينجو من مؤاخذة ولاة الأمر وعقابه على فعلته الشنعاء ومجاهرته بها، فقد حبســـه سعد بن أبي وقاص، وحين سئل: في أي شيء حبست ؟ قال: والله ما حبسي بحرام أكلته ولا شـــربته ولكـــنني كنت صاحب شراب في الجاهلية، فأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لساني فأصف الخمر وتداخلني أريحية، فألتذ بمدحي إياها فلذلك حبست لأني قلت:

إذا متُ فادفني إلى أصل كرمة تروي عظامي بعد موتي عروقها

ولا تدفنني بالفلاة فإنني أخاف إذا ما مِتُ أن لا أذوقها

أباكرها عند الشروق وتارة يعاجلني بعد العشي غَبُوقها

صحيح أن حديث أبي محجن قد تضمن التصريح بشربه للخمر، ولكنه لم يكن ليجرؤ على تجاوز هذا المستوى، فلم يتطرق إلى التشكيك في أصول العقيدة أو العبادات ولم يجاهر بذلك، بل اكتفى من لهوه ومجونه وعربدته بتلك الوصية الحمقاء في اختيار مكان دفن جثته التي صاغها لرفيقه حتى يدفنه بجوار خمارة، ولعلها الوصية التي بدا أبو نواس شديد الإعجاب بها حتى أعاد صياغتها من خلال صاحبيه، ويوصـــي بألا يحفر قبره إلا في(قطر بل) بلدة الخمر المشهورة خلال معاصر الكروم بعيداً عن حقول القمح حتى يسمع ضجيج الأرجل التي تعصر العنب فتحيله إلى نبيذ قائلا:

خليلي بالله لا تحفرا لي القبرَ إلّا بقُطُربل[178]

خلال المعاصر بين الكروم ولا تدنياني من السنبل

لعلي أسمع في حفرتي إذا عُصرت ضجة الأرجل

وقـع الشاعر الماجن ضحية صراع نفسي عميق في نفسه بين سلوك اللهو و لحظة الندم، يرجو فيها طاعـة الله تعـالى على نحو ما يروى من قول أبي محجن أيضاً حين أتى به سعد بن أبي وقاص شارباً، فـتهدده فقال: لست تاركها إلا لله عز وجل، ومع هذه المكابرة من قبل الشعراء، بدا بعضهم شديد الخبـث في تبرير موقفه والنفاذ إلى تصوير مسلكه، على نحو ما يروى من أن: عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى بجماعة فيهم أبو محجن وقد شربوا الخمر فقال: أشربتم الخمر بعد أن حرمها الله ورسوله ؟ قالوا : ما حرمها الله ولا رسوله إن الله تعالى يقول : (" ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا"[179]).فقال عمر لأصحابه: ما ترون فيهم ؟ فاختلفوا فيهم فبعـث إلى عـلي بن أبي طالب رضي الله عنه، فشاوره فقال علي: إن كانت هذه الآية كما يقولون فيجب أن يستحلوا الميتة والدم ولحم الخنزير، فسكتوا فقال عمر لعلي: ما ترى فيهم ؟ فقال: أرى إن كـانوا شربوها مستحلين لها أن يقتلوا، وإن كانوا شربوها وهم يؤمنون أنها حرام أن يجدوا، فسألهم فقـالوا: والله ما شككنا في أنها حرام، ولكنا حسبنا أن لنا نجاة فيما قلناه، فجعل يحدهم رجلاً رجلاً وهم يخرجون حتى انتهى إلى أبي محجن فلما جلده أنشأ يقول:

ألم تر أن الدهر يعثر بالفتى ولا يستطيع المرء صرف المقادر

صبرت فلم أجزع ولم أك كائعا لحادث دهر في الحكومة جائر

وإني لذو صبر وقد مات أخوتي ولست عن الصهباء يوما بصابر

رماها أمير المؤمنين بحتفها فخلانها يبكون حول المعاصر

فلما سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: ولست عن الصهباء يوما بصابر قال: قد أبديت ما في نفسك، ولأزيدك لإصرارك على شرب الخمر، فقال علي:لا يجوز أن تعاقب رجلا قال: لأ فعلن، ولم يفعـل، وقـد قال الله في الشعراء (والشعراء يتبعهم الغاوون ألم أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون)[180]لم يترك أبو محجن شرب الخمر رغم إقامة الحد عليه مراراً، وهو لا ينـتهي، فلقد نهاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو لا ينتهي فنفاه عمر بن الخطاب إلى جزيرة في

---

[178] -قطربل : بلدة مشهورة بصنع الخمور وتعتيقها

[179] -سورة المائدة الآية 92.

[180] -سورة

البحر يقال لها خصوصي(كانت العرب في الجاهلية تنفي إليها خلعاءها)، وبعث معه حارساً في البحر، فهرب منه على ساحل البحر ولحق بسعد بن أبي وقاص، فقال في ذلك شعراً:

الحمد لله نجاني وخلصني من أبن جهراء والبوصي قد حبسا

من يجشم البحر والبوصي مركبه إلى خصوص فبئس المركب التمسا

وتقــول بعض الروايات أن سبب نفي عمر بن الخطاب رضي الله عنه له إلى خصوص، أن أبا محجن هــوى امــرأة من الأنصار يقال لها شموس محاولاً النظر إليها بكل حيلة، فلم يقدر على ذلك، فجعل نفسه مزارعا يعمل بالأجرة، فدخل بستان زوج المرأة للعمل بأمور زراعة الفول، مما دفع زوجها إلى طرده وشكاه لعمر بعد أن لاحظ سلوكه غير السوي:

ولقد نظرت إلى الشموس ودونها حرجٌ من الرحمن غير قليل

قد كنت أحسبني واحد ورد المدينة عن زراعة فول

فاستعدى زوجها عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فنفاه إلى خصوص، لكنه هرب ولحق في الحملة عــلى القادســية، فثابر على شرب الخمر وعندئذ حبسه سعد بن أبي وقاص في القصر معه والناس يقاتلون في الحرب، فجال المسلمون جولة وهو ينظر إليهم، ويروى أنه كان مقيداً يومئذ عند زبراء أم ولد سعد بن أبي وقاص فقال لها: أطلقيني فلكِ الله لئن فتح الله على المسلمين النصر وسلمت لأرجعن حتى أضع رجلي في القيد وراح يقول:

كفى حزناً أن تردى الخيل بالقنا وأترك مشدوداً علي وثاقيا

إذا قمت عناني الحديد وغلقت مصاريع من دوني تصم المناديا

وقد كنت ذا مال كثير وإخوة فقد تركوني واحداً لا أخا ليا

وقد شف جسمي أنني كل شارق أعالج كبلاً مصمتاً قد برانيا

فلله دري يوم أترك موثقاً وتذهل عني أسرتي ورجاليا

حبيساً عن الحرب العوان وقد بدت وإعمال غيري يوم ذاك العواليا

ولله عهدٌ لا أخينُ بعهده لئن فرجت ألا أزور الحوانيا

فقالت له سلمى: إني قد استخرت الله ورضيت بعهدك فأطلقته، وحملته على فرس لسعد، فأخذ الرمح فخرج وقاتل فحطم المشركين، وكان سبب الهزيمة للمشركين. فقال سعد: لولا أن أبا محجن محبوس لقلــت: هذا الفارس أبو محجن، وهذا الطعن طعن أبي محجن والفر والكر للبلقاء، ولما فتح الله على المسلمين النصر في معركة القادسية رجع أبو محجن إلى محبسه وأعاد رجليه في القيد، وأنشأ يقول:

لقد علمت ثقيف غير فخر بأنا نحن أكرمهم سيوفا

وليلة قادس لم يشعروا بي ولم أكره بمخرجي الزحوفا

فإن أحبس فقد عرفوا بلائي وإن أطلق أجرعهم زقوفا

بـــدت شخصية أبو محجن خاضعة لنزواها ودوافعها، وذلك من خلال ما نسب إليه من قول وشعر وفعـــل، وانسياق وراء الأهواء والرغبات برغم فروسيته وشجاعته التي يشهد له بها.فقد كان متهوراً لدرجـــة عـــرض نفسه للهلاك والطرد والنفي بسبب سلوكه غير السوي.ويروى أنه تاب وعاد إلى رشده، ومهما كان هذا أو ذاك لا نملك الحق في محاكمته وما طرح من تحليل لسلوكه، ولعل التفسير المطـــروح جاء بموجب ما أوردته المصادر التاريخية من أقوال وما قيل من حكم على سلوكه فهو غير كاف.

قال بوذا:

(دعـــوا خـــبزكم على عتبة كهوفكم للجائعين، واتركوا بعض الثمار على غصونها لعابري الطرق).

حسان بن ثابت

قال الإمام علي رضي الله عنه:
(تواضعوا لمن تتعلمون منه، ولمن تعلمونه، ولا تكونوا جبابرة العلماء).

سمي حسان شاعر الإسلام لكونه عاش يناضل عنه أعداءه من قريش واليهود ومشركي العرب رامياً لهم جميعاً بسهام مؤلمة، لم تعرف متى كانت ولادته، ولكنه توفي سنة674م، وقصته مع الحارث بن عوف المري حين قتل في جواره داعياً من دعاة الرسول ﷺ مشهورة، فقد قال فيه حسان وفي عشيرته:

إن تغدروا فالغدرُ منكم شيمةٌ   والغدر ينبتُ في أصول السخبر[181]

وبكى الحارث من هجائه له بدموع غزار ،واستجار بالرسول متوسلاً إليه أن يكفه عنه، واتفق الرواة والنقاد على أنه أشعر أهل عصره وأنه أشعر اليمن قاطبة ، ويقول ابن سلام: " (قد حُمل عليه ما لم يُحمل على أحد، ولما تشاتمت قريش واستبت وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تنفى").

والحق أن شعر حسان الإسلامي كثُرَ الوضع فيه، وهذا هو السبب فيما يشيع في بعض الأشعار المنسوبة إليه من ركاكة وهلهلة، لا لأن شعره لان وضعف في الإسلام كما زعم الأصمعي، ولكن لأنه دخله كثير من الوضع والانتحال.أما هجاؤه لقريش فينبغي أن نبعد منه ما اتهمه الرواة، وأن لا نقبل منه إلا ما يغلب عليه الإقذاع بالأيام والأنساب.وفي قصيدته الهمزية التي يقول فيها لأبي سفيان بن الحارث مفتخراً بعزة الإسلام وبفرسانها لأشداء:

عدمنا خيلنا إن لم تروها   تثير النقع موعدها كداء

يبارين الأسنة مصعدات   على أكتافها الأسل الظماء[182]

فإما تعرضوا عنا اعتمرنا   وكان الفتح وانكشف الغطاء

وإلا فأصبروا لجلاد يوم   يعز الله فيه من يشاء

يبين بكل فخر قوة أبطال الإسلام في التصدي للخطر والدفاع عن العقيدة والتضحية في سبيل الحق، وقد خاضوا المعارك الضارية وانتصروا ويوم فتح مكة خير شاهد، وفي الوقت نفسه يتوعد أعداء الإسلام بالخزي والعار لأن الله عز وجل سيعز المسلمين:

وجبريلٌ أمينُ الله فينا   وروح القدس ليس له كفاءُ

وقال الله : قد أرسلت عبدا   يقول الحق إن نفع البلاء

---

181 – السخبر :نوع من الشجر يضرب به المثل للغدر .

182 –يبارين : يسابقن.

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه وعند الله في ذاك الجــزاءُ

أتهجوه ولست له بكفءٍ فشركما لخيركما الفــداءُ

هجوت مبــاركاً بــراً حنيفاً أميــن الله شيمته الوفــاء

فمن يهجــو رسول الله منكم ويمــدحه وينصــره ســواء

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقــاء

لساني صارم لا عيب فيــه وبحــري لا تكــدره الــدلاء

ويشــير بدعوة الإسلام المباركة والتي أخرج الله فيها الناس من الظلمات إلى النور، كما يندد بسوء العاقــبة لأبي ســفيان، ولمن سولت لهم أنفسهم سوء المصير والعقاب من الله لأنهم أساءوا للنبيﷺ ، ويحكــم تهجــون نــبع الخير والسلام والإحسان مهد المكارم،وإن الله بالغ أمره بالنصر على قريش وطغاتها، وقد تبرز المعاني الإسلامية في بعض أهاجيه لقريش كقوله من مقطوعة يعيرها فيها بهزيمتها يوم بدر :

فينا الرسول وفينا الحق نتبعه حتى الممات ونصرٌ غير محدودِ

مستعصمين بحبلٍ غير منجذمٍ مستحكمٍ من جبالِ الله ممدودِ

لا يخــاف المســلمون في الحق لومة لائم، لأنهم يتمسكون بحبل الله الممدود والقوي، ويقصد الأيمان والتقوى، وسينصرهم الله على عتاة قريش وأحلافها الباغية، وراح يفخر بالنبيﷺ:

شق لهُ مــن إسمــهِ كــي يُجلــهُ فذو العرشَ مَحمود وهذا مُحَمــدُ

نبيٌّ أتانــا بَعــدَ يــأسٍ وفتــرة من الرُسلِ والأوثانِ في الأرضِ تُعبدُ

فأمسى سِراجاً مُستنيــراً وهاديــاً يَلوحُ كما لاحَ الصَقيــلُ المُهنــدُ

وأنذَرنــا نــاراً وبَبشــرَ جَنــةً وعَلمَنا الإســلامَ فاللــهَ نحمَــد

يفتخر حسان بالنبي الكريم ﷺوبأخلاقه السمحاء مرشداً هؤلاء الكفرة الفجرة، بأن الله أرسله ليهدي الناس لطريق الخير، جاء ليحطم الأوثان والخرافات، وما جاء إلا رحمة للعباد ورفقة بهم من الله، ولما لا نفتخر به فهو الضوء المنير الذي بعثه الله ليهدي الأقوام جميعاً فمنهاجه ساطع سطوع الشمس:

وأنتَ إلهَ الحــقِّ ربــي وخالقــي بذلك ماعُمرتُ في الناسِ أشهــدُ

تعَاليتَ رب الناسِ عن قولِ من دعا سِواكَ إلَهاً أنــتَ أعلــى وأمجَــدُ

لكَ الخلقُ والنعماءُ والأمــرُ كُلــهُ فإياكَ نستهــدي وإيــاكَ نَعبُــدُ

لأن ثوابَ اللــهِ كُــل مُوحــدِ جنانٌ من الفردوسِ فيهــا يُخلــدُ

يبين نعم الله على عباده، وحرصه على أمته بإرساله النبيﷺ رفقاً بهم، وفي الوقت نفسه يتعجب خلال

عمـــره مـــن بعـــد الناس عن جادة الحق وإتباعهم طريق الغواية، ويعهد بالأمر إلى الله، لأن له الأمر والشأن في قضاءه وقدره، وقال يهجو عتبة بن مالك الذي تعرض للنبي بالأذى:

إذا الله حيـــا معشراً بفعالهـــم ونصرهم الرحمـــنُ رب المشارق

فأهلكَ ربي ياعتيبَ بنَ مـــالك ولقاكَ قبلَ الموتِ إحدى الصواعقِ

بسطتَ يميناً للنـــبي برمـــيةٍ فأدميتَ فـــاهُ قُطعتْ بالبـــوارقِ

فهلا خشيت الله والمترل الذي تصيرُ إليه بعـــد إحـــدى الصفائق

لقد كان خزيا في الحياة لقومه وفي البعث بعد الموت إحدى العوالقِ

فمن عاذري من عبدِ عُذرة بعدما هوىفـــي دجوجيّ من البحر خافق

ألا تعساً وسحقاً لعتبة بن مالك، وما فعله بالنبيﷺ من أذى وضرر ويتوعده بعقاب الله القادم، فالخالق يمهـــل ولا يهمل، وسيأتي يوم لعتبة بن مالك وينال جزاءه العادل لما اقترفت يداه من أذى للنبيﷺ. ويمضـــي حســـان بنشر فضائل الإسلام من خلال ذكرها والدعوة للتمسك بها، وبذلك يعد المرشد النفســـي الديـــني للرسالة الإسلامية حيث أخذ على عاتقه الدفاع عن الإسلام ونشر دعوته، ويعظ حسان باختيار الصديق صاحب الدين فقال:

أخلاءُ الرخاءِ هُم كثـــيرٌ ولكن في البلاء هُم قليـــلُ

فلا يَغُرركَ خُلةُ من تُؤاخي فما لكَ عند نائبة خليـــل

وكلُّ أخٍ يقولُ أنا وفـــيٌّ ولكن ليسَ يفعلُ ما يقول

سوى خلٍّ له حسبٌ ودينٌ فذاكَ لما يقولُ هو الفعولُ

يشير أستاذ الإرشاد الديني والنفسي حسان بن ثابت إلى أن خير الأصدقاء هم من ذوي الدين لأنهم يخشـــون الله، ولا يـــتخلون عـــن نصرة الصديق ونصرته ويوصي بالتعامل معهم لأنهم الأخوة أثناء الملمات، والأخوة شرط أساسي من أخلاق الإسلام، ومن الواجب مساعدة الصديق عند البلاء وكف الأذى عنه ومد يد العون إليه أثناء المحن. ويمضي حسان بنصرة الإسلام فقد راح يهجو أبا لهب:

أبا لهـــبٍ أبلـــغ بـــأن مُحمـــداً سيعلو بما أدى وإن كُنت راغمـــا

وإن كُنتَ قـــد كذبتـــهُ وخذلتـــهُ وحيداً وطاوعتَ الهجينَ الضُراغما

ولو كنتَ حُراً في أرومـــةِ هاشـــمٍ وفي سِرها منهم منعـــتَ المظالمـــا

ولكـــن لحيانـــاً أبـــوكَ ورثتـــهُ ومأوى الخنا منهُم فَدع عَنكَ هاشما

سَمت هاشِمٌ للمَكرُماتِ وللعُلـــى وغودرتَ في كابٍ منَ اللؤمِ جاثما

يهجـــو أبـــا لهـــب لفعاله المنكرةَ الداعية للقضاء على العقيدة، وسعيه الدائم بالوقوف ضد الدعوة

الإســلامية، ومحاولاته الدائمة بحبكه المؤامرات في تكذيب دعوة النبي والسخرية منه، ويتوعده بسوء العاقبة، ولن يحصد سوى الخزي والعار بأفعاله هذه، وأخذ يهجو هوازن:

أبلغ هوازنَ أعلاهــا وأسفلهــا ... أن لستَ هاجيها إلا بما فيهــا
قبيلة ألــأم الأحيــاءِ أكرمهــا ... وأغدرُ الناس بالجيران وافيهــا
وشرٌّ من يحضُرُ الأمصارَ حاضرها ... وشرُ باديةِ الأعــراب باديهــا
تبلى عِظامُهُمُ إمــا هُــمُ دفنوا ... تحتَ التُرابِ ولا تبلى مخازيهــا
كأن أسنانهم من خُبثِ طعمتهم ... أظفارُ خاتنةٍ كلــت مواسيهــا

يبحــث عــن مكارم خلقية في كل أرجاء القبيلة الهوازنية عسى أن يجد مكرمة يذكرون بها، ولكنه للأســف لم يعثر لهم على فضيلة وحميدة سوى أفعال العيب والعار، فهوازن شر القبائل حتى عظامهم المدفونــة تحت التراب نتنة بسبب رائحتها القبيحة، وأخذ على نفسه تفنيد الأكاذيب التي يضمرها أعداء الإسلام للعقيدة الجديدة، ولا يسلم أحد من هجائه حتى لو كان امرأة، ومما قاله في هند:

أشرت لكاعٍ وكان عادتها ... لؤمٌ إذا أشرت مع الكفــر
لعنَ الإله وزوجها معهــا ... هند الهنودِ طويلةَ البظــر
أخرجتِ مُرقصةً إلى أُحُدٍ ... في القوم مُعنقةً على بَكــر
بَكرٍ ثَفالٍ لا حــراكَ بهِ ... لا عَن مُعاتَبــةٍ ولا زَجــر
وَعَصاكَ إستُك تتقينَ بهــا ... دَق العجاية عاريَ الفهــر
قَرِحت عَجيزتُها ومَشرجها ... من نَصها نصاً علــى الفِهــر
ظلت تُداويهــا زميلتهــا ... بالــماءِ تنضحــهُ وبالســدر
أقبلــتِ زائــرةً مُبــادرةً ... بأبيكِ وابنكِ يــوم ذي بدر
ونسيتَ فاحشةً أتيت بِها ... يا هندُ و يحــكِ سُبةَ الدهــر
فَرجَعتِ صاغرةً بلا تــرةٍ ... مما طلبــت بهــا ولا وتــرِ
زَعمَ الولائدُ أنهــا وَلــدت ... ولداً صغيراً كــان مــن عهر

يهجــو هنداً بسبب موقفها العدواني للإسلام، وما فعلته عندما قطعت كبد الحمزة رضوان الله عليه، سيد الشهداء، سيد شباب أهل الجنة، وكيف مثلت في جثته الطاهرة، فكانت فعلتها مؤذية لا يحتملها مسلم ثم راح يهجو أبا سفيان:

ألا أبلغ أبا سُفيــان عنــي ... فإن اللــؤمَ معدِنُــهُ حَراكــا
تسامي عصبةً من فرعِ فهرٍ ... وقد أعيت مساعيهم أباكــا

ذؤابة هاشمٍ والفـــرعُ منهم وقد قصرت عن العليا يداكـــا
ألسنا معشراً نصـــروا وآووا وخصَّهُمُ المليكُ بفضل ذاكـــا
هُمُ صدقوا ببطنِ الشعبِ ضرباً وطعناً فـــي نحوركـــم دراكـــا
رسولُ اللـــه والأبطـــالُ منـــا ومـــا تحمي لدى هيج حماكـــا

يهجـــو أبـــا ســـفيان ببعده عن مكارم الأخلاق بما يدبره من مكائد وأذى للمسلمين، ويلومه بفعاله السـيئة، بل الأجدر به أن يسعى لمكارم الأخلاق، ولكن أين له ذلك؟! ويوضح حسان لأبي سفيان نهايته الوخيمة، ويتذكر سيد شباب أهل الجنة، فتنهمر دمعة على شهيد الإسلام، فقال في رثاء الحمزة:

بكت عيني وحق لها بكاها وما يغْني البُكاءُ ولا العويل
على أسد الإله غداةَ قالوا أحمـــزةُ ذلكَ الرجلُ القتيل
أصيبَ المُسلمونَ به جَميعاً هناكَ وقد أُصيبَ به الرسول
أبا يَعلى لكَ الأركانُ هُدت وأنتَ الماجدُ البرُّ الوصـــول
عليكَ سلامُ ربكَ في جِنانٍ مُخالطُها نعيـــمٌ لا يـــزول

دمعـــت العـــيون واحترقت القلوب كمداً وحزناً على نبأ مقتل خيرة شباب الإسلام، حيث أصيب المســـلمون بوفـــاة الحمـــزة رضي الله عنه بكارثة جسيمة بفقدانهم أبرز أبطالهم الأشداء، ولأنه أحد المدافعـــين عن النبي وعن العقيدة في معركة أُحد، ويرسل حسان سلام الله ونعمه ورضوانه على فقيد الإسلام. وراح يهجو قوما يُدعون الحِماس بفعلهم المكائد والمؤامرات الدنيئة للنيل من المسلمين:

أما الحِماسُ فإني غَيـــرُ شاتمهـــم لا هم كِرامٌ ولا عرضي لهم خَطَرُ
قومٌ لِئـــامٌ أقـــل اللـــهُ عدهـــم كما تساقطَ حولَ الفقحـــة البعر
كأن ريحهمُ في الناسِ إذ بـــرزوا ريحُ الكِلاب إذا ما بلها المطـــر
أولادُ حامٍ فلن تلقى لهُـــم شبهـــاً إلا التيوسَ على أكتافهـــا الشَعـــر
لم ينُبتوا فَرعَ خيرٍ يّذكـــرون بـــه حتى يُنبتَ عـــود النبعـــة الكمـــرُ
إن سابقوا سُبقوا أو نافروا نُفـــروا أو كاثروا أحداً من غيرهم كثـــروا
شبهُ الإماءِ فلا ديـــنٌ ولا حَسبٌ لو قامروا الزنجَ عن أحسابهم قُمروا
تلقى الحِماسي لا يمنَعكَ حُرمَتـــهُ شِبهَ النبيطِ إذا استعبدهُم صَبـــروا

يشتم قوم الحِماس بفعالهم القبيحة وغدرهم، فراح يشبههم بالكلاب ذات الرائحة النتنة بعد سقوط المطـــر عليها، فهم أذلة القوم، جبناء و لا قيمة لهم بسبب بعدهم عن فضائل الأخلاق، فهم كالعبيد الأذلاء لا يعرفون محاسن القيم السامية ولا الكرامة ولا حتى الذود عن محارم البيت وأهله. وينتقل

حسان إلى رثاء بطل آخر من أبطال الإسلام الذين فدوا النبي ودعوته بأرواحهم، حيث قال في مدح الزبير بن العوام رضي الله عنه:

أقام علـى عهـد النـبي وهديه حَوارِيُه والقــولُ بالفعــلِ يُعــدلُ

أقــام علـى مِنهاجــهِ وطريقــهِ يُوالي وليَّ الحــقِّ والحــقُّ أعــدل

هو القارسُ المشهورُ والبطلُ الــذي يصولُ إذا ما كان يــومٌ مُحَجــلُ

إذا كشفت عن ساقها الحربُ حشها بأبيضَ سباقٍ إلــى المــوت يرفــلُ

وإن امــرأً كانــت صفيــةُ أمــهُ ومن أسَــدٍ فــي بيتهــا لَمُرفــلُ

له مِن رسولِ اللــهِ قُربــى قريبــةٌ ومن نُصرةِ الإسلامِ مَجــدٌ مُؤثــل

فكم كُربةٍ جلــى الزُبيــرُ بنفســهِ عن المُصطفى واللــهُ يُعطي فَيُجــزِلُ

فلا مِثلُهُ فيهــم ولا كــان قَبلــهُ وليسَ يكونُ الدهرَ مــا دام يَذبُــلُ

ثَناؤكَ خَيرٌ مــن فعــالِ معاشِــرٍ وفعلُكَ يا ابــن الهاشميــةِ أفضَــلُ

تخــرج من مدرسة النبيﷺ، فحمل الأمانة وحماها بقلبه، ومات في سبيلها، وكم من وقعة شهدها مع الــنبيﷺ فكــان الــدرع الواقي له من سهام الأعداء، فستبقى فعاله مكرمة تحتفل بها الأقوام وتثني عليها.وقال في رثاء النبيﷺ:

أعينِ ألا أبكي سيدَ الناسِ واسفحي بدمعٍ فإن أنزفتهِ فاسكُبــي الدمــا

وَبكي عظيمَ المشعريــنِ وربهــا على الناسِ معروفٌ لهُ ما تكلمــا

فلو كان مجدٌ يخلدُ اليومَ واحــداً من الناس أبقى مجدُهُ اليوم مُطعِمــا

أجرتَ رسولَ اللَه منهُم فأصبحوا عبادك ما لبّــى ملــبٍّ وأحرمــا

فلو سُئِلَت عنــهُ معــدٌّ بأسرهــا وقحطــانُ أو باقي بقيَّــةِ جُرهُمــا

لقالوا هو الموفي بِخُفــرةِ جــارهِ وذمَّتــهِ يومــاً إذا مــا تذمَّمــا

فما تطلُعُ الشمسُ المنيرة فوقهُــم على مثلهِ منهُــم أعــزَّ وأكرمــا

إبــاءً إذا يأبــى وأليــنَ شيمــةً وأنوَمَ عن جارٍ إذا الليــلُ أظلمــا

أعرض عن العوراءِ إن أُسمعتها واقعُد كأنَّكَ غافلٌ لا تسمــعُ

ودعِ السؤالَ عنِ الأمورِ وبحثها فلرُبَّ حافرِ حفرَةٍ هُوَ يُصــرَعُ

والزَم مُجالسةَ الكرامِ وفعلهُــم وإذا اتَّبعت فأَبصرَن من تتبــعُ

لا تَتبَعَــنَّ غوايَــةً لصبابــةٍ إنَّ الغَوايَةَ كلَّ شــرٍّ تَجمَــعُ

والقومُ إن نزروا فزد في نزرهم لا تقعُدَنَّ خِلاَلهُــم تتسمَّــعُ

والشربُ لا تدمن وخُذ معروفهُ تُصبح صحيحَ الراسِ لا تتصدَّعُ
واكده لنفسك لا تُكلّف غيرَها فبدَينها تُجزى و عنهــا تدفــعُ
والموتُ أعدادُ النُفوسِ ولا أرى منهُ للذي هربٍ نجــاةً تنفــعُ

لا تستطيع الدموع أن ترثي سيد البشر، النبيﷺ ، فلقد رحل وترك القلوب في لوعة وحرقة يصعب العــيش بعده، لأنه صلوات الله عليه ،كان مرشدهم ومواسيهم، فمن بعد اليوم يشد أزرهم ويعينهم على نوائب الأيام، ، وأن ضاقت الحياة بالصحابة رضوان الله عليهم ، ولكن لا بد من الإمتثال لأمر الله وقبوله، هكذا هو عظيم دين الإسلام ، على المسلم أن يسّلم بقضاء الله وقدره، وهذه مشيئة الله في خلقه والموت، لا مفر منه، ولا نجاة. وقال في الدنيا واعظاً وداعياً للتفكر والتأمل بها:

تفكّرتُ في الدُنيا و فيها مواعــظٌ تروحُ وتسري في الليالي و تغتدي
فمن يأمَنِ الدهرَ الفتونَ فإنَّنــي بِرأيِ الذي لا يأمنُ الدهرَ مقتدي
ألم تر أنَّ اللـــه أنزل نصــرهُ على عبدهِ خيرِ العبادِ مُحمَّــدِ
وأرسلهُ في الناس نوراً ورحمــةً فمَن يرضَ مــا يأتِ مِنَ الأَمرِ يهتدِ

يقــف حسان موقفاً إرشاديا، يدعو القوم للتأمل والتبصر العقلي، أنه يحثهم على التفكير والتأمل في خلق الله بهذا الكون، فيبين أن صروف الليالي وتدبير الأيام والمصائب التي تتم فكلها مقدرة، وينبه إلى أن عقيدة الإسلام السمحاء جاء بها النبيﷺ لهداية الناس لطرق الخير والسعي لفعله، وتجنب المعاصي والمحــرمات، وما حياة الإنسان في هذا العالم إلا محطات قصيرة وسيذبل ضؤوها ذات يوم، وهو يشير في البيت الثاني إلى قوله تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعاً)،وله مراث في الرسول الكريم ﷺ تتضح فيها المعاني الإسلامية ا على نحو ما قاله في مرثيته:

وما فقد الماضون مثل محمد ولا مثله حــتى القيامة يفقدِ
ما بالُ عيني لا تنام كأنما كحلت مــآقيهَا بكحل الأرمدِ
جزعاً على المهدي أصبح ثاوياً يا خيرَ من وطئ الحصى لا تبعدِ
جَنبي يقيكَ التُربَ لهفي ليتني غُيبتُ قبلكَ فــي بقيعِ الغرقــدِ
بأبي وأمي من شَــهدتُ وفاتهُ في يوم الاثنين النـــبيُّ المُــهتدي

يتمنى أن يكون بديلاً عن النبي وفداءﷺ عنه،فهول الفاجعة قاس ومؤلم:

فَظَللــتُ بعدَ وفاتِهِ مُتلبــداً يا ليَتنــي صُبحتُ سُــمّ الأسودِ
أأقيم بعــدكَ بالمدينــةِ بينهُم يا لــهفَ نفسي ليتني لم أولــدِ
أو حَل أمرُ اللــهِ فينا عاجلاً فــي روحةٍ من يومنَــا أو في غَدِ

فَتقُوم ساعتُنا فَنَلقى طيباً مَحضاً ضرائبهُ كريمَ المَحتدِ
يا بكرَ آمنةَ المُبارك ذكرُهُ ولدَتكَ محصنةٌ بسَعد الأسعدِ
نُوراً أضاءَ على البريةِ كُلها من يُهدَ للنور المُبارَكِ يُهتَد
يصف صعوبة الحياة بفقده كونه السند لأمة الإسلام:
يارب !فاجمعنا معا ونبينا في جنةٍ تثني عُيُونَ الحُسد
في جنةِ الفردَوسِ واكتُبها لنا يا ذا الجلالِ وذا العُلا والسُؤدَدِ
واللهِ أسمعُ ما بقيتُ بهالك إلا بكيتُ على النبي مُحمد
يا ويحَ أنصار النبي ورهطهِ بعد المُغيبِ في سواءِ الملحَد
ضاقت بالانصار البلادُ فأصبحوا سُوداً وجُوُهُهُم كلون الإثمد
يتمنى أن يجمعه الله يوم الحشر ويصور عظمة المأساة على قلوب الأنصار:
ولقد ولدنَاهُ وفينا قبرُه وفُضُول نعمته بنا لم يُجحد
والله أكرمَنا به وهدى به أنصارهُ في كُل ساعة مشهَدِ
صلى الإلهُ ومن يحفُ بعَرشِهِ والطيبُونَ على المُباركِ أحمد
فَرِحَت نصارى يثربٍ ويهُودها لما توارى في الضريحِ المُلحد
تعد مرثية حسان من المراثي الجميلة في رثاء النبي ﷺ ،حيث يبين فيها هول الفاجعة وقسوة الصدمة، لقد ذهل القوم بوقع الكارثة،ويعرج إلى ذكر أخلاق النبي ﷺ، وكيف كان مدرسة للمكارم وينبوعاً للرحمة والحنان،والخالق عز وجل أرسله رحمة بخلقه. ويتوفى أبو بكر في السنة الثالثة للهجرة قرير العين بما أدى لله ورسوله ،وكأن آخر ما تكلم به " رب توفني مسلماً وألحقني بالصالحين" وبكاه كثير من الشعراء ومن خير ما قيل فيه قول حسان بن ثابت في مدح ورثاء أبو بكر رضي الله عنه قائلا:
إذا تذكرت شَجواً من أخي ثقةٍ فاذكرُ أخاكَ أبا بكرٍ بما فعلا
خَيرَ البرية أتقاها وأعدلها إلا النبيَّ وأوفاها بنا حَملا
والثانيَ الصادقَ المحمودَ مشهدُهُ وأولَ الناسِ منهُم صدقَ الرُسلا
وثانيَ اثنينِ في الغار المنيفِ وقد طافَ العدوُّ به إذ صعد الجبلا
عاش حميداً لأمرِ الله مُتبعاً بِهَدي صاحبه الماضي وما انتقلا
وكان حِبَّ رسول الله قد علموا من البريةِ لم يعدل به رجلا
يذكر خصال أبو بكر رضي الله عنه، لأنه خير صديق ورفيق كان للنبي ﷺ، ويعدد مواقفه مع النبي والذود بماله ونفسه عن عقيدة الإسلام، وأن النبي ﷺ خصه و فضله، وجعله رفيقه وصديقه وصاحبه

بحيث لا يعدله بآخر، ثم راح يرثيه بأعماله الحميدة، وقال يرثي شهداء الإسلام والمسلمين والنبي ﷺ:

تأوبَني ليــلٌ بيثــرِبَ أعسَــرُ　　　وَهَمٌّ إذا ما نَوَّمَ النــاسُ مُسهِــرُ

لذكرى حبيب هيجت ثُم عبرةً　　　سَفوحاً وأسبابُ البُكاء التذكُــرُ

بَلاءٌ وفقــدانُ الحَبيــبِ بليــةٌ　　　وكم من كريمٍ يُبتَلى ثم يَصبــرُ

رأيتُ خيارَ المؤمنيــنَ تَــواردوا　　　شَعوبَ وقد خُلفتُ فيما يُؤخَّــرُ

يعاني من صعوبة النوم، لأن ذكرى الأحبة وشهداء الإسلام، تقض مضجعه وما له إلا الصبر:

فلا يُبعدَن اللهُ قتلــى تتابعــوا　　　بمُؤتَةَ منهُم دو الجناحين جَعفَــرُ

وزيدٌ وعبــدُ الله حينَ تتابعــوا　　　جَميعاً وأسبابُ المنيــة تَخطــرُ

غَداةَ غَدوا بالُمؤمنيــنَ يقودُهم　　　إلى الَموتِ مَيمونُ النقيبة أزهَــرُ

أغرٌّ كلونِ البدرِ من آلِ هاشــمٍ　　　شُجاعٌ إذا سيمَ الظُلامةَ مجسرُ

فَطاعنَ حتى مات غيرَ مُوسَّــدٍ　　　بمُعتــركٍ فيه القنــا يَتَكسَــرُ

فَصارَ معَ الُمستَشهِديــنَ ثَوابُــهُ　　　جِنانٌ ومُلتَفُّ الحدائــقِ أخضــرُ

يفخر بأبطال الإسلام في ساحات الوغى، ويبين شجاعتهم الفائقة، وأن مسلكهم الجنان:

وكُنا نرى في جعفرٍ من مُحمــدٍ　　　وفاءً وأمراً حازماً حيــنَ يأمــرُ

فما زالَ في الإسلامِ من آل هاشمٍ　　　دَعائمُ عــزٌ لا يــزولُ ومَفخَــرُ

هُمُ جَبَلُ الإسلامِ والناسُ حَولَــهُ　　　رِضامٌ إلى طَودٍ يــروقُ ويَقهــرُ

بِهم تُكشَفُ اللأواءُ في كُل مأزقٍ　　　عَماسَ إذا ما ضاقَ بالقَومِ مَصدَرُ

هُمُ أولياءُ اللَهِ أنــزلَ حُكمَــهُ　　　عليهِم وفيهم والكتابُ الُمطهــر

بهاليلُ منهُم جَعفرٌ وابــنُ أُمــهِ　　　عليٌّ ومنهــم أحمَــدُ المتخيــرُ

وحَمزَةُ والعبــاسُ منهم ومنهــم　　　عَقيلٌ وماءُ العودِ من حَيثُ يُعصَرُ

يرثي حسان شهداء الإسلام بأجمل القصائد، مخلداً ذكراهم أحسن تخليد، بدت شخصية حسان عظيمة لأنــه رفع لواء نشر رسالة الإسلام فكان سهم الإسلام وسيفه القاطع في إسكات الحاقدين من أعداء الإســلام فكــان حــربة الإسلام القوية المؤيدة بنصر الله لحماية العقيدة والدين ومارس حسان دور الواعظ الديني والنفسي في إسداء النصح والإرشاد للدعوة للإسلام، وكم ما تعرض للهجاء والشتم، فكان يخرج منتصراً لأن النبي صلى الله عليه وسلم دعا له بالنصر على الأعداء فكانت قصائده موجعة ومؤلمة للكافرين، وتعد شخصية حسان سوية لأنها تمسكت بخلق النبي وتربت في مدرسة النبوة، تلك المدرســة الإنســانية والتي خرجت الأجيال الصادقة من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم جميعاً

وحملت راية الإسلام بصدق ومحبة. ورحم الله القائل الحكمة التالية:

النفس تبكي على الدنيا وقد علمت	**أن السلامة فيها تــرك ما فيها**
لا دار للمرء بعــد الموت يسكنها	**إلا التي كان قبل المــوت يبنيها**
فإن بــناها بخــير طــاب مســكنه	**وإن بــناها بشر خــاب بانيها**
أيــن الملوك التي كانت مســلطنة	**حتى سقاها بكأس الموت ساقيها**
أموالــنا لذوي المــيراث نجمعها	**ودورنا لخــراب الدهــر نبنيها**

قال النبيﷺ:

(إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

الحطيئة

قال أحد الحكماء:

(إنـــنا نحـــس بفقـــد الأم إحساساً أليما. وقد تكون الأم عاجزةً عن العناية بالعائلة، ولكنها تبقى مع ذلك ملجأ حلواً نرى فيه الحب والطاعة والحنان، وعندما يزول هذا الملجأ يبقى مكانُه قفراً).

إنه من الطبيعي إن من غلبه الهوى فليس لعقله سلطان عليه، ومن لم يحسن إلى نفسه لم يحسن إلى غيره، لم تعــرف مــتى كانت ولادته ولكنه توفي سنة679م على الأرجح، وجاء من أمة أسمها الضراء وقد أســتولده أوس بن مالك العبسي منها، فكان مضطرب النسب غير صريح القرابة، ويبدو أن الضراء كانت مستهترة تقول لأبنها: لست لواحد ولا اثنين، وكان يعلم أنه زنيم وينقم على أمه وعلى الناس من أجل ذلك يقول:

تقول لي الضراء لست لواحدٍ ولا اثنين فانظر كيفَ شِرك الثكا

وأنتَ امرؤ تبغي أباً قد ضللته هبلتَ ألمـــا تستفق من ضلالكا !

وهذا يفسر رغبته في نقل نسبه من قبيلة إلى قبيلة مرة بعد مرة، وطلب الالتحاق بأخوته من أبيه فلم يُفلح فهجاهم، والتحق بأهل امرأة أبيه من بني ذُهل، فلم يلق عندهم خيراً فهجاهم وانصرف عنهم، ويعلل هجاءه المُقذع ونيله من أعراض الناس حقاً وباطلاً لأسباب متعددة. ويسمى جرول بن أوس، وقيل لقب بالحطيئة لأنه كان قصيراً قريباً من الأرض، وكان ذا شر وسفه:" جشعاً سؤولاً مُلحفاً في الطلب، دنِيء النفس، كثير الشر قليل الخير بخيلاً بذيئاً هجاءً ".وراح يهجو أمه أقرب الناس إليه، ما هـــذا الولد العاق؟ الذي لا يعترف بحق الأم! ونسي أنها أحق الناس بالصحبة، وأن الجنة تحت أقدام الأمهات، فسحقاً له من أبن عاق، بل وأخذ بكل وقاحة يقول:

جزاكِ الله شراً من عجوزٍ ولقاكِ العقوقَ مــن البنين

فقد مُلكتِ أمرَ بنيكِ حتي تركتِهمُ أدقَ مـــن الطحين[183]

لسانكِ مِبردٌ لا خيرَ فيه ودَرُكِ دَر جاذبـــه دهين[184]

إلا أنه لم يكتف بذلك الهجاء القبيح، فراح يهجو أمه ذات مرة بسبب سر قاله لها وكلمها به، فباحت به إلى بعض الناس الذين نقلوه لولاة الأمر(الوالي)، مما أودى به إلى السجن معها بسبب نقلها الكلام عنه، وللشاعر مقدرة فائقة في إيقاظ الدوافع لاستحسان شعره رغم كونه هجاء مر فقال لها:

تنحَي فاقعدي مني بعيداً أراحَ اللـــه منكِ العالمينا

---

[183] -ملكت : لقد توليت تربية الأولاد ولست كفء لتربيتهم.

[184] -جاذبه :الناقة التي جذبت لبنها من ضرعها فذهب حالاً (كناية عن البخل واللوم)

اغربالاً إذا استودعت سراً وكانوناً علـى المتحدثينا
ألم أظهر لك الشحناء مني ولكـن لا إخالـك تعقلينا
حياتك ما علمتُ حياةُ سوءٍ وموتُكِ قد يسر الصالحينا

مـا هـذه الأخلاق الوضيعة في الإساءة إلى الأم، أنه يمثل الانحراف السلوكي بكل المقايس النفسية والاجتماعية، فهو لم يرع حرمة لأحد لا لجار، ولا جيرة ولا أهل، حتى أنه تطاول وهجا نفسه عندما لم يجـد أحـداً يشتمه، فشتم نفسه. وقال فيه ابن قتيبة: " كان رقيق الدين لئيم الطبع ".ويكنى أبا مُليكة.ويروى أنه ذات يوم التمس إنساناً يهجوه فلم يجده فضاق عليه الأمر فأنشد يقول:

أبتْ شفتايَ اليومَ إلا تكلما بشرٍّ فما أدري لِمن أنا قائله

وجعل يدور هذا البيت في أشداقه لعله يرى أحداً يصب عليه حقده ولكنه لم يرَ إنساناً، وإذ به ينظر في ركـى (البـئر) أو حوض ماء، فرأى وجهه فقال ذاماً نفسه وخلقته وهنا يمثل السادية النفسية في العدوان على الذات والآخرين:

أرى لي وجهاً شوهَ الله خَلقه فقبحَ من وجهٍ وقبحَ حامله

إنـه عدواني يصب جام غضبه على نفسه، لم يفعلها أحداً من الشعراء قبله وبعده، اشترك الحطيئة في حـرب داحـس والغـبراء ودخل الإسلام، غير أن ابن قتيبة يتردد في قبول ذلك ويشكك بإسلام الحطيـئة. ولمـا توفي الرسول ﷺ ارتد الحطيئة مع قومه عن الإسلام، وقال بيتين من الشعريفسران مشكلة من مشاكل الردة في الإسلام:

أطَعنا رسولَ الله إذ كان بيننا فيا لعبادِ الله ما لأبي بكرِ !
أيورثها بكراً إذا مات بعده ؟ وتلك لعمرُ الله قاصمة الظهر

ويروى أن الحطيئة أوقعته الأيام في شدة ومشقة، فنزل ببني مقلد بن يربوع فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا: إن هذا الرجل لا يسلم أحد من لسانه فتعالوا حتى نسألة عما يحب فنفعله وعما يكره فنتجنبه فـأتوه فقالوا له: يا أبا مُليكة إنك اخترتنا على سائر العرب ووجب حقك علينا، فمرنا بما تحب أن نفعله وبما تحب أن ننتهي عنه فقال: لا تكثروا زيارتي فتملوني ولا تقطعوها فتوحشوني، ولا تجعلوا فناء بـيتي مجلسـاً لكم ولا تسمعوا بناتي غناء شبانكم فإن الغناء رقية الزنا، قال: فأقام عندهم وجمع كل رجل منهم ولده وقال: لئن تغنى أحد منكم والحطيئة مقيم بين أظهرنا لأضربنه ضربةً بسيفي أخذت منه ما أخذت، فلم يزل مقيماً فيما يرضى حتى انجلت عنه سنة القحط والجدب فارتحل وهو يقول:

جاورتُ آلَ مُقلدٍ فحمدتُهم إذ ليس كلُ أخي جوارٍ يُحمَدُ
أيام من يُردِ الضيعة يصطنع فينا ومن يُرِدِ الزهادةَ يزهدُ

لم يـــلجأ الحطيئة إلى الفحش والإقذاع في القول فقد كان لسانه عفيفاً بخلاف ما كان ينتظر من رجل مثله، بل لجأ إلى التهكم فكان سلاحه يرمي به الناس في مقامه الاجتماعي، ويعيب فيهم البخل والجبن كما ينعي عليهم ضعف الهمة والقعود عن طلب المعالي مُفضلاً عليهم من كانوا لهم خصوماً ومضمناً هجــوه شكوى فيها وعظ ومعاتبة، وإن لم يكن تهكمه غليظاً فهو مؤلم يصيب في الصميم، وللحطيئة قدرة على استجلاء مواطن النقص وإرسال الشعر الجارح، مما يدل على مهارة فائقة في إثارة المشاعر لــدى السامع والقارىء لشعره، وهذا يدل على تمكنه من مخاطبة الدوافع النفسية بما ينفرها، وبنفس الوقت بما يشعرها بالقرف والكره للمهجو فقال يهجو الزبرقان:

لما بدا ليَ منكم عيبُ أنفسكم ... ولم يكن لجراحي منكمُ آسِ[185]

أزمعتُ يأساً مبُيناً من نوالكمُ ... ولن يُرى طارداً للحُرّ كاليأس[186]

لقد مَريتُكُمُ لو أن درِتَّكم ... يوماً يَجيءُ بها مَسحي وإبساسي[187]

جارٌ لقومٍ أطالوا هُونَ منزلهِ ... وغادروه مُقيماً بين أرماسِ[188]

مَلوا قِراه وهرّته كلابهم ... وجرّحوه بأنيابٍ وأضراس

دعِ المكارمَ لا ترحل لبُغيتها ... واقعُد فإنك أنت الطاعمُ الكاسي[189]

من يفعل الخيرَ لا يعدم جوازيه ... لا يذهبُ العُرف بين الله والناس[190]

يبين الحطيئة أنه لا خير يرجى لمن جاور الزبرقان كونه بخيل ولا يعول عليه، حتى في الشدائد، ناهيك عن رائحته النتنة، والتي أن غسلت بماء الورد والرياحين والآس لبقيت كريهة منفرة كرائحة الجيف، فشـــكاه الزبـــرقان إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان عمر أعلم الناس بالشعر، ولكنه أراد أن تقوم الحجة على الحطيئة من شاعر مثله، فاستدعى حسان بن ثابت وقال له: ما تقول أهجـــاه ؟ فقال حسان لم يهجه ولكن سلح عليه ! (كناية عن شدة الهجاء وقبحه). فألقى عمر بن الخطـــاب رضـــي عنه الحطيئة في السجن، فجعل في سجن أشبه بنقير في بئر ثم ألقي عليه شيء أشبه بغطاء يسبب الظلام والعتمة في سجنه، كي يرتدع ويتوب عن هجاء الناس، إلا أنه أرسل شعراً لأمير

---

[185] –آس :طبيب

[186] –عزمت أن أفارقكم مرة واحدة ليأسي من عطائكم . الياس : اليأس .

[187] –مرى الناقة :مسح ضرعها لتدر . الدرة : اللبن . الإبساس :تسكين الناقة عند الحلب ،يعني أنه لم يلق منهم نوالا حتى اللبن بخلوا به رغم صبره ومداراته لهم .

[188] –الارماس جمع رمس :قبر . بين أرماس: مهدد بالموت .

[189] –الطاعم الكاسي :الذي يطعمه الناس ويكسونه .

[190] –الجوازي جمع جازية : من يثيب على عمل الخير . العرف : عمل الخير والمعروف مع الناس .

المؤمنين رضي الله عنه يطلب منه الصفح فقال:

أعوذُ بجَدكَ إني امرؤٌ سقتني الأعادي إليكُ السجالا
فإنك خيرٌ من الزبرقان أشدُّ نكالاً وأرجى نوالا
تحَنَّن عليَّ هدَاكَ المليك فإن لكلِ مقامٍ مقالا
و لا تأخذني بقول الوُشاة فإن لكلِ زمانٍ رجالا
فإن كان ما زعموا صادقاً فسيقت إليكَ نسائي رجالا
حواسِرَ لا يشتكينَ الوجا يُخفضَ ألا ويرفضَ ألا

فلم يلتفت عمرُ رضي عنه إليه إلا حينما راح الحطيئة يستشفع عمر ويذكر له أن حبسه قد حال بينه وبين الاهتمام بأولاده، وبأهم بأمس الحاجة إليه ولا معيل لهم سواه وقد استطاع النفاذ إلى قلب ووجدان الخليفة من خلال الكلام العاطفي، وهذا يدل على مهارة الحطيئة النفسية في إثارة المشاعر العاطفية للخليفة ودوافعه الإنسانية، والمعروف أنه قد أظهر لامرأته وأولاده من العطف ما لا ينتُظر من رجل مثله، وهذا دليل على أن خبثه ولؤمه كان نتيجة الأحوال المعاكسة التي وقفت في وجهه، وتعد قصيدته هذه من روائع الشعور الإنساني تجاه الأبناء:

ماذا تقول لأفراخٍ بذي مرخٍ حُمْرَ الحواصل لا ماءٌ ولا شجرُ[191]
ألقيتَ كاسبِهَم في قعرِ مُظلمة فارحم عليك سلامُ الله يا عمر !
أنت الإمام الذي من بعد صاحبه ألقى إليك مقاليدَ النهى البشرُ
لم يؤثروكَ بها إذ قدموك لها لكن لأنفسهم كانت بك الأثر
فامنن على صبيةٍ بالرملِ مسكنهم بين الأباطح تغشاهم بها القررُ[192]
أهلي فداؤك كم بيني وبينهم من عرضِ داوية تقمى بها الخُبرُ[193]

قال: فبكى عمر رضي الله عنه حين قرأ قول الحطيئة : (ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ).فقال عمرو بن العاص : " ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أعدل من رجل يبكي على تركه الحطيئة" فأخرجه وقال له : إياك وهجاء الناس قال الحطيئة : إذا يموت عيالي جوعاً لكسبي ومنه معاشي. قال له عمر:فإياك والمقذع من القول، فأجابه بعجزه عن الوفاء بوعده، فقال عمر: عليّ بالكري[194] فأتي به

[191] -ذو مرخ : واد بالحجاز . حمر الحواصل :صغار الطير قبل أن يثبت الريش على نحورها (كناية عن أولاده).
[192] - القرر : شدة البرد .
[193] -داوية : الفلاة الواسعة .
[194] -الكري: يعني إيقاع الألم بالحطيئة كي يكف عن هجاء الناس.

فجلس عليه ثم قال : أشيروا علي في الشاعر. فإنه يقول الهجر وينسب بالحرم، ويمدح الناس ويذمهم بغير ما فيهم ما أراني إلا قاطعاً لسانه ثم قال: بالسكين لا بل عليّ بالموس فهو أوحى فقالوا: لا يعود يا أمـــير المؤمنين فأشاروا إليه أن قل: لا أعود فقال لا أعود يا أمير المؤمنين، فخلى عمر رضي الله عنه ســبيل الحطيئة وأخذ عليه عهداً ألا يهجو أحداً من المسلمين، ثم أعطاه ثلاثة آلاف درهم يستغني بها عن الهجاءوالقذع بالناس، فقال الحطيئة في ذلك:

وأخذتَ أطرافَ الكلام فلم تدع شتماً يضرُ ولا مديحاً ينفعُ

وحميتني عِرضَ اللئيم فم يخف ذَّمي وأصبح آمناً لا يفزَعُ

عـــاد الحطيـــئة إلى أهله كاسباً غانماً بعد سجنه، ومعاهداً الخليفة تجنب الهجاء وبنفس الوقت شاكراً عطف الخليفة وعطاءه الكريم الذي منعه سؤال الناس وتحاشي الإساءة لأحد من الناس، ولكن هيهات لمـــن نشـــأ على شيء حافظ عليه وتمسك به، وأن تخلى عنه فيكون ذلك إلى حين من الوقت، عرف الحطيـــئة بشاعر التكسب سواء بالمدح والهجاء، فكان إذا مدح رفع وإذا هجا أوضع ومديحه يمتزج بالاستعطاف الرقيق المؤثر، ومن جيد مدحه قوله في آل سعد بن هُذيم من آل شماس قوم انف الناقة:

أُولئكَ قومٌ إن بَنَوا أَحسنوا البنى وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شَدُّوا[195]

وإن كانتِ النُّعمى عليهم جزَوا بها وإن أَنعموا لا كدروها ولا كدروا[196]

قومٌ همُ الأنفُ والأذنابُ غيرُهُمُ ومن يُسوي بأنف الناقة الذنبا[197]

كان الحطيئة ميالاً إلى الهجاء بطبعه، وتظهر دوافع الحطيئة النفسية وصراعاها بكل وضوح، كما كان مـــيالاً إلى مخالفـــة الناس في ما يرون ويفكرون فينكر ما يستحسنون وما يقولون، لا لشيء إلا لأهم يستحسنونه، ويستحسن ما ينكرون لا لشيء، إلا لأهم ينكرونه، وكان بسبب ذلك أحياناً متقلباً في رأيه أشد التقلب، فيعيب ما كان قبلا في نظره من المحامد، ويمدح ما كان قبلاً من المخازي، لا يحكمه في كل ذلك إلا ميل الساعة ووحي الحال فقال يهجوُ زوج أمه لا لسبب وإنما لمزاج في خلقه فقال:

لَحاكَ اللهُ ثم لحاكَ حَقاً أَبا ولَحاكَ من عمٍ وخالِ

فنعمَ الشيخُ أنت لدى المخازي وبئسَ الشيخُ أنتَ لدى المعالي

جَمعتَ اللؤمَ لا حياك ربي وأبوابَ السفاهةِ والضلال

هجاء مر ومخزي للأسف ومقذع، فلقد جعل زوج أمه بؤرة للفساد والضلال والانحراف وبأنه لا خير

---

195 – البنى :إنهم قوم يبرون في العهود والوعود

196 –إنهم لا يتركون معروف الغير بدون مكافأة ؛ وهم إن انعموا لايفسدون جميل معروفهم مهما كانت الأسباب .

197 –الأنف : مقدم جسم الحيوان (كناية عن الشرف).

فـــيه لأن المعـــالي والقـــيم بعيدة عنه كل البعد، وهنا يوضح أبعاد نفسه الحاقدة، وللحطيئة قصيدة موضوعية من الوصف والقصص رائعة المعنى جميلة السبك كاملة المعالجة يذكر فيها أن ضيفاً نزل به وليس عنده ما يقر به ضيفه، فخطر له أن يذبح ابنه ليقدم لحمه طعاماً، وكأن الطفل أدرك ما يجول في نفس أبيه فشجعه على أن يفعل ذلك، ثم بدأ للحطيئة من بعيد سرب من حُمُر الوحش، فاصطاد منها واحدا أطعم ضيفه وفدى ابنه:

وطاوي ثلاثٍ عاصبِ البطنِ مُرملٍ ببيداءَ لم يعرِف بها ساكنٌ رسما[198]

أخي جفوةٍ فيه من الأنس وحشةٌ يرى البؤسَ فيه من شراسته نُعمى[199]

تفرد في شِعبٍ عجوزاً إزاءها ثلاثةُ أشخاص تخالُهمُ بَهما[200]

حُفاةً عُراةً ما اغتذوا خبزَ مَلَةٍ و لا عَرَفوا للبرُ مُذ خلُقوا طعما[201]

رأى شبحاً وسطَ الظلام فراعه فلما رأى ضيفاً تشمر واهتما[202]

تروّى قليلاً ثم أحجم بُرهة وإن هو لم يذبح فتاه فقد همّا[203]

وقال ابنه لـمـا رآه بحيرة : أيا أبتِ اذبحني ويسر له طعما

و لا تعتذر بالعُدم علّ الذي طـــرا يظنّ لنا مالاً فيوسعنا ذما[204]

فقال : هيا رباهُ ضيفٌ و لا قِرىً بحقك لا تحرمُه تا الليلةَ اللحما[205]

فبينا همُ عنَت على البعُد عانةٌ قد انتظمت من خلف مسحلَها نظما[206]

ظماءً تريد الماء فانسلّ نحـــوها ألا إنه منها إلى دمِها أظما !

فأمهلها حتى تروت عِطاشُها فأرسل فيها من كنانته سهما

فخرت نحوص ذات جحش فتيةٌ قد اكتنزت لحماً وقد طُبقت شحما

فيا بِشرهَ إذ جرها نحو أهله ويا بشرهَم لما رأوا كلَمها يدمى[207]

---

198 -الطاوي : الذي بات على الجوع ثلاث ليال .عاصب البطن : ربط بطنه ليمنع الجوع ; مرمل : فقير. . لم يعرف بها ساكن رسما : لم يترل بها أحد منذ زمن طويل .

199 -أخي جفوة :غليظ الطبع .ألف الانفراد واستوحش حتى ولو رأى إنساناً .

200 -عاش منفرداً بعيداً عن الناس مع امرأته العجوز وثلاثة أولاد وتخالهم بهماً(صغار الغنم) لنحولهم وهزالهم .

201 -الملة : الرماد الحار . خبز ملة : العجين الذي يخبز . البر: الحنطة ،القمح .

202 -تشمر للأمر :هيأ لخدمة الضيف وإكرامه. أهتم : حزن بسبب عدم توفر الطعام لضيفه .

203 -تروى : فكر ملياً في ذبح ولده . أحجم : تأخر . البرهة : المدة . هم : كاد يفعل .

204 -العدم : الفقر . طرا : أتى من مكان بعيد .

205 - و لاقرى : ليس عنده طعام للضيف .

206 - عنت : بدت .عانة : قطيع . انتظمت :وقفت في صف مستقيم .

وبات أبوهم من بشاشته أباً لضيفهمُ والأمُ من بشرها أما
وباتوا كراماً قد قضوا حق ضيفهم وما غرَموا غرُماً وقد غنموا غنما
وللحطيئة وصية ظريفة عندما حضرته الوفاة، اجتمع إليه قومه فقالوا: يا أبا مليكة: أوص فقال: ويل للشعر من راوية السوء، قالوا: أوص رحمك الله، قال: من الذي يقول:
إذا أنبض الرامون عنها ترنمت ترنمَ ثكلى أوجعتها الجنائزُ ؟
قالوا : الشماخ، قال : أبلغوا غطفان أنه أشعر العرب، قالوا ويحك ! أهذه وصية ؟ أوص بما ينفعك !
قال : أبلغوا ضابىء أنه شاعر حيث يقول :
لكلّ جديدٍ لذةٌ غير أنني رأيتُ جديدَ الموتِ غير لذيذ
قالوا : أوص ويحك بما ينفعك ! قال : أبلغوا أهل امرئ القيس أنه أشعر العرب حيث يقول :
فيالكَ من ليلٍ كأن نجومهُ بكل مغُار الفتلِ شُدت بيذُبلِ
قالوا : اتق الله ودع عنك هذا قال : أبلغوا الأنصار أن صاحبهم أشعر العرب حيث يقول:
يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل
قالوا : هذا لا يغني عنك شيئاً فقل غير ما أنت فيه فقال :
الشعرُ صعبٌ وطويلٌ سلُمه إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زلتَ به إلى الحضيض قدمه يريدُ أن يُعربه فيعجمُه
قالوا : هذا الذي كنت فيه فقال :
وكنتُ ذا غربٍ على الخصم ألدُّ فوردت نفسي وما كادت ترد
قالوا: يا أبا مليكة ألك حاجة ؟ قال: لا والله ولكن أجزع على المديح الجيد يمدح به من ليس له أهلاً، قالوا: فمن أشعر الناس ؟ فأوما بيده إلى فيه وقال: هذا الجحيرُ إذا طمع في خير (يعني فمه) واستعبر باكياً فقالوا له: قل: لا إله إلا الله، فقال:
قالت وفيها حيدةٌ وذُعرُ عَوذٌ بربي منكم وحجَرُ
فقالوا : ما تقول في عبيدك وإمائك ؟ فقال : هم عبيد قن ما عاقب الليل النهار، قالوا : فأوص للفقراء بشيء قال: أوصيهم بالإلحاح في المسألة فإنها تجارة لا تبور.
قالوا: فما تقول في مالك ؟ قال:للأنثى من ولدي مثل حظ الذكر، قالوا:ليس هكذا قضى الله عز وجل لهن، قال: لكنني هكذا قضيت. قالوا: فما توصي لليتامى ؟ قال:كلوا أموالهم وأنكحوا أمهاتهم،

---

[207] -النحوص : الأتان التي لا ولد لها ولا لبن .

قالوا: فهل لك شيء تعهد فيه غير هذا ؟قال:نعم تحملونني على آتان وتتركوني راكبها حتى أموت فإن الكريم لا يموت على فراشه والآتان مركب لم يمت عليه كريم قط، فحملوه على أتان، وجعلوا يذهبون ويجيئون عليها حتى مات وهو يقول:

لا أحدٌ ألأمُ من حُطيه   هجا بنيه وهجا المُريَه[208]

من لؤمه ماتَ على فُرَيه[209]

تبدو شخصية الحطيئة من خلال أقواله وسلوكياته مع الذين عاصرهم، أنها غير سوية السلوك في تعاملها مع الآخرين، فلقد هجا أمه وهجا زوج أمه، وتناول أعراض المسلمين مما دفع الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى رميه بالسجن، كي يكف عن الهجاء المقذع، إلا أنه لم يرتدع وبقي طوال حياته ناقماً مشاكساً، وتخشاه القبائل بسبب سلاطة لسانه، بل حتى هجا نفسه، أنه يمثل الفرد العدواني على الناس وحتى على نفسه، ومهما يكن من ظروف قاسية يعيشها، فهذا لا يعطيه الحق في الاعتداء على الآخرين وعليهم تلبية رغباته، فهو غير سوي بل سادي وعدواني يتلذذ بهجاء الآخرين، وبالرغم من ذلك فهو أب حنون مع أولادة وزوج عطوف على أهله، لكن هذا لا يعفيه و لا يبرر له السلوك العدواني حتى أضحت القبائل تخشاه وتتجنب غضبه بسبب لؤمه وسخطه، إذن فهو عدواني ومتسلط لأن طبعه ومزاجه متقلب أشد التقلب، وخير مثال وشاهد على سلوكه الشاذ والمنحرف أمنيته ووصيته أثناء موته والتي جاءت على مبدأ خالف تعرف وقد اعترف أن مركب الأتان لا يموت عليه حر كريم، بل يموت الكرام على ظهور الجياد أثناء الحرب.

قال الحجاج بن يوسف لمعلم أولاده:

(علم ولْدي السباحة قبل أن تعلمهم الكتابة، فإنهم يجدون من يكتب عنهم، ولكنهم لا يجدون من يسبح عنهم، ولا تأكل خبزك على مائدة غيرك).

---

[208] -المريه : تصغير للمرأة .

[209] - فريه :أنثى الحمار

الخنساء

حكمة لسقراط:
(تستطيع الشمس أن تجفف مياه المحيط، ولكنها لن تجفف دموع امرأة).

رمز الشموخ والعزة والآباء والحنان، مثال الأخت الوفية والأم الحانية، ترميها الأيام بقلة المال الذي أنفقـــه الزوج من دون بصيرة ويدعها لريب الزمان، وتلجأ إلى السند الأخ الطيب الذي يقتسم ماله معها لأكثر من مرة أثناء عوزها، وتفجع بموت أخيها السند، وأولادها في معارك الشرف والتضحية عـــن الإسلام، ولدت سنة575م وتوفيت سنة664م، ومن للأخوات غير الأخوة الأجلاء في أحلك الظروف، والنبي صلوات الله عليه أوصى بالنساء خيراً، فيا معشر الرجال رفقاً بالأم والأخت والابنة والـــزوجة فهل حفظنا الأمانة والعهد.نعم إنها الخنساء التي نشأت في بيت ثروة وجاه ونفوذ فهي أُم عمـــرو تُماضـــر بنت عمرو بن الشريد السُّلمية الملقبة بالخنساء، ورزقت أولاداً اشتهروا بالفروسية وقـــول الشـــعر وحدث أن قتل أخواها معاوية وصخر من سادات بني سليم فجزعت عليهما جزعاً شـــديداً وذابـــت نفسها لوعة فبكتهما بكاءً غزيراً حتى عميت، وقد خصت أخاها صخرا بدموعها السخية لما تحلى به من سامي الصفات العربية كالشجاعة والكرم والوفاء وعلو الهمة ولما أظهر لأخته في حياته من محبة خالصة وبر وبذل مال وسبب حزنها الشديد على أخيها صخر خاصة أنها كانت قد تزوجـــت رجلاً كريماً مسرفاً فأتلف ماله، فجاءت الخنساء إلى أخيها صخر تشكو إليه ذلك فقاسمها ماله وعاد زوجها فانفق ما جلبته من أخيها، فعادت إلى أخيها مرتين أخريين فقاسمها في كل مرة منهما مـــا كان قد بقي معه في كل مرة من مال. أُصيبت الخنساء في صميم قلبها وكان الخطب الذي ألم بها عظـــيماً بقدر ما كانت محبتها لأخيها شديدة واعتمادها عليه قوياً وتقديرها له ولصفاته الفريدة مجالا واســـعاً يملأ نفسها وجميع كيانها، فموت أخويها ولا سيما صخر فجّر من عينيها ينبوعي دموع ومن قلبها شعراً هو شعر العاطفة المحُبة والمتألمة في محبتها.فهي لا تعرف للبكاء حداً ولا تجعل للنحيب نهاية، وهـــي تـــزداد قـــوة بالذكرى والذكريات تملأ عالم الخنساء إذ أن كل شيء يذكرها بأخيها صخر، فالشمس إذا طلعت تذكرها بغارات صخر والشمس إذا غربت تُذكرها ضيافة صخر :

يُذكرُني طلُوعُ الشمسِ صخَراً وأذكرُهُ لكُلِ غُروبِ شَمسِ

وقـــد تجاوزت تلك العاطفة حداً بعيداً حتى كادت تودي بحياة المرأة فتقتل نفسها لولا كثرة الباكين حولهـــا عـــلى إخوانهـــم، وهذا يمثل في علم النفس مرحلة انحراف سلوكي خطيرة تجعل حياة الفرد سوداوية لا يرى في الحياة خيراً وهذا نوع من التعذيب النفسي للروح:

ولولا كثرةُ الباكينَ حَولي على إخوانهم لقتلتُ نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن أُعزي النفس عنه بالتأسي

امتزجت عاطفتها بالثورة على الأعداء ويظهر هذا الامتزاج عندما تذكر صفات أخيها الحربية ومواقفه في ميادين القتال، فهي امرأة عربية لا تجهل ساحات الوغى ولا تقف بمعزل عن الحماسة الرجولية الحقة وعاطفة الخنساء على كل حال مؤثرة تخرج من القلب إلى القلب:

فلا والله ما أنساكَ حتى أفارقَ مُهجتي ويُشقَّ رمسي

فقد ودعتُ يَومَ فِراقِ صَخرٍ أبي حَسانَ لذاَّتي وأُنسي

فيا لهفي عليه ولهف أُمي أيُصبحُ في الضريحِ وفيه يُمسي ؟

عاشت الخنساء طويلاً ولما جاء الإسلام وفدت الخنساء على الرسول صلى الله عليه وسلم مع قومها وأنشدته من شعرها، وأسلمت بين يديه هي وقومها. ولم تترك الخنساء الحزن على أخويها ورثاءهما على الرغم مما خوطبت به في ذلك. ومما يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل المسجد الحرام فرأى الخنساء و لها من العمر خمسون عاماً تطوف بالبيت محلوقة الرأس تبكي وتلطم خدها، وقد علقت نعل صخر أخيها في خمارها.فوعظها وعذلها و قال لها عمر، وقد رأى شدة حزنها على أخويها:إن الذي تصنعين ليس من الإسلام ،وإن الذين تبكين هلكوا في الجاهلية ، ولماذا تحزنين عليهما وهما في النار ؟ فقالت له: ذلك أدعى لحزني عليهما لقد كنت من قبل أبكي لهما من الثأر وأنا أبكي اليوم لهما من النار ! فكفت عن ذلك وقالت هذه القصيدة:

أريقي من دموعك واستفيضي وصبراً إن أطقت ولن تطيقي

وقولي إن خير بني سليم وفارسهم بصحراء العقيق

وإني والبكا من بعد صخر كسالكة سوى قصد الطريق

فلا وأبيك ما سليت صدري بفاحشة أتيت ولا عقوق

ولكني وجدت الصبر خيراً من النعلين والرأس الحليق

ألا هل ترجعنَّ لنا الليالي وأيام لنا بلوى الشقيق

ألا يا لهف نفسي بعد عيش لنا بندى المخيم والمضيق

وإذا يتحاكم السادات طرّا إلى أبياتنا وذوو الحقوق

وإذ فينا فوارس كل هيجا إذا فزعوا وفتيانُ الخروق

إذا ما الحرب صلصل ناجذاها وفاجاها الكماة لدى البروق

وإذ فينا معاوية بن عمرو على أدماء كالجمل الفنيق

فبكيه فقد ولى حميدا أصيل الرأي محمود الصديق

هو الرزء المبين لا كباس عظيم الرأي يحلم بالنعيق

ولما شبت نيران الحرب بين المسلمين والفرس حضت أولادها الأربعة على اقتحام نيران القتال لفتح العراق ونصرة الإسلام فخاضوا موقعة القادسية سنه 638م واستشهدوا جميعهم فلما جاءها النعي بمصرعهم لم تزد على أن قالت وهتفت: " الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته ".تعد الخنساء أعظم شواعر العرب على الإطلاق وشعرها مقطعات كله وهو فصيح اللفظ رقيق متين السبك رائق الديباجة حيث غلب على شعرها الفخر قليلاً والرثاء كثيراً، ورثاؤها واضح المعاني رقيق صادق العاطفة بدوي المذهب على كثرة ما فيه من التلهف والمبالغة في ذكر محامد أخويها:

أعينيَّ : جودا ولا تجمدا ألا تبكيانِ لصخرِ الندى ؟

ألا تبكيان الجريء الجميل ألا تبكيان الفتى السيدا !

رفيعَ العماد طويل النجاد ساد عشيرته أمردا

إذا القوم مدوا بايديهمو إلى المجد ثم انتمى مصعدا

يحمله القوم ما عالهم وأن كان أصغرهم مولدا

وإن ذُكِرَ المجد ألفيته تأزّرَ بالمجد ثم ارتدى

ومن مراثي الخنساء المشهورة في أخيها صخر قولها:

قذى بعينك أم بالعين عُوار أم ذرفت أم خلت من أهلها الدار[210] ؟

كأن عيني لذكراه إذا خطرت فيض يسيل على الخدين مِدرار[211]

تبكي خُناس على صخر وحق لها إذ رأبها الدهر . إن الدهر ضرّار

وإن صخراً لوالينا وسيدنا وإن صخراً إذا نشتو لنحار[212]

وإن صخراً لمقدام إذا ركبوا وإن صخراً إذاً جاعوا لعقار[213]

وإن صخراً لتأتمُّ الهداة به كأنه علم في رأسه نار[214]

تمثل الخنساء مثال الشخصية الحزينة التي أطلقت العنان لدموعها و لها الحق فيه إلى حين. ولكن ليس على مدى طول العمر ترفع لواء البكاء والحزن، هذا تطرف سلوكي سببه فقدان السند والحرمان

---

[210] -القذى :الوسخ أو المرض الذي يصيب العين .والتذريف : كثرة البكاء .العوار: أثر العود إذا طرفت العين ويؤلمها.

[211] -إذا خطرت ذكراه : إذا تذكرته . المدرار : الكثير المتدفق .

[212] -نحار : كثير النحر للغنم والإبل كريم . الوالي: الذي يلي أمرنا ويهتم بنا

[213] -مقدام : جريء في الحرب وبكل شيء .العقار : كثير الذبح للإبل (كريم) .

[214] -إن الهداة : أي الذين يهتدون به، أنه عظيم مشهور ظاهر لكل عين كالنار المشتعلة في رأس الجبل كالعلم .

الاجـــتماعي وغياب الضمان الأسري بحيث تزوجت بزوج لم يكن يحسن إدارة الحياة وسط ظروف الحاجة والفاقة، فراح يبذر الأموال والزوجة تطلب العون من الأخ الجواد الكريم، ومهما يكن من أمر لا بـــد لقطار الحياة من المسير برغم الدموع والأحزان، ويجب تجاوز الوقوف على أطلال الماضي إلى حياة سعيدة.

ورحم الله (طاغور) بقوله:

(إن الـــزوجة الحقـــيقة هي التي تستطيع خلق الجمال في قلب الرجل، وإن لم تكن جميلة، ينبغي أن تكون قادرة على الخلق والإيحاء والإبداع).

كعب بن زهير

قال حكيم:

(إن تعبـت في البر فإن التعب يزول والبر يبقى، وإن تلذذت بالإثم فإن اللذة تزول ويبقى الإثم).

تلقن كعب عن أبيه زهير بن أبي سلمى الشعر والنظم مثل أخيه بجير ومثل الحطيئة، ولا تُعرف ولادته لكنه توفي سنة645م، وقال الشعر وهو صغير، وكان أبوه ينهاه عنه ويضربه عليه مخافة أن يقول ما لا خير فيه، وروي أن الحطيئة قال لكعب:قد علمت روايتي شعر أهل بيتكم، وانقطاعي لكم وقد ذهب الفحول غيري وغيرك فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك وتضعني موضعا، فإن الناس لأشعاركم أروى وإليها أسرع.فقال كعب:

فمن للقوافي شأنها من يحوكها إذا ما ثوى كعب وفوز جرول

كفيتك لا تلقى من الناس واحداً تنخّل منها مثل ما يتنخّل

يثقفها حتى تلي متونها فيقصر عنها كل ما يتمثل

وقيل لخلف الأحمر:- أيهما أشعر زهير أم ابنه كعب ؟ فقال: " لولا قصائد لزهير يذكرها الناس ما فضلته على ابنه كعب " ، ولا عجب فقد سبق كعب إلى مذاهب في الشعر أخذها عنه الشعراء.أسلم بجير بن زهير شقيق كعب، ومعروف أن كعباً وبجيرا أخاه والحطيئة أدركوا الإسلام، وكان أسبقهم إلى الدخول فيه، وقد هجا كعب أخاه بجيرا لدخوله الإسلام هجاءً آذى رسول اللهﷺ فاشتد أهله عليه وأرسل كعب قوله لأخيه بجيرا:

ألا أبلغا عني بجيراً رسالةً فهل لك فيما قلتُ بالخيف هل لك

شربت مع المأمون كأساً رويةً فأنهلك المأمون منها وعلك[215]

وخالفتَ أسباب الهدى وتبعته على أي شيءٍ ويبَ غيرك دلك[216]

على خُلقٍ لم تلفِ أُما ولا أَباً عليه وتم تدرك عليه أخاً لك

فلما بلغت هذه الأبيات بجيراً أنشدها النبي ﷺ فقال:صدق أنا المأمون، ويقال إن الرسول ﷺسمع بهذا الشعر فتوعده بالقتل وقد أهدر دمه، وأجابه بجير فيما أجابه به بقوله:

من مبلغٌ كعباً: فهل لك في التي تلوم عليها باطلا وهي أحزمُ

إلى الله لاالعزى ولا اللات وحده فتنجو إذا كان النجاءُ وتسلمُ

---

[215] -المأمون : الرسول وقيل بل أراد أبا بكر

[216] -ويب غيرك: هلكت هلاك غيرك

لدى يومَ لا ينجو وليس بمفلتٍ من النار إلا طاهرا القلب مسلما

فدين زهير وهو لا شيء دينه ودين أبي سلمى عليّ محرم

ويحك يا كعب لقد وقعت في براثن الباطل والشرك ؟ ولا تفيدك هذه الأصنام لا اللات، ولا العزى قـــادرة أن تنجو بنفسها من عقاب الله وعذابه، الذي لا لك مفر منه وإن طالت بك الأيام، فعد إلى رشـــدك وتجنب الإساءة للنبي ﷺ لأنك بفعلتك لمقتول، وليس من أحد يدرأ عنك القتل إلا التوبة لله وطلب العفو من النبيﷺ، وكتب بعد هذا الشعر يخبره: "إن النبي ﷺ يقتل كل من يؤذيه من شعراء المشـــركين، فإن كانت لك في نفسك حاجة، فأقدم على رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحدا جاءه تائباً، وإن أنت لم تفعل، فانج بروحك إلى نجائك من الأرض ".وروي أنه لما تسلم كعب كتاب بجير ضاقت بـــه الأرض وأشـــفق على نفسه وأرجف به من كان في حاضره.وقالوا: هو مقتول وأبت عشيرته أن تؤويه، ومازال كعب على وثنيته حتى فتحت مكة وانصرف الرسول ﷺ من الطائف، وهو يعلم أن الـــنبي صلى الله عليه وسلم سيقتل كل من آذاه من شعراء المشركين، إلا من أعلنوا إسلامهم، وعليه أن يقـــدم على رسول الله تائباً كي يشرح الله صدره للإسلام، فقدم المدينة المنورة، ويقال قدم المدينة ونزل على رجل بينه وبينه معرفة، ثم أتى رسول الله ﷺ وبدأ بأبي بكر، فوقع من نفسه " فلما انتهى النبي صلى الله عليه وسلم من صلاة الصبح جاء به وهو متلثم بعمامته، فقال: يا رسول الله! هذا رجل يـــبايعك على الإسلام، فبسط النبي ﷺ يده، فحسر كعب عن وجهه، وقال: هذا مقام العائذ بك يا رسول الله ! أنا كعب بن زهير.فوثب رجال من الأنصار وغلظوا له، لذكره قبل ذلك رسول الله ﷺ فقـــالوا يا رسول الله دعنا نقتله فقال:رسول الله:دعوه عنكم، فإنه قد جاء تائبا نازعاً، وكفهم عنه، وأحبت المهاجرة أن يسلم ويؤمنه النبي صلى الله عليه وسلم، فأمنه رسول الله وأنشده مدحته الخالدة التي لم ينظمها طمعاً في العطاء، على ما جرت به عادة الشعراء، وإنما نظمها رغباً في العفو ورهباً من القتل، فهي دفاع عن النفس أكثر منها مدحاً حيث يقول:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لـــم يفد مكبول[217]

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يشتكي قصر منها ولا طول

تجلو عـــوارض ذي ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول

شجت بذي شبم من ماء محنية صاف بأبطح أضحى وهو مشمول

---

[217] -متبول:مغرم .بانت: فارقت .مكبول:مقيد

تجلو الرياح القذى عنه وأفرطه   مـــن صوب سارية بيض يعاليل[218]

يـــبين الشاعر مدى الحرقة في قلبه لبعد سعاد والتي يحبها لدرجة الافتنان بها والخضوع لها، ومع أنه لم يـــنل ثواباً على حبه إلا أنه مقيد به ومخلص له، وحين بدت مرتحلة كانت ذات صوت رخيم وطرف آسر بدلاله واكتحاله.وأنها إذا ابتسمت أرتك أسناناً بلورية لامعة يجري فيها الماء العذب، وهي أسنان جميلة لذيذة تبدو للناظر إليها كالمنتشية بخمرة الريق بعد أن شربت منه حتى ارتوت، وإن أسنان سعاد تغوص من ريقها العذب في سائل بارد صاف كأنه ماء مجرى مكنون تهب عليه ريح الشمال، فهو ماء غمر غزير قد تكو ن من غدران كثيرة هطلت عليها أمطار سحابة سارية.

ياويحها خلة لو أنها صدقت   موعدها أو لو أن النصح مقبول[219]

لكنها خُلةٌ قد سيط من دمها   فجع وولع وإخلاف وتبديل[220]

فما تدوم على حال تكون بها   كما تلون في أثوابها الغول

وما تمسك بالوصل الذي زعمت   إلا كما تمسك الماء الغرابيل

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا   و ما مواعيدها إلا الأباطيل

أرجو وآمل أن تدنو مودتها   و ما أخال لدينا منك تأويل

فلا يغرنك ما منت و ما وعدت   إن الأماني والأحلام تضليل

أمست سعاد بأرض لا يبلغها   إلا العتاق النجيبات المراسيل

يقـــول كعـــب في سعاد: ما أحسنها صاحبة لو أنها كانت تفي بوعودها، أو لو أن ما أسديه إليها من نصـــح كان مقبولا، لكن قد خلط بدمها الكذب وإخلاف الوعد وتبديل خليل بآخر، وصار ذلك ســـجية لها وطبعاً لا أمل في إقلاعها عنه، فهي لا تستقر على حال، بل إنها متغيرة وقادرة على التلون كـــالغول، وإنها لا تفي بعهودها لأحبابها، ولا تحتفظ بينها وبين نفسها بالود الذي تزعمه لهم إلا كما تحتفظ الغرابيل بالمياه، أي أنها تضيع ودهم ولا تحفظه.شأنها كالمثل العربي الذي يضرب لمن عرف عنهم خلـــف الوعـــد يقال " مواعيد عرقوب" وعرقوب هذا هو عرقوب بن نصر، رجل من العمالقة نزل بالمدينة قبل أن ينزل إليها اليهود، وكان صاحب نخل، قالوا:إنه وعد صديقا له ثمر نخلة من نخله، فلما حملـــت وصار حملها بلحاً أراد الرجل أن يصرمه. فقال عرقوب: دعه يشقح أي يحمر أو يصفر، فلما شـــقح أراد الرجل أن يصرمه.فقال عرقوب له:دعه حتى يصير رطباً، فلما صار رطبا.قال:دعه حتى

---

[218] --اليعاليل: الغدران مفردها يعلول أي غدير ماء / القذى:ما يسقط في العين والشراب/ أفرطه: ملأه والسارية هي السحابة التي تسري فتمطر ليلاً.

[219] --خلة: خليلة ./ويح :كلمة عذاب [ويل].

[220] --سيط: خلط / الفجع:المصيبة / الولع:الكذب

يصـــير تمراً، فلما صار، قام واختلسه عرقوب.وجاء الرجل بعد أيام فلم يجد شيئاً، فصارت مواعيد عـــرقوب مثلاً للمواعيد الكاذبة.وسعاد تقول في مواعيدها لأحبابها على مذهب عرقوب، فأي وعد تعطـــيه لا تفي به.ويعود كعب إلى نفسه ناصحا بعدم تصديق سعاد، أو الانخداع بوعودها لأن هذه الوعـــود مـــا هي إلا أحلام ضالة وأماني ضائعة، حتى ولو سار يطلبها على صفوة الصفوة من الخيل والإبل فهي بعيدة الوصال:

يسعى الوشاة بجنبيها وقولهم ... إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول

وقال كل خليل كن آملة ... لا ألفينك إني عنك مشغول

فقلت: خلوا سبيلي لا أبالكم ... فكل ما قدر الرحمن مفعول

كل ابن أنثى وأن طالت سلامته ... يوما على آلة حدباء محمول[221]

أنبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول

مهلا هداك الذي أعطاك نافلة ... القرآن فيها مواعيظ وترتيل

لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم ... أذنب ولوكثرت عني الأقاويل

لقد أقوم مقاماً لو يقوم به ... أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل

لظل يرعد إلا أن يكون له ... من الرسول بإذن الله تنويل

حتى وضعت يميني لا أنازعه ... في كف ذي نقمات قوله القيل

لذاك أهيب عندي إذ أكلمه ... وقيل إنك مسبور ومسئول

راح كعب بن زهير يصور الوشاة الذين ينصحون سعاد بالابتعاد عنه، وعدم ربط حياتها به لأنه محكوم علـــيه بالموت، وبين كيف تخلى عنه الأصدقاء الذين قصدهم ورجاهم المساعدة في محنته معتذرين عنه باستغراقهم في شؤونهم، وجاء رد الفعل لديه أنه نفض يديه منهم، وفوض أمره إلى الله تعالى، فالموت حق وكل إنسان سيأتي عليه يوم يحمل فيه على النعش.ويوضح الشاعر أنه علم أن رسول الله هدده، ولكـــنه يأمل في عفوه ثم يتوجه إليه بطريق الالتفات والعطف قائلا له: لا تعجل لي العقاب أيها النبي العظـــيم المهـــدي الذي نزل عليك القرآن مشتملا على المواعظ والأحكام، ولا تصدق في ما تقول الوشـــاة علي، فأنا بريء مما نسبوه إلي على الرغم من كثرة ما قالوه ضدي.ويتابع قائلاً: لقد رأيت وسمعـــت ما لو رآه الفيل، أو سمعه لأخذته رجفة الخوف، إلى أن يمن الرسول عليه بالأمان، وما زال حالي كذلك حتى وضعت يميني في يمينه ﷺ وضع طاعة وإذعان، وقد استرحت بعد أن أمنني فهو رجل

[221] -حدباء: معوجة

كريم يحترم كلمته ويلتزم بها وينفذها:

من ضيغم من ضراء الأسد مخدره ببطن عثّر غيل دونــه غيل[222]

إذا يساور قرناً لا يحل له أن يترك القرن إلا وهــو معــلول[223]

منه تظل حمير الوحش ضامرة ولا تمشي بواديــه الأراجيل

إن الرسول لنــورٌ يستضاء به مهند مــن سيوف الله مسلول

في عصبة من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلمــوا : زولوا[224]

زالوا فما زال أنكاس ولا كُشفٌ عند اللقاء ولا ميل معــازيل[225]

شم العرانين أبطال لبوسهم من نسج داود في الهيــجا سرابيل[226]

بيض سوابغ قد شكت لها حلقٌ كأنها حلــقٌ القفعاء مجــدول[227]

يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم ضرب إذا عــرّد السود التنابيل[228]

لا يفرحون إذا نالت رماحهم قومــا وليسوا مجازيعــاً إذا نيلوا

لا يقع الطعن إلا في نحورهم ما إن لهم عن حياض الموت تهليل

يقول كعب: إن رسول الله ﷺ أهيب عندي من الأسد وهو الأسد الذي لا ينازل أسداً إلا غلبه وبأن الوحوش والرجال تهابه، فالوحوش ساكتة من هيبته والرجال ممتنعة عن المشي بواديه خوفا منه، ويشبه الرسول ﷺ بالسيف المصقول المتين الصنع يحيط به المسلمون في مكة، ولما أمرهم بالهجرة هاجروا لا ضــعفاء ولا مهزومين ولا مزعزعين، إنهم أعزة أبطال، لباسهم في الحروب الدروع الحديدية. يصف كعــب المهاجرين أو المسلمين عامة بامتداد القامة والضخامة وبياض البشرة والرفق في المشي، وذلك دلــيل الوقــار والسؤدد يعني أنهم سادة، ويبين إن المسلمين متزنون لا يخرجهم النصر عن وقارهم، ولاتنال الهزيمة من رزانتهم، فهم شجعان يستقبلون عدوهم ولا يستدبرونه.وبعد قوله لهذه القصيدة، فقــد كساه النبي ﷺ بردة اشتراها معاوية من أبنائه بعشرين ألف درهم، وكان يلبسها الخلفاء بعد معاوية في العيدين. وقد اكتسى بها كعب حلة مجد لا تبلى ،ولقبت قصيدته من أجلها بالبردة ، ونراه

---

[222] -الضيغم :الأسد /مخدره: مكمنه /عثّر :مكان /الغيل :الشجر الكثيف الملتف.

[223] -مغلول:مهزوم /الضامرة: الساكتة /الأراجيل: الرجالة الماشون على أرجلهم

[224] -زولوا :هاجروا من مكة إلى المدينة

[225] -الأنكاس: الضعفاء / الكشف:الذين ينهزمون ولا يثبتون /الميل :الذي لايثبت على سرج الحصان/المعازيل : الضعفاء

[226] -العرانين:الأنوف /نسج داود: كناية عن السلاح المصنوع / السرابيل: القمصان

[227] -بيض:سيوف الحديد غير الصدئة /سوابغ :القمصان الفضفاضة /القفعاء:الدروع دقيقة الصنع وتعني بقل الرمل وعشبه.

[228] -عرّد:فر وجبن /التنابيل :جمع تنبال وهو القصير/الزهر :البيض /يعصمهم:يمنعهم

يســـتهلها بالغزل إذ يذكر سعاد وفراقها وأن قلبه مرهن عندها فليس له فكاك ،وكأنه يقلد أباه في بعض غزله إذ يقول في إحدى قصائده :

وفارقتك برهنٍ لا فكاك له يوم الوداع فأمسي الرهن قد غلقا[229]

وحَسُنَ إسلام كعب وأخذ يصدر في شعره مواعظ وحكم يستهدى فيها الذكر الحكيم، من مثل قوله:

لو كنت أعجب من شيءٍ لأعجبني سعي الفتى وهو مخبوءٌ له القدر

يسعى الفتى لأمور ليس يُدركها والنفس واحدةٌ والهمُ منتشرُ

والمرءُ مــا عاش لــه أملٌ لا تنتهي العين حتى ينتهي الأثرُ

ونراه يردد كثيراً أن الله يرزق عبادة ،وأنه لا يتركهم بدون رزق، فهو راعيهم الذي يتفضل عليهم بالنعم الكثيرة، وهو الغني الحميد يقول :

أعلم أني متى ما يأتني قدري فليس يحبسه شحٌ ولا شفق[230]

والمرء والمال ينمي ثم يذُهبهُ مر الدهور ويفنيه فينسحق

فلا تخافي علينا الفقر وانتظري فضل الذي بالغنى من عنده نثق

إن يفن ما عندنا فالله يرزقنا ومن سوانا ولسنا نحن نرتزق

وهو في ذلك يقرب من زهاد المسلمين الذين كانوا يكرهون أن يفكر الشخص منهم في رزق غد،بل كــان مــنهم من يرى أن ذلك خطيئة لا تغتفر، ومن بدائع أقوالة في مدح الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في إحدى الغزوات قوله:

هل حبلُ رملةَ قبــلَ البينِ مَبتــورُ أم أنتَ بالحلمِ بعدَ الجهلِ معذورُ

ما يجمعُ الشوقُ إن دارٌ بنا شحطت وَمثلُها في تدانــي الدارِ مَهجــورُ

نَشفى بِها وهــي داءٌ لــو تَصاقبنا كما اشتفى بعياد الخَمــرِ مَخمــورُ

يوماً بأطيبَ منهــا نَشــرَ رائحة بعــد المنــامِ إذا حُــبَّ المعاطيــرُ

ما أنسَ لا أنسَها والدمعُ مُنســربٌ كأنهُ لؤلــؤٌ فــي الخــدِّ محــذورُ

لمــا رايتُهــم زُمــت جمالُهــمُ صَدَّقتُ ما زعمَوا والبينُ مَحــذورُ

إن عَليــاً لَميمــونٌ نقيبتُــهُ بالصالحاتِ من الأفعــالِ مَشهــورُ

صِهرُ النبيِّ وخــيرُ الناسِ مُفتخــراً فَكُلُّ مــن رامهُ بالفَخــرِ مفخــورُ

صَلى الطَهــورُ مَعَ الأُمــيِّ أَولهُــم قَبلَ المعــادِ وربُّ الناسِ مَكفــورُ

---

[229] – غلق الرهن : لم ينفك أبداً

[230] –شفق:خوف

مُقاومٌ لطُغــاةِ الشركِ يَضربُهُــم حتى استقامــوا ودينُ اللــه مَنصور
بالعَدلِ قُمتَ أَميناً حينَ خالفَـهُ أهلُ الهوَى وذوُو الأهـواءِ والزورُ
يا خَيرَ من حَمَلت نعـلاً لـه قـدمٌ بَعدَ النبيِّ لديـه البغـيُ مَهجـورُ
أعطاكَ رَبُّـكَ فضـلاً لا زوالَ لـهُ من أيـنَ أنـى لـهُ الأيـامُ تَغييرُ

وراح يدعـو بني قومه للتمسك بقيم الإسلام السمحاء، فيقول إن الدنيا لا تصفو لشارب ولا تحلو لصـاحب إن أقبلت فهي فتنة وإن أدبرت فهي محنة، ويمثل بسلوكه القويم المرشد الديني الذي يحب الجمـيع وأمنيـته أن يصونوا القيم وأن يجتمعوا على كلمة الحق والثبات على الإيمان بالله عز وجل والاستمرار في أداء الطاعات:

رَحَلتُ إلى قومي لأدعو جُلهُـم إلى أمرِ حَزمٍ أحكَمتُـهُ الجَوامـعُ
ليوفوا بما كانوا عليـه تعاقـدوا بخَيفِ مِـنىً واللهُ راءٍ وسامِـعُ
وتَوصلَ أرحـامٌ ويُفرجَ مُغـرمٌ وتَرجعَ بالوُدِّ القديمِ الرواجِـعُ
فأبلغ بها أفنـاء عُثمـانَ كُلهـا وأوساً فَبلغها الذي أنـا صانـعُ
سَأدعوهُمُ جُهدي إلى البرِّ والتُقى وأمرِ العُـلا ما شايعتني الأصابِـعُ
فكونوا جَميعاً ما استطعتُم فإنـهُ سيَلبَسُكُم ثوبٌ من اللـهِ واسـعُ
وقوموا فآسو قَومكُم فاجمَعوهُـمُ وَكونوا يَداً تَبني العُـلا وتُدافـعُ
فإن انتمُ لم تَفعلوا مـا أمَرتُكُـم فأوفوا بهـا إن العُهـودَ ودائـعُ
إليكَ أبـا نصرٍ أجازت نصيحتي تُبَلِّغُها عنـي المطـيُّ الخَواضِـعُ
فأوفِ بما عاهدتَ بالخَيفِ من منىً أبا النصرِ إذا سُدَّت عَليكَ المطالعُ

إن المتتبع لشخصية كعب يدرك أثر الوراثة والتربية والتعليم في صقل الشخصية وتكوينها، وهذا مثال حـي يـبين أن كعب تخرج من مدرسة الشعر على يد والده زهير وتلقن الحكمة وأصبح يدافع عن الإسـلام بعـد أن كان عدواً له وخلف روائع القول من الشعر، ولا بد من فهم الحقيقة التالية: إن الأولاد شجرة مثمرة في بستان يديره الأب والأم بموجب الحديث النبوي الشريف كلكم راع وكل مسؤول عن رعيته.

ورحم الله قائل الحكمة:

الرجال أربعة:

(رجـل يدري أنه يدري، فذاك غافل فنبهوه. ورجل يدري ويدري أنه يدري، فذاك عاقل فاعرفوه. ورجل لا يدري أنه لا يدري فذلك جاهل فعلموه. ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذاك أحمق فاحذروه).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

نماذج من العصر الأموي

مقدمة العصر الأموي

ومن يصنع المعروفَ في غير أهلهِ   يُلاق الذي لا قى مُجيرَ أم عامر

لـــيس لي أعداء يا رب، ولكن إذا كان لا بدّ من وجود عدو لي، فاجعل يا رب قوته مضاعفة لقوتي، لكـــي لا تكـــون الغلبة إلا للحق. إثر موقعة صفين سنة **40** هجرية وما نتج عنها من تحكيم، نادى معاوية بن أبي سفيان بنفسه خليفة، على الشام وحكم عشرين سنة، ثبت خلالها الملك لبني أمية وجعل الخلافة وراثية في نسله.وخلف معاوية ابنه يزيد في الحكم، ولم يكن في الدهاء السياسي كأبيه فكانت في أيامــه مأســاة كربلاء ومقتل الحسين بن علي رضي الله عنه، ثم كانت في أيامه وقعة الحرة وغزو المديـــنة في ذي الحجة، فكثر الأعداء للأمويين في العراق والحجاز، وجاء بعد يزيد ابنه معاوية وكان شاباً ضعيفاً عليلا، ولم يبق في الخلافة أكثر من أربعين يوماً، إذ تنازل عن الخلافة ولزم بيته حتى توفي بعد أيام من تنازله، ثم عاد النزاع على الخلافة من جديد في البيت الأموي على الخلافة بين الطامعين، وتغلـــب مروان بن الحكم شيخ بني أمية يومئذ على الطامعين بدهائه وبالوعود، ولكنه اضطر إلى أن يقاتل عبد الله بن الزبير، فكانت الغلبة لمروان، وهكذا عادت الخلافة إلى الاستقرار في بني أمية، ولكن في فرع جديد عرف في التاريخ باسم الفرع المر واني نسبة إلى مروان بن الحكم. نهج بنو أمية لأنفسهم سياسة قومية عربية، فأساء ذلك إلى الموالي(وهم المسلمون من غير العرب، من الفرس والترك الذين كـــانوا من كثرة السكان في الإمبراطورية الأموية).وكذلك أساءوا إلى آل علي بن أبي طالب رضي عـــنه وعن آله، وتتبعوهم بالقتل حذراً من أن ينتزعوا منهم الخلافة، مما دفع الموالي حول آل علي بن أبي طالـــب رضـــي الله عـــنه إلى التجمع والتوحد، وقاموا بدعوة سرية للثورة على الحكم الأموي، واتخذوا السواد(العلم الأسود والثياب السود شعاراً لهم مخالفة لبني أمية الذين ارتدوا " البياض" شعاراً لهـــم). ومما يروى أن عاملهم الحجاج بن يوسف الثقفي لعب دوراً مهماً في توطيد الحكم للأمويين، فقد استعمل الشدة والقسوة في ملاحقة ومتابعة من يخالف نهجهم، وأسس سجناً وضع فيه الآلاف، فكان الخارج منه مولود والداخل إليه مفقود، ويسمى هذا السجن باسم(ذوار). سار الحجاج بجيش عظيم سنة**692**ميلادية/**72**هجرية وحاصر مكة ورمى الكعبة بالمنجنيق ودمر بعض أركانها، وقتل ابن الـــزبير الـــذي حاول الاحتماء بالكعبة، وتولى العراق عشرين سنة والبلاد نار ملتهبة بفتنة الشيعة والخـــوارج، فأخذ الناس بالشدة، وكان ماضي العزيمة لا يثنيه عن رأيه أمر، فأرجع الأمن إلى نصابه، فكـــان ذا شخصية قوية تحب الاستئثار بالقوة والسلطان، وتنزع منزع الحزم والشدة إلى حد القسوة والظلم، وكان لا يقبل شفعة أحد وخطبته مشهورة التي يقول فيها: (يا أهل العراق، إن الشيطان قد

استبطنكم، فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف، ثم أفضى إلى الأمخاخ والأصماخ، ثم ارتفع فعشش، ثم باض وفرخ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً، أما والله يا أهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق ومساوىء الأخلاق، لألحونكم لحو العصا ولأعصبنكم عصب السلمة ولأقرعنكم قرع المروة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل». فراح أحد الشعراء وهو ضبيعة بن قيس بن ثعلبة الملقب (جحدر) يصف سجن دّوار والمعاناة في ذلك السجن وأصناف العذاب فيه فقال:

إني دعوتكَ يا إله محمدٍ دعوى فأولها لي استغفار
لتجيرني من شر ما أنا خائفٌ ربُّ البريةِ ليس مثلك جارُ
تقضي ولا يقضى عليك وإنما ربي بعلمك تنزلُ الأقدار
كانت منازلنا التي كنا بها شتى وألفَ بيننا " دوار "[231]
سجنٌ يلاقي أهله من خوفه ذلاً ويمنع منهم الزوار
يغشونَ مِقطرةً كأن عمودها عنق يُعرِّقُ لحمها الجزار

قامت حياة العرب في الجاهلية على العصبية القبلية، وكانت سبباً من أسباب منازعاهم الكثيرة والتي قادهم في معظم الأحيان إلى القتال، كما حدث في حرب البسوس بين بني بكر وبني تغلب، ثم حرب داحس والغبراء بين بني عبس وبني ذبيان، وعندما جاء الإسلام ألغى العصبيات وجمع العرب أمة واحدةً ويداً واحدة. ثم خط الأمويون سياستهم القومية، فعادت العصبيات إلى الاستيقاظ من جديد، ثم أن المنافسة في طلب الخلافة قسمت العرب شيعاً فكريةً دينية في ظاهرها سياسة وفي حقيقتها اختلاف وعداء. فاتسعت الحضارة العربية في أيام الأمويين، إذ بنى الأمويون المدن والمساجد والقصور، وتدفقت الأموال من جميع أنحاء الإمبراطورية إلى الشام ودمشق خاصةً، فكثر الترف ولاسيما بين أمراء البيت المالك ورجال الدولة، وعم الرخاء سائر البلاد، وأدت مظاهر الترف في الحياة الجديدة والتي طرأت على البيئة الإسلامية إلى تغيير في حياة العرب والمسلمين، ثم أن الدولة الأموية رأت في باب السياسة أن تصرف أهل الأمصار ولاسيما أهل الحجاز عن الإصرار على حقهم في الخلافة والملك بالإحسان إليهم، وبأن تشغلهم بالتمتع بالدنيا عن طلب الملك الذي يطلبه الطالبون في العادة حباً بالتمتع بالدنيا، فأغدقت عليهم الأموال.فعم التأنق في المطعم والملبس والمسكن بحيث بنيت الدور والقصور وأنشئت البساتين وقامت مجالس اللهو ومواسمه، فتزوج العرب بغير العربيات فنشأ بذلك جيل مولد بين العرب وغير العرب في هذا الاحتكاك ، هذا الجيل الجديد كان أكثر إمعاناً

---

[231] -دوار: المقصود به سجن الحجاج الذي يسجن به الناس.

في السلهو مـن الجيل العربي الأول. ثم كثرت الجواري أيضاً، وشاعت المجالس التي يجتمع فيها الناس كـلهم، وحدث السفور(بروز النساء في المجالس ومجاراة الرجال في التره والغناء)ثم حدثت الألفة، وأصبح النساء يرغبن في أن يذكرهن الشعراء في الشعر، فكان باباً جديداً في اللهو، وتطور الغناء في تلك المجالس والمواسم تطوراً بارزاً بسبب دخول أشياء كثيرة من الفن الفارسي وأشياء قليلة من الفن الرومي.وعاد الشعر أشبه بالشعر الجاهلي في أسلوبه وأغراضه، ودخل معترك النقائض وظهر شعراء السياسة للدفاع عن اتجاهاتهم المتعددة حيث انعكست مظاهر الحياة الأموية بأقوالهم الشعرية .إلا أن شعراء النقائض لم ينسوا في غمرة نزاعهم القبلي المحلي أن يشيدوا بعظمة العرب القومية، وأن يشيروا إلى اتساع الفتوح الإسلامية ولاسيما في فارس والهند والصين، والشعراء الذين دخلوا النقائض في هذا الـنزاع لم يدخلوه وهم يحملون عقيدة أموية أو زبيرية أو علوية، وإنما د خلوه للتكسب في الدرجة الأولى حتى أن الشعراء الزبيريين انقلبوا بعد ذلك إلى أمويين، وكذلك لم يتحوب الفرزدق وكان يمثل العلويـين مـن أن يعرض بآل البيت ويمدح بني أمية وكذلك الاخطل النصراني مدح الخلفاء مدائح إسـلامية الطـابع تـناقض عقيدته الدينية. على أن نفراً قليلاً من الشعراء لم يفعلوا ذلك، فقد ظل الكميت العلوي على وفائه لآل البيت، ولكنه مدح الأمويين تكسباً لما اضطر إلى التكسب منهم. وأما عمـر بـن أبي ربيعة فإنه لم يمدح أحداً، ولا قال في المناقضات قط.ويلحظ على الشعر الأموي غلبة المفاخرة الجاهلية والبدوية كالفخر بالأنساب وبأيام العرب(معاركهم في الجاهلية)وبالكلام عن الثأر. وظـل شعراء المناقضات حتى أواخر العصر العباسي يعدون الحياة الحضرية في باب المعايب القومية، فالأخطل قد هجا الأنصار لأنهم زراعون يعملون بالزراعة(فلاحين)، وجرير ظل إلى أخر حياته يهجو بـني مجاشـع لأنهم (يعملون بالحدادة، أن أعمال الحدادة وسائر الصناعات إنما يقوم بها العبيد).ومن الدلالـة السياسية في شعر الشيعة والذي ظهر في العصر الأموي قول كثير عزة يخاطب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وقد كان عمر بن عبد العزيز قد أبطل لعن وشتم علي ابن أبي طالب على المنابر في صلاة الجمعة:

وليتَ فلم تشتم علياً ولم تخف بريأً ولـم تقبل إشارة مجرمِ

وصدق بالفعل المقال مع الذي أتيتَ فأضحى راضياً كل مسلم

وتعتـبر فـترة حكم بني أمية متميزة عن العصر النبوي والراشدي باتساع الفتوحات التي أثرت في موضـوعات الشعر، وبالثورات والفتن التي تركت آثاراً واضحة على شعراء وخطباء ذلك العصر، كما زاد الترف والغنى في استقطاب الشعراء إلى القصور والنوادي، وأحيى الأمويون العصبية القبلية بتقريبهم لأبناء عمومتهم وإبعادهم واضطهادهم لمن خالفهم، فازدهرت النقائض وبرز الشعر السياسي

صور الصراع ويسجل أحداثه، وراحت الأمراض تفتك بالأمة دون رحمة من أبنائها أنفسهم.

رحم الله القائل:

(لا حـــياة مع اليأس، ولا يأس مع الحياة، وتعلم فليس الإنسان يولد عالماً، وليس أخو علم كمن هو جاهل).

أبو صخر الهذلي

من روائع سعدي الشيرازي:

(كـيف تطيـب لـك قبلات ولدك، واليتيم بجانبك يبكي ولا من يحتضنه، أو يجفف دموعـه؟ إن جنـبات العرش لتهتز لبكائه، وكيف تسعد بنعمتك وأصحاب الحاجات يتلوون من الشقاء).

إنني سائح وملاّح في وقت واحد وفي كل صباح أكتشف قارة جديدة في نفسي، إنه عبد الله بن سلم السهمي من بني هذيل وأحد أنصار الدولة الأموية، وذات مرة جاء إلى عبد الله بن الزبير يطلب منه عطـاءه، فرده رداً قبيحاً وقال له: عليك ببني أمية، فخذ عطاءك منهم، مما دفعه ذلك إلى هجاء ابن الزبير ومدح بني أمية، فغضب عليه أبن الزبير، ووضعه في السجن، ولكن جماعة من قومه ومن قريش شفعوا له عند ابن الزبير، فأطلق سراحه بعد عام من حبسه. عبد الله أبو صخر الهذلي شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية وكان مقتدراً في الكلام إلا أن له مديحاً ورثاء وغزلاً وهجاء جيداً والحكمة ظاهرة في شعره ومن قصائده في الغزل:

إذا قلت : هذا حينَ أسلو يهيجني ... نسيم الصبا من حيثُ يطلعُ الفجرُ

هجرتكِ حتى قيل : لا يعرف الهوى ... وزرتُك حتى قيل : ليس له صبرُ

صدقت أنا الصبّ المصاب الذي به ... تباريح حُبٍ خامرَ القلبَ أو سحر

أما والذي أبكى وأضحك والذي ... أماتَ وأحيا والذي أمره الأمر

لقد تركتني أحسدُ الوحشَ أن أرى ... أليفين منها لا يروعهما النفر

فيا هجرَ ليلى قد بلغتَ بي المدىٰ ... وزدتّ على مار لم يكن بلغ الهجر

ويا حبها زدني جوىً كل ليلةٍ ... ويا سلوةَ الأيامِ موعدكَ الحشر

صـبر العشاق سريع النفاد، فسرعان ما هب نسمات الصباح حتى تبدأ آلام الشوق بالحنين، ويبدأ موعد جديد مع الشكوى، فتراهم يتأملون وينظرون إلى كل ما يحيط بهم ويفسرون حركاته من خلال الحـب، وهذا برهان واضح على غلبة الانفعالات على شخصية الفرد فتجعله يتعامل مع الحياة وفق رؤاه ومشـاعره التي توجهه، فيقسم على عهد الهوى رغم شكه بلحظات السعادة ويأسه منها حتى آخر لحظة من حياته:

عجبتُ لسعيِ الدهر بيني وبينها ... فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

وأني لآتيها وفي النفس هجرُها ... بتاتاً لأخرى الدهر ما وضح الفجر

فما هو إلا أن آراها فُجاءةً ... فأبهتُ لا عُرفٌ لديّ ولا نكر

تكاد يدي تندى إذا ما لمستها ... وينبتُ في أطرافها الورقُ الخضر

يلقي العشاق باللوم على الدهر ويروا فيه محطم الأحلام ومفسد المسرات، ويبين أبو صخر الهزلي أن اللقـــاء مع الحبيب يجعل الحياة ربيعاً دائم الخضرة، ويتعجب من لوعة النفس وعذابها المستمر بسبب الهجران، ومادام النجم يسطع وما دام يشرق فجر كل صباح، فأن قلبه يلهج بالحبيب ودائم الخفقان لرؤيـــته. كان لأبي صخر الهذلي ولد اسمه داود ولم يكن له ولد غيره، فمات فحزن الأب عليه حزناً شديداً وقال يرثيه:

لقد هاجني طيفٌ لداودَ بعدما ... دنت فاستقلت تالياتُ الكواكب

وما فيّ ذهولُ اليأس عن غير سلوةٍ ... رواحٌ من السقُم الذي هو غالبي

وعندك لو يحيا صداكَ فنلتقي ... شفاءٌ لمن غادرت يوم التناضب

فهل لك طِبٌ نافعي من علاقة ... تَهيمني بين الحشاء والترائب

ولولا يقيني أنما الموتُ عزمةٌ ... من الله حتى يبعثوا للمحاسب

لقلت له فيما ألم برمسه ... هل أنتَ غداً غادٍ معي فمصاحبي

فقـــد الأولاد ألم ما بعده ألم يكابده الآباء، ويصعب قبول الجراح أثناء حدوثها ولا يكاد يقتنع الأهل بنفاذ القضاء والقدر، لكن أمر الله واقع لامحال ولا مكان للأماني ا بأبعاد البلاء أو توخي الحذر، أنها قسوة الصدمة، التي تلغي ساحة الفكر، وهنا يبين أبو صخر الهزلي أن الكرب والحزن عندما يستولي عـــلى الفرد يفقده صوابه، ويجعله مضطرباً قلقاً، أسير الحيرة حيث يصعب عليه التسليم، فجزاك الله الآجر على المصاب، وهذه سنة الحياة فكل شيء بقدر:

سألتُ مليكي إذ بلاني بفقده ... وفاةً بأيدي الروم بين المقانب

ثنوني وقد قدمت ثأري بطعنة ... تجيشُ بموارٍ من الموت ناعب

وقد خفتُ أن ألقى المنايا وإنني ... لتابعُ مـــن واف حمام الجوالب

ويمضـــي صـــاحب البلوى بالتضرع للخالق عز وجل، لو أنه كان بالإمكان تبدل الأقدار على وفق رغبات النفس البشرية، ومتى كانت الأحلام والأماني تتحقق ؟ فهذا الكون له مدبر تسير أحداثه على وفـــق نوامـــيس وقوانين وضعها سبحانه وتعالى، فهو المتصرف يفعل ما يشاء، سواء أرضي الإنسان بذلـــك ! أم رغـــب عنه ! لا أحلامه تدفع ولا دموعه تدرأ ولا حسراته تنفع. ومن روائع أقواله في الحكمة:

أ من الـــمنون وريبـــها تتوجع ... والدهـــر ليس بـــمعتب من يجزع

قالت أمامة مـــا لجسمك شاحباً ... منذ ابـــتذلت ومثل مـــالك ينفع

أم ما لـــجنبك لا يلائم مضجعا ... إلا أقض علـــيك ذاك الـــمضجع

فأجبتها أن ما لجسمي أنه أودى بنيّ من البلاد فودعوا
أودى بنيّ وأعقبوني حسرة بعد الرقاد وعبرة ما تقلع

ما فائدة الألم والنحيب خارج المألوف والمعتاد وهنا يلفت الشاعر نظر الناس إلى التروي والصبر، وأن أحداث الدهر تطال الجميع ولا سلامة لا أحد منها وعلينا أن نكف اللوم والإقلاع عن الملامة، وصحيح أن البلوى تقض المضجع وتضطرب الحياة خلالها، ويشتكي أبو صخر أرقه وحزنه إلى سائلته ولائمته في استفسارها عن شحوب وجهه ووجعه، ويرد عليها بصوت متقطع من لوعة الفراق على أولاده الذين ساروا لسفر طويل، ولا رجعة لهم بعد اليوم، وما يبكيه ويضنيه سوى ذاك السفر الأبدي، والذي ليس بمقدور أحد فعل أي شيء إزاءه سوى الصبر:

ولقد أرى أن البكاء سفاهة ولسوف يولع بالبكا من يفجع
سبقوا هَواي وأعنقوا لهواهم فتُخرِّموا ولكل جنب مصرع
فغبرت بعدهم بعيش ناصب و إخال أني لاحق مستتبع
ولقد حرصت بأن أدافع عنهم فإذا السمنية أقبلت لا تدفع

يرى في البكاء تخفيفاً لغصات الألم وأنات الحزن ويشير بشدة إلى هول البلوى وعظمتها عندما تقع، وكم من راغب يتمنى أن يكون البديل أو الفداء مكان ذاك المصاب؟ ولكن تجري الأمور بقدر، وتهب رياح الموت تأخذ معها من لها به حاجة وتدع من لا حاجة لها به، ويصرح أبو صخر بقسوة الحياة بعد الفراق، وعندما تقبل المنية لا راد لها:

وإذا السمنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع
فالعين بعدهم كأن حداقها سُملت بشوك فهي عور تدمع
وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدرب لا أتضعضع
والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا تُرد إلى قليل تقنع

لا راد من أمر الله مع المنايا، و لا تنفع التمائم بدرء القضاء والقدر، فالأحزان بعد الأحبة تجعل الجسم شاحباً وتبدو العيون غارقة في بحر من الدموع، وما من مخلوق إلا وسيلحق به ريب المنايا وينال مرارة البلوى، ومن الأجدر بالإنسان التحلي بالشجاعة والصبر على الأهوال، تبدو شخصية أبو صخر الهزلي سوية تمسكت بالحكمة ودعت للعمل بها، وأدركت أن البلاء نازل بيني البشر، وأن ألم الفراق قاسٍ، ولا بد من الصبر والتروي مع الدهر وأوجاعه، فبذلك يقدم وصفاً دقيقاً للشخصية الحكيمة وموقفها أثناء الشدائد، وكيفية التعامل معها والصبر على البلاء واحتماله بالشجاعة، وقبول الواقع والتسليم به، منطلقاً من أن الخالق سن لهذا الكون قوانين ونظماً وعلى الإنسان قبولها وهذا الإرشاد

النفسي الموجه للذات بحد ذاته هو جوهر علاج النفس من أمراضها ووساوسها ولاسيما عندما تسلم أمـــرها لله وتدرك مدى رحمته وعفوه، وأن ما يحل بالإنسان هو قضاء الله وقدره انطلاقاً من أن كل بؤس وكل نعيم زائل وإذا نزل بك الشر فأقعد له.

ومما يروى:

(أنه دخل نابليون كاتدرائية فرأى في جنباتها أثني عشر تمثالاً ذهبياً، فسأل: ما هذه ؟ فقـــيل له: هؤلاء هم الاثنا عشر رسولاً. فقال: أنزلوهم واسبكوهم نقوداً ودعوهم يطوفون صانعين خيراً كما فعل معلمهم).

الأخطل التغلبي

قول مأثور:

(قـيل إن يوسف بن يعقوب عليه السلام لما ملك خزائن الفراعنة، كان يجوع ويأكل مـن خبز الشعير ولما قيل له:أتجوع وبيدك خزائن الأرض؟ أجاب: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع).

يـا رفاقي ويا أحبائي ! ستلاقون في طريقكم رجالاً ذوي أظلاف، فأعطوهم من أجنحتكم، وآخرين ذوي قرون، فقدموا لهم أكاليل الغار، ورجالاً ذوي مخالب، فأعطوهم أوراق زهر لأناملهم، وآخرين ذوي ألسـنة حادة، فأعطوهم عسلاً لكلامهم. أجل ! ستلاقون هؤلاء جميعاً، ستلاقون عرجاً يبيعون العكاكيز، وعمياناً يبيعون المرايا، وستلاقون الأغنياء على أبواب المعابد يتسولون.إنه أبو مالك غياث بـن غوث من بني عمرو بن الفدوكس بن عمرو بن مالك بن تغلب الملقب بالأخطل وبذي الصليب لنصرانيته وحمله الصليب من قبيلة تغلب من ربيعة، غير أن سلوكه، كما يقول الأب هنري لامنس: لم يكـن مُتسقاً مع التقاليد المسيحية السمحاء، لقد طلق امرأته ثم تزوج امرأة مطلقةً وأضاف إلى أهله فـيما بعد جاريةً أهداها إليه زياد بن أبيه، وكان يعاشر القيان وقد عاقبه القس على أعماله بحبسه أو ضـربه. ولد في الحيرة ونشأ يقول الشعر مغرماً بالهجاء وكان جريئاً على الناس سفيه اللسان، وحُرِم أمـه مـنذ أن كان صغيراً، فأساءت إليه زوجة أبيه إذ كانت تسترعيه عنزاً لها وتجوعه، إلا أنه نشأ متمسكاً بمفاخر قومه وأخبارهم وأيامهم.ولم يُعرف الأخطل ولا ذاع صيته، إلا بعد اتصاله ببلاط بني أمية في الشام وقد اتصل بالبلاط الأموي مرتين:

الأولى:كانت بسبب عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، عندما شبب برملة بنت معاوية، فغضب أخوها يـزيد وشـكا ذلك إلى أبيه، وأراد معاويةُ أن يعالج هذه القضية بالحلم والدهاء جرياً على عادته في السياسة العامة، فلم يرض يزيد، وأرسل سراً إلى كعب بن جعيلٍ، وقال له: " إن عبد الرحمن بن ثابت قـد فضـحنا، فأهج الأنصار". فقال له كعبٌ : أرادي أنت إلى الشرك بعد الإسلام ؟ أأهجو قوماً نصـروا رسول ﷺ؟ ولكنني أدلك على غلامٍ سفيه اللسان". ودله على الأخطل. وعندئذ دعا يزيد الأخطل وقال له : " أهج الأنصار" فقال له الأخطل ":أخاف من أمير المؤمنين معاوية !". فقال له يزيد : " لا تخف أنا أحميك منه " فقال الأخطل :

وإذا نسبتَ ابن الفُريعةِ خـلتَهُ ... كالجحشِ بين حمـارةٍ وحمـارِ[232]

لعـن الإلهُ من اليهود عصـابةً ... بالجـزع بيـن صليصلٍ وصـرار

[232] -الفريعةأم حسان بن ثابت وجده الشاعر المهجو.

خَلــوا المــكارمَ لســتمُ من أهلها وخـــذوا مساحيــكم بنـــي النجار[233]

ذهبــت قُريشٌ بالمــكارم كلــها واللــؤمُ تحتَ عمــائم الأنصــار

لا يجــوز معالجــة الخطأ بمنهج الإساءة، وبهذه الطريقة، حيث أخذ الأخطل يشتم من ناصر النبيﷺ وبتوجيه من يزيد، الذي لا يرعى حرمة للأنصار، هؤلاء الذين فدوا النبي عندما عز الفداء، بجناية فرد ارتكب خطأ ولا يصح التعميم، وراح يعيّر بني النجار بمزاولة الأعمال الزراعية، ومنذ متى كان العمل عيـبا وانتقاصــا من كرامة الإنسان ؟، بل العمل شرف وسعي مطالب به حتى المعاق، وهذه إهانة للأنصــار غــير مقبولة، فلم يرضَ معاويةُ عن ذلك ولكن يزيد حمى الأخطل ومنع إلحاق الأذى به، ويــبدو أن الأخطل بقي مع يزيد أميراً، ثم لزمه في أيام خلافته، وبعد موت يزيد ترك الأخطل البلاط الأموي، وعاد إلى مساكن قومه في الجزيرة.

الثانــية: جاءت بعد انتقال الخلافة الأموية من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني، وانتصار المروانيين عــلى خصومهم السياسيين، فقد كثُر الهجاء عليهم من كل جانب، فاحتاج عبد الملك بن مروان إلى شاعر يرد على شعراء خصومه، فلم يجد إلا الأخطل، فاستدعاه وأطلق له لسانهُ على الأنصــار.

قال الأصفهاني: " أجتمع الفرزدق وجرير والأخطل عند بشر بن مروان والي الكوفة، وكان بشر بن مــروان يوغــر بــين الشعراء، فقال بشر للأخطل: أحــكم بين الفرزدق وجرير.. فقال الأخطل:" الفرزدق ينحت من صخرٍ، وجرير يغرف من بحرٍ ". فلم يرض جرير بذلك، (لأن مدار الشعر الجيد في العصر الأموي كان في صلابته وليس سهولته).فكان ذلك سبباً ظاهراً على الأقل للعداوة بين جرير والأخطــل. ولعــل العصبية والتكسب كانا السببين لتلك العداوة ولذلك الهجاء، فقال جرير يهجو الأخطل:

يا ذا الغباوةِ إن بشراً قد قضى ألا تجــوزَ حُــكومةُ النشوانِ[234]

فدعــوا الحــكومةَ لستم من أهلها إن الحــكومةَ في بــني شيبــان

قتلــوا كُليبــكمُ بلقحــةِ جارِهم يا خُزَرَ تغلــبَ لستمُ بهــجان[235]

يهجــو جرير الأخطل ويصفه بالغافل والسكير وبالعربيد الجاهل، ولا يملك الحق في الحكم على جيد الشــعر ومتانته، وينبهه أنه من الأجدر له أن ينصر قومه وفارس مجدهم الذي قتل بسبب ناقة، وعليه

---

233 -المساحي جمع مسحاة: أداة تسوي بها الأرض للزراعة. بنو النجار:أخوال والد الرسول صلى الله عليه وسلم .والأخطل يعير الأنصار أهل المدينة بأنهم زراع فلاحون.

234 -النشوان : السكران. الحكومة: التحكيم والفصل في الأمور الخلافية بين الناس .

235 – قتلوا كليب سيد بني تغلب لأنه قتل ناقة. اللقحة : الناقة . الهجان:ة من صفات أهل الترك في أواسط أسيا وتعني صغر العيون ويعيروهم بأنهم ليسوا عرباً.الهجان : ذوي الحسب والنسب.

رؤيــة الأمور بوضوح، ولكن للأسف إن صغر عيونه تماثلت مع صغر عقله، ولذا فهو ليس من أهل المكارم والشيم العريقة، ولا من ذوي الحسب والنسب. وقد ظل الأخطل شاعراً لبــني أمية يمدحهم ويهجــو خصومهم، حيث راح يمدح عبد الملك بن مروان، ويهجو الأنصار أهل المدينة، وقيساً من عــرب الشمال، لأنهم كانوا أشياع عبد الله بن الزبير، ثم يشيد باليمن عوب الجنوب من أهل الشام خاصة، لأنهم وقفوا في صف الأمويين عند قتال عبد الله بن الزبير فقال الأخطل:

خفّ القطينُ فراحوا منك أو بَكَــروا ... وأزعجتــهم نوىً في صَــرفها غــيرُ[236]

إلى امــرِيءٍ لا تُعــرينا نــوافلُــهُ ... أظــفره الله فليــهنأ بــه المطــر[237]

الخــائضُ الغمر والميمــون طــائره ... خليفــةُ الله يستَسقى بــه المطــر[238]

نفســي فِــداء أمــير المؤمنين إذا ... أبدى النــواجذَ يومــاً عارمٌ ذكــر

في نبــعةِ مــن قريشٍ يعصبــون بها ... ما إن يــُوازى بأعلــى نبتها الشجر

همُ الذين يبارون الرياح إذا ... قلّ الطعامُ على العافين أو قتَــروا

بــني أميــةَ نعُــماكم مُجلــلــةٌ ... تمــتْ فــلا منــةٌ فيــها ولا كدر

بــني أميــةَ قــد ناضلــت دونكم ... أبناءَ قــومٍ هــم آووا وهــم نصروا

فــلا هدى الله قيساً من ضلالتهم ... ولا لــعاً لبــني ذكــوان إن عثروا

يعــدد مناقب الأمويين ويذكر فضائلهم، وأصالة منبتهم، ولا يحق لأحد تجاهل حقهم في الخلافة، فهم ســادة وكــرام، وبهم يغاث الناس في الملمات والشدائد، وبدعائهم يكثر المطر والخير، ويتمنى عدم الهداية لهؤلاء المخالفين لهم، الجاحدين لنعماهم، لم تكن غاية الأخطل في المدح تعداد الفضائل والأمجاد، انمــا كانت سياسية تقوم بإثبات قضية حيوية هي قضية شرعية الخلافة الأموية، وتقديم البرهان عليها بحجــة لا تقرع، وبيان لا يجارى، ولغة هي من انصع ما في العربية الجاهلية وأجزلها. هذا ما رمى إليه الأخطل عندما اخذ على عاتقه مناصرة الأمويين.وقد اتخذ الأخطل حجج الأمويين نفسها، فأظهر أن خلافــتهم مــن الله، وإن أمير المؤمنين هو خليفة الله، وأن خلافته مقدسة، والدليل على ذلك أن الله خــول الأمويين الظفر يوم صفين بأعدائهم، إذ ألهمهم أن يرفعوا المصاحف، وأعطاهم أن يثأروا لدم عــثمان، مــن الذي قتله، ولاسيما من جماعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه في رأيهم، وأن يرثوا الخلافة من عثمان رضي الله عنه الذي هو من أميةَ:

---

[236] ــ خف: رحلَ . القطين : الساكن. النوى: النية.يعني بقوله راح هؤلاء القوم من ديارنا بنوايا مزعجة.

[237] ــ لا نعرى من عطاياه: أي أن عطايا الملك دائمة.

[238] ــالغمر : لبحر،الأمر الشديد .الميمون : المبارك ،السعيد.

تمت جدودهمُ واللهُ فضلــهم وجدُ قــومٍ سواهم خاملٌ نــكدُ
همُ الذين أجــابَ اللهُ دعــوتهم لما تلاقتْ نــواصي الخيلِ فاجتلدوا
ويوم صفــينَ والأبصار خاشعةٌ أمــدهم إذ دعــوا من ربهم مــدد
على الألى قتلــوا عثمان مظلمةً لم ينههم نَشدٌ عنــهم وقد نُشدوا
يصــف جــدود بــني أمية بالأفاضل وذوي المكارم، وغيرهم يعوزهم الفضل والمقام بسبب عجزهم وخمولهم، بينما الأمويون، فهم الأبطال في صفين وقد اقتصوا من قتلة عثمان رضي الله عنه، و أمدهم الله بالنصــر على هؤلاء المجرمين، قتله عثمان رضي عنه خليفة المسلمين، وما سعى إليه الأخطل هو إثبات أن بني أمية أجدر الناس بالخلافة فراح يمدحهم إجمالاً و إفراداً، ويمدح منهم، فضلاً عن الخلفاء، عــبد الله بن معاوية، وبشر بن مروان، وخالد بن يزيد معاوية، وعبد الله بن سعيد بن العاص، ويمدح الحجاج بن يوسف الثقفي لأنه أمير أموي، ويمدح غيرهم، مظهراً في كل مدائحه هذه الصفات، وأن بني أمية قد اتصفوا بكل ما يؤهلهم للخلافة من شرف وأصل، وقوة، وعدد، وحسن سياسة، ونظام، ورعية وحكم، وجود وكرم وما إلى ذلك، أما أصلهم فلا يضاهيهم فيه احد:
وأنتمُ أهــلُ بيــتٍ لا يــوازيهم بيت إذا عدت الأحساب والعددُ
وناهيك عن صلابتهم وسطوتهم في الشدائد، فيغرق الأخطل بالوصف لدرجة البراعة، فيبين أن القوة والجرأة ميزتان شديدتان مجتمعتان إلى الحلم عند المقدرة لدى الأمويين:
شمسُ العداوةِ حتى يُستقادَ لهم وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قدروا
وأما بحر جودهم وكرمهم، فهو أوسع من الفرات إذا جاشت مياهه وفاضت، وأما أنعامهم فهي سيب وعطاء وفضل قدره الله لهم، ومنةً من الله يخصهم بها دون سواهم، فإليهم ترجع المكارم دون غيرهم، لا يطالهم الحسود مهما سعى من حبائل ومكائد:
قوم إذا أنعموا كانت فواضلهم سيباً من الله لا منٌ ولا حسدُ
وبرغم كل ذلك لا تبطرهم النعمة، ولا يفسدهم الملك بل متمسكون بالحق ويأنفون العار، ولهم قدرة فائقة على احتمال الشدائد والصعاب:
لم يأشروا فيه إذ كانوا مواليه ولو يكونُ لقومٍ غيرهم أشروا
حُشدٌ على الحقِ عيافو الخنا أنُف إذا ألمت بهم مُكروهةٌ صبروا
غدا الأخطل بمدحه ناشراً لدعوة بني أمية، مظهراً فضلهم مبرراً أعمالهم وذلك عن أخلاص، لأنه رأى في أمية الكفاءة، وإن لم يخلُ ذلك الإخلاص من العمل في سبيل مصالح قبيلته التي فرضت عليه التحيز إلى أميةَ.بدت شخصية الأخطل نفعية، تنساق كبوق إعلامي يؤيد ويدعم مزاعم الأمويين وسواء كان

ذلـــك عن جهل أو مصلحة نفعية، فقد ارتكب خطأ لهجائه الأنصار بتأثير الأمويين لا يغفر له ذلك ، هذا من جهة ومن جهة أخرى كذلك مبالغته في نشر الفضائل وخلعها على الأمويين بما ليس هم أهل له.ونفيه القيم والمكارم عن الطرف الأخر وخاصة من ناصروا النبيﷺ وهو الشاعر الوحيد الذي زج نفسه في موقع لم يكن مضطراً إليه أبداً وهكذا ينطبق عليه المثل التالي:

ورحم الله القائل:

(مــثل المغرور كمثل الديك الذي يعتقد أن الشمس لا تُشرق إلا لكي تستمعَ لصياحه في الصباح، أو كالأعور وسط العميان فيحسب نفسه ملكاً)

جرير الخطفي

قال الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه:
(المالُ يستر رذيلة الأغنياء، والفقر يغطي فضيلة الفقراء).

ما أجمل أن يكون الإنسان بستاناً بلا جدران، وكرماً بلا حارس، وخزانة كنز وأدب مفتوحة للعابرين، إنه جرير بن عطية الخطفي التميمي من بني يربوع من مضر، وكنيته أبو حزرة وتدل على فقره؛ لأن الحزرة شجرة ثمرها مر أو حامض، ويلتقي مع الفرزدق في جدهما الأعلى تميم، ولقد ولد جرير خديجاً لسبعة أشهر باليمامة، ونشأ فقيراً يرعى إبل قومه، وتوفي بعد الفرزدق بستة أشهر أو بعامٍ واحد، فكانت عظمة جرير الذي نال شعبية كبيرة بين الناس، لأنه كان شاعر العامة، وكان الفرزدق شاعر الخاصة، ويقال أن جريراً وصاحبيه (الأخطل والفرزدق)، أشعر أهل الإسلام على زعم ابن سلام، وإن الذين فضلوا جريراً على الشعراء يحتجون بأنه كان أكثرهم فنون شعر وأسهلهم ألفاظا وأقلهم تكلفا وأرقهم نسيباً، وكان متدينا صاحب دين عفيف النفس، والحق أنها شهادة صدق ويقال: إن الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان يرضى عنه لعفته وطهارة شعره، هذا مع مرارة هجائه، والحق أن جريراً لم يترخص ولم يتهتك مثل صاحبيه، وذات مرة بصر به الفرزدق محرماً حول الكعبة فقال:والله لأفسدن على ابن المراغة حجه!!، ثم جاءه و قال له ساخراً:

فإنكَ لاقٍ بالمشاعرِ من منىً فخارًا فخبرني بمن أنت فاخر

وكان في استطاعة جرير الرد عليه لو أراد أن يفحمه، ولكنه آثر الحفاظ على حجته وما زاد على ذلك أن قال: لبيك اللهم لبيك. وللفرزدق رأي جميل في جرير لخصه في قوله : ما أخشن ناحيته وأشرد قافيته ! والله لو تركوه لأبكى العجوز على شبابها، والشابة على أحبابها، ولكنهم هروه، فوجدوه عند الهراش نابحاً، وعند الجراء قارحاً، وقد قال بيتاً، لأن أكون قُلته أحبُ إلي مما طلعت عليه الشمس:

إذا غضبت عليك بنو تميمٍ حسبت الناس كلهم غضابا

ولجرير والفرزدق كثير من الأخبار الموسومة بالطرافة، ولكنها في جملتها تدل على رجحان كفة جرير، ومما يروى أن الناس انشغلوا بأخبارهما وبرواية أشعارهما وجعلوها مادة للترويح عن أنفسهم من متاعب الحياة، فقد سمع الفرزدق وهو في المدينة أبياتاً جميلة تغنيها قينة، وكان معه الأحوص الشاعر والأبيات هي:

ألا حي الديار بسعدَ إني أُحب لحبّ فاطمة الديارا

إذا ما حل أهلك يا سليمى بدارةِ صُلصُلٍ شحطوا مزارا
أراد الظاعنون ليحزنوني فهاجوا صدعَ قلبي فاستطارا

فقال الفرزدق بعد سماعها موجهاً حديثه إلى الأحوص : ما أرق أشعاركم يا أهل الحجاز وأملحها !! فــرد علــيه والله.: أمــا تدري لمن هذا الشعر ؟ قال: لا والله.قال: فهو لجرير يهجوك به، إذ كانت الأبيات نسيبا استهل به جرير إحدى نقائضه في الفرز دق ، فقال الفرز دق" مقال صدق في خصمه" : ويل ابن المراغة !! ما كان أحوجه مع عفافه إلى صلابة شعري، وأحوجني مع شهواتي إلى رقه شعره. ولعــل هــذا الذي ذكره الفرز دق من فضل صاحبه يؤيد فحولة جرير الشعرية. وسئل الأخطل في حســن تقويمه لشعر الشاعرين حين قال: إن جريراً يغرف من بحر، وإن الفرز دق ينحت من صخر. على أن هناك أمراً ينبغي الوقوف عنده من أجل الوصول إلى نتيجة على جانب كبير من الأهمية، وهي أن المعــركة بــين جريــر والفرز دق بصفة خاصة، لم تكن لترفع درجة الخصومة بينهما إلى مستوى العداوة والبغضاء الدائمتين، فإن المأثور من الأخبار تدل على أن مراحل من الصفو وفترات طويلة من الصــداقة كانت تحتل مكاناً بين قلبي الشاعرين. لقد كانت معركة النقائض بين الشاعرين الكبيرين جريــر والفرز دق وجرير والأخطل ضرباً من الأعمال الفنية الكبيرة، ومعركة عملَ على تشجيعها وإضرام أوارها المنافسة الفنية الموسومة بالحسد من ناحية، واهتمام الناس بها وترديدهم للأشعار التي قيلت، وتعصبهم لهذا أو ذاك من الشعراء من ناحية أخرى، ذلك لأن الشاعرين لم يتركا يوماً للقبائل أشــياء يــتحدثون عــنها من دون أن يذكراهما، فجرير يتحدث عن أيام يربوع وقيس، والفرز دق يــتحدث عن أيام مجاشع وتميم، وقد يضيف إلى ذلك حديثاً عن أيام تغلب انتصاراً للأخطل، وهما لا يــتحدثان عــن أيام الجاهلية فحسب، بل يتحدثان أيضاً عن أيام الإسلام.والمهم أن الخلاف والهجاء شــكل معــركة طويلة الأمد بين جرير من ناحية، والفرز دق ومناصريه من ناحية أخرى، و شملت معركة النقائض علمين كبيرين من أعلام الشعر وقفا إلى جانب الفرز دق دون جرير، فلم يسلما من الامتهان والهدم تحت ضراوة معول جرير، أما أولهما: فهو البعيث الذي كان يجمع إلى قوته في الشعر، بــراعة فريدة في الخطابة حتى شهد له الجميع، أما العلم الآخر: فهو الراعي النميري الشاعر العظيم، ومن أصحاب الملحميات، واسمه أبو جندل عبيد بن حصين بن معاوية النميري، وقد هجا جريراً، إلا أن هذا الشاعر العظيم رماه سوء طالعه في طريق جرير، أو بالأحرى هو الذي رمى نفسه مركباً خشناً بمناصرة الفرز دق على جرير بقوله:

يا صاحبي دنا الرواحُ فسيرا غلب الفرز دق في الهجاء جريرا
رأيت الجحش جحش بني كُليب تيممَ حوض دِجلة ثم هابا

فما كان من جرير إلا أن خصه بنقيصة هدمته، وهدمت قومه نميراً مع أن في قومه شرفاً كثيراً، وكان بيــت جرير المشهور في قصيدته التي هجا بها الراعي بمثابة نكبة، نكبت بها القبيلة، وأصبحت بسببه مضغة في الأفواه، وبيت جرير هو:

قرنتُ العبدَ عبدَ بني نُميرٍ مَعَ القينَينِ إذ غُلبا وخابا
فلا صلى الإلهُ على نمير و لا سُقيت قبورهمُ السحابا
إذا قامت لغيرِ صلاة وتــرٍ بُعَيدَ النوم أنبحت الكلابا
وقد جلت نساء بني نمير وما عرفت أناملها الخضابا
ولو وُزنت حلومُ بني نمير على الميزان ما وزنت ذبابا
ألم نعتق نساء بني نمير ؟ فلا شُكراً جزينَ و لا ثوابا
فغض الطرف إنك من نميرٍ فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا
إذا نهضَ الكرامُ إلى المعالي نهضت بعلبة وأثرتَ نابا[239]
إذا غضبت عليك بنو تميمٍ حسبت الناسَ كلهمُ غضابا

هجــاء بمنــتهى المرارة، جاء بمثابة الصاعقة التي قصمت ظهره، فجعل جرير قوم الراعي بني نمير في الدرك الأسفل لعدم وجود صفات ترتقي بهم لمستوى الكرام، فلقد سبهم مسبة موجعة، فذكر ضعف عقولهــم وجعلها لا تزن شيء حتى الذباب أفضل منهم، ووصفهم بالكلاب الضالة، ويروى أنه إذا كــان الرجل من بني نمير إذا قيل له: من الرجل؟ قال: من بني عامر خشية الذم. وواضح أن أساس الهجاء في النقائض كان يقوم على العصبيات القبلية التي اختلطت في العصر الأموي بالسياسة، وهيأ لذلك مديح الخلفاء والولاة كتربة مناسبة، بحيث أصبحت لا تحتوي فخراً وهجاء فحسب، بل تحتوي كذلك مديحاً كما تحتوي نسيباً وغزلا، والشاعر في كل هذه الموضوعات يستلهم الإسلام في معانيه، كما يستلهم قدرة العقل العربي الجديدة على الجدال، ونقض الدليل بالدليل، وقدرته على التوليد في المعاني. وإذا كان مما لابد منه نقيضه كنموذج لهذا الفن، فليكن الاختيار للميمية التي أنشأها الفرزدق في قــتل قتيــبة بن مسلم الباهلي، ومدح سليمان بن عبد الملك، وهجاء جرير، وقيس و كذلك رد جرير عليها، فيقول الفرزدق مصطنعاً العفة والتقوى:

تحن بز وراء المدينة ناقتي حنين عجولٍ تبتغي البو رائم[240]

يستشــعر الفرزدق الإسلام في هذا الغزل خائفاً وجلاً من يوم الحساب الذي لا محالة أنه أمر واقع،

---

[239] -الناب: الناقة المسنة.ويعني أنه إذا طوح الناس إلى العلا فأنت تحمل ناقتك الجرباء وتتقدم بها(يعيره بأنه راع فقير).

[240] -البو : جلد ولد الناقة ،يعرض على أمه كي تحن إليه وترضعه ظناً منها أنه ولدها.

فيقف معتذراً، مما بدر منه من أشعار تصور مجونه وفسقه، ويدعوها لغواً من القول وإنه ليقول:

وكست بمأخوذ بلغوٍ تقوله إذا لم تعمد عاقد العزائم

يشير بذلك إلى قوله تعالى: (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور رحيم)[241] ولا شك في أنها وخزات الضمير في محاسبة النفس:

ويا ليت زوراء المدينة أصبحت بأحفار فلج أو بسيف الكواظم

والحقيقة أنه بعد هذه التقوى المصطنعة التي يكذبها سلوكه وتاريخه، ينتقل الشاعر إلى صلب موضوع نقيضته، حين يعرض بقيس وهزيمتها وقتل زعيمها عمرو بن الحباب قائلا:

جزى الله قومي إذ أراد خفارتي قتيبة سعي الأفضلين الأكارم

هم طلبوها بالسيوف وبالقنا وجُردٍ شجٍ أفواهها بالشكائم

وما لقيت قيس بن عيلان وقعةً و لا حرّ يوم مثل يومِ الأراقم

عشية لاقى ابن الحُباب حسابه بسنجار أنضاءَ السيوف الصوارم

ندمت على العصيان لما رأيتنا كأنا ذرى الأطوادِ ذات المخارم[242]

ويمضـــي الفرزدق مادحاً الخليفة سليمان بن عبد الملك بوصفه رحمة للعالمين ونوراً ساطعاً من أنوار الله، أرســـلها لهداية الناس، وبأنه مغيث ومنقذ أمة الإسلام، ومهلك ومذل المشركين، وهو واحد من أغراض هذه القصيدة :

جعلت لأهل الأرض نوراً ورحمةً وعدلاً وغيث المغبرات القواتم[243]

ولما رأينا المشركين يقودهم قتيبةُ زحفاً في جموع الزمازم

ضربنا بسيفٍ في يمينك لم ندع به دون باب الصين عينا لظالم

به ضرب الله الذين تحزبوا ببدرٍ على أعناقهم والمعاصم

فإن تميما لم تكن أمةُ ابتغت له صحةً في عهده بالتمائم

ثم يلتفت الفرزدق إلى جرير هاجياً له ويصفه بالكلب النابح على أبواب الملوك مع بني قومه، ويسخر مـــنهم ومـــتى كانت لهم في الوقائع صوارم تدافع وتصول وتجول؟ وبماذا يفتخروا إذا افتخر الكرام وسادة القبائل!! :

كذبت ابن دمن الأرض وابن مراغها لآل تميم بالسيوف الصوارم

[241] -سورة البقرة الآية 225

[242] - المخارم : جمع مخرم وهو منقطع أنف الجبل .

[243] -المغبرات القوائم : السنوات المجدبة.

تعيرُنا أيام قيسٍ ولم ندع لعيلان أنفاً مستقيم الخياشم
فما أنت من قيسٍ فتنبح دونها ولا من تميمٍ في الرءوس الأعاظم
وإنك إذ تهجو تميماً وترتشي تبابين قيسٍ أو سحوق العمائم
بلى وأبيك الكلبِ إني لعالمٌ بهم فهُمُ الأذنونَ يوم التزاحم

وفي مجـــال الفخر بقوة عشيرته ورهطه يقول الفرز دق مستطرداً وقد ظهرت في شعره روح القبلية الكـــريهة والعصبية القاتلة، التي كان الإسلام قد قضى عليها، ثم ما لبث أن أظهرهما معركة النقائض أشد ما كانت عليه في الجاهلية حيث يقول:

ويوم ابن سيدان إذ فوزت به إلى الموت أعجاز الرماح الغواشم
ونحن ضربنا هامة ابن خويلد يزيدَ على الفراخ الجواثم
ونحن تركنا من هلال بن عامر ثمانين كهلاً للنسور القشاعم
ونحن جدعنا قيس عيلان بالقنا وبالراسبات البيض ذات القوائم

تـــبلغ هذه النقيضة مائة وخمسة وخمسين بيتاً، جمعت ألواناً عديدة من الشعر بين مديح وفخر وتاريخ وهجاء، وفيها أبيات فاضحة المعنى مليئة بذكر العورات التي يستحي القارئ من قراءتها و منها:

يهدي الوعيد ولا يحوط جريمه كالكلب ينبح من وراء الدار
يستيقظون إلى نهاق حمارهم وتنام أعينهم عن الأوتار[244]

لا مـــتعة بالهجاء المقذع لأنه يخدش الحياء، والفرزدق تطاول فيه، وكذلك خصمه لم يقصر في ذلك، لكن جريراً يسارع بالرد على الفرز دق ملتزما البحر والقافية والروي، الذي سار عليه الفرز دق في قصيدته، وهو تقليد التزم في النقائض، وإذا كان الفرز دق استهل قصيدته بذكر العفة والتقوى، وهو لم يكـــن في ذلـــك من شيء حسب ما تشير المصادر من قبل، فإن جريراً يعمد إلى النيل منه ووصفه بـــالفجور، ويصف بعض مغامراته التي لا تشرف إنساناً يحرص على سمعته، ويشير إلى قصة طرد عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه له من المدينة لفجوره يقول جرير:

ألا حي ربع المنزل المتقادم وما حل مذ حلت بـــه أم سالم
لقد ولدت أم الفرز دق فاجراً وجاءت بوزواز قصير القوائم[245]
وما كان جارٌ للفرز دق مسلمٌ ليأمنَ قرداً ليلُهُ غيرُ نائم
يوصل حبليه إذا جن ليلُه ليرقى إلى جاراته بالسلالم

---

[244] -الأوتار :جمع وتر وهو الثأر.

[245] -الوزواز: الخفيف كناية عن قصره

أتيت حدود الله مذ كنت يافعا　　وشبت فما ينهاك سيبُ اللهازم[246]

تتبع في الماخور كل مريبة　　ولست بأهل المحصنات الكرائم[247]

يمسك معول الهجاء جرير، فيسلب الفرزدق أخلاقه بوصفه بالفجور، لأن أمه الفاجرة ولدته، ويبين أن جيرانــه لم يكونوا في مأمن من شره وفسقه وبوائقه، فكم من مرة تسلق السلالم لفعل المعاصي من دون أن يــردعه ضــمير أو ديــن؟ وراح يســخر جرير منه متسائلاً؟ ومتى كانت الأخلاق تحوط الفــرزدق!! يــا للعجــب؟ لأنه ليس من ذوي الأخلاق والدين، فهو بعيد عن المكرمات قريب من الرذائل. ثم يمضي جرير في هجاء الفرز دق موضحاً كيف طرد من المدينة ومحذراً أهلها منه فيقول:

هو الرجسُ يا أهلَ المدينة فاحذروا　　مداخلَ رجسٍ بالخبيثات عالم

لقد كان إخراج الفرز دق عنكم　　طهوراً لما بين المصلى وراقم

تدليت تزني من ثمانين قامةً　　وقصرت عن باعِ العلا والمكارم

ويشير جرير لسبب طرد الفرزدق من مكة من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بسبب فســقه وانــتهاكه للمحرمات جهرة بلا حشمة ووقار، ويبين أنه لم يدع فاحشة إلا وفعلها لأن باعه قصــيرة عــن مكارم الأخلاق وقد ارتكب فاحشة الزنا والتي هي من المحرمات التي يجب أن يرجم صاحبها إذا كان محصناً على فعلته الشنعاء، ويستطرد جرير في هجاء قوم الفرز دق والأخطل هجاء مفرطاً في الإباحية عامداً إلى ذكر العورات والتي لا يليق ذكرها وعرضها ومنها:

قومٌ إذا استنبح الأضيافُ كلبهم　　قالوا لأمهم بولي على النار

وراح جرير يهجو الفرزدق بقصائد عديدة منها:

أعددت للشعراء سمــــا ناقعا　　فسقيت آخــره بكــأس الأول[248]

لما وضعت على الفرزدق ميسمي　　وضغا البعيث جدعت أنف الأخطل[249]

أخزى الذي سمك السماء مجاشعا　　وبــنى بناءك في الحضيض الأسفل[250]

ولقد بنيت أخــــس بيت يبتني　　فهدمت بيتكم بمثلي يــذبل[251]

إني انصببت من السماء عليكمو　　حتى اختطفتك يا فرزدق من عل[252]

---

[246] - اللهازم :أصول اللحية.

[247] -المحصنات :النساء العفيفات.

[248] -الناقع:القاتل.

[249] :الميسم :المكواة.ضغا:تذلل.بعيث:اسم شاعر هجا جريرا.جدعت:قطعت.الأخطل:اسم شاعر تبادل الهجاء مع جرير.

[250] -أخزى:أذل.الحضيض:المكان المنخفض والأسفل.

[251] يذبل:حقر.يذبل:أسم جبل

أحلامنا تـــــزن الجبال رزانة   ويفوق جاهلـــنا فعال الجـــهل[253]

كان الفرزدق إذ يعوذ بــــاله   مثل الذليل يعـــوذ تحت القرمل[254]

إن الذي سمك السماء بنى لـــنا   عزا عـــلاك فما لـــه من منقل[255]

وقضت لنا مضر عليك بفضلنا   وقضت ربيعة بالقـــضاء الفيصل

يمضـــي جرير مفتخراً بأخلاقه الرفيعة، ويسخر من الفرزدق والأخطل ببعدهم عن فضائل الأخلاق، ويـــبين أن الجهـــلاء من قومه أفضل بكثير إذا وزنت الفعال لهم، وإذا ما قورنت بأخلاق الفرزدق والأخطـــل، فأخلاقهم لا تزن إلا الفجور والفسق.لأنهم من سفهاء العرب السفلة.وهذا ليس بخاف على أحد.وقال جرير يهجو الأخطل:

حيِّ الغداةَ برامةَ الأطلالا   رسماً تَحمّلَ أهلُه فأحالا

طربَ الفؤادُ لذكرهن وقد مضت   بالليلِ أجنحةُ النجوم فمالا

إني جعُلتُ فلن أعافيَ تغلباً   للظالمين عقـــوبةً ونكالا

قبح الإلهُ وجوهَ تغلب إنها   هانت عليّ مراسناً وسبالا[256]

قبح الإلهُ وجوه تغلب كلما   شَبَحَ الحجيجُ وكبروا إهلالا[257]

عبدوا الصليبَ وكذبوا بمحمد   وبجبرئيل وكـــذبوا ميكالا

هل تملكون من المشاعر مشعّراً   أو تنزلون من الأراك ظلالا[258]

تمت تميمي يا أُخيطلُ فاعترف :   منكم وأطولُ في السماء جبالا

ولو أن تغلب جمعت أحلافها   يومَ التفاضل لم تزن مثقالا

تلقاهمُ حلماءَ عن أعدائهم   وعلى الصديق تراهمُ جُهالا

يـــتطرق إلى خسة وسفالة قوم الأخطل وببعدهم عن الفعال الحميدة التي يجلها ويقدرها العرب، فهم كـــريهو الخلـــيقة، ولـــيس لهم أية مكرمة تذكر وترفع من قدرهم، ففعالهم وشيمتهم الغدر والخيانة والفجور. وقد أعجب عبد الملك بجرير إعجاباً شديداً لبراعته الشعرية ومقدرته الفذة فأعطاه مائة من

---

252 –انصبب:انقضضت.

253 – جاهلنا:سفيهنا

254 –القرمل:شجر بلا ورق ولا شوك ضعيف لا يحمي.

255 –منقل: تحول.

256 –مراسن :جمع مرسن ويعني الأنف . السبال :جمع سبلة وتعني جانب اللحية .

257 –شبح الحجيج : رفع الحجاج أيديهم بالتلبية وقد رفعوا صوتهم بقولهم : الله أكبر

258 –المشعر: المكان المقدس، الحج. الأراك : شجر والقصود به أراك مكه.

الإبل وثمانية من الرعاة ومحلباً من الفضة، ثم راح بقصائده العديدة يدافع عن عبد الملك في حقه بالخلافة كمحام، بل ويهاجم خصومه هجوماً عنيفاً، وهو بهذا المعنى يعدُ شاعراً سياسياً يحامي عن نظرية الأمويين في الحكم، ويناضل عنهم وما يزال يسدد سهامه إلى خصومهم، وهو في تضاعيف ذلك يحفهم بإطار رائع من التقوى والعمل الصالح، مقرراً أن شيعتهم على الحق، وأن من يخالفهم من الشيع.هم أهل باطل وضلال وأهواء وبدع، يقول في عبد الملك:

لولا الخليفةُ والقرآن تقرؤه ما قام للناس أحكام ولا جُمَعُ

أنت الأمين أمين الله لا سرف فيما وليتَ و لا هيابةٌ ورَعُ

أنت المباركُ يهدي الله شيعته إذا تفرقت الأهواء والشيع

فكلُ أمر على يمن أمرت به فينا مطاعٌ ومهما قلت يستمعُ

يا آل مروان إن الله فضلكم فضلاً عظيماً على من دينه البِدع

يجعل الخليفة عبد الملك خلال فترة حكمه بمقام عالٍ، فهو الأمين المؤيد بنصر الله، ويفضله عن غيره من الخلائق، وذلك لحسن خلقه وتدينه وحفاظه على أمة الإسلام من أعدائها الخارجين على طاعته والمثبتة المؤيدة من الله، وواضح أنه يزري على أصحاب الأهواء الذين يحادون بني أمية من الزبيريين والخوارج والشيعة، ويسميهم أهل بدع وضلالة.ويتوفى عبد الملك بعد فترة، واستطاع جرير خلال هذه الفترة أن ينفذ إلى ابنه الوليد بن عبد الملك، وأن يقع منه موقعاً حسناً بما دبجه من مدائح رائعة على شاكلة قوله:

إن الوليد هو الإمام المصطفى بالنصر هُزّ لواؤه والمغنم

ذو العرش قدر أن تكون خليقةً ملكتَ فاعلُ على المنابر واسلم

ويضفي جرير على الوليد صبغة النبوة، وأن الله اصطفاه واختاره لحمل الرسالة، وعهد إليه أمانة الأمة، وسرعان ما تتغيير الظروف ويتوفى الوليدّ، ويتولى الخلافة سليمان، فيفد جرير إليه مادحاً، محاولا أن يستترل عطفه عليه، بما يصوره من تقواه ومن عدله، وكيف أطلق وأعطى الحرية لأعدائه من سجنهم الذي كان يشرف عليه الحجاج بن يوسف الثقفي، وكيف رد مظالمه عن أهل العراق، وأحسن إلى الناس، وهو في تضاعيف ذلك ينوه بأن الله اختاره للأمة ناعتاً له بأنه المهدي المنتظر فيقول:

سليمان المبارك قد علمتم هو المهدي قد وضح السبيلُ

أجرتَ من المظالم كل نفس وأديتَ الذي عهدَ الرسول

صفت لك بيعةٌ بثبات عهد فوزنُ العدل أصبح لا يميل

لكن هذا لم يرق لسليمان ولم يعجب بعظمة الملك ومدح الشعراء له، فغرور الدنيا زائل، فعزف عن هذا الملك الزائل، ورأى أن يصرف الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وهذا بدوره أيضاً كان يتأله في دينه ويزهد في الدنيا، فأوصد أبوابه من الشعراء سوى جرير، وقد قربه لما عرف فيه من عفته وحسن دينه، ومعرفته به ترجع إلى أيام ولايته على المدينة، وله فيه مدائح مختلفة، يصور فيه تقواه وأن الله اصطفاه للناس مثل قوله:

أنت المبارك والمهدي سيرته تعصي الهوى وتقوم الليل بالسور

نال الخلافة إذ كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر

يمدح الخليفة ويصفه بالحلم وبالعابد الزاهد يقوم ليله ونهاره في تقوى الله وبرجاء غفرانه ورحمته، ويشير إلى سياسة عمر في طرح العشر عن الرعية، وكل ما كان يجبى منها غير الخراج، فيقول في مدحه:

إن الذي بعث النبي محمداً جعل الخلافة في الإمام العادل

ولقد نفعت بما منعت تحرجاً مكس العشور على جسور الساحل[259]

ويبين رجاحة أخلاق عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، ونهجه العادل في سياسة أمور الرعية، والأمن والآمان الذي جثم وخيم على أمة الإسلام، وسرعان ما توفي عمر بن عبد العزيزإلى رحمة الله، فيندبه ندباً حاراً، ويصور فجيعة الأمة فيه حتى ليقول إن الشمس تبكيه مدى الدهر:

تنعي النعاةُ أمير المؤمنين لنا يا خير من حج بيت الله واعتمرا

حُملت أمراً عظيماً فاصطبرت له وقمت فيه بأمر الله ياعمرا

فالشمس كآسفة ليست بطالعةٍ تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

أسى ما بعده أسى، ومصاب جلل تتفطر القلوب منه لموت الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الذي انتقل لرحمة الله تعالى، وقد حمل الأمانة إلى رحمة الأمة وصانها بعدله وحكمته الساطعة، والتي كانت كالشمس المشرقة، ولكنه قضاء الله وقدره وسنته في خلقه، ولقد مدح جرير بجانب الخلفاء كثيراً من أبنائهم.فمدح الحجاج بن يوسف الثقفي مدائح رائعة منها:

من سد مطلع النفاق عليكم أم من يصول كصولة الحجاج

أم من يغار على النساء حفيظة إذ لا يثقن بغيرة الأزواج[260]

إن ابن يوسف فاعلموا وتيقنوا ماضي البصيرة واضح المنهاج

---

[259] -مكس :طريق المارة في قنطرة أو جسر

[260] -الحفيظة: الغضب

منع الرشا وأراكم سبل الهدى   واللص نكله على الإدلاج[261]

داويتهم وشفيتهم من فتنةٍ   غبراء ذات دواخنٍ وأجاج[262]

يمدح جرير الحجاج بالصفات التي يجلها العرب ويحترمها منذ القدم، وبصفات أخرى تتصل بسياسته وولايـــته للعراق، إذ يقول إنه سد ثغور النفاق وأبدي شجاعة فائقة ومحافظة على الذمام، ويقول إنه نافذ البصيرة واضح السياسة، يعرف كيف يخرج من الغمرات والشدائد، ويصور كيف أقام العدل في الـــناس، ومنع الرشوة وقضى على اللصوص وقطاع الطرق في الليل المدلهم، ويشير إنه صحح وقوم كـــل مائل وباطل، وداوى النفوس المريضة وحطم أسنة المنحرفين عن الدولة، ولم يعد هناك أحد ممن يعبثون في الأرض فساداً، ويقضي الحجاج على ثورة ابن الأشعث فينوه بانتصاره عليه قائلا:

دعا الحجاج مثل دُعاء نوحٍ   فأسمع ذا المعارج فاستجابا[263]

صبرت النفس يابن أبي عقيلٍ   محافظةً فكيف ترى الثوابا

ولو لم يرض ربُك لم ينزل   مع النصر الملائكة الغضابا

إذا سعر الخليفةُ نار حربٍ   رأى الحجاج أثقبها شهابا

وأخذ جرير يمدح إلى جانب الخلفاء كثيراً من أبنائهم، فهو يمدح مسلمة بن عبد الملك، وعبد العزيز بن الوليد، وأخاه العباس وأيوب بن سليمان، ومعاوية بن هشام، ودائما ينوه بالأسرة الأموية، وأن الله اخـــتارها للأمة فرجاً من الكرب والضيق.ومدح بعض أشراف قيس وتميم، مثل المهاجر بن عبد الله الكـــلابي، والجنـــيد بـــن عـــبد الرحمن المري، وهلال بن أحور المازني، ودائما يتقدم جرير الأخطل والفـــرزدق جمـــيعاً في الموضوعات التي تتطلب دقة في الإحساس ورقة في الشعور، ولم يكن لعشيرة جريـــر، ولا لآبائـــه شيء من المآثر الحميدة بالمقارنة مع الفرز دق، فانطوت نفسه على حزن عميق، ازداد ت صفاءً، وجوهراً ومضموناً بسبب تأثره بالإسلام، إذ كان صاحب دين وإيمان وتقوى، عفيفاً طاهر النفس، ويبين رثاءه لزوجته أُم حرزة، وقد اشتُهِرت هذه القصيدة في البلاد، فعرفت باسم(الجو ساء أو الحوساء) إذ يقول:

لولا الحياءُ لعادني استعبارُ   ولزرتُ قبركِ والحبيبُ يزارُ

ولقد نظرتُ وما تَمتُّعُ نظرةٍ   في اللحدِ حيثُ تمكنَ المحفارُ[264]

---

261 -الإدلاج : السير ليلا

262 -الأجاج: أجة النار /والدواخن جمع داخن وهو الدخان

263 -ذو المعارج: الله جل جلاله

264 -لقد نظرت إلى قبرك طويلاً ولكن ما يفيد التطلع إلى قبر جعلته محرفة الحفر عميقاً.

وهتِ قلبي إذ علتني كبرةٌ وذوو التمائم من بنيك صغارُ

أرعى النجوم وقد مضت غوريةً عُصَبُ النجوم كأهنّ صُوارُ[265]

نعمَ القرينُ وكنتِ علِق مضنةٍ وارى بنعفِ بُلية الأحجار

يرعى حرمة الزوجة ويندبها، بعبرات من الدموع، والشوق والحنين واللهفة عليها وعشرة الأيام معها، أنــه الوفــاء الزوجي لرفيقة دربه في أحزانه واتراحه ومصابه، ولمَ لا يبكيها ولا يحزن عليها؟ فليقل المتقولون! فهي أم أولاده، فكانت طيبة الثنايا حسنة الفعال، ويصفها بأجل الأخلاق، وبالطهر ويحزنه بكاء أطفاله الصغار عليها لفقدها، ويؤلمه قسوة اللحد الذي كان الحد الفاصل من رحلة عمر طويلة مع زوجة طيبة المكارم والأخلاق:

عَمَرَت مُكرَمةَ المساكِ وفارقت ما مسها صلفٌ ولا إقتار

كانت مُكرَمةَ العشيرِ ولم يكن يخشى غوائلَ أمِ حزرةَ جار

ولقد أراكِ كسيتِ أجمل منظرٍ ومع الجمال سكينةٌ ووقارُ

صلى الملائكة الذين تخيروا والصالحون عليكِ والأبرار

لا يُلبثُ القرناءَ أن يتفرقوا ليلٌ يكُرّ عليهمُ ونهارُ

أفأمُ حزرةَ يا فرزدق عبتمُ ؟ غضَبَ المليكُ عليكمُ الجبار

قدكان قومك يحسبونك شاعراً حتى غرِقتَ وضمك التيار

أن الفرزدق لا يزال مقنّعاً وإليه بالعمل الخبيث يشار

فإنك تحس مع جريرفاجعته المريرة والقاسية، لقيام سور الموت بينها وبينه هو وأولادها، وهو يدعو لها دعاء المسلم المؤمن قلبه، محييا فيها جمالها وخلقها الرفيع، ويدل ذلك على علاقته بزوجته أُم حرزة بأنها علاقــة ود ومحبة. ولقد برع جرير في تصوير الحب الخالص الطاهر أحسن تصوير إذ ما يزال يتلطف ويستعطف على شاكلة قوله:

يا أُمّ عمرٍو جزاكِ اللهُ مغفرةً رُدّي عَليّ فؤادي كالذي كان

ألستِ أملحَ من يمشي على قدمٍ يا أملحَ الناسِ كل الناس إنسانا

يلقى غريمُكمُ من غيرِ عُســرتكم بالبــذلِ بخُــلاً وبالإحسان حرمانا

لا بارك الله في من كان يحســبُكم إلا على العهد حتى كان ما كانا

لا بارك الله في الدنيا إذا انقطعت أسبابُ دُنياكِ من أسباب دنيانا

---

265 – أُراقب النجوم وأسهر الليل حتى غابت النجوم كأنها قطيع يسير معاً.

لقد كتمتُ الهوى حتى هَيمني   لا أستطيع لهذا الحب كتمانا

إن العيون التي في طرفها حَوَرٌ   قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللبّ حتى لا حراك به   وهن أضعفُ خلق الله أركانا

يا حبذا جبلُ الريانِ من جبلٍ   وحبذا ساكنُ الريانِ من كانا

وحبذا نفحاتٌ من يمـانيـةٍ   تأتيـك من قِبَلِ الريـان أحيـانا

لا ضـير ولا تسريب من بكاء جرير لزوجته، فهو يمثل الإنسان الوفي والزوج المخلص لزوجته، وله كامل الحق في البكاء عليها، لأنها شاطيء أمنه وأمانه، فكانت تعينه على نوائب الدهر وتشد أزره في محنه، وراح يلقي باللوم على الدهر الذي أراد الفراق بينه وبين أم أولاده، ويتذكر بدموع من اللوعة والفرقة والحرقة جلل المصاب، وتحمله الذكريات إلى أيامه معها، تلك النفحات التي غادرت إلى غير رجعـة.بـدت شخصية جرير قوية الجانب لا تعرف الانحراف بالمقارنة مع الفرزدق فهو من فحول الشـعراء واستطاع أن يصف خلجات النفس وهذا يدل على قدرته في معرفة جوانب النفس فجاء شـعره معبراً عن عواطفه وانفعالاته بدقة وإحساس مرهف يبين عبقريته الشعرية وهذا ما شهد له به القاصي والداني.

قال نابليون:

(الـثورة يدبرها الخبثاء.... ويقوم بها الجهلاء، ثم يجني ثمارها الجبناء، وثبت أن من أكل على مائدتين أختنق).

جميل بن معمر

قال ابيرار:

(كلمة الحب على كثرة ترديدها لا يبلي الزمان جدتها، ولا تنقص الأيام جمالها، فهي تتردد في زقزقة العصفور، وحفيف الأجنحة، وأنين الأوتار، وخفقان القلوب، بل هي همــس الروح إلى الروح، ومناجاة النفس إلى النفس، ولو جُردَ العالم منها لأصبح الكون فراغاً والحياة مُملة، أليس الحب نعمة من نعم الآله على قلوب المحبين).

ما أنبل القلب الحزين الذي لا يمنعه حزنه عن أن ينشد أغنية مع القلوب الفرحة، إنه أبو عمرو جميل بن معمر من بني عذرة من قضاعة المنتسبين إلى معد، ويعتبر جميل بن عبد الله بن معمرمؤسس مدرسة العشق الصادق الطاهر في عهد بني أمية خاصة وفي الأدب العربي عامة، لأنه يمثل العشق العفيف الذي كان يشيع في البادية حيث الفاحشة معدومة (إنه العشق العذري)، أوتكاد تكون قليلة، ومعلوم أن النخوة العربية الإسلامية تحد من الانحراف والتبرج، .وحيث لم تدنسهاالحياة المدنية والروح الفاسدة، ولم تعبــث بهــا الشهوة.وجميل من قبيلة بني عذرة، والتي عرفت بكثرة العشق الذي شاع بين أبنائها وبناهما، ولكنه عشق تحكمه روابط العفة، وتقف دون انحرافه تقاليد سرت في القبيلة، بحيث لم يعرف بين عشاقها من خرج على حدود الطهر والعفة، وهكذا نسب كل حب عفيف إلى بني عذرة.

لقد أحب جميل بثينة صغيرا، فلما كبر خطبها، فُردَ عنها، لأن العرب كانت ترفض زواج من يشبب بالفتاة، فازداد هياماً بها وتعلقاً بحبها، حتى حاول أهلها مراراً إيقاع الضرر به، وشكوه إلى مروان بن الحكــم، والذي كان والياً من قبل معاوية بن أبي سفيان على المدينة للمرة الثانية، وكان عامله على وادي القــرى دَجاجــة بــن ربعي، فتوعد دجاجة جميلاً: إن هو زار بثينة أو تعوض لها، فلم يرتدع وزوجوهــا لغــيره، فظل يتبع خطاها ويترل بأرضها ويلتقي بها، حتى أهدر السلطان دمه فهرب إلى أخوالــه من بني جذام في اليمن. ويذكر الأصفهاني: أن جميلا أحب، أول ما أحب أختاً لبثينة كانت تدعى " أم الجسير" .وكان ينسب بها، ثم أقبل يوما يورد إبله واديا يقال له وادي بغيض، وكان أهل بثينة يترلون آنئذ بطرف الوادي، فأقبلت بثينة وجارة لها نحو الماء، فمرت على إبل له ونفرقما وهي إذ ذاك صغيرة، فسبها جميل فردت عليه سبابه، فأعجبه سباها وشتائمها له. فقال في ذلك:

وأول مــا قــاد المودة بيننا ... بوادي بغيض يــا بثينُ سبابُ

وقلنا لــها قولا فجاءت بمثلــه ... لكل كــلام يــا بثين جواب

ويشــتعل أوار الحب بين الفتى والفتاة ويكثر لقاؤهما، ويلم على منازل أهلها فيدفعوه تارة، ويمنعوها عــنه تــارة أخرى، وفي كل مناسبة من لقاء أو منع، يجري الشعر عذبا رقيقاً عميقاً من قريحة جميل الخصــيبة المعطاءة، وكلما حاول القوم التربص له أو إيذاءه، فكانت بثينة تحذره من ذلك بطريقة أو

بأخرى فيتخفى منهم.واستبد الوجد بالعاشق جميل، فكان ذلك دافعاً إلى القول العذب والشعر الأخاذ، وحدث أن وقع بينها وبينه هجر ذات مرة لغيرة أصابته، وما أكثر ذلك في حياة العشاق، وقد رآها تتحدث مع ابن عم لها، فأخذ ينكرها ويلومها كلما رآها، وهي تقابله بالصد، فبلغ به الأمر به كل مبلغ. فانشأ يقول:

وما زلتم يا بثنُ حتى لو أنني من الشوق أستبكي الحمام بكى ليا
إذا خدرت رجلي وقيل شفاؤُها دعاءُ حبيب كنتِ أنت دعائيا
وما زادني الواشون إلا صبابةً ولا كثرةُ الناهين إلا تماديا
ألم تعلمي يا عذبة الريق أنني أظلُ إذا لم ألق وجهك صاديا
لقد خفتُ أن ألقى المنية بغتةً وفي النفس حاجات إليك كما هيا

تبكي طيور الحمام حزناً وتعاضداً مع جميل المعذب بنار الغرام ،ويزداد هيامه وولعه شوقاً وصلابة بها، كلما أمعن الواشون بهلاكه وإيذائه ويخشى الموت بغتةً قبل أن يبلغها حنينه وحبه. و يتألم جميل عاتباً على وعد بثينة في لقاء وقد ماطلته في لقاء:

إني إليك بما وعدتِ لناظرُ نظرَ الفقير إلى الغني المكثرِ
يقضي الديون وليس بنجزُ موعدا هذا الغريمُ لنا وليس بمعسر
ما أنت والوعد الذي تعدينني إلا كبرق سحابةٍ لم تمطرِ

يصور مرارة المماطلة بالوعد وعدم الوفاء به، بمشاعر جميلة الدقة ورائعة الوصف، حيث شبه وعدها بلقائه، شأنها في ذلك شأن البخيل الذي مواعيده الكذب والمماطلة، وكذلك مثل السحاب الذي يأتي بالرعد ولا يمطر. إن أهل بثينة لم يلبثوا أن شددوا النكير والحصار عليها وعليه، وحالوا دون لقائهما ولم يكتفوا بذلك، بل شكوه إلى السلطان الذي أهدر دمه، فضاقت الدنيا في وجهه، وكان يصعد بالليل على تلال رملية يتنسم الريح الآتية من ديار بثينة ويقول:

أيا ريح الشمال أما تريني أهيم وأنني بادي النحولُ
هبي لي نسمة من ريح بثن ومني بالهبوب إلى جميل
وقولي يا بثينة حسبُ نفسي قليلك أو أقل من القليلِ
وقد قلت في حبي لكم وصبابتي محاسنَ شعرٍ ذكرهن يطول
فإن لم يكن قولي رضاك فعلمي هبوب الصبا يا بثنُ كيف أقول
فما غاب عن عيني خيالك لحظة ولا زال عنها والخيال يزول

يناجي رياح الشمال ويشتم عطرها، ويتمناها أن تكون قادمة من جهة بثينة، وهكذا دأب العشاق

يقضـــون لحظات العمر مع أحلام اليقظة ومحطات الذكرى، إنه الحلم الذي يغرق العشاق في مينائه الكبير طويلاً، ولا يدرون كيف تمر وتنقضي الساعات!، وهكذا فليلهم طويل ونهارهم قصير، أن جميل يصـــور أحاســيس العاشق بأسلوب رقيق عذب.وقد حاول جميل أن يسلي نفسه عن بثينة وينساها استجابة لرجاء أبيه الذي أشفق عليه كل الإشفاق، فقال قصيدته اللامية محاولا التأسي، فكانت أقرب إلى اللوعة منها إلى السلو، وإلى الصبابة أقرب منها إلى التأسي، وفيها يقول:

ألا من لقلبٍ لا يملُ فيذهلُ   أفق فالتعزي عن بثينة أجملُ
سلا كلُ ذي ود علمتَ مكانه   وأنت بها حتى الممات موكلُ
فيا قلب دع ذكرى بثينة إنها   وإن كنت تهواها تضن وتبخلُ
وقد أيأست من نيلها وتجهمت   ولليأس إن لم يقدر النيل أمثلُ
وكيف تُرجى وصلها بعد بعُدها   وقد جُذ حبل الوصل ممن تؤمل
وإن التي أحببت قد حيل دونها   فكن حازما والحازم المتحول
ففي اليأس ما يسلي وفي الناس خلةٌ   وفي الأرض عمن لا يواتيك معزل

قسوة الفراق لدى العشاق تترك بصمات موجعة، لا يقدر المحب على السلوان أو النسيان أو التخلي، لأن نهر الشوق يتابع مسيله لمرفأ العذاب، وقد ينتهي الوصول أما بالموت أو الجنون، على أن جميلا لم يســـل ولم يـــنس، وظل يأتي في غزله ببثينة بالصور الجميلة التي كثيرا ما كانت تستوقف نظر القراء والنقاد ومن غريب قوله معبرا عن صبابته القاتلة:

ألا أيها النوام ويحكم هبوا   نسائلكم : هل يقتلُ الرجلَ الحبُ ؟

وكذلك يشير إلى استحكام حبها بفؤاده وفقدانه السيطرة على إرادته:

لها من سواد القلب بالحب ميعةٌ   هي الموت أو كادت على الموت تُشرف
وما ذكرتكِ النفسُ يا بثن مرةً   من الدهر إلا كادت النفس تتلف
وما استطرفت نفسي حديثاً لخلةٍ   أُسرُ به إلا حديثكِ أَطرف

ويـــبلغ جميل ذروة تجديده الفني وصدقه العاطفي في قصيدته الدالية والتي تعدّ من أجود ما قال شاعر محب، وكان فيها كالشمعة المزدهرة، قبل أن تذوي، فقد قالها وهو متأهب للتروح إلى مصر، بعد أن ضاقت الدنيا في وجهه، وألح الكاشحون والواشون في طلب دمه، فرأى أن يبحث عن مكان يأمن فيه عـــلى نفسه ودمه، فاتجه إلى عبد العزيز بن مروان في مصر يلوذ به، ويعيش في حماه بعد أن ذهب إلى ديار بثينة، ومكث أياماً مختفيا إلى أن استطاع لقاءها ووداعها الوداع الأخير.إن جميل يضع كل صبابة باقية في فؤاده في قصيدته هذه حيث يقول:

ألا ليت ريعانَ الشبابِ يعودُ ودهراً تولى يا بثينَ يعودُ
فنغنى كما كنا نكون وأنتم صديقٌ وإذ ما تبذلين زهيدُ
وما أنس ملأشياءِ لا أنس قولها وقد قربت نحوي : أمصرِ تريد ؟
ولا قولها: لولا العيونُ التي ترى أتيتكَ فاعذرني فدتك جدود

كـــم هي قاسية لحظات الوداع على المحبين؟ ومتى يجود الدهر بهذه اللحظات التي بدأ نجمها بالأفول لدى جميل وبثينة، حيث دنت شمس الغياب، فالدموع تنهمر والقلب يتوجع، ولا بد من الرحيل لمصر هـــربا من القتل المحتوم، لكنه هرب جسداً وبقي قلباً وروحا أثيراً لبيثنة، بعد هذه الذكريات العذبة يتحول جميل إلى الشكوى، وقد أجرى قليلا من الحوار الذي يكثر منه عند عمر بن أبي ربيعة، ولكن شتان بين حوار رجل سعيد في الحب ينتقل كل يوم من روضة إلى بستان، ورجل موحد في الحب غير سعيد فيه:

إذا قلت ما بي يا بثينة قاتلي من الحب قالت : ثابتٌ ويزيدُ
وإن قلت ردي بعض عقلي اعش به مع الناسِ قالت ذاك منكَ بعيد
فلا أنا مردودٌ بما جئتُ طالباً و لا حبُها فيما يبيدُ يبيدُ
جزتك الجوازي يا بثين ملامةً إذا ما خليلٌ بان وهو حميدُ
وقلت لها : بيني وبينك فاعلمي من الله ميثاقٌ له عهود

ويحـــن جمـــيل إلى منازل قومه وقومها في وادي القرى حنينا عذبا مؤثرا، وتشتد لوعته بسبب امتداد المسافات، ويقسم بالله أنه باق على العهد ما بقي على قيد الحياة، ولا تمر ليلة من عمره إلا ويتذكرها حيث يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتنَ ليلةً بوادي القُرى إني إذن لسعيدُ
وهل أهبطن أرضاً تظلُ رياحها لها بالثنايا القاويات وئيد[266]
وهل ألقين سُعدي من الدهر مرةً وما رث من حبل الصفاء جديدُ
وقد تلتقي الحاجات من بعد يأسةٍ وقد تُطلب الحاجاتُ وهي بعيدُ
فمن يعطَ في الدنيا قرينا كمثلها فذلك في عيش الحياة رشيد
يموت الهوى مني إذا ما لقيتها ويحيا إذا فارقْتها فيعود
يقولون جاهد يا جميلُ بغزوةٍ وأي جهاد غيرهن أريدُ

---
[266] -وادي القرى موضع كانت فيه منازل جميل وبثينة، القاويات: الخاليات، الوئيد : الصوت الشديد.

لكل حديثٍ بينهنَ بشاشةٌ وكلُ قتيلٍ بينهنَ شهيدُ
علقتُ الهوى منها وليداً فلم يزل إلى اليوم ينمى حبها ويزيدُ
فما ذُكر الخلانُ إلا ذكرتها ولا البخلُ إلا قلتُ سوف تجود

يمضـــي جمـــيل مشيراً إلى أن سعادته لا تكتمل في هذه الدنيا إلا بالحياة مع بثينة، ويرفض طلب قومه بدعوته للجهاد، فيرد عليهم أنه مجاهد في حب بثينة ولا يرغب إلا في هذا الجهاد، ويبين إنه أحبها منذ سنوات الطفولة ويزداد حبها بقلبه بمرور الأيام. وقال جميل يرد على الوشاة واللائمين:

لقد فرح الواشون أن صرمت حبلي بثينةُ أو أبدت لنا جانبَ البخلِ
يقولون : "مهلاً يا جميل " وأنني لأقسمُ ما بي عن بثينةَ من مهل
أحلماً ؟ فقبلَ اليوم كان أوانه أم اخشى ؟ فقبل اليوم أُعدت بالقتل
كلانا بكى أو كاد يبكي صبابةً إلى إلفه واستعجلت عبرةً قبلي
فلو تركت عقلي معي ما طلبتها ولكن طلابيها لما فات من عقلي
فيا ويح نفسي ، حسب نفسي الذي بها ويا ويح أهلي ! ما أصيب به أهلي
أجدي ، لا ألقى بثينةَ مرةً من الدهر إلا خائفا أو على رحل
خليليّ فيما عشتما هل رأيتما قتيلاً بكى من حُب قاتله قبلي؟

انتهت حياة جميل نهاية حزينة، فهو الذي قال في حبيبته أجمل ما قال عاشق عفيف، ثم يموت غريبا عن الأهل والديار ومنازل الأحباب، حيث المنفى الذي فرض عليه أن يعيش فيه حفاظاً على حياته وحقنا لدمـــه، فأن حياته لم تطل في مصر، كما لم تطل على ديار صاحبته، وكانت بثينة آخر إنسان فكر فيه وهو يحتضر، ولقد أراد لخبر موته أن يحدث دوياً في ربوع بني عذرة، فقال لرجل شهد وفاته: هل لك أن أعطـــيك كل ما خلفته على تفعل شيئا أعهده إليك. قال: اللهم نعم. قال جميل: إذا أنا مت فخذ حلتي هذه وارحل إلى بني عذرة.فإذا صرت إليهم ألبس حلتي هذه وانشد بأعلى صوتك قولي:

صدع النعي وما كنى بجميلِ وثوى بمصر ثواءَ غير قُفول
ولقد أجرُ الذيل في وادي القرى نشوانَ بين مزارعٍ ونخيلِ
قومي بثينةُ فاندبي بعويلِ وابكي خليلك دون كل خليلِ

فـــلما قضى جميل، وواراه صاحبه التراب، أتى رهط بثينة وفعل ما أمره به جميل، فما استتم الأبيات حتى برزت إليه امرأة يتبعها نسوة قد فرعتهن طولا، وبرزت أمامهن كأنها بدر قد برز في دجنة الليل، وهي تتعثر في مرطها حتى أتته وقالت: يا هذا والله لئن كنت صادقاً لقد قتلتني، ولئن كنت كاذبا لقد فضـــحتني، فقال: والله ما أنا إلا صادق وأخرج حلة جميل، فلما رأتها صاحت بأعلى صوتها وحكت

وجههـــا، واجتمع نساء الحي يبكين معها ويندبنه حتى ضعفت، فمكثت مغشيا عليها ساعة، ثم قامت وهي تقول:

وإن سلوى عن جميلٍ لساعةٌ   من الدهر ما حانت ولا حان حينها
سواءٌ علينا يا جميل بن معمر   إذا مت بأســاءُ الحيـــاة ولينها

إن الـــذي يدعــو للتأمل والدهشة في حب جميل، هو غياب لفظة نابية لم تلفظ ولا نظرة فاحشة قد حدثت، إنما كان اللقاء نظيفاً مثل غرام العاشقين العذريين، ومن بدائع قوله فيها:

خليليَّ عُــوجا اليوم حـــتى تُسلما   علـــى عَذبــةِ الأنيابِ طيبةِ النشرِ
فإنكُـــما إن عجتُما لـــي سَاعةً   شَـــرُتُكما حـــتى أغيبَ فـــي قبري
ألما بها ثم اشْـــفعاَ لــــي وسَـــلمَا   عَليها سقاها اللهُ مـــن سائغ القطرِ
وبُوحا بذكري عِنـــد بثينةَ وانظرا   أترتاحُ يومـــاً أم تهشُ إلـــى ذِكري
فإن لم تَكُن تقطّعَ قوى الـــوِد بيننا   ولم تنسَ ما أسلفتُ في سالفِ الدهر
فسوفَ يُرى منها اشتياقٌ ولـــوعةٌ   ببينٍ وغَربُ مـــن مدامعـــهَا يجري
وإن تَكُ قد حَالَتْ عن العهد بعدنا   وأصغت إلـــى قولِ المؤنبِ والمُرزي
فسوفَ يُرى منها صُدودٌ ولم تَكُن   بنفسيَ من أهـــلِ الخِيــانة والغَـــدر
أعوذُ بكَ اللهم أن تشحطَ النوى   ببُثنةَ في أدنـــى حيـــاتِيَ ولا حشري
وجاور إذا مـــا مُتُ بينـــي وبينها   فيا حَبـــذا موتـــي إذا جاورت قبري
هي البدرُ حُسناً والنساءُ كواكبٌ   وشتانَ مـــا بين الكواكبِ والبـــدرِ
لقد فُضلت حُسناً على الناسِ مثلما   على ألفِ شهرٍ فُضلت ليلـــةُ القدر
أيبكي حَمامُ الأيكِ من فَقد إلفهِ   وأصبرُ مـــا لـــي عن بُثينـــةَ من صَبرِ
يقُولون : مسحورٌ يُجَنُ بذِكرِها   وأقسمُ مـــا بـــي من جُنُون ولا سِحرِ
لقد شُغفتْ نَفسي بُثينَ بذِكرِكُم   كـــما شُغفَ المَخمُـــورُ يـــا بثْنَ بالخمرِ
ذكَرتُ مَقامي ليلـــةَ البان قابضاً   على كـــفٍّ حوراءِ المدامِعِ كَـــالبَـــدر
فَكِـــدتُ ولم أملُك إليـــها صَبابةٌ   أهيـــمُ وفاضَ الدمعُ مـــني على نَحري
فيـــا لَيتَ شَعري هل أبيتنَّ ليلةً   كليلتنـــا حـــتى نـــرىَ سَاطعَ الفَجـــر
تَجُـــودُ عَلينـــا بـــالحديثِ وتارةً   تَجُـــودُ علينـــا بالرضـــابِ مـــن الثغر
فيا ليتَ رَبي قد قضى ذاكَ مرةً   فيعلمَ ربَـــي عِنـــد ذلكَ مـــا شكري
ولـــو ســـألت مني حياتِيَ بَذلتُها   وجُـــدتُ بـــها إن كان ذلكَ مـــن أمري

مضى لــي زمــانٌ لو أخيِّر بينهُ ... وبيــنَ حيــاتي خالــداً آخــرَ الدهــرِ
لَقُلــتُ: ذرونــي سَــاعةً وبثينةَ ... على غَفــلةِ الواشــين ثُمَ اقطعوا عمري
مُفلجَــةُ الأنيــابِ لو أن ريقها ... يُداوى بِــهِ الموتــى لقامــوا من القبــر
إذا ما نَظمتُ الشعرَ في غيرِ ذكرِها ... أبــى وأبيــها أن يُطــاوعني شِــعري
فلاَ أنعمتْ بَعدي ولا عِشتُ بعدها ... ودامت لنــا الدنيــا إلى مُلتقــى الحشرِ

إن شعر جميل كله شاهد على طهارة حبه وبعده عن كل فاحشة، وهو الأمر الذي حرص جميل على إعلانه في مرضه الأخير، عندما زاره صديق يقال له عباس بن سهل الساعدي، فنظر إليه وقال يا ابن سهل: ما تقول في رجل لم يشرب الخمر قط ولم يزن ولم يقتل ولم يسرق ويشهد أن لا إله إلا الله، قال ابــن ســهل: والله اظنه قد نجا وأرجو له الجنة، فمن هذا الرجل ؟ قال: أنا، قال ابن سهل: والله ما أحسبك سلمت وأنت تشبب منذ عشرين سنة ببثينة، قال: لا نالتني شفعة النبي محمد ﷺ وإني لفي أول يــوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا، إن كنت وضعت يدي عليها لريبة، والقصة إن كانــت صــحيحة ونــرجو أن تكون كذلك فهي توثيق لطهر جميل في حبه وغزله.ولدى تحليل شخصية جميل ظهر التطرف في حبه لدرجة كبيرة، مما أعاقه وأفقده متابعة حياته العادية، وعلى الرغم من طهره وغياب أي مظهر من مظاهر الانحراف في شعره، فهو عاشق طاهر السريرة، ومهما يكن من أمر لا بد للفرد من تجاوز الانسياق مع الأهواء والرغبات للدرجة التي وصل إليها جميل، فالحياة فيها جوانب تقتضي من الإنسان أن يعيش لأجلها.وعليه أن يسخر قدراته العقلية في ضبط سلوكه.ولعل خير عزاء للنفس الصبر والسلوان في مواقف تقتضي الصبر واحتمال البلاء وخير مثال ما يلي:

عبرة:

(ضــربت بدويــة فقــيرة خــباء مــن شعر، في بستان صغير، كانت تعيش على محصــوله. وذات لــيلة، غامــت السماء وأرعدت، ثم تساقط برد أفسد الزرع. فلما هــدأت العاصفة..أطلت الإعرابية برأسها من الخباء ونظرت إلى الزرع وقد ذوى... ثم رفعت رأسها نحو السماء. وقالت:

اصنع يا الهي ما شئت ... فان رزقي عليك !

الحكم بن عبدل

موقف:

(دخلـــت إحـــدى العجائـــز على السلطان سليمان القانوني، تشكو إليه جنوده الذين ســـرقوا لها مواشيها بينما كانت نائمة.فقال لها السلطان:كان عليك أن تسهري على مواشيك لا أن تنامي.فأجابته: ظننتك أنت الساهر يا سيدي، فنمت).

صـــحيح أن الشـــمس تلقن جميع الأشياء موعظة على أن تغذي في نفسها الحنين والشوق إلى النور، ولكن الليل هو الذي يرفعها إلى النجوم لتستمتع بهمسات القمر وأشعته الفضية، إنه الحكمُ بن عبدلِ بـــن جبلة بن عمرو بن ثعلبة بن عقال، من بني غاضرة بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد، وكان مترلـــه ومنشأه في الكوفة، وبسبب كونه أعرج أحدب، فقد كان يترك الوقوف كغيره من الشعراء بأبواب الممدوحين، ومما يروى أنه كان يكتب حاجته على عصاه التي يستعين بها بالمشي إلى الذين يأمل في نوالهم، فلا يحبسُ له رسول ولا تؤخر له حاجة.فقال في ذلك يحي بن نوفل:

عصا حكم في الدار أولُ داخلٍ ونحن على الأبواب نقُصى ونُحجَبُ
وكانت عصا لفرعون آيةً وهذي لعمرُ الله أدهى وأعجبُ
تطاعُ فلا تعُصى ويدُرأ سُخطها ويرُغَبُ في المرضاة منها وترُهَبُ

فشاعت هذه الأبيات بالكوفة وضحك الناس منها، فكان ابن عبدل بعد ذلك يقول ليحيى بن نوفل: يا ابن الزانية ! والله ما أردت من عصاي حتى صيرتها ضحكة يتندر بها الناس؟ وبعد ذلك اجتنب أن يكتـــب علـــيها كما كان يفعل، وصار يكاتب الناس بحوائجه في الرقع.ويقال أن الحجاج بن يوسف وعمر ابن هبيرة قد أعفوه من الجهاد و الغزو للزمانة (العاهة الدائمة) التي كانت فيه فقال:

لعمري لقد جردتني فوجدتني كثير العيوب سيء المتجرد
فأعفيتني لما رأيت زمانتي ووقفت مني للقضاء المسدد

عـــرُف الحكـــم بـــن عبدل ببعده عن الخلق الكريمّ، وراح يتكسب بالشعر، ويذُل نفسه بالخضوع والكـــذب، وكـــان مدمـــناً للشراب كثير المجون، وبنفس الوقت كان مرحاً في حياته طيب العشرة والمـــنادمة، وأكثر شعره الهجاء، فقد كان هجاءً خبيث اللسان، وله مدح ورثاء وغزل ومجون وقول جيد في الأدب ومن أقواله في الأدب:

أطلُبُ ما يطلُبُ الكريمُ من الرزق لنفسي وأُجمِلُ الطلبا
إني رأيت الفتى الكريمَ إذا رَغبّته في صنيعةٍ رَغبا
والعبدُ لا يطلب العلاء ولا يعُطيك شيئاً إلا إذا رهَبا
ولم أجد عروةَ الخلائق إلا الدينَ لما اعتبرتُ والحسبا

قد يُرزَقُ الخافضُ المُقيم وما   شدَّ بعنسٍ رحلاً ولا قتَبًا[267]
ويُحرمُ المالَ ذو المطية   والرحل ومن لا يزال مغتربا

يضـــع الحكـــم بن عبدل أسس قواعد طلب الحاجة، ويفرق في طلبها بين الرجل الكريم وكذلك في طلبها من الرجل البخيل، ويقول أن الأمر مختلف جداً، فالكريم عندما تزين له عمل الخير و توضح له، إن من يفعلونه يكسبون الثناء والحمد مدى الحياة، فأنك تدفعه وترغبه للإقدام على ذلك، فهو بخلاف البخيل الذي ينبغي استخدام التهديد والوعيد معه، لأنه عبد للمال ويضع قاعدة طلب الحاجات من العبـــيد بأن لا تكون باحترامهم، بل بنهرهم وضربهم، لأنها اللغة التي يفضلون التعامل بها، ويظهر أن الحكم بن عبدل خبير بهذه الأساليب من خلال تحليله لسلوكيات الناس. ومما يروى أنه ذات مرة تم وضع الحكم بن عبدل مع صديقه أبو علية في الحبس بسبب السكر والمجون، وكان صديقه أبو علية أعمى وابن عبدل مقعد، فخرجا من منزلهما إلى منزل بعض إخوانهما، والحكم يُحملُ وأبو علية يقُاد، فلقيهما صاحب العسس بالكوفة، فأخذهما لحبسهما، فلما استقرا في الحبس، نظر الحكم إلى عصا أبي عُلية موضوعة إلى جانب عصاه، فضحك وأنشأ يقول:

حبَسي وحبسُ أبو علُية   من أعاجيب الزمان
أعمى يقُادُ ومقعدٌ   لا الرجلُ منه ولا اليدان
هذا بلا بصر هناك   وبي يخُبُ الحاملان
يا من رأى ضبَ الفلاة   قرينَ حوتٍ في مكان
طرفي وطرفُ أبي علُية   دهـــــــرنا متوافقـــان
من يفتخر بجواده   فجيـــادنا عُكازتـــان
طرفـــان لا علف لهما   يُشـــرى ولا يتصـــاولان

يسخر الحكم بن عبدل من نفسه وصديقة، متندراً بهذا الحبس، ويذكر أنه من أعاجيب الزمان، فمن يصدق ذلك؟ أليس الأعمى محبوسا بسبب عاهته ؟ والمقعد أيضاً محبوس بعجزه؟ ويسخر بأنهما أشبه بحوت وضب مجتمعان بمساعدة الآخرين، ثم يتابع سخريته من خلال المقارنة بأن طرفيهما عكازان لا يتطلبان علفاً ولا طعاماً. ثم نظر إلى صديقه يحيى أبي علية فقال فيه الحكم أيضاً:

أقول ليحيى ليلة الحبس سادراً   ونومي به نومُ الأسير المُقيدِ
أعني على رعي النجوم ولظها   أُعِنكَ على تحير شعرٍ ومقصد

---

[267] -الخافض:العائش في نعمة وترف. المقيم: الذي لايغادر بلده. العنس: الناقة الصلبة . الرحل والقتب :ما يشد على الناقة ليركب عليه المسافر .ويعني قد يرزق الإنسان رزقا حسناً من غير أن يسافر في طلب الرزق أو يكد .

ففي حالتنا عبرةٌ وتفكرٌ واعجبُ شيءً حبسُ أعمى ومُقعد
كلانا إذا العُكاز فارقَ كفهُ يُنيخ صريعاً أو على الوجه يسجد
فعُكازة تهدي إلى السبل أكمهاً وأخرى مقام الرجل قامت مع اليد

ويتابع سخريته واستغرابه من جدوى هذا الحبس، فعدهما عصوان إذا بعدتا عنهما لا يستطيعان الحراك؟ كان الحكم بن عبدل الأسدي منقطعاً إلى بشر بن مروان وكان بشر يأنس به ويحبه ويستطيبه، فلما ولي البصرة اصطحب الحكم بن عبدل إليها، وعندما مات بشر بن مروان جزع الحكم عليه وقال يرثيه:

أصبحتُ جَمّ بلابلِ الصدرِ متعجباً لتصرفِ الدهر
ما زلتُ أطلب في البلاد فتىً ليكونَ لي ذخراً من الذخر
ويكون يسعدني وأُسعده في كل نائبةٍ من الأمر
حتى إذا ظفرت يداي به جاء القضاءُ بحينهِ يجري
إني لفي همٍ يُباكرني منه وهمٍ طارقٍ يسري
فلأصبرن ، وما رأيت دوىً للهم غيَر عزيمة الصبر
و الله ، ما استعظمتُ فرقته حتى أحاط بفضله خُبري !

يحزن الحكم بن عبدل لما آلت به الأمور بموت صديقه مروان بن بشر، الذي كان يملأ عليه حياته ويكفيه نوائب الدهر ورزاياه، فأصبح الآن وحيداً لا سند ولا معين، وكم الحياة مؤلمة بدون رفيق، ويتمنى لو أنه مات قبل صديقه، ثم يعزي نفسه بالصبر. ويقال:أن من طرائف الأمور التي جرت في حياة الحكم بن عبدل أنه ولي الشرطة بالكوفة رجل أعرج، ثم ولي كذلك الإمارة رجل آخر أعرج، وحدث أن خرج ابن عبدل، وكان أعرج فلقي سائلاً أعرج، وقد تعرض للأمير يسأله فقال الحكم بن عبدل للسائل:

ألق العصا ودع التخامع والتمس عملاً فهذي دولةُ العرجان
لأميرنا وأمير شرطتنا معاً يا قومنا لكليهما رجلان
فإن يكونُ أميرُنا ووزيرنا وأنا فإن الرابعَ الشيطان

فبلغت أبياته ذلك الأمير فبعث إليه بمائتي درهم وسأله أن يكفَّ عنه. وللحكم بن عبدل أبيات في الأدب منها:

وإني لأستغني فما أبطرُ الغنى وأعرض ميسوري لمن يبتغي عرضي
وأعسرُ أحياناً فتشتد عُسرتي فأدركُ ميسورَ الغنى ومعي عرضي

لأكرمَ نفسي أن أرى متخشعاً لذي منة يعُطي القليل على النحض[268]

أكف الأذى عن أسرتي وأذوده على أنني أجزي المقارض بالقرض

وأبذلُ معروفي وتصفو خليقتي إذا كدُرت أخلاق كل فتى محض

وأقضي على نفسي إذا الحق نابي وفي الناس من يقضى عليه ولا يقضي

ولست بذي وجهين في من عرفته ولا البخل فاعلم من سمائي ولا أرضي

ومـــن قصصه أنه كانت لأبن عبدل حاجة إلى عبد الملك بن بشر بن مروان، فجعل يدخل عليه ولا يتهـيأ له الكلام، حتى جاءه رجلٌ فقال: إني رأيت لك رؤيا فقال: هاتها فقصها عليه، فقال الحكم بن عبدل: وأنا قد رأيت أيضاً قال: هات ما رأيت فقال:

أغفَيتُ قبلَ الصبح نومَ مُسهدٍ في ساعة ما كنتُ قبلُ أنامُها

فحبوتني فيما أرى بوليدةٍ مغنوجةٍ حسَنٍ علي قيامها

وببدرةٍ حُمِلت إلي وبغلةٍ شهباءَ ناجيةٍ يصل لجامها

ليت المنابر يا بن بشرٍ أصبحت ترُقى وأنت خطيبها وإمامها

فقال له ابن بشر: إذا رأيت هذا في اليقظة أتعرفه؟ قال: نعم وإنما رأيته قبيل الصبح قال: يا غلام ادع فلانا فجاء بوكيله. فقال هات فلانة فجاءت فقال: أين هذه مما رأيت؟ قال: هي هي، ثم دعا له ببدرة فقـــال: مثل ذلك وأعطاه بغله فركبها وخرج. فلقيه قهرمان عبد الملك قال: أتبيعها قال: نعم قال: بستمائة قال:إياي تندم ! قال: لو أبيت إلا على أقل من ستة لبعتك. وللحكم بن عبدل نادرة شعرية مع صديقة أبو المهاجر، الذي دعاه ذات مرةٍ ليشرب عنده، ثم جاءت جارية تغني فقال: له ابن عبدل في ذلك:

يا أبا المهاجر قد أردت كرامتي فأهنتني وضررتني لو تعلم

عند التي لو مس جلدي جلدها يوماً بقيت مخلداً لا أهرم

أو كنت في أحمى جهنم بقعة فرأيتها بردّت عليّ جهنم

فراح أبو المهاجر يضحك ويقول له: ويحك ! لو كان إليها سبيل لوهبتها لك، ولكن لها مني ولد.

وممـــا يروى عنه أنه خطب امرأة من همدان يقال لها أم رياح فلم تتزوجه فقال لها: والله لا أفضحنكِ ولا أعيرنكِ فقال فيها شعراً:

فلا خير في الفتيان بعد ابن عبدلٍ ولا في الزواني بعد أم رياح

[268] -متخشعاً:ذليلا،مستكينا . النحض: كثرة اللحم(والمال)

فأمري بحمد الله ماضٍ مجرب وأم ريـاح عرضـةٌ لنـكاحي

قـال:فتحاماها الناس فما تزوجت حتى أسنت.بدت شخصية الحكم بن عبدل جشعة سؤولة، مرحة، استطاعت أن تتلاءم مع العاهة، بل وتسخر منها بأسلوب رقيق جذاب، ولم يتشاءم من حالته و راح يضفي جواً من المرح على عاهته، خففت عليه مشاق الحياة وصعوباتها، لقد كان مبتسماً مع العاهة ولم يكـن مـنغلقاً، وهـذا يدل على قوة شخصيته، لأنه تجاوز عاهته بنظرة عقلانية، وهي التكيف مع الحياة.ولننظر بهذه المقولة:

قال هتلر:

(إن القـائد الذي يخسر الأرض، ولا يخسر الشعب، يستطيع أن ينهض وينتصر.أما القائد الذي يكسب الأرض، ويخسر الشعب، فلا يمكن أن ينتصر أبداً).

عمر بن أبي ربيعة

قال نزار قباني:

الحبّ...ليس رواية شرقية بختامها يتزوج الأبطــالُ
لكنــه الإبحارُ دون سفينةٍ وشعورنُا أن الوصولَ محالُ

قولوا حقيقة جميلة في كلمات قليلة، ولا تقولوا أبداً حقيقة قبيحة في كلمات كثيرة، وقولوا للفتاة التي يـــلمع شعرها في الشمس إنها بنت الصباح، ولكن إذا شاهدتم الأعمى، فإياكم أن تقولوا له إنه هو والليل شيء واحد.إنه شاعر قرشي من أهل مكة ومن أسرة ثرية واسعة الشهرة، أسرة من بني مخزوم، وأخـــوه الولـــيد كان سيداً من سادات مكة، وفيه نزل قوله تعالى: (**ذرني ومن خلقت وحيداً وجعلـــت له مالاً ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد**)[269]وأبو عمر عبد الله، كان سيدا من سادات مكة وكانت قريش تسميه (العدل) لأنه كان يكسو الكعبة في الجاهلية سنة، وتكسوها قريش سنة.فعمر يمني الأم وقُرشي الأب حيث يبين ذلك في شعره:

وأنا أمرؤ بقرار مكة مسكني ولها هواي فقد سبت قلبي

ولم يتجاوز الثانية عشرة من عمره حتى توفي أبوه، فكفلته أُمه وقامت على تربيته، بل لقد كانت تقوم عـــلى هذه التربية وأبوه والٍ على الجند باليمن، بل تركه وأُمه في مكة، حيث كان لقيام هذه السيدة عـــلى تربـــية ابنها سواء في حياة أبيه أو بعد مماته، أثر عميق في نفسيته، فقد ربته بنشأة كلها دلال، وتصادف أن عمر كان جميلاً، هذه التربية المترلية المدللة العاطرة توافقت في أثنائها أن مجتمع مكة كان يـــتطور ويتحضـــر تحت تأثير العناصر الأجنبية الكثيرة التي دخلت فيه بسبب الفتوح، فكان يكتظ بجواري الروم والفرس، وكان الغناء أهم فنون اللهو حينئذ، وأخذ يسود المجتمع ضربٌ من الحرية في حـــياة الـــرجل والمـــرأة بســـبب الترف، فشاعت أحاديث الصبابة والغزل، وشاع معها كثير من اللهووالعبـــث.ومما يروى أن عمر بن أبي ربيعة هجا أبو العباس الأعمى(سائب بن فروخ)ذات مرة فتناوله في لونه وشكله قائلاً:

أفتـــني إن كنت ثقفاً شاعراً عـــن فـــتى أعرج مختـــلف
سيءُ السحنة كابٍ لـــونه مثـــل عـــود الخروع البالي القصف

وعـــندما سمـــع أبو العباس بذلك القول، فساءه الأمر ورد يهجو بني مخزوم قبيلة عمر، وكان لسانه سليطاً بألفاظ مبرحة، فأسرعوا مخافة هجائه المقذع فضمنوا له عمر بعد ذلك بعدم الهجاء، لأنه قال:

ألا مـــن يشتري جاراً نـــؤوماً بجـــارٍ لا ينـــامُ ولا ينـــيمُ

---

[269] -سورة المدثر الآية 11

ويلبس بالنهارِ ثياب ناسكٍ وشطر الليلِ شيطان رجيم

لهذا كانت حياة عمر بن أبي ربيعة متسمة بالجرأة والانفلات والانطلاق إلى أبعد الحدود التي يرسمها منطق أو يقبلها ذوق، بل إنه مال إلى الإباحية في أشعاره، وتعد رائية عمر وهي قصيدة من أشهر قصائده تجسدت فيها كل ملامح مدرسته:

أَمن آل نُعمٍ أَنت غادٍ فمبكرُ غداة غدٍ أم رائحٌ فمهجرُ
لحاجةِ نفسٍ لم تقل في جوابها فتبُلغَ عذراً والمقالةُ تعذر
تهيم إلى نُعم فلا الشمل جامعٌ ولا الحبل موصولٌ ولا القلب مقصرُ
ولا قربُ نعم إذ دنت لك نافعٌ ولا نأيها يُسلي ولا أنت تصبرُ
إذا زرت نُعماً لم يزل ذو قرابة لها كلما لاقيته يتنمرُ
عزيز عليه أن أُلم ببيتها يُسرُ لي الشحناء والبغض يظهر
أشارت بمدراها وقالت لأختها : أهذا المغيريُ الذي كان يذكر ؟
أهذا الذي أطريتِ نعتاً فلم أكن وعيشكِ أنساهُ إلى يومَ أقبرُ ؟
فقالت : "نعم لاشك غير لونه سُرى الليل يحي نصه والتهجر
لئن كان إياه لقد حال بعدنا عن العهد والإنسان قد يتغير

ويمضي عمر يصف الرحلة إلى نعم ومغامرته الليلية، وكيفية انتظاره لحركات قومها ودبيبهم في الليل مع رصد كل هنة وأنة تبدر منهم، ومراقبتة لغياب القمر وترقبه، ويجري ذلك في قالب مشوق رائع:

أخا سفرٍ جوابَ أرضٍ تقاذفتْ به فلواتٌ فهو أشعث أغبرُ
قليلاً على ظهر المطية ظلةُ سوى ما نفى عنه الرداءُ المحّبرُ
فبتُّ رقيباً للرفاق على شفا أُحاذر منهم من يطوف وأنظرُ
إليهم متى يستمكنُ النومُ منهمُ ولي مجلسٌ لولا اللبانة أوعرُ
وباتت قلوصي بالعراء ورحلها لطارقِ ليلٍ أو لمن جاءَ مُعورُ
وبتُّ أُناجي النفس : أين خباؤها ؟ وكيف لما آتي من الأمرِ مصدر ؟
فدلَّ عليها القلب ريا عرفتها لها، وهوى النفس الذي كاد يظهرُ
فلما فقدت الصوتَ منهم وأُطفئت مصابيح شبت في العشاء وأنورُ
وغاب قُميرٌ كنت أرجو غُيُوبه ورَوَّحَ رعيانٌ ونومَ سُمّرُ
وخُفِّضَ عني الصوتُ أقبلت مشية الحُباب وشخصي خشية الحي أزور

ثم يلتقي عمر مع حبيبته ويصف مناجاة اللقاء وحلاوته، وصفاً دقيقاً تظهر فيه دراسته العميقة لنفسية

المـــرأة، والتي تترواح دائما بين صد وقرب ورضى وتمنع، مجريا حوارا دقيقا رقيقا، يصور فيه طبيعة المرأة وأسلوب تفكيرها ولغة حديثها. غير ناس نفسه وإظهارها في مظهر المحبوب المعشوق، وهي صفة حرص عليها عمر دائما مع كل صاحباته اللائي قال فيهن غزلا:

فحييّتُ إذ فاجأتها فتولهت وكادت بمكنون التحية تجهرُ

وقالت وعضت بالبنان فضحتني وأنت امرؤُ ميسورُ أمرك أعسرُ !

أريتَك إذ هُنا عليك ألم تخف رقُيباً وحولي من عدوك حُضَّرُ؟

فو الله ما أدري أتعجيل حاجة سرت بك أم قد نام من كنت تحذر ؟

فقلت لها : بل قادني الشوق والهوى إليك وما نفسٌ من الناس تشعرُ ؟

فقالت وقد لانت وأفرخ روعها : كلاكَ بحفظِ ربُك المتكبر

فأنت أبا الخطاب – غير مدافع – علي أميرٌ ما مكثتَ مؤمر

وتـــأتي بعد ذلك مرحلة الشعور باللذة في قصيدته واستمتاعه بلقاء نعم، فوصف نشوة اللقاء وجمال المحــبوبة في ليل تقاصر طوله، وليل المحبين والمحرومين طويل، وليل العاشقين دوماً قصير، وهو معنى لم يدركه شاعر محب:

فبتُ قرير العين أُعطيتُ حاجتي أَقبل فاها في الخلاءِ فاكثرُ

فيا لكَ من ليلٍ تقاصر طولهُ وما كان ليلي قبل ذلك يقصُر !

ويا لكَ من ملهى هناك ومجلسٍ لنا لم يكدره علينا مكدرُ !

فلما تقضى الليلُ إلا أقله وكادت توالي نجمه تتغورُ

أشارت بأن الحي قد حان منهم هبوبٌ ولكن موعدٌ لك عزورُ

فما راعني إلا مناد : ترحلوا وقد لاح معروفٌ من الصبح أشقر

ويمضـــي عمر في قصته الشعرية الرائعة مصوراً ورطته حين تنفس الصبح، وصحا القوم من نومهم، ولكن صاحبته تفكر على طريقتها في إنقاذه، فتستعين بأختين لها بعد أن تصارحهما بالأمر، والأخت كمـــا يقولون أمينة أسرار أختها، إن عمر يصف كل ذلك في أسلوبه الرقيق وانفعالاته الجياشة عامداً إلى خلـــق بعـــض الصور الرائعة، التي فتنت القراء، كأن يجعل أحداث قصته "مجنة" "ثلاث شخوص كاعـــبان ومعصـــر"، ولا ينســـى عمر أن يستمر في خلق حوار طريف مع الفتاة وأختيها، ويتلقى نصـــيحتهما، ويعمل بها درءاً للخطر المحدق بهم جميعاً، في أن يمنح طرفه جهة أخرى في زيارته القادمة حتى يضلل القوم فلا يحسبوا أن ديارهم هواه، وكأنه أشبه بمخرج مسرحي نفسي يبدع أجمل الأفلام النفسية العاطفية ويعرضها بأسلوب مثير ومشوق:

فلما رأت من قد تنبه منهمُ وأيقاظهم قالت : أشر كيف تأمرُ ؟
فقلتُ : أُباديهم فإما أفوهم وإما ينالُ السيفُ ثأراً فيثأر
فقالت : أتحقيقاً لما قال كاشحٌ علينا وتصديقاً لما كان يؤثر ؟
فإن كان ما لا بد منه فغيرهُ من الأمر أدنى للخفاء وأسترُ
أقصُ على أُختي بدء حديثنا وما لي من أن تعلما متأخرُ
لعلهما أن تطلبا لكَ مخرجا وأن ترحبا صدراً بما كنتُ أُحصرُ
فقامت كئيباً ليس في وجهها دمٌ من الحزن تُذري عبرةً تتحدرُ
فقامت إليها حرتان عليهما كساءان من خز : دمقسٌ وأخضرُ
فقالت لأختيها : أعينا على فتىً أتى زائراً والأمر للأمر يقدرُ
فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتا : أقلي عليك اللوم فالخطب أيسرُ
فقالت لها الصغرى:سأُعطيه مطرفي ودرعي وهذا البُرد إن كان يحذر
يقوم فيمشي بيننا متنكراً فلا سرنا يفشو ولا هو يظهر
فلما أجزنا ساحة الحي قلن لي : ألم تتق الأعداء والليل مقمرُ ؟
وقلن : أهذا دأبك الدهر سادراً أما تستحي أم ترعوي أم تفكرُ ؟
إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا لكي يعلموا أن الهوى حيث تنظرُ
فآخر عهدٍ لي بها حين أعرضت ولاح لها خدٌ نقيٌ ومحجرُ
هنيئا لأهل العامرية نشرها . اللذيذ ورياها التي أتذكرُ

لله درك مـــن شــــاعر ماجن!! قد أجاد العرض والوصف الدقيق والإثارة المبدعة للنفس، الذي يحكي خلجات القلب ومشاعره، أنه فنان يغرف فنه، ويغرف من بحر الشوق، ويغامر بروحه، فيجعل قارئ شــعره أو سامعه، كأنه يعيش الواقع بكل تفاصيله ودقائقه، وهذه ميزة تدل على مهارته الفائقة في تولـــيد الأفكار من منطلق معرفته بخبايا النفس الإنسانية، فيبدوا متخصصاً نفسياً في ترجمة انفعالات الإنســـان بأسلوب رقيق ومؤثر، وأما من الناحية الاجتماعية فكان الآباء والأخوة يرون في شعر عمر خطراً على بناقمن وأخواقمن، وكان ابن جريج يقول: ما دخل على الفتيات في بيت أبيهن شيء أضر علـــيهن من شعر عمر بن أبي ربيعة، وكان هشام بن عروة يقول: لا ترووا فتياتكم بشعر عمر بن أبي ربـــيعة، وكانـــت الفتيات الصغيرات يخفين شعر عمر في كراسات ويحجبنه عن ذويهن على زعم ما يروى.ومعنى ذلك أن شعر عمر يمثل عنصرا جديدا لم يألفه المجتمع الإسلامي من قبل، وأنه يمثل التمرد على العادات والقيم التي أرسى قواعدها الإسلام، لقد كان عمر بشعره لا يمثل ظاهرة أدبية وحسب،

وإنمـــا كانت له جرأة على الحرائر لم يألفها المجتمع الإسلامي من قبل، لقد شبب بكثير من النساء من ذوات الحســـب ومـــن بيت الخلافة مثل فاطمة بنت عبد الملك بن مروان والرملة أخت عبد الملك وأختـــها أم محمـــد، ومن كرائم النساء شبب بسكينة بنت الحسين عليه السلام، وسعدى بنت عبد الرحمن بن عوف، ولبابه بنت عبد الله بن عباس، وزينب بنت موسى الجمحية، والثريا بنت عبد الله بن الحارث، ومن حبيباته اللائي أسرف في التغزل بهن هند ونعم، ولعل هاتين الأخيرتين قد فازتا بنصيب الأسد من خطرات قلب عمر.لقد كانت أكثر مغامرات عمر تقع في موسم الحج، حيث يعتمر مبكراً، ثم يـــتربص بكـــرام النساء من الحجيج الوافدات من العراق أو الشام أو من أهل الحجاز، وكثيراً ما كانت بعض الحاجات ينصبن شباكهن حوله ويغرينه بقول الشعر فيهن حسبما جاء في الأخبار الكثيرة الـــتي رويـــت في نطاق مغامرات عمر. ويرى عمر عائشة بنت طلحة ترمي الجمار في موسم الحج، وكانت من جميلات النساء، فيسحره جمالها غير آبه بروعة الموقف الذي تقفه "الحاجة " فيقول:

إني وأول ما كلفتُ بها عجبٌ وهل في الحب من متعجب
نُعت النساءُ فقلت : لستِ بمبصرٍ شبها لها أبداً ولا بمقرب
غراء يعشى الناظرين بياضها حوراءُ في غلواءِ عيش معجب

لا تـــردعه عظمـــة الشـــعيرة ولا قداسة الموقف ولا طهارة الروح، فينتهز الفرصة ليقع في المعاصي، فيشبب بعائشة بنت طلحة وهي تؤدي شعيرة رمي الجمار في الحج، ويصف جمالها الذي استولى على عقلـــه وأفقده صوابه، وأيضاً يرى عمر فاطمة بنت عبد الملك بن مروان، فيأسره سحر ابنة الخليفة المـــتربع على كرسيه الملك في دمشق بحوله وطوله، ولكن ذلك لم يمنع عمر من التشبب بها، وإظهار حسرته لرحيلها، فيقول أبياتا ربما كان عرضة للموت بسببها فيقول:

راع الفؤادَ تفرقُ الأحباب يوم الرحيل فهاج لي أطرابي
فظللت مكتئبا أكفكف عبرةً سحّا تفيض كواشلِ الأسراب
لما تنادوا للرحيل وقربوا بزلَ الجِمال لطيةٍ وذهاب
كاد الأسى يقضي عليك صبابةً والوجه منك لبينِ إلفك كاب

لقد توعده الحجاج بن يوسف بالويل والقتل إن ذكر الأميرة الأموية في شعره، ولكن ذلك لم يمنعه من تكـــرار القول فيها، ولكن بغير أن يذكر اسمها، فقال قصيدة أخرى عند انصرافها من موسم الحج، عمد فيها إلى إظهار عميق الأسى، وصور فاطمة بصورة التي التي تبادلة العشق والغرام فقال:

كدتُ يوم الرحيل أقضي حياتي ليتني متُّ قبل يوم الرحيل

وفيها يقول كلاما مفاده أنها بادلته الحب ولكن الحقيقة ليست ذلك أبداً:

ولقد قالت الحبيبة لولا كثرة الناس جُدتُ بالتقبيل

ليس طعم الكافور والمسك شيئاً ثم عُلا بالراح والزنجبيل

ثم يستطرد عمر حتى ينجو من عقاب أبيها لأن أشعاره وصلت الأهل، وأصروا على هدر دمه، لأنه تشبب بها ونسب كلاماً غير معقول، لكنه أدرك الأخطار، وراح يجد مخرجاً من الموقف فيقول:

ذاك ظني ولم أذق طعم فيها لا وما في الكتاب من تنزيل

ولا يتورع عمر عن التشبيب بالمحصنات من آل البيت وبنات الصحابة، فيعمد إلى التشبيب بالسيدة سكينة بنت الحسين عليه السلام والسيدة لبابة بنت عبد الله بن عباس رضي الله عنه، وذات مرة يرى عمـــر عائشـــة بنت طلحة تطوف بالركن في البيت العتيق، وكانت أجمل نساء زمانها فبهت لما رآها، وعلمت أنها وقعت من قلبه موقعاً عظيماً، فاستنجدت بذكائها أنه لا بد قائل فيها شعراً، فبعثت إليه بجارية تقول له: اتق الله ولا تقل هجراً، فإن هذا مقام لا بد فيه مما رأيت، فقال عمر للجارية: أقرئيها الســـلام وقولي لها: ابن عمك لا يقول إلا خيراً، ثم أنشد هذه الأبيات التي تغزل فيها، بعائشة بطريق غير مباشر حين أجرىمقارنة بينها وبين الظبي:

لعائشة ابنة التيمي عندي حمى في القلب ما يرعى حماها

يذكرني ابنة التيمي ظبي يرود بروضةٍ سهلٍ رُباها

فقلت له وكاد يُراع قلبي فلم أَر قطُّ كاليوم اشتباها

وذاتِ وجدٍ علينا ما تبوح به تحصي الليالي إذا غبنا لها عددا

تبكي علينا إذا ما أهلها غفلوا وتكحل العين من وجدٍ بنا سهدا

حريصةٍ أن تكف الدمع جاهدة فما رقا دمعُ عينيها وما جمدا

ومـــن صـــاحبات عمر اللائى كلف بهن كلفا شديدا وأحبهن حباً جماً، الثريا بنت علي بن عبد الله، وكانت الثريا _شأن العاشقين جميعاً تغار على عمر من غريماتها في حبه، وكان عمر وسيما أنيقاً من أولـــئك الرجال الذين يستهوون النساء بسماهم وأحاديثهم، ولقد حدث أن قال عمر أبياتاً في رملة بنـــت عـــبد الله ابـــن خلف الخز اعي، فرويت لأم نوفل التي روتها بدورها إلى الثريا، فغضبت عليه وهجـــرته، وحـــاول استرضاءها فلم يفلح، فقال هذه القصيدة التي توضح من أبياتها أنه كان شديد التعلق بها:

قال لي صاحبي ليعلم ما بي أَتحب القتول أختَ الرباب ؟

قلت وجدي بها كوجدك بالماء إذا ما منعتَ برد الشراب

من رسولي إلى الثريا فأني ضقت ذرعاً بهجرها والكتاب

أزهقت أم نوفل إذ دعتها مهجتي ما لقاتلي من متاب

حين قالت لها : أجيبي فقالت : من دعاني ؟ قالت : أبو الخطاب

فأجابت عند الدعاء كما لبى رجالٌ يرجون حُسن الثواب

وهي مكنونةٌ تحيرَ منها في أديم الخدين ماء الشباب

دمية عند راهب ذي اجتهاد صوروها في جانب المحرابِ

ثم قالوا : تحبها ؟ قلت : بهرا عدد النجم والحصى والتراب

ولم ينس عمر أن يسخر من زواج الثريا برجل يمني اسمه سهيل، فاستغل عمر مدلول الاسمين، وأجرى مقارنة بين نجوم السماء وبين زوج الحبيبة فقال:

أيها المنكح الثريا سهيلاً عمركَ الله كيف يلتقيان

هي شاميةٌ إذا ما استقلت وسهيلٌ إذا استقلَّ يمان[270]

تلعب التربية دوراً مهماً في صقل شخصية الفرد، ولاسيما الدلال المفرط، وعمر بن أبي ربيعة واحد من تلك الشخصيات التي أثر فيها الدلال، وترك بصماته على سلوكها قولاً وفعلاً، فبدأ عابثاً ماجناً يتجرأ على أعراض الناس والنساء الحرائر، ويصفهن متجاوزاً أحيانا حدود الحشمة والأخلاق، وهذا يتـنافى مـع القـيم، حتى ظهر منحرف السلوك في تطاوله وفي غزله، ولم يرع حرمة أداء الشعائر الدينية.وكثيراً ما تضع الإنسان الحياة أمام امتحان صعب ولنتعظ من هذه الحكمة:

موقف:

(أراد ملـك بروسيا فردريك الكبير أن يكافىء أحد قواده البواسل، فاستدعاه ووضع أمامـه علـى منضـدة وسـاماً وكيساً مملوءاً ذهباً وقال له: خذ واحدة من هاتين الجائزتين.فأخذ القائد كيس المال بدون أدنى تردد.فقال له الملك: يظهر أنك لا تكترث للشرف، لأنك فضلت المال على الوسام.فأجاب القائد الأبي: عليّ دَين يقتضي شرفي أن أفيه قبل كل شيء. أما الوسام فأني أسعى إلى اكتسابه في المعركة القادمة).

---

270 -استقلت : انتسبت .

الفرزدق

قال مازيني:

(لمـــاذا نخاف الموت إذا كنا على حق؟خير للمرء أن يموت في سبيل فكرته، من أن يعمرّ طول الدهر خائناً لوطنه جباناً عن نصرته).

هنالك هوة سحيقة بين اليد اليمنى التي تعطي، واليد اليسرى التي تأخذ، ولا سبيل إلى إزالة هذه الهوة بينهما إلا بحملهما معاً على العطاء والأخذ في آنٍ واحد، ولأنكم لا تستطيعون التغلب على تلك الهوة إلا عندما تعرفون أن ليس هناك ما تأخذون ولا ما تعطون. عرف بالفرز دق لجهامة كانت في وجهه، واسمه همام بن غالب التميمي وولد في البصرةسنة642م وتوفي732م، فأخذه والده منذ صغره برواية الشعر وحفظه ونظمه، فجمع شعره بين المعاني الحضرية والبدوية، فرواه ونبغ فيه، وفي غمرة حماسه له وأعجابـــه به صحبه إلى أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه. قال له: هذا ابني يوشك أن يكون شاعراً مجـــيداً.فقال علي رضي الله عنه:أقرئه القرآن فهو خير له.ويروى عن الفرز دق أخذه بهذه النصيحة الغالية.وقيد نفسه بقيد وحلف ألا يفكه حتى يحفظ القرآن، فما فكه حتى حفظه كله على الرغم من كونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب.إلا أن أخلاق الفرزدق كانت تتصل بالأخلاق الجاهلية وبكل ما ينطوي في هذه الأخلاق من إثم، فقد عُرف بفسقه وشربه للخمر التي حرمها الإسلام، وأيضاً بكل ما ينطوي في هذه الأخلاق من عصبية وغلظة، وهو من هذه الناحية يمثل البدوي التميمي شديد الشكيمة الذي لا يدين بالطاعة للسلطان، ولعله من أجل ذلك ظل طويلا بعيداً عن قصر بني أمية في دمشق، وكأنه كـــان يحس أنه من أسرة لا تقل عن أسرة بني أمية شرفاً وسيادة، ويظهر هذا الإحساس واضحاً حين نزل مرض مؤلم بعمٍ له يسمى (الحُتات) عند معاوية بن أبي سفيان مع وفد من تميم، فقد تصادف أن تـــوفي قـــبل مغادرة الوفد دمشق فأمر معاوية بأخذ ما كان أعطاه من مال، ولم يكد يسمع الفرزدق بذلك حتى نظم قصيدة في معاوية يقول فيها:

فما بالُ ميراث الحُتات أخذته وميراث حربٍ جامدٌ لك ذائبه[271]

فلو كان هذا الأمر في جاهليةٍ علمتَ منِ المرُء القليلُ حلائبه[272]

يلـــوم معاويـــة على تخليه عن الهبات والعطايا التي أهداها لعمه قبل الوفاة عندما كان نازلاً بضيافته، وسخر منه أن هذه فعلة، لم يفعلها أحد من العرب في الجاهلية إلا من قلت مروءته وشهامته، وهكذا نشـــأ الفرزدق سليط اللسان محباً للخصومات كما أنه كان مزواجاً، يهجو من حوله من قومه وغير

---

[271] –حرب: جد معاوية

[272] – الحلائب: الجماعات وأبناء العم في القبيلة .

قومـــه. وعندما ولي العراق الحجاج بن يوسف، وكانت فيه قسوة خاف منه الفرزدق، وخشي بطشه ومضى يمدحه مدائح رائعة من مثل قوله:

إن ابن يوسف محمودٌ خلائقهُ   سيان معروفهُ في الناس والمطرُ

هو الشهابُ الذي يرُمى العدوُ به   والمشرفي الذي تعصى به مضر[273]

يصـــف أخـــلاق الحجاج بكرمه كالمطر المبارك الذي يحيي الزرع والضرع، وبنفس الوقت السيف القاطع لرقاب العصاة، ونوه طويلاً بسيرته وقضائه على الرشوة والثوار وإقامته لموازين العدل؛ حتى إذا توفي رثاه رثاء حاراً يقول فيه:

ومات الذي يرعى على الناس دينهم   ويضربُ بالهندي رأس المخالف

ويـــبكي الفرزدق الحجاج إمام المسلمين وراعي دينهم وحاميهم، ومعاقب المخالفين لشرع الله، ومن مدائحه للحجاج بن يوسف:

أمير المؤمنين وقد بلونا   أمورك كلها رُشداً صوابا

تعلم أنما الحجاج سيفٌ   تُجذّ به الجماجم والرقابا

هو السيفُ الذي نصر ابن أروى   به مروانُ عثمانَ المُصابا

فمن يمنن عليك النصرَ يكذب   سوى الله الذي رفع السحابا

يصف الحجاج بالحكيم في مداراة أمور الدولة وشؤونها، وكم قطع من رقاب لبسط سلطانها؟ وإقامة العدل في إرجائها، فلقد أعاد للأمة عزها وكرامتها، وبه نصر الله الإسلام وأغاث أمة الإسلام بفعالة الصـــارمة، وثأر لعثمان رضي عنه من قتلته، وبه تحقق النصر وساد الأمن، وبفضله استقامت مكارم الأخـــلاق. وبعد ذلك أخذ الفرز دق يمدح عبد الملك بن مروان عندما انتصر على الزبيريين، وهي المناسبة التي لم يتخلف عن القول فيها شاعر من شعرائهم، فيجعل الخلافة لبني أمية حقاً سماوياً حينما يقول:

فالأرض لله ولاها خليفته   وصاحب الله فيها غير مغلوب

بعد الفساد الذي قد كان قام به   كذاب مكة من مكر وتخريب

راموا الخلافة في غدر فأخطأهم   منها صدورٌ وفازوا بالعراقيب

والناس في فتنة عمياء قد تركت   أشرافهم بين مقتولٍ ومحروب

دعوا ليستخلف الرحمن غيرهم   والله يسمع دعوى كل مكروب

[273] -تعصى هنا : تضرب ، من العصا

تراث عثمان كانوا الأولياء به سربالُ ملكٍ عليهم غير مسلوب

يوضح الفرزدق في أبياته ويدافع عن عبد الملك بن مروان حتىجعله خليفة الله الشرعي على الأرض، وهـو صـاحب إمارة المؤمنين أباً عن جد، ولا يحق لأحد التطاول عليه في ذلك، وهاجم ابن الزبير ووصـفه بكذاب مكة، وبأنه متمرد على الإسلام وخائن لأمة الإسلام، ثم إذا كان الهاشميون يذهبون الى أن الخلافة مشروعة لهم بعد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فإن الفرز دق يجعل الأمويين أحق سـبقا بالخلافة عن عثمان رضي الله عنه. ويذهب الفرز دق مذهبا بعيدا في تحمسه للملوك الأمويين عندما يمدح يزيد بن عبد الملك، ويصفه بأنه خليل الله وحبيبه.وانه لو كانت هناك نبوة بعد النبي محمد المصـطفى ﷺ، لكان يزيد ذلك النبي، وهو في ذلك قد غطى على الشيعة في مغالاته حين جعلوا من الائمه أوصياء للأنبياء، ولا يليق الخوض في هذا الموضوع. المهم أن الفرز دق يقول في يزيد بن عبد الملك كلاماً لا يليق:

ولو كان بعد المصطفى من عباده نبي لهم منهم لأمر العزائم

لكنت الذي يختاره الله بعدة لحمل الأمانات الثقال العظائم

ورثتم خليل الله كل خزانة وكل كتاب بالنبوة قائم

وحبلك حبل الله من يعتصم به إذا ناله يأخذ به حبل سالم

تـأخذ الدهشـة بمجامع القلب حينما يُقرأ هذا الشعر الموغل في الحزبية والتطرف.والذي ذهب به الفـرزدق بنفاقه إلى أغوار بعيدة، بحيث جعل من الأمور دعوة دينيه خالصة. اكثر منها صراعاً على كرسي الحكم، أو نزاعاً بين بطنين من بطون قريش هما بنو أمية وبنو هاشم، والأعجب من ذلك أن صاحب هذا الشعر هو الفرز دق، الذي عاش في إسلامه عيشة أكثرها جاهلية خالصة، كأن الإسلام لم يهذب من نفسه، ولم ينزع عنه الثوب الجاهلي، الذي ظل مؤتزراً به، فهو متكبر كثير الفخر، متهور لا يعرف التريث ولا يبالي بشيء، ذهب في حياته حياة مذهب الجاهليين في إجارة الناس، وعقر الخيل على قبور أصحابه، فقد عقر فرسه على قبر بشر بن مروان أخي عبد الملك بن مروان، علما أن هذه الأمـور قـد أبطـلها الإسلام، ويأتي بشعره ليجعل ممدوحه نبياً بعد النبي الكريم صلوات الله عليه وسـلامه، ما هذا النفاق؟!!. أنه النفاق والكذب بحد ذاته، أنها جاهلية الفرزدق العمياء، ويروى عن الفرزدق أنه ذات مرة خرج في قافلة ومعه شاة مذبوحة قد أعجله المسير عن أكلها، وحدث أن شم ذئب رائحة الدم فلحق بالقافلة، والفرزدق في نوبته من الحراسة.فخاف الفرزدق منه، فقطع يد الشاة وألقى بها بعيداً عن القافلة، رجع الذئب وأكل اليد ثم تتبع القافلة من جديد ،وما زال الفرزدق يقطع مـن الشاة عضواً عضواً ويرميها للذئب حتى شبع الذئب من لحم الشاة، ورجع عن اللحاق بالقافلة

ولكنه يروي في قصيدة التالية، أنه هو الذي دعا الذئب إلى القرى (الضيافة)، ولم يقتله كرما منه:

وأطلسَ عسالٍ وما كان صاحباً دعوتُ بناري موهناً فأتاني

فلما دنا قلت: " ادن دونك إنني وإياك في زادي لمشتركان

فبتّ أُسوي الزاد بيني وبينه على ضوء نارٍ مرةً ودُخان

فقلت له لما تكشرَ ضاحكاً وقائمُ سيفي من يدي بمكان

" تعشّ فإن واتقتني لا تخونني نكُن مثلَ من يا ذئبُ يصطحبان

وأنت امرؤٌ يا ذئبُ والغدرُ كنتما أُخيينِ كانا أُرضعا بلبان

ولو غيرنا نبهتَ تلتمس القِرى أتاك بسهمٍ أو شباة سنان[274]

وصف عذب وجميل للذئب قدمه الفرزدق، وضيافة لذيذة من سيد يقري ضيوفه لحماً مشوياً بمنتهى الجـود، وجميل جداً أن يكون ضيف الفرزدق ذئباً ويحق له بفخر أن يكون أحد أعضاء جمعية الرفق بالحـيوان، وراح يـبين مشاركته لضيفه الطعام، ومن جهة أخرى يخشى عواقب الغدر التي هي من صـفات الذئـب، لكنه يحذره من غدره، وقد يكلفه ذلك حياته، وسرعان ما نجده يثوب إلى نفسه وعصـبيته التميمـية ضد قيس وزعيمها الحجاج ممدوحه السابق، وخاصة حين رأى سليمان بن عبد الملـك يتولى الخلافة، ثم تتغير الأحوال ويصبح من شعراء بني أمية، الذين يدعون لهم ويدافعون عن خلافتهم مضفين عليهم هالة قدسية من التقوى والبر، تحفها المبالغة المسرفة، من مثل قوله في سليمان بن عبد الملك:

أنت الذي نعت الكتابُ لنا في ناطق التوراة والزبرِ

كم كان من قس يخبرنا بخلافة المهدي أو حبرِ

جعل الإله لنا خلافته برءَ القروح وعصمةَ الجبرِ

نفـاق لا يقره عاقل !! بل الكفر والشرك في ذاته، فيجعل من سليمان بن عبد الملك نبي هذه الأمه الذي نبأت عنه الكتب السماوية وعلمائها وأحبارها، وجعله الخالق رحمة وشفاء للأمة الإسلامية من بلائهـا ومحـنتها فهو مصوب مسيرها نحو الإيمان والتقوى وبه صح الدين واستقام أمر اعوجاجه، يا للغرابة من هذا التطرف؟. ويا للأسف فحياة الفرز دق كلها مليئة بالمتناقضات، فهو يحفظ القرآن، ولكنه في نفس الوقت نزق طائش، ضعيف الدين، ثم نراه في الوقت نفسه محباً لآل البيت رضوان الله علـيهم متحمسـاً لهم، مما أحفظ بني أمية بعض الوقت عليه، وقد هرب من عاملهم بالعراق وترك

---

[274] -الشباة : نصل الرمح_ لو طلبت ضيافة غيرنا في الليل لقتلك.

البصـــرة والكوفة، واحتمى بسعيد بن العاص في المدينة، ونوادره كثيرة ومغامراته أكثر، وبالرغم من هجائـــه جريـــراً، فإنه لم يكن يخشاه، وإنما خشي شعراء ربما كانوا دونه منزلة مثل مسكين الدارمي وعمـــران بـــن حطـــان.وظهر من خلال علاقة الفرز دق وجرير ،أن رقة جرير قد سلبت وسرقت عواطـــف الجماهير من الفرز دق ،ولا يستثنى من ذلك أقرب الناس إليه وهي زوجته " النوار" التي كانـــت تحكم لجرير على زوجها ومتعصبة له ، وتشاء المقادير أن تموت "النوار"، فلا تجد النادبات شعراً لندبها أرق من شعر جرير ،فيكون الأمر حاوياً لمفارقة كبرى :زوجة الفرز دق الشاعر الفحل، يندبها النادبات بشعر خصم زوجها. وكان الفرزدق يتحامى الالتحام بمسكين؛ لأنه كان يشترك معه بالنســـب ويرتبط بأشراف عشيرته، ويقول: نجوت من مهاجاة مسكين؛ لأنه لو هجاني لاضطرني أن أهدم شطر حسبي ونسبي، ومع هذا فشعر الفرزدق عنوان للجزالة وقرين للفحولة، ومن فخره بقومه قوله:

إن الذي سَمَكَ السماءَ بنى لنا	بيتاً دعائمُه أعـــزّ وأطـــول[275]
بيتاً بناه لنا المليكُ وما بنى	حكمُ السماء فانه لا يُنقل[276]
بيـــتاً زرارة محتـــب بفنـــائـــه	ومجـــاشـــع وأبو الفوارس نهشل[277]
لا يحتـــبي بفنـــاء بيـــتك مثلهم	أبـــداً إذا عُـــد الفعال الأفضل
ضربت عليك العنكبوت بنســـجها	وقضى عليـــك به الكتاب المنزل
وإذا بذخت فرايتي يمشـــي بـــها	ســـفيان أو عُدس الفعال وجندل[278]
الأكثرون إذا يُعـــد حصـــاهُمُ	والأكرمـــونَ إذا يُعـــد الأول[279]
إن الزحـــام لغيـــركم فترقبـــوا	ورد العشـــي إليه يخلـــو المنهل[280]
حُللُ الملوكِ لباسُنا في أهلنا	والسابغاتِ إلى الوغى نتسربل
أحلامُنا تَزِنُ الجبالَ رزانةً	وتخالُنا جِنّاً إذا ما نجهل[281]
فادفـــع بكفك إن أردت بنـــاءنا	ثهلان ذا الهضبات هل يتحلحل[282]

[275] –سمك: رفع . دعائمه: ج دعامة ،وهي العمود الذي يقوم عليه البناء. أعز : أقوى

[276] –المليك : الله سبحانه وتعالى.حكم السماء:المولى جلت قدرته.لا ينقل : لا يتزحزح ولا يزول.

[277] –زرارة، مجاشع،نهشل:أولاد دارم جد عشيرة الفرزدق.محتب:جالس وقد جمع ساقيه برجليه.

[278] –بذخت :فخرت في كبر.سفيان،عدس،جندل:من بني دارم قوم الفرزدق.

[279] –حصاهم:عددهم.

[280] –الزحام:التزاحم على الماء.المنهل: مورد الماء.

[281] –نجهل:نغضب.

يا ابن المراغة أين خالك ؟ إنني   خالي حُبيشٌ ذو الفعال الأفضل
إنا لنضربُ رأسَ كلِ قبيلة   وأبوك خلفَ أتانه يتقمل
ليس الكرامُ بناحليكَ أباهمُ   حتى تردّ إلى عَطية تعُتل

أعجبت الأدباء واللغويون بهذه القصيدة، حتى إن يونس بن حبيب النحوي يقول: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب. ولعل في هذه الأبيات السابقة التي قالها ما يناقض قول من زعموا أنه كان شيعياً مائلا إلى بني هاشم، وقد أنكر أبو الفرج الأصفهاني نسبة القصيدة في علي بن الحسين عليه السلام، والتي تخالف نسجه كما تخالف نفسيته، إذ كان لا يتعصب لشيء سوى قبيلته وآبائه. وما يروى أثناء حج هشام في أيام أبيه وطوافه بالبيت، والذي حاول جهدة أن يصل إلى الحجر الأسود ويستلمه، فلم يقدر على ذلك لكثرة الزحام، فنصب له كرسي جلس عليه، ينظر إلى الناس ومعه جماعة من أهل الشام، وبينما هو كذلك، إذ أقبل زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهما، وكان من أجمل الناس وجهاً، فطاف بالبيت حتى إذا أتى إلى الحجر، فسحت له الناس المزدحمة مجال استلامه، فقال رجل من أهل الشام لهشام: من هذا الذي هابه الناس هذه الهيبة؟!! فقال هشام: لا أعرفه؛ مخافة أن يرغب أهل الشام فيه إن هو ذكر اسمه، وكان الفرزدق حاضراً فقال: أنا أعرفه. فقال الشامي : ومن هو يا أبا فراس؟ فاندفع الفرزدق ينشد ميميته المشهورة وهذه هي :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته   والبيت يعرفه والحل والحرم[283]
هذا ابن خير عباد الله كلهم   هذا التقي النقي الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله   بجده أنبياء الله قد ختموا
وليس قولك : من هذا ؟ بضائره   العرب تعرف من أنكرت والعجم
كلتا يديه غِياث عم نفعهما   يستوكفان ولا يعروهما عدم[284]
سهل الخليقة لا تخشى بوادره   يزينه اثنان : حسن الخلق والشيم[285]
حمال أثقال أقوام إذا افتدحوا   حلو الشمائل ، تحلو عنده نعم[286]

يرفع الفرزدق صوته قائلاً: أن من تسأل عنه هو الذي تعرفه الأراضي المقدسة بعامة، والكعبة وما

---

[282] -ثهلان :جبل عظيم جداً يقع بنجد

[283] -البطحاء:أرض منبسطة ومسيل واسع في وسط مكة / البيت: الكعبة / الحل:ما جاوز الحرم من الأرض /الحرم: ما لا يحل انتهاكه.

[284] -الغياث: المطر الخاص بالخير / يستوكفان : يستمطران الماء / لا يعروهما: يلم بهما / العدم: فقدان الشيء والفقر.

[285] -الخليقة: الطبيعة /البادرة : الحدة عند الغضب.

[286] -افتدحوا : أثقلوا بالمصائب /الشمائل : الطباع والخصال الحسنة

يلـيها من الحرم والحل بخاصة، هذا التقي النقي الطاهر العلم ابن فاطمة الزهراء رضي الله عنها بنت النبي محمد ﷺ، جده خاتم الأنبياء والرسل، ولا ضير إن أنكرته لأن العرب كلها تعرفه ، أنه رجل فـوق الرجال ينال الكرم من بين يديه ومن خلفه، فهو راجح العقل واسع الصدر، يتحلى بكوكبة من الأخلاق الحميدة والصفات الجيدة لا تجدها عند غيره .

ما قال : لا قط إلا في تشهده ... لولا التشهد كانت لاءه نعم

عم البرية بالإحسان فانقشعت ... عنها الغياهب والإملاق والعدم[287]

إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرم

يغضي حياء ويغضى من مهابته ... فما يكلم إلا حين يبتسم[288]

بكفه خيزرانٌ ريحه عبقٌ ... من كف أروع في عرينه شمم[289]

يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يتسلم[290]

الله شرفه قدماً وعظمه ... جرى بذاك له في لوحه القلم[291]

أي الخلائق ليست في رقابهم ... لأولية هذا أو له نعم

من يشكر الله أولية ذا ... فالذين من بيت هذا ناله الأمم

ينمى إلى ذروة الدين التي قصرت ... عنها الأكف وعن إدراكها القدم

من جده دان فضل الأنبياء له ... وفضل أمته دانت له الأمم

مشتقة من رسول الله نبعته ... طابت مغارسه والخيم والشيم[292]

ينشق ثوب الدجى عن نور غرته ... كالشمس تنجاب عن إشراقها الظلم[293]

هذا الذي يحمل الأعباء الفادحة عن قومه وعن غير قومه دون ضجر أو ملل، تلذ له كلمة نعم، فلولا التشهد ما قال قط كلمة لا، وقد شمل بجوده كل الناس، فلا تجد فيهم لذلك فقيرا أو معدماً، وقريش كلها تعترف له بذلك، كلما رأته يجهر قائلها به أو يقوّله لنفسه. هذا زين العابدين رضي الله عنه رجل

---

287 -انقشعت: انكشفت / الغياهب : الظلمات /الإملاق : الفقر

288 -يغضي : يخفض بصره من الحياء وهو مع ذلك عظيم الهيبة لا يقدم الناس على محادثته إلا إذا ابتسم لهم تنشيطا وإيناساً .

289 -العبق : الذي تفوح منه رائحة الطيب /أروع :رائع الحسن أو الشجاعة /العرنين: الأنف / الشمم: ارتفاع قصبة الأنف مع حسنها واستوائها .

290 -الراحة : الكف / الركن : الجانب /الحطيم: الجدار الذي بين الركن الأقوى للكعبة وبابها .يستلم :يلمس الحجر الأسود ويعني إن حجر الكعبة نفسه يعرف كف زين العابدين فيكاد تحبسه عنده شغفا به

291 - اللوح : الكتاب الذي يسطره القضاء والقدر .

292 -نبعته: أصله الكريم /الخيم :الطبيعة والسجية .

293 -تنجاب : تنكشف.

خجول حي، ومع ذلك، وربما لذلك تهابه الناس، فلا يكلمه أحد منهم إلا شجعة على ذلك بابتسامة عذبة حانية. إنه زين العابدين رضي الله عنه في الكعبة المشرفة، إذا زارها تكاد تستبقيه عندها متبركة بـــه، مقدرة له. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وقد جرى به قلمه له في اللوح المحفوظ. هذا من أهل بيـــت رسول الله، إنهم الخيرون الضاربون في الخيرية إلى ما لا نهاية، لا يوجد مخلوق إلا ولآل البيت عليه فضل، وهم عنده يد. أما زين العابدين فينتمي إلى ذروة الدين التي لا تطولها يد ولا يسعى لها على قدم. كيف لا وجده إنما هو الرسول محمد ﷺ سيد الأنبياء، كما أن أمته سيدة الأمم. ومن يكن أصله محمد، فلا بد أن يكون طيب الفرع، زاكي الزهر والثمر. هو نور العقول والقلوب، كما أن الشمس هي نور الكون والوجود:

من معشر حبهم دين وبغضهم	كفر وقربهم منجى ومعتصم[294]
مقدم بعد ذكر الله ذكرهم	في كل بدء ومختوم به الكلم
إن عُد أهل التقى كانوا أئمتهم	أو قيل: من خير أهل الأرض ؟قي :هم
لا يستطيع جواد بُعد غايتهم	ولا يدانيهم قوم وإن كرُمُوا[295]
هم الغيوث إذا ما أزمة أزمت	والأسد أسد الشرى والبأس محتدم
لا ينقص العسر بسطا من أكفهمُ	سيان ذلك : إن أثروا وإن عدموا
يستدفع الشر والبلوى بحبهم	ويسترب به الإحسان والنعم[296]

إن زين العابدين الذي أنكرته من معشر حبهم دين وإيمان بالله عز وجل، وبغضهم كفر وشرك بالله، والقـــرب منهم رحمه ونجاة وملجأ، ولا عجب، فبهم بعد الله يبدأ الكلام، وبهم بعد الله يختم الكلام. إذا رتب الأتقياء، جاء آل البيت أولا، وإذا سئل عن أفضل الناس، كانوا، وهذا طبيعي، فلا جـــود يعدل جودهم، ولا منافس لهم. لأن كرمهم أصيل تجده محافظاً على مستواه، فلا ينقص بالعسر ولا يـــزيد باليسر، ويختم الفرزد ق مقرراً أن محبتهم كرقوة خير تدفع الشر، وتجلب الخير بل تستزيد مـــنه. وتمر الأيام بالفرزدق حيث راح يؤكد أنه أناب إلى ربه في سنيه الأخيرة فقد أخذ يندم على ما اقـــترف مـــن آثـــام ومعاصي، ويكفي تصفح ديوان الفرزدق وتاريخ حياته لمعرفة أنه اشتهر بفسقه واســـتهتاره رغم ذلك أنه لم ينفصل من الإسلام وأنه تأثر به، ولم يكن الإسلام بعيداً عن نفسه، ولعل من الطريف أن نجده، يهجو إبليس في قصيدة شعرية حيث يقول:

---

294 -المعتصم : الملجأ .

295 - يعني أن كرمهم عظيم لا يساويه بل لا يدانيه كرم .

296 -يسترب: يستزاد

ألم ترني عاهدت ربي وإنني لبين رتاجٍ قائما ومقام
علي قسمٍ لا أشم الدهر مسلماً ولا خارجاً من في سوءُ كلام
أطعتك يا إبليس سبعين حجةً فلما انتهى شيبي وتم تمامي
فررت إلى ربي وأيقنت أنني ملاقٍ لأيام المنون حمامي
ألا طالما قد بت يوضع ناقتي أبو الجن إبليس بغير خطام
يظل يمنيني على الرحل فاركا يكون ورائي مرة وأمامي
يبشرني أن لن أموت وأنه سيخلدني في جنةٍ وسلام
فقلت له هلا أُخيك أخرجت يمينك من خضر البحور طوام
رميت به في اليم لما رأيته كفرقة طودي يذبلٍ وشمام
فلما تلاقى فوقه الموج طاميا نكصت ولم تحتل له بمرام
ألم تأت أهل الحجر والحجر أهله بأنعم عيش في بيوت رخام[297]
فقلت :اعقروا هذي اللقوح فأنها لكم أو تنُيخوها لقوحُ غرام
فلما أناخوها تبرأت منهم وكنت نكوصاً عند كل زمام
وآدم قد أخرجته وهو ساكن وزوجته من خير دار مقام
وكم من قرونٍ قد أطاعوك أصبحوا أحاديث كانوا في ظلال غمام
وما أنت يا إبليس بالمرء أبتغي رضاه ولا يقتـادني بزمام
سأجزيك من سوآت ما كنت سقتني إليه جروحاً فيـك ذات كلام

يعاهد ربه على الاستقامة وإن " لا يخرج من فمه سوء كلام، ويخاطب إبليس ويظهر له كيف أطاعه سـبعين حجة، وكيف فر إلى ربه من شراكه الخبيثة في نهاية حياته، ثم يبين تجارب إبليس ورفقته له، وكيف كان راكباً معه على الرحل تارة وراءه، وتارةً أمامه، يبشره بأنه لن يموت، و سيخلده في جنة وسـلام، ثم يأخذ الشاعر بحجج إبليس، فيبين له كذبه، وكيف لم ينجِ فرعون مع جيشه من البحر، وكـيف جر الويل على آدم وحواء، ثم يأخذ بتهديد إبليس تهديداً شديداً ناقماً متشفياً، وفي كلام الشاعر لهجة التائب الذي يريد الرجوع إلى الرصانة وفي كلامه طلاوة وحلاوة وطرافة، وفي حججه سذاجة وقوة، ولكن توبة الفرزدق هذه لم تدم طويلاً لما كان عليه من فحش وفجور. بدت شخصية الفرزدق متناقضة متطرفة الأهواء غير سوية السلوك، فتارة يجعل الخلافة للأمويين حق وعطاء من الله

[297] -الحجر: ديار ثمود

لهــم دون غيرهــم وتارة يشتمهم، وأخرى يعقر النوق على قبور أصحابه وهذه عادة جاهلية أبطلها الإسلام وتارة يرفع عقيرته معرفاً بهشام بن عبد الملك أن من أنكرته هو زين العابدين علي بن الحسين رضــي الله عنهما ويلومه تجاهله له، بدت شخصيته متناقضة وقد طرد من مكة لمعاقرته المعاصي رغم فحولته في الشعر التي لها مقامها الذي لا يخفى على أحد.

قال أرسطو:

(ليســت الشجاعة أن تقول كل ما تعتقد، بل الشجاعة أن تعتقد بكلّ ما تقوله، وإياك والسآمة في طلب الأمور، فتقذفك الرجال خلف أعقابها).

قيس بن ذريح

نصيحة:

(لما ولي عُمر بن العزيز رضي الله عنه الخلافة، كتب إلى الحسن البصري:اني قد ابتليت بهذا الأمر، فانظر لي أعواناً يعينونني عليه. فأجابه الحسن: أما أبناء الدنيا فلا تريدهم، وأما أبناء الآخرة فلا يريدونك، فاستعن بالله).

التعاسة في أن أمد يدي فارغة للناس فلا يضع فيها أحد شيئاً، أما القنوط واليأس ففي أن أمدها ملآنة فــلا يأخذ الناس منها شيئاً.هكذا كان قيس أخا للحسين بن علي بن أبي طالب من الرضاعة، لأن أم قــيس أرضعت الحسين رضي الله عنه، ونشأ قيس بن ذريح في المدينة، وفيها رأى لُبنى بنت الحُباب الكعبية، فأحبها وأحبته، وأراد الزواج فمنعه أبوه عن ذلك. كان قيس وحيداً لأبويه، وكان أبوه غنياً جــداً، فأراد أن يتزوج ابنة أحدى بنات عمه حتى لا تذهب الثروة إلى أسرة غريبة، فاستشفع قيس أخــاه من الرضاعة الحسين بن علي، فمشى الحسين رضي الله عنه في أمره وطلب، بما له من الوجاهة الدينية والاجتماعية من والد قيس ووالد لبنى أن يجمعا بين الحبيبين بالزواج فلم يستطيعا مخالفته. عاش قــيس ولــبنى في سعادة تامة ولكن لم يرزقا أولادا، فأكره ذريح ابنه قيساً على طلاق لبنى مما افقده عقله، وصار يهيم على وجهه غير أنه كان يلم ببيتها حيناً بعد حين، فشكا الحباب والد لبنة ذلك إلى معاوية بن أبي سفيان، فكتب معاوية إلى مروان بن الحكم والي المدينة بأن يهدد قيساً ويردعه عن زيارة لبنى، ثم كتب إلى الحباب بأن يزوج لبنى بخالد بن حلزة الغطفاني كي يضع حداً لهذا الأمر.وازداد بعد ذلــك شقاء العاشقين فماتت لبنى ثم مات قيس بعدها أو بعد ذلك بقليل وقد دفن إلى جانبها. عرف قيس بن ذُريح من عشاق العرب المشهورين، وجاء معظم شعره في لبنى ولاسيما عندما تزوجت خالد بن حلزة وسارت معه إلى حيه:

إلى الله أشكو فقَد لبنى كما شكا ... إلى الله فقد الوالدينِ يتيمُ

يتيمٌ جفاه الأقربون فجسمه ... نحيلٌ وعهدُ الوالدين قديمُ

بكت دارُهُم من نأيهم فتهللت ... دُموعي فأي الجازعين ألومُ

أمستعبراً يبكي من الشوقِ والهوى ... أمَ آخرَ يبكي شجوهُ ويهيمُ

يــرفع قــيس شكواه وبلواه لرب العالمين، وهل بمقدور الابن البار عقوق الوالدين ؟ طبعاً لا يقبلون العقــوق، ولكن على الأهل حقوق تجاه الأبناء فهل حفظوها ! أم أضاعوها !(يقول أحد الحكماء لا تقسروا أولادكم على أخلاقكم، إنهم خلقوا لزمان غير زمانكم) فهذه الحكمة يجب على الأهل الأخذ بها، إن ذلك لا يمر سدى عند مليك مقتدر، فإليه ترجع المصائر ويمضي قيس بوصف حبه لزوجته:

تــهيفني من حُب لبــنى علائــقٌ ... وأصنــافُ حُــب هو لُــهُنَّ عظيم

ومن يتعلق حب لبنى فؤاده   يمت أو يعش ما عاش وهو كليمُ
فاني وان أجمعتُ عنك تجلدا   علــى العهــد فيما بيننا لمقيمُ
وإن زمــانًا شتتَ الشملَ بيننــا   وبينكُــم فيــه العــدا لَمشُــومُ
أفــي الحق هذا إن قلبكِ فارغٌ   صحيــحٌ وقلبــي فــي هــواكِ سقيمُ

تضنيهُ عواطف الحب، فيبكي بكاء اليتيم الذي تركه القوم وحيداً يجترع كأس الشقاء والمرارة لا سند ولا معــين، ويــبين شدة تعلقه بلبنى ما دام على قيد الحياة، ويشكو إلى الله هؤلاء الذين شتتوا شمله وفــرقوا بينه وبين زوجته، وتركوه سقيماً عليلاً يتلوى من ألم الفراق وجراح القلب التي لا تشفى، يصور قيس انفعالاته بصورة رائعة وكأن القارىء يعيش معه مشهد لوحة فنية فيها البؤس والشقاء، إنه إبنداع النفس عندما تطلق العنان لمشاعرها وزاد الأمر سوءاً بعد أن فارق لبنى ولاسيما عندما هدده معلوية بهدر دمه إن هو تعرض لها:

فإن يحجبوها أو يحل دون وصلها   مقالةُ واشٍ أو وعــي أمــيرِ
فلن يمنعوا عيني عن دائم البكا   ولن يذْهبوا ما قد أجن ضميري
إلى الله أشكو ما ألاقي من الهوى   ومن حُــرقٍ تعتادني وزفــير
ومن حُرق للحب في باطن الحشى   وليلٍ طويل الحُزن غير قصير

ما أقسى الحياة وما أمرها؟ عندما يكون الطمع سبب الطلاق والخوف من انتقال الأموال إلى الغير؟ وكــم مــن زواج ضــاع بسبب تلك التفاهات والسخافات التي لا تحترم عواطف الإنسان الخيرة، وينسون أن ابغض الحلال عند الله الطلاق، ولكن لا حياة لمن ينادي، ستبقى العادات والتقاليد تفرض ثقلها على عقول البشر، على الرغم من معرفتهم وعدم قناعتهم بصحة ذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، إنه الولاء الأعمى و التعصب الأعمى للعادات والتقاليد العدوة للإنسان وحياته وسعادته:

سابكي على نفسي بعينٍ غزيرةٍ   بكاءَ حزين في الوثاق أسير
وكنا جميعاً قبل أن يظهر الهوى   بأنعمِ حالي غبطة وسرور
فما برح الواشون حتى بدت لهم   بطونُ الهوى مقلوبةً لظهور
لقد كنت حسبَ النفس لو دام   وصلنا ولكنها الدنيا متاع غرور

لا يســتطيع أن يجد هذا العاشق المتيم سبباً مقنعاً لأن يكف عن البكاء على زوجته وحبيبته، بعد أن حجــبوها عــنه، ويرفع شكواه إلى خالق الخلق مدبر الأمر شاكياً إليه طول الليل على المحب الحزين والمأســور بوفائه للبنى، ويبين دور الوشاة والحاسدين وأفعالهم الخسيسة في إلحاق الألم به، يرسم قيس حــزنه بعــبارات سهلة تجعل القارىء يدرك مأساته و بلا شك فهو فنان نفسي يجيد تصوير المشاعر

النفسية أدق تصوير، ويزداد الأمر أكثر تعقيداً عندما اضطر قيس بن ذريح إلى تطليق امرأته مكرهاً بطلب من والده بحجة عدم الإنجاب قال:

هبيني امرأً إن تحسني فهو شاكر لذاك وإن لم تحسني فهو صافح
وإن يكُ أقوام أساءوا فاهجروا فإن الذي بيني وبينك صالح
ومهما يكن فالقلب يا لبنَ ناشرٌ عليكِ الهوى والجيب ما عشتُ ناصح
وانكِ من لبنى العشيةَ رائحٌ مريضُ الذي تطوى عليه الجوانح

يصعب الكلام عندما تجرف الأطماع الدنيئة سعادة الآخرين بدون رحمة، ما أقسى الإنسان عندما يتجاوز النواميس ويطلق العنان لأحقاده وشروره، لقد تحول الزوج إلى ذهاني (مجنون) ولم لا إنه يتحول بسبب الضغط والإكراه إلى إنسان آخر منحرف، يحاكي نفسه ويسرح بالبراري تائهاً. شخصية قيس تحولت إلى شخصية منحرفة بسبب طمع الأهل والقبول برغبتهم تحت ذرائع واهية. وهل بمقدور الأولاد الصالحين الخروج عن رأي الأهل؟، فمعاذ الله، فهؤلاء رائدهم الامتثال والطاعة إنهم يحفظون الأمانة ويتجنبون عقوق الوالدين، ولكن أحيانا أخطاء الوالدين في بعض الأحيان وللأسف بسبب الجهل يلحقون الضرر في فلذات أكبادهم، ألا أيها الآباء والأمهات اتقوا الله في أولادكم، فأنكم مسئولون عنهم عند من لا تضيع عنده الودائع.

ورحم الله القائل:

(ارحموا النفوس فأنها تصدأ كما يصدأ الحديد، ولا ضير إذا كانت عقول كل قوم على قدر زمانهم).

قيس بن الملوح بن مزاحم العامري

يروى أنه:

(لمـــا تم للاسكندر المقدوني فتح بعض البلدان، أمر بالقبض على لص من لصوص الـــبحر، ولما جيء به ومثل بين يديه سأله: بأي حق تسرق مال الغير؟ فأجابه: أنا أســـرقه بسفينة صغيرة فيدعوني لصاً، أما أنت فتسرقه بأسطول كبير وتسمى بطلاً !). يقولون لي: عصفور في اليد ولا عشرة على الشجرة، أما أنا فأقول لهم: إن عصفوراً واحداً على الشـــجر خير من عشرة في اليد، إنه أشهر الشعراء العشاق على الإطلاق، وإن كان بعض المؤرخين أنكر وجوده، أحب ابنة عمه ليلى بنت سعد وهام بها صبابة، وأنشد فيها أجمل شعر الحب والجمال، فاقـــترن اسمه بها، فبدلا من أن يقال قيس بن الملوح قيل " قيس ليلى "، فلما استبد به الحب، واشتد عليه الوجد حين رفض أبوها تزويجه إياها، أصيب بما يشبه اللوثة، فلقب بالمجنون وصار يقال " مجنون ليلى ":

تداويتُ من ليلى بليلى من الهوى ... كما يتداوى شاربُ الخمرِ بالخمرِ
ألا زعمت ليلى بأن لا أحبها ... بلى والليالي العشر والشفع والوتر
إذا ذكرت يرتاح قلبي لذكراها ... كما انتفضَ العصفور من بلل القطرِ

وصف دقيق لمشاعر الشوق ومكابدة قاسية منه، فيبين أن حالته غدت أشبه بعاقر الخمر لا يصحو إلا بطلـــبها ولا يشفى إلا بها، وهذا التصوير الدقيق للمشاعر والانفعالات يبين سيطرة الأهواء وخطرها عـــلى ســـاحة الشعور.هام قيس بحب ليلى، وأخذ يجوب الفيافي والقفار بل صار يجتاز حدود البلاد والأقطـــار، فـــيوم بنجد وآخر بالحجاز، ثم يعبر الحدود إلى بلاد الشام هائماً، ينشد الشعر الجميل، ويشكو آلام الجوى وتباريح الغرام، ويؤرخ قيس تعلقه بليلى حين يقول:

تعلقت ليلى وهي ذات ذؤابة ... ولم يبدُ للأتراب من ثديها حجمُ
صغيرين نرعى البهم يا ليت أننا ... إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر ألبهم

لم يكـــن قيس مجنونا كما ذهب بعض واصفيه، وإنما كان مغالياً في غرامه غارقابعواطفه وانفعالاته في تعلقه بليلى إلى ما يشبه الهوسة والهذيان، بل هو الهوس بعينه في كثير من حالاته، وسمي بالمجنون لعدة أسباب منها قوله:

ما بالُ قلبكَ يا مجنون قد خلعا ... في حب من لا ترى في نيله طمعا
وإني لمجنونٌ بليلى موكلٌ ... ولستُ عزوفا عن هواها ولا جلدا
إذا ذُكرت ليلى بكيتُ صبابةً ... لتذكارها حتى يبل البكا الخدا

يفخـــر بتســـمية نفسه بالمجنون، لأنه لم يقبل أن يرى غيرها، فهذه الانفعالات تسيطر على الساحة

النفسية للفرد وتجعل إدراكه منصباً باتجاه واحد، وهل من يدُرك مدى خطورة سيطرة العواطف على سلوك الفرد وشخصيته؟. ويقول أحد بني عامر هو عون بن عبد الله العامري نافياً:ما كان حيث قال: والله المجنون الذي تعزونه إلينا مجنونا، إنما كانت به لوثة أحدثهما به حب ليلى، وأنشد له:

وبي من هوى ليلى الذي لو أبثه جماعةَ أعدائي بكت لي عيونها

أرى النفس عن ليلى أبت أن تطيعني فقد جن من وجدي بليلى جنونها

وإلى هـذا الـرأي يذهـب الأصـمعي فيقول : لم يكن مجنونا ولكن كان فيه لوثة كلوثة أبي حية النميري،وثمة رأي آخر في تسميته بالمجنون يذهب إليه العتبي : إنما سمي قيس بالمجنون لقوله :

يقول أُناسُ علَ مجنونَ عامرٍ يروم سُلُوا قلتُ : أنى لمابيا

أعدُ الليالي ليلةً بعد ليلةٍ وقد عشتُ دهراً لا أعدُ اللياليا

أراني إذا صليتُ يممتُ نحوها بوجهي وإن كان المصلى ورائيا

وما بي إشراكٌ ولكن حبها كعود الشجا أعيا الطبيب المداويا

وقد لامني في حب ليلى أقاربي أخي وابن عمي وابن خالي وخاليا

فأنت التي إن شئت أشقيت عيشتي وإن شئت بعد الله أنعمت باليا

قضاها لغيري وابتلاني بحبها فهلا بشيء غير ليلى ابتلا نيا

عـادة العشـاق عبادة الحبيب والصلاة في محرابه على مر الدهور مهما كانت صفاته، ويفرط بعض هؤلاء إلى حد الانحراف، فقيس يعدّ حبيبته قبلته في الصلاة وهذا تطرف سلوكي وانحراف نفسي، يبين بوضوح مدى سيطرة الانفعالات عليه لدرجة الاختلاط، ويعدّ ابنة عمه زينة الدنيا وبهجتها في نظره، وقـد ظهر ذلك في الحوار الذي جرى بينه وبين لداها حين قلن له: ما أعجبك منها ؟ فأجاب: كل شيء رايته وشاهدته وسمعته منها أعجبني، والله ما رأيت شيئا منها قط إلا كان في عيني حسنا وبقلبي علقـا، ولقـد جهدت أن يقبح منها عندي شيء، أو يعاب لأسلو عنها فلم أجده، وقد ترجم هذا الإعجاب بالعشق مرة أخرى في قوله حيث يحمل مناجاة وصبابة وتوسلاً ومحاولةً للتصبر:

أيا زينةَ الدنيا التي لا ينالها مناي ولا يبدو لقلبي صريمها

بعيني قذاةٌ من هواكِ لو أنها تداوي بمن تهوى لصح سقيمها

وما صبرت عن ذكرك النفس ساعةً وإن كنتُ أحيانا كثيرا ألومها

لقد كانت ليلى تحب قيساً وقد وقع له في قلبها مثلما وقع لها في قلبه، فظنت به ما هو عليه من حبها فأقبلت عليه يوما فقالت:

كلانا مُظهرٌ للناس بغضاً وكلٌ عند صاحبه مكينُ

تبلغنا العيون بما أردنا وفي القلبين ثم هوى دفين
وأسرار الملاحظ ليس تخفى إذا نطقت بما تخفي العيون

الحب يبين لغة العيون في التخاطب خشية الوشاة، ولكنها لا تخفى على أحد، ويروى أنه عندما سمع شعرها شهق شهقة شديدة وأغمي عليه، فمكث على ذلك ساعة ونضحوا الماء على وجهه حتى أفاق. وتعلق حب كل واحد منهما في قلب صاحبه حتى بلغ كل مبلغ. كان حب قيس لليلى مثاراً لمنازعات بين قوميهما، وبسبب تردده على ديارها، حيث شكاه قومهما إلى السلطان كي يكف عن غشيان منازلهم، ولكن قيسا لم يفعل، فاضطروا إلى الارتحال. وعقب ذلك اختلط عقله حتى إذا مر ببيت ليلى فلا يسأل عنها ولا يلتفت إليه ويقول:

ألا أيها البيتُ الذي لا أزوره وإن حله شخصٌ إلى حبيبُ
هجرتُكَ إشفاقاً وزرتُك خائفاً وفيك على الدهر منكَ رقيبُ
سأستعبُ الأيامَ فيكَ لعلها بيومِ سرورٍ في الزمان تؤوبُ
جرى السيلُ فاستبكاني السيلُ إذ جرى وفاضت له من مقلتي غروبُ
وما ذاك إلا حين أيقنتُ أنه يكون بواد أنتِ فيه قريبُ
يكون أجاجاً دونكم فإذا أنتهى إليكم تلقى طيبكم فيطيب
أظلُ غريبَ الدار في أرض عامرٍ ألا كلُ مهجورٍ هناكَ غريبُ
فلا خيرَ في الدنيا إذا أنت لم تزر حبيباً ولم يطرب إليك حبيبُ

يصف قسوة الفراق وألم الرحيل، وكيف راحت الوساوس تحركه كيفما تشاء حتى وجد نفسه غريبا لا يحس بذاته، ووصلت به الحالة لتدخل الأهل رعايته ومساعدته وبدأت حلول الأهل عاجزة، ويروى إن أهل المجنون خرجوا به معهم إلى وادي القُرى قبل توحشه خوفا عليه من أن يضيع أو يهلك فمروا في طريقهم بجبلي نعمان، فقال له بعض فتيان الحي: هذان جبلا نعمان، وقد كانت ليلى تنزل بهما، قال: فأي الرياح يأتي من ناحيتهما؟ قالوا : الصبا ، قال : فو الله لا أريم هذا الموضع حتى تهب الصبا فأقام، ومضوا لسبيلهم وتركوه ، ثم أتوا عليه، فأقاموا عليه ثلاثة أيام حتى هبت ريح الصبا، فأنطلق معهم فأنشأ يقول :

أيا جبلي نعمان بالله خليا سبيل الصبا يخلص إلى نسيمها
أجد بردها أو تشف مني حرارةً على كبدٍ لم يبقَ إلا صميمها
فأن الصبا ريحٌ إذا ما تنسمت على نفسِ محزونٍ تجلت همومها

معلوم إن أداء شعائر الحج أو العمرة والسعي إلى المناسك، تخلق في النفس زهداً وتقوى وتثبت على

الإيمـــان قلب المؤمن، وتحمل نفس المضطرب القانط إلى شاطئ الرضا والتسليم، وهي مخففة للواعج الحزن، آخذة بيد صاحبها إلى دنيا من السلو والهدوء والنسيان، لذلك يعمد المؤمنون إلى حمل ذوي المحن والأحزان إلى تلك الساحات القدسية في البيت العتيق لما لها من علاج روحي لجروح النفس، وفي عرفات والمشعر الحرام ومنى والخيف، لعل السلو يغمرهم، والرحمة تشملهم، فيتخففون مما هم فيه من أعـــباء وأثقال، مادية كانت أو عاطفية.وكان طبيعياً أن يحمله أبوه وأخوته، وبعض بني أعمامهم إلى مكـــة لزيارة البيت العتيق، وأداء فريضة الحج، فلم يشغله ذلك أو ينسيه ذكر ليلى. و في كل محل طافت بها قدماه في منى وعرفة والخيف والمشعر الحرام.فقال يلبي بحبها:

وداعٍ دعا إذ نحن بالخيف من منىً ... فهيج أحزانَ الفؤادِ وما يدري

دعا باسم ليلى غيرها فكأنما ... أطار بليلى طائراً كان في صدري

دعا باسم ليلى ضلل الله سعيه ... وليلى بأرض عنه نازحة قفر

ولا يكـــاد قيس ينتقل من منسك إلى آخر إلا وتتزاحم عليه خيالات ليلى ، فينسى التلبية والتكبير ويقول في ليلى :

ولم أرَ ليلى بعد موقفِ ساعةٍ ... بخيفِ منى ترمي جمارَ المحصبِ

ويبدي الحصى منها إذا قذفت به ... من البُرد أطرافَ البنان المخضب

فأصبحتُ من ليلى الغداة كناظرٍ ... مع الصبح في أعقابِ نجمٍ مغرب

ويـــتذكر قيس ليلى وهو محرم وتقفز صيغة الاستغفار إلى قلبه، ولكنه لا يفعل ذلك من دون إشراك أسم ليلى فيقول:

دعا المحرمون الله يستغفرونه ... بمكة ليلاً أن تمحى ذُنوبُها

وناديتُ : يا رباه أول سالتي ... لنفسي لليلى ثم أنت حسيبها

فإن أُعطَ ليلى في حياتِي لا يتب ... إلى الله عبدٌ توبةً لا أتوبها

لقد عاش قيس يطلب الحب فلا يظفر به، فلم يجد بداً من أن يجعل من الشعر تداوياً وشفاءً ومن الأمل مجيبا وملبياً وحاول إدخال السلوى على قلبه بهذه الأبيات:

وما أشرفُ الأيفاعَ إلا صبابة ... ولا أُنشدُ الأشعارَ إلا تداويا

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما ... يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

لحى الله أقواماً يقولون : إنني ... وجدت طوالَ الدهرِ للحب شافيا

ويقال أنه وقف عند جبل يقال له التو باد، وقد عجت الذكريات بساحة شعوره فقال:

وأجهشت للتوبادِ لما رأيته ... وهلل للرحمنِ حين رآني

وأذريتُ دمعَ العينِ لما رأيته وناديَ بأعلى صوتهِ فدعاني

وقلت له : أين الذين عهدتهم حواليك في عيش وخيرِ زمان

فقال:مضوا واستودعوني بلادهم ومن ذا الذي يبقى على الحدثان

وأني لأبكي اليومَ من حذري غداً فراقكِ والحيان مؤتلفان

ومما قاله من شعر دل به على ذهاب عقله ما يلي قوله:

فيا ليل كم من حاجةٍ لي مهمة إذا جئتكم بالليل لم أدر ما هيا

لحا الله أقواماً يقولون إننا وجدنا طوال الدهرِ للحب شافيا

وماذا لهم لا أحسن الله حالهم من الحظ في تصريم ليلى حباليا

فإن تمنعوا ليلى وتحموا بلادها عليّ فلن تحموا عليّ القوافيا

أراني إذا صليتُ يممتُ نحوها بوجهي وإن كان المصلى ورائيا

دلـــيل واضـــح عـــلى ذهاب قوى العقل المرشدة للسلوك، وهذه الحالة من أخطر مظاهر الهيجانات النفسية المسيطرة على شخصية الفرد وسلوكه.ويبدو هنا أنه غير مدركا لركعات الصلاة !!:

فوالله ما أدري إذا ما ذكرتها إثنتين صليتُ الضحى أم ثمانيا

وما بي إشراكٌ ولكن حبها وعظمَ الجوى أعيا الطبيب المداويا

مـــثال حـــي لغلبة العواطف والانفعالات على شخصية قيس، فقد حولته الأهواء لجنون وحرفته عن المسار السوي العادي بحيث تعثر عليه الاستمرار في الحياة فضاع في البراري والقفار. ومهما يكن من أمر، فإنه من الأجدر أن يصغي الإنسان لنداء العقل وعدم الانسياق وراء رغبات النفس.ومن قراءة حـــياة الشاعر وأشعاره يتجلى بوضوح غلبة الانفعالات وسيطرتها المطلقة على شخصيته فقد أصبح رهن الوساوس والصراعات النفسية الضاغطة عليه مما أفقده صوابه وتحول إلى منحرف بسلوكه عما يألفه المجتمع الذي يعيش فيه.

قال ايفا شندلر:

(إن حبي لك يصوّرك في نظري معبوداً فوق مستوى البشر، فإن يكن في هذا القول إلحاد فيا حبذا الإلحادُ، لأن جرائم المحبينَ مغتفرة عند الملائكة).

الكميت بن زيد الأسدي

قيل لنابليون:

كيف استطعت أن تولد الثقة في جيشك ؟

(فأجـاب: كنـت أرد بثلاث على ثلاثة:من قال لا أعرف، قلت له: تعلم. ومن قال لا اقدر ،قلت له: حاول. ومن قال مستحيل! ، قلت له: جرب).

الحـياة موكب عظيم، حيث ينظر إليه بطيء الخطى، فيحسبه سريعاً جداً ولذلك يهرب منه. وينظر سـريع الخطـى إليه فيحسبه بطيئاً ويهرب منه. إنه شاعر الشيعة الذي قال وأنشد الشعر في التغني بحـبهم، والإشـادة بهم والدفاع عن حقهم شعراً كثيراً، ولد سنة 60 هجرية وهي سنة لها في تاريخ الشـيعة شأن كبير، لأنهم لا ينسون أن الحسين بن علي قتل بها. نشأ الكميت بالكوفة موئل الشيعة وينبوع التشيع ومنجم الثورات على بني أمية، وفي الوقت نفسه كانت الكوفة ميداناً فسيحاً للشعراء والخطباء وعلماء اللغة وعلماء الدين، فكانت تنافس البصرة في هذا كله، وسوقها الأدبية(الكناسة) قريعة المربد سوق البصرة، فاستقى الكميت من هذه المعارف حتى صار من فقهاء الشيعة، ويذكرون أن الكميت كانت له جدتان معمرتان تقصان عليه أخبار العرب في الجاهلية، وتحدثانه بأيامها وأنسابها، فـلا عجـب أنـه كان حجة ثقة في اللغة وراوية الشعر والأنساب والأيام، وحسبه أنه ساجل حماد الـراوية، فظهـر عليه في اللغة وفي الرواية. فهو من قبيلة أسد التي اشتهرت بتشيعها قبل أن يولد الكميت، ولذا فمن الطبيعي أن يكون الشاعر شيعياً على مذهب قبيلته حيث تلقنه منذ الصغر، وعلى مذهـب مدينـته التي كانت تتزعم الدعوة وتدافع عنها وتثور من أجلها، وطالما نكل الولاة بالدعاة للتشـيع وقـتلوهم، وطالمـا احتمل هؤلاء وجادوا بالأرواح والدماء في حماية مذهبهم والدفاع عن أنفسهم، ولاشك في أن هذا كله قد دفع الكميت على أن يتشيع وعلى أن يذود عن الشيعة بلسانه الحاد.وليس في تاريخ الكميت ومن خلال صلته بالعلويين ما يوحي من قرب أو بعد بأنه كان طالب منفعة أو طامعاً في مال،ومما يروى إن فاطمة بنت الحسين رضي الله عنهما بعد أن قالت: هذا شاعرنا أهـل البيـت،جاءت بقدح فيه سويق، وحركته بيدها، وسقت الكميت فشربه، ثم أمرت له بثلاثين ديناراً وبمركب، فهملت عيناه بالدموع، وقال : لا والله لا أقبلها إني لم أحببكم للدنيا وإنما أحبكم في الله.وقيل أنه حين دخل على الإمام محمد الباقر، فأمر له بألف دينار وكسوة فقال له الكميت: والله ما أحببـتكم للدنيا. ولو أردت الدنيا لأتيت من هي في يديه، ولكنني أحببتكم للآخرة، فأما الثياب التي أصابت أجسامكم فإني أقبلها لبركتها، وأما المال فلا أقبله، وقبل الثياب ورد المال.قال:أبو الفرج أن علـياً النوفلي قال: كان أول ما قال الكميت بن زيد من الشعر الهاشميات، فسترها، ثم أتى الفرزدق فقـال له: يا أبا فراس، إنك شيخ مضر وشاعرها وأنا ابن أخيك.قال:فما حاجتك ؟قال: ونفث على

لساني شعر أحببت أن أعرضه عليك، فإن كان حسناً أمرتني بإذاعته، وإن كان قبيحاً أمرتني بستره.قال الفرزدق: أما عقلك فحسن، وإني لأرجو أن يكون شعرك على قدر عقلك فأنشده:

طربتُ وما شوقاً إلى البيض أطربُ ولا لعباً مني وذو الشيب يلعب

ولم يُلْهِني دارٌ ولا رسمُ منزل ولم يَتطَرَّبني بنانٌ مُخَضَّب

فقال الفرزدق:فما الذي يطربك يا ابن أخي ؟ قال الكميت :

ولا السانحاتُ البارحات عَشيَّةً أَمَرَّ سليم القرن أم مرَّ أعضَبُ

قال الفرزدق : أجل لا تتطير فقال الكميت:

ولكنْ إلى أهل الفضائل والتُّقى وخير بني حواءَ والخير يُطلب

قال الفرزدق : من هؤلاء، ويحك؟ قال الكميت :

إلى النفر البيض الذين بُحبِّهم إلى الله فيما نابني أتقرب

قال الفرزدق : أرحني ويحك من هؤلاء ؟ قال :

بني هاشم رهط النبي فإنني بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب

خفضتُ لهم مني جناحي مودةً إلى كنف عِطفاه أهلٌ ومَرحب

فقال الفرزدق: يا ابن أخي أذع ثم أذع فأنت والله أشعر من مضى ومن بقي، أحسنت إذ عدلت عن الزعانف والأوباش، أظهر ثم أظهر وكد الأعداء. ولقد ضمَّن الكميت هاشمياته عقيدته الدينية ومذهبه السياسي وحبه لبني هاشم وتشيعه لهم وتضحيته بكل شيء في سبيلهم، واستعداده لتحمل المسؤولية في التزامه:

فَبِهم صِرتُ للبعيد بنَ عَمٍّ واتهمتُ القريبَ أَي اتهامِ

وتناولتُ من تناول بالغيبة أعرَاضهُم وقلَّ اكتتامي

ورأيتُ الشريفَ في أعينِ الناس وضيعاً وقلَّ منهُ احتشامي

مُعلناً للمُعالنينَ مُسِراً للمسِرينَ غيرَ دحضِ المقام

ما أُبالي إذا حَفظتُ أبا القاسمِ فيهم ملامةَ اللوَّامِ

فهُمُ شيعتي وقسمي من لأمةٍ حَسبي من سائرِ الأقسام

والكميت يتوخى في تشيعه للهاشميين القرب من الله، والإخلاص للدين وطمأنينة النفس ونور الهداية، فيعبر عن مشاعره وانفعالاته بأسلوب تمكن الباحثين من تحليل هذه الشحنات العاطفية بمنهج علمي:

إن أمُتْ لا أَمُتْ ونفسَي نفسان من الشكِّ في عَميً أو تَغَامِ

لم أبعْ دينَي المساوِم بالوكس ولا مُغلياً مِنَ السُّوام

أخلص اللهُ لي هَـواي فَمَـا   أَغرقُ نَزعـاً ولا تطيشُ سهامي
ولهـتْ نفسيَ الطروبُ إليهم   ولَهـاً حَالَ دُونَ طعم الطعـام

ويمـدح آل البيت رضـوان الله عليهم في قصيدته البائية الثانية قائلاً والتي تعد من عيون الشعر السياسي:

طَربتَ وهَـلْ بكَ من مَطرَبِ   ولـم تَتصـابَ ولـم تَلعـبِ
صَبابـةَ شوقٍ تُهيـجُ الحليمَ   ولا عارَ فيهـا عـلى الأشيـبِ

ثم ينـتهي إلى ذكر بني هاشم، وحقيقة الأمر مهما يقال فيهم، فالكلام قليل فهم معدن النبوة، وكان سلوكهم السوي مدرسة للقيم والأخلاق ولا تسريب على الكميت في حبه لهم أبداً، فيقول:

فَـدعْ ذِكرَ من لَستَ من شأنـهِ   ولا هُو من شأنـكَ المُنصـبِ
وهـاتِ الثنـاءَ لأهـلِ الثنـاءِ   بأصوَبِ قولـكَ فالأصوَبِ
بنـي هـاشم فهـمُ الأكرمون   بَنو البـاذِخَ الأفضـلِ الأطيبِ
وإياهُـمُ فـاتخـذ أوليـاءَ   من دُونِ ذي النسبِ الأقربِ
وفي حُبهِـم فاتهِـمْ عـاذلاً   نَهـاكَ وفي حَبلهـم فاحطب

بوركـت في الـتغني بصفوة النبي صلوات الله عليه وآل بيته الطاهرين، فهم عماد الدين وهم الذين دفعـوا أرواحهـم نذراً للدفاع عن الإسلام، والذود عن حياضه والدعوة لوحدة المسلمين. وعاش الكميـت بالكوفـة يقـرض القصائد في مدح آل البيت، وفي رثاء موتاهم، وفي المناظرة دفاعاً عن حقوقهم، ولكن لم يتعرض له وال من ولاة الكوفة، حتى إن خالد بن عبد الله القسري(أحد ولاة بني أمية). كان يقربه ويوده ويجزل عطاءه، وقد قال في مدح خالد القسري:

لو قيل للمجد من حليفُك ما   إن كـان إلا إليك ينتسب
أنت أخـوه وأنت صورته   والرأس منـه وغـيرك الذنب
أحرزتَ فَضل النضال في مَهل   فـكل يـوم بكفك القصَب[298]
لو أن كعبا وحاتِماً نُشرَا   كانا جميعاً مـن بعض ما تهب
لا تخلف الوعد إن وعدتَ ولا   أنت عـن المعتفين تحتجب[299]
ما دونك اليوم من نوال ولا   خلـفك للـراغبين مُنقلَب

لكن صفاء الكميت وطمأنينته وتغاضى الولاة عنه آن لها أن تزول، فحدث أن غضب عليه خالد بن

---

[298] – القصب : قصب السبق وجائزته.

[299] – المعتفون: طلاب الجواد.

عبد الله القسري لأنه هجا أخاه أسد عندما تولى حكم خراسان، فقال مخاطباً أهل مرو بالثورة عليه:

ألا أبلغ جماعة أهل مرو على ما كان من نأي وبعد
رسالة ناصح يهدي سلاماً ويأمر في الذي ركبوا بجد
فلا تهنوا ولا ترضوا بخسف ولا يغرركم أسدٌ بعهد
وألا فارفعوا الرايات سودا على أهل الضلالة والتعدِ

وكذلك غضب عليه الخليفة هشام بن عبد الملك غضباً أهدر دمه وأنذره بالقتل، إلا أن الكميت استجار بعنبسة بن سعيد بن العاص كبير بني أمية، فشفع له الخليفة بعد أن خطب معتذراً،وقال في مدح بني أمية والأعتذار لهشام :

فالآن صرت إلى أمية والأمور لها مصائر
يا بن العقائل للعقائل والجحاجحة الأخائر[300]
من عبد شمس والأكا بر من أمية فالأكابر
إن الخلافة والالاف برغم ذي حسد وواغر[301]
دَلفا من الشرف التليد إليك بالرفد المواقر[302]
فحللتَ مُعتَلج البطاح وحلّ غيرك بالظواهر[303]
كم قال قائلكم لعًا لك عند عَثرته لعاثر
وغفرتُم لذوي الذنوب من الأكابر والأصاغر
أبني أمية إنكم أهل الوسائل والأوامر
ثقتي بكل مُلمة وعشيرتي دون العشائر
أنتم معادن للخلافة كابرا من بعد كابر
بالتسعة المتتابعين خلائفا وبخير عاشر
وإلى القيامة لا تزال لشافع منكم وواتر

فقرعه هشام على هجائه بني أمية ومدحه بني هاشم، وبعد ذلك رضي هشام وأعلن رضاه وعفوه، فقبل الكميت يده وقال: يا أمير المؤمنين، إن رأيت أن تزيد في تشريفي فلا تجعل لخالد إمارة

---

[300] – الجحاجحة : السادة . الأخائر : الأخيار

[301] –الالاف: الأيلاف وهو العهد . واغر : حاقد

[302] –دلفا:أقبلا على مهل والمراد الخلافة والعهد . الرفد : الخير.

[303] –معتلج: ملتقى .البطاح : الأرض الواسعة .الظواهر :ما ارتفع من الأرض.

علي.فقال هشام: قد فعلت، وكتب لخالد بذلك، وأمر للكميت بأربعين ألف درهم، وثلاثين ثوباً شامية وكتب لخالد أن يطلق سراح زوجة الكميت من السجن ويعطيها عشرين ألف درهم وثلاثين ثوباً ففعل. (لأن الكميت فر من السجن بثياب زوجته وهو يعلم أنه تركها للابتذال والانتقام، ولهذا كان تشفعه إلى هشام ومدحه بني أمية).على أن جبنه وخوفه واضح في سلوكه وفي بعض شعره، فقد أعلن ولاءه لآل البيت وحماسته لهم على أن يقاتل في سبيلهم، ومن جهة أخرى لم يدن بما دان به الشيعة أو أكثرهم من الحكم على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما بالخطأ، إذ توليا الخلافة دون علي فقد توقف الكميت عن الحكم وتركه حيث يقول:

أهوى علياً أمير المؤمنين ولا   ألوم يوماً أبا بكر ولا عمرا

ولا أقول وإن لم يعطيا فَدَكا   بنت النبي ولا ميراثه كفرا

الله يعلم ماذا يأتيان به   يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا

وقد أجرى حواراً بينه وبين نفسه كشف فيه عن جبنه وتخاذله عن نصرة الإسلام وتعلله في قوله:

نجود لهم نفسي بما دون وثبة   تظل لها الغربانُ حولي تَحجلُ

إذا سُمت نفسي نصرهم وتطلعت   إلى بعض ما فيه الزُّعاف المُثَمَّل

وقلت لها بيعي من العيش فانيا   بباق أُعزِّيها مراراً وأَعذل

أتتني بتعليل ومنَّتني المنى   وقد يقبل الأُمنيَّة المتعلّل

ولما خرج زيد بن علي رضي الله عنه في عهد هشام خروجاً انتهى بقتله سنة 122 هجرية على يد والي العراق يوسف بن عمر الثقفي، لم يؤازره الكميت، لكن الكميت لام نفسه فيما بعد وعبر عن أساه في تخليه عن مناصرة إمامه وتخاذله بالدفاع عنه بقوله:

دعاني ابن الرسول فلم أُجبه   ألهفي لَهفَ للقلب الفَروق

حِذّار مَنيَّةٍ لا بد منها   وهل دون المنية من طريق ؟

ولكنه رثى زيداً وهجا يوسف بن عمر الثقفي، ثم بعد فترة وفد عليه ليمدحه، فكان جزاؤه أن وضع الجند سيوفهم في بطنه وهو ينشد يوسف مدحته، فمات.وكان سبب قتله هجاؤه يوسف بن عمر الثقفي :

يَعَز على أحمد بالذي   أصاب ابنَه أمس من يوسف

خبيثٌ من العُصبة الأخبثين   وإن قلت زانين لم أقذف

ومذهب الكميت السياسي كان يتمحور في فكرتين:الأولى وتعني أن الخلافة وراثية في بني هاشم، وأولادهم أولاد علي من فاطمة لأنهم أقرب الناس إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وأحقهم بوراثته،

وأجدرهـــم بنشر دينه والحفاظ عليه.ومن هنا كان الذين يؤثرون أنفسهم بالخلافة من غير آل البيت غاصبين ومتعدين على الحقوق، وأما الثانية فهي أن بني أمية طغاة، سلبوا الخلافة وعصوا الله، وعطلوا ســنن نبيه، واغتصبوا مال الأمة، وسفكوا الدماء بغير حق،فهم كفار، ولم يستقم حال المسلمين إلا بــزوال ملكهم،ولهــذا دعا إلى الثورة عليهم ،وطلب تولية هاشمي يحكم الأمة بالعدل، ويغدق عليها الخير،فقال:

فقــل لبني أُميــة حيث حَلُّـوا   وإن خفــتَ المهنَّــد والقطيعا
ألا أفٍّ لدهــر كنت فيــه   هدانا طائعــا لــكمُ مطيعــا
أجاع الله مــن أشبعتمــوه   وأَشبع مــن بجــوركــم أُجيعــا
ويلعن فــذَّ أُمتــه جهــارا   إذا ساس البريــة والخليعــا
بمرضــيِّ الســياسة هاشــميٌّ   يــكون حَيــاً لأُمتــه ربيعــا
وليثا فــي المشــاهد غير نكسٍ   لتقويــم البريــة مســتطيعــا
يقــيم أُمــورها ويذبُّ عنــها   ويتــرك جــدبها أبداً مَريعــا

كما أجرى مقارنة بين الأمويين وبني هاشم وقد فضل فيها بني هاشم فبهذا ينشيء مذهبا جديداً وهو الشعر السياسي كقوله:

أُسدُ حرب غيوث جدب بهاليلل   مقــاويلُ غــيرُ مــا أَفــدام[304]
سادةٌ ذادةٌ عن الخرَّد البيض   إذا اليــوم كــان كالأيــام[305]
ساسةٌ لا كمن يرى رعية الناس   ســواءً ورعيــةَ الأنعــام
لا كعبد المليك أو كــوليد   أو سليمان بعــدُ أو كهشام
من يمت فقيداً ومن يحــيى   فلا ذو إلّ ولا ذو ذمــام

وأما مدائحه لبني هاشم فكثيرة جداً، ولا تسريب على المحبين فيما يحبون وما يقولون:

فمــالي إلا أحمــد شــيعة   ومــالي إلا مَشعَب الحق مشعب
ومن غيرهم أرضى لنفسي شيعة   ومن بعدهم لا من أجلُّ و أَرجب
إليكم ذوى آل النبي تطّلعت   نوازع من قلبي ظماءٌ ، وألبب
فطائفةٌ قد كفرتني بحبكم   وطائفةٌ قالوا مسيء ومذنب
فما ساءني تكفيرُ هاتيك منهمُ   ولا عَيْبُ هاتيك التي هي أَعْيبُ

---

304 – بهاليل:جمع بهلول وهو الضحوك. أفدام: جمع فدم وهو الثقيل والغبي. مقاويل:جمع مقول وهو الملك أو الفصيح.

305 –الخرد : جمع خريدة وهي الحسناء.

يعيبونني من خبِّهم وضلالهم   على حبكم، بل يسخرون وأَعْجَبُ
وقالو : ترُابِيٌّ هواه ورأيه   بذلك أُدْعَي فيهمُ وأُلَقَّب[306]

سبق الكميت الشعراء إلى المحاجة والمجادلة بالشعر في تأييد الهاشميين والتدليل عليه بالقران والمنطق، ولقد كان الجاحظ على الصواب في قوله: (ما فتح للشيعة باب الحجاج بالشعر إلا الكميت).وهاشميات الكميت ليست مدائح لآل البيت بالمعنى المتعارف في المديح، بل هي حجاج لهم ودفاع عن حقهم، وحمله على بني أمية وترويج للزيدية،فهو في هاشمياته حار العاطفة ، صادق المشاعر، لأنه ينافح عن عقيدة، ويجد راحة نفسه وطمأنينة قلبية في هذا الدفاع، ويطلب من الله الثواب على نصرة آل البيت، ويعزف عن المال والجاه .ولقد سبق أن رفض عطاء السيدة فاطمة بنت الحسين وقال أني لم أحببكم للدنيا، ورفض دنانير الإمام محمد الباقر، وقبل ثياباً أعطاه إياها لأنها مست جسده، فهو يستدل لاستحقاق آل البيت وحدهم الخلافة بنوعين من الأدلة:

النوع الأول: القرآن الكريم، كقوله تعالى: (" **وآت ذا القربى حقه**")[307]وقوله: ("**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**") وقوله : (" **قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى**")[308] .وقوله: (" **واعلموا أنما غنتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل**")[309] وتلحظ هذا في قوله :

بخاتمكم غصباً تجوز أمورهم   فلم أر غصباً مثله يُتَغصَّب
وجدنا لكم في آل حاميم آية   تأولها منا تقى ومُعرِب[310]
وفي غيرها آيا وآيا تتابعت   لكم نَصَبٌ فيها لذي الشك منصب

أما النوع الثاني: فهو أدلة نظرية عقلية قائمة على التدليل المنطقي، فإذا كان بنو أمية يزعمون أنهم ورثوا الخلافة، لأنهم من قريش، فإن بني هاشم أحق منهم بوراثة الرسول ﷺ لأنهم أقرب إليه، وإذا كانوا يزعمون أن النبي لا يورث فإنهم إذاً عادون غاصبون، لأنهم سطوا على حق العرب جميعاً وفيهم الأولى بالخلافة منهم، كبني هاشم وكالأنصار، والأمويون إذ يستأثرون بالخلافة يناقضون أنفسهم، لأنهم يدعون أن النبي ﷺ لم يورث، ويدعون أن الخلافة لقريش، فكيف نوفق بين هاتين الدعويين المتناقضتين ؟ إن قولهم بحصر الخلافة في قريش هو الحق، وألا لشاركت في المطالبة بها كل قبائل العرب

[306] -ترابي: علوي، لأن علي بن أبي طالب كان يكنى بأبي تراب.
[307] -سورة الإسراء الآية 36.
[308] -سورة الشورى الآية 23
[309] -سورة الأنفال الآية 41
[310] -يشير إلى قوله تعالى: (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى).

مــن عدنانــية وقحطانــية، ولكان الأنصار أولى بها، لأنهم هم الذين آووا ونصروا. وإذاً فإن أقرب القريشيين إلى النبي هم الذين يرثون هذا الحق، ومن هم إلا بنو هاشم ؟ يقول الكميت :

بحقكُــم أمست قريش تقــودنا   وبالفَذّ منــها والرد يفين نركبُ[311]

وقالوا ورثنــاهــا أبانا وأمنــا   ومــا ورَّثتــهم ذاك أُم ولا أَب

يرون لهم فضلا على الناس واجباً   سَــفاها وحــق الهاشــميين أوجب

ولكن مواريث ابن آمنــة الذي   بــه دان شــرقي لــكم ومُــغرِّب

فــدىً لك موروثاً أبي وأبو أبي   ونفســي ونفسي بعدُ بالناس أطيب

وتُستَخلَفُ الأموات غيرك كلهم   ونَعتِب لــو كنا على الحق نُعتَب

يقولون : لم يورثْ ولــولا تراثه   لقد شركت فيــه بَكيلٌ وأرحَب

وعكٌّ ولخم وَالسَّكون وَحمــير   وكندة والحيــان بــكرٌ وتغلــب

ولا انتشلت عضوين منــه يحابر   وكان لعبد القيس عضــو مــؤرَّب

وما كانت الأنصار فيها أذلــة   ولا غُيبًا عنــها إذا النــاس غُيَّبُ

هم شهدوا بدرا وخيبر بعــدها   ويــوم حنــين والدمــاء تصبب

فإن هي لم تصلح لحــي سواهم   فإن ذوي القــربى أحــق وأقــرب

وقال في الحملة على بني أمية والدعوة ضدهم وبالثورة عليهم:

ألا هــل عــم في رأيه متأَصِّل   وهل مُدبــرٌ بعــد الإساءَة مُقبــل ؟

وهــل أُمــةٌ متيقظون لرشدهم   فيكشــف عنــه النعسَــةَ المتَرّمل

فقد طال هــذا النــوم واستخرج   الكرى مساويهم لوكان ذا الميل يعدل

وعُطلَت الأحــكام حــتى كأننــا   علــى مــلة غيــر التــي نتنحَّــل

كــلام النبــيين الهُــداة كلامُنا   وأفعــالَ أهــل الجاهليــةِ نفعــل

رضينــا بدنــيا لا نريــد فراقها   علــى أننا فيــها نمــوت ونُقــتَل

ونحن بــها مستمسكون كــأنها   لنــا جُنَّــةٌ مــما نخــاف ومعقِــل

أرانــا على حب الحياة وطولها   يــجَدُّ بــنا في كل يــوم ونــهزِل

فتلــك أُمور الناس أضحت كأنها   أُمــور مُضيع آثــر النــوم بُــهل

فيا ساسة هاتوا لنا من حديثكم   ففيــكم لعمــري ذو أفانــين مِقــول

---

311 –الفذ: أول سهام الميسر في لعب القمار. الرديفين: هو الفرد الذي جلس خلف الراكب والمقصود بذلك معاوية.

أأهــل كتــاب نحــن فيه وأنتــم   علــى الحق نقضي بالكتــاب ونعدل ؟
فكيف ومن أنّى وإذ نــحن خلفه   فريقــان شــتى تسـمنون ونــهزل
أتصلح دنــيانا جميعــا وديننــا   علــى ما بــه ؟ ضــاع السوام المؤبل
كــأن كتــاب الله يعْني بأمــره   وبالنــهى فيــه الــكودنيُّ المــركل[312]
ألــم يتــدَّبر آيــة فتــدلَّــه   علــى تــرك ما يــأتيَ أم القلب مُقفل ؟
فتلك ملوك السوء قد طال ملكهم   فحــتى م حــتى م العنــاءُ المطــول
فيــارب هل إلا بك النصر يرُتجى   عليــهم وهــل إلا عليــك المعــول ؟

لــدى الــنظر في شعره بدت شخصيته متعصبة لدرجة كبيرة وعلى الرغم من أن التعصب له بعض الجوانب الإيجابية أحياناً، لكنه في جوانب أخرى يلغي ساحة التفكير ويعطل العقل، ويجعل الفرد ينظر باتجــاه واحد، وهذا لا يجوز في الشخصية السوية أبداً، وعلينا أن نفتح أعيننا للسار والضار، فالحياة تجمع كافة الألوان، الأبيض والأسود، ولا يجوز مهما كانت الأمور أن يرى الفرد في التعصب منطلقاً للتعامل مع أبجديات الحياة المعقدة، قد أوضحت بعض أقواله تخاذله في الدفاع عن الإمام زيد بن علي رضي الله عنه أثاء خروجه على الأمويين، وتألم على فعلته، فظهر متناقضاً ولا سيما عندما ترك زوجته مكانه في السجن إثناء هربه متخفياً، وأخذ يمدح الأمويين طالباً الصفح لكنه دفع ذلك غالياً.

ورحم الله قائل الحكمة الصينية:

(لا تعطني سمكاً بل علمني كيف اصطاده، ولا تنس أنه متى أفاق الفكر لا يعود إلى النوم).

[312] –الكودني : البرذون . المركل:المركول بالرجل والمقصود هنا هشام بن عبد الملك .

مالك بن الريب

يروى أنه:

(حج أحد الدراويش إلى بيت الله فبلي حذاؤه، وألهبت حرارة الصحراء قدميه، فتابع سـفره ساخطاً على سُوء حظه الذي حرمه من مال يساعده على ركوب مطية، حتى إذا وصل إلى مكة رأى على أحد أبوابها سائلاً مقطوع الساقين فبكى واستغفر).

كيف أخسر إيماني بعدل الحياة، وأنا أعرف أن أحلام الذين ينامون على الريش ليست أجمل من أحلام الذيـن يـناموں على الأرض؟ إنه يجوب الصحراء ويسهر الليل بحثاً عن شفاء جرح لم يندمل بسبب الغـربة النفسية التي عايشتها روحه الأبية و يعرف مالك بن الريب بكونه شاعراً فاتكاً لصاً منشؤه ببادية بني تميم بالبصرة. ولقد كان مالك يقطع الطريق مع فريق من أكثر الناس شرا، منهم شظاظ الذي يضرب به المثل فيقال: ألص من شظاظ وكان أخبث أفراد الفريق، ومنهم أبو حربة الذي انتهت حـياته بالـتوبة والشهادة في سبيل الله بعدما زلزل الأمن وقطع الطريق، ولا غرابة أن تجد أن أكثر اللصـوص من تميم بحيث يمكن ذكر عدد غير قليل من لصوص هذه القبيلة، الذين يقف على رأسهم مـالك بن الريب، فهو يختلف عنهم من حيث تكوينه النفسي ونزعته الإنسانية، ثم بعد ذلك انتهت حـياته في سلك المجاهدين الفاتحين، الذين أبلوا في الفتوح الإسلامية بلاء طيباً.عاش مالك بن الريب كما يعيش كل الشعراء اللصوص بعيداً عن الناس، يقطع الطريق ويسلب القوافل. ويذكر ابن قتيبة أنه حبس بمكة في سرقة، فشفع فيه شماس بن عقبة المازني و أنقذه، وقال في سجنه:

أتلحقُ بالريبِ الرفاقُ ومالكٌ   بمكةَ في سجنٍ يعُنيهِ راقبهُ

ولمـالك في تشـرده شعر جيد جاء أكثره موجهاً نحو السلطان، عمد فيه إلى تقريع السلطان، ولقد وصف حاله في مهربه حيث يقول في ذلك:

أحقاً على السلطانِ أما الذي له   فيعطى وأما ما يرادُ فيمنعُ

إذا ما جعلتُ الرمل بيني وبينه   وأعرضَ سهبٌ بين يبرين بلقعُ

فشأنكمُ يا آل مروان فاطلبوا   سقاطي فما فيه لباغية مطمعُ

وما أنا كالعيرِ المقيم لأهله   على القيد في بحبوحة الضيم يرتع

ولولا رسولُ اللهِ أن كان منكم تبين من بالنصفِ يرضى ويقنعُ

إن مالكـــاً يعبر عن منعته على طالبيه، وتلك نغمة معروفة عند أترابه من الشعراء اللصوص، غير أن الذي يلفت النظر بشدة، هو هذا البصيص من نور الإيمان، وتلك اللمحة الخاطفة من رصيد التدين الـــتي تبدت في البيت الأخير، وهو أمر لم يلحظ عند شاعر لص آخر غير مالك، ولعل هذا الرصيد الدفين من التدين والإيمان الذي يسر له سبيل الموافقة على مصاحبة سعيد بن عثمان بن عفان.و يروى أن مالكـــاً كان نائماً في إحدى المفازات، فعرض له ذئب فزجره، فأعاد عليه الزجر فلم يبرح، فوثب علـــيه بسيفه فقتله وسجل حاله، ومشاعره معبراً عن انفعالاته النفسية لتكون مادة للتحليل النفسي بضوء أقواله في هذه الأبيات:

أذئب الغضا قد صرت للناسِ ضحكة تفُادى بك الركبانُ شرقاً إلى غربِ

فأنتَ وإن كنتَ الجريءَ جَنانه مُنيتَ بضرغامٍ من الأسدِ الغلبِ

بمن لا ينامُ الليلَ إلا وسيفُهُ رهينةُ أقوامٍ سراعٍ إلى الشغبِ

ألم ترني يا ذئبُ إذ جئتَ طارقاً تُخاتلني أني أمرؤٌ وافر اللب

زجرتك مراتٍ فلما غلبتني ولم تنزجر نهنهتُ غَربَكُ بالضربِ

فصرت لقى لما علاكَ ابن حرةٍ بأبيضَ قطاعٍ ينجّى من الكربِ

ألا رُبّ يومٍ ريبَ لو كنت شاهداً لهالكَ ذكري عند معمعةِ الحربِ

ولستَ ترى إلا كُميتاً مُجدلاً يداه جميعاً تنبتان من الترب

وآخرَ يهوى طائرَ القلبِ هارباً وكنتُ امرأً في الهيجِ مجتمعَ القلبِ

أصولُ بذي الزرينِ أمشي عرضنةً إلى الموتِ والأقرانُ كالأبلِ الجُربِ

أرى الموتَ لا أنحاشُ عنه تكرماً ولو شئتُ لم أركب على المركب الصعبِ

ولكن أبت نفسي وكانت أبيةً تقاعس أو تنصاعُ يوماً من الرعبِ

إن قـــتل ذئب ليس بأمر ذي خطر بالنسبة لفارس مثل مالك بن الريب، ولكن الرجل وهو منتبذ في المفـــازات يجد نفسه في حاجة للترجمة عن مشاعره ومفاخره متى حانت فرصة لذلك، وجاءت قصة

الذئب فرصة مناسبة لكي يعبر عن ذات نفسه من خلال القصيدة التي تم ذكرها. ومن الطرائف الغريبة في حياة التشرد التي عاشها مالك بن الريب أن يقع عليه لص أسود، وهو نائم يريد أن يسلبه، ومن كان في مثل حال مالك لا ينام الليل، إلا متشحاً بسيفه، فهو دائم الاستعداد للدفاع عن نفسه في ذلك المنفى الموحش من هجمة ذئب، أو وثبة نمر، ولم يدر بخلده أن يجرؤ بشر على التعرض له، إلا إذا كان من شرطة السلطان، إن مالكاً يحس بشيء قد جثم على صدره لم يدرِ ما هو، فانتفض مالك انتفاضة شديدة، فسقط عنه شيء، ثم تجهز له بالسيف فقده نصفين، ثم نظر إليه فإذا هو رجل أسود، كان يقطع الطريق في تلك الناحية، فصور له طمعه أنه وقع على صيد سمين، فإذا به يصير طعاماً لسيف لم يتعود الكلال أو الخور، إن مالكاً يذكر هذه الحادثة في أكثر من قصيدة يسجل فيها نمط حياته فيقول:

أولجتُ في مهمةٍ ما إن أرى أحداً   حتى إذا حان تعريسٌ لمن نزلا

وضعتُ جنبي وقلتُ الله يكلؤني   مهما تنم عنكَ من عينٍ فما غفلا

والسيفُ بيني وبين الثوب مشفره   أخشى الحوادثَ إني لم أكن وكلا

ما نمتُ إلا قليلاً نمتهُ شئزاً   حتى وجدتُ على جثماني الثقلا

داهيةٌ من دواهي الليل بيّتني   مجاهداً يبتغي نفسي وما ختلا

أهويتُ نعَماً له والليلُ ساتره   إلا توخيتُهُ والجرسُ فانخذلا

لما ثنى اللهُ عني شرّ عدوته   رقدتُ لا مثبتاً ذُعراً ولا بعلا

أما ترى الدار قفراً لا أنيسَ بها   إلا الوحوشُ وأمسى أهلُها احتملا

وقد تقولُ وما تخفي لجارتها :   إني أرى مالكَ بن الريب قد نحلا

من يشهد الحربَ يصلاها ويُسعرُها   تراه مما كستهُ شاحباً وجلا

يبين الشاعر توتره النفسي في هذه القصيدة مزيدا من وصف حياة مالك في تأبده، وتعرضه للمخاطر من سبع يعدو عليه، أو لص مغامر قليل الحذر، أو من جاهل لا يقدر من يهاجمه، وهنا نلحظ أمرا بالرغم من لصوصيته وفساده وقطعه الطريق- لا يفتأ يذكر الله عند نومه، ويأمل في أن يظل في رعايته

وهو نائم، وتلك ظاهرة تميز بها مالك في أثناء لصوصيته، وهي ظاهرة مرشحة للتوبة وإرهاص مبشر بالاستقامة.ومما يروى أنه عندما هرب من الحجاج بن يوسف قال:

فإن تنصفونا يآل مروان نقترب   إليكم وألا فأذنوا ببعُادِ

فإن لنا عنكم مزاحاً ومرحلا   بعيسٍ إلى ريح الفلاة صوادي

ففي الأرض عن دار المذلة مذهبٌ   وكل بلاد أوُطنت كبلادي

فماذا ترى الحجاج يبلغ جهُده   إذا نحن جاوزنا حفير زياد ؟

فلولا بنو مروانَ كان ابن يوسف   كما كان عبداً من عبيد إياد

زمانَ هو العبدُ المقُرّ بذلةٍ   يُراوح صبيان القرى ويغادي[313]

كانـــت أعماق نفس مالك تختزن قدراً من المشاعر الإنسانية، ولذلك ما أن لقي سعيد بن عثمان بن عفـــان، وكـــان أمير جيش المسلمين مالكاً حتى بهرته شخصية مالك ومظهره، وكان من أجمل الناس وجهـــاً وأحسنهم ثياباً، فقال له سعيد:يا مالك ويحك تفسد نفسك بقطع الطريق؟ وما يدعوك إلى ما يبلغني عنك من العبث والفساد وفيك هذا الفضل؟ فأجابه مالك في صراحة هي أقرب إلى البساطة: يدعوني إليه العجز عن المعاني ومساواة ذوي المروءات ومكافأة الإخوان. قال سعيد: فإن أنا أغنيتك واستصحبتك أتكف عما كنت تفعل ؟ قال: إي والله أيها الأمير أكف كفاً لم يكف أحد أحسن منه، فاستصـــحبه سعيد وجعل له خمسمائة درهم كل شهر.وهنا تبدأ شخصية مالك بن الريب في الظهور عـــلى حقيقتها وسجيتها، لقد كان ما فات من اللصوصية وقطع الطريق سحابة سوداء دخيلة على حـــياة مالك، وأما الآن فقد بدأ يتصرف كما يتصرّف الفرد المفعم بأسباب من الله:الإنسانية، فذهب قبل الانصراف مع الجيش خارج الديار إلى توديع ابنته التي تعلقت بثوبه وبكت وقالت له: أخشى أن يطـــول سفرك أو يحول الموت بيننا فلا نلتقي، فبكى مالك وربما لأول مرة تنهمر دموعه حسرة على تـــرك ابنته، وأنشأ هذه القصيدة التي تلقى من قارئها غرابة ودهشة إذا ما عرف أنها صادرة عن لص الأمس وقاطع الطريق وقاتل النفس ومعكر صفو الأمن. إن القصيدة مترعة بالعاطفة المتزاجمة في ثنايا أبياتها الأولى مفعمة بالإيمان والتقوى، والاعتماد على الله والتسليم له بحيث يذهب خاطر المرءوفكره

---

313 -كان الحجاج معلماً للأولاد وهذه المهنة غير محترمة فكان يغادره الصبيان ماءً ثم يعودون إليه صباحاً.

إلى أن مالكــاً اللــص، لم يكن إلا شيطاناً رجيماً غريباً تقمص شخص مالك النقي الصوفي، فأفسده وجرفه إلى الانحراف. يقول مالك وهو يبكي مودعاً:

ولقد قلتُ لابنتي وهي تبكي بدخيلِ الهمومِ قلباً كئيبا

وهي تُذري من الدموعِ على الخد ين من لوعةِ الفراقِ غروبا

عبراتٍ يكدنَ يجرحنَ ما جُزنَ به أو يدعنَ فيه ندُوبا

حذرَ الحتفِ أن يصيبَ أباها ويلاقي في غيرِ أهلٍ شعوبا[314]

اسكتي قد حززت بالدمعِ قلبي طالما حزَ دمعكنَّ القُلوبا

فعسى اللهُ أن يدُافعَ عني ريبَ ما تحذرينَ حتى أؤوبا

ليس شيءٌ يشاؤه ذو المعالي بعزيزٍ عليه فادعي المجيبا

أنا في قبضةِ الإلهِ إذا كنتُ بعيداً أو كنتُ منكِ قريبا

كم رأينا امرأً أتى من بعيدٍ ومقيماً على الفراشِ أُصيبا

فدعيني من انتحابكِ إني لا أُبالي إذا اعتزمتُ النحيبا

لقد أبلى مالك البلاء الحسن في الغزو تحت لواء أميره سعيد بن عثمان بن عفان، ولكن الغيبة طالت والشوق إلى الأهل قد استبد به، والحنين إلى ديار قومه قد ألح عليه، فكان يترجم ذلك بمقطوعات من الشعر في غاية الرقة والعذوبة كمثل قوله:

تذُكرني قِبابُ التركِ أهلي ومبدآهم إذا نزلوا سناما

وصوتُ حمامةٍ بجبالِ قِس دعت مع مطلع الشمسِ الحماما

فبتُ لصوتها أرقا وباتت بمنطقها تراجعني الكلاما

ولكن شعره الإنساني يصل إلى ذروته، حين أحس بالموت يقترب منه وهو غريب عن أهله ودياره، وما أكـــثر ما رثى الغرباء أنفسهم حين أشرفوا على الوفاة، وفي صفحات كتب الأدب ذخيرة وفيرة من هـــذا النوع من الشعر الذي يأخذ بمجامع النفس ويمس شغافها، ولكن قصيدة مالك تأتي على رأس

---

[314] -شعوبا: الموت

القصائد صوغاً وإحساساً وانفعالا وإيقاعا وصدقا. مرض مالك بن الريب متأثرا بجراحه، وقيل أن أفعى لسعته فمرض، إثر عودة سعيد بن عثمان بن عفان من خرسان، بعد أن عزله معاوية، فلما أشرف على الموت، تخلف عن الركب، وتخلف معه رفيقان له، هما اللذان بسببهما جعل خطابه لاثنين في قصيدته هما: مرة الكاتب والثاني رجل من قومه من بني تميم، وحين حضرت الوفاة مالكاً رثى نفسه بهذه الأبيات التي تعتبر من أعمق ما رثى به شاعر نفسه، وفي لحظات الشدة وقبل وفاته تخيل الماضي بكل سكناته وحركاته، وتصور المستقبل بكل ما فيه، وعبر عن كل ذلك بهذه القصيدة الخالدة:

ألا ليتَ شعري هل أبيتنَّ ليلةً بجنبِ الغضى أُزجي القِلاص النواجيا[315]

فليتَ الغضى لم يقطعِ الركب عرضهُ وليتَ الغضى ماشى الركابَ لياليا

لقد كان في أهل الغضى لو دنا الغضى مزار ولكن الغضى ليس دانيا

ألم ترني بعتُ الضلالةَ بالهدى وأصبحتُ في جيشِ ابن عثمانِ غازيا

لعمري لئن غالت خراسانُ هامتي لقد كنتُ عن بابي خراسانَ نائبا[316]

تذكرت من يبكي علي فلم أجد سوى السيف والرمح الرديني باكيا[317]

وأشقرَ خنذيذٍ يجر عنانه إلى الماء لم يترك له الدهر ساقيا[318]

ولكن بأطراف السمينة نسوةٌ عزيزٌ عليهن العشيةَ ما بيا

ثم ينطلق مالك وهو في نزعه الأخير فيأتي بالمعاني المؤثرة الحزينة الشفافة، ويصوغها في أنقى لفظ، وأرق عبارة على هذا النحو الفذ من فن القصيد:

فيا صاحبي رحلي دنا الموتُ فانزلا برابيةٍ إني مقيمٌ لياليا

أقيما عليّ اليومَ أو بعض ليله ولا تعجلاني قد تبين ما بيا

وقوما إذا ما استل روحي فهيئا لي السدر والاكفان ثم ابكيا ليا[319]

---

[315] -الغضى: اسم واد قرب البصرة . أزجي : أسوق النوق.القلاص النواجيا: النوق السريعة.

[316] - غالت: أهلكت.

[317] - الرديني : نسبة إلى ردينة وهي امرأة كانت تقوم الرماح.

[318] -خنذيذ: جواد قوي صلب. عنانه:اللجام الذي تمسك به الدابة.

[319] -السدر:شجر يغسل بورقه الميت.

وخطا بأطرافِ الأسنةِ مضجعي ... ورُدا على عيني فضلَ ردائيا

صريعٌ على أيدي الرجال بقفرة ... يسوون قبري حيثُ حمَ قضائيا

ولما تراءت عند مروٍ منيتي ... وخلّ بها جسمي وحلت وفائيا

أقول لأصحابي : ارفعوني لأنني ... يقر بعيني أن سهيلٌ بدا ليا[320]

ولا تحسداني بارك الله فيكما ... من الأرضِ ذاتِ العرض أن توسعا ليا

خذاني فجراني ببردي إليكما ... فقد كنتُ قبل اليوم صعباً قياديا

وقــد كنت عطافاً إذا الخيل أدبرت ... سريعاً لــدى الهيــجا إلى من دعانيا

وقد كنت محموداً لدى الزاد والقرى ... وعن شتم ابن العم والجار وانيا

يقولون : لا تبعد وهم يدفنونني ... وأين مكانُ البعد الا مكانيا

غداة غــد يا لهف نفسي على غــدٍ ... إذا أدلجــوا عنــي وخُلفتُ ثاويــا

وأصبح مالي من طريف وتالــد ... لغيــري وكــان المال بالأمس ماليا

اقلبُ طرفي فوق رحلي فلا أرى ... بــه من عيــون المؤنســات مراعيا

وياليتَ شعري هل بكت أمُّ مالكٍ ... كما كنتُ لو عالوا بنعشكِ باكيا

إذا مت فاعتادي القبور فسلمي ... على الريم أُسقيتِ الغمام الغواديا

فيا ركباً إما عرضت فبلغن ... بني مالكٍ والريب : أن لا تلاقيا

وبلغ أخي عمرانَ بردي ومئزري ... وبلغ عجوزَ اليوم أن لا تدانيا

وبلغ سلامي على شيخيَ مني كليهما ... وبلغ كثيراً وابنَ عمي وخاليا

وبالرملِ مني نسوةٌ لو شهدنني ... بكينَ وفدينَ الطبيب المداويا

فمنهن أمّ وابنتاها وخالتي ... وباكية أخرى تُهيجُ البواكيا

وما كان عهد الرمــل مني وأهــله ... ذميــماً ولا بالرمــل ودعت قاليــا[321]

---

[320] -سهيل : نجم يطلع من جهة اليمن بلد الشاعر.

[321] -قاليا : مبغض. الرمل :اسم مكان ببادية البصرة.

على أن من يتتبع مراحل قيادة سعيد بن عثمان حين أشتد أوار الحرب في مناطق السند وسمرقند، يجد لمالك دوراً واضحا فيها، فهو يستنهض الهمم ويدعو إلى الكر والفر، ولم يقف الأمر بمالك أن يكون صاحب رأي في الحرب شداً وإقداماً، وإنما كان صاحب رأي في الانسحاب إذا ما دعا الأمر إلى ذلك، وباتت نتيجة المعارك غير مأمونة العواقب، ومما يروى أن فصل الشتاء قد بدأ يزحف على تلك المناطق، ومعلوم أن شتاؤها كثير الثلج وشديد البرد، مما لا يتيح للجيش فرصة الاستمرار في الجهاد، بل ربما أتاح الفرصة لسكان تلك البلاد أن ينقضوا على جيش المسلمين، ويوقعوا به بعض الهزائم، فالبلاد بلادهم، وهم معودون على مناخها البارد وشتائها المثلج، وليس الأمر كذلك فيما يتعلق بسعيد ومالك وبقية فرسان الفتح الذين لم يألفوا هذا الطقس، فجعل مالك يقول في ذلك هذا القول العاقل الناضج:

هبت شمالٌ خريقٌ أسقطت ورقاً ... واصفر بالقاعِ بعد الخضرةِ الشيح

فارحل هُديت ولا تجعل غنيمتنا ... ثلجاً تصفقُهُ بالترمذِ الريحُ

إن الشتاءِ عدوٌ ما نقاتلُهُ ... فاقفل هديتَ وثوبُ الرقِّ مفتوحُ

ولقد أذعن سعيد لرأي مالك،وتحقق للمسلمين النجاة والنصر،لكن أمراً أوشك أن يقع، وهو أن الخليفة في دمشق لم يرق له وفرة النجاح في الغزو والانتصارات المتتابعة التي حققها جيش سعيد، فأرسل إليه طالباً العودة، فعاد ومعه مالك، إلا أن مالكاً لم يكمل الطريق ولقي ربه وهو بطريق العودة لأبنته وأهله، ودفنه صاحباه بعد أن بكى نفسه ورثاها ذلك الرثاء الفريد الذي مر ذكره.

إن حياة مالك التي عاشت الانحراف وقاست منه، لكنها كانت نبيلة في ثناياها وعمقها، وما إن رأت قبساً من الحنان والإيمان ونوراً من القائد سعيد بن عثمان حتى عادت إلى جوهرها الحقيقي، وهذا يبين لنا بجلاء مدى حاجة الإنسان إلى الرعاية الاجتماعية والأمن النفسي من مجتمعه، وحين لا يجد الفرد الاعتبار والتقدير الاجتماعي، فأنه بدون شك ينحرف، وما أكثر هؤلاء الذين يعيشون الحياة بملل من خلف ظهرانينا من دون أن نعلم وأحيانا ندري ذلك، وعلينا أن ننظر للناس بمحبة وتقدير واحترام، فالحياة الاجتماعية غذاء للروح الإنسانية لا بد من توافرها.

.ورحم الله الحكيم (جست) وهو يقول:

(من لا يستطيع أن يفكر يكون مجنوناً، ومن لا يريد أن يفكر يكون متعصباً، ومن لا يجرؤ على أن يفكر يكون عبداً).

المقنع الكندي

حكمة:

(قيل: لـ"قس بن ساعدة": ما أفضل العقل؛ فقال: معرفة الرجل نفسه.وقيل له: ما أفضل العلم ؟ فقال: وقوف الرجل عند علمه.وقيل له:ما أفضل المروءة؟ فقال: استبقاء الرجل ماء وجهه. وقيل له : ما أفضل المال؟ قال: ما قضى به الحقوق).

أنتم أيها الناس تشربون الخمر لتسكروا، وأنا أشربها لأصحو من خمرة غيرها، وليست حقيقة الإنسان بما يظهره لك، بل بما لا يستطيع أن يظهره. لقب بالمقنع لأنه بقي طول الدهر لا يحسر اللثام عن وجهه، فلا يمشي إلا مقنعاً بسبب جمال وجهه وكمال خلقته، وخوف أصابته بأعين الناس، فهو محمد بن ظفر بن عمير بن أبي شمر من بني كندة من عرب الجنوب، ونشأ في بيت وجاهة وسيادة وكان متخرقاً في عطاياه (كثير السخاء) سمح اليد بماله، لا يرد سائلا عن شيء حتى أتلف كل ما خلفه أبوه من مال، فاستعلاه بنو عمه بأموالهم وجاههم ونفروا منه.إلا أن المقنع رغب في خطب ابنة عمه من إخوتها، فرفضوا أن يزوجوه إياها وعيروه بفقره وإسرافه وبالديون التي كانت عليه، مما حز في نفسه ذلك فانشد:

يعاتبني في الدين قومي وإنما ديوني في أشياء تكسبهمُ حمدا

ألم ير قومي كيف أوسر مرة وأعسر حتى تبلغ العسرة الجهدا

فما زادني الإقتار منهم تقرباً ولا زادني فضل الغنى منهم بعدا

أسدّ به ما قد أخلوا وضيعوا ثغورَ حقوقٍ ما أطاقوا لها سدا

فليسامح الله الأهل وليغفر لهم اتهاماتهم للشرفاء، أصحاب المروءة والكرم، وبخاصة عندما يقسون على أولادهم في أوقات العسرة، حيث يعتبر المقنع نفسه فرداً منهم، وما الديون التي وقعت عليه، إنما أراد بها إكساب قومه الحمد وعلو السمعة والرفعة وفخر المجد لهم، وما كان ذات يوم بغناه يترفع عنهم ولا بفقره يتودد إليهم أبداً:

وفي جفنةٍ ما يُغلقُ البابُ دونها مكللةٍ لحماً مدفقةٍ ثردا

وفي فَرسٍ نهد عتيقٍ جعلته حجاباً لبيتي ثم أخدمتُه عبدا

وإن الذي بيني وبين بني أبي　　وبين بني عمي لمختلفٌ جداً

أراهم إلى نصري بطاء وإن هُمُ　　دعوني إلى نصر أتيتهم شدا

فإن أكلوا لحمي وفرتُ لحومهم　　وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم　　وإن هم هووا غيي هويت لهم رشدا

وإن زجروا طيراً بنحس تمر بي　　زجرتُ لهم طيراً تمر بهم سعدا

أنه يدعهم يفعلون به ما يرغبون من إلحاق الضرر والأذى، فأخلاقه أرفع، وتأنف مما يقولون وما يتهمون، ولم ير ذات يوم مساعدة منهم قط، ولا ثناء ولا حمد، ويسامحهم حتى لو تمنوا له الشؤم والنحس، فهو كريم لا يحمل الحقد عليهم، ويبين أن من صفات كبير القوم تجاوز الحقد، لأنه من كرام القوم وأن مرتبته بالأخلاق تفوق كبير القوم:

ولا أحملُ الحقدَ القديم عليهم　　وليس رئيس القوم من يحمل الحُقدا

لهم جُل مالي إن تتابع لي غنىً　　وإن قل مالي لم أُكلفهم رفدا

وإني لعبدُ الضيفِ ما دام نازلاً　　وما شيمةٌ لي غيرها تشبه العبدا

ويبين المقنع أنه يكرم الضيف بماله ولا يكلف قومه شيئاً، فيمثل بسعة أخلاقه المرشد النفسي الواعي المتبصر والداعي للتمسك بالأهل والعشيرة بعيدا عن الذم والقدح، وللمقنع الكندي أبيات في المشيب منه:

نزلَ المشيبُ فأينَ تذهبُ بعده ؟　　وقد ارعويتَ وحان منكَ رحيلُ

كان الشبابُ خفيفةً أيامه　　والشيب محمله عليّ ثقيل

ليس العطاء من الفضول سماحة　　حتى تجودَ وما لديكَ قليل

وينحني المقنع للمشيب الذي أخذ ينذره بأن أيام الرحيل تقترب رويدا رويداً، وينعي أيام الشباب بحسرة لأنها تمر بسرعة بخلاف أيام الشيب التي تسير ببطء وتترك النفس في أسى وحزن عميق عما مضى من العمر، ويبين أن العطاء هو ما تقدمه النفس حتى ولو كانت لا تملك غير ذلك. وله في معنى الكرم أبيات منها:

إني أحرضُ أهلَ البُخلِ كلُهمُ لو كان ينفعُ أهلَ البخلِ تحريضي

ما قل مالي إلا زادني كرمًا حتى يكون برزق الله تعويضي

والمال ينفعُ من لولا دراهمه أمسى يُقلبُ فينا طرف مخفوضِ

لن تخُرجَ البيض عفواً من أكفهم إلا على وجعٍ منهم وتمريض

كأنها من جلود الباخلين بها عند النوائب تحُذى بالمقاريض[322]

يدعـــو أهل البخل لفعل الخير مشيراً إلى أن العطاء وفعل الخير لا ينقص المال أبداً، ويوضح للبخلاء نهايـــة ألـــيمة وعاقبة غير محمودة، وأن عطاءهم الذي يقدموه يعلل بشكاياتٍ وأوهام وأوجاع تقض نفوسهم وفي الوقت نفسه لا تفك العاني، لذا فهم عرضة للسوء والابتعاد عنهم، ويبين أنه لأنه لا خير فيهم ولا في عطائهم.وهكذا تبدو شخصيته سوية بكل معنى الكلمة، لأنه يدعو إلى التسامح والتمسك بوحدة الأهل والوطن، ويبين بأسلوب إرشادي واجبات الفرد تجاه أهله مهما بلغ خطؤهم بحقه، ومن جهة أخرى يدعو لمحاربة البخل والتقتير والترفع عن مساعدة الآخرين.

وبما يروى أن "معاوية خطب يوماً فقال:

(إن الله يقول: "وان من شيء إلا عندنا خزائنه، وما ننزله إلا بقدر معلوم".. فعلامَ تلومونني إذا أنا قصرت في عطاياكم؟. فأجابه "الأحنف" قائلاً:

نحن لا نلومُك على ما في خزائن الله... ولكن على ما أنزل الله من خزائنه، فجعلته في خزائنك وحلْتَ بيننا وبينه).

---

322 --المقاريض: المقص وتعني أن البخلاء عند دفع المال كأنما تقص جلودهم بمقص . تحذى :تقطع .

النعمان بن بشير الأنصاري

قال المستنصر بالله:

(والله مـــا ذل ذو حق ،وإن أطبق العالم عليه. ولا عز ذو باطل ولو طلع القمر من بين جنبيه).

اعلموا أيها الناس أن النهار يزودكم بقوة المعرفة، ويعلّم أناملكم الحذق في فن الأخذ، ولكن الليل هو الذي يقودكم إلى خزانة كتر الحياة.إنه الصحابي الذي روى عن الرسول ﷺ أحاديث كثيرة، وكان خطيباً وشاعراً مجيداً وفنون شعره في الفخر والحماسة والنسيب مشهورة، فصيح الألفاظ رقيق المعاني، وأمه عمرة بنت رواحة أخت عبد الله بن رواحة الصحابي الجليل، ولوالد النعمان سابقة في الإسلام: شـــهد بـــيعة العقبة ومعركة بدر ولما توفي الرسول، وأراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يحسم الخـــلاف بـــين المسلمين، وقدّم أبا بكر للخلافة رضي الله عنه كان بشير بن سعد أول المبايعين لأبي بكر.وأما النعمان فكان أول مولود للأنصار بعد الهجرة، ولما بلغ الثامنة من عمره، جاء إلى النبي ﷺ مـــع رفيق له ليشهدا إحدى الغزوات فاستصغراهما الرسول ﷺ وردهما. نشأ النعمان بن بشير أموي الهوى، وحين قتل عثمان بن عفان دفعت إليه نائلة زوجة عثمان قميص عثمان، فحمله إلى معاوية ثم شهد معركة صفين مع معاوية.وتولى النعمان بن بشير القضاء في دمشق في زمن معاوية، ثم تولى قضاءِ الكوفة لمدة سبعة أشهر وبعدها تولى إمارة حمص. وبهذه الأثناء تغزل عبد الرحمن بن حسانُ بن ثابت الأنصاري برملة بنت معاوية، فحمي أنفُ يزيد بن معاوية، وانزعج فاستدعى كعب بن جعيل التغلبي، وطلـــب مـــنه هجاء الأنصار فقال له كعب: أرادي أنت إلى الكفر بعد الإيمان ؟ أأهجو قوماً نصروا رســـول الله ﷺ ؟ولكـــنني أدلـــك على شاعر يفعل ذلك ودله على الأخطل التغلبي.فاستدعى يزيد الأخطل التغلبي من الجزيرة، وأطلقه على الأنصار، فقال الأخطل أبياته المشهورة التي يقول فيها :

ذهبت قريشٌ بالمكارم والعُلا والل
ؤم تحتَ عمائمِ الأنصار

ويـــروى أن الـــنعمان بـــن بشير جاء إلى معاوية بن أبي سفيان على رأس وفد للأنصار في أمر هجاء الأخطل للأنصار. وقال للحاجب: استأذن للأنصار، وكان عمرو بن العاص عند معاوية فقال لمعاوية: قـــل للحاجب أن ينادي الوفود بأنسابهم، ففعل الحاجب ذلك.فأبى الأنصار أن يدخلوا حتى ناداهم

بلقبهم. فدخل الأنصار على معاوية يتقدمهم النعمان بن بشير وهو يقول:

يا سعدُ لا تجبَ النداء فما لنا	لقبٌ نجيب به سوى الأنصارِ
نسبٌ تخيرهُ الإله لقومنا	أثقل به نسباً على الكفارِ !
إن الذين ثووا ببدرٍ منكمُ	يوم القليبِ هم وقود النار[323]

فدخل النعمان بن بشير على معاوية فرفع عمامته عن رأسه ثم قال: يا معاوية أترى لؤماً ؟ لله درك من فـارس يـرفع لواء الأنصار مفتخراً : لا يخاف في الله لومة لائم.وفي أثناء دخوله على معاوية بن أبي سفيان أنشده قصيدة جاء فيها:

معاوي إلا تعطنا الحق تعترف	لحى الأزدِ مشدوداً عليها العمائمُ[324]
أيشتمنا عبدُ الأراقم خلةً	وماذا الذي تجري عليك الأراقم[325]
وما لي ثأرٌ دونَ قطعِ لسانه	فدونكَ من يُرضيه عنك الدراهم[326]
زُراعِ رويداً لا تسمنا دنيةً	لعلك في غبّ الحوادث نادم[327]
متى تلقَ منا عُصبةً خزرجيةً	أو الأوسَ يوماً تخترمكَ المخارم[328]
فأن كنتَ لم تشهد ببدر وقيعة	أذلت قريشاً والأنوف رواغم[329]
فسائل بنا حيي لؤي بن غالب	وأنت بما تُخفي من الأمر عالم
ضربناكم حتى تفرق جمعكم	وطارتِ أكفٌ منكم وجماجم

ووقـف بجرأة الفارس الشجاع يطالب معاوية بالقصاص من شاعر تجاوز الأعراف والقيم في التطاول على أنصار النبي ﷺ، مذكراً معاوية بن أبي سفيان بفرسان الأنصار في معركة بدر وغيرها من الوقائع،

---

[323] بدر: استقر. بدر : معركة بدر .القليب: البئر الذي وضع به قتلى المشركين. هو وقود النار: لأنهم كفار فهم أهل النار.

[324] -إن لما تنصفنا تضطر إلى أن تحارب قومنا:الأزد:قوم النعمان بن بشير من عرب اليمن.

[325] -يشتمنا: يهجونا. الأراقم: حي من بني تغلب. ما تجري عليه الأراقم: ما صلة الأراقم بك؟ ولعلها تدفع عنك الأحداث.

[326] – مالي ثأر سوى قطع لسان الأخطل قصاصاً له على هجاء الأنصار ولست ممن يقبل الدراهم ويرضى بالمال عن الثأر لشرفه.

[327] -زراع:أسم كلب والمقصود بذلك الأخطل. لا تسمنا دنية: لا تسيء إلينا بهجائك.

[328] – أخترمتك المخارم: أخذتك المصائب وقتلتك. عصبة: جماعة من الأوس أو الخزرج تذهب للقضاء عليك في عقر قومك.

[329] -نحن في وقعة بدر هزمنا قريشا وأذللناهم وكان معاوية الذي يحميك الآن فيهم فانهزم وذل معهم.

وكـيف لقنوا أعداء الإسلام درساً في الدفاع عن دعوة الإسلام بينما كان آباؤك يا معاوية يحاربون النبي ﷺ ويقاتلونه، ثم حسم معاوية هذا الموضوع بأن استرضى النعمان، ورد الأخطل إلى بلده وألقى على يزيد درساً في الحلم والتبصر. بقي النعمان بن بشير والياً على حمص بقية أيام معاوية، ثم في أيام يزيد وأيام معاوية بن يزيد. ولكن حالما دب النزاع بين الأمويين على الخلافة بعد يزيد بن معاوية، مال النعمان إلى عبد الله بن الزبير، فأحفظ بذلك أهل حمص، ولما كانت معركة مرج راهط والتي انهزم فيها جيش ابن الزبير، وقد استتب أمر الخلافة لمروان بن الحكم، ائتمر أهل حمص بالنعمان وقتلوه.

بدت شخصية النعمان بن بشير قوية الجانب طيبة الأخلاق تدعو لمكارم الأخلاق ونصرة الحق والذود عـنه والتمسك به، لم تعرف الجبن والخوف وهذا بفضل ثمرة الإيمان بالله عز وجل ولهذا جاء سلوكه سوي لأنه تخرج من مدرسة النبوة الأولى.

رحم الله الإمام محمد عبده وهو يقول:

(من عرف قيم الحق، عزّ عليه أن يراه مهضوماً، وأعلم أن القصاب لا تهوله كثرة الغنم).

الوليد بن يزيد

قال نيتشه:

(من يذهب إلى وليمة الذئب، يجب أن يصحب كلبه معه).

ليتني كنت قصبة يدوسها المارة بأقدامهم، فإن ذاك خير من أن أكون عوداً ذا أوتار فضية في بيت ليس لصاحبه أنامل وأولاده صم عن الحقيقة، إنه الخليفة الأموي الحادي عشر وحفيد الخليفة الأموي الخامس عبد الملك بن مروان، وأمه أم الحجاج بن محمد بن يوسف الثقفي بنت أخي الحجاج المشهور، وكان الوليد بن يزيد يكنى أبا العباس. ولد الوليد بن يزيد سنة**708**م وتوفي**744**م وأراد أبوه يزيد بن عبد الملك أن يعقد له ولاية العهد، فقالوا له إن الوليد طفل، فاجعل ولاية العهد لأخيك هشام، ثم لأبنك الوليد، ففعل وحين توفي يزيد بن عبد الملك خلفه أخوه هشام، وبقي في الخلافة عشرين سنة، وحاول تحويل ولاية العهد إلى ابنه مسلمة، فلم تمكنه الظروف بسبب موته، وعندما توفي هشام خلفه الوليد. كان الوليد من فتيان بني أمية وظرفائهم وشجعانهم وأجاودهم وأشدائهم منهمكاً في اللهو والشراب وسماع الغناء، مستهتراً بالمعاصي عاكفاً على اللذات منتهكاً للحرمات زنديقاً، وحين ولي الخلافة أمعن في ذلك كله وترك أمر الدولة، فساء الناس ذلك منه، وأطمع به الطامحين إلى الخلافة فقتلوه.فعرف بكونه شاعراً مجيداً في الخمر، و له فيها أشعار كثيرة أخذها الشعراء، فأدخلوها في أشعارهم أو سلخوا معانيها، كما فعل أبو نواس والحسين الخليع بن الضحاك. وكانت له أشياء في الفخر والرثاء والخمر، ومع أن الخمريات الخالصة عنده قليلة ومعظمها مقاطع قصيرة، فإن خصائصها واقتصارها على الخمر وحدها تجعله أول من خرج بالخمر وصرح بها علانية. وللوليد بن يزيد موقف عندما نُعي له موت الخليفة هشام وصارت الخلافة إليه قال:

طاب يومي ولذ شُربُ السُلافه ... إذ أتانا نَعِيُّ من بالرصافه

وأتانا البريدُ ينعَى هِشاماً ... وأتانا بخاتمٍ للخلافه

فاصطبحنا من خمرِ عانةَ صرفاً ... ولهونا بقَينة عَزّافه

لا يهمه أمر الخلافة ولا يعنيه شأنها، لأنه ليس من فرسانها الراغبين فيها ولا حاجة له بها، ويظهر بوضوح سخريته من وصولها له على الرغم من عزوفه عنها، وراح يمعن في الشراب مع غانية اعتبرها أفضل وأملح له من ولاية الأمر، ما هذا الخليفة الغريب الأطوار !؟ الذي لا يحركه سوى كأس وندامة قيان؟ لا غرابة في ذلك، لأن الخلافة ليست من هواياته ولا من طموحاته السياسية، ولا مكان لها في قلبه، لذلك عزف عنها سعيداً، وفي الوقت نفسه تتلهف نفوس أخرى لاقتناصها، يا للغرابة تجري الرياح بما لا تشتهي السفن؟ وقد قال في الخمر أبياتا من بديع الكلام ونادرة وقد أجاد فيه حيث يقول:

اصدع نجِيّ الهمومِ بالطربِ   وانعم على الدهر بابنةِ العنبِ

واستقبلِ العيشَ في غضارتهِ   لا تقفُ منه آثار معتقبِ

من قهوةٍ زانها تقادمها   فهي عجوزٌ تعلو على الحقب

أشهى إلى الشربِ يومَ جلوتها   من الفتاةِ الكريمةِ النسب

فقد تجلت ورق جوهرها   حتى تبدت في منظرٍ عجب

فهي بغيرِ المزاجِ من شررٍ   وهي لدى المزج سائل الذهب

كأنها في زجاجها قبسٌ   تذكو ضياءً في عين مرتقب

في فتيةٍ من أميةَ أهلِ المجد والمأثرات والحسب

ما في الورى مثلهم ولا فيهم   مثلي ولا منتمٍ لمثل أبي

يعالج الهموم ويداويها بمعاقرة الخمرة، ويقوم بإرشاد أصحابه وخلانه لمعاقرة الخمرة وحثهم لفعل المعاصي بأسلوب مغرٍ، لأنه يبين بجلاء تأثيرها في النفس ولذة شربها ونشوتها التي تغير حاله من حال إلى حال، ويفضلها على الغرام بالفتيات، فالخمرة أشهى وألذ من كل الطيبات، ويدعو أصحابه لاحتسائها ففيها المجد والعزة، ويتغنى بخمرة العنب واصفاً لها بالقهوة المنشطة والمنعشة للروح.. ولله في

خلقه شؤون !ولنمعن النظر بهذه الحادثة:

(شـــتم رجل الأحنف وجعل يتبعه حتى بلغ حيهّ. فقال له الأحنف: يا هذا إن كان قد بقي في نفسك شيء فهاتِه وانصرف، لئلا يسمعك بعض سفهائنا فتلقى ما تكره).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

نماذج من العصر العباسي

مقدمة العصر العباسي:

حكمة:

(الشجرة لا تحرم حتى الحطاب ظلها، وليعلم أن من أكثر مخالطة الناس أهانوه، ومن بخل عليهم مقتوه، ومن حلم عليهم وقروه، ومن أجاد عليهم أحبوه، ومن احتاج إليهم أبغضوه).

عصر يعد من أنفس العصور العربية على الإطلاق بسبب ما خلفه من حضارة وثقافة وفن وحوار وحرية، ومازال حياً بإرثه الأدبي وخاصة الجانب الإبداعي فيه من فنون الشعر والحكمة المعبرة عن واقع متميز كل التميز، وبدأ بسقوط الدولة الأموية التي كانت عربية عصبية في الشام، وقيام دولة بني العباس الذين أصبحت دينية جامعة في الكوفة سنة132هجرية، وحقيقة الأمر أن البيئة العربية لم تنقلب فجأة، بل بدأ التبدل فيها منذ أن خرجت جيوش الفتح إلى أقطار العالم في الشرق والغرب، ومنذ أن أخذ الإسلام يسود بين غير العرب، ومنذ أن شرع البدو يتخلون عن سكنى البادية ويترلون الحواضر، ولاسيما عندما شغف الفاتحون العرب الساميون بالجمال الآري، فتزوجوا الفارسيات والتركيات والروميات، إلا أن هذا التبدل التدريجي كان قد بلغ مع قيام الدولة العباسية مبلغاً لفت الأنظار، وغطى على خصائص الشعر البدوي الأول، ومن أكثر الأسباب أثراً في تبدل المجتمع الإسلامي الزواج بغير العربيات، فقد تبدلت بيئة الحياة البيتية في المطعم والملبس وآداب السلوك، وأدت إلى نشوء جيل له عمومة عربية وخؤولة فارسيةٍ أو رومية أو تركية، وبينما كان العرب الأولون خُلصاً لايرون للأمم على العرب فضلاً في شيء، أصبح الجيل المولد الجديد يتعصب أيضاً لخؤولته، ويرى أن العرب ليسوا أفضل من سواهم في كل شيء، هذه التسوية بين غير العرب، وبين العرب هي التي سماها أهل الحميةِ العربية " الشعوبية ".وقد كثر التعرب (التشبه بالعرب) بين الموالي، وبلغ من إعجابهم بالعرب أنهم يلفقون لأنفسهم أنساباً عربية، فأبو تمام الرومي أصبح حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس الطائي..(على حسب زعم بعض الروايات)، وهكذا أصبح المسلمون من الترك والفرس والروم يشعرون شعوراً قومياً عربياً، فاللغة العربية أصبحت لغتهم والتاريخ العربي تاريخهم والحياة العربية حياتهم، حتى إن الذين لم يدخلوا في الإسلام، بل ظلوا في أهل الكتاب من النصارى

والـــيهود والصابئة كانوا لا يختلفون في شعورهم الظاهر عن المسلمين في شيء، وربما تسموا بالأسماء الإســـلامية وتكـــنوا بالكنى العربية.وأصبح الأدب يسمى في هذا العصر بالأدب المُولد، لأن معظم الأدبـــاء في هـــذا العصـــر كانوا مولدين (مولدين من أبوين أحدهما عربي والآخر غير عربي)،وسمي بالأدب المُحدث، لأن أولئك الأدباء كانوا مُحدثين (جدداً أو متأخرين فضلا عن أدباء الجاهلية وأدباء العصـــر الأمـــوي).ثم إن الأدب نفسه كان مولداً، لأنه لم يكن عربياً خالصاً في معانيه وأسلوبه، فقد دخلـــت في الأدب العـــربي فـــنون وأغراض ومعان لم يألفها الأدب العربي من قبل كالغزل بالمذكر والخمريات والتوفر على الأوصاف الحضرية، وإهمال العصبية العربية البدوية، ثم زالت دولة الجمل والطلـــل، وقام على أنقاضها دولة الرياض والحسان، وزالت من الشعر المطبوع بالطابع الجديد آثار التقلـــيد للأقدمين والاحترام لهم، و النفور من حياهم وأغراضهم، ودخل على الأسلوب شيء من الضـــعف في معرفة خصائص الألفاظ وفي التركيب، لكن الشعر أكتسب رقة في التعبير ودخل عليه الـــتكلف، كما حدث تطور فيه إذ مال المحدثون إلى الأوزان القصيرة، وإلى نظم المقطعات.وقد اتسع الوصف في العصر العباسي اتساعاً واضحاً، وتناول مظاهر البيئة الجديدة كالجنائن والمطاعم والملابس والخمـــر والزهر.ولكن تغير وجه المجتمع أسهم في خلق صورة له مختلفة عن سابقتها، فظهرت معائب وقـــبائح لم تكن مألوفة في المجتمع العربي الصافي، وإنما هي صدى لجانب منحرف من الخلق الفارسي والتركي والرومي الذي فرض سماته على الدولة الجديدة، فانتشرت الزندقة والشعوبية والإسراف في كراهية العرب والحملة عليهم والإيغال في المجون والتحلل الخلقي والمجاهرة بالمعصية والغزل بالغلمان، والإغراق في شرب الخمر وتمجيدها، وقد اسقط الشعراء انفعالاقم بمطلق الحرية، ومن ثم جاء وصف صور الشعراء مجتمعهم ذاك، وكأنه قد وسم بكل نقضية وجرد عن كل فضيلة، وهو ما يخالف الواقع مخالفة كبيرة، وعلى الرغم من ذلك فهو عصر الأئمة والعلماء، وكبار المشرعين وقد انتشر فيه الزهد وترعرع كردة فعل لفساد المجتمع وانحلاله وترديه، وممن اقموا بالزندقة وتركوا شعراً جيداً في الزهد والإيمـــان والعـــزوف عن الدنيا في الفترة الأخيرة من حياته والندم على الذنوب صالح بن عبد الله القـــدوس الذي اسقط مشاعره بندم موجع، وتحسر على العمر المنصرم بالمعاصي، فيصور صراعات النفس البشرية أدق تصوير حيث يقول:

فَوَحقِّ من سَمكَ السماءَ بقُدرةٍ والأرضَ صَيَّرَ للعِبادِ مِهَادَا

إن المُصرَّ على الذُّنوبِ لَهالكٌ صَدّقتَ قَولي أوْ أردتَ عِنادا

تأوبني هـمٌ فبتُّ أخاطبُهْ وبتُّ أُراعي النجمَ ثم أُراقِبُه

لِمَا رَابني من رَيبِ دَهرٍ أضرني فأنيابه يَبرينني ومخالبُه

وأسهرني طول التفكُّر إنني عجبت لدهر ما تقضّى عجائبُه

وليس بعجز المرءِ إخطاؤه الغِنى ولا باحتيالٍ أدرك المال كاسبُه

ولكنه قبضُ الإله وبسطُه فلا ذا يجاريه ولا ذا يغالبُه

إذا كمَّلَ الرحمنُ للمرءِ عقْلَهُ فقد كملَتْ أخلاقه ومناقبُ

إنه يبين إحساسه وتوتره النفسي ببراعة، ويكشف عن تأمل عقلي في هذا الكون، مبيناً أن أفضل نعمة يمنها الله على العبد هي رجاحة العقل وعدم الانصياع للعواطف والرغبات والشهوات. ولا بد من الإشارة إلى أنه دخلت إلى اللغة العربية ألفاظ ومعان جديدة بسبب الحياة الاجتماعية المنفتحة على كل شيء، وما جرى في البيئة العباسية من مظاهر ومعان لم يجد العرب لها في لغتهم ألفاظاً تؤديها من قرب أو من بعد، فوضعت بألفاظها الأجنبية " أي أجروا اللفظ الأجنبي في صيغة عربية قدر الإمكان "، فعلى سبيل المثال["أنذازة" الفارسية أصبحت هندسة و"كليما" اليونانية أصبحت إقليم]، فهاتان الكلمتان وأمثالها هي الألفاظ المعربة، وبقي عدد من الكلمات لم يمكن تعريبها كذلك، فظلت مدة على لفظها الأجنبي، مثل" أباذميا"و"اسطقس" و"اسطرونوميا"، ثم أوجدت لها ألفاظ عربية هي " الوباء"، "العنصر"، "والهيئة أو الفلك". ثم بقيت ألفاظ لم يجد العرب حاجة إلى تعريبها، أو لم يتأت لهم تعريبها نحو قانون، جغرافية، إسطرلاب..الخ. وهذه كلها تسمى الألفاظ الدخيلة لأن العجمة ظلت ظاهرة عليها.

وهكذا فليس معنى سقوط دولة بني أمية، وقيام دولة بني العباس أن يتحول شعر الشعراء بين يوم وليلة إلى لون آخر، وفن آخر يسمى اللون العباسي، أو الفن الهاشمي، فالحق للسياسة أن تغير نفسها في أي وقت تشاء، وأما الشعر فهو كالكائن الحي الذي لا ينتقل من مرحلة الطفولة إلى دور الشباب

مرة واحدة، بل يأخذ مراحل متتابعة متدرجة. فالأدب شعره ونثره تتقدم به الأيام، ويظل بعضه ناظراً إلى الماضـــي ممسكاً بعاداته وتقاليده، والبعض الأخر يأخذ من بيئات الماضي وبعض سماها، ويأخذ من البيـــئة الحاضرة قدراً مساوياً لما أخذه من بيئته الماضية، وبعض ثالث يكون تأثره بالبيئة الجديدة أكثر من سابقيه، فيطور نفسه معها، ولكن بحكم سنة الطبيعة تظل أعماقه مرتبطة ببيئته القديمة، يحن إليها وهفوا نفسه إلى آثارها، وأما النقلة الأدبية المفاجئة فهي مستحيلة الحدوث، لأنها ضد طبيعة الأشياء، وضـــير حـــين الحديث عن الشعر العربي الذي عاش في فترتي بني أمية وبني العباس أن نجده يحبو نحو التداخل المنظم، ويسير سيراً بين الوئيد والنشط، لكي يلتحق بالمجتمع الجديد، يتطور شيئاً فشيئاً حتى يكـــون هـــو ومنشئه المنطلق، الذي منه يقفز الشعراء الذين ولدوا في الدولة الجديدة قفزات تدفع بأكثرهم إلى الأمام، وأحياناً ترتد ببعض منهم إلى الوراء. وسوف يتصدر موائد الشعر في هذه المرحلة ولســـوء الحظ جماعات من الشعراء أكثرهم من غير العرب، والعرب منهم وهم قلة، أفسدهم البيئة الجديـــدة وجعلـــتهم يقـــبلون من العادات ما يستقبحها قومهم، ويتبعون من السلوك ما يتنافر مع تقالـــيدهم ومـــروءهم، جعلوا الخلاعة شعاراً لهم والمجاهرة بالفاحشة عنوانا، والتحلل الخلقي ديدنا، والابتعاد عن القيم مقصداً والزندقة معتقداً، إن عمراً الخاركي الماجن ينكر البعث، ويعلن زندقته في شعره فيقول:

قد كنتُ أرجـــوك إلى ســـلوةٍ فطـــال في حبسِ الضـــنى لبـــثي

وعِشتُ كالمغـــرور في دينـــه يوقُـــن بعَـــد المـــوت بالبعـــثِ

يكشف وبصراحة عن دوافع الصراع التي تعتري نفسه، فهو يقف من الإيمان بالحشر والنشر موقف الشـــك، ويصف عبادته وتمسكه بالدين بالمغرور وكالأعمى الطائش، وهذا أبو نواس يعلن زندقته في عرض حياته، ولم يعد إلى دينه إلا حين دب في جسمه دبيب الموت والفناء فيقول:

يا ناظـــراً في الديـــن مـــا الأمـــرُ لا قـــدرٌ صَـــحَّ ولا جَبـــرُ

ما صحَ عنـــدي من جميـــع الذي تذكـــرُ إلا المـــوتُ والقبـــرُ

يقلب الأمور ويتأمل في مسائل الدين والقضاء والقدر، فيجد حلقة مفرغة، لا تسد طموحه المتعب

مــن كــثرة الجدل النفسي لمعرفة الحقيقة، فيثور ولا يعترف سوى بالموت والقبور التي تفتح أبوابها لاســتقبال القــادمين إليها، بل إن شاعراً عرف بالزهد والإقبال على الآخرة أهم بالزندقة من بعض معاصريه لجرأته على بعض المعاني الدينية التي لم يألف الناس الخوض فيها آنذاك فيقول:

كــأن عتــابــةَ من حســنها   دمُيــــةُ قــسٍّ فتنت قســها

يــا ربِّ لــو أنســيتــنيها بــما   في جنــةِ الفردوس لــم أنســها

ويحك يا أبو العتاهية !! أجعلت من حبيبتك (عتبة) دمية يسجد لها راهب الدير وقد شغله جمالها عن ذكر الله وعبادته، ما هذا التطرف؟ بل وتتمنى أن تصحبها معك لجنة الخلد كي تكتمل سعادتك!!؟

وظهرت الشعوبية وهي التعصب الفارسي ضد العرب، وقد كشفت القناع عن وجهها الكريه في حمى الحكم الهاشمي العباسي المعتمد على ركائز فارسية، الأمر الذي كان عنواناً لتمزق المجتمع الإسلامي، وليس من شك في أن المسؤولية مشتركة بين الجانبين العربي والأعجمي، إلا أن الحصاد للأسف كان شــوكاً وعلقماً، فهذا علي بن الخليل في شعوبيته يقرن بين الموالي والتدين، وبالتالي يربط بين العرب وقلــة الديــن، وذلك حين ادعى أحد الموالي من أصدقائه نسباً عربياً في تميم، وكان كثير من الموالي يسعى أخذ الكنية العربية، وكسب نسب عربي، فلم يعجب ذلك علياً، فقال مقرعاً صديقه وساخراً من العرب:

يا أيــها الراغبُ عــن أصلــهِ   مــا كنتَ موضِــعَ هجــينِ

مــتى تعريتَ ؟ وكُنتَ امــرءا   من المــواليّ صــالحَ الديــن

لــو كنتَ إذ صــرتَ إلى دعوةٍ   فُــزت من القــوم بتــمكين

لكَــفٌّ مــن وجــدي ولكــني   أراكَ بــينَ الــضبِّ والنــون

يــذم هؤلاء اللاهثين والراغبين بالنسب العربي أقذع الذم والهجاء، بل ويسخر من السعي وراء هذه الكنية التي لا تشرفه، لأنها كلها أسماء وكنى ليرابيع وحيوانات ترتع بالصحراء، ويلوم صديقه ويقول لــه: شتان ما أنت فيه من عز! وتسعى لاستبداله وتحظى بالقرب من العرب، وأما شعوبية أبي نواس، فقد جعل منها مذهباً وذلك عن طريق التعريض بكل واقف على رسم، أو باك على دمنة مستهدفاً من

ذلك النيلي من العرب محاولاً السخرية بهم والحط من شأنهم فيقول:

قُل لمن يبكي على رسمٍ درسَ   واقفاً ما ضر لو كان جَلس

أترك الربعَ وسلمى جانباً   واصطبح كرخيةً مثل القبس

يصرخ أبو نواس قائلاً مسحقاً لهؤلاء الأعراب الذين يندبون الديار والأطلال البالية بالبكاء والنحيب والتأسي،و ينصح صاحبه أنه من الأجدر به أن يصطحب كأساً من الخمر ويسعد بها، وطبيعي أن يتطور شعر الخمر في هذا المجتمع ويأخذ أشكالا منوعة وأساليب ناعمة وموضوعات مستحدثة ومعاني طريفة، فها هو ابن هرمة يقول في التعلق بالخمر ما لم يقله شاعر قبله:

أسألُ اللهَ سكرةً قبلَ موتي   وصياحَ الصبيان يا سكرانُ

ولله في خلقه فنون، وما أغرب دوافع النفس البشريه في طموحاتها ؟ يا للغرابة من هذه الأمنية، أنه العجب ! البعض يحلم بالمال وبالملك، لكن أبن هرمه يشعر بسعادة ما بعدها سعادة، وخاصة عندما يجري خلفه الصبيان والأولاد، يضحكون عليه لترنحه، وفقدانه لوعيه بسبب الخمر، ويستهزئون به في سكره ملتفون حوله بالصياح والصراخ، ويسير على الطريق نفسه أبو نواس فيقول:

إذا متُ فادفني إلى جنبِ كرمةٍ   تروي عظامي في مماتي عروقها

ولا تدفني في الفلاةِ فإنني   أخاف إذا ما متُ ألا أذوقها

وصية يتمناها أبو نواس ويحلم بتحقيقها، أنه يسقط مشاعره ليبين ما تزخر نفسه من انفعالات.ورغم ذلك لا يمكن نكران العصر العباسي بما فيه من حضارة وبناء وحرية فكر وحوار يتسع للجميع، وهكذا كثر العمران في أيام هارون الرشيد وتوطدت أركان ملكه حتى قيل إنه كان يقول للسحابة: " أمطري حيث شئت يأتيني خراجك"، وتبين أغلب المصادر التاريخية إلى أن عصر هارون الرشيد، يعد من أزهى عصور الحضارة الإسلامية، فقد انتشرت العلوم والمعارف، وعظمت هيبة الدولة وازدهر الأدب وعم.وخلف هارون الرشيد ثلاثة من بنيه هم الأمين والمأمون والمعتصم، وكان الرشيد قد قسم البلاد سنة**179**هجرية بين الأمين والمأمون. وسرعان ما نشب النزاع بين الأخوين، وانتهى بمقتل الأمين سنة**199** هجرية، وإعادة وحدة البلاد تحت سلطة المأمون الذي كان عصره لا يقل ازدهاراً

عن عصر أبيه هارون الرشيد، غير أن النفوذ الفارسي في الدولة والجيش والحياة لم يضعف، مما جعل الحضارة الفارسية تعود لتطبع الحياة من جديد بطابعها الخاص. ولما جاء المعتصم فتح الأبواب للأتراك لـــيقاوم بهم النفوذ الفارسي، ولكنهم ما لبثوا أن قويت شوكتهم واستولوا على الجيش وبالتالي على زمام السلطة في الدولة، فكانوا يولون من يشاءون ويعزلون من يشاءون.

ورحم الله القائل:

(أن شر أيام الديك يوم تغسل رجلاه، وهنيئاً لمن بات والناس يدعون له، وويل لمن نام والناس يدعون عليه، وبشرى لمن أحبته القلوب، وخسارة لمن لعنته الألسن).

ابن الرومي

حكمة:

(قلــب الأحمــق في لسانه... ولسان العاقل بقلبه، فلا تحمل الكرة الأرضية على رأسك، ولا تظن أن الناس يهمهم أمرك، إن زكاماً يصيب أحدهم ينسيهم موتك).

إذا كان قلبك بركاناً فكيف تتوقع أن تزهو الأزهار في يديك؟ أنه علي بن العباس بن جريج ولد سنة 837م وتوفي سنة899م، فقد عاش في بغداد، لكنه رومي الأصل واسم جده جورجيوس، إلا أن في بعض أقواله تلميحاً إلى أن أمه فارسية الأصل، حيث افتخر بذلك في شعره:

كيف أغضي على الدنية والفرس خؤلتي والروم أعمامي

ومــا أن تقدمــت به الأيام حتى توفي أبوه، فكفلته أمه وأخٌ أكبر منه، وسرعان ما عبست له الحياة، فماتت أمه ومات أخوه. تزوج وأنجب أطفالاً إلا أن القدر أخذ يعصف بهم واحداً تلو الآخر وكذلك زوجته، ولسوء طالعه لا يوجد في شعره ما يدل على تقربه من الخلفاء والحظوة عند الأمراء، فهو كثير التبرم من الزمان وسوء الحال، وقلة ثواب الممدوحين كقوله:

تأمل العيب عيبُ وليس في الحق ريبُ

إن يمسك الناس عني سيباً فلله سيبُ

يــبين سوء حظه في هذه الدنيا التي لا تميز بين العيب والخير، علماً أن الحلال بيَن والحرام بيّن، وأنه مكتوب عليه رزقه ومقدر نصيبه في هذه الحياة، وعلى الفرد أن لا يتضايق من عزوف الناس عنه، ولله في خلقه شؤون.فالأقدار ينبغي التسليم بها شاء الفرد أم رفض.ويستمر في شكواه قائلاً:

ذقت الطعوم فما التذذت براحة من صحبة الأخيار والأشرار

أما الصديق فلا أحب لقاءه حذر القلى وكراهة الإعوار

وأرى العدوّ قذىً فاكره قربه فهجرت هذا الخلق عن أعذار

يوضــح مرارة العيش من الناس ولا يستطيع تحقيق سعادته من صحبة الأخيار فما بالك مع الأشرار، فيشــكو الأصدقاء وتجنبهم إياه بالأعذار المملة والمقيتة، وكذلك شأنه مع الأعداء حتى أصبح يتلهف لهجر البشر جميعاً لأنه لم يجد الراحة والسلام والآمان بينهم، ولكن أبن الرومي لم يهجر الدنيا وملذاتها كما كان يدعي، ولم يبتعد عن الناس وعطاياهم، بل بعكس ذلك فكان يتهافت على مافي الحياة، مما يشبع شهوات نفسه ويسرف كل الإسراف، وكان يرمي بنفسه على أبواب الكبراء والوجهاء طالبا رفدهم ممنياً نفسه بالحظوة عندهم. ومع ذلك تراه في شعره محروماً ناقماً أو ساخراً عابثاً، ليس له من منزلــة توجــب احترامه أو صداقة تشفي أرامه، والسبب لأن في طبعه ما يستدل من شعره، ما كان

يـــنفره من الناس، وينفر الناس منه، هذا الطبع هو الذي جنى عليه وألزمه حالة الحاجة والخمول وقد أصاب في وصف نفسه إذ قال:

أسخطت أخواني وأخفق مطمعي فبقيت بين الدور والأبواب

يفصح بوضوح عن حالته النفسية المتشائمة ومطامعه في نواياه بتعامله مع الآخرين، والتي كانت وراء تقصيته عن أبواب الملوك والأمراء وعزوفه عن الأصدقاء، مبيناً أن السبب يكمن فيه دون الآخرين، وهذا يبين لنا مهارته كعالم بخبايا النفس الإنسانية، حيث صورها بدقه معبراً عن انفعالاته الدفينة والتي تـــثيره وتحركه، وفي الوقت نفسه كان العديد من كبار الشعراء في عصره قد فاض كسبهم بينما هو حتى الخمسين من عمره، بقي يشكو الزمان، وها هو في قصيدة يرفعها إلى إسماعيل بن بلبل يشكو فيها الزمان قائلاً:

ويح القوافي ما لهـــا سفسفت حظي كأني كنت سفسفتها

أنحت علـــى حظـــي بمبراتها شكراً لأني كنت أرهفتها

أو كثفت دون الغنى سدُّها حتى كأني كنت كثفتها

حرُمتُ في سنّي وفي ميـــعتي قراي من دنيا تضيفّتها

فكرت في خمسين عاماً خـــلت كانت أمامي ثم خلفتها

لا عذر لي في أسفي بعـــدها على العطايا عفتـــهُا عفتها

يلقي باللوم على الزمان، ويتحسر على عمره الذي تجاوز الخمسين ولم يهنأ بساعة لذيذة فيه، ما هذا التـــناقض والتطرف في النظر للحياة والشكوى منها وللأسف نعيب زماننا ولكن العيب فينا، و راح بقصيدة أخرى يعاتب صديقا لأنه حسده، وفي قوله يظهر شيئاً من حاله، ونظر إخوانه إليه:

أيها الحاسدي على صحبتي العسر وذمي الزمـــان والأخوانـــا

ليت شعري ماذا حسدت عليه أيها الظـــالمي إخـــائي عيانا

أعلى أنني ظمئت وأضحى كل من كان صادياً ريّانـــا

أم على أنني أمشي حسيراً وأرى الناس كلهم ركبـــانا

أم على أنني ثكلت شقيقي وعدمت الثـــراء والأوطـــانـــا

مـــن المـــؤلم إن يســـير ابن الرومي في هذا الاتجاه و ذاك التفكير الخاطيء! وهذا مؤشر واضح على اضطراب سلوكه النفسي والاجتماعي!فيبين بلوعة مدى الضرر الذي حل به، وينسى أن طبعة وراء حـــياته هذه التي يبكيها، وينعي حظه العاثر فيها، فيلقي اللوم على صديقه الذي يحسده على تعاسة حظه وفقره، بل راح يشكو أن الناس تحسده على فقره وموت شقيقه، وعلى ما يبدو أن هذا تطرف

وانحـــراف وجداني ونظرة فيها الكثير من الملل والسأم من الحياة، ولا يملك الحق في إسقاط مشاعره واتهـــام الآخرين بهذه القسوة مهما ضاقت عليه الدنيا، لكنه ظهر عديم الثقة بنفسه، ومن فقد الثقة بنفســـه يصـــعب أن يثق بالمجتمع الذي يعيش فيه، ويبين أثر وخطورة فقده لأخيه الأكبر الذي كان يعطف عليه، وكيفما تأمل الفرد في ديوان ابن الرومي يجد هذه النفثات الناضحة بروح التبرم والغيظ والألم. ولأبـــن الرومي قريحة عقلية غربية، فهو في حال سكينته واطمئنانه لبيب مفكر، يأتيك بالحكم والأقـــوال الساخرة ولكنه عصبي المزاج شديد الانفعال، فإذا ما هاجه هائج أضاع لبه واندفع على وجهـــه لا يبالي حتى في معاتباته لكبار الرجال تجده مراً أليم اللسان، ويتجلى لك مزاجه العصبي في قوله الذي راح فيه يعاتب إسماعيل بن بلبل وقد شعر بشيء من الجفاء منه فقال ساخراً:

فما لعطاياك أضحت حمىً عليّ وأضحت لغيري نهابا
قبلتَ مديحـــي وأنشدتـــه أناساً وأمســـكت عني الثوابا
فلله أنت وما جئته إليّ لقد جئت شيئاً عجابا
أهمتك ستري عن خلتي وتغلق دون عطاياك بابا
حلفت لئن أنت لم ترضني لتنصرفن القوافي غضاباً

يعاتب إسماعيل بن بلبل بكثرة عطاياه للآخرين، وبإهماله له بالعطاء، حتى ولو القليل منه، وينسى أن من رفع مقامه مدائحه فيه، ويتعجب ابن الرومي من هذا التصرف الغريب، ويتنكر على إسماعيل بن بلـــبل قطـــع عطاياه عنه وإمساكها، ويهدده إن لم يصحح خطأه وما اقترفته يداه بحقه من إهمال له فســـوف يـــنظم فيه كلاماً قد لا يسره ولا يرضيه لأنه ملك القوافي وسيدها. وتضيق به الدنيا فهاهو يعاتب صديقه أبا القاسم الشطرنجي عتاباً جميلاً رقيق المشاعر:

يا أخي أين ريعُ ذاك اللقاء ؟ أين ما كان بيننا من صفاء ؟
أين مصداق شاهد كان يحكي أنك المخلص الصحيح الإخاء
كشفت منك حاجتي هنـــواتٍ غطِّيت برهة بحسن اللقاء
تركتني ولم أكن سيىء الظنّ أُســـيء الظنـــون بالأصـــدقاء
يا أخي ! هبك لم تهب ليَ من سعيك حظاً كســـائر البخـــلاء
أفـــلا كان منك رد جميل فيه للنفس راحة من عنـــاء
أنت عيني وليس من حق عيني غضَّ أجفانـــها فلى الإقـــذاء

يعاتب صديقه أجمل عتاب وفي الوقت نفسه يوجه له اللوم الجارح:

يا أخي ! يا أخا الدماثة والرقة والظـــرف والحـــجا والدهاء

ربما هالني وحير عقلي أخذك اللاعبين بالبأساء
لك مكر يدب في القوم أخفى من دبيب الغذاء في الأعضاء
دائباً يكنز القناطير للوارث والعمر دائب في أنقضاء
يحسب الحظ كله في يديه وهو منه على مدى الجوزاء
يا أبالقاسم الذي ليس يخفى عنه مكنون خطة عوصاء
أترى كل ما ذكرت جليا وسواه من غامض الأنحاء

ويخاطب صديقه بوصفه العالم بكل شيء وهو أيضاً في الوقت ذاته غادر وذو حيل بارعة فهو الذي يحسم اصعب المسائل بحلها:

بل تعاميت ، غير اعمى عن الحق نهاراً في صحوة غراء
ظالماً لي مع الزمان الذي ابتز حقوق الكرام للؤماء
ثقلت حاجتي عليك فأضحت وهي عبء من فادح الأعباء
ظلمت حاجتي فلاذت بحقويك فأسلمتها لكف القضاء
وقضاء الإله أحوط للناس من الأمهات والآباء
غير أن اليقين أضحى مريضاً مرضاً باطناً شديد الخفاء
لست ممن يظل يربع باللوم على منزل خلاء قواء

عتاب بمنتهى الروعة والجمال تنسجه وتحيكه قريحة الشاعر ابن الرومي في معاتبة لصديقه أبي القاسم، فيلوم الصديق بمشاعر المودة والشوق، ويلفت انتباهه إلى الأذى الذي أوقعه به ويشكو له وجعه من تصرفاته، فجعله أسير الشكوك والظنون به، طالما لم يسمح لنفسه ذات يوم الشك بمن أحبه القلب، ويصف حيرته بين الصدق والكذب والمماطلة التي يفعلها أبو القاسم معه، حتى وضعه في موضع يحتار به وكأنه يلعب به على وفق أسلوب من المكر والاحتيال لا عهد له معه في ذلك، ويوضح له أنه أصبح أعمى في تعامله معه، وحاشى من مثل أبي القاسم أن يتجاهل الحق، فهو أكثر الناس معرفة بالحق، ويعاتبه ابن الرومي بما طلبه منه، علماً إن طلبه صغير لكنه بنظر أبي القاسم أصبح كبيراً، ومتى تكبر الصغائر في عيون الأصدقاء؟ ، ويعجب ابن الرومي من سلوك صديقه هذا ، ويعمد إلى رفع حاجته إلى الله أخيراً الذي لا تضيع عنده الحاجات في زمن ضاعت وتاهت النفوس فيه عن الحق.
ومن دلائل الضعف العصبي والانحراف والاضطراب النفسي لأبن الرومي اعتقاده بالتطيُّرة والطِّيرة، إذ كان يتشاءم من بعض الألفاظ أو الحوادث، وبسبب هذا الطبع الذي أثر به بشكل قوي وفي تصرفه، فقد جعله سخرية في أعين العقلاء، حتى قال عنه أبو العلاء المعري: (أن أدبه أكثر من عقله

). ومما يروى عنه أنه ربما أقام المدة الطويلة لا يخرج من بيته تطيراً بسوء ما يراه، أو يسمعه حتى أن بعض أخوانة افتقده ذات مرة، فأعلم بحاله في الطيرة، فبعث إليه خادماً اسمه إقبال ليتفاءل به. فلما أخذ أهبته للركوب قال للخادم: انصرف إلى مولاك. فأنت ناقص، ومنكوس (فعكس الاسم)تعني(لابقا)، وأبن الرومي هو القائل: (**الفأل لسان الزمان والطيرة عنوان الحدثان**)، ويروى أنه رأى عجوزا في إحدى عينيها حوّل وجارية حولاء، فتطير من ذلك، وحدث أن سقطت لبعض أصدقائه ابنة من بعض السطوح فماتت، فكتب إلى صديقه قصيدة يقول فيها:

لا تهاونن بطيرة أيها النظار وأعلم بأنها عنوان
قف إذا طيرة تلقتك وانظر واستمع ثم ما يقول الزمان
فتحك المهرجان بالحُول والعُور أرانا ما أعقب المهرجان
كان من ذاك فقد ابنتك الحرة مصبوغة بها الأكفان

عدم الثقة بالنفس يدفع بالفرد أحيانا إلى الانحراف، وللأسف إن عدم الثقة في النفس والمجتمع كونت خوفاً وتوتراً لأبن الرومي، فراح يتعامل مع الناس من منظور ضيق جداً، مما حرمه لذة الحياة والتعامل مع الناس، فأصبح أسير انفعالات التشاؤم والخوف والتطير، فشخصية كهذه لا يمكنها ربط الأسباب بمقدماتها، بل تميل إلى الوهم والذعر ويصعب أن يكون صاحبها ذا إقدام وعزيمة صادقة، فظهر مسالماً وكثير العداء، أليم البغض ومنطوياً على الشك والعداوة، شاذ الأخلاق ميالاً إلى الإسراف في كل شيء.وزاد في تشاؤمه وتعاسته وبرمه بالناس نساء ورجال، أنه كان نهما بالحياة وملاذها، وكان يرى الشعراء حوله أمثال البحتري ينعمون بخيراتها وطيباتها، بينما هو لا يصيبه منها إلا الإملاق والدناءة. ويروى عنه إسرافه ونهمه في المآكل والمشارب، وكثيراً ما كان يدفعه نهمه إلى ذم شهر رمضان والصيام لما فيهما من كبح الشهوات والملذات كقوله:

إذا بركت في صوم لقوم دعوت لهم بتطويل العذاب
وما التبريك في شهر طويل يطاول يومه يوم الحساب
فليت الليل فيه كان شهراً ومرَّ نهاره مرّ السحاب
فلا أهلا بمانع كل خير وأهلاً بالطعام والشراب

يهاجم شهر الصوم لأنه يكبح شهوات المرء ورغباته ولا يرحب ابن الرومي به أبداً، ويتمنى العذاب والشقاء لهؤلاء الصائمين، الذين يدعون البركات والنعم في هذا الشهر، بينما هو لا يرى فيه إلا الألم والتجويع، ويحلم أن يكون ليل الصوم شهراً كي يتلذذ بالطعام، و إن يكون نهار ه دقائق معدودة، و تظهر مغالاته بقوله من قصيدة في شهر الصوم بالنهي عنه مبيناً تناقضه الغريب:

شــهر يصــد المرء عن مشروبه ممـا يحـلّ له وعن مـأكوله

لا أستثيب على قبول صيـامه حسبي تصرمـه ثواب قبوله

لا يـرجو ثوابـاً من شهر الطاعات إطلاقاً، إن ما يريده فقط الطعام والشراب، ويجعل ثواب شهر رمضان المبارك في الإفطار وليس في الصوم. ولأبن الرومي شيء كثير في الخمر ولقد كان من مدمنيها والمتسلّين بها عن الهموم حتى في أيام مشيبه كقوله:

سأعرض عمن أعرض الدهر دونه وأشـربها صرفاً وإن لام لوّم

فإني رأيت الكأس أكرم خلة وفت لي ورأسي بالمشيب معمم

ومن صارمَ اللذاتِ أن حان بعضها ليرغم دهراً ساءه فهو أرغم

يصـر على شرب الخمر حتى وإن لامه اللائمون في ذلك، لأنه يرى في الكأس خير نديم ومسلٍ له، وعزاء من الأصدقاء الذين لم يرَ منهم سوى الغدر والخيانة على حسب ظنه، و حتى لو صار في مشيب العمـر، ويضـع منهجه بضرورة اغتنام الملذات ليرغم ويقهر زمانه السيئ، والذي لم ير منه سوى الشرور، بل راح لا يكتفي بذلك فقط فأخذ يطلق صيحاته بالدعوة لمعاقرة الخمر، وتلك قصيدة بعث بها إلى زميله أبن المسيب يدعوه لمنهجه:

أدرك ثقاتك إنهم وقعوا في نرجس مع ابنة العنب

فهـم بحال لـو بصرت بهـا سبّحت من عجُب ومن عجَب

ريحانهـم ذهب على درر وشـرابهم درر علـى ذهـب

يطالـب صـديقه بالهرولة لمساعدة أصحابه معاقري الخمرة، والذين فقدوا صوابهم ،وضجت رائحة الخمر كأنها المسك يجذب من يشمها، ويصفها باللذيذة الساحرة، لطيبة مذاقها، وعليه أن يقتنص هذه الـدرر قبل فوات الأوان ، ما هذه الدعوة المنكرة ؟ وما هذه الصورة التي يرسمها للسكارى ورائحة الخمـر تضـج بهم حتى جعلها درة الدرر؟!!. بل وراح يبرر شـرب الخمر على وفق هذه المداعبة الساخرة على طريقه أبي نواس:

أحـل العـراقيّ النبيذ وشـربه وقال : " الحرامـانِ المدامة والسـكر"

وقال: الحجـازيّ الشرابان واحد فحلـت لنا بين اختلافيهما الخمر

سـأخذ من قولـيهما طرفـيهما وأشـربها لا فارق الوازرَ الوزِر

يـتهكم من مسألة الحلال والحرام بالخمرة بسخرية لا ذعة ، ويصرح بأنه مصر على التلذذ بها على الرغم من أنها وزر ويعلن بأنه سيحاسب عليها، ولا يفرق في ذلك بين الحرام والحلال،بل راح يضع تشريعاً بمعاقرة الخمر وذلك بمخالفة تحريمها ولو كان في ذلك إثم فادح. ويظهر ولعه بالشباب وشغفه

بكــل ما يقدمه من أطايب الحياة ومن أمثاله كثيرون من محبي الحياة الدنيا في كل عصر، فهو شغوف بالحــياة لأجل الحياة وقد وهبته الطبيعة حساً دقيقاً، فكان يرى فيها أدق الألوان وأخفى الأصوات والحركات، فالمرأة والخمرة والطعام والربيع والرياض كلها في نظره أدوات للسرور، ووسائل للتمتع وبقدر ما يستطيع الإنسان أن يستخدمها يكون حظه في الحياة. بل راح يبن كرهه للسفر وما لاقاه من ذلك براً وبحراً في قصيدة يمدح بها أحمد بن ثوابةوقد أبدع فيها كل الإبداع:

أذقتنيّ الأسفارُ ما كرّه الغنى إليّ وأغـــراني برفــض المطالب

ومن نكبة لاقيتها بعد نكبة رهبتُ اعتساف الأرض ذات المناقب

وصبري على الإقتــار أيسر محملاً عليّ من التغــرير بعــد التجارب

يصــف تجربتــه المريرة مع الأسفار، ويحث على عدم ركوب المخاطر التي تأتي من الترحال والسفر، وجعل من تجربته درساً يعظ به الأجيال، ومن قنوطه من رحمة الله عذراً يشكك بالسفر وفوائده، وهو بذلك يدعو لليأس والقنوط والسكينة والكسل والعجز، والرضى بل القناعة بالذل والحسرة، وعدم طلب العيش بسبب فشله، وينسى أن الخير في ركوب المخاطر والترحال إليها، وأنه من الواجب على الإنســان عندما تضيق به الحال اللجوء إلى الأسفار، لأن فيها البركة والرزق. ثم يصف ما لا قاه من أهــوال البرد إبان الشتاء من مطر وبرد وثلج وصفاً في غاية الدقة، ولاسيما وصف حاله وقد اضطر إلى المبيت في خان:

فملـــت إلى خـــان مرُث بناءه مَميلَ غريقِ الثـوب لهفانَ لا غب

فلم ألق فيه مســتراحاً لمتــعب و لا نــُزلاً أيــان ذاك لســاغب؟

فمــا زلت في خوف وجوع ووحشة وفي ســهر يستغرق الليل واصب

يؤرقني سقف كــأني تحتــه من الوكف تحت المدجنات الهواضب

تــراه إذا مــا الطين أثقــل متنه تصــرّ نواحيــه صرير الجنــادب

يرسم لوحة فنية رائعة التصوير بحيث تجعل القارىء وسط زحام المعاناة، وبعد أن يستوفي وصف الخان وهول السفر في الشتاء، لله درك من فنان يجيد وصف الخان فصور سقفه الذي يزرع الوحشة والقلق والتوتر، لمن يرقد إلى النوم، ولاسيما عندما ينظر المرء بالسقف ويدقق بشقوقه المخيفة والموحية بالهلع والضــيق! وكذلك وصفه لمتاعب القيظ في الصحراء، ثم يتناول أهوال البحر(نهر دجلة) وشدائده عندما هبت الريح وطغت غوارب النهر بالماء فيقول:

لدجلة خبّ ليس لليمّ إنها ترائــي بحلم تحتــه جهل واثب

تطامنُ حتــى تطمــئن قلوبنا وتغضب من مزح الرياح اللواعب

زلازلُ مـــوج في غمار زواجر   وهوّات خسف في شطوط خوارب

ولليـــمّ أعـــذار بعرض متونـــه   وما فيـــه مـــن آذيـــه المتراكب

ولست تراه في الرياح مزلزلاً   بما فيه إلاّ في الشداد الغوالب

وصف دقيق لنهر دجلة وأمواجه المتلاطمة، وزمجرة العواصف المحيطة بالقارب الذي يمخر عباب الماء، فيشعر معه الفرد بالهلاك القادم وفقدان الأمل بالحياة من جراء عويل الرياح وذبذبة القارب المتأرجحة بفعـــل الرياح العاتية، إنه يصور التوتر وانفعالاته الناتجة عن ركوب المحن والمخاطرة بها، وفي الوقت نفســـه يرشـــد الناس إلى تجنب ارتياد السفر في البحر والنهر. ثم يمضي يصف خريف العمر وقسوة الشيب والترحيب به لأنه عنوان خريف الحياة، ويتوجع بتحسره على أيـــام الشباب و الصبا كقوله:

كفى بالشـــيب من ناهٍ مُطـــاعٍ   علـــى كـــرهٍ ومـــن داعٍ مجـــاب

حططت إلى النهـــى رحلي وكلّت   مطيـــة باطـــلي بعـــد الهبـــاب[1]

وقلـــت مســـلّـــماً للشيب : أهلاً   بهادي المخطئـــين إلى الصـــواب

ألســـت مبشـــرّي في كل يوم   بوشـــك ترحـــلي اثـــر الشـــباب ؟

لقد بشـــرّتني بلحـــاق ماضٍ   أحبّ إليّ مـــن بـــرد الشـــراب

فلســـت مســـمّياً بشراكَ نعيـــاً   وإن أوعـــدت نفســـي بالذهـــاب

لك البشـــرى وما بشراك عندي   ســـوى ترقيـــع وهيك بالخضـــاب

وأنـــت وإن فتكـــت بحبِّ نفسي   وصاحـــب لذّتي دون الصحاب[2]

فقـــد أعتبـــتني وأمـــتّ حقدي   بحثـــك خلفـــه عجـــلاً ركـــابي[3]

يحط رحاله أخيراً على شوطىء الحياة متعباً ويائسا منها، متحسراً على أيام الشباب وباكياً من مبشره بـــالموت والخراب، أليس الشيب نذير الموت والرحيل القادم لا محالة، وماذا يفعل بمقدوره من تزين وتحســـين لهيئته من صبغ الشعر وغيره من الوصفات التي تحاول تجنب الشيب، الذي أخذ ينعق فوق رأســـه مهدداً إياه بترك الأصحاب والدنيا إلى غير رجعه، وهذا ما يخيفه ويضايقه، ويزعجه ولكن لا حيلة له في ذلك.ويتذكر أيام شبابه وموقف الغانيات بين أمس واليوم فيقول:

فيا أســـفاً ويا جـــزعاً عليـــه   ويا حـــزناً إلى يـــوم الحســـاب

أأفجـــع بالشـــباب و لا أعـــزى   لقـــد غفـــل المعـــزّي عن مصابي

---

[1] –الهباب: النشاط والسرعة.

[2] –أنت أيها الشيب ذهبي بحبيي وتدفعني إلى اللحاق به عاجلاً .

[3] –رحم الله زمن الشباب ذلك العهد الذي لم أكن اهتم بسواه و لم أشعر فيه بحاجة ما .

يذكرني الشباب هـوانُ عتبي وصـد الغانيات لـدى عتـابي

يذكرني الشبابَ وميض برقٍ وسجعُ حمـامة وحنين نـاب

ظلمتني الخطـوبُ حتـى كـأني ليس بيـني وبينـها من حسيب

مـاذا يفـيد الأسف بعد مغادرة الشباب وانطلاق قطار العمر؟ وفقدان تذاكر الأمل بالحياة، بسبب المعاصي يوم الحساب، وماذا يعني البكاء على أيام الشباب سوى غير الندم والتوجع والآهات، ها هي الغواني تعزف عنه وتتحاشاه، ولا أحد يصغي لعتابه ولومه، إنه يقف متحسراً على رحيل العمر الظالم بهذه السرعة، ويندب خسرانه متع الحياة ولذائذها، فيشعر بظلم الأيام وقسوتها عليه، ولكن لا فائدة من نوح الحمام على أغصان الألم، التي تحطمت بفعل الريح بمرور أيام الشباب، فلقد أصبح غريباً لا يجـد من يواسيه سوى الذكرى، والتي أيضاً تركته بسبب الخطوب والرزايا التي حلت به. ويقول في الناس والأصحاب موضحاً العلاقات بينهم:

عدوك من صديقـك مسـتفاد فلا تسـتكثرن مـن الصحـاب

فإن الداء أكثر ما تراه يكون مـن الطعـام أو الشـراب

إذا انقلب الصديق غـدا عدوا مبينـاً والأمـور إلـى أنقـلاب

ولو كان الكثير يطيب كانت مصاحبة الكثير في الصـواب

ولكن قلـما استكثرت إلا سـقطت عليّ ذئاب في ثياب

فدع عنك الكثير فكم كثير يعـاف وكم قليل مستطاب

دعوة لهجران الأصدقاء بعد تجربة مريرة ووصفهم بالذئاب على ما يبدو، ويقدم أبن الرومي درساً في تجارب الحياة، فلقد وجد في كثرة الأصدقاء ضرراً أكثر من ضرر كثرة الطعام للجسم، وهذا صحيح، وينبه إلى تقليل عدد الأصدقاء، لأن ذلك أسلم للفرد وأحفظ لسره، ويبين أن طبيعة الحياة يحدث فيها الغـدر والفراق والكراهية، لذا من الأفضل إذا كان عدد الأصدقاء قليلاً بالمقارنة مع كثرة عددهم حيث، تكثر البلايا والرزايا من كثرتهم، ولا خير في كثرة الأصحاب، فهم في الملمات أشد من الذئاب عداوة، وطبعاً لا يصح هذا التعميم فيجب النظر للحياة بصورة بعيدة عن اليأس والقنوط من وجود الخـير، ولعل الخيرة فيما اختاره الله عز وجل، وتميزّ ابن الرومي بطبيعته ودقتـه في وصف الألوان والأصوات ومن أقواله الجميلة يذكر أيام الشباب، وإن المرء لا يعرف قيمتها إلا بعد افولها قائلاً:

لسـنا نـراها حـق رؤيتـها إلاّ زمـان الشـيب والهـرم

كالشـمس لا تبـدو فضيلتـها حتـى تغشـّى الأرض بالظلم

تمر الأيام وتجري سنين العمر في غفلة من الشباب، ولا يصحو الفرد إلا بعد فوات الأوان وماذا يفيد

التحسـر على أيام الشباب الراحلة، ورحم الله القائل: وستعلم يوماً يا ولدي بعد رحيل العمر، أنك تطـارد خيط دخان. أنها الحقيقة المرة والتي يجد الفرد نفسه فيها عبارة عن حطام ملقى على ضفة نهر الأيام الجاري عاجزاً عن تحقيق أمانيه الكثيرة، حيث يندب لحظات هربت منه من دون عودة، ويجيد ابـن الـرومي تشبيه الحياة بإشراق الشمس حتى مغيبها ليرشد الناس إلى قسوة الحياة وضيق فسحة العمر وعلى المرء الاستفادة من وقته واغتنامه. ثم يبين ابن الرومي سخطه في ذم الدهر لأنه يعلي بعض السفلة، فقد كان فيه ضيق خلقٍ وتبرم من مجتمعه وناسه، فلم يشعر بشيء من الفرحة بالحياة، بل شعر كأنهـا كأس مرٌ يتجرعه، فانقلب ساخطاً على كل ما حوله، بل حتى على من أكرموه وفسحوا له في مجالسهم وأغدقوا عليه من أموالهم، فهجاهم ونفروا منه فاحتجبوا عنه، وانقلب المستقبل الباسم الذي كان ينتظره إلى مستقبل تعس بائس، كله حرمان:

دهـرٌ عـلا قـدرُ الوضيـع بـه ... وتـرى الشـريف يحطـّه شـرفه
كالبحـر يـرسب فيـه لـؤلـؤهُ ... سـفلاً وتعـلو فـوقـه جيفـه

يـذم الدهر لأنه منح بعض الناس قيمة ومكانة فضلى في المجتمع يرتقون إليها وليسوا أهلاً لها، ويحزن على الشرفاء العقلاء الحكماء ذوي الرجولة والكرامة بإقصائهم من مواقع الحياة ومقاماتها التي تليق بهم، ويشبههم باللؤلؤة المخفية في قعر البحار، ويشبه هؤلاء المنافقين المتملقين بالجيف النائتة التي تطفح فوق السطح. لله دره في هذا البيان الرائع، وكأنه يردد قول أحدهم: (ملأى السنابل تنحي تواضعاً والفارغـات منهن شوامخ). نعم ولا مجال غير الموافقة على ضم الصوت مع ابن الرومي في أعاجيب الـزمان وغرائبه فيما يقوله، ولأبن الرومي باع طويلة في الحكمة فإن دقة نظره لا تنحصر في ألوان الطبـيعة والحياة، بل تتناول أيضاً العواطف وعلاقات الناس بعضهم ببعض، فهو يجاري في ذلك كبار الشعراء كقوله:

إذا ما كساك الله سـربال صـحة ... ولم تخـلُ من قـوت يحـلّ ويعـذب
فـلا تغبطـنَّ المـترفين فإنهـم ... علـى حسب ما يكسوهم الدهر يسلب
فـلا تتكـل إلا على مـا فعلتـه ... ولا تحسـبنّ المجـد يـورث بالنسـب
فليـس يـسود المرء إلا بنفسـه ... وإن عـدّ آبـاء كرامـاً ذوي حسب

يبين ابن الرومي أن خير نعمة يمنها الخالق عز وجل على الإنسان هي الصحة والعافية، وينصح بعدم الحسد لذوي النعم، لأن كل نعمه سوف يأخذها الدهر فهي لا تدوم وإن دامت فمصيرها إلى زوال، وينـبه إلى أن مجد الإنسان ليس في حسبه ونسبه وبقرابته، وإنما في عمله الذي يخلده، شاء الناس أم رفضوا. ولعل من أهـم الجوانب التي تلفت النظر في شعر ابن الرومي جانب الهجاء فقد أعده مزاجه

الحاد وقدرته البارعة في لمح الدقائق والعيوب الجسمانية، إذ كان يعبث بمهجويه عبثاً لاذعاً يشبه عبث أصحاب الصور الكاريكاتورية، فهو يقف عند نواحي الضعف ويكبرها في أوسع صورة لها حتى ليثير الضحك والإشفاق، فيشوه المهجو تشويها غريباً مستخدماً ما يمتاز به من بعض النقائض الجسدية ففي قوله في الأحدب:

قصُرت أخادعُه وغاب قَذَالُهُ   فكأنهُ متربِّصٌ أن يصْفعا

وكأنما صُفِعت قفاه مرةً   وأحسَّ ثانيةً لها فتجمعا

إذا هجا أجاد الشتم بوصف مؤلم ومنفر، فهو يرسم لوحة مشوهة الخليقة لأحدب، فجعله كالقرد المسوخ القبيح المنظر والخليقة، بحيث يتحاشى الناس النظر إليه، بل ويعجزون عن معرفة وجهه من قفاه، ويمضي في هجاء عمرو:

وجهكَ ياعمرو فيه طول   وفي وجوه الكلاب طولُ

والكلب وافٍ وفيك غدرٌ   ففيك عن قدره سفُولُ

وقد يحامي عن المواشي   وما تحامي ولا تصول

وأنت من أهل بيتِ سوء   قصتُهم قِصةٌ تطول

وجوهم للورى عظاتٌ   لكنّ أقفاءهم طبول

مستفعلن فاعلن فعول   مستفلن فاعلن فعول

يتجاوز حدود الحياء في هجائه على وفق مقارنة مؤلمة، فيصف عمرو بطول الوجه، وهذه ميزة خاصة تتصف بها الكلاب، ويعلي من قدر الكلب عليه بوفائه، لأنه خائن وغدار، ويبين موضحاً حاشى للكلاب صفة الخيانة والغدر، بينما عمرو يمتاز بهذه الصفات القبيحة، فالكلب يحمي الدار والماشية، وعمرو يفتقد الكرامة لأنه من أصل وضيع، فالناظر إليه يراه جبلاً شامخاً ولكنه في الواقع طبل فارغ لا خير فيه ولا فائدة منه. ويقول في وصف بخيل أسمه عيسى:

يقُترُ عيسى على نفسه   وليس بباقٍ ولا خالد

فلو يستطيع لتقتيره   تنفس من منخر واحد

ببراعة في الهجاء ومقدرة على النيل من الخصم، فيصف بخيلاً اسمه عيسى ويلومه على تقتيره وبخله، ويحذره بأنه ليس بمخلد في هذه الدنيا، ومن الأجدر به أن ينفق ماله على نفسه وذويه، كي يتمتع بها قبل فوات الأوان، لكن عيس لا يقبل هذه النصيحة بتاتاً، ولو كان بمقدور عيس التنفس بمنخر واحد لفعل ذلك خوفه من إضاعة المال، وهذه صورة رائعة في وصف البخيل وجشعه حتى على نفسه ومدى الأنانية المفرطة لديه في حب المال والتمسك به، حتى أنه يمتنع عن التنفس إذا اقتضى ذلك

نفقــات مالــية، وهذا دليل وبرهان قاطع على شدة البخل، ويكون ابن الرومي في ذلك، قد صور شخصــية البخــيل مــن مــنطلق عالم نفسي بمكنونات النس الإنسانية، وبهذا العمق من المشاعر والإحســاس الدقيق لما يعتلي النفس من انفعالات.ومما يرى أيضا أنه كان مشغوفاً بهجاء أصحاب اللحى وتصويرها تصويراً هزلياً، فيقول في لحية لم يعجب بها ولا بصاحبها:

لو قابل الريحَ بها مــرةً لم ينبعثْ من خطــوه إصبعا

أو غاصَ في البحر بها غوصةً صــاد بها حيتــانه أجمعــا

يقــف من أصحاب اللحى موقفا هزلياً ساخراً منهم، فيبين أن شدة الرياح والأعاصير يصعب عليها اخــتراق لحــية هــؤلاء، وهذا كناية عن تعصبهم وتبنيهم لأقوال ومزاعم يتمسكون بها بدون وعي وإدراك، واهمــين الــناس بطهارتهم وتنسكهم وزهدهم، فلو وضعت لحية أحدهم في البحر لهرعت الحيتان إليها بحثاً عن شيء فقدته وهي بأمس الحاجة إليه، وهنا يشير إلى كلامهم المعسول في اصطياد الــناس ووقوعهــم في شراكهم التي يصعب الفكاك منها ولا نجاة لأحد منها. وفي شعره نزعة شعبية واضــحة إذ كان يصف المطاعم وحياة الناس في بغداد وما يطعمونه ويلبسونه حتى الأردية المرقعة، ويعــرض علينا صور طبقاتهم الدنيا من خبازين وحمالين وشوائين وشحاذين ومن هنا كانت تكثر في شــعره الألفاظ العامة فهو ليس شاعر الملوك والقصور كمثل البحتري، وإنما هو شاعر شعبي يعرض علينا بغداد في حياتها المتواضعة وصورها الشعبية.فكانت حياته بائسة في أكثر جوانبها حياة لا تعرف البهجة ولا التأنق في المعاش، بل ترك نفسه على سجيتها يصور أحاسيسه وعواطفه الصادقة.

وتشــاء الحــياة اختباره بموت أولاده فيقول أجمل الرثاء وأرقه في ابنه الأوسط، وهي من أحسن ما فاضت به عواطف والد على فقده ولده حيث قال فيها:

بكاؤكما يشفي وإن كان لا يجدي فجودا فقــد أودى نظيركما عندي[4]

بُنــيّ الــذي أهدتــهُ كفّاي للثرى فيا عِزةَ المَهــدى ويا حسرة المَهــدِي

ألا قاتل الله المنــايا ورميــها من القوم حبّــات القلوب على عمد

توخــى حِمام الموت أوسط صبيتي فلله كيف اختــار واسطة العقد !

على حيــنِ شِمتُ الخيرِ من لَمحاتــه وانستَ مــن أفعالــه أيــةَ الرُّشــدِ

طــواه الردى عني فأضحى مزارهُ بعيداً على قرب قريباً علــى بعــد

لقد أنجزت فيه المنايا وعيــدها و أخلفت الآمــال ما كان من وعد

[4] -يخاطب عينيه بالبكاء على ولده.

الحّ عليه الترفُ حتى أحاله إلى صفُرة الجاديّ عن حمرة الورد

وظلَّ على الأيدي تساقطُ نفسهُ ويذوي كما يذوي القضيب من الرند

يشكو قسوة الموت وعدم رحمته بالآباء الذين يتجرعون مرارة الأسى والحزن على فقد الأولاد، ويبين اختيار الموت ولده الأوسط، ويتمنى لو أختاره بديلاً عنه، ولكن هيهات لسهام الموت التي لا تخطىء رميها من أن تستجيب لنداء الحزانى، ثم يأخذ بوصف الداء الذي أصاب ولده وما كان له من التأثير فيه، ويشرح حقيقة العواطف الأبوية المتألمة شرحاً يحرك أوتار القلوب بأسلوب نفسي يثير دافعية النفس البشرية.

عجبت لقلبي كيف لم ينفطر له ولو أنهُ أقسى من الحجر الصلد

وأولادنا مثلُ الجوارح أيها فقدناه كان الفاجعُ البينُ الفقد

سأسقيك ماء العين ما أسعدت به وإن كانت السقيا من الدمع لا تجدي

أعينيَّ جودا لي فقد جدتُ للثرى بأنفسِ مما تُسألان من الرفدِ

محمدُ ما شيءٌ توهم سلوة لقلبيَ إلا زاد قلبي من الوجد

أرى أخويك الباقين كليهما يكونان للأحزان أورى من الزند

إذا لعبا في ملعب لك لذّعا فؤادي بمثل النار عن غير ما قصد

فما فيهما لي سلوةٌ بل حزازةً يهيجانها دوني وأشقى بها وحدي

وأنت وإن أُفردتَ في دار وحشة فأني بدار الأنس في وحشة الفرد

عليك سلام الله مني تحيةً ومن كلِّ غيثٍ صادق البرق والرعد

يصف بحرقه لوعته بفقده ولده، وكيف يتفطر قلبه حزنا ويتشقق كمداً من هول المصاب، ويتمنى من دموعه إن تروي ثرى ولده الطاهر، ويبين عجزه عن سلوانه لإخوته الذين يذكرونه به، ويرسل أعطر التحيات وأزكاها لولده متمنيا له المترل الطيب عند مليك مقتدر. ومن أقواله في رثائه لأبي الحسين بن عمر العلوي وهو حفيد الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجه، وكان قد قام على العباسيين بثورة بسبب الفساد فقتلوه، وفي هذه القصيدة يظهر ابن الرومي تشيعه وولاءه لآل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول:

أمامك فأنظر أي نهجيك تنهج طريقان شتى مستقيم واعوجُ

ألا أيهذا الناس طال ضريركم بآل رسول الله فأخشوا أو ارتجوا

أكـلُّ أوانٍ للنـبي محمـد   قتيـلٌ زكـيٌّ بالدمـاء مضـرج[5]
بني المصطفى كم يأكل الناس شِلوكم   لبلواكم عمـا قليـل مفُـرج
أما فيـهم راعٍ لحـق نبيـه ؟   و لا خائـفُ مـن ربـه يتحرج
أبعد المكنـى بالحسين شهيدكم   تضـيء مصابيـح السماء فتسرح
لـنا وعلينا لا عليـه ولا لـه   تسحسح أسراب الدمـوع وتنسج

يبين بالأدلة والحجج والبراهين سوء العاقبة في التعدي على آل النبي ﷺ، وينبه هؤلاء الغافلين إلى أن يرتدعوا عن فعالهم القبيحة في قتل وتعذيب وتشريد آل النبيﷺ،ويطالبهم برعاية حرمة النبي، لكن لا حياة لمن تنادي، فلقد قتلوا الحسين رضوان الله عليه ، الذي هو منارة الخير ورمز التقوى والإيمان.

وكنا نرجيـه لكشـف عمـاية   بأمثـاله أمثـالـها تبتـلج
أيحيى العلى لهـفي لذكـراك لهفة   يباشـر مـكواها الفـؤاد فينضج
سلام وريحـان وروح ورحمـة   عليك وممـدود من الظل سجسج[6]
ألا أيها المستبشرون بيـومه   أظلـت عليـكم غمـةٌ لا تفرّج
كأني به كالليث يحمـي عرينه   وأشبـاله لا يزدهيـه المهجهج[7]
كـدأب عليّ في المـواطن قبله   أبي حَسَنٍ والغصـنُ من حيث يخرج
كأني أراه إذ هوى عن جـواده   وعـفُر بالـترب الجبيـن المشجج
فحُبَّ به جسماً إلى الأرض إذ   هوى وحُبَّ بها روحا إلـى الله تعرج
بني مصُعبٍ ! ما للنبي وأهله   عدو ، سوا كم أفصحوا ، وفلجلجوا[8]
واني على الإسلام منكم لخائفٌ   بوائق شتى ، بابها الآن مُرتج
وفـي الحزم ان يستدركَ الناس   أمركم وحبلهمُ مسُتحكم العقد مُدمج
لعلّ قلوباً قـد أطلتم غليلها   ستظفر منكم بالشفاء فتُـثلج

يشـير إلى هول الفاجعة، والمصاب الجلل الذي تم بقتل الحسين رضي الله عنه، فلقد ضل الناس عن الحق وطريقه، بفعلتهم الشنعاء وتطاولهم على آل النبي ﷺ وعدم رعايتهم حرمته، لقد فعلوا من الجهل مـا يندى له الجبين، وارتكبوا من البوائق القبيحة، وأظهروا جل حقدهم البغيض على آل النبيﷺ،

---

[5] - إشارة إلى أن القتيل من بيت الرسول .
[6] -سجسج: أي مكان لاحر فيه ولا قر.
[7] -كأني به في ساحة الحرب كالليث لا يستخفه زجر زاجر.
[8] -بنو مصعب من رجال العباسيين .

ونســوا أن الخير الذي جاء بهم وعم البشرية جمعاء، فلقد هدموا بناء الإسلام بفعالهم المنكرة. ولأبن الــرومي في رثــاء البصرة حين اغتصبها الزنج وفتكوا بنسائها وأطفالها قصيدة بديعة وهو بحق أجاد القول:

ذاد عــن مقلــتي لذيــذَ المنامِ ... شُغلُــها عنــه بالدمــوع السِّجامِ

أي نومٍ من بعــد ما حل بالبصرة ... ما حلّ من هنــاتٍ عظــام

أي نومٍ من بعــد ما انتهك ... الزَّنج جهــاراً محارم الإســلام

إن هــذا من الأمــور لآمرٌ ... كاد أن لا يقــوم فــي الأوهــام

لهفَ نفسي عليك أيتها البصرة ... لــهفاً كمثــل لــهب الضــرام

لهف نفسي عليك يا قبة الإسلام ... لــهفاً يطــول منــه غــرامــي

لهف نفسي عليك يافرضة البلدان ... لــهفاً يبقــى علــى الأعــوام

لهف نفسي لجمعك المتفانــي ... لهف نفسي لعــزك المستضام

تؤثر به الرزايا والأحداث الجسام المريرة فيقف حزينا، يستنهض الهمم لما راعه من هول الحدث الذي حل بالبصرة، ويتحسر على الدمار والخراب الذي لحق بها ويندد بلوعة المتألم، بأساليب الوحشية التي نفذهــا الأعداء في إلحاق الضرر والأذى بمعالم الحضارة الإسلامية العامرة بالكتب والمعرفة والعلماء، وكيف هوى صرح العلم وموطنه ذليلاً لا تراعى فيه حرمة ولا قيمة.

بينما أهلــها بأحسن حــال ... إذ رماهــم عبيــدهم باصطلام

دخلــوها كأنــها قطَع الليل ... إذا راح مــدلــهمَّ الظــلام

أي هــول رأوا بهم أي هول ! ... حق منــه يشيب رأس الغــلام

صبحوهم فكابــد القــوم منهم ... طــول يوم كأنــه ألف عام

أين تلك القصــور والدور فيها ... أين ذاك البنيــان ذو الإحــكام

بدلت تلكم القصور تلالاً ... من رمادٍ ومن تراب ركــام

غيرَ أيدٍ وأرجــلٍ بائناتٌ ... نُبــذت بينهــن أفــلاق هامِ

وطئــت بالهــوان والذل قسراً ... بعــد طــول التبجيل والإعظام

ثم يــبين هول الأذى ووقع الفاجعة الرهيب، فكأنه الليل قد جثم بظلامه الدامس، الذي يشيب منه رأس الصــغار قــبل الكبار من شدة الخوف والذعر، والذي نفذه القتلة المجرمون بالبصرة وأهلها، فدمرت الدور والبيوت على رؤوس قاطنيها، وحل الدمار والهلاك والرعب من كل حدب وصوب، وتحولت تلك الأبنية إلى ركام من التراب، وجثث من القتلى المتناثرة في مشهد مريع بدون أي شفقة

أو رحمة.

أي خطب وأي رزءٍ جليل نالنا في أولئك الأعمام
أي عذر لنا وأي جواب حين ندعى على رؤوس الأنام
أخذلتم إخوانكم وقعدتم عنهمُ ويحكم قعود اللئام ؟
أنفروا أيها الكرام خفافا وثقالاً إلى العبيد الطغام
أدركوا ثأرهم فذاك لديهم مثل رد الأرواح في الأجسام
عارهم لازمٌ لكم أيها الناس لأن الأديان كالأرحام
أن قعدتم عن اللعين فأنتم شركاء اللعين في الآثام
لا تطيلوا المقام عن جنة الخلد فأنتم في غير دار مقام
فاشتروا الباقيات بالعرض الأدنى وبيعوا انقطاعه بالدوام

يتساءل بقلب كئيب مملوء بالحزن والكآبة، أي بلاء هذا جاء من هؤلاء الأقارب؟ وأي عذر يدمل جراح الأسى واللوعة المنتشرة في كل مكان، ويحث علي الجهاد في محاربة اللئام والطغاة وأن الجنة مستقر الأبطال المدافعين عن كرامة الأمة وعزها، وعلى الشباب شراء الجنة ببذل النفوس لتحرير البلاد والعباد من شرور هؤلاء القساة العتاة.بدت شخصية ابن الرومي منحرفة ومتطرفة بسبب عدم ثقته بالناس حيث ظهر متبرماً ومتشائما لدرجة التطير، فغدا أسير وساوس قهرية دائم التوتر والقلق، فلقد سيطر عليه الخوف والذعر مدى حياته برغم قدرته البارعة في الهجاء والتي لا مثيل لها.فهو شاعر فحل لا يشق له غبار وله مواقف إنسانية يقدر عليها وهي رثاؤه الفريد لأبنه ولمدينة البصرة.

قال أحد الحكماء:

(من أمضى يوماً من عمره في غير حق قضاه، أو فرض أداه، أو خير أسّسه، أو علم اقتبسه، فقد عق يومه، وظلم نفسه، وأعلم أن السعادة ليست في الحسب ولا الذهب، وإنما في الدين والعلم والأدب وبلوغ الأرب).

أبو تمام

حكمة:

(لا تشهد لمن لا تعرف ولا تشهد على من لا تعرف ولا تشهد بما لا تعرف).

هكذا ينطلق الإنسان من قلب الوجود، وقد انطوت فيه كل أسرار الحياة ليعود إلى قلب الوجود وقد انكشفت له كل أسرار الحياة. ينطلق طفلاً عاجزاً جاهلاً ليعود كائنا قادراً على كل شيء وعليماً بكل شيء.إنه أبو تمام الذي يعتبر من شعراء الذروة في العصر العباسي، فقد طرق كل موضوعات الشعر، وظهر في جاسم من قرى حوران بالشام لأسرة رومية مسيحية، وولد لأب اسمه ثدوس العطار سنة **804**م وتوفي **846**م، وعرفناه فيما بعد بأسم "حبيب"، ونزح الأب بأسرته من جاسم إلى دمشق، ليعمل عند حائكٍ، وبدمشق نشأ حبيب وشب، وعلى مما يروى أنه رأى قوماً يحنون عليه وقد حسنوا له الإسلام فاعتنقهُ، وقد بلغ سن الرشد في الأغلب، وأراد أن يبتعد عن أهله الذين ظلوا على النصرانية، فغادر دمشق إلى حمص، وأتصل بأسرة عتبية بن عبد الكريم الطائي، فمدحها وانتسب إليها بالولاء، فعرف من ذلك الحين بأسم أبي حاتم الطائي، ولقي أبو تمام في حمص ديك الجن الشاعر، وأخذ عنه الجودة في الرثاء والتشيع الحسن.وللحقيقة لقد اختلف المؤرخون اختلافا بيناً في أصل أبي تمام وفي مكان ولادته، وذهب قوم آخرون إلى أن أبا تمام لم يكن عربياً من طيىء، وإنما كان نصرانياً اسمه تدوس العطار، وذهب الذين باعدوا بينه وبين نسبه الطائي إلى أن أباه كان خماراً بدمشق، ولكن دليلاً واحداً على عدم(طائية) أبي تمام لم يرتفع إلى درجة كافية من الإقناع، والمسألة في واقعها قد وجدت ارتياحاً في خاطر بعض المستشرقين الذين يحلو لهم أن يباعدوا بين كل نابغة فذ وبين عروبته، على أن مجتمع الطائيين وبخاصة الأعلام منهم قد أوسعوا له من صدورهم ووضعوه في صدر مجالسهم وأظهروا الرضى لقرابته إليهم، ثم أراد العلماء على ذلك بأن قالوا: خرج من قبيلة طيء ثلاثة كل واحد مجيد في بابه، حاتم في جوده، وداود بن نصير الطائي في زهده، وأبو تمام في شعره.على أن أبا تمام كان يهتم بالأدب والعلم أكثر من اهتمامه بالنسب ولعل ذلك من الوضوح بمكان في أبياته التي يهجو بها عباس بن لهيعة حين يقول:

بني لُهيعةَ ما بالي وبالكُمُ   وفي البلادِ مناديحُ ومُضطربُ
لحاجةٌ بي فيكم ليس يُشبهها   إلا لحاجتُكم في أنكم عربُ
كذبتمُ ليس ينبُو من لهُ حَسَبٌ   ومن لهُ نسبٌ عمن لهُ أدبُ

حرص أبي تمام على وشائج الثقافة وجعلها نسباً يربطه بالناس أكثر من رباط القبيلة، مما قد شجع الطاعنين في نسبه على السير في طعنهم هذا شوطاً بعيداً.إن أبا تمام أديب عصامي جاد وإنساني،

ارتحل أبو تمام من الشام في سبيل المعرفة إلى مصر، وتردد على مسجد الفسطاط طلباً للتكسب، فجعل يسقي الماء في المسجد الجامع "مسجد عمرو"، ويستمع إلى ما يلقى في حلقاته من أمالي العلم والأدب، ولكن لم يجد ما يريد في مصر بسبب نشوب العصبيات فيها، واضطراب أمرها، فعاد أبو تمام إلى الشام، وقد مر المأمون بدمشق في إحدى غزواته، فتعرض له أبو تمام بالمديح، ولكن المأمون أعرض عن أبي تمام ووبخه على ميله إلى العلويين، فخاف أبو تمام واعتزل إلى شمالي الشام وشمالي العراق وإلى أرمينية، وقضى معظم أوقاته في الموصل.وكان نجم أبي تمام قد بزغ وقصائده قد كثرت فاستدعاه المعتصم. وكان بعيدا عن الانفعال والغضب متصفاً بالثقافة الواسعة وعلى إلمام كبير بالفلسفة، واشتهر بعنايته بالتراث حتى أنه كان راوية للطريف من الأخبار التي تتسم بالحكمة البالغة والقديم من الأشعار، وكان لأبي تمام بديهة حاضرة وذكاء مفرط واحساس مرهف.وما قصة فتح عمورية؛ لأبي تمام التي أوغرت صدر من يقرأها، ويتمنى إن يكون مقاتلاً فيها؟ فقد تركنا أبا تمام أمام موقف خاص ورؤية خاصة من دون تسليم للوهم أو الخرافة، حيث حطت الريح أشرعة قاربنا بالقرب من معركة (عمورية)، وما أكده الواقع من تكذيب المنجمين، الذين أشاروا على المعتصم بأن يرجئ زحفه حتى نضج العنب والتين، فلم يستجب لنصائحهم، وكان خروجه إلى عمورية فتحاً إسلامياً مبيناً، حاصر خلاله المدينة وقضى على أهلها، فثأر للكرامة العربية التي جرحت ممثلة في إهانة المرأة العربية في"زبطرة". ويقال خرج توفيل "(ثيوفيلوس)" إمبراطور الروم إلى زبطرة، وهي بلدة ولد فيها المعتصم، وقيل: بل ولدت أمه فيها، وسبى من أهلها وارتكب فظائع هائلة.ورووا أن امرأة هاشمية صرخت، لما وقعت في السبي: وامعتصماهُ ! ، ووصل خبرُ ذلك للمعتصم، فتجهز أعظمَ جهازٍ وقصد عمورية(منشأ الأسرة الرومية المالكة لعمورية) التي ينتسب إليها توفيل، فتركها قاعاً صفصفاً وكان أبو تمام مع المعتصم، حيث قال:

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكُتبِ في حدهِ الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ[9]

بيضُ الصفائِح لاسودُ الصحائفِ في متُونهنَّ جلاءُ الشكِّ والريبِ

وضع أبو تمام حداً فاصلاً للحقيقة من خلال السيف الذي أبطل الأوهام، وبدد الجهل وبين أن العلم هو في حد السيف، وليس بتلك الخرافات التي قال بها المنجمون، وبهذا يحارب ظلمات الجهل ويبين أن السيف وضع بصماته في النصر، وسقطت أقوال المنجمين الكاذبة، وهذه دعوة إرشادية للعقول كي تنظر في مواجهة الحقائق.إنه الإرشاد النفسي من خلال التبصر والإدراك:

[9] -في حد السيف:فاصل بين الرصانة والهزل(كان المنجمون في البلاط الرومي قد ذكروا للإمبراطور أن العرب لن يستطيعوا فتح عمورية قبل نضج التين والعنب على ما تقول النجوم).

والعلمُ في شُهبِ الأرماحِ لامعةً بينَ الخميسين لا في السبعةِ الشُهبِ[10]

أينَ الروايةُ؟أم أينَ النجومُ وما صاغوهُ من زُخرُفٍ فيها ومن كذبِ ؟

تخرصاً وأحاديثاً مُلفقَةً ليست بنبعٍ إذا عُدتْ ولا غَرَبِ[11]

عجائباً زعمُوا الأيامَ مُجفلةً عنهُن في صَفَرِ الأصفارِ أو رَجَبِ

ويقف أبو تمام داحضاً ومفنداً الأكاذيب التي قالها المنجمون، وخوفوا الناس منها وأن الكواكب السبعة تؤكد خسارة النصر، و بهذا الحوار العقلي الساطع الذي أسقط الخرافات، وكشف الغطاء بحد السيف، يكون أبو تمام قد اسهم في توعية الناس من خلال منهج التبصر العقلي الذي يعد من الأساليب الناجعة، في علاج الكثير من الأمراض والأوهام النفسية من خلال تنمية الثقة بالنفس:

وخوفُوا الناسَ من دهياءَ مُظلمةٍ إذا بدَا الكوكبُ الغربُي ذو الذنبِ[12]

وصيروا الأبرُجَ العُليا مُرتبةً ما كانَ مُنقلباً أو غيرَ منقلبِ

يقضونَ بالأمرِ عنها وهي غافلةٌ ما دارَ في فلكٍ منها وفي قطُبِ

لو بينت قطُ أمراً قبلَ موقعهِ لم تُخفِ ما حلَ بالأوثانِ والصُلُبِ

فتحَ الفتوحِ تعالى أن يُحيطَ بهِ نظمٌ من الشعرِ أو نثرٌ من الخُطبِ

فتحٌ تفتحُ أبوابُ السماءِ لهُ وتبرزُ الأرضُ في أثوابها القُشبِ

ويتابع أبو تمام الرد العقلاني والمنطقي على المنجمين، بأن الكواكب لاتشعر بما يقولونه، ولاشأن لها فهي غافلة، ولا تدري مشيراً إلى مذنب هالي (وهو جرم سماوي يظهر كل 76 سنة)، مرشداً انظروا أيها القوم أن السيف كان الفيصل في كذب هذه الأباطيل، وعليكم أن تفرحوا، فهذا يوم النصر، الذي تعجز الكلمات والألفاظ عن إيفائه حقه، حتى أن الأرض ارتدت ثوباً أخضر من العشب، وكأنها تشعر بالسعادة من النصر:

حتى إذا مَخضَ اللهُ السنينَ لها مَخضَ البخيلةِ كانَتْ زُبدةَ الحِقبِ

يا يومَ وقعةِ عَمورِيةَ انصرفتْ منكَ المُنى حفُلاً معسولةَ الحَلَبِ

أبقيتَ جَدّ بني الإسلامِ في صُعُدٍ والمشركين ودارَ الشركِ في صَبَبِ[13]

أُمٌّ لهم لو رجوا أن تُفتدى جعلوا فِداءها كُلَّ أمٍ برةٍ وأبِ

---

[10] -أي ان النصر جاء بضرب السيف وليس بضرب فن التنجيم وأكاذيبه المزعومة.

[11] النبع:ص: الكذب.النبع : نوع من الشجر تصنع من أغصانه الرماح . الغرب: أيضاً نوعاً من الشجر لصنع الرماح والأسهم.

[12] -دهياء: مصيبة . الكوكب الغربي ذو الذنب: كوكب المعرف باسم مذنب هالي الذي يظهر في سماءنا كل76سنة.

[13] -دار الشرك:القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومية. في صعد: في ارتفاع.في صبب: في انحدار وحزن.

وبَرزَةُ الوجهِ قد أعيتْ رياضتها كِسرى وصدّت صدوداً عن أبي كَرِب[14]
من عهد إسكندر أو قبل ذلك قد شابت نواصي الليالي وهي لم تشب

ويبدد أبو تمام أوهام الخرافات بحد السيف المنتصر في ساحة الوغي، فلقد تمنى الروم فداء عمورية بأغلى ما يملكون، ويصور أبو تمام ببراعة فائقة عمورية، بالمرأة التي وقفت تعاند الرجال والأبطال بعزة نفسها ومنعتها، إلا أن السيوف وصليلها كان لها الفيصل في نصرٍ، طالما حلم الأقوياء من فرس وعرب بتحقيقه، فلقد انتزعه المعتصم، ولم يحدث أن جرى شبيه بهذا النصر منذ عهد الإسكندر.

بكرٌ فما افترعتها كف حادثة ولا ترقت إليها همةُ النوب[15]
حتى إذا مخض الله السنين لها مخضَ البخيلة كانت زُبدةَ الحقب[16]
أتتهُمُ الكَربة السوداءُ سادرةً منها وكان اسمُها فراجةَ الكُرَب[17]
كم بين حيطانها من فارسٍ بطلٍ قاني الذوائبِ من آني دمٍ سَرِب
لقد تركت أمير المؤمنين بها للنار يوماً ذليلَ الصخر والخشب
غادرتَ فيها بهيم الليل وهو ضحى يشلُهُ وسطها صبحٌ من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
ضوءٌ من النار والظلماءُ عاكفةٌ وظُلمةٌ من دُخان في ضُحى شحب
فالشمسُ طالعةٌ من ذا وقد افلتْ والشمسُ واجبةٌ في ذا ولم تجب

ويرسم أبو تمام لوحة النصر بأنامل نادرة الإبداع، مبيناً أن الأحداث الكبرى، لم تستطع النيل من عمورية، حتى المصائب لم تستطع الرقي إلى عمورية، وبوغتت عمورية بالخراب كما ينشق الغيم عن صفحة السماء، فجاءها المسلمون فظفروا بها، وهي حائرة متعجبة رغم منعتها، لكونها ملجأ للروم يحتمون بها وقت الشدائد، فلقد كثر القتلى من الروم وكثرت الدماء حتى تبللت ذوائب الفرسان وأصبحت مضرجة حمراء اللون، وأشعلت النار فيها حتى احترقت الصخور بعد أن احترق الخشب، وظهر ضوء النار يبدد ظلام الليل في عمورية المحترقة، حتى خُيل كأنه الصبح حين يطلع فيها في ذلك الحين، مما أوهم القوم اشتعال النار في الليل أن الشمس طالعة، وإن كثرة الدخان في النهار توهم أن

---

14 –البرزة:المرأة الجليلة تبرز للناس تحادثهم.شبه عمورية بالمرأة البروز التي لم يستطع كسرى(يقصد:ملوك الفرس)ولا أبو كرب(بن حسان ملك اليمن؛ يقصد: ملوك اليمن)على كثرة حروب الفرس واليمن وانتصارهم، أن يسيطروا عليها(وسيطر عليها العرب)ــ لم يقدر على فتح عمورية لا الفرس ولا اليمن ولا غيرهم وقد فتحها العرب بسهولة في عهد المعتصم.

15 –بكر: عذراء. افترع الجارية: دخل بها.

16 –مخض اللبن: خضه حتى ينفصل الزبد منه.كانت زبدة الحقب : أي أن فتح عمورية كان من كنوز الدهر.

17 –سادرة : حائرة والمعنى أن عمورية حائرة متعجبة كيف استطاع المعتصم أن يفتحها.

الشمس غائبة:

لو يعلمُ الكفرُ كم من أعصرٍ كمنتْ ... لـه المنيـة بيـن السمرِ والقُضُب [18]

تدبيـر معتـصمٍ بالله منتقـمٍ ... لله مـرتقبٍ فـي الله مـرتغب [19]

لم يغـزُ قـوماً ولم ينـهض إلى بلدٍ ... إلا تقـدمه جيشٌ مـن الرعـب

لو لم يقُد جحفـلاً يوم الوغى لغدا ... مـن نفسه وحـدها في جحفل لَجِب

رمى بك الله برجيـها فهـدّمـها ... ولـو رمـى بك غيرُ الله لم تصب

من بعد مـا أشبوها واثقـين بـها ... والله فتـاحُ باب المعقـلِ الأشـب [20]

أمانياً سلبتهم نُجحَ هاجسها ... ظُبى السيوفِ وأطرافُ القنا السلب

إن الحمامين : من بيض ومن سُمُرٍ ... دلـوا الحياتين : من ماء ومن عُشب [21]

لبيتَ صـوتاً زبطرياً هرقتَ لـه ... كأسَ الكرى ورضاب الخـردِ العُرُب

أجبتَـه معُلـناً بالسيف مُنـصلتاً ... ولـو أجبت بغـيرِ السيف لم تُجب

حتى تركتَ عَمـود الشِرك منقـعراً ... ولم تعـرجْ علـى الأوتاد والطُنُب

ويـبين أبـو تمام أخلاق العرب بجلاء ووضوح في التعامل حتى مع الأعداء، فلقد صبروا طويلا على اعتداءات الروم ونقضهم العهود والمواثيق، فجاءهم المعتصم منتقماً لله، لأنهم نكثوا عهد الله بالسلام فهو حريص على ألا يخالف أوامر الله في شيء، ويفعل ما يرضي الله وما يقربه إليه، ويبين أبو تمام أن الله سـخر المعتصـم لفـتح عمورية، وقد نصره الله بالرعب، فلقد أجرى الله على يديه النصر بحد السـيف، وتحطمـت الآمال بمنعة عمورية كما كان يدعي الروم بذلك، فجاءت السيوف والرماح لتفصـل بـين الحياة والموت، فلقد تحقق النصر، ولبى نداء الاستغاثة والعون وأذل الشرك، وأعوانه فأصبحت عمورية حطاماً ممزقاً:

إن الأسودَ ، اسودَ الغاب ، همتُها ... يومَ الكريهة في المسلوب لا السَلَب

تسعون ألفاً كآسادِ الشرى نضجتْ ... جلودُهم قبلَ نُضجِ التين والعنب

يا ربّ حوباءَ لما اجتُث دابُرهُم ... طابتْ، ولو ضُمخت بالمسك لم تطَب

والحرب قائمة في مأزقٍ لججٍ ... تجثو الكُماةُ به، صُعراً ، على الرُكب [22]

---

[18] –السمر: الرماح . القضب جمع قضيب: السيف.

[19] – مرتغب:راغب

[20] –أشب البلدة: بالغ في تحصينها. واثقين بها: مطمئنين إلى أنها لا تفتح، وهذا صحيح ولكن الله هو الذي فتحها على يد المعتصم.

[21] – الحمامين:الموتين القاتلين من السيوف والرماح فهما الدليلان للحياتين وسبب الحياة من الماء والعشب.

[22] –مأزق لجج: مكان ضيق جداً .جثا:ركع على ركبتيه.صعراً:مائلين بأجسامهم إلى الأمام. الكماة جمع كمي:البطل.

خليفةَ اللهِ ، جازى اللهُ سعيَكَ عن جُرثومة الدين و الإسلام و الحَسَبِ
بَصُرتَ بالراحة الكُبرى فلم تَرَها تُنالُ إلاّ على جسرٍ من التعب
إن كان بين صُروفِ الدهر من رَحِمٍ موصولةٍ ، أو ذمامٍ غير منقَضِبِ
فبينَ أيامِـكَ اللاتي نُصرتَ بها وبين أيام بَدرٍ أقربُ النسب
أبقتْ بـني الأصفرِ المُصفرِّ كاسْمِهِمُ صُفرَ الوجوهِ ، وجَلَتْ أوجهَ العرب

لقــد قـــتل في غزو عمورية الأبطال العظام من الروم، والذين عرفوا بقوة البأس، وماتوا حرقاً وقد نضجت جلودهم قبل نضج العنب والتين، كما زعم منجمو إمبراطور الروم وكهنتهم أنه لا مكان ولا وقت لفتح عمورية، وها قد حكمت السيوف بين الحق والباطل وجعلت أوجه الروم صفراء وسوداء، وأوجه العرب بيضاء ناصعة بالفوز وسعادة النصر. ونتابع الرحلة مع أبي تمام لنبحر في شعره العذب في الــرثاء، ولقــد اشتهر أبو تمام بتوليد المعاني وحسن تخيرها، فهي من المعاني الدقيقة والعميقة، كما أضفى عليها سمة العصر، ولذلك يحتاج الدارس فيها إلى نظر عميق وتفكير دقيق كي يصل إلى الهدف والغاية، ولعل ابرز مظاهر العاطفة الصادقة عند أبي تمام تظهر في إخلاصه الشديد للمرثي وقبيلته، كما تظهر عاطفة الاعتزاز والفخر بصفات المرثي، وهذا اقتضى من الشاعر أن يكون جزل الألفاظ قويها، ومــتين التركيـــب بعـــيداً عن السهولة أو الرقة.فأبو تمام يجيد الرثاء من فيض بحر المعاني التي يمتلك ناصـــيتها، ويولدها ذات اليمين وذات الشمال، ويحسن ربط مرثيته بمناسبتها، ومن ثم يعمل فكره في خلــق الجو الحزين المتلائم مع طبيعة الكارثة وظروف المأساة. ومن يرثي محمد بن حميد الطوسي ذاك الفـــارس الشجاع غير أبي تمام.فارس الرثاء الأول بجدارة ؟، الذي قاد جيوش المأمون وقاتل الأعداء ببسالة، وأخذ يقاتل بابك الخرمي في جبال (خراسان). فكر عليه رجالُ بابك، فانهزم من كان معه، فثبت هو ما أمكن الثباتُ، ثم سار يطلب الخلاص بالنصر على الأعداء، فرأى جماعةً وقتالاً، فقصدهم فرأى الخرمية يقاتلون طائفة من أصحابه، فلما رآه الخرمية قصدوه لــما رأوا عليه من حسن هيئته، فقاتــلهم حـــتى آخر لحظة من عمره، وضربوا سيفه، ثم أكبوا عليه، وقد كمن جماعة له حين أعياهم الظفر به، وضربوا فرسه فسقط إلى الأرض، فأكبوا عليه وهو يغالبهم حتى قتلوه، فسقط شهيداً، فقال أبو تمام فيه أجمل وأروع القصائد، وستبقى خالدة ما بقيت الأيام ترويها الأجيال وتحفظها الأحفاد:

كذا فليجلَّ الخطبُ وليفدح الأمرُ فليس لعينٍ لم يفض ماؤُها عذرُ
تُوفيتِ الآمالُ بعد محمدٍ وأصبحَ في شُغلٍ عنِ السفرِ السفرُ

يــبين الشـــاعر الفذ بهذا البيان الفصيح حجم الفاجعة، مشيراً أن كل الآمال التي علقت على كرم وسماحـــة الفقـــيد، قد تبددت وذهبت أدراج الرياح بموته، كما هو حال المسافرين الذين شغلوا عن

سفرهم بفقدهم العزيز عليهم بسبب هول الصدمة، وكم هي مؤلمة الرزايا في أوقات السفر؟:

وما كانَ إلا مالَ من قلَّ مالهُ   وذُخراً لمن أمسَى وليسَ لـهُ ذُخرُ

وما كانَ يدري مُجتدي جُودِ كفه   إذا ما استهلتْ أنـه خُلق العُسرُ

ألا في سبيلِ الله من عُطلت لـه   فجـاجُ سبيلِ الله وانثـغرَ الثـغرُ[23]

فتىً كُلما فاضت عُيونُ قبيلة   دماً ضَحكت عنه الأحاديثُ والذكرُ

فتى دهُره شطرانِ فـيما ينوبـُه   ففي بأسه شطرٌ وفي جـوده شـطر

وكيف لا ! وقد كان الفقيد عوناً لكل معوز، ورصيداً لمن احتاج إلى العون، فهو معطاء وكريم، ويقيل عـثرات الفقراء والمعوزين ويساعدهم ويوأزرهم.ويصور كيف أن الدموع توقفت لفرط الألم وشدة الحزن من هول الفاجعة:

فتىً مات بينَ الضربِ والطعنِ ميتةً   تقومُ مقـامَ النصرِ إذ فـاتَه النـصرُ

وما ماتَ حتى ماتَ مَضربُ سيَفه   من الضربِ واعتلت عليه القنا السُمرُ

وقدكانَ فوتُ الموت سهلاً فـردهُ   إليـه الحفاظُ المـُرُّ والخُلـقُ الوعـرُ

ونفسٌ تعَافُ العـارَ حتى كأنـه   هوَ الكفُر يومَ الروعِ أو دُونـه الكفرُ

فلقد وصف مقتل الفقيد بأنه لم يستسلم، وحاشى لبطل مثله الاستسلام ! ولم يمت بيسر وسهولة لأن نـيله كان صعب المراس، بل ضارب الأعداء ونازلهم نزالا صعباً حتى فل سيفه، وكلت الرماح معه، وكـان تجنب الموت عليه سهلا ويسيرا، غير أن طبعه المقدام والأبي، لا يقبل هذا الموقف أبداً، إلا أن أنفـة روحه ونفسه وشدة مجالدته هما اللتان قضيا عليه، وحتما عليه البقاء حتى الشهادة أو النصر، وجالد الموت مجالدة الرجال الأشداء الأقوياء:

فأثبتَ في مُستنقعِ الموتِ رِجلَه   وقال لها من تحت أخُمصِك الحَشرُ

غداً غَدوةً والحمدُ نسجُ رِدَائِه   فلم ينَصرِف إلا وأكفانُه الأجرُ

لقـد كانت نفس الفقيد تكره الهرب من الحروب لأنه عار عليها وترى العار في ذلك، وكانت تلك الـنفس ترى أن العار كفر، ولاسيما أن كان الهرب يوم الحرب، بل أن الكفر قد يكون دون ذلك، فقـد ثبـت في حومة الوغى، وخاطب نفسه قائلاً هنا يكون الموت أو النصر، حيث سار إلى القتال، رافلا بأثواب الثناء وبالحمد على أفعاله تلك، فلم يمض يومه إلا وقد نال أجر الشهيد:

تردى ثيابَ الموتِ حُمـراً فما أتى   لها الليلُ إلا وهي من سُندُسٍ خضرُ

---

[23] ـــ إننا نحتسب محمد بن حميد في سبيل الله.الفج : الطريق الواسع. الثغر: المكان الذي يخشى منه هجوم العدو.

كأنَّ بَني نَبهـانَ يـومَ وفاتـهِ نُجُـومُ سماءٍ خَرَّ من بَيْنِهـا البَدرُ
يُعَزَّونَ عن ثـاوٍ تُعزى بـهِ العلى ويبكي عليه الجُودُ والبأسُ والشعرُ
وأنى لهمُ صَبرٌ عليه وقد مَضَى إلى الموتِ حتى استُشهِدَا هو والصبرُ
فتىً كانَ عَذبَ الروحِ لا من غضاضةٍ ولكنَّ كِبراً أن يُقـالَ بهِ كِبرُ
فتىً سَلبَتهُ الخيلُ وهـو حِمىً لهـا وبَزَتـهُ نارث الحَربِ وهو لها خُمرُ
وقد كانتِ البيضُ المآثيرُ في الوغى بَواتِرَ فهيَ الآنَ مِن بعـدِهِ بُتر
وكيفَ احتمالـي للسحابِ صَنيعةً بإسقائها قبـراً وفي لحـدهِ البحرُ
مضى طاهر الأثواب لم تبق روضة غـداة ثوى إلا اشتهت أنها قـبر

يقول أبو تمام: سار البطل إلى القتال مرتدياً ثياب الحرب التي لم تلبث أن ضرجت بدم الشهادة القاني، وارتفعت روحه الطاهرة إلى السماء لتنال الأجر، فقد تحول لون الثياب إلى خضراء سندسية بفضل ما نالته من آجر الشهادة وثوابها العظيم عند الله، لقد كان نقياً تقياً ورعاً طيباً طاهراً، حتى أن جميع بقاع الأرض ورياضـها راحت تغبط تلك البقعة التي ضمت جثمانه الطاهرة، وتتمنى لو كانت هي المثوى لجسد ذلك الفارس الصنديد:

ثوى في الثرى من كان يحيا به الثرى ويغمر صرف الدهر نائله الغمر
عليك سلام الله وقفـاً فإنـني رأيت الكريم الحر ليس لـه عمر

لقد استقر الفقيد أخيرا في التراب الذي فخر بجثمانه الطاهر، وهو الذي كان بعطائه يبعث الحياة في الـتراب، كمـا كان يبدد مصائب الدهر، ويبعدها بعطاياه للفقراء والمحتاجين، وختم الشاعر رائعته بإلقاء التحية والسلام على الفارس الفقيد، وقد سلم أمره إلى الله تعالى، ورأى أن الموت حق لا مفر مـنه، مع تأكيده أن أمثال الفارس محمد الطوسي، والذين تكتب أسماؤهم، بأحرف خالدة، مادامت الحـياة عامرة بالبشر في هذه الدنيا، ولا غرو في ذلك، فالموت يتخير أفاضل الناس وأحسنهم فهؤلاء عمـرهم قصير. إن هذا الضرب من شعر الرثاء لا يبكي ولا يحزن، ولكن يمجد ويطرب، ويعجب، فـأبو تمام يعتمد على الفكرة، يفتق معانيها ويفجر أعماقها، ثم يزينها باللفظ الغريب والجملة المؤنقة، ولا يملـك هـذا إلا القلائل من الشعراء، وهذا كثير و لا غرو في ذلك فهو ابرز أصحاب مدرسة البديع، ومن فرائد أبي تمام التي هلل الشعراء لسماعها فضلاً عن الممدوح، مديحته في عبد الله بن طاهر بن الحسين في خراسان، فلقد لقيه الشعراء وطلبوا منه أن يسمعهم شعره، ولكنه طلب منهم الانتظار ريـثما يكون الغد، فيسمعون قصيدته في الأمير، وكان أبو تمام على ثقة من قوله ووعده، وما أن بدأ قصيدته:

هُنَّ عَوادي يُـوسُفٍ وَصواحِبهُ فعزماً فَقدماً أدركَ السؤلَ طالبُه

ومـا أن قطـع مـرحلة منها حتى هاج الشعراء، وقال واحد منهم(لعله الرياحي). إعجاباً بالشاعر الكبير:لي عند الأمير جائزة وعدني بها أرجو أن تعطى لهذا الشاعر المجيد جائزتي، وما أن انتهى أبو تمام من إنشاد قصيدته حتى كانت الدنانير الذهبية تنثر على أردانه حسبما ورد في قصة هذه القصيدة:

أعاذلتي ما أخشنَ الليلَ مركبا وأخشنُ منـه في الملماتِ راكبه

ذريني وأهوالَ الزمانِ أفانهـا فأهوالهُ العُظمـى تليـها رغائبه

ألم تعلمي أن الزماعَ على السرى أخو النُجح عند الحادثات وصاحبه

إلى ملكٍ لم يُلـقِ كلكـلَ باسهِ على ملـكٍ إلا وللـذل جانبـه

إذا أنت وجهتَ الركابَ لقصدهِ تبينتَ طعمَ الماءِ ذو أنت شاربـه

فنولَ حتى لم يجـد مـنْ ينيله وحارب حتى لـم يجـد من يحاربه

وذوُ يقَظَاتٍ مُستَمـرٌّ مَريرهُا إذا الخطبُ لاقاها اضمحلت نوائبه

فو اللهِ، لو لَم يلبسِ الدهَر فعله لأفسدتِ الماءَ القَراحَ معائبه

ويا أيهُا الساري فسِر غيَر حاذرٍ جنَانَ ظلامٍ، أو ردىً أنت هائبه

فقد بثّ عبدُ الله خوفَ انتقامه على الليل، حتى ما تَدبّ عقاربه

لله درك يـا أبا تمام إذا نطقت أبلغت، وإذا تكلمت أوجزت؟يبين الفنان أبو تمام ببراعة لا مثيل لها في صـنعة الشعر قسوة أهوال الليل وظلامه على المسافرين خشيه النوائب والمحن، فمسافر الليل بمفرده تكتنفه الهواجس المرعبة، لأن الوساوس النفسية تكثر في مثل هذه الأوقات، لكن الذاهب إلى عبد الله بـن طاهر بن الحسين لا يخشى الملمات والنوائب والرزايا بسبب كرمه وشجاعته الحميدة وسجاياه السمحة، فهو الذي يبسط على الليل أجنحة الأمن والسلام لمن يقصده، وهو الماء القراح الذي يحلو شـربه وبـه تزول معائب الدهر ومفاسده وأمراضه.ويبحر أبو تمام على شواطيء الرثاء ولعل رثاء الأطفال ليس بالأمر الهين، ورثاء الأطفال مركب صعب للشعراء، فإن الطفل الذي لم يصب بعد مجداً، فكيف يمكن أن يرثى من خلاله؟، وكذلك رثاء النساء محفوف بالمكاره لمواضعات التقاليد والعادات عـند العرب، ولكن أبا تمام يركب هذا المركب الصعب حين يموت طفلان لعبد الله ابن طاهر في يوم واحد، إنه يعتمد على قدرته في توليد الأفكار وتذليل متن المعاني ولا بأس من قول الحكمة في القصيدة وفي موضـع آخر هناك الوصف الرائع، إن أبا تمام ينسج من كل ذلك ثوباً من القول، يجمع فيه بين الصورة المبتكرة والرثاء البارع والعزاء الآسي والحكمة البالغة:

للهِ أَيـةُ لوعـةٍ ظِلنـا بِهـاَ تركت بَكياتِ العُيـونِ هَوَامِلا

مَجْد تــأوبَ طارقــاً حــتى إذا قُلنــا أقامَ الدهرَ أصبــح راحلا

نَجْمــان شَــاءَ اللهُ ألا يَطلعــا إلا ارتدَادَ الطرف حــتى يــأفلا

إن الفجيعــة بالريــاضِ نواضراً لأجــلُّ مِنهــا بالريــاضِ ذوابلا

لهفي على تلكَ الشواهدِ فيهمــا لو أُمهلت حتى تكــون شَمــائلا

إن الهــلالَ إذا رأيتَ نمــوهُ أيقنتَ أن سيكــون بــدراً كاملا

قُل للأميرِ وإن لقيتَ مُوقَّراً منهُ بِريَبِ الحادثات حُلاحلا

إن تُرزَ في طرفي نهــارٍ واحدٍ رُزئيــنِ هاجــا لوعَــةً وبلابلا

لا غَروَ إن فَنَنــانِ مِن عِيــدانه لقِيــا حِمَــامــاً للبريــة آكــلا

يشــكو إلى الله عظمة البلاء وشدته، ولكنه، في الوقت نفسه يبين إنها مشيئة الله في خلقه، أن يختطف الموت الأبناء ويترك الأسى والفجيعة للأهل، ومن مثل الأمير يتحلي بمكارم الصبر في البلوى؟

والحكمــة تجري على لسان أبي تمام في مقام المديح والرثاء وحتى في الهجاء والغزل فمن حكم أبي تمام البالغة المشهورة:

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم في الموطن الخشن

وكذلك قوله أن محبة الناس للشمس وتقديرهم لها مرهون بغيابها المتكرر، وإن الله إن شاء نشر فضيلة الخير رغم حسد الحساد، قيض لها حساد يتداولون التدبير والضرر لأهل الخير والمكارم، وربما يحسد هــؤلاء الذين يتمنون زوال النعم عن الآخرين، بأن تكثر النعم عليهم، وهكذا تعرف الرجال بالمحن فشأنهم شأن النار التي تحرق الخشب، فيظهر ريحه الطيب من خبثه فيقول:

فاني رأيت الشمس زيدت محبة إلى الناس ،ان ليست عليهم بسرمد

وإذا أراد الله نسر فضيلة طويت ، أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعالُ النارِ فيمــا جاورت مــا كان يُعرفُ طيبُ عَرفِ العودِ

لولا التخوفُ للعواقبِ لم تــزل للحاســدِ النُعــمى علــى المحسود

ومن تجربة الحياة القاسية التي خاض أبو تمام غمارها يتعلم الحكمة- حيث تجري على لسانه بليغة:

ليسَ الغــبيُّ بسيِّــدٍ في قَومِــهِ لَكــنَّ سَيدَ قَومِــهِ المتَغابــي

حكمــة ترشــد أصــحاب العقول إلى ضرورة التكيف والمواءمة مع ظروف الحياة المريرة في بعض الأحيان، مرشداً أن الغباء ضروري لذوي العقول خشية الهلاك، سواء أكان الفرد سيداً أم عادياً.

ولا تخطىء الحكمة قول أبو تمام حتى في مقام الهجاء حين يقول:

مَسَاوٍ لو قُسِمْنَ علــى الغَــوَانــي لَــما أُمهِــرنَ إلا بالطَّــلاقِ

هجاء مرير يطلق سهامه على خصمه واصفاً إياه بأقسى صفات الصفاقة، وأن لدية من المفاسد المشينة لو وزعت على نساء الأرض لفاقت أثمان المهور التي تقدم لهن كصداق أثناء الزواج.

وكذلك بلاغته في مقام الرثاء والمواساة حيث يقول:

قَد يُنعِـمُ اللـهُ بالبلـوى وإن عَظُمت   ويَبتلـي اللـهُ بعَض القَوم بالنعَم

لله درك يا أبا تمام!! عندما ترى في شدة البلاء وقسوته أحيانا، رحمة وعظة، وعبرة للفرد تفتح عينيه علـى الحياة وما فيها، وترى أن البلاء نعمة يختص بها الإنسان رفقاً به رغم قسوتها.وأحيانا أن بعض الـنعم هـي بلاء وابتلاء يمتحن بها الناس.وفي مجال الغزل يطلق أبو تمام هذين البيتين الرائعين اللذين يجريان على الألسنة مقام ترديد الشعر المؤنس الخفيف وقد ذهبا مثلا جاريا:

نَقل فؤادكَ حيثُ شئتَ من الهوى   مـا الحبُ إلا للحبيب الأول
كم منـزل في الأرض يألفهُ الفتى   وحَنيـنهُ أبـداً لأول منـزل
ينال الفتى من عيشه وهو جاهلٌ   ويكدي الفتى في دهره وهو عالمُ
ولو كانت الأرزاق تأتي على الحجى   هلكن ، إذن من جهلهنّ البهائم

وكذلـك يـبين أبو تمام سعة أفقه وقدرته على ضرب كل مجالات الحياة، فها هو يفسر لوعة المحب وحرقـته، وحنيـنه الدائم للحبيب الأول الذي لا يتغير، مهما مرت السنون وغبرت الأيام بأحمالها، ويوضح أن رزق الفتى وحياته ومماته، كل ذلك قدر وعلم من الله عز وجل، وما معرفة الإنسان بأمور الحـياة إلا معرفة بسيطة، لهي أشبه بغريزة البهائم، وأن الرزق ليس في الاحتيال ونصب الشراك، بل هـو مقدر ومقسوم ومحدد. وقال أحد الحكماء: الرزق رزقان .رزق تجري إليه وتتعب باللحاق به، ورزق يأتـيك من حيث لا تدري ولا تحتسب. وذات مرة دخل أبو تمام ومعه(صالح) غلامه ومنشده على الحسن بن وهب وعلى رأسه جارية ظريفة فأومأ إليها الحسن يغريها بأبي تمام فقالت:

يا ابن أوسٍ أشبَهتَ في الفِسقِ أوساً   واتخذتَ الغُـلامَ إلفـاً وعِرساً

قلـة أدب، وجهـل صارخ في احترام الكبار، وسوء تعامل مع أبي تمام يوجهه الحسن بن وهب على لسان جارية الملذات واللهو والعربدة على سبيل المزاح.فقال أبو تمام على الفور:

أبرقتِ لي إذ ليسَ لـي بَرقُ   فتزَحزحي مـا عندنـا عِشقُ
ما كُنتُ أفسُقُ والشبابُ أخي   أفحينَ شبتُ يجـوزُ لي الفِسقُ
لي همـةٌ عـن ذاكِ تردعـني   ومُركـبٌ مـا خانـهُ عِـرق

يـرد بمنـتهى الاحترام والتقدير، هكذا شأن العظام في المواقف، يكون بعدم التنازل عن القيم، بل بالتمسك بها، وليفعل الآخرون ما يفعلون، فالعظيم يصون كرامته ونفسه، بل إنه كان لأبي تمام مروءة

تمنعه من التهافت، وكرامة تحظر عليه التدني إلى ما يرى، أنه لا يليق به أن يفعله. ومن روائع معتيه في الجود والكرم ما قاله في المعتصم في قصيدته اللامية النفيسة:

أَجل أَيُها الربعُ الذي خَف أَهلُـه   لقد أدركت فيك النوى ما تحاوله

بيُمنِ أبي إسحاقَ طَالَت يدُ العُلا   وقامت قَناةُ الدينِ واشتدَّ كاهلُه

هو اليمُ من أيِّ النـواحي أتيتهُ   فَلجُتُهُ المعروفُ والجـود سَاحله

تَعوَّدَ بَسطَ الكفِّ حتى لـو انهُ   ثَناهَا لقبضٍ لـم تُجبهُ أناملـه

ولو لم يكن في كفهِ غيرُ رُوحه   لَجَـادَ بـها فَليَتـقِ اللهَ سائلهُ

لله درك؟ كـيف تخلع الصفات الرائعة وتحوكها وتنسجها، فيرتدي الممدوح، أبهى الحلل من الأخلاق والمكارم والصفات الحميدة، وكم من ملك يحلم، بل ويتمنى أن تؤبده بأشعارك الخالدة ما هذه الشفقة الـتي ترتجـيها وتطلبها من السائل؟ ما هذا الرفق الذي تعول عليه من السائل؟ كي يتقي الله عندما يطلب حاجته من المعتصم، كي لا يرده خائباً، بل يجود بروحه لسائله أن لم يجد ما تجود به يده.يعد أبي تمام من الشخصيات النادرة التي امتلكت فصاحة البيان وقوته وجزالته، واستطاع بأشعاره أن يوقظ الهمـم ويسـتفزها، كما برع في وصف الأحاسيس والمشاعر النفسية، حيث أرشد الإرشاد النفسي للـنفوس وحثها، فكان طبيب الجراح عندما اسقط الخرافات التي عتمت العقول وهزمت النفوس، فكـان السـيف الحـد الفاصل بين العلم والجهل، وحقيقة الأمر أن أبا تمام يعد شاعر العزة والأنفة والشموخ إنه الشخصية السوية التي تقارع الخطوب بكل ثقة وجرأة.

وما أجمل التدقيق بهذه الأبيات للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

صُن النفس وأحمِلها على ما يزينها   تعش سالماً والقول فيـك جميلُ

ولا تُـرين النـاسَ إلا تـجمَـلاً   نـبا بكَ دهـرٌ أو جفاك خليلُ

وإن ضاقَ رزق اليوم فاصبر إلى غدٍ   عسى نكبات الدهر عنك تزول

يعزُّ غنيُّ النـفس إن قـلَ مـالهُ   ويَفْـنى غنـيُ المال وهو ذليلُ

ولا خـيرَ في وُد امـرىءٍ مُتلون   إذا الريحُ مالت مال حيث تميل

جوادٌ إذا استغنيت عـن أخذ مالـهِ   وعـند احـتمال الفقرعنك بخيل

فـما أكـثر الإخوان حين تعُدهـم   ولكـنهم فـي النائـبات قلـيل

أبو فراس الحمداني

حكمة:

(الحر حر وإن مسه الضر، والعبد عبد وإن ملك الدار، وأعلم إن من يؤخر السعادة حتى يعود ابنه الغائب، ويبني بيته، ويجدَ وظيفةً تناسبه؛ إنما هو مخدوع بالسراب، مغرور بأحلام اليقظة).

أعط ثوبك لمن يمسح يديه الوسختين به، لأنه ربما يحتاج إليه، أما أنت فلا تحتاج إليه.إنه أبو العلاء الحارث بن سعيد بن حمدان بن حمدون بن الحارث، ولدمن أبٍ عربي وأم رومية بالموصل، ونشأ يتيماً منتسباً إلى أسرة أمراء كانوا في أوج العز والمجد، ويقال أن ناصر الدولة أخا سيف الدولة قتل أباه وهو طفل لم يتجاوز الثالثة من عمره، فكفل سيف الدولة أبا فراس، وتنقلت أم أبي فراس بابنها بين الموصل وآمد وميافارقين وماردين والرقة، ثم استقرت به في منبج قرب حلب، وتلقى أبو فراس علوم زمانه على علماء بلاط سيف الدولة وأشهرهم ابن خالويه، وعندما بلغ السادسة عشرة قلده سيف الدولة ولاية منبج وحران، وعهد إليه بالدفاع عن التخوم الشمالية ضد الروم وبقتال القبائل البدوية التي تشق عصا الطاعة على الحمدانيين، ثم وقع في اسر الروم ولم يرغب سيف الدولة في افتدائه افتداء خاصاً بعظيم من عظماء الروم بل تركه في الأسر حتى فودي بالطريقة العادية في مبادلة الأسرى.وبعد وفاة سيف الدولة الذي خلفه ابنه أبو المعالي، استبد أبو فراس بحمص متمردا على ابن سيف الدولة أبو المعالي، ثم وقعت الحرب بين أبي المعالي وبين أبي فراس فسقط أبو فراس في المعركة قتيلاً، وذكر ابن خالويه أن آخر شعر قاله لما أدركته الوفاة يخاطب أبنته:

أبنيتي لا تحزني	كلُ الأنامِ إلى ذَهابْ
أبنيتي صبراً جميلاً	للجليلِ من المُصاب
نُوحي عليَّ بحسرةٍ	من خلفِ سِترِكِ والحجاب
قُولي إذا ناديتني	وعَييتُ عن ردِ الجواب
"زينُ الشبابِ أبو فِراس	لم يُمتعْ بالشباب ! "

يوصي أبنته بعدم الحزن لأنه قاتل وقتل لأجل مبدأ يذود عنه، ويبين أن موت الرجال في مواقف العزة والكرامة هي أكاليل فرح وفخر وشموخ، ويحذرها بأن تندبه بما هو أهل له.وقال أبو فراس في الأسر عدة قصائد عرفت بالأسريات والروميات، وراح يرسلها إلى إخوانه كما ترسل الرسائل و سميت " الأخوانيات"، لكنها كانت أكثر رقة وأكثر شكوى، فقال يفتخر:

ألم ترنا أعــز الناس جــاراً وأمنعهُــم وأمرعهُــم جَنــابــا[24]

لنا الجبل المطل على نــزارٍ حَللنــا النجــد منــهُ والهضابــا

تُفضــلُنا الأنامُ ولا تُحاشي ونُوصــفُ بالجميــلِ ولا نحُــابى

وقد علمت ربيعةُ بل نزارٌ بأنــا الــرأسُ والناسَ الذُنــابى

مَنحــناها الحرائب غير أنا إذا جــارت منحــناها الحَــرابــا

ولــمّا ثارَ سيفُ الدين ثرنا كما هيــجتَ آســاداً غضــابــا

أسنتُهُ إذا لاقى طعــانــا صوارمــهُ إذا لاقــى ضِــرابــا

دعــانا والأسنةُ مُشرعَات فــكنّا عنــد دعــوته الجــوابــا

يصور منعة قومه وصمودهم ضد الأعداء كالجبل الشامخ، الذي لا يعبأ بالعواصف والرياح العاتية، ناهــيك عــن كرمهم وفضائلهم، التي أخذت تتناقلها القبائل في مجالسها أيماناً بسمو سجاياها ورفعة أخلاقهــم، ويمــدح سيف الدولة في أقدامه على الحرب وجسارته في تهديم بيوت الأعداء وتخريبها كالــرعد القاصف بجيوشه التي تقتحم الموت. وكانت الأخوانيات من القصائد الجميلة، لأن فيها من رقة العاطفة وصفاء التودد وتكرار التحيات وحرارة الشوق والدعاء الصادق شيئاً كثيراً، فلقد كتب أبو فراس إلى صديقه أبي الحصين القاضي وقد عزم على المسير:

يا طولَ شوقي إن كان الرحيلُ غدا لا فرقَ اللهُ فيــما بيــننا أبَــداً !

يا من أُصــافيه في قربٍ وفي بعــد ومن أُخالِصــهُ إنْ غاب أو شــهدا

راعَ الفراقُ فؤاداً كنتَ تؤنســهُ وذرَّ بــين الجفــون الدمعَ والسهدا

لا يُبعــد اللهُ شخصاً لا أرى أُنساً ولا تَطيبُ لــي الدُنيــا إذا بَعــدا

أضحى وأضحيتُ في سرٍ وفي علنٍ أعــدهُ والــداً إذ عدنــي ولــدا

ما أمر لحظات الفراق للأحبة ؟،بسبب ما تتركه من ألم وحسرة،فقد يبعد الخليل عن حبيبه لمكان آخر بمســافات تــتجاوز ملايين الكيلومترات،لكنها بمسافات الشوق هي أقرب للقلب من رفرفة الجفن للعين، وثبت أنه يصعب التخلي عن من سكن الجوارح،فمهما كانت الدنيا ممتعة ومسلية لا تستطيع أن تسلب حبل الود والصفاء جذوته المشتعلة،فقصص المتيمين والمعذبين كثيرة ،وأبو فراس أحد شعراء العاطفة الوجدانية الصادقة يبث شكواه لأحبته:

ما زال ينظمُ في الأشــعار مجُتهداً فضلاً وأنظمُ فيــه الشعرَ مُجتهــدا

---

[24] – أمنعهم : أكثرهم منعة عن وصول العدو. أمرعهم : أخصبهم .

حتى اعترفتُ وعزتني فضائله وفات سبقاً وحاز الفضل منفردا
إن قصَّر الجُهد عن إدراك غايته فأعذرُ الناس من أعطاك ما وجدا
أبقى لنا الله مولانا ولا برحت أيامنا أبداً في ظلّه جُددا
لا يطرُقِ النازلُ المعذور ساحتهُ ولا تُمد إليه الحادثاتُ يدا
الحمدُ لله حمداً دائماً أبدا أعطاني الدهرُ ما لم يعطه أحدا

يجد أبو فراس نفسه عاجزا عن رد الجميل لصديقه الوفي الذي ينظم الشعر في سجاياه الحميدة، حيث وجد نفسه مكللا بكرمه وطيبه، ويصفه بالكريم الذي يذود عن ضيفه ويحمي عرينه، ويشكر الله أبو فراس هذه النعمة التي أنعمها عليه بهذا الصديق الوفي الأبي ويعده مكرمة من الله خصه بها دون سواه.ولأبي فراس بعض المواقف بإسداء النصيحة والحثُ على التجلد والصبر والتذكير بالمحبة والمصافاة ومشاطرة الأفراح والأحزان والسعي في وقاية الصديق من المكروه، وإقالة عثرته بلطف ودراية، وله قول بعثه إلى نسيبه أبي العشائر وقد أسره الروم:

لذيذُ الكرى حتى أراكَ مُحرَّمُ ! ونارُ الأسى بين الحشا تتضرمُ
وأترُكُ أن أبكي عليك تطيرا وقلبيَ يبكي والجوانحُ تلطمُ

ولأبي فراس أبيات عتابية يشكو فيها من الدهر، ومن الصداقة الواهية التي يبدلها تغير الأحوال، فتراه يمتدح الوفاء في من حفظ له المودة على نكبته في الأسر، ويفتخر بلطف بمعاتبته ومعاملته لصديقه:

وإذا وجُدتُ معَ الصديقِ شكوتُهُ سراً إليهِ وفي المحافلِ أشكرُ

والصديق الصدوق في نظره من صان الغيب وحافظ على العهد في القرب والبعد سراً وعلناً:

وأحبُ إخواني إليّ أبَرُّهم لصديقِه في سره أو جهرِه

ودعا أبو فراس للصبر على الصديق في زلته وتحمل أذاه وهذه من مكارم النفس وعفتها:

يجني عليَّ فأحنو صافحاً أبداً لا شيءَ أحسنَ من حانٍ على جانِ

ولأبي فراس رثاء قصير يرسله زفرة متأوهة، آسفة لا تجد للمصاب عزاء، فقال يرثي أخت سيف الدولة:

أوصيكَ بالحُزنِ لا أوُصيكَ بالجلدِ جل المُصابُ عن التعنيفِ والفندِ
إني أجلُكَ أن تُكفى بتعزية عن خيرِ مُفتقدٍ يا خيرَ مفتقدِ
بي مثلُ ما بكَ من حُزنٍ ومن جَزعٍ وقد لجأتُ إلى صَبرٍ فلم أجدِ
أبكي بدمعٍ له من حسرتي مددٌ وأستريحُ إلى صَبرٍ بلا مددِ

يجعله التحسر والحزن خاضعاً لحكم القضاء الذي لا يرد، فتراه قليل التوجع، وذلك لتعوده مجابهة

الــردى في الحــروب، ولكنه متى نالته الرزية في الصميم، سالت عاطفته صادقة تتأثر بصبغة الوفاء الخالص والمودة المحققة، فقال يرثي غلاما له:

أعزز علي بأن يبيتَ مــوسداً وأبيتَ أندُبهُ مع الإخــوان

ولقد وددتُ بأن أكونَ مكانهُ تحتَ الترابِ وأن يكون مكاني

وفي مقــام آخــر يأتي غزل أبو فراس بكاء على طلول الأحبة، وتذكر الربع الراحل، وفراق الحبيب وإيراد محاسنه، وفيها دمع غزير وعناء قاسٍ، وحنين ومجادلة للعذّال، كقوله في مطلع إحدى رومياته:

تُسائلني " مــن أنت" وهي عليــمةٌ وهــل بفــتىً مثــلي على حاله نُكــرُ

فقلت :كــما شاءت وشاء لها الهوى "قتيلُكِ ! " قالت : " أيهم ؟ فهُم كُثرُ"

فقُلتُ لها: "لو شِئتِ لــم تَتــعَنَــتي ولم تسألي عــني وعنــدكِ بــي خُــبرُ

فقالت: "لقد أزرى بك الدهر بعدنا" فقلتُ :" معاذ الله بل أنتِ لا الدهــرُ"

فعُدتُ إلى حُكمِ الزمــانِ وحُكمها لــها الذنبُ لا تُجزى بهِ ولــي العُذر

وغزل أبو فراس فيه وصف لجمال الحبيب وتعداد لصفاته، وذكر لصدوده وعبثه بقلب الحبيب، وفيه وصــف للعاشق المفجوع بفؤاده السقيم، ونفسه المشوقة وخضوعه للهوى، وصفحه عن الجفــاء، وتعرضه لكيد الحساد وفيه وصف متعفف لساعات الأنس، كما أنها لا تخلو من رقة ولين فيقول:

وشادنٍ قــال لي لمــا رأى ســقمي وضعْفَ جسمَيَ والدمعَ الذي انسجما

أخذتَ دَمعكَ من خدي وجسمكَ من خصري وسُقمكَ من طرفي الذي سَقما

ولأبي فراس في قبيلته وذويه مفاخر كثيرة، فهو يرى في قبيلته الخير كله، فإن ماضيها وما لها من الأيام المأثورة قبل الإسلام وبعده يشهدان بمفاخرها، وآل حمدان ، هم أولو المناقب الرفيعة والمآثر الجليلة، وهم أصحاب الكرم والمجد والشجاعة فيقول:

لــئن خُلقَ الأنــامُ لحســو كأسٍ ومــزمــارٍ وطَنــبورٍ وعُــودِ

فلــم يُخلــق بنــو حَمــدان إلا لمجــدٍ أو لبــأسٍ أو لجــود

وفي آل حمــدان السياســة المحنكة، وقد بذلوها في سبيل الخلافة فأقدموا على الحرب ردعاً للخوارج وتذليلاً للثائرين، وقهراً للروم، وإخضاعاً للقبائل المشتتة، فيقول في قصيدة يفخر بها على نزار:

تُفضلنــا الأنــامُ ولا تُحاشي ونوصَفُ بالجميــلِ ولا نحــابي[25]

وقد علِمــتْ ربيعــةُ بل نزارٌ بأنــا الــرأسُ والناسُ الــذنابي

---

[25] -تحاشي:تستثني أحداً. لا نحابي: لا يمال إلينا خلافاً للحق.

ولا يقف أبو فراس عند ذكر أسلافه الأقدمين، بل ينتقل إلى تعداد مناقب جده ووالده وابن عمه سيف الدولة، فتبدو له مفخرة باقيةٌ أبد الدهر، يصونها الأحفاد بعد الأجداد ويكملون تشييد ما بُني قبلهم من صروح العز الرفيعة:

نشيدُ كما شادوا ونبني كما بنوا ... لنا شرفٌ ماضٍ وآخرُ غابر

ويفخر أبو فراس بنفسه فيفتخر باشتداد عزيمته وإقدامه وتصلب قوته في وقائع الحروب، وأنفته وانبساط كفه وترفعه عن الدنية:

إذا ما العزُّ أصبحَ في مكانٍ ... سموتُ له وإن بَعُدَ المزارُ
أبت لي همتي وغِرارُ سيفي ... وعزمي والمطيةُ والقفارُ
ونفسٌ لا تُجاورها الدنايا ... وعرضٌ لا يرفُّ عليه عارُ

ومهما يكن من اشتداد النوائب وإيقاعها به، فلا تزال نفسه تأبى مواطن الذل، وتحمل الإهانة وهبوط العزيمة، ولكنها لا ترى ضيراً في التشكي والعتاب وتذكر الواجب فيقول:

وكيفَ ينتصفُ الأعداء من رجُلٍ ... ألعِزُّ أولُهُ والمجدُ آخرُهُ

ويستند أبو فراس في فخره على مفاخر قدامى العرب أمثال عمرو بن كلثوم والمهلهل، فيكثر أسماء الرجال ومواقع القتال، ويجعل فخره قومياً. ونظم أبو فراس قصائد أثناء أسره ببلاد الروم، وأرسلها إلى ابن عمه سيف الدولة وإلى والدته الكئيبة وإلى أصدقائه، سميت بالروميات وهي كيوميات سجل فيها الشاعر الأسير ما يجري له من حوادث مزعجة ومناظرات كلامية مع بعض الروم، وما يعيش فيه من أحوال الأسر القاسية الرزية، وما يشعر به من الأسى على فقيد بعيد ونسيب مصاب، أو من نخوة الفخر والبطولة، وما يحن إليه في شكوى لطيفة أو شديدة فيقول:

أراكَ عصيَّ الدمعَ شيمتُكَ الصبرُ ... أما للهوى نهيٌ عليكَ ولا أمرُ
بلى أنا مشتاقٌ وعنديَ لوعةٌ ... ولكنَ مثلي لا يُذاعُ له سر
إذا الليلُ أضواني بسطتُ له يدَ الهوى ... وأذللتُ دمعاً من خلائقهِ الكبرُ
ولكنني أمضي لما لا يَعيبني ... وحَسبُكَ من أمرينِ خيرُهما الأسر

كان للألم اليد الطولى في تكوين نفسية الشاعر، فالألم يرقق العواطف ويرهف الإحساس، فيجعله متيقظاً لأخفى المشاعر، وقد يميط الستار عن مواطن في النفس، كانت مكتومة كامنة فتتفجر عيوناً صافية لشعر صاف، وهذا ما جرى لأبي فراس الشاعر الوجداني السريع التأثر، الشديد الشعور والذي قضى زمن شبابه في نعمة ومجد يطمح إلى مستقبل زاهر، ثم أُسر ولحق به من جراء الأسر ذلٌ كثير، وتحطيم لآمال واسعة وانكفاء على الذات، وناله ألم في الجسد وألم في النفس، وتنكر له كل

شيء، وعاودته ذكرى الماضي السعيد:

ويا رُب دارٍ لم تُخفني منيعة طلعتُ عليها بالردى أنا والفجرُ

وساحبةِ الأذيالِ نحوي لقيتُها فلم يلقها جَهمُ اللقاء ولا وعر

وهبتُ لها ما حازهُ الجيشُ كُلهُ ورُحتُ ولم يُكشف لأبياتها ستر

ولا راحَ يُطغبني بأثوابه الغنى ولا باتَ يثنيني عن الكرمِ الفقر

وما حاجتي بالمالِ أبغي وفورهُ ؟ إذا لم أفر عرضي فلا وفرَ الوفرُ

أُسِرتُ وما صحبي بعُزلٍ لدى الوغى ولا فرسي مُهرٌ ولا رَبهُ غمرٌ

ولكن إذا حُم القضاءُ على امرىء فليسَ له بَرٌ يقيه ولا بحر

وقال أُصيحَابي:" الفرارُ أو الردى" فقُلتُ : " هما أمرانِ أحلاهما مرُ "

ما أمر غربة النفس وأقساها على الفارس الشجاع أبي فراس، ولاسيما عندما وجد نفسه وحيداً في سجنه وقد تخلى عنه سيف الدولة والأصدقاء، ويبين أن الموت أفضل من هذه الحياة التي يتنكر فيها الصديق لصديقة والأخ لأخيه أنه زمن الاغتراب المؤلم الذي يحطم أهل ذوي الفضائل، وزاده ألما ما بلغه من ارتياح ابن عمه إلى الحساد وأصحاب المكايد الذين فرحوا بمصابه؛ وساءه أن يتناساه سيف الدولة ولا ينفك يرجى افتداءه، ويعرض عن رسائله بأسبابها وعتابها واستعطافها، وبعض ما فيها من تذكير، وله قصيدة يستحث بها سيف الدولة على فدائه:

دعوتكَ للجفنَ القريحِ المسهدّ لديَّ وللنومِ القليلِ المُشرد

وما ذاكَ بُخلاً بالحياة وإنها لأولُ مبذولٍ لأول مُجد[26]

ولكنني أختارُ موتَ بني أبي على صّهوات الخيَل غيرَ مُوسد

وتأبي وآبىَ أن أموتَ مُوسداً بأيدي النصارى موتَ أكمدَ أكبد[27]

نضوتُ على الأيام ثوب جلادتي ولكنني لم أنضُ ثوبَ التجلد

متىَ تُخلفُ الأيامُ مِثلي لكم فتىً طويلَ نجادِ السيفِ رَحبَ المُقلد

فإن تفتدوني تفتدوا شرفَ العلا وأسرعَ عَوادٍ إليها مَعود

وإن تفتدوني تفتدوا لعُلاكُم فتىَ غيرَ مردودِ اللسَان أو اليد

يطاعنُ عن أعراضكم بلسانه وَضربُ عنكم بالحسامِ المُهند

ويستعطف أبو فراس ابن عمه سيف الدولة بوصف حالته في الأسر وما هي عليه من ضيق وقسوة

---

[26] _ مجتد :طالب للمال.(أغامر بحياتي عند أول مهاجم من الأعداء).

[27] – الأكمد والأكبد : شديد الحزن وشديد التألم.

وهو رجل تعود العيش الحر في بلاد واسعة وهو فارس أعز مناه أن يموت في حومة القتال فيقول:

ولـــكنني أختـــارُ موتَ بني أبي   عـــلى صهـــواتِ الخيلِ غيرَ موَسد

فكيف يطيق احتمال المذلة وضغط الهوان وانهيار الأماني في جماعة من الخلان وشركاء الأسر:

أقلـــبُ طرفي بـــين خِـــلٍ مكبلٍ   وبـــين صَفي بالحـــديد مصفـــدِ

دعـــوتكَ والأبـــوابُ ترتِجُ دوننا   فـــكن خيرَ مـــدعوٍ وأكـــرمَ مُنجد

وقـــد بلغه أيضا ما كانت أمه الكئيبة تتكبد من مرارة الأسى، وما كانت تحاوله في سبيله لدى سيف الدولة، فترد خائبة" تمسك أحشاءها على حرق" أليمة ولوعة جارحة.فقام يعاتب سيف الدولة ويعزي أمه ويوصيها بالتجلد وانتظار الفرج من الله، راثياً لحالها شاكياً من تخييب آمالها وردها ملوعة، لاهفة، يملأها الأسى ومشاطراً لها كآبتها وموصياً لها بالصبر وتسليم أمرها لله فيقول:

يـــا أمتـــا لا تَحـــزنـــي   وثـــقي بفضـــلِ اللهِ فيـــّه !

يـــا أمتـــا لا تـــيأســـي   للـــهِ ألطـــافٌ خفيـــه !

أوصيـــــكِ بالصـــــبر   الجميـــلِ فأنـــهُ خيرُ الوصيه

وينطلق أبو فراس بمدح سيف الدولة ووصفه بالإباء والإقدام على صنع الجميل، وتذكيره ما سبق له من أفضال على الأسير وعلى ذويه:

وأنتَ الذي بلغتـــني كلَّ رُتبـــةٍ   مَشيتُ إليـــها فوقَ أعنـــاقِ حُسدي

فبقي أن يتم صنيعه بمأثرة جُلى فيفتدي الأسير:

فيا مُلبسي النعـــمى التي جلَّ قدرُها   لقد أخلَقـــت تلـــكَ الثيابُ فجددِ

ويـــبين أبـــو فراس بأنه الفتى الذي يجمل به الفخر، والذي يتصلب في الشدة ولا يذل، ويتبوأ ذروة العلى ويذود عن أمجاد ذويه بشجاعته وعزيمته ولو كان أصغرهم:

أما أنا أعلى من تعدون همةً   وإن كنت أدنى من تعدون مولدا

ويشير إلى أنه لا يزال الإسلام والبلاد في حاجة إليه، فكيف يسمع سيف الدولة بعد ذلك إلى الحساد والمســـيئين؟.ألم يكن مخلصاً لسيف الدولة كل الوفاء والحب !، ألم يجتهد في تحقيق أماني سيف الدولة مخاطراً بنفسه في سبيله ! فكيف يتيح سيف الدوله لنفسه أن يتناسى نسيبه؟ ويتباطأ في فدائه مستمعاً للحساد ويرد الأسير بخيبة مُرة ؟:

بأي عُـــذرٍ رددتَ والهـــةً   عليك دونَ الورى مُعولـــها ؟

وكيف ينسى القرابة والمواعيد ؟ وكيف يرضى بالنعيم والأسير في الشقاء:

تلـــك المودات كـــيفَ تهمـــلها ؟   تلـــكَ المـــواعيدُ كـــيف تُغـــفلها

أيـنَ المعـالي التي عُرفتَ بـها تقـولـها دائـماً وتفـعلها
يا ناعـم الثـوبِ كيف تُبدله ؟ ثيـابنا الصـوفُ مـا نبدلـها

ولكن هذه النفس الرقيقة مع ميلها إلى الود والعطف والتقرب، كانت ذات أنفة وشجاعة وإقدام تميل إلى التضـحية العالية في إباء ملوكي وعزة فطرية، فظلت وسط الآلام التي صقلتها وأوضحت جمالها، قائمة على إبائها متذكرة كرم محتدها، تأبى التذلل للأعداء وتحاول التجلد والصبر حتى إذا تعذر عليها كتم الألم واحتباس الشكوى، عمدت إلى التغني بالألم تفريجاً للكربة وتنشيطاً على اليأس والاستسلام للوهن.

يـمنـون أن خلـوا ثيـابي وإنما علـي ثيـابٌ مـن دمـائهمُ حُـمر
وقائم سيفٍ فيهمِ أندقَّ نصلـه وأعقـابَ رُمحٍ فيهم ِحطـمَ الصـدر
سيذكرني قومي إذا جـد جدهم وفي الليـلة الظلمـاء يُفتقـد البـدر
ونحـنُ أُنـاسٌ لا توسُـطَ عنـدنا لنا الصـدرُ دون العاليـن أو القـبر
تَهونُ علينـا في المعـالي نُفوسنا ومن خطبَ الحسـناء لم يُغلـها المـهرُ

ويعـاني أبو فراس من وحشة الأسر، ويتذكر الأيام الماضية وحنينه إلى الأحباء من الأصدقاء والخلان المخلصـين، ويبث شكواه من انقلاب الأصدقاء الذين قل وفاؤهم، حتى خيل له أن يشك في حقيقة الصداقة، ولكنه مع كل ذلك واثق بالله ينتظر من لدنه الفرج عاجلاً أو آجلاً فيقول:

مُصـابي جليلٌ والعـزاء جميـلُ وظـني بـأنَّ الله سـوف يديلُ[28]
جـراحٌ وأسرٌ واشتياقٌ وغُـربةٌ أحَمـلُ : إنـي بَعـدها لَحمـولُ[29]
جـراحٌ تحاماها الأساةُ مَخـوفةٌ وسُـقمانِ : بـادٍ منهـما ودَخيلُ[30]
أقلَبُ طرفي لا أرى غير صاحبٍ يَمـيلُ مـع النعـماء حيث تمـيلُ
وصرنا نرى أن المُتـارِكَ محسنٌ وأنَّ صـديقاً لا يضـرُّ خليـلُ

ويـرى أبو فراس أن من واجبه الرد على الحساد الذين يسترسلون في ذم الأسير، ويفرحون لنكبته ومنهم ممن انتفعوا بصداقته ثم انقلبوا وناصروا الدهر عليه، وهو يرى في ذلك مفخرة له جديدة، إذ لم ينل الحسد يوماً إلا من كان ذا مقامٍ سامٍ:

ومن شرفي ألا يزالَ يَعيبُـني حَسودٌ على الأمر الذي هو عائبُ

---

[28] -يديل: يغير حالتي
[29] -حمول: كثير الاحتمال وصبور.
[30] -تحاماها:تجنبها. الأساة :الأطباء. دخيل:وسواس داخل النفس.

فهم يطفئونَ المجدَ واللهُ واقدٌ   وهم ينقضون الفضلَ واللهُ واهبُ

توضح هذه القصائد الوجدانية مدى الشوق الكبير والحزن العميق، ومعاودة الأحلام الأليمة والرغبة في التخلص مع إكراه النفس على التجلد، ما ينم عن شعور مرهف يعاني مضضاً جارحاً، ويؤلمه تباطؤ الانسباء، فكأنهم أضاعوا المودة ونسوا العهود، ويسمع أبو فراس هديل حمامة تنوح على شجره قرب سجنه في القسطنطينية فتثير جراحه وهمومه وأحزانه فيقول:

أقولُ وقــد ناحت بقُــربي حَــمامةٌ   أيا جارتــا لو تشعرينَ بحــالي

معــاذ الهوى ! ما ذُقتِ طارقةَ النوى   ولا خطــرت منكِ الهموم ببالِ

أتَــحمِلُ محزونَ الفـؤادِ قــوادمٌ   علــى غُصــنٍ نائي المحلة عالِ؟

أيــا جارتــا ما أنصفَ الدهر بيننــا   تعالَي أقــاسمكِ الهمــومَ تعــالي

أيــضحكُ مأســورٌ وتبكي طليقــةٌ   ولكن دمعــي في الحوادث غــال

نالت الهموم من أبي فراس منالاً مؤلماً، فراح ينشد أجمل آهات الشكوى واللوعة والحسرة من الأسر، ورغم صعوبة الأسر، فلقد بقي الأمل والصبر حياً بداخله، وهو بهذه الأحوال يرشد النفوس كمرشد نفســي خــبر الحياة ووعورتها إلى عدم الإستكانة لليأس والقنوط، وهكذا بدت شخصية أبو فراس شجاعة وفية صادقة العواطف لا تنسى حقوق الأهل والأصدقاء بل تدعو للتواصل الاجتماعي والمحبة رغم ظلمات القهر التي مر بها فلقد كانت نفسه أبية يدعو للتمسك بالوطن والأهل مهما ظلموا فهم كرام ولا ينبغي نسيان فضائلهم، وتوكل على الرحمن في كل حاجة ولا تؤثر العجز يوماً على الطلب، ألم تــر أن الله قــال لمريم...إليك فهزي الجذع يسقط الرطب، ولو شاء أن تجنيه من غير هزها جنته ولكن كل سيء له سبب.

<u>قال أحد الحكماء:</u>

(إن يــبغ علــيك قومك، لا يبغي عليك القمر، وإذا نزل بك البلاء فأصبر عليه، وإذا أردت أن يفــرج الله عــنك ما أهمك، فاقطع طمعك في أي مخلوق صغر أو كبر ولا تعلّــق علــى أحد أملاً، واستعن بالله الذي لم يغلق بابه، ولم يسدل حجابه، ولم تنفد خزائنه، ولم ينته فضله، ولم ينقطع حبله).

أبو العتاهية

حكمة:

(الدنــيا لا تصــفو لشارب و لا تخلو لصاحب إن أقبلت فهي فتنة وإن أدبرت فهي محنة، فاعرض عنها قبل أن تعرض عنك، واستبدل بها قبل أن تستبدل بك، أحوالها لا تزال تنتقل وأطوارها لا تبرح تتبدل).

أيــتها الغمامة، يا أختي ! أحببت العالم كثيراً، والعالم أحبني لأن بسماتي كلها كانت على شفاهه، يا شقيقتي التي لا ينالها الموت، أنا أنشد الأناشيد العتيقة لأولادي الصغار، وهم ينصتون، والدهشة تعلو وجوههــم، ولكن يمكن أن ينسوا الأنشودة غداً، وأنا لا أعراف إلى من سيحملها الريح، وهي وإن كانت ليست لي، فإنها بلغت فؤادي، وأقامت برهةً على شفتي.إنه إسماعيل بن القاسم مولى عنزة ولد ســنه **748**م في بلدة عين التمر قرب الكوفة وتوفي سنة **826**م في بغداد، وكان أبو العتاهية في أول أمره فقيراً يبيع الخزف (الفخار)، ومع أن أبا العتاهية ترك اللهو ولزم الزهد، فإنه ظل بخيلا حريصا على الدنيا، ولقد شكك المعاصرون لأبي العتاهية ومؤرخو الأدب من بعدهم في صدق أبي العتاهية في زهده، واعتقدوا أنه كان يصطنعُ القول فيه اصطناعاً حتى قال فيه سَلمٌ الخاسر مشككاً بعدم تزهده:

ما أقبحَ التزهيدَ من شــاعرٍ   يُزهّــدُ الناسَ و لا يزهَــدُ !
لو كان في تزهيده صادقــا   أضحــى وأمسى بيته المسجد
ورفض الدنيا ولم يَلَقــها   ولم يكن يسعى ويســترفد
قد خاف أن تنفذَ أرزاقــه   والرزقُ عند الله لا ينفــد
الرزقُ مقسومٌ على من ترى   ينــالُه الأبيــض والأســود
كلّ يــوفى رِزقه كامــلاً   من كفّ عن جهدٍ ومن يجتهد

يشــكك ســلم الخاسر بزهد أبي العتاهية، بأنه لو كان صادقاً في زهده للبث في البيت يلزم الصلاة، وجعلــه مســجده، لكــنه راح يجمع الأموال خشية الفقر على الرغم من أنه غني ويعلم أن الرزق مقسوم، فسلم الخاسر لا يجد مبرراً لزهد أبي العتاهية. وحمل الناس على الشك في زهده مبيناً أنه كان بخيلاً مقتراً على أهله وعلى نفسه، فقد كان محباً للهو حتى بعد انتقاله إلى القول في الزهد، وبالرغم مما قــيل عــن أبــو العتاهية وحسب بعض المصادر تؤكد أنه من الذين عافت نفوسهم ملذات الدنيا، فانصرفوا عنها إلى زوايا الزهد، ينعون إلى الناس زخارفها، ويدعوهم إلى نبذها والنظر إلى ما ورائها. مهلاً أبو العتاهية يقال عنك:أنك عشت في مظهرين (حياة الغزل والمنادمة، وحياة الوعظ والإرشاد)، حتى زعم بعض النقاد أنك سميت أبا العتاهية، لأنك تحب التهتك والمجون، وعندما قدمت مع الرشيد الــرقة سنة(**181**هجرية) لبست الصوف، وتزهدت وتركت حضور المنادمة والقول في الغزل.وليس

أدل على ذلك ما تقوله:

عيني علـى عتُبـةَ منُهلـةٌ   بدمعـها المنُسكبِ السائلِ
كأنـها مـن حسنها دُرةٌ   أخرجـها اليم إلى الساحل
كأن في فيـها وفي طرفـها   سواحراً أقبلنَ مـن بابل
بسطتُ كفي نحوكم سائلاً   ماذا تـردون علـى السائلِ
إن لم تنيلوه فقولوا لـه   قولاً جميـلاً بـدَلَ النـائل
لم يبـقِ مني حبـها ما خلا   حشـاشةً فـي بـدنٍ ناحـل
يا مـن رأى قبلي قتيلاً بكى   من شـدة الوجـدِ على القاتل

يبكي أبو العتاهية من حب (عتبة)، ويصفها بأنها لؤلؤة قذف بها البحر لتحرق فؤاده من شدة الوجد، ويدعـي علـيه "المسعودي" قائلاً:أنه لبس الصوف بسبب يأسه وفشله في حب "عتبة"، وقد قال في عتبة:

يا عتب سيدتي آما لك دين   حتى متى قلبي لـديك رهين؟
وأنا الذلول لكل مـا حملتني   وأنـا الشقي البائس المسكين
يا عتب أين أفر منك أميرتي   وعلي حصن مـن هواك حصين

لا يجـد أبو العتاهية فكاكاً من وثاق الحب الذي رمته به عتبة، فيبدو ذليلاً حزيناً مقهوراً لا يستطيع الفـرار، فقلبه مرهون لها ما عاش على قيد الحياة. ويذكر "الحصري" أنك يا أبا العتاهية قد ضربت مائـة سوط ونلت أشد العقاب، ونفيت إلى الكوفة من أجل تغزلك في "عتبة"، حتى يقال أن المهدي حـين نفاك قال: (أبي يتمرس وحرمي يتعرض وبنسائي يعبث).وهذا ما راب بعض أهل زمانك؛ حتى أبو العلاء المعري يقول عنك:(أبدى العتاهي نسكاً). حمل أبو العتاهية في شعره رسالة جديدة ووضع مبادئ فلسفية، من خلال دعوته إلى احتقار الدنيا وتعظيم الآخرة، فهو يحملك إلى المقابر، فيقف بك هناك أمام الجثث البالية والعظام النخرة، ثم يصف ظلام القبور وأهوال الموت، ويندد بمطامع الإنسان وأباطيل الحياة في بيان يثير شجونك، ويزيل بهجة الدنيا من أمامك، فتصغي إليه مسروراً، وتشعر معه بنشـوة خفية تملا قلبك، وتحرك عواطفك، حيث يقول في زوال الدنيا وأفول نعيمها مهما طال وفق أسلوب إرشادي وعظي:

لدوا للموت وابنوا للخراب   فكلكـم يصير إلى تباب
لمن نبني ونحن إلى تراب   نصير كمـا خلقنا من تراب

تحذيـر و تنبيه النفوس لحقيقة الحياة الفانية ورجوع الإنسان لأصله الحقيقي، ولا بد من قدوم الموت

الـــذي لا يميز بين الأمير والفقير وبين الكبير والصغير، إنه الإرشاد النفسي الديني بكل ما في الكلمة معنى الكلمة:

ألا يا موت لم أر منك بدا أتيت ومـــا تحيف ومـــا تحابي

وأنك يا زمان لذو صروف وأنك يـــا زمان لذو انقلاب

كأنك قد هجمتَ على مشيبي كما هجم المشيبُ علـــى الشباب

وهذا الخلق منك على وفاةٍ وأرجلهم جميـــعاً في الـــركاب

مـــاذا يفيد الكلام في العتب على الدهر، وتقلبات الأيام ؟وما ذا يفيد افراط الإنسان بلوم الزمان ، ومـــا فـــائدة اللـــوم؟، فإنه سيلقى جزاء ما اقترفت يداه بما عمل وفعل، ويمضي أبو العتاهية محذراً ومرشداً:

وموعد كل ذي عملٍ وسعيٍ بما أسدى غـــداً دار الثواب

سأسأل عن أمور كنت فيها فما عذري هنـــاك ومـــا جوابي

بأية حجةٍ أحتج يوم الحساب إذا دعيـــت إلـــى الحساب

مـــاذا يقـــول الإنسان أمام الحقائق الدامغة ؟ وبماذا يحتج ؟ فكل ما يفعله وما يقوله مسجل ومدون ومثبت، والشهود حاضرون، وكل ذلك في كتاب مبين لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، فأين المفر؟.

هما أمران يوضح عنهما لي كتابي حيـــن أنظـــر في كتابي

فإما أن أخلد في نعيم وإما أن أخلـــد في عـــذاب

صـــوت شجيّ تضطر أن تقف لديه معتبراً خاشعاً، ولكنك لا تلبث أن تعيده لنفسك، فتنسى الموت وعبوســـه، فتـــنظر إلى الموت نظرك إلى صديق مؤاس يأتي ليخلصك من الزمان، وينقلك إلى ظلال الجـــنان، ولماذا ترى الموت كذلك وهو الرهيب المخوف؟ لأن الشاعر يضرب على وتر شجيّ يهيج فـــيك دافعيه الاستحسان والخوف، فيطربك ويبقي على ما حولك من فساد ورعب مسحة من جمال الفن الشعري الذي يحول الظلام إلي نور، والرعب إلى أمن وطمأنينة. ولك أن تتأكد ذلك في نفسك فأسمع الأبيات التي يصف بها طمع الإنسان ووجوب القناعة وزوال الدنيا حيث يقول:

ألم تر ريب الدهر في كل ساعة له عارض فيه المنية تلمع

أما المنايا فغير غافلة لكل حيّ من كأسها جرع

أيا باني الدنيا لغيرك تبتني ويا جامع الدنيا لغيرك تجمع

عـــبر مســـتمرة وشواهد ماثلة أمام ناظريك أيها الإنسان ! أما لك أن تتعلم وتتعظ؟ والحقائق أمام ناظريك كل ثانية تسمعها وتراها وتحسها!!:

أرى المرء وثاباً إلى كل فرصة　　وللمرء يوماً لا محالة مصرع

أيّ لبيب تصفو الحياة له　　والموت ورد له ومنتجع

تبارك الله كيف قد لعبت　　بالناس هذي الأهواء والبدع

تبارك من لا يملك الملك غيره　　متى تنقض حاجات من ليس يشبع

إلى غـــير ذلك من العظات الروحية البالغة، مما يستهوي النفس برغم ما يتراءى فيه من أهوال الموت وكلاحـــة الورع والزهد.قد يكون أبو العتاهية أدرك الغاية من وجود الإنسان ومن علاقته بالمجتمع، فنعى عليه ذلك، ودعاه إلى نبذ الدنيا، و الاهتمام بالآخرة من خلال دعوته للتبصر وأخذ العبر، أنها روحه التي تحتقر الدنيا وتنظر إليها كممر زائل، إنها الرغبة والتلهف لحياة عليا. وإذا فسرنا القناعة أو الــزهد بأنهــا لجام الشهوات الفاسدة والأطماع الثائرة والتعالي عن الطبيعة الحيوانية التي تدعونا إلى الــتعدي وحب الأثرة، كانت القناعة حكمة اجتماعية عالية وأساساً للسعادة والصحة النفسية، بل صــدق الداعــون إليها أنها باب السعادة الدنيوية.وأما إذا كانت كما يصفونها الوقوف عن الجهاد والعمـــل، والبعد عن أسبابه وطلب الراحة في زوايا المناسك، والظهور بمظهر الفقر والتصوف، فهي الخمــول الذي يزيد شقاء الإنسان، ويبعده عن سعادته المنشودة، وفي هذا وجه الضعف بأقوال أبي العتاهــية.فلقــد امتاز أبو العتاهية برشاقة التعبير، فعند قراءة قصائده، تجد رشاقة المبنى حيث يسيل عذوبة وطلاوة، إنه سهل الفهم قريب المنال بعيد عن التكلف.فيقول في غرور الدنيا:

نصبت لنــا دون التفكر يــا دنيا　　أماني يفنى العمر من قبل أن تفنى

متى تنقضي حاجات من ليس واصلاً　　إلى حاجة حتى تكون له أخرى

يشير أبو العتاهية إلى أن الدنيا دار بلاء وفتن، وفيها الكثير من الإغراءات التي تدفع بالفرد إلى التفكر بها، والسعي إليها وسرعان ما تنتهي حاجة حتى تبدأ حاجة أخرى، والخالق عز وجل يحذر الإنسان من الوقــوع بحبال الدنيا وشراكها.(... وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)[31]. وتنتاب أبو العتاهية الحسرة والندم على أيام الشباب التي تضيع هدراً دون أن يحس بها الإنسان قائلاً:

بكيت على الشباب بدمع عيني　　فلم يغن البكاء ولا النحيب

فيا أسفاً أسفت على شباب　　نعاه الشيب والرأس الخضيب

عريت من الثياب وكان غضاً　　كما يعرى من الورق القضيب

ألا ليتَ الشباب يعود يوماً　　فأخبــره بمــا فعــلَ المشــيب

---

[31] -سورة الحديد الآية 20

يبين أبو العتاهية مخاوف النفس من تسارع الأيام، وما يأتي الليل والنهار على شيء، إلا أبلياه واعظاً ومحذراً الإنسان من الوقوع بالأخطاء، ويدعوه لشرف العفاف والرضى بما قدره الله حيث يقول:

طلبت الغنى في كل وجه فلم أجد   سبيل الغنى إلا سبيل التعفف
إذا كنت لا ترضى بشيء تناله   وكنت على ما فات جم التلهف
فلست من الهم العريض بخارج   ولست من الغيظ الطويل بمشتف

يؤكد أبو العتاهية بحسه أهمية الصبر على مكاره الحياة، وما فيها من مفارقات، مبيناً أن التعفف شرف عظيم للفتى، ويقي الإنسان من أمراض الوساوس والصراعات النفسية والابتعاد عن الهموم.

ويمضي موضحا أن فناء الحياة لا بد من أنه حادث، وما من فائدة من شدة الحرص عليها، فكل ما فيها سيؤول إلى الزوال والفناء:

نعى نفسي إلي من الليالي   تصرفهُن حالاً بعدَ حالِ
فما لي لستُ مشغولاً بنفسي   وما لي لا أخافُ الموتَ مالي
لقد أيقنتُ أنّي غيرُ باقٍ   ولكنّي أراني لا أُبالي
أما لي عبرةٌ في ذكرِ قومٍ   تفانوا رُبما خَطروا ببالي
كأن مُمرضِي قد قام يمشي   بنعشي بينَ أربعةٍ عجالِ
وخلفي نسوةٌ يبكينَ شجواً   كأن قُلوُبهنَّ على مَقال
تعالى اللهُ يا سلم بن عمرو   أذل الحِرصُ أعناقَ الرجال
هب الدنيا تساق إليك عفواً   أليس مصير ذاك إلى الزوال
خبرت الناس قرناً بعد قرن   فلم أر غير ختال وقال

بهذه العظات النفسية يلفت أبو العتاهية انتباه الإنسان إلى عبر الدنيا وتقلباها، وتغير حالها من حال إلى حال، مطالباً إياه بالتفكر والتأمل، فلو تملكت الدنيا، فمصيرك أيها الإنسان إلى الزوال، وأن العمر قصير، والموت لا يدع لك أية فرصة لتحقيق ما تتمناه وتحلم به نفسك، حيث يقول:

ألا هل إلى طول الحياة سبيل   وأنّى وهذا الموت ليس يقيل
وأني وأن أصبحت بالموت موقناً   فلي أمل دون اليقين طويل
وللدهر ألوان تروح وتغتدي   وإن نفوساً بينهن تسيل
ومنزل حقٍ لا معرج دونه   لكل امرئ يوماً إليه رحيل

تتعدد أسباب المنايا، ولكن الموت لا مفر منه رغم أنف الإنسان وجبروته، قال تعالى:"(كل نفس

ذائقة الموت)[32]".

أرى علل الدنيا علـــي كثيرة وصاحبها حتى الممات عليل
ولم أر إنساناً يـــرى عيب نفسه وإن كان لا يخفى عليه جميل
ومن ذا الذي ينجو من الناس سالماً وللناس قالٌ بالظنون وقيل

ويشـــرع أبـــو العتاهية في دعوته الإنسان إلى التبصر في انصرام الأيام والشهور، والنظر بعين العقل وليس بعين العاطفة، إلى ألوان الدهر وعلله التي تغري الإنسان وتأخذه بعيداً عن جادة الصواب، وإن عبر الزمان في أيامه، فهي خير معلم للإنسان حيث يقول:

نادت بوشك رحيلك الأيـــام أفلست تسمع أو بك استصمام
ومضى أمامك من رأيت وأنت (م) للباقين حتى يلحقوك إمام
ما لي أراك كأن عينك لا ترى عبراً تمّر كأنهن سهام
تأتي الخطوب وأنت منتبه لها فإذا مضت فكأنها أحلام

تتوالى علامات الموت والناس في غفلة عن هذه الإشارات ! و ما أكثر هذه العلامات ومنها على سبيل المثال لا الحصر الشيب، وانحناء الظهر وتقوسه، وتعثر الرؤية كلما تقدم العمر بالإنسان:

أهلاً وسهلاً بالمشيب مـــؤدباً وعلى الشباب تحية وسلام
زمن هـــوت أعلامه وتقطعت قطعاً فليس لأهله أعلام
ما زخرف الدنيا وز برج أهلها إلا غروراً كله وحطام
وعجبت إذ علل الحتوف كثيرة والناس من علل الحتوف نيام
والموت يعمل والعيون قريرة تلهو وتلعب بالمـــنى وتنام

يندد أبو العتاهية بهؤلاء الغافلين النيام، ويدعوهم إلى اليقظة والعبرة من رحيل الأيام ! وما زخارفها إلا كمائن يقع بها الغافلون حتى ولو تعددت أسباب المنية فالموت واحد، ويبين خداع الآمال والأماني وتضيع لحظات العمر بين صراعات النفس الكثيرة قائلا:

الدهر ذو دول والموت ذو علل والمرء ذو أمل والناس أشباه
يا بائع الدين بالدنيا وباطلها ترضى بدينك شيئاً ليس يسواه
حتى متى أنت في لهوٍ وفي لعب والموت نحوك يهوي فاغراً فاه
ما كل ما يتمنى المرء يدركه رب أمريء حتفه فيما تمناه

---

[32] - سورة آل عمران الآية 185

مـــا أكـــثر أمـــال الإنســـان وطموحاته التي لا حدود لها؟ فهي تلهيه وتشغله، فقد يكون أجله في طلبها،وكم من فتى تمنى بلوغ طموحاته وما أن وصل إلى بدايتها حتى يدعها مرغماً، أليس هذا عبرة؟.

والناس في رقدة عما يراد بهم   وللحوادث تحـريك وإنباء

لا تحقرن من المعروف أصغره   أحسن فعاقبة الإحسان حسناه

ما أقرب الموت في الدنيا وأبعده   وما أمر جنى الدنيا وأحلاه

كـــم مـــن لاه أخذته الدنيا على حين غرة؟ وكم من إنسان ترك نعيمها وجرى خلفها فتركته عبرة وشاهداً لمن يعتبر! إن أبو العتاهية يمارس الإرشاد والتوجيه النفسي من خلال هذه الحقائق لتكون بمثابة علاج نافع ورادع لوساوس الإنسان وصراعاته النفسية الشريرة:

كم نافس المرء في شيء وكابر فيه   الناس ثم مضى عنه وخلاه

وكل ذي أجـــلٍ يومـــاً سيبلغه   وكل ذي عملٍ يوماً سيلقاه

جـــزاك الله خيراً أبا العتاهية بكل ما قلته من نصائح وعظات وعبر وتوعية للإنسان، والذي عليه أن يتعلم من دروس الحياة الكثيرة والاستفادة من مآسيها العديدة. فلقد عبرت ببيان سهل العبارة، سلس المعنى ترتاح إليه النفس، وتشعر الفرد بأهوال الدنيا وبلائها، وعلى الإنسان العمل، والأخذ بالأسباب والقناعة وعدم الغرور ببهرجة الدنيا وزخرفها الساحر. ومعلوم أبو العتاهية لم ينشأ فجأة شاعراً للزهد يتخصص فيه ويتبنى قضاياه، بل كان هذا الزهد على المستوى الاجتماعي (رد فعل لتيارات المجون وموجـــات الـــلهو السائدة في عصره، بل لقد آثر أن يتجه إلى مجاهدة نفسه بعيداً عن ضجيج حياة الـــبلاط وصـــخبها)، وراح في تلك المجاهدة الروحية الطويلة مرحباً بالانصراف عن كل متع الدنيا، ووقف من عالمه الذي يعيش فيه وقفة عزلة وزهد، فرضها على نفسه ليغرق من خلالها في بحار عميقة مـــن التأمل في قضايا الغيب وفكرة المصير، ومتاعب الحياة في كل مراحلها وأطوارها، وعندئذ أصبح أبـــو العتاهـــية مـــن أكبر شعراء الزهد وأكثرهم قدرة على الانتشار والتأثير من خلال فنه وأسلوبه البسيط، وهذا الأمر والموقف يمكن أن ينفي شبهة الاتهام التي وجهت إليه، بأنه إنما زهد زهداً مانوياً[33] لا إسلاميا.فمن الحقائق التي طرحها شعر أبي العتاهية في الزهد إشارته إلى مصادر تلك الرهبنة. بدا فيه مســـلما بعـــيدا عن دوافع المانويين، ممن استهدفوا استعادة مذهبهم القديم، وتحويلة إلى دين، تمنوا لو استطاع أن يقف في موازاة الدين الإسلامي حتى يناهضه.كما أنه لم يكن زاهداً على النهج الذي يدع

---

[33] – الزهد المانوي: اتجاه ديني يهدف إلى الترغيب المطلق في الانصراف عن نعيم الدنيا وطيباتها، حمل لواءه بعض شعراء العصر، ومنهم صالح بن عبد القدوس، وقد أخذت منه الدولة موقفاً عدائياً لبعده عن روح الإسلام، ومجافاته لسلوك المسلمين الذين لا يعرفون في دينهم رهبنة ولا حرماناً من طيبات ما أحل الله لهم.

إلى تعذيب الجسد أو الرهبنة .وعلى هذا بدا زهد أبي العتاهية إسلامياً يقوم على أساس التقشف والدعوة إلى التقوى والورع، لم يدع من خلاله إلى رفض الزواج حيث لا رهبنة في الدين الإسلامي، ولم يوجد من شعره ما يدعو إلى القهر الجسدي إيماناً منه بدستور الإسلام، ومبادئه التي لا تحرم طيبات الله سبحانه على عباده.(كلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون)[34]، بل سار على نهج ما دعا إليه رسول الله ﷺ(إن لبدنك عليك حقا)، فهو زهد أساسه كما يبدو من شعره الدائب على تذكر الآخرة، والخوف من لحظة الحساب، وعدم نسيان المصير، وكثرة التفكر فيما وراء الموت على نحو سلوكي مستمر، (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لأخرتك كأنك تموت غدا)،وأبو العتاهية يتخذ من القبور وساكنيها عظة وعبرة، ويجعل ذلك وسيلة للحض على زهد الحياة الدنيا فيقول:

سلامٌ على أهلِ القُبُورِ الدوارسِ   كأَنَّهُمُ لم يَجلِسوا في المجالسِ

ولم يبلغُوا من باردِ الماء لذة   ولم يَطعَمُوا ما بين رطبٍ ويابسِ

و يسأل أبو العتاهية القبور عن ساكنيها، فتجيبه القبور عن حال أجسادهم التي أصابتها مراحل البلى وقد نخرت العظام وتفتت، ولكن في أسلوب يدعو المرء إلى التأمل طويلاً والوقوف حزيناً:

إنيَ سألتُ القبرَ ما فعلت   بَعدي وجُوهٌ فيكَ مُنعفِرَهْ

فأجابني صَيَّرتُ ريَحهُم   تُؤذيكَ بَعدَ روائحٍ عَطِرهْ

وأكلتُ أجساداً مُنعمةً   كان النعيمُ يهزُها نضرة

لم أبقِ غيرَ جماجِمٍ عَرِيَت   بِيضٍ تَلوحُ وأَعظُمٍ نَخِرهْ

ومما يروى ذات مرة أن الرشيد طلب من أبي العتاهية أن يعظه، فتردد وقال: أخافك، فقال له الرشيد أنت آمن. فأنشده أبو العتاهية بعض أبيات من هذه القصيدة:

أفنى شَبَابَكَ كَرُّ الطَّرفِ والنفَسِ   فالموتُ مُقتربٌ والدهرُ ذُو خُلَسِ

لا تَأمنِ الموتَ في طرفٍ ولا نفَسٍ   وإن تَمَنعتَ بالحُجَابِ والحَرس

فما تَزالُ سَهامُ الموتِ نافذةً   في جَنبِ مُدرعٍ منها ومُترسِ

أراكَ لَستَ بوقَّافٍ ولا حَذِرٍ   كالحاطبِ الخابطِ الأعوادَ في الغَلسِ

ترجو النجاةَ ولم تَسلُك مَسالكها   إن السفينةَ لا تجري على اليَبسِ

أنَّى لَكَ الصحوُ من سكرٍ وأنت متى   تَصِحَ من سَكرةٍ تَغشَاكَ في نَكَسِ

---

[34] –سورة المائدة الآية88

ما بالُ دينكَ تَرضى أن تُدنَسهُ   وَثوبُكَ الدهَر مَغسولٌ مِنَ الدنسِ

يقدم إرشاد نفسي بصورة في منتهى العبارة اللطيفة والكلمة المؤثرة، فلقد أبكت هذه الأبيات الرشيد وكـــاد ينتحـــب مـــن هول العاقبة، وهكذا غدت فكرة الموت مصدراً من مصادر المعرفة والإرشاد والوعــظ لبــيان أرق المشــاعر وقلقــه مـــن زخرف حياته، وهو قلق انتهى به إلى الرضى الكامل والاستسلام التام، وإعداد العدة قبل مواجهة المصير المحتوم.ويعمد أبو العتاهية في زهده ووعظه الناس إلى أسلوب الترغيب والترهيب في شعره، وهو أسلوب متعارف عليه في الوعظ يصل إلى قلب العالم والجاهل والخاص والعام على وجه سواء مثال ذلك قوله:

الموتُ بابٌ وكلُّ الناسِ دَاخِلُه   فليتَ شِعرِيَ بَعدَ البابِ ما الدارُ

الدارُ جنةُ خُلدٍ إن عَمِلتَ بما   يُرضِـــي الإلَهَ وإن قَصـــرتَ فالنارُ

وفي مقام آخر يعمد أبو العتاهية إلى الترغيب في وعظه، ويذكر بيوم الحشر وشدة وطأته على الناس وما يتلوه من جنة تجري من تحتها الأنهار للصابرين المؤمنين، مقتبساً المعنى القرآني الكريم، بل واللفظ القرآني أيضاً في قوله:

اذكرْ مَعادَكَ أفضَـــلَ الذِّكـــرِ   لا تنسَ يومَ صبيحةِ الحشـــرِ

يومَ الكرامـــةِ لِـــلألَى صَبـــروا   والخَيـــرُ عِنـــدَ عَوَاقِبِ الصبر

في كُـــلِ ما تَلتَـــذُّ أنفسُهُـــم   أنهارُهُم مـــن تحتهـــم تجـــري

ويـــأخذ أبـــو العتاهية كثيراً من الآيات القرآنية ويضمنها شعره في حالتي الترغيب والترهيب، وهي طريقة لا تخلو من براعة وذكاء، إن أبا العتاهية يقتبس الآية الكريمة(...ألا إلى الله تصير الأمور)[35] ويجعلها الشطر الأول في الزهد والتقرب إلى الله فيقول:

ألا إلى اللهِ تَصيـــرُ الأمُـــورْ   ما أنتِ يا دُنيـــايَ إلا غُـــرُور

إن امـــرءًا يصفُو لَـــهُ عَيشهُ   لغافِلٌ عمـــا تُجِـــنُّ القُبُـــورْ

ويعـــرض أبـــو العتاهية مرضه الذي مات فيه، ويحس بدنو أجله، فيتوسل إلى ربه ويناجيه ويستغفره ويطلب عفوه، ويعترف بذنبه، مناجاة صادقة واعترافاً أميناً،تماماً كما فعل أبو نواس من قبل، وكأنك تحس في هذه المناجاة صدق التائب، وأمل الراجي، ووله المتمني ، وحسن ظن عبد آمن بالمغفرة، ممن يملك المغفرة، يقول أبو العتاهية في آخر أبيات قالها قبل موته:

إلهـــي لا تَعذبـــني فإنـــي   مُقِرٌ بالـــذي قـــد كان مِني

[35] - سورة الشورى الآية53

وما لي حيلةٌ إلا رجائي   وعفوُكَ إن عفوت وَحسُن ظني
فكم من زلةٍ لي في البرايا   وأنت عليَّ ذو فضلٍ ومن
إذا فَكرتُ في ندمي عليها   عضضتُ أناملي وقرَعتُ سني
يظنُّ الناسُ بي خيراً وإني   لَشَرُّ الناسِ إن لم تعفُ عني
أُجنُّ بزَهرةِ الدُّنيا جنُونا   وأُفني العُمر فيها بالتمني
ولو أَني صَدقتُ الزهدَ فيها   قَلَبت لأهلها ظهرَ المحن

كان أبو العتاهية واسع الحيلة حسن التصرف والحكمة في طرائق صوغ زهدياته، فلقد أكثر من ذكر الموت والوقوف على القبور، والانتفاع بالمعاني القرآنية مع أسلوب شعري سريع، غير معقد في اللفظ أو مغلق في المعنى، الأمر الذي جعل قصائده تذيع بين العامة قبل الخاصة، وتجد حسن استجابة وجميل صدى. ولعل ما تركه أبو العتاهية في عالم الشعر، أنه أدخل موضوع الزهد للشعر حتى غدا واحدا من موضوعات الشعر العربي في ذلك العصر، إذ تحول إلى موضوع فني له أصوله ومقوماته، وكذلك له وظيفته التعليمية الوعظية والنفسية.ويعد الإرشاد الديني من أساليب العلاج النفسي للأمراض النفسية الذي مارسه هذا الشاعر.ويعد بحق مؤسس الإرشاد النفسي الديني وفق أسلوب شعري جميل سهل الفهم، فقد وضع أمام النفس البشرية الأدلة والبراهين والحجج المنطقية والتي لا مناص في التهرب منها أو نكرانها، ومهما قيل عنه سلباً أو إيجابا فأبو العتاهية ذو سلوك أيجابي حرص على تذكير الناس بالتمسك بالقيم، وبين أن صلاح الإنسان ونجاته مرتبط بصدقه وفعله وعمله.

(وروي) أن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه لما رجع من صفين ودخل أوائل الكوفة رأى قبراً. فقال قبر من هذا ؟ فقالوا قبر خباب بن الأرث فوقف عليه وقال: رحم الله خباباً أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وعاش مجاهداً، وابتلي في جسمه آخراً، ألا وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.ثم مشى فإذا بقبور فجاء حتى وقف عليها وقال: السلام عليكم أهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة، أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع، وبكم عما قليل لا حقون.اللهم اغفر لنا ولهم وتجاوز عنا وعنهم، طوبى لمن ذكر المعاد وعمل ليوم الحساب، وقنع بالكفاف ورضي عن الله تعالى، ثم قال يا أهل القبور، أما الأزواج فقد نكحت، وأما الديار فقد سكنت، وأما الأموال فقد قسمت، وهذا ما عندنا فما عندكم، ثم التفت إلى أصحابه وقال:أما أنهم لو تكلموا لقالوا: وجدنا خير الزاد التقوى، والله سبحانه وتعالى أعلم.

قول مأثور:

(عجيب أمر هذا الإنسان الذي يغسل يديه ووجهه في اليوم عشرات المرات، ولم يغسل قلبه مرة واحدة في العام).

المعري

حكمة:

(كــل مـــا فـــاتك من الدنيا فهو غنيمة، لعل لها عذراً وأنت تلوم، ومن عتب على الدهر طال عتبه، وأعلم إن نفسك كالسائل الذي يلون الإناء بلونه، فإن كانت نفسك راضـــية ســـعيدة رأيـــت السعادة والخير والجمال، وإن كانت ضيقة متشائمة رأيت الشقاء والشر والقبح).

مركـــب صـــغير في خضم تتقاذفه الأمواج والرياح، وتترامى به الرياح إلى موانئ بعيدة في نظرته إلى الحـــياة، ذلك هو المعري أبو العلاء احمد بن عبد الله بن سليمان، ظلمات من حدب وصوب، وعقل مفكـــر يحاول أن يرى من ورائها ما لا يرى، فيرتد خائباً ناقماً على الدهر ووجوده ناعياً على الحياة مسراها، مهيباً بالناس إلى الفناء فما الوجود إلا شقاء في شقاء.أصيب بجدري وهو في الرابعة من عمره وفقده بصره، على أن ما فقده من باصرته استعاض عنه بحدة بصيرته، فقد أجمع المؤرخون على شدة ذكائـــه وقوة حافظته.ولد في بلدة المعرة سنة **974**م وتوفي سنة**1058**م في بيت علم وأدب وأصالة إنسانية، وتزود بزاد الاطلاع الواسع لأب عالم وفقيه تولى القضاء، ونشأ في وسط علمي ديني، فأخذ العلم والأدب أولاً عن أبيه ثم عن جماعة من علماء المعرة، وزار بعض المدن الشامية، فأخذ العلم من علمائها، وقد سمى نفسه رهين المحبسين، للزومه منزله وذهاب بصره، وزاد عليهما سجناً ثالثاً، فإذا هو سجين لثلاثة سجون كما عبر عن ذلك:

أراني في الثلاثة من سجوني　　فلا تسأل عن الخبر النبيث[36]

لفقدي ناظري ولزوم بيتي　　وكونِ النفس في الجسم الخبيث

وخير بيت من الشعر يصف حالة المعري قول المتنبي :

أظمتني الدنيا فلما جئتها　　مستسقياً مطرت عليَّ مصائبا

وبـــرز واضحاً أن عمى أبي العلاء كان رافداً غزيراً من روافد تشاؤمه، قائلاً: العمى نفسه المتوقدة، وسار على نظام قاس يريد به النجاة من فساد البشرية وعناء الآمال واللذات إلى أن تساوى عنده كل شـــيء عـــلى عتبة العدم.وتشاء سنة الخالق أن يموت والد المعري بحمص سنة**377** هجرية وقد رثاه قائلاً:

نقمت الرضى حتى على ضاحك المزن　　فلا جادني إلا عبوسٌ من الدَّجن

أبي حكمت فيه الليالي ولم تزل　　رماح المنايا قادراتٍ على الطّعن

[36] -النبيث : الشرير .

فقدان الأب مأساة بالغة المرارة والقسوة للأولاد في مسار حياقم، لأنه عون الأيام وغيل الزمان، أنه السند للأبناء في أحلك الظروف، فالحرمان الأبوي يخلف أثاراً موجعة بالنفس لا تندمل ما بقيت النفوس على قيد الحياة، وهنا يبين المعري أثر فقدان أحد الوالدين المروع والمؤلم على مسار حياة الأبناء، فهاهي الآلام تثقل مشاعر أبي العلاء بالغربه من جديد بفقدان أمه، وتضرم نيرالها في فؤاده فإذ بالنحيب يقوى عنده، ويشتد بفقد سلوته المتبقية والتي كان يدخرها عزاء يضمد به جراح الأيام فهالته الفاجعة حتى بات لا يفصل بين الحمد لله والصلاة على نبيه وبين مدامعه ووجده وأحزانه لفراقه، لقد سحقت مشاعر الحزن المعري بقسوة فأيقن ملازمته الآلام وكمن طيف أمه في يقظته ومنامه وكأنه طفل رضيع دون الفطام فيذكر في رثائه لأمه:

سمعت نعيها حمّا حمام وإن قال العواذل لا همام

وأمتني إلى الأجداث أمّ يعزُّ عليّ إن سارت أمامي

فليت أذين يوم الحشر نادى فأجهشت الرمام إلى الرمام

وهكذا كان لوفاة والدته بمعرة النعمان بعد موت أبيه بسنوات خمس وإبان عودة الشاعر من رحلة بغداد سنه 400 هجرية الأثر الجسيم. وحين بلغ الخامسة والثلاثين من عمره، رحل لبغداد لكنه لم يقم بها طويلا، ففي رسالته إلى القاسم التي كتبها على أثر رجوعه من بغداد يقول: (" وكنت ظننت أن الأيام تسمح لي بالإقامة فإذا الضارية احجأ بعُراقها والعبد أشح بكراعه والغراب أضن بتمرته " ثم انصرفت وماء وجهي في سقاء غير سرب ").ولعل ما في طبع المعري من الأنفة منعه من أن يحصل رزقه في بغداد على طريقة المداحين المستجّدين. ففي دار العلم ألف وعاشر وصادق المعري الكثير وألفوه ولم يترك بيتاً من بيوت العلم والأدب ببغداد، إلا وجله ولا بيئة فلسفية إلا اشترك فيها، ولا مجلساً أدبياً إلا حضره، فلقد سبقته شهرته إلى بغداد حيث صادف وصوله وفاة الشريف الطاهر أبي أحمد الحسن بن موسى، والد الشريفين الرضي والمرتضى، فدخل أبو العلاء للعزاء وأنشد قصيدة رثى بها الفقيد قائلا:

أودى فليت الحادثات كفاف مال المسيف وعنبر المستاف[37]

الطاهر الآباء والأبناء وال أثواب والآراب ولألاف

من شاعر للبين قال قصيدة يرثي الشريف على روي القاف

إن زارهُ الموتى كساهم في البِلى أكفانَ أبلجَ مُكرمِ الأضياف

---

[37] -المسيف: من ذهب ماله ، المستاف : الشامّ

أبقيت فينا كوكبين سناهما في الصبحِ والظلماءِ ليس بخافِ
ساوى الرضيُّ المرتضى وتقاسما خطط العُلى بتناصفٍ وتصاف
أنتم ذوُو النسبِ القيصر فطولكم بادٍ على الكبراءِ والأشراف

فعرف والدا المتوفي من فورهما أنه أبو العلاء المعري ورفعا مترلته وأكرماه، ولكن هذه الرفعة جاءت آنـــية ومتأخرة، وتظهر أنفته الشديدة بشكل واضح أيضا في ما جرى له في مجلس الشريف الرضي، وكـــان هـــذا يبغض المتنبي ويكرهه ويتعصب ضده، وجعل يتبع عيوبه، وبنفس الوقت كان المعري يتعصب للمتنبي ويحبه ويفضله على بشار ومن بعده مثل أبي نواس وأبي تمام، ويؤكد أنه أشعر المحدثين، فجرى يوماً بحضرته ذكر المتنبي والإساءة له ولشعره، فتنقصه المرتضى، فقال المعري للشريف المرتضى صاحب الجلسة: لو لم يكن للمتنبي من الشعر إلا قوله:

لك يا منازل في القلوب منازل أقفرت أنت وهن منك أواهلُ

لكفـــاه فضلاً على الشعراء، فغضب الشريف المرتضى وقال أخرجوا هذا الأعمى من مجلسي، وأمر بطرده وأخرج من مجلسه، فاستغرب الحضور هذا التصرف. فقيل: للشريف المرتضى: إن المعري لم يســـيء الأدب حتى تخرجه من مجلسك هذا، فعندئذ قال الشريف المرتضى لمن كان حاضراً: ويحكم أتدرون أي شيء أراد هذا الأعمى بذكره هذه القصيدة، فإن للمتنبي فيها من القول ما هو أجود منها لم يذكـــرها ؟ فقـــال:النقيب السيد أعرف بذلك. قال : إنه الرد علي وتذكيري ببيت شعر ورد في قصيدة المتنبي هذه والتي يقول فيها :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

رجل عزيز النفس، إن من مثله يأنف من السؤال ومن التزلف إلى كبار القوم في عصر، كان التزلف هـــو جادة الأديب إلى الرزق، لا يستغرب أن تضيقِ به الحال في عاصمة الخلافة، حتى تحمله إلى أن يقوده شوقه لبلده وأحبائه، فتجري في عروقه أطياف الذكرى ولواعج الحنين ويهزه الشوق، فيتغزل ولكن ليس كالشعراء فيقول:

مغاني اللوى من شخصكِ اليومَ أطلالُ وفي النومِ مغنىً من خيالكِ محلالُ[38]
معانيكِ شتى والعبارةُ واحدٌ فطرفُك مُغتالٌ وزندُك مُغتالُ[39]
وأبغضتُ فيك النخلَ والنخلُ يانعٌ وأعجبني من حبكِ الطلحُ والضالُ[40]

---

[38] -المغاني : المنازل .اللوى :منقطع الرمل . محلال : يحل فيه كثيراً .

[39] – المغتال الأول : المهلك . المغتال الثاني : جبل ريان.

[40] – الطلح والضال :من شجر البادية .

كأنّ الخزامى جمعت لك حلةً عليك بها في اللون والطيب سِربالُ
تحيةَ ودٌ ما الفراتُ وماؤه بأعذبَ منها وهو أزرقُ سلسال
فأذهلُ أني بالعراق على شفا رزيء الأماني لا أنيسٌ ولا مال
طويتُ الصبا طي السجّلِ وزراني زمانٌ له بالشيبِ حكم وإسجال
وماء بلادي كان أنجع مشرباً ولو أن ماء الكرخ صهباء جريال
فيا وطني إن فاتني بك سابقٌ من الدهر فلينعم لساكنك البال
فإن استطع في الحشر آتك زائراً وهيهات لي يومَ القيامة أشغال
وكم ماجدٍ في سيف دجلة لم أشم له بارقاً والمرء كالمزنِ هطال
سيطلبني رزقي الذي لو طلبته لما زاد والدنيا حظوظ وإقبال

وبرغم ما في شعره الذي ودع فيه بغداد من مدح لأهل تلك المدينة، فإن في قصائدة الأخرى ما ينم على ما كان يشعر به من ضيق ومن تحنان إلى وطنه، وفي قصيدة بعث بها إلى القاضي التنوخي يذكر أن الذي أهاب به للرجوع هو رجائه بلقاء والدته ونفاد ماله:

أثارني عنكمُ أمرانِ والدةٌ لم ألقها وثراء عاد مسفوفا

أما والدته فماتت قبل وصوله إلى المعرة، فجزع لذلك ورثاها رثاء ابن موجوع. وحين رجع إلى المعرة لزم بيته وعاش فيه على مذهب الفلاسفة المتقشفين، على أن زهد المعري لا يعني انقطاعاً عن العمل، بل ترفع عن حطام الدنيا وغرورها، فكان كثير العمل حريصا على التعليم والتأليف، وفي هذا الوقت نظم لزومياته وصنف اكثر كتبه ورسائله، وكان في بيته محجة الطلاب يقصدونه من كل الأفاق ففي قوله:

يزورني القومُ هذا أرضُهُ يمنٌ من البلاد وهذا دارُه الطبسُ[41]
قالوا :سمعنا حديثاً عنك قلتُ لهم لا يبُعدُ الله إلا معشراً لبسوا

ورغم تقشفه ولزومه بيته، فلقد كان له من الوجاهة أسمى مقام، ومما يدل على وجاهته ما نقل، من أن أهـــل المعـــرة لما اشتد عليهم صالح بن مر داس، لم يجدوا بداً من إيفاد المعري مستشفعاً فيهم، فقصد الأمـــير ولمـــا دخلَ عليه قال الأمير: أنت أبو العلاء ؟ فقال أنا ذاك فرفعه إلى جانبه، وبعد أن خاطبه المعري بأمرهم قال له: أني قد وهبتها لك أيها الشيخ.اختلف الناس في المعري فمن ناعت إياه بالتقى وحســـن العقـــيدة، ومن ناسب إليه الضلال والإلحاد، وسبب ذلك ما يجدونه في لزومياته من النقد

[41] -الطبس :كورة بخراسان

الموجه إلى الزعماء والرؤساء وما يهاجم به أحيانا بعض المذاهب والعقائد الدينية، ولا يزال الناس إلى اليوم مختلفين في هذا الأمر، على أنه لا بد قبل الحكم على المعري من أن إلقاء نظرة على عصره، وعلى ما كان له من الأثر في نفسه، فلقد عاش في إبان الحركة الفكرية عند العرب في عصر نقل العلوم اليونانية، حيث نبغ بين المسلمين كثير من العلماء والمفكرين والنقاد، فكانت بغداد وكثير من المدن مراكز علمية احتكت فيها" الروحية" السامية التي حملت إلى الناس الإيمان بالتوحيد والمعاد والآداب الدينية "بالعقلية" اليونانية التي حملت إليهم البحث المنطقي والنظريات العلمية، وكان من جراء ذلك الاحتكاك اشتداد الفرق الكلامية وتعدد المنازع الفكرية بين مناصر للنصوص الدينية أو مضاد لها.ومن الأنصاف القول أن هذا النزاع بين العقل والنقل أحدث في العقول ميلاً إلى النظر النقدي في الكون والحياة والدين والمعاد، فتسرب الشك إلى عقول بعض المفكرين، واستولى عليهم روح الإنكار فرفضوا ما لم تقبله عقولهم من تعاليم وسنن، ونادوا بالرجوع إلى المبادئ الأولية في الحياة الروحية والاجتماعية، ومن هؤلاء المعري الذي نشأ في جو فكري مضطرب، تواقاً إلى المعرفة وبلوغ الحقائق، وقد اصطدمت في نفسه تقاليد الدين بأحكام العقل فاضطرب، وصار يتلمس طريقه توصلاً إلى ما يشفي وجده، فلم يوفق تمام التوفيق حيث قضى حياته حائراً، تتقاذفه لجج الشك والتشاؤم، ومن هنا جاء الاختلاف في الحكم عليه. وللمعري مقام فريد بين شعراء العربية لا من حيث أسلوبه وفنه، ولكن من حيث روحه ونظره إلى الدنيا فيقول:

يرتجي الناس إن يقوم إمامٌ ناطقٌ في الكتيبة الخرساء
كذب الظنُ لا إمامَ سوى العقلِ مشيراً في صبحهِ والمساء
قد حُجب النور والضياءُ وإنما ديننا رياءُ
يا عالم السوء ما علمنا إن مصليك أتقياء

يحذر الناس من رجال الدين الذين يتظاهرون بالتقوى والعفة والطهارة، هؤلاء الذين يخدعون الناس بإقامتهم لمشاعر الدين صبح مساء، واعظين الناس من الوقوع في المعاصي، بينما أعمالهم كلها رياء برياء ومجرد كونها تظاهراً بالتقوى، وما هم في حقيقة الأمر سوى ثعالب ودجالين يقولون بغير ما يفعلون، ويبن أن عالم السوء لا صلاح عنده ولا خير بزهده وتقواه فيقول:

أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما دياناتكم مكر من القدماء
رويدك قد غررت وأنت حرّ بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحاً ويشربها على عمد مساء
يقول لكم غدوت بلا كساء وفي لذّاتها رهن الكساء

ويمضي أبو العلاء في هجائه لرجال الدين ويصفهم بالغواة وأصحاب الضلالة للأحرار ا فيتخذون من تعاليمهم بوقاً لنفث سموهم وأحقادهم وعظاهم بدعوة الناس بتجنب المعاصي، فيحرمون الخمر صباحاً على الناس ويجعلونها حراماً لغيرهم، لكنها حلالاً طيباً لهم في المساء، وينذرون الناس بسوء العاقبة بعد الممات كي يسمحوا لأنفسهم التمتع بطيبات المعاصي:

إذا فعل الفتى ما عنه ينهي فمن جهتينِ لا من جهة أساءَ
وزهدني في الخلق معرفتي بهم وعلمي بأن العالمين هباء
أولو الفضل في أوطانهم غرباء تشذّ وتنأى عنهم القُرباء
وحسب الفتى من ذلة العيش أنه يروح بأدنى القوت وهو حباء
وقد بلونا العيش أطواره فما وجدنا فيه غير الشقاء

يحـدد قيمة الفرد بأخلاقه الرفيعة لا بتمسكه الكاذب بالسلوك القويم،ويشير أبو العلاء إلى أن ما في الدنـيا إلى زوال فـلماذا يلهـث الناس وراءها وكل شيء فيها إلى هباء وضياع،ويبين أن أصحاب الفضـائل والعـلم والمعرفة غرباء في أوطانهم تتناولهم الألسن الحاقدة بالإهانة والذل والتعرض لهم بالشتائم، ويتجنبهم الأهل والأقارب،ويبين أن حياة الكفاف هي أفضل عيشة مسرة للنفس بدلا من مـتاع الدنـيا الزائل ،فكل ما فيها من غرور سوف يدب به الفناء،فالحياة كلها شقاء بشقاء. فوجئ بواقع سياسي أليم ولا بد لأبي العلاء من أن يتأثر بالأحداث الجسام التي عصفت بالشام والعراق، فإذا الخـزايا والمهانات تثقل كبرياء كل مسلم وكل عربي، فبعدما كان الخليفة رمزاً للدين والتقوى، بات رمزاً باهتاً ومرتعاً للفتن والأهوال والويلات، وأبو العلاء خير من صور تلك الأحداث الجسام وذلك الواقع الألين فيقول:

يسوسون الأمور بغير عقل فينفذ أمرهم ويقال ساسه
فأفٍّ من الحياة وأفٍّ مني ومن زمنٍ رئاسته خساسه

يـتألم عـلى واقع الأمة المرير بقادها الجهلاء والغرباء، وكيف آلت أمور البلاد والعباد لذئاب غريبة تـنهش جسـد الأمة، في هذا الجو القاتم والموبوء فقدت العوامل المؤثرة، والصلات بين أفراد الأمة، ابتداءً من رأس الهرم حتى القاعدة الشعبية المسحوقة، ففي السياسة يعم الفساد ويطغى على النفوس، وفي الديـن يـتربع الضعف والتشرذم، وفي الاقتصاد يسود الاختلال والنهب والسلب والانحراف والفساد، لذا من البديهي أن تظهر الصورة كئيبة عند أبي العلاء فيقول:

مُل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم إجراؤها

إن اضطرابه اضطراب مؤمن يحاول أن يجمع بين العقل والنقل، فيقع في شيء من الارتباك والحيرة فيما وصلت إليه الأمور، ومن الخطأ الحكم عليه من شعره بالجحود، فإن الشواهد فيه على إيمانه بالله كبيرة، ويوضح بشكل واقعي أن أشكال الخلود كثيرة، بل هي أكثر من عبرة، ويتضح ذلك من الأمثلة التالية:

والله حق وابن آدم جاهل   من شأنه التفريط والتكذيب

يبين أنه لا إله إلا الله الواحد القهار ولا معبود سواه، لكن الإنسان بسبب جهله يطغى، فتعمى بصيرته، فيعمد إلى الجحود والنكران والتكذيب لحقائق يقرها العقل والمنطق، وهنا يبين أبو العلاء المعري الجانب المظلم من نفسية الإنسان، عندما يتعصب بأفكاره ويطلق العنان لخياله في ارتياد المعاصي، فيغلق أبواب الرحمة على نفسه، التي وهبها الله له، ويمضي في غيه وجبروته متناسيا كرم الله له:

الله لا ريب فيه وهو محتجب   بادٍ وكلّ إلى طبع له جذبا

يبين بالأدلة العقلية أن الذات الإلهية محجوبة عن الإدراك الحسي المباشر، لأن الحكمة الإلهية اقتضت أن تكون قدرات الإنسان محدودة وهذه حكمة اختص بها الخالق عن عبيده، وبمقدور الإنسان من خلال التأمل العقلي والتبصر الوصول إلى الأدلة والبراهين التي توصله إلى الله عز وجل:

فلكٌ يدور بحكمة   وله بلا ريب مدير

ويلفت نظر هؤلاء الجهلة إلى التدبر والتفكر والحكمة بهذا الكون العظيم، وآلية سيره وحركاته وسكونه، ويعطي دليلاً على أن الصانع والمدبر لهذا الكون هو الله وحده لا شريك له:

أما الحياة فلا أرجو نوافلها   لكنني لألهي خائف راجي

ربِّ السماك ورب الشمس طالعة   وكل أزهرَ في الظلماء خرّاج

ويزهد أبو العلاء من الدنيا وبغرورها المتواصل للإنسان، ويبين مفاتنها وشباكها وحبائلها المنصوبة لغواية الإنسان، لكنه يتوسل إلى الله بالدعاء كي يقبله ويخلصه من هذه المفاتن الزائلة، ويحلم بعفو الله القريب الذي يخلصه من براثن الدنيا ومعاصيها، وأمله بالله كبير، حتى لو ضاقت عليه الدنيا، فهو يرنو برحمة الله القادمة لا محالة، أنها الفرج الذي يتأمله من الخالق عز وجل، وفي الحشر يقول:

إذا كنت من فرط السفاه معطلاً   فيا جاحدُ اشهد أنني غير جاحد

أخافُ من الله العقوبة آجلاً   وأزعم أن الأمر في يد واحد

أنه يعلن ولاءه المطلق لخالق الكون سبحانه وتعالى، ويبين أيمانه المطلق بالله، ويخشى عقاب الله لوقوعه في المعاصي لكنه يقر ويعترف برحمة الله الواسعة التي ستحل به عاجلاً أم آجلاً، ويقول:

إن أدخل النار فلي خالق يحمل عني مثقلات العذاب
يقدر أن يسكنني روضة فيها نرامى بالمياه العذاب
يبين ثقته بعفو الله عنه وبواسع رحمته لعباده، ويبين هول النار وقسوة العقاب لمن يعص الله، وقال:
قال المنجم والطبيب كلاهما لا تحش الأجساد قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالخسار عليكما
ويـرد علـى هؤلاء الناكرين عقاب الله ووعيده لهم بسوء العاقبة وكذلك للعصاة والمجرمين، الذين ينكرون بعث الأجساد بعد موتها، فيسخر منهم ومن أقوالهم، وله مثل ذلك قصيدة مطلعها:
عجبي للطبيب يلحد في الخالق مـن بعـد درسه التشريحا
ويعيـب أبو العلاء على الطيب والجراح الذي خبر صنعة الخالق للإنسان من خلال مهنته ومعايشته اليومـية لجسد الإنسان، والذي تتجلى فيه أعظم العبر والعظات والإيمان بالله عز وجل، ينكر عليه جحوده بعد علمه وخبرته. لكن المعري بدا مضطرباً متحيراً فتراه أحياناً مؤمناً صريح الإيمان وقد تراه مفعماً بالشكوك والأوهام، فهو بين مد وجزر لا يستقر على حال، ومن أمثلة شكه هذه الآراء القليلة وهي غيض من فيض:
أما الجسوم فللتراب مآلها وعييت بالأرواح أنى تسلك ؟
يتأمل أبو العلاء هذه الأجساد بعد موتها، و بعد تحولها للتراب، متسائلاً عن الأرواح، ويجد نفسه متعباً بهذا التفكير الذي يرى فيه لا جدوى منه سوى الحيرة:
دفناهم في الأرض دفن تيقنٍ ولا علم بالأرواح غير ظنون
ورَومُ الفتى ما قد طوى الله علمه يعدّ جنوناً أو شبيه جنون
ويمضـي أبو العلاء في حيرة من أمره إزاء الموت والروح، بعد أن تيقن من دفن الأموات، حيث راح يفكر بالروح ومصيرها بعد فراقها الجسد، وقد تأخذه الظنون والأوهام لسبل عديدة، ويرى أن محاولة معرفة الإنسان لمصير الروح بعد الموت أشبه بضرب من الجنون، لأن هذا الأمر يؤدي بالفرد لمحطات بعيدة قد تقذف به لمسالك الهلاك والفساد، والأجدر به القناعة والتسليم بما أقره الله عز وجل وبهذا يرشد الناس إلى عدم الخوض في بعض المسائل الغيبية:
قد قيل أن الروح تأسف بعدما تنأى عن الجسد الذي غنيت به
إن كان يصحبها الحجا فلعلها تدري وتأبهُ للزمان وغيبه
أو لا فكم هذيان قومٍ غابرٍ في الكتب ضاع مداده في كتبه
ويـتأمل حوار الروح وعذابها من أعمال الجسد، وحسرتها من ذاك الشقاء المؤدي بها لظلمات مرعبة

وذلـــك بســـبب الفترة الزمنية التي كانت على ارتباط بها بالجسد، ويبين أمنيتها بأن تعود من جديد للجســـد كي تدفعه لطيب الأعمال، وينبه الناس إلى عظات الزمان المتكررة من أجل السلوك القويم، موضـــحاً كم من قوم تركوا الحياة وبقيت أعمال الخير التي نفذوها تترك بصماها في غرة التاريخ ما بقيت الحياة:

أما اليقين فلا يقين وإنما   أقصى اجتهادي أن أظن وأحدسا

ويقـــف من مسألة الاعتقاد واليقين في بعض المسائل موقف تعتمد على الحدس القلبي ويترك الأوهام التي أحياناً تعرقل الاجتهاد والتفكير الصحيح فهو يحذر العقول من الظنون ويطلب السعي الجاد نحو الحقائق الثابتة كي تطمئن النفوس والقلوب وهنا يرشد العقول إلى الإيمان القائم على العقل والفكر السليم:

أما القيامة فالتنازع شائعٌ   فيها وما لخبيئها أصحار

يـــبين اخـــتلاف الناس في عصره ومدى التنازع حول ساعة الحشر، فيرد أنها من المسائل التي اختص الخـــالق بهـــا بنفسه وسوف ينال الإنسان عاقبة فعله لأن كل شيء بمقدار ومقدر لكن عقول الناس تبحث في أمور لأجل الغواية وتهمل ما عليها من واجبات، ومما يكاد يكون إنكاراً قوله:

قلتم لنا خالقٌ حكيم   قلنا صدقتم كذ نقول

زعمتموه بـــلا مكـــان   و لا زمان ألا فقولوا

هذا كلام فيه خبئ   معناه ليست لنا عقول

دين وكفر وأنباء تقال   وفرقان ينص وتوراة وانجيل

في كل جيل أباطيل يدان بها   فهل تفرد يوما بالهدى جيل

ويمضـــي في رده عـــلى هؤلاء الزاعمين والباحثين عن الخالق وعن ذاته ومكانه...الخ، بأنهم يفندون ويؤلفون كلاماً لا تقبله العقول، ويتجادلون في الكتّب السماوية وما ورد فيها من أقوال، ويحزن أبو العلاء من تطرف هؤلاء الناس في المبالغة بهذه الأباطيل التي تظهر مع كل جيل، ويأسف انتشار الغواية بين هذه الأجيال ويحلم بجيل يحفظ القيم والأخلاق، ويبين أهمية التفكير والتدبر كقوله:

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة   وحُقّ لسكان البسيطة أن يبكوا

يُحطمنا صرف الزمان كأننا   زجاج ولكن لا يعاد له سبكُ

يدعوا الأجيال كي تتعلم من تقلبات الأيام وما تفعله بالبشر من مخازٍ ومصائب، موضحاً أن الإنسان أمام عواصف الدهر أضعف من الزجاج حيث يتكسر بسهولة إزاء أي موقف، وينبه أن الحياة قصيرة ومـــا هدم منها لا يعود أبداً، ويبن قدرة الله في الكون واتساعه ودقة نظامه لبني البشر منبهاً أن يوم

المعاد قادم وما الأيام إلا طريق النهاية إليه بتعاقبها، كقوله:

خذ المرآة واستنجد نجوماً   تمرّ بمطعم الأريّ المشّورِ

تدل على الحياة بلا ارتياب   ولكن لا تدلّ على النشورِ

إن المدقق في هذه الحيرة وهذا التناقض ومراجعه كل ما قاله المعري بهذا الصدد ترجح لديه القناعة أن المعــري لم ينقطع عن الإيمان بالله والآخرة، ولكن صورة الله في نفسه لم تكن صورته في نفس المؤمن العادي، وإنما كان نظره إلى ما وراء الطبيعة نظرياً (" لا أدرياً ")، متأثراً بالإسلام. إذا قوبل الإسلام بسائر الأديان فهو عند المعري مفضل على الجميع، وعلى ما يبدو أن المعري في بعض مواقفه يتعرض لــلجدل، فــيهاجم الــيهود والنصارى والفرق الإسلامية المختلفة(كالمعتزلة والمرجئة وبعض الشيعة والصــوفية)، وله فيها أشعار كثيرة، ومع كل ذلك فله في الدين رأي ونظر عام يشمل كل الأديان على السواء، فهو يتناول الدين من جهتين الأولى:العقائد والفروض، أو هيكل الدين والثانية:الفضائل والأعمــال أو روح الدين. أما الأولى فيحمل عليها حملة شعواء فيحذر الناس من السنن والمذاهب، ويــزعم أن الديــن من هذه الوجهة أداة يستعملها الرؤساء لجذب الدنيا إليهم، بينما هذه المذاهب أسباب لجذب الدنيا إلى الرؤساء وأقواله في ذلك لا تحصى، وأما الوجهة الثانية فهي الدين الحق عنده، وعــلى قدر استهزائه بخرافات الأقدمين وأوهامهم المذهبية يظهر تعظيمه للروح الدينية التي يراد بها التتره عن الجشع والظلم والشهوات، وبذلك يشارك المصلحين الروحيين في كل مكان وزمان ومن أقواله في هذا المجال:

الدين هجر الفتى اللذات عن يُسر   في صحةٍ واقتدارٍ منه ما عمرا

ويتابع مبيناً معنى الدين :

الدينُ إنصافك الأقوام كلهم   وأي دين لآبي الحق إن وجبا

ونجده يسخر من المتاجرين بالدين قائلا :

توهمت يا مغرور إنك ديِّن   عليّ يمينَ الله ما لك دين

تسير إلى البيت الحرام تنسكاً   ويشكوك جار بائس وخدين

ويقول موضحاً معنى الخير :

ما الخير صوم يذوب الصائمون له   و لا صلاةٌ و لا صوفٌ على الجسد

وإنما هو ترك الشر مطرحاً   ونفضك الصدر من غلّ ومن حسد

وقوله:

سبّح وصلِّ وطف بمكة زائراً   سبعين لا سبعاً فلست بناسك

جهلَ الديانة من إذا عرضت له   أطماعه لم يُلفَ بالتماسك

ويبين إن الإنسان نادر الوجود في سائر مخلوقاته بالعقل وما يفعله من آثام:

حوتنا شرور لا صلاح لمثلها   فإن شذّ منا صالح فهو نادر

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا   ولكن بأمرٍ سببته المقادر

وفي الأصل غشّ والفروع توابع   وكيف وقاء النجل والأب غادر !

فقل للغراب الجون إن كان سامعاً   أأنت على تغيير لونك قادر ؟

و لا تقــل نظرة أبو العلاء المعري إلى الدين ورؤسائه، فهو يهاجم الأمراء والحكام وأصحاب الزعامة السياسية متهماً إياهم بالجهل والجشع والاستبداد فيقول:

فشأن ملوكهم عزفٌ ونزفٌ   وأصحاب الأمور جباةُ خرج

كما يعيب تنشئة الأولاد من خلال طرق التقليد فيقول :

وينشأُ ناشئ الفتيان منا   على ما كان عوده أبوه

وما دان الفتى بحجىً ولكن   يعلمه التدينَ أقربوه

ويبين خطورة التقليد الأعمى :

عاشوا كما عاش آباء لهم سلفوا   وأورثوا الدين تقليدا كما وجدوا

فما يراعون ما قالوا وما سمعوا   ولا يبالون من غيّ لمن سجدوا

ويتابع الكلام عن ظلم الحكام :

مُلّ المقام فكم أعاشر أمة   أمرت بغير صلاحها امراؤها

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها   فعدوا مصالحها وهم إجراؤها

ويتابع قوله في ولاة الأمر من الحكام:

ساس الأنامَ شياطين مسلَطة   في كل عصر من الوالين شيطان

متى يقوم إمام يستقيد لنا   فتعرف العدل أجبالٌ وغيطان

ومع إشفاقه على الشعب لا يرى فيه غير الفساد العام كقوله :

قد فاضت الدنيا بأدناسها   على براياها وأجناسها

وكلّ حيّ فوقها ظالم   وما بها أظلم من ناسها

ويبين سمات الناس في التملق:

نُسِخَ المعاشرُ فالغضنفر ثعلب   في لؤمه والناس كالنسناس

عربٌ وعجم دائلون وكلنا   في الظلم أهل تشابه وجناس[42]

ويصف طبائع الناس وأحوالهم متشائما من ذلك :

..سجايا كلها غدر وخبث   توارثها أناس عن أناسِ

ولا يرحم أبو العلاء نفسه فيلتفت قائلاً:

..أنافق في الحياة كفعل غيري   وكلّ الناس شأنهم النفاق

ويبين شراء القيم بالفلوس وضياعها:

.. وبيعت بالفلوس لكل خزي   وجوه كالدنانير الحسان

ويصف سجايا النفس الإنسانية وعدم التمييز بين الذكر والأنثى في بعض المواقف:

كلنّا غادرٌ يميل إلى الظلم   وصفو الأيام للتعكير

ورجال الأنام مثل الغواني   غيرَ فرق التأنيث والتذكير

لقد أيقن المعري عجز الإنسان عن السير في مثل هذا العالم، فنادى بالعدم لاستئصال الشر من أرض البلاء فيقول:

وإن الغنى والفقرَ في مذهب النهى   لسيان بل أعفى من الثروة العُدم

وكيف ترجى السعود في زمنٍ   يساره راجع إلى العدم

ويتابع رؤيته المتشائمة فيقول :

خير لأدم والخلقِ الذي خرجوا   من ظهره أن يكونا قبلُ ما خُلقوا

وعلى هذا الأساس من الإيمان قرر عدم ارتكاب آدم جريمة في النسل، ومن الأفضل ترك بنيه في مطلق العدم ونعيمه، ويحزن لجناية والده عليه فيقول:

هذا جناه أبي علـــيّ   وما جنيت على أحد

وجـــاء كـــره المعري للبشر واعتقاده بفساد طبيعتهم عاملاً أساسياً في زهده، وتركه ملذات الحياة الجســـدية والنفسية، ولم يأكل شيئاً من الحيوان ولا شيئاً من إنتاج هذا الحيوان، بعد أن تزهد حيث يقول:

من مذهبي إلا أشدّ بفضة   قدمي ولا أُصغي لشرب مُعوج

لكن أقضي مدتي بتقنع   يغني وأفرح باليسير الأروج

هذا ولست أود أني قائم   بالملك في ثوبي أغرّ متوج

---

[42] -دائلون : منقلبون من حالة إلى حالة . نسخ : انتقال الروح من جسد إلى جسد .

ويقول مبينا منهجه في طهارة النفس بالابتعاد عن الناس وشرورهم من خلال عشرتهم أيضاً:

طهارة مثلي في التباعد عنكم　　وقربكم يجني همومي وأدناسي
عداوةُ الحمقِ أعفى من صداقتهم　　فابعد عن الناس تأمن شرَّة الناس

ويردد مبيناً تذمره من الدنيا قائلا :

سباك الله يا دنيا عروساً　　فكم أوقدت لي شمعاً بشمع
ولم أستغلِ منك فداء نفسي　　بشيء فاعجبي لرقوء دمعي
بفقد غرائزي : شمي وذوقي　　ولمسي تابعاً بصري وسمعي

ويوصي المعري البشر بسلوك صارم في طعامهم قائلا :

فلا تأكلن ما أخرج الماءُ ظالماً　　ولا تبغِ قوتاً من غريض الذّبائح
ولا تفجعن الطير وهي غوافل　　بما وضعت فالظلم شرُ القبائح
ودع ضرب النحل الذي بكرت له　　كواسب من أزهار نبتٍ فوائح

فالمعـــري خير من يصور الواقع الاجتماعي المؤلم حتى يجنح إلى التعميم في تحليله المأساوي، فكل كائن حـــي بخـــيل، والغضـــنفر ثعلـــب والناس كالنسناس لصوص، وهم في الظلم أهل تشابه بين الجشع والشهوات والأطماع فيقول:

قد عمّنا الغشّ وأزرى بنا　　في زمن أعوز فيه الخصوص
وكلّ من فوق الثرى خائن　　حتى عدول المصر مثل اللصوص

ويحدد نمط العيش في هذا الزمان الذي لا يرى فيه راحة ويدعو إلى :

عش بخيلاً كأهل عصرك وتَباله　　فإن دهرك أبله
قومُ سوء فالشبل منهم يغول　　الليثَ فرساً والليث يأكل شبله

وقد يصبر المرء على البؤس والحرمان، ولكنه يخشى ظلمة الوحدة والانفراد وأبو العلاء رقيق المشاعر، تســـتهويه اللـــذة ولكن خشية الإثم ورهبة الأذى دفعتا به إلى العزلة والتقشف والخلاص من فساد المجتمع فيقول:

ولي مذهبٌ في هجريَ الأنس نافعٌ　　إذا القومُ خاضوا في اختيار المذاهب

ويتابع أن عيش الإنسان منفرداً أفضل له من القيل والقال فيقول :

في الوحدة الراحةُ العظمى فآخ بها　　قلباً وفي الكون بين الناس أثقال
إن الطبائع لما ألفت جلبت　　شراً تولد فيه القيل والقال

نفـــض أبـــو العلاء يديه من الدنيا وساكنها، وخفض قدر محاسنها، وانقطع في بيت كان له بالمعرة لا

يخرج منه إلا إلى المسجد، ولا ينهج طريقاً إلا إلى تهجده، وأخذ نفسه بالقناعة حتى صارت جنة تقيه المطـــامع وتقويه على مغالبة الأمل الطامع، كان قانعاً باليسير، وكان له وقف يحصل منه في العام نحو ثلاثـــين ديناراً قرر منها لمن يخدمه النصف، وكان غذاؤه العدس وحلاوة التين ولباسه القطن وفراشه لباداً، ولقد اختار أبو العلاء العزلة ليطهر نفسه من مجالسة المنافقين فاسمعه يقول:

تخيّر فأما وحدة مثل ميتة   وأما جليس في الحياة منافق

يحدد مسار حياته بعد تجربته المريرة مع الناس وينصح بالوحدة، لأنه يراها من أسلم الأمور للفرد رغم أنها قاسية، ويبين أنها أفضل من مجالسة منافق يدعي الحب والاحترام ويضمر الكره والحقد:

طهارة مثلي في التباعد عنكم   وقربكم يجني همومي وأدناسي

ويمضـــي متشائماً من الجلوس مع الناس خشية الأذى والضرر منهم، فيعد القرب منهم أشبه بنجاسة تـــنقض الطهارة، ورأى أن من الأفضل له تجنب معاشرة الناس، وذلك حرصاً على السلامة والراحة النفسية التي يطمح إليها أبو العلاء المعري في تزهده من الناس:

أغنى الأنام تقيّ في ذرى جبلٍ   يرضى القليل ويأبى الوشي والتاجا

أمـــثلة كثيرة تعكس بيئته أو نظرته إلى أهل زمانه عموماً لا فرق في ذلك بين حاكم ومحكوم أو غني وفقير حيث يقول :

هم السباع إذا عنت فرائسها   وإن دعوت لخير حُولت حُمُرا

يهاجم رجال عصره فينعتهم بالجشع والغدر واللؤم، وكذلك يهاجم النساء فينعتهن بالضعف والرياء والخـــيانة والمكر، ولا يرى لهن إلا الاحتجاب التام والتزام المنزل والانصراف إلى شؤونه، ويمضي في سوء ظنه بهن إذ يقول:

فوارسُ فتنةٍ أعـــلامُ غيٍّ   لقينـــك بالأساور مُعلمات

ودفنٌ والحوادث فاجعات   لأحداهنّ إحدى المكرمات

يصـــعب معرفة الأسباب التي دفعت المعري إلى ذم المرأة وتحقير شأنها والإزدراء منها، ووصمها بكل الشوائن ولا شك في أنه جارى عصره، بل تمادى في هذه الآراء إلى الحد الأقصى وبرغم هذا التطرف فأنه عطف على الوالدات وأوصى بهن خيراً. وفيما يخص نظرته إلى الطبيعة البشرية فهي فاسدة لا أمل بإصـــلاحها، ورأى أن الإنســـان مســـير بدافعـــية داخلـــية(هي الغريزة الوحشية والتي لا يمكن تهذيبها)فيقول:

واللب حاول أن يهذب أهله   فإذا البرية ما لها تهذيب

يشير إلى أهمية الوراثة في سلوك الإنسان وتصرفاته وأفعاله، وهذا يبين نظرته الثاقبة لطبيعة الإنسان، إذ

حدد أهمية العوامل الوراثية والعوامل البيئية في السلوك الإنساني حيث يقول:

لم يَقدر الله تهذيبا لعالمنا فلا ترومنّ للأقوام تهذيبا

و لا تصدق بما البرهان يبطله فتستفيد من التصديق تكذيبا

ومن جهة أخرى يبين طبيعة الناس :

وجبلة الناس الفساد فضلّ من يسمو بحكمته إلى تهذيبها

ويبين حكمة الله في خلقه فمنهم الطيب ومنهم الخبيث، وأوضح أبو العلاء أنه توجد هناك قوة خارجية تسيّر الإنسان، هي قضاء الله وقدره الذي يدفع الإنسان أمامه، فلا إرادة له ولا اختيار، ويصعب الجمع بين " حكمة الله " في شعر المعري وبين جبروت القضاء، إنها مسألة فلسفية دقيقة لم يوضحها المعري، أو يهتم بتطبيقها تطبيقا صحيحاً، وإنما كان همه من ذلك أن يصف ما يشعر به، أو يستوهمه، ولهذا أكثر من ذكره لقضايا العقل والنقل، فأحيانا تجد المعري يهيب بالناس لرفض الشرائع ناسباً إليها كل أسباب الفتن والاضطراب كقوله:

إن الشرائع ألقت بيننا إحناً وأودعتنا أفانين العدوات

ومن جهة أخرى لا يرى من هاد غير العقل لبني البشر وهو بهذا القول يبين مدى التناقض لديه:

كذب الظّن لا إمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء

ويبين في قول آخر وجهة نظره من رجال الدين حيث يهاجمهم قائلاً:

تستروا بأمورٍ في دياناتهم وإنما دينهم دين الزناديق

نكذب العقل في تصديق كاذبهم والعقل أولى بإكرام وتصديق

ويعود إلى اعتماد منهج العقل والتأمل العقلي في الحجج والبراهين :

إذا رجع الحصيف إلى حجاه تهاون بالشرائع وازدراها

ولكن أي عقل نتبع وأي نقل نرفض ؟ هنا لا بد من الحذر فالمعري يندفع بتأثير التأمل الفلسفي إلى تقديس العقل من دون النظر إلى عاقبة ذلك التقديس، وعلى ما يبدو أن المعري لم يكن فوضويا ولم يقصد الهدم المطلق، بل قصد الإصلاح الاجتماعي ومن الفساد الذي حوله .وليس من أثر واضح للفوضى في شعره إلا حمله على النسل، ودعوته الناس إلى الفناء وأقواله في ذلك معروفة منها:

لو أن كل نفوس الناس رائية كرأي نفسي تناءت عن خزاياها

وعطّلوا هذه الدنيا فما ولدوا و لا اقتنوا واستراحوا من رزاياها

وما يؤخذ عليه بعض شذوذه الفكري الذي حمله أحياناً إلى أقصى التطرف، وجعله هداماً لا يحسن البناء على أن المعري برغم ذلك الشذوذ، هو تلك الشخصية التي تجمع بين الإخلاص والشدة في

خدمة الحقيقة، كما تتراءى له والشدة في مهاجمة أهل الفساد، فجاء شعره قاتم اللون كأنما هو مصباح تنفذ أشعته إلينا من وراء زجاجة سوداء. ويندفع المعري في طريق الأحزان عندما يرثي صديقه أبا الخطاب الجبلي وكان أديبا وفقيها وقد مات شاباً فيقول:

غير مجدٍ في ملّتي واعتقادي نوحُ باكٍ ولا ترنمُ شادِ
أبكت تلكم الحمامة أم غنت على فرع غصنها المياد
صاح هذي قبورنا تملأ الرحب فأين القبور من عهد عاد
خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد
وقبيحٌ بنا وإن قدُم العهد هوانُ الآباء والأجداد
سر إن استطعت في الهواء رويدا لا اختيالاً على رفات العباد
ربّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً ضاحكٍ من تزاحم الأضداد

يسخر المعري من بني البشر بقدرته الفنية الفائقة، ويرثي الإنسان مؤكداً تناقض حياته وعبثيتها، فاللحد يضحك ساخراً من رفات الصالحين والطالحين ومن الملوك والصعاليك بداخله، من دون أي تمييز بين مقامات الدنيا الغرورة، وينبه الإنسان إلى ضرورة التمهل والتروي، ليرى العبر الماثلة أمامه والتي تذكره بأنه لاحق بها عاجلاً أم آجلاً، وما تطأه الأقدام إن هو في الحقيقة إلا من رفات الآباء والأجداد، فالناس ملزمون أن يمشوا بتمهل حتى لا يطأوا بأقدامهم رماد أجساد الآباء والأجداد.

ودفينٍ على بقايا دفين في طويل الأزمان والآباد
فاسأل الفرقدين عمن أحسا من قبيل وآنسا من بلاد
كم أقاما على زوال نهار وأنارا لمدُلج في سواد
تعبٌ كلها الحياة فما أعجبُ إلا من راغب في ازدياد
إن حزناً في ساعة الموت أضعافُ سرور في ساعة الميلاد

ويُشهد المعري الفرقدين على ما استقر عليه البشر من تعاسة، فطالما شهد الكوكبان اندثار عظماء وشعوب وأوطان وما زال الإنسان يرفد الحياة بالبقاء والاستمرار برغم الأحزان والكوارث والآلام. والعجب العجب من الإنسان يجري وراء أطماعه متناسياً أن ساعة الولادة المفرحة لا تعدل ساعة الأحزان .

إنما يُنقلون من دار أعمالٍ إلى دارِ شقوةٍ أو رشاد
ضجعة الموت رقدةٌ يستريح الجسم فيها والعيش مثل السهاد
انفق العمر ناسكاً يطلب العلم بكشفٍ عن أصله وانتقاد

وَدّعا أيها الحفيان ذاك الشخصَ   إن الوداع أيسر زاد

واغسلاه بالدمع إن كان طهُراً   وادفناه بين الحشا والفؤاد

كيف أصبحت في محلّك بعدي   يا جديراً مني بحسن افتقاد

قد أقر الطبيب عنك بعجز   وتقضّى تردّد العوّاد

وانتهى اليأس منك واستشعر   الوجدُ بأن لا معادَ حتى المعاد

هجدَ الساهرون حولك للتمريض   ويحٌ لأعين الهجّاد

كنت خلّ الصبا فلما أراد   البينَ وافقتَ رأيه في المرادِ

ورأيت الوفاءَ للصاحب الأول   من شيمة الكريم الجواد

وخلعت الشباب غضاً فيا   ليتك أبليته مع الأنداد

واللبيب اللبيب من ليس   يغترّ بكونٍ مصيره للفساد

ويقول المعري بقصيدته الحكمية في رثاء جعفر بن علي بن المهذب :

يا دهرُ يا منجزَ إبعاده   ومخلفَ المأمول من وعده

أيُّ جديد لك لم تبله   وأيّ أقرانك لم تُرده[43]

أرى ذوي الفضل وأضداد هم   يجمعهم سيلك في مدّه

إن لم يكن رشُد الفتى نافعاً   فغيّه أنفــع مــن رشده

لو عرف الإنسان مقداره   لم يفخر المولى على عبده

أمسِ الذي مرّ على قربه   يعجز أهل الأرض عن رده

تدعو بطول العمر أفواهنا   لمن تناهى القلب في وده

سلمَّ إلى الله فكل الذي   ساءكَ أو سرك من عنده

ورُبّ ظمآنٌ إلى موردٍ   والموت لو يُعلم في ورده

وقال المعري من قصيدة يفتخر ويذم الزمان :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل   عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ

تعُدّ ذنوبي عند قوم كثيرةً   ولا ذنب لي إلا العلا والفواضل

كأني إذا طلتُ الزمان وأهله   رجعتُ وعندي للأنام طوائل[44]

وقد سار ذكري في البلاد فمن لهم   بإخفاء شمس ضؤوها متكامل

---

[43] -ترده : تهلكه .

[44] -طوائل :ثأر ، كأني إذا تفوقت على الزمان عادوني فأصبحت وفي نفوسهم عليّ ثارات .

فجـــرت تجربة أبو العلاء المعري أرض الألم المعتمة، ورأت الموت يطارد الإنسان بل الحياة نفسها (إنها غيبة الموت) إنها حقائق واقعة لا محال فماذا يفيد نسيانها أو تجاهلها؟ لذا جاءت تجربته تجربه إنسانية تمس الوجود البشري حيث يقول:

فبعداً لهذا الجسم يا روح مسلكا وبعداً لهذي الروح يا جسمُ سالكا

تواصلتما فاستحدث الوصل منكما عجائب كانت للرجال مهالكا

تجـــربة تكشـــف عن موقفه من الحياة وعن رؤيته للوجود حيث تناولت قضايا مصيرية شاملة تتصل بمصير الإنسان وقضاياه فهي تعبير عن موقفه الإنساني فيقول :

نغرّ من شرب كأس وهي تتبعنا كأننا لمناياها أحباء

ويحذر من الافتتان بالدنيا فما فيها ينذر بسوء العاقبة ففي توالي الأيام يحدث البلاء:

فلا تطلب الدنيا وإن كنتِ ناشئاً فإنني عنها بالإخلاء أربأ

وما نوب الأيام إلا كتائب تبتّ سرايا أو جيوش تُعبّأ

ويـــبين موضحاً أين المفر من الموت؟ وليس لنا ملجأ منه؟ ونحن مع ذلك نمضي في الفرار وهو يلح في اقـــتفاء لآثارنا، ويتابع المعري طلبه في عدم المزيد من الحياة الدنيا، لأنها دار شقاء وبلاء ومصائب لا تـــنفك أن تطـــارد بني البشر بسمومها وويلاتها، فأبو العلاء يمثل حياة الغربة وجميع أوتار حياته ألم، وطوفان الحزن غرز براثنه في روحه، وجرّعه مرارة فقد البصر، فبات صدره لليأس صحراء وللعذاب والمعاناة والظنون مترلاً، فها هو يرى الشر ينهش الخير، كما ينهش البشر لحوم بعضهم والموت ينهش الجميع إنه العدم:

والأرض ليس بمرُجوٍ طهارتُها إلا إذا زالَ عن آفاقها الأنس

وهكذا عصفت بالمعري عواصف الشك والقلق والضياع واليأس، فلم يجد مبرراً لبقائه في عالم عديم القـــيم أشبه بعالم الأحلام والأوهام منه بعالم الحقيقة. العالم مليء بالأباطيل والحياة لا معنى لها، فرفض أبو العلاء الوجود فكراً وفعلاً وعملاً، رفضه لما فيه من قسوة وألم فيقول:

أشـــد خطـــب يتُـــقى فـــراق روحٍ لجسد

خرجت إلى ذي الدار كرهاً ورحلتي إلى غيرها بالرغم والله شاهد

جاء تصور المعري وفزعه من الموت الهائل بالرغم من أن العدم عنده هو الحل الجذري :

يهال التراب على من ثوى فـــآهٍ مـــن النـــبأ الهـــائل

وإذا كان الموت هو الأفضل، فها هو أبو العلاء المعري يمعن في ذكر بشاعته فيقول:

إذا الحي ألبس أكفانه فقد في اللبس واللابس

ويبلى المحيا فلا ضاحك إذا سُرّ دهرٌ ولا عابس
ويحبس في جدث ضيق وليس بمطلقه الحابس

ويقول في سكرات الموت وشدها وغرغرة الروح أيضاً:

وللموت كأس تكره النفس شربها ولا بد يوماً أن نكون لها شربا

ويجسد المعري الرهبة من الموت في صورة حزينة مؤلمة:

قبيح أن يحس نحيب باك إذا حان الردى فقضيت نحبي
ولم أرد المنية باختياري ولكن أوشك الفتيان سحبي

يرتعد أبو العلاء من سؤال الرمس(مسألة منكر ونكير) وعذاب القبر، ويتمنى لو أنه لا يقبر حين يأتيه الموت، وإنما يترك نهباً لكواسر الوحش والطير.. فيقول :

إن صحّ تعذيب رمس من يحل به فجنباني ملحوداً ومضروحا
الوحش والطير أولى أن تنازعني فغادراني بظهر الأرض مطروحا

ويبين أنه لا مفر من الموت محذراً" أبن آدم " كم تحترس وتحترس، والموت أسد يفترس:

أيحترس المرء مــن حتــفه وما حاد عن يومه المحترس
هل الناس إلا نظير السوام وآجــالهم أســـد تفترس
يحل الربى ويحل الوهود ولا بدّ للربيح أن يندرس

ويـــتمنى المعري حياة بلا موت، أو موتاً بلا نشور، وذلك لما في دعوة الحشر من رهبة وخوف يعتري نفسه فيقول:

وأعجب ما تخشاه دعوة هاتفٍ أتيتم فهبوا يا نيام إلى الحشر
فيا ليتنا عشنا حياةً بلا ردى يدَ الدهر أو متنا مماتا بلا نشر

ويدعـــو المعري لتعطيل التناسل، لأنه شقاء للبشرية ولا يمكن لهذا الشقاء أن يزول بالإصلاح، وإنما يزول إذا محي النسل البشري من الوجود:

هل يغسل الناس عن وجه الثرى مطر فما بقوا لم يبارح وجهه دنس
والأرض ليس بمرجو طهارتها إلا إذا زال عن آفاقها الأنس
تناسلوا فنمى شرّ بنسلهم وكَمْ فجور إذا شبا لهم عَتَسوا

ويتمنى أبو المعري الهلاك لبني البشر:

فــلاَ هَطلــت عــليَّ ولا بأرضي سحائــبُ ليس تنتظُم البـــلادا

ويقول أن الزواج ذنوب وإذا كان لابد من الزواج فعليك بالمرأة العاقر وهنا يتطرف بقوله هذا:

أرى النسل ذنبا للفتى لا يقاله   فلا تنكِحن الدهر غير عقيم

فـالوجود البشري عند المعري يأتي من طبيعة فاسدة نخرة وساقطة، لذا ينصح بالكف عن الزواج وبالعفة، وحذر من عواقب التناسل ومن شره فيقول :

ومن رزق البنين فغير ناءٍ   بذلك عن نوائب مسقمات

فمن ثكل يهاب ومن عقوق   وأرزاء يجئن مصممات

وإن تعط الإناث فأي بؤس   تبين في وجوه مقسّمات

إنــه متشــائم جداً لكثرة ما رأى من شرور وما خبر من فساد أخلاقهم، وما أمده به عماه من عقد نفســية، تحولت إلى رغبة في الإصلاح، فهو يريد للمجتمع صلاحاً، لكنه يقسو عليه في إحكامه حتى يــبلغ الــتطرف أحيانا، وقد يساور القارىء نوع من التساؤل، عما إذا كان المعري يبغي بناء أم إنه يتوخى الهدم؟ فيقول:

جُرْ يــا غُرابُ وأَفسِدْ لن تَرى أحداً   إلا مُسيئــاً وأيُّ الخَلــقِ لــم يَجُرِ

فخُذْ من الزرعِ ما يكفيكَ عن عَرَضٍ   وحَاولِ الرزقَ في العــالي مــن الشجرِ

ومــا ألومُــكَ بل أُوليــكَ معــذرةً   إذ اخطَفــتَ ذُبــالَ القــومِ في الحجر

فــآلُ حواءَ راعوا الأُسدَ مُخــدرةً   ولم يُغــادُوا بِسلمِ رَبــةَ الوَجــرِ

ومن أتاهُــم بظُلمٍ فهو عِنــدهُمُ   كجَالِــبِ التمرِ مُغــتراً إلى هَجرِ

همُ المعاشِرُ ضــاموا كل من صحبوا   من جِنسهِم وأباحــوا كــلّ مُحتجرِ

لو كُنت حافــظَ أثمــارٍ لهــم ينعت   ثم اقتربتَ لمــا أخلــوكَ مــن حَجرِ

هذا النوع من التشاؤم أفقد المعري اعتداله، وجعله يعمم أحكامه على الناس جميعا، ولا يرى في حياة المجــتمع غــير أوجه الفساد والظلام، ولا ينتبه، فجاء شعره قاتم اللون وكأنه آت من وراء زجاجة ســوداء.ويرى المعري أن حواء وبناها هن أصل البلاء في الأرض، وأصل هذا النسل الذي يعيش في دار الشقاء والعذاب فيقول:

فليت حواء عقيم غدت   لا تلد الناس ولا تحبل

يرى في العالم شراً خالصاً وليس لهذا الشر من دواء إلا أن يتحطم، فتتحقق الراحة الكبرى فتحطيمه يتم من خلال تعطيل الزواج والتناسل، ومن أجل ذلك كان يهاجم المرأة هجوماً عنيفاً على أنها النبع الــذي يمد البشرية بالاستمرار والتدفق، وفي الوقت نفسه يستثني أمه من النساء، ونعاها من دفقات روحه وجروحه:

فإن ينقطع عنك الرجاء فإنه   سيبقى عليك الحزن ما بقي الدهر

أما مهاجمته للنساء الباقيات فالسبب : إنهن غير منصفات وخيرهن اللواتي لا يلدن :

خير النساء اللواتي لا يلدن لكم فأن ولدن فخير النسل ما نفعا

ومن صفات النساء قدماً أن لسن في الود منصفات

وحق لأبي العلاء الذي رفض الحياة رفضاً قاطعاً، أن يحق له أن يرفض متاع الأولاد والزواج، وليس هذا ضرباً من التشاؤم بل هو ضرب من ضروب الحياة التي آمن، بأن لا جدوى في صلاحها ولا أمل، فعز عليه أن يجني على أحد وكيف يأتي بالجناية وأولاده إذا جاءوا كأهل عصره ؟ فيقول :

لو أن بنيّ أفضل أهل عصري لما آثرت أن أحظى بنسل

حق لأبي العلاء المعري أن يفخر بنفسه حيث يقول:

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ

أعندي وقد مارستُ كلَّ خفيةٍ يصدّقُ واش أو يخيب سائل

تعدُّ ذنوبي عند قوم كثيرة ولا ذنب لي إلا العلى والفواضل

كأني إذا طلتُ الزمانَ وأهلهُ رجعتُ وعندي للأنام طوائل

وقد سار ذكرى في البلاد فمن لهم بإخفاءِ شمسٍ ضوؤها متكامل

وإني وإن كنتُ الأخيرَ زمانه لآت بما لم تستطعُه الأوائل

وأغدو ولو أن الصباحِ صوارمُ وأسري ولو أن الظلامِ جحافل

وإني جوادٌ لم يحلّ لجامُة ونضوٌ يمانٍ أغفلتهُ الصياقل

ولما رأيتُ الجهل في الناس فاشياً تجاهلت حتى ظنّ أني جاهل

فواعجبا! كم يدّعي الفضل ناقصٌ وواأسفا! كم يظهر النقص فاصل

وكيف تنامُ الطيرُ في وكناتها وقد نصبت للفرقدين الحبائل

ينافسُ يومي في أمسي تشرفاً وتحسدُ أسحاري عليّ الأصائل

وطاولت الأرضُ السماء سفاهةً وفاخرت الشهب الحصى والجنادل

فيا موت زُرا إن الحياة ذميمةٌ ويا نفس جدّي! إن دهرك هازل

ويؤنسني في قلب كل مخوفةٍ حليف سرىً لم تصح منه الشمائل

من الزنج كهل شاب مفرق رأسه وأوثق حتى نهضة متثاقل

كأنّ الثريا والصباح يروعها أخو سقطةٍ أو ظالعٌ متحامل

إذا أنت أعطيت السعادة لم تبل وان نظرت شزراً إليك القبائل

وبرغم ذلك فالمعري كان يحب الناس ويعطف عليهم، ويتألم لشقائهم ويتمنى لهم الخير والصلاح،

وهكذا بدت شخصية أبو العلاء المعري مفرطة في التطرف بسبب تشاؤمه من أهل زمانه،وعلى الرغم مـــن سعة علمه وباعة الطويل في الحياة، إلا أن هذا لا يبرر له الابتعاد عن الناس والتشاؤم منهم إلى هذه الدرجة، إن التناقض الذي عاشه أبو العلاء المعري جعله غير سوي السلوك، لأنه حرم على نفسه العيش السعيد وأقفل على ذاته أبواب التواصل والحياة و ليس من حقه فعل ذلك من عدة جوانب، فله الحق أن يعيش وسط الناس لا أن يتوارى عن الناس وأن يشاركهم الحياة حلوها ومرها لا أن يبقى رهين المحبسين.وليس من شيءٍ أكرمَ على الله من الدعاء فلندعو الله:

(قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم).

وهكذا نرى إن أصحاب المبادىء ليس أمامهم هدف إلا رضا الله، وليس لديهم غاية إلا رفع راية الحق ولسان حال كل منهم يقول:

فليتك تحـــلو والحياة مريرة ‏ ‏ ‏ ‏ وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ‏ ‏ ‏ ‏ وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين ‏ ‏ ‏ ‏ وكل الذي فوق التراب تراب

أبو نواس

حكمة:

(الدنيا كالماء المالح كلما ازددت منه شرباً ازددت عطشاً، وعلى صاحب الكوخ أن يرضى بكوخه إذا علم أن القصور سوف تخرب، وعلى لابس الثياب الممزقة أن يقنع بثيابه إذا تيقن أن الحرير سوف يبلى).

تقتضي الحكمة على الأعرج ألا يكسر عكازه على رأس عدوه، وكم يكون الفرد أحمق عندما يطلب من الناس أن يطيروا بجناحيه ولكنه لا يستطيع أن يعطيهم ريشة ! هكذا جعل أبو نواس من الخمرة خليلا ونديماً ورفيقاً يشد إليه الرحال، ويكثر إليها سفره ليستظل من تأثيرها بسعادة غامرة طالما اشتد طموحه إلى تحقيقها، فكانت ممدوحه ومحط آماله ومصدر العطاء الذي يلجأ إليه كلما اشتدت به الحاجة، أو ازدادت عليه ضغوط الحياة، ومن هنا بدت رحلته إليها محفوفة بالأخطار، إذ كانت سفراً طويلاً شاقاً يقتحم من الليل ظلمته، ومعه أقرانه من عصابة السوء التي كانت هي الأخرى مصدر سعادته ونشوته.إنه الحسن بن هانئ بن الصباح مولى الجراح الحكمي وكنيته أبو علي، ولد سنة763 م وتوفي سنة814م، وشهرته أبو نواس أطلقها عليه وهو صبي رجل من جيرانه بالبصرة لخصلة من الشعر كانت تنداح مهتزة على مقدمة رأسه، وأما هانئ أبوه فقد كان من جند مروان بن محمد المقيمين بالأهواز، والرأي القائل إنه ولد في(خوزستان) من بلاد العجم ومات أبوه وتركه صغيراً في كفالة أمه، حيث سلمته إلى عطار يتعلم مهنة العطارة هو الأصح على حد زعم أغلب المصادر، نشأ أبو نواس في العصر الذهبي للخلافة العباسية عصر القوة والرخاء، ومن يطالع أخبار الأمراء والوزراء وكيف كانوا يتمتعون بأسباب الحضارة من عبيد وجوار وقصور، ويسترسلون في سبل اللهو من شرب وغناء ورقص، يعرف شيئاً عن الجو الذي وجد فيه أبو نواس والذي أثر في أخلاقه أيما تأثير.طبع أبو نواس على الظرف والمجون، وأوقعته الأقدار في صحبة ابن حباب، فأخذ عنه مذهبه في الشعر والحياة، وكان الشعر آنئذ في أيدي عصبة من أهل الإسراف والخلاعة، ومنهم مطيع بن إياس حماد عجرد- مسلم بن الوليد داود بن رزين- الحسين بن الضحاك-إسماعيل القراطيسي وغيرهم، في عصبة كهذه وقع أبو نواس.وأبو نواس كان فصيح اللسان جيد البيان عذب الألفاظ، حلو الشمائل كثير النوادر، وأعلم الناس كيف تكلمت العرب، راوية للأشعار، علّامة بالأخبار، كأن كلامه شعر موزون، وظهر واسع المعرفة متصلاً بحياة عصره السياسية والفكرية، ولكن انصرافه إلى الخمر واسترساله في الموبقات حالا دون أن يترك أثراً أدبياً في غير سخائف الحياة، وقد يعجب المرء بعد هذا الزعم أنه كان ملازماً الفضل بن الربيع والأمين بن الرشيد، وهما معقد العصبية العربية في ذلك الوقت.ولكن لا عجب فأبو نواس من أم فارسية، وقد ولد في بلاد فارس، ونشأ في ظروف لا

تعرف له عصبية واضحة في العرب، وتشير المصادر التاريخية أنه لم يكن ثابت الانتساب إلى أصل من الأصول، ولكنه تارة يدعي النسب اليماني كقوله في حديث له مع الخمار:

فلما أن رأى زقي أمامي تكلم غير مذعور اللسان

وقال أمن تميمٍ ؟ قلت كلا ولكني مـــن الحـــيِّ اليماني

وتارة يهجو اليمنية كقوله في هجاء هاشم بن حديج وهو كندي من صميم اليمن :

يا هاشم بن حديج لو عددت أباً مثل القلمس لم يعلق بك الدنس

والقلمس أحد رؤساء كنانة، وهي من غير اليمن كما هو معروف.ويذكر الرواة أن أبا نواس لم ينشأ في بيت يعرف للأخلاق قيمة.فقد مات أبوه صغيراً، ولم تكن أمه "جلبان" من النساء المعروفات بالخفر والحياء، ولم تكن تعير ابنها كبير عناية،فما كاد يحل بالبصرة حتى سارع الفتى الوسيم إلى التعرف على والـــبة بن الحباب الشاعر الفاحش ، وكان والبة بن الحباب على رقة شعره من أفحش الناس أخلاقاً وأشهرهم سقوطاً، وأشدهم إقداماً على معصية، وهكذا تتلمذ أبو نواس على يديه، وبعد ذلك راح أبو نواس في دعواه يتماجن ويعبث، ويخفي اسمه واسم أمه لئلا يهجى، وذلك مشهور عنه، والمذكور مـــن أمره أنه كان من مولى الحكميين، يفتخر باليمن ويمدحهم ، وهكذا يقال أن أبا نواس كان من أصل وضيع، ولقد كان أبو نواس على الرغم من حفيظته على العرب وهجائه إياهم، يحاول بين الحين والحين أن يلتمس نسباً عربياً، فقصد أبا المنذر هشام بن محمد الكلبي المؤرخ النسابة قائلا:

أبا مُنذرٍ ما بال أبواب مذحجٍ مُرَجَّمـــَةً دوني وأنتَ صديقـــي

فإن تَأتـــني يَأتِكَ ثَنائي ومدحتي وإن تأبَ لا يُسدد عليَّ طريقـــي

يحاول الانتساب إلى العرب كي ينال التقدير والاعتبار الاجتماعي، وهكذا كان شأن الموالي، والمتتبع لشـــعره، يلمس في شعره استهزاءه بالعرب في غزلياته حيناً، وفي خمرياته حيناً آخر يطفيء من خلالها غلته في كراهية العرب، ولولا العرب والعربية، ما ذاع له صيت ولا التمع له شأن، وهذا قوله مهاجماً كبريات قبائل العرب بعد فشله بالانتساب للعرب:

عاج الشقيّ على دارٍ يسائلها وعُجتُ اسأل عن خمارة البلد

لا يُرقيءُ الله عيني من بكى حَجراً ولا شفى وجَدَ من يصبُو إلى وَتدِ

قالوا ذكرتَ ديـــار الحيِّ من أسَدٍ لا درَّ درك قل لي من بنُو أسد

يســـخر مـــن الوقوف على الأطلال ويصف العرب بالأشقياء، كونهم يبكون دياراً دارسة، بينما هو يفخـــر بالبحـــث عن أماكن السكر والعربدة، ويمضي بصب حقده قائلا لا سلم الله عيناً تبكي على

حجر[45]، ولا من اشتاق إلى الخيام وأوتادها. ومن هم بنو أسد حتى يفخر بهم العرب ؟ومن هم العرب ؟، دعـك مـن البكاء على ليلى وهند ! وتناول كأساً من الخمر يسعدك أكثر من حجر ومن هند، تشعر بنشوهًا مع غانية كالورد!:

ومن تميمٌ ومن قيسٌ وإخوتُهمُ ؟ ليس الأعاريب عند الله من أحد
لا جف دمع الذي يبكي على حجرٍ ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد
لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند واشرب على الورد من حمراء كالورد
كأساً إذا انحدرت في حلق شاربها أجدته جمرها في العين والخد

سخرية أليمة تبرز فيها شعوبيته، فهو يكثر من هجائه العرب والأعرابيات، ولاسيما عندما يقارن حال العرب بحضارة الفرس الغابرة:

دع الرسم الذي دثرا يقاسي الريح والمطرا
وكن رجلاً أضاع العلم فـي اللذات والخطرا
ألم تر ما بنى كسرى وسابور لمـن غبرا
منـازة بيـن دجلة (م) والفرات أخصها الشجرا

أين أنت يا باكي الأطلال الدارسة ؟تنفق عمرك وعلمك ضياعاً ! فعليك بالملذات وتعلم من كسرى وسـابور ومن سبقهم، فقد عاشوا بسعادة، بينما أنت تبكي دياراً تجوبها الرياح والأمطار والتي محت الرسـوم والديار، وقد تهدمت رسومها وشواهدها! ودعك من هذه الديار الخالية من الثمر والشجر المـؤذي بأشـواكه، التي جعلها الرحمان غير مباركة، ودعك من بلاد أغلب خيراتها ومصايدها من اليرابـيع والجرذان إذا أردت صيداً ؟ أخبرني ماذا في هذه الصحراء غير هذا ؟ فأين السيادة والعيش الذي تزعمه عنهم وتفخر به؟ولقد خبرت العرب وعشت بين ظهرانيهم، فلم أجد فيهم سوى الجلف والغليظ الذي لا يراعي الآداب، وليس لديه صدر للترحاب والتعامل معك!!:

لأرض باعد الرحمن عنها الطلح والعشرا[46]
ولم يجعل مصايدها يرابيعاً ولا وحرا[47]
ولكن حور غزلان تراعي بالفلا بقرا
فذاك العيش لا سيد بقفرها ولا وبرا[48]

---

[45] -حجر أحد فرسان العرب المشهورين وسيد قبيلته.

[46] -من أشجار القفر

[47] -الوحر من العظاء (كالحراذين وسام ابرص والثعالي الصغيرة من الزواحف)

إذا ما كنت بالأشياء في الأعراب معتبرا
فإنك أيــما رجل وردت فلم تجد صدرا

إنــه يــذم أهل البادية رجالاً ونساءً، وشعره يعج بما يدل على شغفه واهتمامه بتاريخ الفرس وأناقة الحضر ونفوره من الحياة البدوية التي كان يتغنى بها الأقدمون ومن ذلك قوله:

دع المعلى يبكي على طلله وخلّ عوفاً يقول في جَمَله
وقل لكلثوم المفضّل بالشعر يطيل الإعراض عن حلله
وأغدُ على اللهو غير متئد عنه فهذا أوان مقتبله
أما ترى جِدة الزمان وما أبدع فيها الربيع من عمله
وافى وجوه الزمان غاديةً عند اقتراب الشتاء من أجله

تباً لك أيها الباكي على أطلال مهدمة؟ ودع عمرو بن كلثوم وغيره ما يقولون !، وانصرف إلى اللهو والشــرب، فــزمن الشباب وربيعه لحظات يعقبها شتاء الآجل، فحاول اقتناصها وربما قد لا تأتيك، وباكر شبابك بالمتع واللذة، وداوِ الهموم بكأسٍ شراب لذيذة تنسيك إياها طيبتها:

فاشرب على جدة الزمان فقد وافى بطيب الهوى ومعتدله
من قهوةٍ تُذكر السرورَ وتنسي الهمَ عند اعتراض مشتكله

ويمضي بوصف الباكي على الأطلال بالجنون كونه لا يفتح عينه لحقيقة الحياة، وانشغاله بنوح الحمائم وبكائهـــا على ديار قفرة لا أمل يرجى ولا خير في ذلك، وما يجده في هذه الديار سوى خيبة الرجا والفشل ومرابط الخيل التي دثرت وانفرط عقدها وضياع الوقت وانقضاء العمر بدون فائدة:

لقد جن من يبكي على رسم منزل ويندب أطلالاً عفون بجرولِ
فإن قيل ما يبكيكَ قال حمامة تنوح على فرخٍ بأصوات مُعول
تذكرني حيّا حلالاً بقفرةٍ وآخيةً شُجت بفهر وجندلِ[49]

ويتجلى ميله إلى الفرس في شعوبيته وإظهار عصبيته لهم، وانحرافه عن مذهب العرب قوله من قصيدة:

دعِ الأطلالَ تسفها الجنوبُ وتبكي عهدَ جدّتها الخطوبُ
وخلِ لراكبِ الوجناءِ أرضاً تُخبُّ بها النجيبةُ والنجيبُ
بأرضٍ نبتُها عشرٌ وطلحٌ وأكثرُ صيدها ضبعٌ وذيبُ
ولا تأخُذ عن الأعرابِ لهواً و لا عيشاً فعيُشهمُ جديبُ

---

[48] -السيد: الذئب . والوبر : حيوان أصغر من السنور.

[49] -آخية أي عود دقيق يوضع بين حجارة الحائط لتشد إليه الدابة والفهر الحجر وكذلك الجندل.

ذر الألبانَ يشربُها أُناسٌ رقيقُ العيشِ عندهُمُ غريبُ
إذا رابَ الحليبُ فَبُلْ عليهِ ولا تحرج فما في ذاكَ حُوبُ

يسخر من الباكين على ديار تصفر الريح وتعوي في عرصاتها، ويخاطبهم بترك هذا النحيب وهجره، وترك ارض أغلب صيدها من الضباع والذئاب ولا خير فيها سوى ذلك. و يدعو لراكب الفلاة بالموت والهلاك والضياع في جنباتها، ويكمل حقده على العرب بوصف عيشتهم بالجدب والقحط والقل، ويقول دعهم يشربون ألبان لا تصلح لإقراء ضيف، ويصر إذا راب الحليب فأرميه جانباً وخذ مكانه جرعة صافيه(كأس من الخمر) يقدمها لك خادم مؤدب حسن البهية والطلعة، اشرب معتقة كأنها من جمالها تلاوة قديس في صومعته، قد رقاها بأطيب النوايا الحسنة:

فأطيب منه صافية شمول يطوف بكأسها ساق أديب
أقامت حقبة في قَعرِ دَنٍّ تَفُورُ وما يُحَسُ لها لهيبُ
كأنَّ هَدِيرهَا في الدنِّ يحكي قَراةَ القَسِّ قَابَلَهُ الصليبُ
تمُدُّ بها إليكَ يدا غُلامٍ أغَنَّ كأنَهُ رشأٌ رَبيب

ويمضي أبو نواس في ذكر الخمر والغزل بالغلمان، ولكن مرارة شعوبيته لا تلبث أن ترفع هامتها، كما ترفع الأفعى رأسها، حيث يتبع حقده بقول أخر يحقر الأطلال:

أيا باكي الأطلال غيرها البلى بكيت بعين لا يجف لها غَرْبُ
أتنعتُ داراً قد عفت وتغيرت فأنى لما سلَلَت من نعتها حرب

ثم يصف خشونة عيشهم ويقارن ذلك بصفاء العيش في الحضارة والتمتع بالخمر إلى أن يقول:

فهذا العيش لا عيش البوادي وهذا العيش لا اللبن الحليب
فأين البدو من إيوان كسرى وأين من الميادين الزروب

ويحكم أيها العرب أين أنتم من إيوان كسرى ونعيمه؟ أين الساحات الفسيحة والحدائق الغناء من الأزقة الضيقة؟وأين حياتكم وحليكم ولبنكم وعيشكم الجديب من حياة الرغد!! ومتى كانت حياة البادية رغيدة؟! وينتقل أبو نواس زعيم الشعوبية في عصره إلى مرحلة أكثر جرأة من مراحل العدوان على العرب، حينما يترك التعليلات والأسباب التي كان من خلالها يصل إلى هدفه، وهي الخمر والغزل والوقوف على الأطلال، لكي ينشيء قصائد بأكملها يهجو فيها العرب هجاء وقحاً، فيقول في بعضها وقد صب كل حقده على بني تميم:

إذا ما تميميٌّ أتاكَ مُفاخراً فقل عَدِّ عن ذَا كيفَ أَكلُكَ للضبِّ
تفاخرُ أبناءَ الملوكِ سفَاهةً وبولُكَ يَجرِي فوق ساقِكَ والكعبِ

إذا ابتَدرَ الناسُ الفعالَ فخذ عصاً ودعدع بمعزى يا ابن طالقةِ الذرب[50]
فنحن ملكنا الأرضَ شرقاً ومغرباً وشيخُكَ ماءٌ في الترائبِ والصُّلبِ
فلمَّا أَبى إلا افتخـاراً بحاجبٍ هتمتُ ثَنَايَــاهُ بجنـدَلــةِ الشِّعب
تفاخرُنــا جهــلاً بظئرِ نبيِّنَــا ألا إنمــا وجــهُ التميميِّ من هَضب[51]

لا فخر لمن يجري ورائحته نتنة بسبب بوله على نفسه وعدم نظافته، بمفخرة ملوك الفرس العظام، وإذا أردت أن تفاخر أيها العربي ففاخر بعصاة تهش بها على معزك وغنمك، واعلم أن الفرس سادة الأرض قبل أن يخلق عربي، وتفخر بالنبي أنه من العرب، وجهلت أنه للعالم والإنسانية جمعاء، ألا تعساً وسحقاً لكم أيها العرب؛ ودعك من مكارم الرجال فلقد غدرتم بملوككم، وأشعلتم حرباً ضروساً بينكم أمداً طويلاً طحنت رحاها كباركم وصغاركم، ويكفيكم الفخر بالزجر والقيافة، وقطع الطرق واللصوصية والصعلكة، فكلوا يرابيع الأرض وجرذانها فهي طعامكم المفضل:

وأمــا بنُو دورانَ والحيُّ كاهلٌ فمن جِلدةٍ بين الحزيمــنِ والعَجب[52]
فَخرتُــم سفَــاهاً أن غَدَرتُــم بربِّكم فمهلاً بني الْلّكناءِ في كبَّة الحرب[53]
فأنتُــم غطاريسُ الخميسِ إذا غــزا غَذَاؤكُــمُ تلك الأخاطيطُ في التُّرب[54]

ولا يقف الأمر بأبي نواس وهو يمرح في النيل من أعراض العرب عند هذا الحد، بل إن الأمر قد ذهب بــه إلى شــأوٍ أبعد من ذلك بكثير، لقد كان لدى العرب نقائض هاجوا بها ونالوا من أقدار قبائلهم، فلماذا لا يطرق أبو نواس هذا الباب أيضاً، ولما نقائضه لا تكون بين قبيلة وقبيلة وإنما بين أمة وأمة، إنه ينشيء قصيدة على طراز النقائض من دون أن يناقضه عربي، يثلب فيها مجد أمة العرب، ويفاخر بقومه الفرس ويذكر انتصاراتهم على العرب مع نيل شديد من مروءات القبائل العربية وفخر شديد بأعجميته وفارسيته فيقول:

لست بــدارٍ عفت وغيرها ضَربــانِ من قَطرهَــا وحاصبِها[55]
ولا لأي الطُّلُــولِ أندبُهــا للريحِ والــرُّقش من قَرانبهــا[56]

---

[50] -دعدع:تعني زجر الغنم .طالقة الذرب:فساد المعدة وحالات الإسهال.

[51] -الظئر:المرضعة لولد غيرها. الهضب:الجبل من صخرة واحدة.

[52] -الكاهل:مقدم أعلى الظهر مما يلي العنق.الحزيم: ما استدار بالظهر والبطن. العجب: أصل الذنب،والمراد بهذا التشبيه تحقيرهم.

[53] -غدرتم بربكم:يريد به حجر والد أمرىء القيس وكان ملكاً على بني أسد.كبة الحرب: الحملة فيها.

[54] -الغطاريس:الظالمون والذين يتطالون على غيرهم: الخميس : الجيش. الأخاطيط: يريد بها أمر الزجر والعيافة والطيرة وما يتصل بذلك.

[55] -القطر:المطر . الحاصب:الريح التي تحمل الأتربة.

[56] -الرقش:جمع رقشاء وهي المنقطة من الجلد . القرانب: جمع قرنب وهو اليربوع أو الفأر الكبير.

ولا نُطيلُ البُكا إذا شَطتِ النِّيةُ واستعَبرت لذاهبها

بل نحنُ أربابُ ناعطٍ ولنا صنعاءُ والمسكُ من محاربها[57]

وكان منا الضحاكُ يعبُدُه الخائلُ والوَحشُ من مساربها[58]

ودانَ أذواؤنا البريةَ من معترها رغبةً وراهبها[59]

يفخر بالفرس بأنهم لا ينشغلون بالأطلال الرثة التي عفا الدهر عليها وغيرها، ويدعون بكاء ذلك للأعاريب، بل هم قوم سادة يأتيهم العطر والمسك من أقاصي بلاد العرب من صنعاء، وقد دانت لهم هامات بلاد العرب وملوكها حتى وحوشها، وتشهد وقائعهم بقتل الضحاك أحد أشرف العرب المرهوبين الجانب:

ونحنُ إذ فارسٌ تُدافعُ بَهرامَ قسطنا على مرازبها

بالخيلِ شُعثاً على لواحقَ كالسيدانِ تُعطى مدى مَذاهبَها

بالسُّودِ من حمير ومن سُلف أرغَنَ والشُّمِّ من مَناسبَها[60]

ويومَ ساتيدَ ما ضَربَنَا بني الأصفرِ والموتُ في كتَائبِها[61]

إذ لاذَ برواز يومَ ذاك بنا والحربُ تمري بكفٍّ حالبها[62]

ويبين أن ملوك الفرس أمثال(برواز وغيره من المرازبة) لقنوا الأعداء من عرب وروم دروساً عظات في الشجاعة والإقدام، وموقعة جبل(ساتيد) برهان ودليل واضح على انتصاف الفرس من العرب الأعداء، فأين العرب من ذلك:

يذودُ عنهُ بنو قَبيصةَ بالخطيّ والبِيض من قواضبِها

حتى دَفَعنا إليه مملكةً ينحسرُ الطرفُ عن مواكبها

وفَاظَ قابُوسُ في سَلاَسلنا سنينَ سبعاً وفت لحاسبها[63]

ونحنُ حزنا من غير ما كنبٍ بناتِ أشرافهم لغاصبها

من كلِّ مسبيةٍ إذا عَثرت قالت لعاً مُتعَةً لكاسبِها

---

[57] -ناعط:بيكث باليمين .المسك:نبات.

[58] -الضحاك:المقصود به الضحاك بن قيس وقد قتل في معركة مرج راهط وهو من أشراف الشام.الخائل:المتكبر.

[59] -دان :قهر .الأذوان :الأتباع الأخساءمن افراد القوم .المعتر:المعترض للمعروف من غير أن يسأل.

[60] -السود:السودد والسيادة .سلف:بطني من ذي الكلاع . الأرغن: المنغمس في النعمة.الشم:السيد ذو الأنفة.

[61] -ساتيد:جبل كانت عنده وقعة بين الفرس والروم.بنو الأصفر: الروم

[62] -برواز:ملك من ملوك الفرس. تمري: الناقة يدر لبنها.

[63] -فاظ: هلك .قابوس:والمقصود به أبو قابوس النعمان بن المنذر وقد حبسه كسرى ثم قتله.

تعساً لمن ضيعَ المحارمَ يوم الروعِ يجتاحُ من صَواحِبِها
وفر من خَشْيَةِ الطعان وأن يَلقَى المنايا بكفِّ حَالبِها

أين العرب، أين فرسان بنو قبيصة؟ الذين ذاقوا الذل والعار، بل أين قابوس ملك العرب الذي قيد بالسلاسل سنوات ذليلاً؟ وترك بناته سبايا للفرس؟ سحقاً لكم أيها العرب بماذا تفخرون ؟ أتفخرون بمن ضيعوا المحارم وهربوا بساحات الوغى خوف المنايا:

أحببْ قريشاً لحبِّ أحمَدها واعرف لها الجَزلَ من موَاهبها
إن قُريشاً إذا هي انتسبت كان لها الشطرُ من مَناسبها
فأمُّ مَهدي هاشمٍ أمُّ موسىَ الخير منا فافخَر وسَامِ بها[64]
إن فاخرَتنا فلا افتخَارَ لها إلا التجاراتُ من مكاسبها
واهجُ نِزاراً وافر جِلدتَها وهتِّكِ السَّتر عن مثالبها[65]
أما تميمٌ فغيرُ داحِضة ما شَلشَلَ العبد في شوارِبها

نحترم قريشاً لأنها بيت النبوة ونحب نبيها الكريم، ولكن أين أنتم من مكارم النبيﷺ وخلقه، حتى النبي ﷺ حاربتموه، ويكفينا شرفاً أننا دافعنا عن أهل النبوة، وأن أم المهدي من الفرس، ثم يذكر مثالب قبائل العرب وغيرها من نزار وتميم وقيس وعيلان وبنو أسد، وتغلب...بأقبح الهجاء:

أولُ مجدٍ لها وآخرُهُ إن ذُكرَ المجدُ قوسُ حاجبها[66]
وبئسَ فخر الكريم من قَصبِ الشوحطِ صفراءَ في معالبها[67]
وقيسُ عَيلانَ لا أُريدُ لها من المخَازي سوى مَحارِمها
وأن أكلَ الأ.... مُوبِقها ومُطلِقٌ من لِسانِ عائبها
ولم تَعَفْ كلبها بنُو أسدٍ عبيدَ عيرانةٍ وراكبها
وما لبَكرِ بنِ وائلٍ عصمٌ إلا بحمقائها وكاذبها
وتغلبٌ تندُبُ الطلولَ ولم تثأر قتيلاً على ذنائبها[68]
نِيلَت بأدنَى المُهورِ أختهمُ قسراً ولم يَدمَ أنفُ خاطبها

إن أحداً لا يكاد يصدق أن مثل هذا الشعر قيل في دولة خليفتها عربي هاشمي بحيث كانت الدولة لا

---

64 -أم مهدي هاشم: هي ابنة منصور الحميرية أم المهدي.

65 -مثالبها: عيوبها.

66 -قوس حاجبها: حاجب بن زرارة بن عدس التميمي وكان قد رهن قوسه عند كسرى ووفى بها فضرب بهما المثل في قصة مشهورة.

67 -الشوحط: شجر تتخذ منه القسي .المعالب: أحزمة مقبض السيف ونحوه.

68 -الذنائب: يوم من أيام تغلب على بكر والقتيل الذي يعنيه هو كليب.

تعـــرف بالسمة العباسية، وإنما كانت تسمى دولة بني هاشم. على أن هذه التسمية لم تكن أكثر من مجـــرد رمـــز أو بلغة العصر لم تكن أكثر من حبر على ورق.اهم أبو نواس في شعره بالشعوبية وهي حـــركة قـــام بها في صدر الدولة العباسية جماعة من المنتمين إلى أصل فارسي، وغايتهم تعظيم الفرس وحضـــارهم ومقاومـــة مـــا كان قد نشأ في نفوس العرب، ولاسيما أيام الأمويين من روح التفوق والاستئثار بالمجد، وقد قام من الفريقين جماعة يناضلون عن مذهبهم ويرمون خصومهم بأليم سهامهم. ومـــن الفريق العربي ابن قتيبة والجاحظ وابن دريد، ومن الفريق الشعوبي أبو عبيدة وسهل بن هرون والـــبيروني وحمزة الأصفهاني، وكان لهذه الحركة السياسية الاجتماعية تأثير ملموس في الأدب حيث امتد تأثيرها إلى أبي نواس.روي عن المبّرد:: (" ما رأيت رجلاً أعلم باللغة من أبي نواس وأفصح لهجة مع مجانبة الاستكراه").وقال عنه أيضاً: (" ما تعاطى الشعر أحد من المحدثين أحذق من أبي نواس ")، ولأبـــن الأعـــرابي وأبي عبيدة وابن خالويه شهادة كهذه الشهادة، إن أول شعر لأبي نواس قاله وهو صبي ينبيء بمولد شاعر رهيف الحس على صغر سنه، عندما أغرم بجارية في الكوفة وهو ما يزال غضاً فقال:

حـــاملُ الهـــوى تَعِـــبُ　　يَستَـــخفُّـــهُ الطـــربُ

إن بكـــى يحـــقُ لـــهُ　　ليس مـــا بـــه لَعِـــبُ

تضَحكيـــنَ لاهِيـــــةً　　والمحـــبّ ينتحـــبُ

تَعجبيـــنَ مِـــن سقَمـــي　　صِحـــتي هـــي العَجـــبُ

كلمـــا انقضـــى سببٌ　　مِنـــكِ عـــادَ لـــي سَـــببُ

وبـــرغم ما قيل في أبي نواس من الصعب من شهاداتٍ يصعب الاعتماد عليها كل الاعتماد، لأن فيها أحـــيانا بعض المبالغة ومن الأفضل العودة إلى ديوانه ودراسته دراسة علمية منهجية، والتحقيق مما فيه بكـــل شاردةٍ وواردةٍ بعيدا عن التعصب والكراهية وتوخي الدقة والأمانة. إن أبا نواس الذي أسرف على نفسه في السخرية بالعرب والتنكر للوقوف على الطلل وركوب الناقة والرحلة إلى الممدوح، لا يـــرى نفســـه مجيداً إلا إذا التزم هذا النهج التزاماً، ومن العجيب أنه يجود فيه كل الإجادة، وما من قصـــيدة من عيون مدائحه إلا وسار فيها على النهج التقليدي القديم، وقدم من خلالها ما يعجب وما يطـــرب، ومن البديهيات أن المرء لا يجيد شيئاً يكرهه، ومن ثم فإن انفلات أبي نواس من خط الشعر السوي لم يكن إلا استجابة لحياة المجون التي غمر نفسه فيها وغرق بها.أظهر أبو نواس في شعره موقفين

متناقضين: موقف المقلد وموقف المجدد، ففي بعض قصائده يسير على سنن القدماء حتى يبدو وكأن أحدهم يتكلف الأسلوب الأعرابي، فيقف في مدحه على الطلول ويركب النياق ويقطع الهواجل ويأتي بمتوعر الألفاظ مما يدل على سعة معرفته بأوابد اللغة، وأنه متأثر بذلك وفي قصيدة يمدح بها الرشيد، فلا يجد بدا من أن يكسو مديحه ثوب البلاغة والوقار، ومن ثم يقف على الديار ويحييها ثم يعمد إلى النسيب، ويجعل حبيبته التي ينسب ويتغزل بها طاهرة كأنها حصان صعب مراسه، ثم ينتقل إلى الحديث عن رحلته إلى ممدوحه على ناقة شدنية مطواعة سريعة، ولا يكتفي بذلك بل يصف الناقة وصفاً دقيقاً فيصف مشافرها وأنفها ولونها لكي يخلص إلى نعتها بالأصالة وأخيراً يصل إلى ممدوحه أبي الأمناء هارون الرشيد:

حيِّ الديارَ إذ الزمانُ زمانُ ... وإذِ الشبابُ لنا حَرَىَ ومعانُ[69]

يا حبذا سفوانُ من متربع ... ولربما جمع الهوى سفوانُ[70]

وإذا مررت على الديار مسلماً ... فلغير دار أميمة الهجران

إنا نسبنا والمناسبُ ظنةٌ ... حتى رمُيتِ بنا وانتِ حصان[71]

لما نزعتُ عن الغوايةِ والصبا ... وخدت بي الشدنيةُ المذعان[72]

سبطٌ مشافرُها دقيقٌ خطمها ... وكأن سائر خلقِها بنُيان

واحتازَها لونٌ جرى في جلدها ... يققٌ كقرطاس الوليد هجان

وإلى أبي الأمناءِ هارون الذي ... يحيا بصوب سمائه الحيوان[73]

و يمضي أبو نواس في مدح الرشيد، فقد مدحه من خلال صفتين شاعتا عنه، وهما الحج والغزو، فذكر في تاريخ الرشيد أنه كان يحج سنة ويغزو سنة:

هارونُ أَلَّفَنا ائتلافَ مودة ... ماتتْ لها الأحقَادُ والأضغَانُ

في كلِّ عامٍ غزوةٌ ووفَادَةٌ ... تنبَتُّ بين نواهما الأقرانُ

حجٌ وغزوٌ ماتَ بينهما الكرى ... باليَعملاتِ شعارُها الوخدانُ

يرمي بهن نياط كل تنوفة ... في الله رحالٌ بها ظَعانُ

حتى إذا واجهن إقبال الصفا ... حَنَّ الحطيمٌ وأَطتِ الأركانُ

---

69 –حرى:جبل حراء بمكة . معان :مدينة حالياً بالاردن.الشباك :المقصود بها شباك الهوى والحب.

70 –سفوان:موضع بالبصرة .المتربع:اسم للمكان الذي ينزله القوم أيام الربيع.

71 –نسبنا أي تغزلنا في الشعر.

72 –الشد نية المذعان أي الناقة السلسة الرأس.

73 –الحيوان: الحياة،قال تعالى: " وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون".

لا غـــرو يَنفرج الدجى عن وجهه   لو شاءَ صــانَ أديمَــها الأكنــانُ
يَصْلَى الهجيـرَ بغـرةٍ مَهديـةٍ   إن التقــيَّ مُسَـدَّدٌ ومُعــانُ

ويمــوت الرشـيد ويلي الامر من بعده ابنه محمد الأمين وكان الأمين مسرفاً على نفسه في الشراب إســرافاً شـديداً كمـا كان غارقاً في لذته متخذا من أبي نواس خديناً ونديماً، فلقد مدحه أبو نواس بقصيدة جميلة مطلعها:

يا دارُ مـا فعلت بـك الأيـامُ   ضَامتك والأيـامُ ليس تُضـامُ
عَرَمَ الزمانُ على الذين عَهدتُهم   بـك قَاطنينَ وللزمـان عُـرام
أيـامَ لا أغشى لأهلـكَ مَنـزلا   إلا مراقبَـةً عـليَّ ظَـلامُ

إن أبـا نـواس يصـيب مرة أخرى طرف الإجادة في هذه الابيات التي يقف بها على دار الأحباب ويناجـيها هذه المناجاة الحارة المليئة بأسباب اللوعة والأسى، مما يناقض به نفسه حين هون من شأن الوقوف على الديار ومناجاتها يكمل:

وبلغتُ مـا بلغَ امـرُوءٌ بشبابـهِ   فإذا عُصارةُ كـلِّ ذاكَ أثـامُ
وتجشمتْ بي هـولَ كـل تنُوفـةٍ   هوجاءُ فيهـا جـرأةٌ مقـدام
تـذرُ المطيُّ وراءهـا فكأنهـا   صفٌّ تقدمُهـنَّ وهـيَ أمـامُ
وإذا المطـيُّ بنـا بلغـن محمداً   فظهورهـن على الرجال حرام

إن أحـداً لا يكـاد يصـدق أن هذا القول قول صادر عن أبي نواس، ولو كان الممدوح ماجناً مثل الأمين.ثم يمضي أبو نواس على ناقته الهوجاء الجريئة المقدامة وقد تجشمت أهوال قطع البرية الموحشة تسـبق كـل المطي وتذرها وراءها صفاً حتى تصل به إلى محمد الأمين، وحينئذ يكون ظهورهن على الرجال حراماً، ويكمل القصيدة بوصف الأمين بالقمر، والقمر يشبه به الحسناوات من النساء:

قربنَنَا من خير من وَطىءَ الحصى   فلهـا علينـا حرمـة وذمـامُ
رُفع الحجابُ لنـا فلاحَ لناظـرٍ   قمـرٌ تَقطـعُ دونـه الأوهـام
ملـكٌ إذا عَلقت يـداكَ بحبلـه   لا يعتريكَ البـؤسُ والإعـدام
ملـكٌ توحـد بالمكـارم والعلى   فـردٌ فقيـدُ النـد فيـه هُمامُ

ثم يـتورط بخطأ حين يذكر الشراب مرتبطاً بمنادمة الملك وهو أمرٌ لا يتفق مع مقام الخلافة حتى ولو كـان الخليفة سكيراً، ويتابع خطئه مرة أخرى وهو أن الإسلام لبس الشباب بنوره، وقد كان العام والخاص من رعيته يعلم أن الإسلام مهدد بخليفة ليله سكر ونهاره مجون وحياته خلع العذارى، وبرغم كـل هذا، فالقصيدة تعبر عن بشاشة شعر أبي نواس وخلقه المعاني، وشعر المديح أكثره كذب ونفاق

وأقلـه صدق ووفاء، ولكن ربما صحت هنا الحكمة القائلة: أعذب الشعر أكذبه ويتابع أبو نواس في ميميته هذه للأمين:

ملكٌ أَغرُّ إذا شربتَ بوجهـه ... لم يعدُكَ التبجيـلُ والإعظـامُ

فالبهوُ مشتمـلٌ ببـدر خلافـةً ... لبسَ الشبـابَ بنـوره الإسلام

سَبطُ البنـان إذا احتبى بنجاده ... فَرَع الجمـاجمَ والسماط قيـام[74]

إن الذي يرضَى الإلـه بهديـه ... ملكٌ تردى الملـكَ وهو غـُلامُ

ملك إذا اعتسر الأمورَ مضى به ... رأيٌ يفلُّ السيف وهـو حسامُ

داوَى بـه الله القلوبَ من العَمَى ... حتى أَفقـنَ ومـا بهـنَّ سقـام

أصبحتَ يا ابن زبيدة ابنة جعفر ... أمـلا لعقـدِ حبالـه استحكام

فسلِمْتَ للأمر الذي تُرجَى له ... وتقاعستْ عن يومِـكَ الأيـام

ولأبي نـواس قصـيدة أخـرى نونـية عذبة، مدح بها الأمين وسار فيها على ظهور العيس الغريبة الأوصـاف، وخلـع علـيه صفات الدين ودافع عن حق بني العباس في الخلافة فأعطى قصيدته لونا سياسياً، فأما سيره إلى الأمين على ظهور العيس مع الإغراب الشديد في وصف الناقة التي يطلب إليها ألا تسأم حتى يبلغ ملكاً (تقبيل راحته والركن سيان) فذلك قوله:

أقولُ والعيسُ تعرَوري الفـلاة بنا ... صُعْـرَ الأزمة من مثنى ووحدانِ

لذاتِ لـوث عفرناة عـذافرة ... كأنَّ تضبيرهَا تضبير بنيـان

يا ناقُ لا تسأَمي أو تبلُغي مَلِكاً ... تقبيلُ راحتـهِ والركْـن سيـان

متى تُحطـي إليـه الرحـلَ سالمةً ... تستجمعي الخلق في تمثَال إنسانِ

ثكلتك أمك بهذا القول! لا أحد يجرؤ على هذا التشبيه الذي تجاوزت فيه الأعراف والأخلاق؟ ومن هو ممدوحك ، وليكن من يكن من الملوك والأمراء ؟حتى يكون بمقام الأنبياء والصدقين والصحابة كي تعطـيه هـذه الصـفه؟.وينبري في بقية القصيدة بين مدح الأمين والخوض في حديث السياسة وحق العباسـيين في الخلافـة والتعريض بأبناء فاطمة، علماً أن أبا نواس كان أبعد الناس عن الخوض فيه، فالسياسة أمرها يتطلب جداً ونضالها مر ومع ذلك يقول:

هو الذي إمتحن الله القلوب بـه ... عما تجمجم من كفـر وإيمـانِ

وإن قومـاً رجوا إبطـال حقكم ... أمسوا من الله في سخط وعصيان

---

[74] –سبط البنان: سخي.النجاد: حمائل السيف.فرع الجماجم: علاها لطوله أو لشرفه.السماط: الصف.

لن يدفعُوا حَقكمُ إلا بدفعهم ما أنزلَ اللهُ من آيٍ وبُرهان

فقلّدوها بني العباس إنهم صنو النبيّ وأنتم غير صِنوان

وإن للـه سيفاً فوق هامهم بكفّ أبلجَ لا ضرعٍ ولا وانِ

يستيقظُ الموتُ منه عند هزته فالموت من نائمٍ فيه ويقظان

محمّد خيرُ من يمشي على قدمٍ ممن برَا الله من إنس ومن جانِ

وسار أبو نواس يمدح غير الخلفاء والأمراء، فلقد مدح العباس بن عبيد الهاشمي بقصيدة بارعة مطلعها:

أيها المُنتابُ من عُفُرِه لَستَ من ليلي ولا سَمَره

لا أذود الطيرَ عن شجر قد بلوتُ المرَّ من ثمره

خابَ من أسرى إلى بلَدٍ غيرُ معلومٍ مدى سفرِه

ثم أدناني إلى ملكٍ يأمنُ الجاني لدى حُجره

تأخذُ الأيدي مظالمها ثم تستذري إلى عُصره

كيف لا يُدنيك من أملٍ من رسولُ الله من نفرِه

وكم من العيب والعار على أبي نواس أن يبالغ في مدح العباس بن عبيد الله إلى المدى الذي يجعل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من نفره.ثم يمضي أبو نواس في خلع صفات المديح على الممدوح كوصفه بالكرم والفروسية والشجاعة والجرأة فيقول:

فاسلُ عن نَوءٍ تؤمله حسبُكَ العباسُ من مَطرِهْ

ملكٌ قلَّ الشبيهُ له لم تقعْ عينٌ على خَطَرِهْ

سبق التفريطَ رائدهُ وكفاهُ العينَ من أثرِهْ

وترى الساداتِ ماثلةً لسليل الشمس من قمرِهْ

ومن أشهر ممدوحي أبي نواس الخصيب والي مصر علىّ زمن الرشيد، وإليه تنسب مدينة"المنيا"في صعيد مصر، وكان اسمها حين أنشأها " منية الخصيب". فلقد قطع أبو نواس مسافة غير قصيرة حين جد مسيره إلى مصر، عندما كسد شعره في بغداد وقد مدح الخصيب بأربع قصائد، فهو يعرف أنه ذاهب إلى الفسطاط في مصر، وهي مستقر حضارة ومرابع خضرة وفيها بعض الديارات التي تقدم الخمر، فتغنيه عن ديارات العراق وحاناها، وقد أشار في أولى مدائحه للخصيب إلى ذكر الخمر فيقول:

إنّي لآملُ يا خصيبُ على يدكَ اليَسارَةَ آخرَ الدَّهرِ

وكذاكَ نِعمَ السوقُ أنتَ لمن كَسَدَتْ عليه تجارةُ الشّعر

في مَجلسٍ ضَحكَ السُرُورُ به عن ناجذَيهِ وحَلتِ الخَمْرُ

أنت الخَصِيبُ وهـذه مِصـرُ فتَدفقـا فكِلاكُمَا بحـر
النِّيـلُ يُنعِشُ مـاؤُهُ مِصـراً ونَـدَاكَ يُنعِشُ أهـلَـهُ الغمر
تقولُ التي عن بيتها خـفَّ مركبي عزيـز علينـا أن نـراكَ تسير
فقلتُ لهـا واستعجلتهـا بوادرٌ جرتْ فجرَى في جريهـن عبيرُ
ذريني أُكثرْ حاسديك برحلـة إلى بلـد فيـه الخصيبُ أميرُ
إذا لم تزوُ أرض الخصيب ركابُنا فأيُّ فتىً بعدَ الخصيب تـزور
فتىً يشتري حسن الثناء بمالـه ويعلمُ أن الدائـرات تـدور
فمـا جـازَه جُـودٌ ولا حَلَّ دونَه ولكن يصيرُ الجـودُ حيث يصيرُ
سموتَ لأهل الجـورِ في حال أمنهم فأَضحوا وكـلٌّ في الوثـاق أسيرُ
فمن يكُ أمسى جـاهلاً بمقالتي فـإنَّ أميـرَ المؤمنـين خبيـرُ

قـال أبـو نواس لونين من الغزل، الغزل بالمذكر الذي عرف عنه وعن معاصريه من المجان، ويصعب تناول واستعراض هذا الجانب من الشعر كونه يتنافى مع إنسانية الإنسان وقيمه، والغزل بالمؤنث يعد ضرباً مألوفاً من القول وفناً أجاد فيه الشعراء، وقد طرق أبو نواس هذا الجانب ومما قاله شارحاً سبب حبه بفاتنة أسرت فؤاده:

مـا هوىً إلا لَـهُ سَبَبُ يبتـدي منـهُ وينشَعـبُ
فتَنتْ قلبـي مُحجبـةٌ وجهها بالحُسن مُنتقـبُ
حَليـتْ والحسْنُ تـاخُذهُ تنتـقي منـهُ وتنتخـبُ

وكانـت "جنان" ممن أغرم بها أبو نواس ولفترة طويلـة، فكانت تحتقر أبا نواس لما تعلمه من انحرافه ومجونـه وشذوذه، فكان إذا ذكر اسمه لها أو ذكر شعره عليها تسبه وتنعته بالمخنث الكاذب، فأخذ يقابل هذا السباب بقوله:

أتـاني عنك سَبُّـكِ لِي فَسُبِّي أَلَيسَ جَرى بفيك اسمي فحسْبي
وقُولِي ما بَدَا لَـكِ أن تقُولِي فمـاذا كلُّـه إلا لحُبِّـي
قُصَـاراكِ الرُّجـوع إلى وِصَالِي فما ترجيـنَ من تعذيب قلبـي ؟
تشابَهَتِ الظنـونُ عليـكِ عِندي وَعِلـمُ الغيب فيها عند ربِّـي

وبقصـائد أخرى ينزع إلى التجدد فينكر الأساليب القديمة ويذمها ويحاول القضاء عليها، وأكثر ما يكون ذلك في مجالس اللهو والسرور ويرسل عواطفه بعبارات كقوله:

أترك الأطلال لا تعبأ بها إنها من كل بؤس دانية

وأشرب الخمر على تحريمها   أنمـــا دنياك دارٌ فانيه
من عقار من رآها قال لي   صيدت الشمس لنل في باطية
ويقول بالدعوة لمعاقرة الخمر والليل مظلم، بل ويشترط أن تكون معتقة يسكبها خمار محترف المنادمة
وخمار أنخت إليه رحـــلي   إناخة قاطن والليل داج
فقلت له أسقني صهباء صرفا   إذا مُزجت توقدُ كالسراج
فقال فإن عندي بنت عشر   فقلت له مقالة من يناجي
أذقنيها لأعلم ذاك منها   فأبرزَ قهوة ذات ارتجاج
كأن بنان مُمسكها اشيمت   خضاباً حين تلمع ف الزجاج
و يخـــرج عن الطريقة القديمة، طريقة الوقوف على الطلول وقطع المفاوز رتجشم الأهوال توصلا إلى مدح المقصود وعلى ذلك قوله:
صـــفة الطلـــول بلاغـــة القدم   فأجعل صفاتـــك لأبنة لكرم
ويدعو بجرأة لترك الوقوف على الأطلال والتغزل بها، إلى التشبب والتغزل بقرمة العنب أم الخمرة.
ولما سجنه الخليفة على اشتهاره بالخمر وأخذ عليه عهداً أن لا يذكرها في شعره قال:
أعرِ شعرك الأطلال والمترل القفرا   فقد طالما أزرى به نعتُك الخمرا
دعاني إلى نعت الطلول مسلطٌ   تضيق ذراعي أن أرد له امرا
فسمعاً أمير المؤمنين وطاعةً   وإن كنتَ قد جشمتني مركبا وعرا
يجاهـــر بأن وصفه للأطلال والقفر جاء بسبب خشيته وخوفه من الإمام، وإلا فهو عنده فراغ وجهل وشرب خمر وعربدة وسكر، وليس أبو نواس الوحيد على علو كعبه في وصف الخمر ومجالسها بمفرده في ذلك، فقد تقدمه في الجاهلية والإسلام من وصف الخمر وأحوال شاربيها منهم: " الأعشى وعدي بن زيد، ثم الأخطل والوليد بن يزيد، والقارئ لأشعار الوليد بن يزيد، يجد بينها وبين أشعار أبي نواس أوجه الشبه كثيرة ما يجعلك بأن نحكم على أبي نواس بأنه تأثر بطريقة الوليد، بل أنه سلخ معاني الوليد فجعـــلها في شـــعره وكررها، فمن قول الوليد بن يزيد في الخمر على سبيل المثال لرؤية التوافق بين الشاعرين والانسجام:
اصدع نجيَّ الهموم بالطربِ   وانعم علي الدهر بابنة العنب
واستقبل العيش في غضارته   لا تقفُ منه آثار مُعتقبِ
من قهوةٍ زانها تقادُمها   فهي عجوزٌ تعلو على الحقبِ
أشهى إلي الشّرب يوم جلوها   من الفتاة الكريمة النسب

فقد تجلت ورقَ جوهرها حتى تبدت في منظرٍ عجب
فهي بغير المزاج من شررٍ وهي لدى المزج سائل الذهب

وقـــف أبو نواس من قضية الحلال والحرام مواقف متعددة الأوجه، ولاسيما حين رأى في الخمر داءه ودواءه معاً:

دع الربع ما للربع فيك نصيبُ وما إن سبتني زينب وكعوب
ولكن سبتني البابلية إنها لمثلي في طول الزمان سلوب
إذا ذاقها من ذاقها حلقت به فليس له عقل يعد أديب

إغراء الخمر ملك عليه لبه، بل أصبح معادلات تلتقي فيها رؤاه المختلفة من دينية وسياسية واجتماعية وغزلية، و راح يسجله صراحة في قوله متشبثا بمسلكه حيث يقول:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الداء

وكـــأن كـــل ظروفه راحت تحثه إلى مزيد من السكر والعربدة في سبيلها، فصورها في ذهنه على أنها الحقـــيقة الوحـــيدة التي يركن إليها، وظلت فلسفة الإغراء مسيطرة عليه آخذة لبه، حتى أصبحت مفـــتاحاً لشخصيته لا يتحرك إلا قاصداً الحانة وحتى تفتح له أبوابها بلا خوف ولعصابته، ويبدع في الوصـــف مشيرا إلى أن الأحجار الحزينة لو لامستها الخمر لا زال عنها الهم والكرب وهذا التشبيه كـــناية عن الأحزان الجسام ولاسيما عندما تسكب غانية أقداح الخمر في هدوء الليل المغمور باللذة والنشـــوة المتلألئة، ويحن لكأس الخمر المعتقة ذات الصفاء النقي التي تفتح أفاق الحياة لدية، وتنيرها طاردةً الهموم والأحزان، ولا حاجة له للبكاء على هند وغيرها، وإنما يبكي من هؤلاء الجهلاء الذين يدعون فلسفة وعلماً ومعرفة، فهؤلاء يحفظون ولا يدرون:

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها لو مسها حجرٌ مسّته سرّاء
قامت بابريقها والليل معتكر فلاح من وجهها في البيت لآلاءُ
فارسلت من فم الإبريق صافية كأنما أخذها بالعين إغفاء
فلو مزجتَ بها نوراً لمازجها حتى تَولدَ أنوار وأضواء
لتلك أبكي ولا أبكي لمنزلة كانت تحلُّ بها هند وأسماء
فقل لمن يدعي في العلم فلسفةً حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء
لا تحظر العفو إن كنت امرءاً حرجاً فإن حظركه في الدين إزراء

وراح مـــع متعـــته الـــتي أنسته الفصل في الحرام من الحلال يعلن صراحة أن اللذائذ مع فعل الحرام ولاســـيما معاقـــرة الخمـــرة التي لا يدانيها خليل ولا يعدلها صاحب، ويبين أنها من حاجات النفس

الضرورية و التي لا غنى عنها لعاقل:

فخذها إن أردت لذيذ عيش ولا تعدل خليلي بالمدام

فإن قالوا : حرام قل : حرام وأن اللذاذة في الحرام

ولا أدل على صدق دوافعه خلف هذا التيار وحرصه المتكرر على التصريح بزندقته ومجاهرته بتحلله العقـيدة الإسلامية، وإنكاره ما تدعو إليه حتى وصلت المسألة في بعض الأحيان إلى درجة قبيحة من الإفاضة، في حديث السخرية من علماء الدين والاستخفاف المطلق بالعبادات في قوله:

قل للعذول بحانة الخمار والشرب عند فصاحة الأوتار

أني قصدت إلى فقيه عالم متنسك حبر من الأحبار

متعمق في دينه متفقه متبصر في العلم والأخبار

قلت: النبيذ تحله فأجاب : لا إلا عقاراً ترتمي بشرار

قلت :الصلاة فقال : فرض واجب صلِّ الصلاة وبت حليف عقار

اجمع عليك صلاة حولٍ كامل من فرض ليل فاقضه بنهار

قلت : الصيام فقال لي : لا تنوه واشدد عُرى الإفطار بالإفطار

قلت : التصدق والزكاة فقال لي شيء يُعدُّ لآلة الشطار

قلت :المناسك إن حججتُ فقال لي هذا الفضولُ وغاية الأدبار

لا تأتينَ بلادَ مكة مُحرماً ولو أن مكة عند باب الدار

قلت : الأمانة هل ترد ؟ فقالَ لي لا تردد القطمير من قنطار

لا هم إلا أن تكون مضمنا ديناً لصاحب حانة خمَّار

فاردد أمانتَهُ عليه ودَينه واحتل لذاك ولو ببيع الدار

يعلـــن أبو نواس حواره الجريء بصراحة وقد ملأه بروح السخط والتهكم والسخرية، ويرفض من خلاله أن يكون شاباً مسلماً، فهو يرفض الصلاة، فلا يضيع نفسه بها ليلاً، بل يترك للخمر كل لياليه، و يدعو شباب عصره إلى أن يقتدوا حذوه في الانحراف من خلال تركهم العبادات والتكاليف، كما يراها من خلال منطق تحلله وتحرره، فهو يرفض الصيام والتصدق والزكاة وأداء شعائر الحج ومناسكه فيراها من النوافل، بل تصل جرأته وقبحه إلى حد النهي عن هذه العبادات كلها، وكأن أبا نواس يصر على انتقاد سلوكيات عملية دعا إليها الدين الحنيف السمح، ونظمها فراح يستغل منها ما استغله في الدعاية والاستهتار، فإذا هو لا يرد الأمانة إلى صاحبها إلا إذا كان خماراً ولو احتاج أمر سداد الدين إلى بيع داره، ولا يكاد أبو نواس يبتعد في حواره هنا عما أداره في حديثه الخمري، حين يقابل صاحبة

الحانة، ويتردد بينه وبينها نظائر هذا الحوار، ثم يأتي إلى سرد العبادات من صلاة إلى صيام إلى زكاة إلى حــج، ومنها إلى السلوك الاجتماعي ليتخذ منها وسيلته للسخرية، ويلاحظ أن أبا نواس حين يسخر مــن العــبادات، لم يستطع أن يتنكر لأساس الدين أو الشهادتين قبل العبادات وإلا عوقب باعتباره مشركاً ملحداً، لذا بدا شديد الحرص على نفي هذا الموقف عن نفسه، لأنه يقترب من رؤية المرجئة في فلسفة العفو حين رأى أن (" للكبائر عند الله غفران").ولذا راح يسرف فيها إلا أنه لا يشرك بالله:

ترى عندنا ما يسخط الله كله   سوى الشرك بالرحمن رب المشاعر

وراح يدعــي العلم والمعرفة بالديانات المختلفة، بل بدا موهما بحرصه على أن يجد سنداً شرعياً لشربه الخمر على نحو ما زعمه في قوله:

لا تسقني الخمر إما كنتَ لي سكناً   إلا التي نص بالتحريم جبريل

إن كان حرَّمها الفرقان بعد فقد   أحلها قبل توارة وإنجيل

وقوــله في إيجاد ذرائع لا أساس لها من الصحة ومتذرعاً ببعض الكتب السماوية بتحليلها وتبرير ما تسول له نفسه، وحاشي للكتب السماوية أن تبيح الحرام أنه يفتري على النهج السماوي:

خذها على دين المسيح إذا نهى   عن شربها دين النبي محمد

على أن موقفه من الشرك المطلق والدعوة إلى الفجور لا ينبغي أن يدفع إلى إحسان الظن به، فهو ليس دليل صدقه على تصوره بأنه مسلم، فالإسلام لا يتجزأ في سلوك المسلم على ذلك النحو المقيت الذي عرضه في شعره.إن إنكار الغيب أو البعث عند الشاعر القديم لم يكن ليصدر إلا عن جهل كامل به، أو عجز من استجماع القدرة على تصوره، لأنه لم يجد من ديانات السماء ما يسير على هديه في عصر الوثن، ولكنك نجد الشك بارزاً ومعلناً بقبح عند أبي نواس، وليته شك فلسفي يستهدف الوصول إلى الحقيقة أو حتى البحث عنها، وليته صاغه بشكل مهذب في فنه، بل وصل به الأمر إلى درجة عالية من التهكم والتهتك في قوله:

يا نــاظراً في الدينِ مــا الأمرُ   لا قــدرٌ صــحَّ ولا جَبــرُ

ما صَحَّ عنــدي من جميعِ الذي   تَذكُــرُهُ إلا المــوتُ والقبــرُ

تعلل بالمنى إذ أنت حي   وبعد الموت من لبن وخمر

حياة ثم موت ثم بعث   حديثُ خرافة يا أم عمرو

وهكذا اقتحم الشاعر كل الحدود فتجاوزها، وفاق بذلك كثيراً من أقرانه من شعراء اللهو والمجون، الذين انصرفوا إلى لذاتهم بعيداً عن هذا التعرض للقيم الدينية، لأن اندفاعهم إليها قد تحول إلى فلسفة حياة ورؤية خاصة للوجود بعيداً عن حديث العبادات الذي دس أبو نواس أنفه في كثير من مواقفه،

وتزعم مجموعة من الشعراء والظرفاء الذين عرفوا بحرية ملحوظة وثقافة غنية هذا التيار، ومن أشهر أفـــراد هـــذه العصابة مسلم بن الوليد والفضل ابن الضحاك وأضاف إلى زعامته، لكل هؤلاء زعامة أخـــرى لتيارات متطرفة تورط فيها عن رضى منه، فأسهم في تيار الشعوبية والزندقة في عصره، وفي رائيته صور مختلفة للتعصب بالشعوبية وبالحضارة الفارسية والتمسك بها، ويتجه أبو نواس باستمرار للتحرر والتحلل من القيم والتقاليد الاجتماعية في قالب قصصي في إحدى خمرياته، مصوراً فيها كيف ذهـــب إلى حانوت أحد الخمارين مع جماعة من صحبه، فرأوه وقد حزم الزنار على خصره، فأدركوا أنه ليس مسلماً فسألوه إذا كان مسيحياً فلم يجبهم، فعرفوا أنه يهودي يظهر المودة والحب، ويستطيع إضمار العداوة والخبث والكره، وقد سألوه عن أسمه فأجابهم أنه يدعى سموأل، ولكنه يكني نفسه بأبي عمرو وأن هذه الكنية العربية لا تشرفه ولا يشرفه الانتماء إلى أهلها أو الولاء لهم، وإنما علل اتخاذه تلـــك الكنية لخفة لفظها فقط.وكأن أبا نواس يريد أقناع محاوره، بأن ما سمعه من الخمار اليهودي لم يكـــن سوى تقرير ما شاهده، لكن قصيدته بالأساس تهدف إلى تحقير شأن العرب من خلال الموقف الذي افتعله أبو نواس في صورة الخمار والحوار معه حيث يقول:

وفتيان صدق قد صرفتُ مطيهم ... إلى بيت خَمّار نزلنا به ظهرا
فلما حكى الزنارُ أن ليس مسلما ... ظننا به خيراً فظن بنا شرا
فقلنا : على دين المسيح بن مريم ... فأعرض مزوراً وقال لنا هُجرا
ولكن يهودي يُحبك ظاهرا ... ويضُمر في المكنون منه لك العذرا
فقلت له : ما الاسم قال : سموءل ... ولكنني أكنى بعمروٍ ولا عمرا
وما شرفتني كنيةٌ عربية ... ولا أكسبتني لا ثناءً ولا فخراً
ولكنها خفت وقلت حروفها ... وليست كِأخرى إنما جُعلت وقرا
فقلت له عجباً بظرف لسانه ... أجدت أبا عمر فجود لنا الخمرا
فأدبر كالمزور يقسم طرفه ... لأرجلنا شطرا وأوجهنا شطرا
فجاء بها زيتية دهبية ... فلم نستطع دون السجود لها صبرا
خرجنا على أن المقام ثلاثة ... فطاب لنا حتى أقمنا بها شهراً
عصابةً سوء لا ترى الدهر مثلهم ... وإن كنتُ منهمُ لا بريئاً ولا صفرا
إذا ما دنا وقتُ الصلاة رأيتهم ... يحثونها حتى تفوتهم سكرا

أ لهذا الحد وصل به الأمر بالإساءة والاستهتار بالقيم والمشاعر الدينية والأخلاقية !!.إنه من المؤسف والمؤلم هذا التطاول والمجاهرة بالعلن في التغني بمعاقرة الخمر وقت الصلاة ودخولها وهم سكارى بنشوة

الانحراف، معذرة منك أيها الشاعر! أفعل بنفسك ما تشاء ودع المشاعر والقيم لأهلها.
ومع انصراف أبي نواس للعبث النسائي والغلماني، فالفرد لا يجد له غير الغرائز الحيوانية السفلة التي تنم عن تحرق وتحلل شهواني يصل إلى درجة الإسفاف أحياناً، وشتان ما بينه في ذلك وبين كبار شعراء الغـزل مـن عذريين وغير عذريين، ففي أشعار هؤلاء يجد الفرد رقة عواطف النفس و جمال الحب، ويصـورون المرأة تصويراً جميلا عذبا، أما في غزل أبي نواس، فلا ترى غير جوار متهتكات وغلمان فاسدين وأوصاف تدل علي ما بلغه بعض القوم يومئذ من الانحطاط الاجتماعي. أما خمرياته فتدل علي سوء المجون ولكنه صاغها بجمال فني تستهوي القارئ، فإذا حاولت النظر إليه يقودك إلى حانة وانظر كيف يدخلها مع رفاقه خفية، وعادة ما تكون الحانات في ضواحي متروية وأصحابها ممن يحبون اللهو والمـتعة، وها هو يلاطف صاحبة إحدى الحانات وقد تكون من أسمج النساء، فيداعبها ويسترق منها قبلة أو يربت علي ظهرها وفي يده الدنانير يضعها أمامها، ويستخفها إلى تقديم أفضل الخمور المعتقة، ثم أنظـر كـيف يقودك معه إلى قبو قديم تحت الحانة، فيريك نسيج العنكبوت علي الدنان ثم يريك الخمّار وقد ضرب بالمبزل بعضها، فخرجت الخمر صهباء مشرقة تطرد الظلام إنه رسام متقن لحرفته:

فجاءَ بها زيتّيةً ذهبية فلم نستطع دون السجود لها صبرا

ومـا مـن شك أنه يصف حوادث واقعية في مغامراته الخمرية. وهذه خمرية أخرى يقولها في وصف إحـدى مجونـه: وليلة مظلمة قصدت ورفاقاً لي إلى بيت خمّار، فأخذنا نسير من زقاق إلى زقاق حتي وصلنا، وقد هجع صاحب الخمارة للنوم مع أهل بيته، وقرعنا الباب فاستيقظ مذعوراً، وتوجس شرا من أدلا جنا في مثل تلك الساعة من الليل، فلم يشأ أن يجيبنا:

وليلة دجنٍ قد سريت بفتية تنازعها نحو المدام قلوب
إلى بيت خمّار ودون محله قصور منيفات لنا دروب
ففزع من إدلاجنا بعد هجعة وليس سوى ذي الكبرياء رقيب
تناوم خوفاً أن تكون سعاية وعاوده بعد الرقاد وجيب
ولما دعونا باسمه طار خوفه وأيقن أن الرحل منه خصيب
وبادر نحو الباب سعياً ملبياً له طرب بالزائرين عجيب

ثم فتحه هاشاً منحنياً أمامنا ومرحباً، وهو يقول مرحباً بالكرام وجاء بالمصباح، فقلنا له: أسرع لم يبق من الليل إلا بقية قليلة، هات لنا خمّرك الطيبة المعتقة:

فأطلق عن نابيه وانكب ساجدا لنا وهو فيما قد يظن مصيب
وقال ادخلوا حييُتم من عصابة فمنزلكم سهلٌ لدي رحيبُ

فقلنا أرحنا هاتِ إن كنت بائعا فإن الدجى عن مُلكه سيغيب
فأبدى لنا صهباء تم شبابها لها مرح في كأسها ووثوب
فلما اجتلاها للندامى بدا لها نسيم عبيرٍ ساطع ولهيب
فما زال يسقينا بكأس مجدة تُولي وأخرى بعد ذاك تؤوب
وغنى لنا صوتاً بحسن ترجعٍ " سرى البرق غرباً فحنّ غريب"
فمن كان منا عاشقاً فاض دمعه وعاوده بعد السرور نحيب

ثم جـــاءت جاريـــة بعد ذلك وبيدها مزهر، فأخذت تغني لنا ونحن نشرب، وما زلنا على هذه الحال، كأس تذهب وكأس تجيء، حتى غنت لنا:(" سرى البرق غرباً فحنّ غريب")، ففاضت مدامع العشاق منا وأمسينا بين مسرور بنشوة الخمر وباكٍ من شدة الهوى حتى لاح الصباح :

فمن بين مسرور وباك من الهوى وقد لاح من ثوب الظلام غيوب
وقد غابت الشعرى العبور وأقبلت نجوم الثريا بالصباح تؤوب[75]

فـــنان نفسي بارع يجيد وصف المشاعر والأحاسيس وحركات السلوك بروعة، إنه يبين أهمية التنفيس الانفعالي كمنهج نفسي في وصف أدق المشاعر.ويقص أبو نواس زيارة أخرى إلى بعض هذه الحانات ويصف الخمّار وامرأته وميزاهًا الغشوم، وخمرها المعتقة وكيف حمل الخمر إلى رفاق له، كانوا ينتظرونه في بســـتان، فأقاموا ردحاً من الزمن يمتعون النفس بين الرياحين بعيدين عن أعين الرقباء والحاسدين قال:

إذا خطرت منك الهموم فداوِها بكأسك حتى لا تكون هموم
أدرها وخذها قهوةً بابلية لها بين بُصرى والعراق كرومُ
ولا عرفت ناراً ولا قِدر طابخ سوى حرَّ شمس إذ تهيج سَموم
لها من ذكي المسك ريح زكية ومن طيبٌ ريح الزعفران نسيمُ
فشمّرت أثوابي وهرولت مسرعاً وقلبي من شوق يكاد يهيمُ
إلى بيت خمّار أفاد زحامةُ له ثروة والوجه منه بهيم
وفي بيته زِقّ ودنّ ودورق و باطية تروي الفتى وتنيُم
فأزقاقه سود وحمرٌ دنانه ففي البيت حبشان لديه وروم
ودهقانةٌ ميزانها نَصب عينها وميزانها للمشترين غشومُ

[75] –الشعرى:احد الكواكب التي يستدل بها المسافرين ليلاً.

فاعطيتها صفراً وقبلت رأسها على أنني فيما أتيت مُليمُ
وقلت لها هزي الدنان قديمةً فقالت نعم أبي بذاك زعيمُ
الست تراها قد تعفت رسومها كما قد تعفت للديار رسوم

وبعد أن تحضر له الخمر من قبو قديم عَتقت به، فيشعر بالسعادة وبالنشوة لتحقق أمنيته لرفاقه المترقبين وصوله على أحر من الجمر الذين يشتهون رائحتها فيقول:

فرحت بها في زورق قد كتمتها ومن أين للمسك الزكي كتوم
إلى فتيةٍ نادمتهم فحمدتهم وما في ندامي ما علمت لئيم
فمتعت نفسي والندامى بشربها فهذا شقاءٌ مرَ بي ونعيمُ
لعمري لئن لم يغفر الله ذنبها فإن عذابي في الحساب أليم

ولأبي نواس أراجيز تصف الكلاب والفهود وطيور الباز وما إلى ذلك من أسباب الصيد والطرد ومن أقواله ينعت كلباً أسمه خلاب لسعته حية فمات، وقد تألم لموته حيث كان رفيقه في ملمات الليل يزود عـــنه الذئـــاب ويطارد الظباء في رحلات الصيد، ويفجع الشاعر بأفعى تنهي حياة الكلب الصديق الصـــدوق، ويحـــزن أبو نواس عليه، ومتمنياً لتلك الأفعى الهلاك، تلك الحية الرقشاء ذات الألوان الفاقعة والتي لم يرحم سمها صديق المهمات الصعبة والطرق الوعرة:

يا بؤس كلبي سيّد الكلاب قد كان أغناني عن العقاب
وكان قد أجزى عن القصاب وعن شرائي جلب الجلاب[76]
يا عينُ جودي لي على " خلاب " مَن للظباء العفر والذئاب؟
خرجت والدنيا إلى تباب به وكان عدّتي ونابي
فبينما نحن به في الغاب إذ برزت كالحةُ الأنياب
رقشاء جرداء من الثياب لم ترعَ لي حقاً ولم تحابي
فخرّ وانصاعت بلا ارتياب كأنما تنفخ من جراب
لا أُبتُ أن أبتِ بلا عقاب حتى تذوقي أوجع العذاب

ولـــو تأمل القارئ في تحليل شعر أبي نواس لتعرف إلى نفسيته الحقيقية والتي تنطوي على حبه للحياة مستخفا بها فهو من طلاب اللذة السانحة حيث يقول:

ألا فاسقني خمراً وقل لي:"هي الخمرُ"! و لا تسقني ســـراً إذا أمكن الجهرُ

---

[76] -جلب الجلاب : أي أغناه عن العبيد وخدمتهم بالحراسة .

فعيشُ الفتى في سـكرة بعد سكرة فإن طال هذا عنده قَصُرَ الدهـر
وما الغُبن إلا أن تـرانيَ صاحيـا وما الغُنمُ إلا أن يُتعـتعني السـكر
فبحْ باسم من أهوى ودعني من الكُنى فلا خيرَ في اللذات مـن دونها ستر
و لا خيرَ في فتـكٍ بغـير مجانـة و لا فـي مجـون ليس يتبعـه كـفر

ينصرف إلى الملاهي ليخدر أعصابه من رهق الهموم واللوم والتخفي في ظلمة الليل، كي لا يرى آلام الحياة ومتاعبها فيقول:

غدوت إلى اللذات منهتك الستر وأفضت بنات السرّ مني إلى الجهر
وهان علي الناس فيما أريده بما جئت فاستغنيت عن طلب العذر
رأيت الليالي مرصدات لمدتي فبادرت لذّاتي مبادرة الدهر

ويجري أبو نواس ساعياً وراء لذاته ناكراً على اللائمين ما يقولون:

وملحّة باللوم تحسب أنني بالجهل أُوثر صحبة الشطار[77]
بكرت عليّ تلومني فأجبتها أني لأعرف مذهب الأبرار
فدعي الملام فقد أطعتُ غوايتي وصرفت معرفتي إلى الإنكار
ورأيت إتياني اللذاذة والهوى وتعجّلاً من طيب هذي الدار
أحرى وأحزم من تنظرُّ آجل علمي به رجمٌ من الأخبار
مـا جاءَنا أحدٌ يخبّر أنه في جنةٍ من مات أو في نار

ومـا أن بلـغ إلى هـذا البيت حتى قيل له: ويحك أما تعلم أن لك أعداء!! وهم ينتظرون مثل هذه السـقطات فاتق الله في نفسك، ودع الإفراط في المجون وأكتمها. قال: لا والله لا أكتمها خوفاً، وأن قضي شيء كان، ويقال أنه نمي الخبر إلى الفضل بن الربيع ثم إلى الرشيد، فما كان بعد هذا إلا أسبوع حتى حُبسَ. ويمضي في مسيرة التحلل من القيم والأخلاق ومن أقواله في المجون:

أعاذلَ أقصري عن بعض لومي فراجي توبتي عندي يخيب
تعيّرني الذنوب وأي حرٍ من الفتيان ليس له ذنوب
غرُيتِ بتوبتي ولججت فيها فشقي الآن جيبك لا أتوب

هذه هي روح أبي نواس يرى الدهر واقفاً له بالمرصاد ــ يرى الموت نهاية كل شيء فيقول لنفسه: وما نفع الحياة وماذا نجد فيها غير الشقاء؟ ويشعر بقوته وشبابه، فيثب إلى غمار المسرات الزائلة ويخوض

[77] -أهل الخبث والدهاء .

فيها وهو يقول:

طربت إلى الصنج والمزهر وشرب المدامة بالأكبر
وألقيت عني ثياب الهدى وخضت بحوراً من المنكر
وأقبلت أسحب ذيل المجون وأمشي إلى القصف في مئزر

ولكنه لا يقف عند الاستخفاف بقيمة الحياة، بل يقرنه باستخفاف بنواهي الأدب والشريعة كقوله:

ولاح لحاني كي يجيء ببدعة وتلك لعمري خطة لا أطيقها
لحاني كي لا أشرب الخمر إنها تورث وزراً فادحاً من يذوقها
فما زادني اللاحون إلا لجاجةً عليها لأني ما حييت رفيقها
أ أرفضها والله لم يرفض اسمها وهذا أمير المؤمنين صديقها
فنحن وإن لم نسكن الخلد عاجلا فما خلدنا في الدهر إلا رحيقها

ويتابع قوله في التمادي بمجونه ضارباً بالقيم عرض الحائط يقول ويفعل ما يشاء، متمردا على نفسه وعلى الذين يلومونه على أفعاله، ومستهتراً بالضوابط الدينية من قيم وسلوكيات ضرورية للجميع:

بكيت وما أبكي على دمنٍ قفر وما بي من عشق فابكي على الهجر
ولكن حديثاً جاءنا عن نبينا فذاك الذي أجرى دموعي على النحر
بتحريم شرب الخمر والنهي جاءنا فلما نهى عنها بكيت على الخمر
فأشربها صرفاً وأعلم أنني أعزّر فيها بالثمانين في ظهري

ولم يقلل هذا الاستخفاف فيه تقدمه نحو المشيب، فمثله لا يقف عن اعتبار أو نظر في العواقب ولا عن تقوى بل كان يشرب الخمر ويقول غير مبال:

الراح شيءٌ عجيب أنت شاربه فاشرب وإن حملتك الراح أوزارا
يا من يلومُ على حمراء صافيةً صرّ في الجنان ودعني أسكن النارا

ويروى أن بعض جلسائه ومجونه طويلاً وعزموا على ترك صحبته، فقال لهم: ويحكم والله إني لأعلم ما تقولون، ولكن المجون يفرط علي، وأرجو أن أتوب ويرحمني الله ثم قال:

أيةَ نارٍ قَدحَ القادحُ وأيَّ جَدٍّ بلَغَ المازحُ
لله درُّ الشيبِ من واعظٍ وناصحٍ لو حذرَ الناصح
يأبى الفتى إلا اتباع الهَوى ومَنهَجُ الحقِّ لهُ واضحُ
فاعمد بعينيكَ إلى نِسوةٍ مُهورُهُنَّ العملُ الصالح
لا يجتلي العذراءَ من خدرها إلا امرؤٌ ميزانُهُ راجحُ

من اتقــى اللهَ فــذاكَ الــذي سيقَ إليــهِ المتجــرُ الرابــحُ
فاغــدُ فما في الدينِ أُغلوطــةٌ ورُحْ بِمَــا أنتَ لَــهُ رَائِــحُ

لقد صدر هذا القول المؤمن الحكيم عن أبي نواس وهو في ذروة الخطيئة، هذا كان إرهاص بأن ذلك الغــارق في الآثام سوف يعود يوماً إلى مرفأ التوبة ورحاب الإيمان وطلب الغفران. ثم خمت فيه قوة الشــباب وفارقته أيام الهناء والرخاء فرأى ماضياً متهتكاً وفرصاً ضائعة ونفساً شائبة بالمعاصي فصاح آسفاً :

دب فيّ الفناء سفلاً وعلواً وأراني أموت عضُواً فعضوا
ليس من ساعة مضت لي إلا نقصتني بمرها بي جزوا
ذهبت جدّتي بطاعة نفسي وتذكرت طاعة الله نضوا
لهف نفسي على ليالٍ وأيامٍ تمليتهنّ لعباً ولهواً
قد أسأنا كل الإساءة فاللهم صفحاً عنّا وغفراً وعفوا

ويعود إلى نفسه بعد رحيل أيام الشباب بعزها وطيشها، ويجد حاله ملقياً أمام تاريخ من العثرات جثة هامدة، لا حول له ولا قوة إلا بطلب الصفح من الله، ومن غير الله يعفو ؟ :

حتى إذا الشيب فاجاني بطلعته أقبح بطلعة شيب غير مبخوت
عند الغواني إذا أبصرن طلعته أذنّ بالصرم من رد وتشتيت
فقد ندمت على ما كان من خَطَلٍ ومن إضاعة مكتوب المواقيت
أدعوك سبحانك اللهم فاعف كما عفوت يا ذا العلى عن صاحب الحوت

ولكنها بدت توبة مؤقتة محكومة بلحظات قليلة في كثير من الأحيان على منهج أصحاب الإرجاء، وما أكثر لحظات الندم في بعض المواقف كهذه، ولكن هيهات هيهات لمن يتعظ ويعتبر قبل فوات الزمن؟ :

يارب إن عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمتُ بأن عفوك أعظم
إن كــان لا يرجــوكَ إلا محسنٌ فبمــن يلــوذُ ويستجيرُ المــجرم
أدعوك ربِّ كــما أُمرتَ تضرُّعا فإذا رددتَ يدي فــمن ذا يرحم
مالي إليك وسيلة إلا الرجا وجميل عفوك ثم إني مسلم

إن أبا نواس يؤوب أخيراً من رحلة العصيان الطويلة إلى رحاب الله مقراً بذنوبه، فيؤدي فريضة الحج مــع المكــبرين وهــو يطوف بالبيت العتيق، فتنهمر دموعه لوعة وحسرة ويلبي مناديا:لبيك اللهم لبيك.لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك. وتنساب إلى قلب الشاعر ومضــات الإيمان لتصب في وجدانه، فيتذوق روحانيتها ويحس بالبون الشاسع بين حياة البعد عن الله

والقرب إليه فتوحي إليه التلبية بهذه المفاجأة التي ابتدأ إيمانه وجدد من خلالها ثوب شعره فقال:

إلهنا ما أعدلكْ مليكَ كلِّ من ملك

لبيكَ قد لبيتُ لك

لبيكَ إن الحمد لك والملكَ لا شريك لك

ما خابَ عَبدٌ سألك أنتَ له حيث سلك

لولاكَ يارب هلك

لبيكَ إن الحمد لك والملكَ لا شريكَ لك

كلّ نبيٍّ وملك وكلُّ من أهل لك

وكلّ عبدِ سألك سَّبحَ أو لبى فلك

لبيكَ إن الحمد لك والملكَ لا شريكَ لك

والليلِ لما أن حَلكْ والسابحاتِ في الفلك

على مجاري المنسلك

لبيكَ إن الحمد لك والملكَ لا شريكَ لك

اعملْ وبادر أجلك واختم بخيرٍ عملك

لبيكَ إن الحمد لك والملكَ لا شريكَ لك

ويتفكر أبو نواس في مصير كل حي، ولكن بعد أن انقضت حدته حسب تعبيره فيرعوي، ويستجيب إلى نداء عقله، بعد أن كان لا يستجيب إلا إلى نداء نزواته، ويذكر القيامة ويرجو عفو الله، فيعبر عن ذلك في قوله:

انقَضَتْ شِرَّتي فعفتُ الملاهي إذ رَمَى الشَّيبُ مفرقي بالدَّواهي[78]

ونهتْني النُّهى فملتُ إلى العدل وأشفَقتُ من مَقالَة ناه[79]

أيُّها الغافلُ المقيمُ على السهو ولا عذرَ في المُقامِ لِساه

لا بأعمالِنا نُطيقُ خلاَصاً يوم تبدُو السماءُ فوق الجباه[80]

غير أنّي على الإساءَةِ والتفريط راجٍ لُحسنِ عفْوِ اللهِ[81]

[78] -شرتي:والمقصود شرة الشباب أي حدته ونشاطه.

[79] -النهي :يقصد به العقل.

[80] -يقول:إن يوم القيامة وهو اليوم الذي فيه تقترب السماء من الجباه لا يكون الخلاص من الهول بالأعمال.

[81] -التفريط :التقصير.

الــندم عــلى الذنب يورث الحكمة، ويصحو المؤرق من وخز الضمير وثقل الذنب، يتفكر في الدنيا ونهايتها وفنائها، ويكشف أنها خدعته حين ازدانت له وتقمصت ثوب صديق، إن هذه المعاني الحكيمة وقرت في قلب أبي نواس وعقله وخاطره فصاغتها شاعريته الفذة في هذه الأبيات:

وما الناسُ إلا هالكٌ وابن هَالكٍ   وذُو نَسَبٍ في الهَالكِيــنَ عَــرِيقِ
فَقُــل لِغَرِيبِ الدارِ إنكَ ظــاعِنٌ   إلى مَنــزِلٍ نــائي المحــلّ سَحِيقِ
إذا امتَحنَ الدُنيَا لبيبٌ تَكشَّفَت   لــهُ عن عَدُوٍّ فــي ثِيَابِ صَديــقِ

لقــد كانت نهاية رحلته عودة إلى الله وتوبة من الذنب وندماً على الخطيئة، صورها في الفترة الأخيرة من حياته بشعر صادق الإحساس عميق الابتهال، على أنه لا يجوز أن نحصر الحكم على فن الشاعر في مــنطقة الشرائع الروحية والاجتماعية التي اتفق عليها المصلحون والمهذبون. فالشعر لا يتقيد بذلك ولــيس جماله قائما على مافيه من عبر وإرشاد، بل على ما يتجلى فيه من شعور وحياة، فالأدب فنٌ تتجلى فيه خوالج النفس وعلى هذا التجلي تتوقف منزلة الشاعر الفنية.

إن أبا نواس لم يزهد لتجدد في طبيعته، بل مات كما عاش وقد ترك لنا شعراً يحفظ لا لسمو عواطفه، ولكن لخفة روحه وجمال صنعته ولتمثيله الخلاب لحياته وحياة بيئته.ولدى تحليل شخصيته بدا سلوكه المنحرف واضحاً في إطلاق العنان لرغباته ونزواته بكل جرأة بعيداً عن الحياة وقيمها السامية، لقد دعا إلى الانحــراف قولا وفعلاً، ومارسه علنا في وقت كان الأجدر به عدم المجاهرة، لكنه اختط طريقاً لا يحســد عليه، وبذلك ترك وصفاً للمشاعر والأحاسيس والانفعالات من خلال إسقاطه لتلك المشاعر الجياشــة، وذلــك وفق تداعيات الخمر وتأثيراتها ومجونه، وبكل الأحوال سلط الضوء في شعره على مكــنونات الــنفس وهمها في أرواء شهواتها وملذاتها.وتعرض بسلوكه وشعره للقيم وجاهر بذلك الانحراف علنا، مما يؤكد انحرافه اجتماعياً ونفسياً عن جادة السلوك السوي، وهذا ما أوردته المصادر التاريخية عنه.

<u>ورحم الله جبران خليل جبران حين يقول</u>:

يا نفسي ، يا نفسي، كيف أستطيع أن أقود سيرك، وإلى أي فضاء أدير شوقك؟ أنــت تحمليــن ســفينتك إلى الشاطىء، وهي مثقلة بأحمال الرغبات، فمن أين تأتي الــرياح لــتملأ شــراعك، وأي مدّ فياض يقدر أن يحرر دفتكِ؟ إن مرساتك حاضرة وجناحــيك علــى أهبة الطيران، ولكن السماء صامتة فوقك، والبحر الهادىء يهزأ بسكونك؟ فأي رجاء لك؟.

حكمة:

(لا خير في القول إلا مع العمل، ولا خير في الحياة إلا مع السرور، ولا في الصداقة إلا مع الوفاء، ولا في المال إلا مع الجود).

إذا انتهى الإنسان من حل جميع أسرار الحياة، فهل تتوق نفسه إلى الموت لأنه سر من أسرار الحياة ؟ إنه أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي الذي ولد في مدينة منبج شرق مدينة حلب السورية سنة **831**م وتوفي سنة**898**م، وقد أخذ أبا تمام يتولى البحتري وبتعهده تعهد البستاني الحاذق للنبتة الطيبة، كي تؤتي ثمرها سوية جنية، ويعبد له طريق الشعر ويرسم له مناهجه، سيما أن البحتري يتملك شاعرية أصيلة ثرية العطاء، واستعداداً لم يتوافر لغيره من الشعراء المعاصرين له.فيجلس البحتري إلى أبي تمام ذات يوم ويلقي المعلم على مسمع تلميذه:

وسابحٍ هَطِلِ التَّعداءِ هَتانِ ... على الجِرَاءِ أمينٍ غيرِ خَوانِ
أظمَى الفصُوصِ ولم تظمأ قوائمه ... فخلّ عينيكَ في ظمآنَ ريانِ
فلو تراه مُشيحاً والحصى رِمضٌ ... بين السنابِكِ من مَثنى ووُحدانِ
أيقنتَ إن لم تثبت أن حافرهُ ... من صَخرِ تَدمُرَ أو من وجهِ عُثمانِ [82]

وبعد انتهاء أبو تمام من إنشاد هذا الشعر، يسأل التلميذ(البحتري): ما هذا الشعر؟ فيجيب البحتري بأنه لا يدري، ويعلمه الأستاذ شيئاً جديداً في فن الشعر قائلاً: هذا المستطرد أو الاستطراد، فيسأل التلميذ معلمه: وما معنى هذا ؟ فيجيبه: أنه يريد وصف الحصان في عدوه، وفي الوقت نفسه يريد هجاء عثمان. ويثمر هذا الدرس في التلميذ، فلا يلبث أن يسير على النهج نفسه، ويسلك الطريق ذاها، فيهجو حمدوية الأحول من خلال مديحه لمحمد بن علي بن عيس القمي الكاتب، ووصفه للفرس والسيف وذلك قوله:

وأغرّ في الزمَنِ البَهيمِ مُحَجلٍ ... قد رُحتُ منهُ على أغرَّ مُحَجلِ
كالهيكلِ المبني إلا أنه ... في الحُسنِ جاءَ كصورةٍ في هيكلِ
وافي الضلوعِ يُشدُّ عَقدُ حِزامه ... يومَ اللقاءِ على مُعَمٍّ مُخولِ
أخوالُه للرُّستُميينَ بفارسٍ ... وجُدودهُ للتُبعينَ بمُوكلِ
يهوي كما هَوي العُقابُ وقد رأت ... صيداً وينتصبُ انتصابَ الأجدلِ
مُوجسٌ برقيقتينِ كأنما ... تُريانِ من ورقٍ عليه مُوصلِ

---

[82] -عثمان بن إدريس الشافعي.

ما إن يَعَافُ قــذىً ولــو أوردته   يومــاً خَــلائِقَ حمدويــه الأحــول

لقن أبو تمام البحتري صناعة الشعر، وكان البحتري يلتزم نصائح إستاده، أميناً، حتى لو أدى به ذلك إلى مواطن المؤاخذة، وظل متصلاً بأبي تمام مرتبطاً به، يسمعه شعره، فيطرب المعلم لجودة شعر تلميذه بالــرغم مــن فارق الفكرة والأسلوب عند كليهما.وتمضي الأيام بكل من المعلم والتلميذ حتى يبلغ التلمــيذ ذروة إجادته، وذات مرة يقول له الحسين بن إسحاق: إن الناس يزعمون أنك أشعر من أبي تمــام، فيجيبه البحتري في تواضع ووفاء: والله ما ينفعني هذا القول ولا يضر أبا تمام، والله ما أكلت الخبز إلا به، ولكني والله تابع له، آخذ منه، لائذ به، نسيمي يركد عند هوائه، وأرضي تنخفض عند سمائــه.وهكــذا يظــل الشــاعر الكبير وفياً لمعلمه أبي تمام لا يسمح لأحد أن يساويه به أو يفضله عليه.الوفاء صفة جميلة، وكان البحتري بالنسبة إلى معلمه أبي تمام وفياً تمام الوفاء كله، لكن البحتري عــلى رغم ما أصاب من مقام مرموق ومال وفير وضياع عديدة، كان قبيح الوجه أسمر اللون طويل اللحــية، ثقيل الظل يتزاور في مشيه ذات اليمين وذات الشمال، ويقال عنه أنه شديد البخل، رث الهيئة قذر الثياب، بل فيما يروي الأصفهاني(من أوسخ خلق الله ثوباً، وأبخلهم على كل شيء، إلى حد إنــزال الضرر بمن وضع الله مسؤولية إطعامهم في عنقه، فقد كان يساكنه في داره أخ له وغلام معه، فكــان يقتلنهما جوعاً، فإذا بلغ منهما الجوع مبلغه أتياه يبكيان، فيرمي إليهما بثمن أقواتهما مضيقاً مقتراً ويقول: أجاع الله أكبادكما، وأطال إجهادكما. وللبحتري في بخله طرائف أشبه بنوادر سهل بن هارون، ومفارقات مروان ابن أبي حفصة، ولو لحق به الجاحظ، لما أفلت منه في كتاب البخلاء.ويروي أبــو الفرج عن أبي مسلم بن الأصفهاني الكاتب، أنه دخل يوماً على البحتري، فاحتبسه عنده ودعا بطعــام له ولنفســه، ودعاه للأكل فاعتذر أبو مسلم، وكان عنده شيخ لم تكن للأصفهاني به سابق معــرفة، فدعاه إلى الطعام، فتقدم وأكل أكلاً عنيفاً فغاظه ذلك، والتفت إلى الأصفهاني قائلاً: أتعرف هذا الشيخ ؟ قال: لا قال: هذا شيخ من بني الهجيم، الذين يقول فيهم الشاعر:

وبــني الهجُــيم قَبيلــةٌ ملعُونــةٌ   حُصُ اللّــحَى مُتَشَــابِهــوُ الألوَانِ[83]

لــو يَسمعونَ بــأكَــلةٍ أو شَــربــةٍ   بِعــمانَ أصبَــحَ جَمعُــهُم بعــُمَانِ

يهجو هذه القبيلة، من خلال تهافتهم وجريهم خلف الطعام إلى أقاصي المعمورة حتى ولو كان في (بلاد عُمان) بسبب جشعهم للطعام ونهمهم وشغفهم به، ومما يزيد في قبح بخل البحتري أن أبنه أبا الغوث ما كان يتحرج من ذكر بخل أبيه.فقد كتب إليه يوماً يطلب نبيذا، فبعث إليه بنصف قنينة(دُردي)،

---

[83] -حصى اللحى: كناية عن شومهم.

وهـــو عكـــر النبيذ، وأرفق بها ورقة كتب فيها: دونكها يا بني فإنها تكشف القحط وتقيت الرهط. والبحتري مشهور بكثيرة الشراب، شأن أهل زمانه وزاده انحرافا بترديه في رذيلة الولع بالغلمان، فقد كان كثير الإفساد لهم، وله قصص مخجلة كثيرة، لم يرع فيها حرمة صديق أو جميل محسن إليه، وكان له غلام اسمه نسيم يبيعه إلى أهل المروءات، ثم يتظاهر بالندم على بيعه حتى يهبه إليه المشتري. وكان البحتري متقلباً قليل الوفاء لمن أحسن إليه، باستثناء وفائه لأبي تمام، وفيما عدا ذلك فلم يكن له مبدأ يلـــتزمه في تقييم علاقاته بالناس والوفاء لمن أحسن إليه منهم، إن المنتصر العباسي يقتل أباه المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان رب نعمة البحتري والمحسن إليه والمغدق عليه، وتتم المجزرة الكبرى في قصر المتوكل في حضور البحتري نفسه، ويخرج من المذبحة بضربة في ظهره، ومع بشاعة الجرم الذي ارتكبه الابن العاق، فإن البحتري ما تردد لحظة في أن يمدحه وكان الأجدر به ألا يفعل، فقد كان من الغنى واليســـر بحيث يستطيع العيش بعيداً عن عطايا الملوك، ولكن البحتري الماكر يختار مناسبة فعل فيها المنتصـــر صـــنيعاً نال إعجاب الناس، حين أمر بإكرام الطالبيين ورفع الأذى عنهم، وإجراء الأرزاق علـــيهم، وقد كان ملوك العباسيين قد منعوهم وحرموهم الكثير من حقوقهم. فينهض لمدح المنتصر بأبيات يقول فيها:

تَبسمُ عـــن وَاضـــحٍ ذي أُشُر وتَنَظُـــرُ من فاتـــرٍ ذي حَـــور

رَددَتَ المظـــالـــمَ واسترجَعَت يَدَاك الحقـــوق لمـــن قد قُهِـــر

وآلُ أَبـــي طـــالبٍ بعد مـــا أذيـــعَ بِسرِبِهُـــمُ فـــا بذَعَـــر

يمدحه بالمعطاء للخير في ساعات العوز والفاقة، وبرافع الظلم عن آل أبي طالب الذين عانوا ويلات الحـــرمان وكابدوا بلاء الرزايا، فكان الخليفة المنتصر لهم بعطائه كالصبح المنير المشرق، ولا بأس في ذلك، ولكن قمة التقلب والنفاق، ونكران الجميل تقع في قوله في عاق الأبوة وقاتلها:

حَجَجنَا البَنِيةَ شُكراً لِمـــا حَبَانـــا بِـــه اللهُ فـــي المنتصـــر

يشـــيد بفضائل المنتصر ويجعله حجة دامغة بفعل الخيرات ونشر المكرمات، وإسباغ النعم والفضائل على الجميع، ولا يقف الأمر به عند هذا القول، وإنما يجعل منه الحازم العادل التقي الذي أنقذ الرعية مـــن الفتنة وثبت أركان الملك، ومن تقلبات البحتري الغالية في النفاق، أنه كان من المعتزلة في أيام الواثق يقول بخلق القرآن في سياق قصيدته، والتي مدح بها أبا سعيد الثغري ومن خلالها هجا الشراة:

يَرمُونَ خَالقَـــهَم بأقبَـــحِ فِعلِـــهِم وَيُـــحرِّفُـــونَ كَلاَمَـــهَ المخلُوقَـــا

يهـــاجم الـــناكرين لمسألة خلق القرآن الكريم، ويتهمهم بالزندقة والكفر والعصيان، ويندد بأفعالهم القبـــيحة، والـــتي تعد شاهداً على طغيانهم وعصيانهم بتحريف كلام الله عز وجل شأنه، ولقد ساءله

بعض أصدقائه في ذلك: أصرت قدرياً معتزليا، فأجاب: كان هذا ديني أيام الواثق ثم نزعت عنه في أيام المتوكل، وهذا صحيح، فإنه لما غضب المتوكل على أحمد بن أبي داؤد الذي تطرف في الأعتزال، وأمر بالعودة إلى السنة، انبرى البحتري لهجاء أبن أبي دؤاد ومهاجمة المعتزلة، وقد عمد إلى هجائهم فيقول مشيرا إلى أبي داؤد وأصحابه:

إذا أصحابهُ اصطبحوا بليلٍ أطالوا الخوض في خَلقِ القرآنِ

يُديرونَ الكئوسَ وهم نشاوى يحدثنا فلانٌ عن فُلانِ

يصفهم بأهل الغواية والضلالة وذلك بنقاشهم وبتداولهم مسألة خلق القرآن، وفي الوقت نفسه يراهم سكارى بجهلهم في عدم فهم نصوص النقل عن بيان العقل، ويبتدعون الأقوال لفلان عن فلان، فالبحتري معتزلي في أيام الواثق، سني في أيام المتوكل، شيعي في أيام المنتصر، ولاشك في أنه ما كان ليجد حرجاً في أن يتحول إلى مذهب آخر، ولبئس ما كان يفعل.والبحتري أحد الشعراء الأثرياء الذين يملكون ضياعا مجاورة لضياع عبد الله بن المعتز، وكان له ضياع أخرى تنازعه وتخاصمه فيها جارية اسمها" أمل" جارية الفتح بن خاقان، وعندما تمت مطالبة الناس في أيام المعتمد برد القطاعات، رفض البحتري الانصياع والامتثال لذلك، فكان يستنكر ذلك قائلاً:

أَمُرتجعٌ مِني حِباءُ خلائفٍ تَوَليتُ تَسييرَ المديحِ لهم وَحدي

لم يكن البحتري على ثرائه الواسع يسدد خراج أملاكه لبيت المال، بل كان يلزم إبراهيم بن المدبر الكاتب كل سنة، أن يُسقط عنه الخراج أو يسدده عنه.وإذا كان اثنان لا يشبعان: طالب علم وطالب مال، فقد كان البحتري ذلك الطالب الثاني، ومما يروى عنه أراد أن يشتري ضيعة فذهب يستميح إبراهيم بن المدبر في شرائها، فلامه لكثرة ضياعه وقال له: تكفيك ضياعك فقد كثرت وعظمت، ولكن البحتري ما زال به حتى أتم له الصفقة وفي ذلك يقول:

ولِمْ لا أُغالي بالضِّياعِ وقد دَنا عليَّ مَداهَا واستقَامَ اعوِجَاجُها

إذا كان لي تربيعُها واغتلالها وكانَ عَليكَ كُلَّ عامٍ خَرَاجُها

أفعال البحتري لم تكن كلها سيئات، إذ لو كان الأمر كذلك ما نال احترام بعض فضلاء زمانه، فالعالم الجليل أبو العباس المبرد لم يقف للناس، فإذا ما رأى البحتري وقف له إجلالاً واحتراما.و للبحتري أراء تعني التدخل في أمور الدولة بقصد تصويب بعض الأخطاء، منها لرفع غبن ووقع ضرر على مظلوم. ومما يروى إن أبا سعيد الثغري كان عليه الآتيان بمال بعد غزوته المشهورة، وسلم إلى أبي الخير النصراني الجهبذ ليستخرج المال منه فجعل يعذبه، فشق ذلك على المسلمين، فقال البحتري أبياتا لينبه الحكام ويترجم عن مشاعر الناس:

يا ضيعةَ الدنيـا وضيعةَ أهـلها والمسلمينَ وضيعةَ الإسلامِ
طلبت دُخولُ الشركِ في أرضِ الهُدَى بـينَ المـدادِ وألسنِ الأقـلامِ
هذا ابن يوسف في يدي أعدائه يُجزى عـلى الأيـام بالأيـام
نامت بنو العباسِ عنـه ولم تكن عنـه أميـة لو رعت بنيـام
يتحسر البحتري على ما آلت ووصلت إليه الأمور من فساد، حتى راح يشكو جباة الدولة بمماطلتهم بالعزوف عن استلام أموال الخراج بزعم عدم كفايتها وتمامها، وللأسف نسي نفسه بعدم تسديد ما عليه من التزامات مالية، ويحذر بني العباس من النوم والسكوت على هذه المفاسد التي ينفذها موظف الدولـة أبي الخـير النصراني، مشيراً أن هذا الأمر لم يحدث في عهد بني أمية قط، ولو حدث لعالجوه بسرعة، على أن ذلك لا ينفي أنه كانت للبحتري خفة روح وحضور بديهة، ومما يروى أنه كان ذات مـرة في مجلـس شراب للمتوكل، وقد اجتازت جارية مليحة بالمتوكل ومعها كوز ماء. فقال لها ما اسمك؟ قالت: برهان. قال: ولمن هذا الماء؟ قالت: لستي قبيحة، قال صبيه في حلقي، فشربه عن أخره، ثم قال للبحتري: قل في هذا شيئاً فقال:
ما شربةٌ من رحيقٍ كأسُها ذَهبٌ جاءت بها الحور من جنات رضوان
يوماً بأطيبَ من ماءٍ بـلا عطشٍ شَرِبتُـهُ عبَثاً من كفِّ بُرهانِ
هنيـئاً لشربة ماء؛ من جنة رضوان ولاسيما من يد جارية تمنحها لسيدها المتوكل، الذي أسره جمالها فجعلـه بأشـد العطش لشرب الماء، لما لها من قوام فتان وجمال ورشاقة يسحر القلوب، وللبحتري طـرائف أخرى كثيرة وأغلبها مرتبطة بالشعر وليست بالنكتة العابرة أو الحركة الساخرة، فإذا جاء الحديث عن شعر البحتري ومدى تقيم جودته، وتقدير النقاد له، فها هو يقول لابنه أبي الغوث: أعلم يابني أن قول أبيك:
دنوتَ تواضعاً وعلـوتَ قَـدراً فَشَأنَـاكَ انحـدارٌ وارتفـاع
كذاكَ الشمسُ تَبعُـدُ أن تُسامى ويدنُو الضَّـوءُ منهـا والشُّعاع
يبين لابنه أن سنة الحياة ومسارها يتغير من حال إلى حال، فتارة يعلو نجم الفرد وحيناً يبهت ضؤوه، وهكذا شأننا مع الحياة شأن ضياء الشمس وأشعتها، ويفخر البحتري بشعره ويعبر عن مدى تأثيره في صنوف البشر بقوله:
أَهزُّ بالشِّعرِ أَقواماً ذوي وسَنٍ في الجهلِ لو ضُرِبُوا بالسيفِ ما شعَرُوا
عليّ نَحتُ القَوافِي من مَقَاطِعِها وما عَليَّ إذا لـم تَفهـَم البَقـرُ
وإذا كان البحتري قد وصف شعره في ثوب الفخار في الأبيات السابقة فإنه يصف مذهبه وطريقته في

شعره في هذه الأبيات حيث يسوقها:

في نظامٍ من البلاغة ما شكَّ   امرؤٌ أنّــهُ نظــامُ فريــدِ
حُزنَ مُستعمَلَ الكلام اختياراً   وَتَجنبــنَ ظُلمَــةَ التعقيــدِ
وركِبنَ اللفظَ القريبَ فأدركنَ   بِــهِ غايــةَ المُــرادِ البّعيــدِ

يشــير إلى قدرته الفائقة في حبك المعاني ونسجها واستخدامها في مقامها المناسب، والذي لا يخلو من التعقيد، وليس بالسهولة كما يراد له، ويمضي في مدح الحسن بن وهب من قصيدة فريدة فيقول:

وإذا دّجّتْ أقلامُــهُ ثم انتحت   برقت مَصابيحُ الدُّجى في كُتبهِ
باللفظ يَقــرُبُ فَهمُــهُ في بُعدِه   منا ويَبعُــدُ نَيلُــه في قُربــهِ
حِكَمٌ فَسَائحُهــا خِلاَلَ بَنَانــهِ   مُتَــدَفقٌ وَقَلِيبــها مــن قَلبــهِ
كالروضِ مُؤتَلقٌ بِحُمــرةِ وردِهِ   وأنيقِ زَهــرتهِ وخُضــرةِ عُشبهِ
أو كالبرُودِ تُخيرَت لِمُتــوَّجٍ   من خَالهِ أو وشيِهِ أو عَصبــهِ
وكأنهــا والسمعُ معقُــودٌ بهــا   وجَهُ المُحَبِّ بَدَا لعيــنِ مُحِبــهِ

يصف براعة الحسن بن وهب وعلمه بالأنوار المشرقة، التي يهتدي بها التائه وهو في أحلك الظلمات، ويبين أن بيانه السهل، وحكمه المتدفقة لعذبة المذاق والطعم، وكأنها روضه غناء تسحر بعبقها المعجبين بهــا، فيشعر السامع بنشوة السعادة الغامرة من تلك الأقوال السديدة، ويندفع البحتري يطرق معاني الحكمة:

إذا مــا الجُرحُ رُمَّ عــلى فسادٍ   تَبَينَ فيــهَ تفــريط الطبيبِ
ولن تستبينَ الدهــرَ موضِــعَ نِعمةٍ   إذا أنتَ لم تدلل عليها بحاسدِ
ولم أرَ أمثالَ الرجال تفاوتــاً   لَدَى المجد حتى عُدَ ألفٌ بواحدِ

يــبين أن الوقــائع الشــديدة تجلو عوارض الحقائق، وهي البرهان على الاختبار الحقيقي، وأن فساد الجــرح، يــرجع لجهل الطبيب وقلة خبرته وضعفه في حرفته، وإن النعم لا تعرف إلا بتكالب الناس علــيها، وحســدهم لها وتمنيهم زوالها عن غيرهم، وإن رجال المروءة والشهامة لا يعرف عددهم إلا بالمقارن مع الآف الرجال، ومن فن القول في الحكمة التي صاغها في ثوب من اللفظ قوله:

إذا المرءُ لم يَرضَ مــا أمكنــه   ولــم يــأتِ من امــرِهِ أزينــهْ
وأعجبَ بالعُجــبِ فاقتــادَهُ   وتــاهَ بــه التــيهُ فاستحسنه
فَدَعــهُ فقــد سِــاءِ تدبِيــرُهُ   ســيضحَكُ يومــاً ويبكي سَنَــهَ

يبين أهمية العقل ووظائفه النفسية في إدارة أفعال الإنسان وسلوكه، وإن ذلك مرهن بمعرفته لقدراته

وتقديره للأمور، وهذا مرتبط بفهمه وإدراكه ووعيه، و ينبه بعدم الحزن والقلق على هؤلاء الجهلة، فسيؤول أمرهم إلى المهزلة والتندر، وهنا يبرز علم البحتري بغرائز النفس وقوى العقل ووظائفه وقدراته على توجيه السلوك وتحمل المسؤولية. لقد كان البحتري شاعر زمانه، فمضى يمدح المتوكل ويصف موكبه يوم عيد الفطر في طريقه إلى المسجد لصلاة العيد:

أخفي هوىً لكَ في الضلوعِ وأُظهِرُ ... وأُلامُ في كَمدٍ عليكَ وأعذرُ

وأراكَ خُنتَ على النوى من لم يُخن ... عهدَ الهوى وغدرتَ من لا يغدرِ

وطلبتُ منك مودةً لم أُعطها ... إن المُعَنى طالبٌ لا يظفر[84]

هل دَينُ "علوة" يُستطاعُ فيُقتضَى ... أم ظُلمُ علوةَ يستفيقُ فيقصِر[85]

بيضاءُ يعطيكَ القضيبُ قوامها ... ويُريكَ عَينيها الغزالُ الأحور

إني وإن جانبتُ بعضَ بطالتي ... وتَوَهَّم الواشون أني مُقصِر

لَيشوقني سِحرُ العُيونِ المُجتَلى ... ويَروقُني وردُ الخدودِ الأحمر

يقف على الأطلال ويبكي (علوة) التي تغير حالها بمرور الأيام، ويصعب منالها والوصول إليها، ولا يعبأ بما يقوله الواشون واللائمون، ويبين أنه مازال يخفي في جوارحه لوعة الحب لها ومرارة الهجر منها، ثم ينتقل فجأة إلى مدح الخليفة:

اللهُ مَكنَ للخليفةِ جعفرٍ ... مُلكاً يُحسنُهُ الخليفةُ جَعفرُ

يشير إلى عطاء الله وكرمه الوافر للخليفة وما من عليه من خيرات وحسن خلق، وانقياد الأمور إليه، حيث راحت ترحب به الوفود، وتهلل مبتهجة فرحة به خليفة يصون الأمانة ويحمي الأمة، فبعد التهنئة بالفطر والعيد يصف الشاعر موكب الخليفة وصفاً رائعاً، بدءاً من صهيل الخيل، وخيلاء الفرسان ولمعان السيوف واشتهار أسنة، حتى يكاد يجعلك في ميدان معركة حقيقة أو حرب وليس إلى موكب عيد:

نُعمى منَ اللهِ اصطفاهُ بفضلها ... واللهُ يرزُقُ من يَشاءُ ويقدِرُ

فاسلم أميرَ المؤمنين ولا تَزلْ ... تُعطى الزيادةَ في البقاء وتُشكرُ

عَمت فَواضلُكَ البريةَ فالتقى ... فيها المُقلُ عَلى الغِنَى والمكثرُ

بالبرِ صُمتَ وأنتَ أفضلُ صائمٍ ... وبِسُنةِ اللهِ الرضيةِ تُفطرُ

فانعمْ بيومِ الفِطرِ عَيناً إنهُ ... يومٌ أغرٌّ منَ الزمَانِ مُشهر

---

[84] -المعنى:الذي يتكلف الأمور ويريد الحصول عليها بسرعة ومن كل وجه.

[85] -علوة بنت زريقة الحلبية: والمقصود اسم حبيبة البحتري في حلب.

أظهرتَ عزَّ الملكِ فيـهِ بجحفلٍ لجبٍ يُحاطُ الدينُ فيـه ويُنصَر

يجعـل أمـير المؤمـنين نعمـة أصـبغها الله على خلقه، ويشير إلى مكرماته في الإحسان التي ملئت الأفاق،ويهنئه بعيد الفطر:

خلنا الجبَالَ تسيرُ فيه وقد غَدت عُدَداً يسيرُ بـها العديـدُ الأكثر

فالخيلُ تصهلُ والفوارسُ تَدعي والبيضُ تَلمَعُ والأسنةُ تزهرُ

والأرضُ خاشعةٌ تميدُ بثقلـها والجوُ مُعتكـرُ الجوانبِ أغبـر

والشمسُ ماتعةٌ توقدُ في الضُّحى طوراً ويطفئُها العجاجُ الأكـدر

حتى طلعتَ بضـوءِ وجهكَ فانجلى ذاكَ الدُّجى وانجـاب ذاك العثِير

جعل جمال الخليفة يفوق إشراقة الضحى بسبب كرمه،فبدأ وجهه ساطعاً كالشمس التي تشق غياهب الظلام:

وافتنَ فيـك الناظرون فإصبـعٌ يُوما إليـك بـها وعينٌ تنظـرُ

يجدونَ رؤيتَك الـتي فـازوا بـها من أنعُم اللهِ التـي لا تُكفَـرُ

ذكـروا بطلَعتِـكَ النـبي فهللوا لـما طَلَعتَ من الصفُوف وكبروا

حتى انتهيتَ إلـى المُصـلّى لابساً نُورَ الهـدى يبدو عليـك ويظهر

ومشيتَ مِشيَةَ خـاشعٍ مُتواضعٍ للـهِ لا يُزهـى ولا يَتَكبَـر

فَلَـوّ أن مُشتاقاً تكلفَ فوق مـا في وسـعهِ لمشى إليـك المنبَـرُ

إبداع فني تتجلى فيه مهارة البحتري الفائقة في إجادته الوصف، وتمثله للبيان الفصيح و اللفظ المعبر عن إدراكه ومعرفته الواسعة بالانفعالات النفسية، وكيف يصورها فيجعلها طوع بنانه، فيصف الخليفة وموكبه أدق الوصف، ويبين كيف تهفو إليه حشود الناس، لتهنئته بالعيد، حتى المنبر يتلهف لمصافحة الخليفة والمباركة له بالعيد. وكان الفتح بن خاقان وزير المتوكل وصفيه، فهو شاعر أديب، كريم بهي الطلعـة وقـور المجلس، وله الفضل في وصل البحتري بالمتوكل، ولهذا فإن للبحتري قال العديد من القصائد في مدحه ومنها:

هَبِ الدارَ ردت رَجعَ ما أنتَ قائلُه وأبدى الجوابَ الربعُ عما تسايلُه

أفي ذاكَ برءٌ من جوىً ألهبَ الحشا توَقُدُهُ واستغزَرَ الدمـعَ جائلُـه

هو الدمـعُ موقوفاً على كل دِمنةٍ تُعرِّجُ فيـها أو خَليطٍ تُزايلُـه

تُرَادفَهـُم خفضُ الزمـانِ ولِينـهُ وجادَهـمُ طـلُّ الربيعِ ووَابلُـه

ولـما حَضرنا سُدةَ الإذنِ أُخـرَت رجَالٌ عن البابِ الذي أنا داخلُه

فأفضَيتُ من قُربٍ إلى ذي مُهابــة   أقابلُ بدرَ الأفـقِ حـينَ أُقابلُـه
إلى مُسرفٍ في الجودِ لو أن حاتماً   لديه لأمسى حاتـمٌ وهـو عاذلُه
بَدا لــي محمُودَ السَجيةِ شُمرت   سرابيلُه عنهُ وطالـت حَمَائلُـه
كما انتصبَ الرمحُ الردينيُّ ثقُفت   أنابيبــهُ للطعنِ واهتــزَّ عاملُــه
وكالبَــدرِ وافتــهُ لِتَــمٌ سُعُودُهُ   وتَمَّ سنَــاهُ واستَقلت منَازلــه
فَسلمتُ واعتاقت جَنَــانيَ هَيــبةٌ   تُنازِعنــي القَــولَ الذي أنــا قائله
فلما تأملتُ الطَلاَقَــةَ وانثــنى   إلــي ببِشــرٍ آنستني مخايلُــه
دنوتُ فَقَبَلتُ الندىَ في يَدِ امرىءِ   جميلٍ مُحيــاهَ سَبَــاط أناملُــه
صفَتْ مثلمــا تصفُو المُــدامُ خِلالُهُ   ورقت كما رقَّ النسيمُ شمائلُـه

يصف البحتري فحولة الفتح بن خاقان وقدرته ومكانته الشعرية بأحلى الصفات، فهو مرجع لا غنى عــنه ولا بد من المرور به، فأدبه وأخلاقه العالية غيث مبارك وربيع دائم للأمة، ويمنحه لجوده وساماً أكثر رفعة من جود حاتم الطائي، فهو كالبدر في تمامه بسجاياه وذلك بكرمه وسعة صدره، فأليه تهفو الــنفوس، لأنــه نسيم الحياة وعطرها الذي يجعل الحياة مليئة بالسعادة، إن المتوكل يزور دمشق سنة **244**هجــرية، والبحــتري شــامي يحب وطنه، ويعتز بسخاء الطبيعة عليه، فيصف الطبيعة الشامية الربيعــية في ركاب المديح وصفاً جديداً خلاباً مردداً أسماء محببة إلى نفسه مثل داريا ودمشق وبردى ويقدم هذه الصورة التي زاوج فيها بين المديح والطبيعة:

العيشُ في ليل "داريا" إذا بَــرَدَا   والراحُ نمزجُهُا بالماء مــن "بردى"
قل للإمام الذي عَمت فواضلــهُ   شرقاً وغرباً فما نُحصي لــها عَدَدا
اللهُ وَلاك عــن علــمٍ خِلافَتَــهُ   واللهُ أعطاكَ ما لــم يُعطِــه أحَدا
وما بعثتَ عِتَاقَ الخيلِ في سَــفَرٍ   إلا تعرفتَ فيــه اليُمنَ والرشَدا
أما "دمشقُ"فقــد أبدت محاسنــها   وقد وفى لك مُطرِيها بــما وَعدَا
إذا أردتَ مَلاتَ العينَ من بلــد   مُستَحسنٍ وزمــانٍ يُشبِــهُ البلدا
يُمسي السحابُ على أجبالها فِــرَقاً   ويُصبِــحُ النبتُ في صحرائها بددا
فلستَ تُبصِرُ إلا واكفاً خَــضِلاً   أو يانعــاً خَضِــراً أو طائراً غردا

ويمــر بغوطــة دمشق فيسحره جمالها الفتان، وتثير فيه لواعج الحنين والذكرى إلى روابي بلاده التي غادرهــا منذ زمن، فيقف وقفة الساهي المشتاق، وها هو اليوم يقف بها متغنياً بحسنها وجمالها في أجمل الوصــف، ويــنوه إلى أن هــذه النعم جاءت بفضل الخليفة ورعايته وحمايته لهذه البلاد التي ازدان

اخضـــرارها فرحاً بخليفة المسلمين. ومن الذين مدحهم البحتري الهيثم بن عثمان الغنوي الذي لعب دوراً كبيراً في السياسة العباسية، وليس المديح في هذه القصيدة من القيمة بحيث يمكن الوقوف عنده طويلاً، وإنما الذي يستوجب الوقوف عنده هو تلك الأبيات الرقيقة الشهيرة في وصف الطبيعة، التي عـــرف البحـــتري بها على جهل كثير من الناس بالقصيدة نفسها، يقول البحتري في آخر مديحته في الهيثم:

أتاك الربيعُ الطلقُ يختالُ ضـــاحكاً　　من الحُسنِ حتى كادَ أن يتكلما
وقد نَبهَ النورُ وزُ في غَلَسِ الدُّجى　　أوائلَ وردٍ كُنَّ بالأمسِ نوَّما
يفتــُقها بَردُ النــدى فــكأنــهُ　　يَبُثُّ حَديثـــاً كانَ أمسِ مكتما
ومن شَجَرٍ رَدَّ الربيـــعُ لباسَـــهُ　　عَليــهِ كَما نَشرتَ وشياً مُنمنما
أحلَّ فأبــدى للعيـــونِ بشـــاشةً　　وكان قذىً للعينِ إذ كانَ مُحرما
ورَقَّ نَسيمُ الريـــحِ حَــتى حَسبتُهُ　　يَجيءُ بـــأنفاسِ الأحبة نُعَّمَـــا
أكانَ الصَبَا إلا خيـــالاً مُسلِّما　　أقَامَ كرجعِ الطرفِ ثم تصرمـــا
أَقِلَّ وأَكْثِر لَستَ تبلــغُ غايـــةً　　تَبينُ بها حتى تضارعَ " هيثمـــا"

عـــدت هذه القصيدة من عيون الأدب في الشعر العربي لما حوته من وصف دقيق، وهذا يؤكد ذكاء البحتري وقدراته العقلية في إضفاء الحركة والكلمة على الموقف، بحيث جعل الأشياء كأن لها مشاعر وعواطـــف تحس وترى، وبذلك يكون قد انفرد بهذه المهارة على سائر الشعراء.ويمضي البحتري في مدح الفتح بن خاقان وربط الطبيعة بصيغة المديح:

عش حَمـــيداً ! فمـــا نذُمُّ زماناً　　جارُنـــا فيـــه فِعلُكَ المحمُودُ
أخذت أمنها مـــن البؤسِ أرضٌ　　فوقها ظِـــلُّ ســـيبكَ الممدود
ذهبت جـــدةُ الشتاءِ ووافـــانا　　شَبيهاً بك الربيـــعُ الجديد
أُفقٌ مُشرقٌ وجـــوٌّ أضـــاءَت　　في سَـنَا نُورِه الليـــالي السود
وكـــأنَّ الحوذانَ والأقحـــوان　　الغضَّ نظمَـــان : لؤلؤٌ وفريدُ
قَطَراتٌ مـــن السحَابِ وروضٌ　　نَثَرت وَردهـــا عليـــهِ الخدود
وليالٍ كُسينَ من رِقـــة الصيفِ　　فَخُيِّلـــنَ أَنهُـــنَّ بُـــرُود
الريـــاحُ التي تهُبُّ نُســـيمٌ　　والنُّجـــوم التي تُطِـــلُّ سُـــعود

يملك موهبة الوصف فيعطي العبارة مدلولها الانفعالي وهذا الميدان ليس بمقدور بعض الشعراء الخوض فيه مثله، فيجعل من الطبيعة المادية كائنا بشرياً تثيره المشاعر بروعة الفعال الحميدة للفتح بن خاقان

وحكمته، تغمره عقود اللؤلؤ والمرجان وقطرات الندى، وكأنها عبق نسيم الصباح الذي يبدع السعادة، وفي قصيدة أخرى للبحتري مدح بها صالح بن وصيف بن شيخ، حيث أعطى اهتماماً كبيراً لنهر دجلة وما ينتشر على ضفتيه في الجزيرة من رياض وأزهار، وقد صور الطبيعة المائية في سياق حنينه الشديد إلى مناخ بلاده قائلا:

وكم بالجزيرةِ من روضة ... تُضاحكُ دجلةُ ثغبانها !
تُريكَ اليواقيتَ مَنُورَةً ... وقد جَلّلَ النورُ ظُهرانها
غَرائبُ تَخطفُ لحظَ العُيون ... إذا جَلتِ الشمسُ ألوانها
إذا غردَ الطيرُ فيها ثنت ... إليكَ الأغانيُّ ألحانها
تَسيرُ العمَاراتُ أيسارها ... ويعترضُ القصرُ أيمانها
وتَحملَ دِجلةُ حَملَ الجمُوحِ ... حتى تُناطحُ أركانها
كأن العذارى تمشي بها ... إذا هزت الريحُ أفنانها
تعابقُ للقرب شجراؤها ... عناق الأحبة أسكانها
فطوراً تُقومُ منها الصبا ... وطوراً تُميلُ أغصانها

لله دره! وكأن الألفاظ بين يديه بمثابة قلم يرسم به أبدع الروائع الفنية، فيصف نهر دجلة وتناثر الأزهار على جوانبه، وكأنها عذارى يسترق الناظر خلسة منها نظرة ترتوي جوارحه منها، وحيثما مال بناظريه يطربه تغريد البلابل على ضفتيه، فتحيل لحظات العمر سعادة غامرة، تحلم النفوس بدوامها واستمرارها. وللبحتري في مدح المعتز ووصف قصره " الكامل"من الافتنان والبراعة الفنية، إنه مهندس معماري، وفنان يتذوق كل جمال في القصر وحوله، فيقدم له لوحة ناصعة براقة تستوي في ذلك حيطان الزجاج وتفويف الرخام وسقوف الذهب، حتى رفرفة الحمام، فيقول مخاطباً المعتز الذي كان بدوره أيضاً فنانا يقرض الشعر ويعزف الموسيقى:

لما كملتَ رويةً وعزيمةً ... أَعملت رأيك في أبتناء " الكاملِ"
وغدوتَ من بين المُلوك مُوفقاً ... منةُ لأيمنِ حلة ومَنازلِ
ذعرَ الحمامُ وقد تَرَنَّمَ فَوقَهُ ... مِن مَنْظَرٍ خَطِرِ المَزَلَّةِ هائلِ
رُفعَتْ لمنخرق الرياحِ سُمُوكُهُ ... وَزَهتْ عجائبُ حسنِه المتخايلِ
وكأَنَّ حيطانَ الزجاجِ بجوِّه ... لججٌ يمجنَ على جنوبِ سواحلِ
وكأنَّ تَفْويفَ الرُّخَامِ إذا التقى ... تأليفهُ بالمنظرِ المتقابلِ
حبكُ الغمام رصفنَ بين منمرٍ ، ... ومسيرٍ ، ومقاربٍ ، ومشاكلِ

لبستْ من الذهبِ الصقيلِ سقوفه نوراً يضيء على الظلامِ الحافلِ
فترى العيونَ يجلنَ في ذي رونقٍ متلهبِ العالي أنيقِ السافلِ
فكأنما نشرْتْ على بستانه سيراءُ وشيِ اليمنة المتواصلِ

لا يكـتفي البحتري بهذه الأوصاف الدقيقة التي وصف بها "الكامل" ولكنه يردفها بأبيات يصور من خلالهـا دجلـة وقـد أدخلت مياهه إلى حديقة القصر في نهيرات جميلة ورياح الصبا، وقد داعبت أشجارها، فجعلتها مياسة الأعواد منعطفة الغصون كأنها الغيد الحسان فيقول:

أغَنتْهُ دِجلةُ إذ تلاحـقَ فَيضُـها عن فيضِ مُنسجِمِ السحابِ الهاطلِ
وتنفسـت فيـه الصبـا فتعطفت أشـجَارُهُ مـن خُيلٍ وحوامِـل
مشي العذارى الغيـد رُحن عَشيةً مـن بينِ حاليـهِ اليدينِ وعاطـل

أجمـل قصائد البحتري في وصف الطبيعة عندما وصف بركة المتوكل وقصره المعروف "بالجعفري"، فوصف الطبيعة كرسام بألوان متناغمة وأصباغ بهيجة، وعمد إلى الألوان اللفظية والزينات البديعية، وتأنق فيها كل التأنق وبخاصة التشبيهات والمطابقات والمقابلات وكل ذلك في منظر بهيج:

يا من رأى البركةَ الحسناءَ رويتها والآنسـات إذا لاحت مغانيـها
بِحسبها أنـها من فضلِ رُتبتها تُعـدُ واحـدةً والبـحرُ ثانيـها
ما بال دِجلـة كالغيرى تنافسها في الحسنِ طـوراً وأطواراً تُباهيـها
أما رأت كالِيء الإسلامِ يكلأهـا من أن تعـابَ وباني المجـد يبنيـها
كأن جن "سليمان" الذين ولـوا إبداعـها فأدقـوا في معانيـها
فلو تمرُ بها "بلقيس" عـن عُرُضٍ قالت : هي الصرحُ تمثـيلاً وتشبيها
تنحطُ فيها وفـودُ الماء مُعجلةً كالخيـل خارجةً من حبـلِ مجريـها
كـأنما الفضّةُ البيضاءُ سائلةً منَ السبائكِ تجري في مجاريهاَ
لا يبلـغُ السمكُ المحصورُ غايتها لبعدِ ما بين قاصيها ودانيها
يعمن فيـها بأوساطٍ مجنحة كالطيرِ تنفضُ في جوٍّ خوافيها
لهنَّ صحنٌ رحيبٌ فـي أسافلها إذا انحططنَ ، وبهوٌ في أعاليها
صورٌ إلـى صورةِ الدلفينِ يؤنسها منهُ انزواءٌ بعينيه يوازيها
تغـنى بساتينها القصوى برويتها عنِ السحائب منحلاًّ عزاليها
كأنّها حيـنَ لجتْ في تدفقها يدُ الخليفة لمّاَ سالَ واديها
وزادها زينةً مـنْ بعـدِ زينتها أَنَّ اسمهُ حين يدعى منْ أساميها

محفوفةٌ بـريـاضٍ لا تزالُ تـرى ريشَ الطواويسِ تحكيهِ ويحكيها

وضع البحتري في وصف هذه البركة أكبر قدر من طاقته الشعرية والبديعية، فجعلها رمزا خالداً يقف عـنده الأدبـاء والشعراء في كل زمان ومكان يتدارسونها، وينغمسون في صياغتها وحسن نسجها ودقتها، وأبيات القصيدة فيها كثير من الرواء والروية والأناقة، والصنعة الفنية:

إذا علتها الصبا أبدتْ لها حبكا   مثلَ الجواشنِ مصقولاً حواشيها

فرونقُ الشمسِ أحيانا يضاحكهَا   وريقُ الغيثِ أحياناً يباكيهَا

إذا النجومُ تراءتْ في جوانبها   ليلاً حسبتَ سماءً ركبتْ فيها

وبـرغم الإيغـال في الصنعة التي عمد إليها الشاعر عمداً حين مدح المتوكل، فأنه لم يقلل من حرارة المديح، وذلك في قوله المشهور الذي تضمن واحد ة من أطول المقابلات البديعية:

يا ابن الاباطح منْ أرضٍ أباطحها   في ذروةِ المجدِ أعلى منْ روابيها

ما ضيَّعَ الله في بدوٍ ولا حضرٍ   رعيةً أنتَ بالإحسان راعيها

وأمةٍ كان قبحُ الجورِ يسخطهُا   دهراً فأصبحَ حسنُ العدلِ يرضيهَا

لم يعـرف شاعر الوصف مثلما أجاده البحتري، فهو شاعر فريد في الوصف والتصوير والأحاسيس، فقـد وصف القصور وصفا جميلاً بارعاً وحرك المشاعر، ووصف ما يحيط بالقصور من حدائق وبرك وجـداول وطيور وأثار الانفعالات النفسية ونشطها من مكامنها. و يمضي البحتري بدرره الوصفي، ليخلد قصور بني العباس واحداً تلو الآخر، فلقد بني المتوكل واحدا من هذه القصور المتحركة العائمة عـلى نهـر دجلـة، واصطلح على تسميته (الزو) وقد استعمله الخلفاء في أيام الفراغ والشراب والصـيد، فراح البحتري يمدح المتوكل ويصف القصر النهري (الزو) في معرض يوم شراب وغناء ومنادمة مشبهاً (الزو) لضخامته بالجبل فيقول:

أبـى يومُنـا بالزوِّ إلا تحسُّنا   لنـا بِسماعٍ طيبٍ ومـدام

غَنينا علـى قصرٍ يَسيرُ بِفتيـةٍ   قُعُودٍ علـى أرجائـهِ وقِيـام

تَظَلُّ البُزاةُ البيضُ تخطفُ حولنا   جآجيء طـيرٍ في السماءِ سوام

تحدرُ بالدراجِ من كل شـاهق   مُخضبـةٌ أظفـارهـن دوام

فلم أرَ كالقاطُولِ يحمـلُ ماؤه   تدفقَ بحـرٍ بالسماحةِ طـام

ولا جبلاً كالزو يوقفُ تـارةً   وينقـاد إمـا قُدتـهُ بزمِـام

ويظـل هذا الزو إرثا لملوك بني العباس، ملكاً بعد ملك يتوارثونه، والبحتري بعمره الطويل ينادمهم الواحـد بعد الآخر. ويصف هذا (الزو) مرة أخرى من خلال إحدى مدائحه للمعتز في يوم صيد،

ويسخر من فرعون مصر العظيم والنيل منه، لتصوره أن فرعون لم يركب قصراً عائماً يقضي فيه أيام متعه، كهـذا القصر الذي يركبه المعتز على متن لجج الماء رائحاً غادياً، وكيف يتوقف حين يصطاد الوحوش على الضفاف، ويخفف السير حين تصاد الطيور من السماء:

تعجبتُ من " فرعون" إذ ظنَّ أنـهُ إلهٌ لأن " النيل" من تحتـه يجري
ولو شاهدَ الدنيا وجامعَ مُلكـها لَقَلّ لدَيهِ ما يُكثِرُ مـن "مصر"
ولو بصرت عيناه ب"الزو" لازدرى حقيرَ الذي نالتْ يداهُ من الأمر
إذاً لرأى قصراً على ظهرِ لجـةٍ يروحُ ويغدو فوق أمواجها يجري
تُصاد الوُحوُشُ في حِفافي طريقـه وتُستنزلُ الطيرُ العوالي على قسر

وإذا كان البحتري قد وصف سفن المتعة على صفحة نهر دجلة، فهو يطرق باباً جديداً لأول مرة في الشعر العربي عندما يصف الأسطول الحربي والمعركة الحربية البحرية التي جرت بين الأسطول العباسي بقيادة أمير البحر أحمد بن دينار بن عبد الله وبين الأسطول الرومي، ومن الطريف أن يستهل قصيدته بأبيات ثمانية في وصف الطبيعة، عدت من أوائل ما كتب في الروضيات الطبيعية ومطلعها:

ألم تـرَ تغليسَ الربيـعِ المبكرِ وما حاكَ من وشي الرياضِ المُنشرِ
مررنا علـى"بطياس"وهي كـأنها سبائبُ عَصب أو زرابـيُّ عَبقرِ
كأن سقُوطَ القطرِ فيها إذا انثنى إليها سقُوطُ اللؤلـؤِ المتحـدرِ
وفي أُرجواني من النـورِ أحمـرٍ يُشابُ بإفرند من الروضَ أخضر
إذا ما الندى وافاهُ صبحاً تمايلت أعاليـهِ من دَرٍّ نثـيرٍ وجوهـر

ويمضـي البحـتري في وصف "الميمون " تلك القطعة البحرية المعقود لواؤها على القائد ابن دينار، ويصف(النوتيّ) على قمة السارية والبحارة المقاتلين، وهم يغضون عيونهم لأمير البحر فيقول:

غدوت على" الميمون" صُبحاً وإنما غـدا المركبُ الميمونُ تحتَ المظفر
أطـلّ بعطفيـهِ ومـر كـأنما تشوفَ من هـادي حصان مُشهر
إذا زمجر النوتيّ فـوق علاتـهِ رأيتَ خطيباً في ذؤابـةِ منـبرِ

وتنشـب المعـركة الـبحرية، فـإذا البحارة المغاوير، يركبون الهول ويهجمون على مناهل الموت، ويستعملون قاذفات اللهب يرمون بها أعداءهم فتشوي جلودهم، ويتصادمون مع أعداءهم من الروم بضربات نارية متوقدة كأنها لظى السعير، ويشبه أزيز الرماح مع ضجيج البحر وسط المعركة بصوت جمل كبير يرجع في صدى صوته، ويستمر زحف السفن العباسية المنتصرة قدماً، والأعداء أمامهم مثل أعـناق الوحـوش النافرة، وتنتهي المعركة بهزيمة الروم، ولا يترك القائد العباسي مكان المعركة، إلا

وأعناق أعدائه مقطعة وهاماهم متطايرة. فالبحتري يدق ويبرع كل البراعة في وصف المعركة البحرية وما فيها من صراع قائلاً:

وحولك ركـــابونَ للهـــولِ عاقروا كؤوس الردى من دراعيـــنَ وحُسرِ
تَميلُ المنايـــا حيثُ مالت أكفُـــهم إذا أصلتـــوا حد الحديدِ المذُكـــر
إذا رشقوا بالنارِ لم يكُ رشقـــهم ليُقلـــعَ إلا عـــن شـــواءٍ مُقتـــر
صدمتَ بهم صُهبَ العثانين دونهم ضِرابٌ كإيقـــادِ اللظـــى المُتسعر
يسوقونَ أُسطـــولاً كـــأن سفينَة سحائبُ صيفٍ من جهـــامٍ وممـــطرِ
كأن ضجيج البحر بين رماحـــهم إذا اختلفت ترجيعُ عـــودٍ مجرجر
تقاربُ من زَحفِيهـــُم فكانـــما تؤلفُ من أعنـــاقِ وحشٍ منفـــر

ثم يخاطـــب أمير البحر ابن دينار مشيدا بحكمته في إدارة المعركة وصبره على الشدائد، وكيف أذل الروم وكسر شوكتهم ولقنهم درساً لم تنسه الأجيال طيلة الدهر قائلا:

فما رمت حتى أجلتِ الحربُ عن طِلى مقطعةٍ فيهـــم وهـــام مطـــير
على حينِ لا نقعٌ يطوحُه الصبـــا ولا أرضَ تلقى للصريـــعِ المقطر
وكنت ابن كِسرى قبل ذاكَ وبعده مليا بـــأن توهي صفاة ابن قيصر
جدحت له الموتَ الذعافَ فعافـــهُ وطـــارَ على ألواحِ شطبٍ مسمر
مضى وهو مولى الريح يشكرُ فضلها عليه ومن يولَ الصنيعةَ يشكر
إذا الموجُ لم يبلغـــهُ إدراك عيـــنهُ ثنى في انحـــدار الموج لحظة أخزر
تعلـــقَ بـــالأرضِ الكبيرة بعـــدما تَقنصهُ جريُ الـــردى المتـــمطر

وتمضي الأيام والسنون بالبحتري ليشهد أحداثاً مؤلمة، فيبكي ويتحسر على عز تلف ومجد ولى، وغبر زمانـــه، إن سينية البحتري في رثاء ملك ذهب، وأسى على مجد سلف، لهي شكوى زمان وبكاء أيام، ولذلك راح يبدؤها بصيغة من الحكمة والوقار يلائمان طبيعة الموضوع فيقول:

صُنتُ نفسي عما يُدنسُ نفسي وترفعتُ عن جـــدا كُـــلِّ جبسِ[86]
وتماسكتُ حـــينَ زعزعني الدهرُ التمـــاساً مِـــنهُ لتعســـي ونكسي

إنـــه يذكر خطوب الزمان، ويخص آل ساسان وقد كانوا في ظل عيش رغيد ونعمى وقصور، وكيف أخـــنى عليهم الزمان، فتهدم إيوانهم وأصبحت أعراسهم مآتم وأفراحهم أتراحاً، ويذكر صورة رآها

[86] - الجدا: العطاء . جبس: الدنيء

على حائط الديوان لمعركة بين الفرس والروم في إنطاكية، وأرتاب لفرط إتقانها وحسن صنعتها حتى ظن أنها لقوم أحياء، وأنها معركة حقيقة ولم يذهب ارتيابه إلا بعد أن لمسها بيديه، والبحتري في تصويره لهذه الحلقة من قصيدته يبدو عملاقاً في دنيا الشعر، بحيث يهاب أي شاعر آخر معارضته فيها، أو تقليده لها إلا الأقوياء العمالقة من شعراء العربية فيقول:

حضرت رحلي الهموم فوجهتُ إلى " أبيضَ المدائن " عنسي

أتسلى عن الحظوظ وآسى لمحل من " آل ساسان " درسِ

أَذكرتنيهمُ الخُطُوبُ التوالي ولقد تُذكرُ الخُطُوبُ وتُنسي

وهُمُ خافضُونَ في ظِلِ عالٍ مُشرفٍ يَحسرُ العيونَ ويُخسي

مغلقٍ بابُهُ على " جبلِ القبقِ" إلى دَارتي " خلاطَ" و " مُكسِ"[87]

حِللٌ لم تكن كأطلالِ " سُعدى" في قفارٍ من البسابسِ مُلسِ

ومَساعٍ لولا المُحاباةُ مِني لم تُطقها مَسعاةُ "عَنسٍ" و "عبس"

نَقَلَ الدهرُ عَهدهن عن الجِدة حتى رجعنَ أنضاءَ لبسِ

فكأنَّ " الجِرمازَ" من عَدَمِ الأنس وإخلالِهِ بَنيةُ رَمس

لو تراهُ عَلِمتَ أن الليالي جَعلت فيه مأتماً بعد عُرس

وهو ينبيكَ عن عجائب قومٍ لا يُشابُ البيانُ فيهم بِلَبس

وإذا ما رأيتّ صورة " أنطاكيةَ" أرتعتَ بينَ " رومٍ" و " فرس"

والمنايا مَواثل و "أنوشَروانْ" يزجي الصفوفَ تحتَ الدرفسِ

في اخضِرارٍ من اللباسِ على أصفَرَ يَختالُ في صبيغَةِ ورس

وعِرَاكُ الرجال بينَ يديهِ في خُفُوتٍ منهم وإغماضِ جرس

من مُشيحٍ يهوي بعاملِ رمُحٍ ومُليحٍ مِن السنان بتُرس

تَصفُ العينُ أنهم جِدُّ أحياءٍ لهُم بينهُم إشارةُ خُرس

يغْتلي فيهم ارتيابي حتى تتَقَراهُمُ يداي بلمس

إن الإيوان كئيب حزين سيء الحظ، يبدي تجلداً ويبدو محتفظاً بجلاله وروعته رغم تعريته من فخامة بسط الديباج ونفاسة أستار الدمقس، وهو في جلاله يظل عال رفيع شامخ أبيض و يحار المرء فيمن بناه، هل هم إنس أم جن؟ ويخيل للبحتري وقد سرح بطرفه إلى الماضي تلك الوفود القادمة حسرى

---

87 ـ أماكن و قصور في بلاد الروم.

متأخرة، والقيان الجميلات يعزفن سحراً، ويطلقن أنغاماً في المقاصير التي عمرت دهراً، وخربت دهراً فصارت رمزاً للأسى ومقصداً للتأسي فيقول:

وكأن " الإيوان " من عَجبَ الصنعة جَـوبٌ في جَنب أرعنَ جلسِ
فيظن مـن الكآبـةِ إذ يـبدوُ لِعَيـني مُصبحٍ أو مُمـسي
مُزعجاً بالفِـراقِ عـن أُنسِ إلـفٍ عَزَّ أو مُرهَقـاً بتطليـقِ عِرسِ
عَكست حظـهُ الليـالي وبـات المشتري فيـه وهو كوكب نحـسِ
فهـو يبـدي تجُلـداً وعليـه كلـكلٌ من كلاكـلِ الدهر مُرسي
لم يعبـهُ أن بـزُ من بُسُطِ الديبـاجِ واسـتُلَّ مـن سـتُورِ الدمقس
مُشمخِرٌ تعلُـو لـهُ شُرفـاتٌ رُفعت في رءوسِ "رضوى" و "قدس"
لابساتٌ من البيـاضِ فـما تُبصـرُ منـها إلا غـلائـلَ بُـرس
ليسَ يدري أصنعُ إنـسٍ لجـنٌّ سكنُوهُ أم صُنـعُ جـنٌ لإنـس
غيرَ أني أراهُ يَشهدُ أن لـم يـكُ بانيـهِ في الملـوكِ بنكـس
فكـأني أرى المراتـبَ والقـومَ إذا مـا بلغـتُ آخـرَ حِـسي
وكأن الوفـودَ ضَاحـينَ حَـسرى من وُقـوفٍ خلـفَ الزحام وخنس
وكـأن القيانَ وَسـطَ المقاصـير يُرجِّـعنَ بـينَ حُـوٌ ولعـس
وكـأن اللقـاءَ أولُ أمـس وَوَشـكَ الفـراقِ أولُ أمـس
وكـأن الذي يُريـدُ اتبـاعـاً طامـعٌ في لحوُقهـم صُبحَ خَمس
عُمرت للسُرورِ دَهـراً فَصَـارت للتعَـزي رِبَـاعُهُـم والتأسِّـي

فالبحتري ينطلق في رثائه للأكاسرة من باب استرخاص الدنيا، وبرما بالحياة التي لا تستقر على حال ولذلـك فهـو يذرف آخر الأمر دمعتين حبيستين على ملك مضى ومجد انقضى وتظهر حدة ذكائه بمعرفة أعماق النفس البشرية في نقل دقائق انفعالاته بهذه الألفاظ المعبرة:

فَلَـها أن أَعينـهَا بدمـوعٍ مؤقفـاتٍ علـى الصبابـةِ حُبسِ
ذاكَ عِنـدي وليست الدارُ داري باقتـرابٍ منـها ولا الجنسُ جنسي
غير نُعـمى لأهـلها عند أهـلي غرسوا مـن ذكائـها خيـر غرس

وترحل أيام المجد من دون عودة فيقف البحتري على أشلاء الماضي المتبقية، يتجرع مرارة الحزن من تقلبـات الزمان و غدر الخطوب وثقلها على النفوس، ومن أجمل قصائد الرثاء للبحتري قصيدته التي يـرثي بها المتوكل العباسي عندما لقي حتفه بقصره (القاطول)، والذي كان آية في الروعة والجمال،

فأحاله الموت إلى أشلاء متناثرة والتي مطلعها:

كأن الصبا توفي نذوراً إذا انبرت   تُرَاوِحُـهُ أذيالُـها وتُباكِـرُه

ورُبَّ زمانٍ ناعمٍ ثَمَّ عَهدُهُ   تَرِقُّ حواشيهِ ويونِـقُ نـاضِـرُه

إنه يرثيه رثاء مرتبطاً بأبرز ما في حياة المرثي، كالترف والشراب والسماع والقصور العديدة التي بناها عـلى ضفاف دجلة و منها القاطول، وأخرى بناها على صفحة النهر متنقلة على لجحه منساحة على أديمه، ولكن أجمل هذه القصور جميعاً وأفخمها وأكثرها ترفا هو قصر (الجعفري) الذي بناه المتوكل سـنه 245هجرية على القاطول قرب سامراء، وشق إليه نهراً من دجلة، وانفق على إنشائه وتأثيثه ثلاثـة ملايـين مـن الدنانير، وجعل منه مقراً للملك والإقامة والشراب والمنادمة والغناء والغلمان والقـيان، وأحاطه بالحدائق الخضر.وقد شهد البحتري الحياة في هذا القصر الفريد، الذي جعل منه المتوكل جنة من جنات الدنيا، وبنفس الوقت شهد فيه مقتل الخليفة المنعم المترف مع وزيره الأديب الوسيم الخصب العطاء الفتح بن خاقان في مجزرة بشعة، نفذها ابن عاق ضد أبيه، هذه الصور المثيرة بطرفيها الحسن والبشع وارتباطها بقصر" الجعفري" جعلت البحتري يتخذ منها منطلقاً لرثائه، ماضياً في ذكر القصر الذي تغير حسنه، وتبدل أنسه وخبا جماله، وهتكت ستائره وريعت جآذره، ثم ينتقل بعد حديث القصر الحزين المنكوب إلى الخلافة متوجعا عليها باكياً على بشاشتها ونضرتها متسائلا عن الخليفة الذي لم تمنع صعوبة حجابه ومناعة أبوابه من اغتياله، حتى لم تدفع الجنود عنه المنون، ولم يمنع الغنى والذخائر عنه البوار والخراب:

محـلٌّ علـى القاطولِ أخلق داثِرُهُ   وعادت صروف الدهر جيشاً تُغاوِرُه

تَغـيرَ حُسنُ " الجعفري " وأُنـسُهُ   وقُـوضَ بادي " الجَعفري" وحاضِرُه

تَحَمـلَ عنـهُ ساكنُـوهُ فُجاءةً   فَعَـادت سَـواءً دُورُهُ وَمقابِـرُه

إذا نحنُ زرنـاهُ أجَـدَّ لنا الأسَـى   وقد كَان قبلَ اليوم يَبهجُ زائرُه

ولم أنسَ وحشَ القَصرِ إذ رِيعَ سِربُهُ   وإذ ذُعِـرت أطـلأوهُ وجـآذرُه

وإذا صيح فيـه بالرحيـل فهتُكت   علـى عَجـلٍ أستارُهُ وستائره

ووحشةُ حـتى كـأن لم يقـم بـه   أنيسٌ ولـم تَحسُن لعـينٍ مَناظِـره

كـأن لم تبت فيه الخـلافةُ طلقـةً   بشاشتُها والملـكُ يشرقُ زاهِـره

ولم تجمـعِ الـدُّنيا إليـهِ بَهاءَهـا   وبهجـتها والعيشُ غـضٌ مكـاسره

فأينَ الحجابُ الصعبُ حيث تمنعت   هَيبَـتِها أبوابُـهُ ومَقَاصِـرُه ؟

وأينَ عَمـيدُ الناسِ في كـلِّ نوبـةٍ   تَنُوبُ ونـاهي الدهـرِ فيـهم وآمره

تَخفى لـهُ مُغتَـالُهُ تحتَ غـرةٍ وأولى لمـن يَغتـالُهُ لـو يُجاهِـرُه

فـما قاتَلت عنـهُ المَنـونَ جُنُـودُهُ ولا دافعَـت أمـلاكُـهُ وذخـائـرُه

ويصف البحتري الخليفة الصريع الذي قطعته السيوف، وأسلمته لموت أحمر الأظافر، ويعض الشاعر بـنان الـندم، لأنه كان أعزل من السلاح، ولو كان معه سيفه لأبلى في الدفاع عن خليفته بقدر ما اسـتطاع من بلاء، ولمنع قتل الخليفة وهو يشرب الراح، فلقد حرم البحتري على نفسه الراح بعد ذلـك ثم يحلـل البحتري حادثة اغتيال الخليفة من قبل ولده، ورأى أن الثأر أمر صعب المنال، لأن صاحب الثأر هو نفسه المثؤور منه، ويحمل على ولي العهد حملة جريئة كان من الجائز أن توردہ موارد التلف فيقول معبراً عن الموقف:

صريعٌ تقاضـاهُ السيوفُ حُشَاشةً يَجودُ بها والموتُ حُمرٌ أظـافرُه

أُدافِـعُ عنـهُ باليديـنِ ولم يـكن لِيَثني الأعادي أعزَلُ الليلِ حاسره

ولو كان سيفي ساعةَ القتلِ في يدي دَرى القاتلُ العجلانُ كيفَ أُساوِرُه

حَرامٌ علـيَّ الراحُ بَعـدَكَ أو أَرى دَماً بدم يجري عـلى الأرضِ مائرُه

وهل أرتجي أن يطلبَ الدم واتـرٌ يدَ الدهرِ والموتُـورُ بالدمِ واتُره

أكان وليُّ العهـدِ أضمـرَ غـدرةً فـمن عَجبٍ أن وليَ العهدِ غادرُه

فلاَ مُليَ الباقي تُراثَ الذي مـضى ولا حملت ذاكَ الدعـاءَ مَنـابرُه

ولا وألَ المشكُوكُ فيه ولا نـجا من السيف ناضي السيفِ غدراً وشاهِرُه

لنعمَ الدمُ المسفُوحُ ليلةَ " جعفـرٍ" هرقتُم وجُنـحُ الليلِ سُودُ دَياجِرُه

ويتحسر البحتري في رثاء المتوكل والفتح على قتلهما، فلقد راعه هول الفاجعة، ولم يصدق ما رأت عيـناه مـن فعال الخسة والدناءة، أنه الطمع والجشع لكرسي الملك الذي يعمي البصائر والقلوب فيجعلها من دون رحمة وشفقه حتى الوحوش أكثر رحمة من غدر الإنسان وبطشه ببني جنسه بقوله:

مضى جعفرٌ والفتـحُ بـينَ مُوسدٍ وبـين قتيـلٍ فـي الدمـا ومُضـرج

أأطلبُ " أنصاراً " على الدهر بعدما ثوى منهما في التُربِ" أوسي" و "خزرجي"

وإذا كانت الفاجعة النازلة كبيرة، فسرعان ما تتوالى الكوارث فلقد مات للبحتري غلام، فظل ينشد السلوى عنه ويطلب الصبر لنفسه عن طريق ذكر الفتح والمتوكل، وكل مصيبة بعدهما تهون، وأن كل كارثة بعدهما قليل مرها:

فلاَ تعجَبَنَ أن لم يغُل جسمي الضَنى ولم يخترمْ نفسي الحِمامُ المعـجلُ

فقَبلُكَ بانَ " الفتحُ " عني مُودعاً وفارَقني شفعاً لـهُ " المتـوكلُ "

فما بلغَ الدمـعُ الذي كنتُ أرتجي ولا فعَلَ الوجـدُ الذي خلتُ يفعل

ولم يقف الأمر عند البحتري عند ذكر الفتح والمتوكل في مقام أحزانه على فقد أعزاء آخرين رزىء بموقم، فهاهو يمدح محمد بن عبد الله بن طاهر بقصيدة طويلة فيقول:

تداركني الإحسانُ منـكَ ونالـني على فاقـةٍ ذاك النـدى والتطـولُ

ودافعتَ عنّـي حين لا الفتحُ يرتجى لدفـعِ الأذى عنـي ولا المتـوكلُ

ويـرثي البحـتري حُميداً الطوسي وأولاده ولم يكن أحد منهم إلا فارساً مغواراً أو قائداً لا يشق له غـبار، وقد عمد في رثائهم إلى مخاطبة قصر أبيهم، ولكن القصر هنا يختلف عن قصر المتوكل، فذاك قصـر الـترف والملـك والنعيم وهذا قصر جمع أسرة الفرسان، ترعرعوا في مربعه وربوا في عرينه وارتـبطوا بـه قبل أن يتوزعوا في أطراف البلاد، يقودون الجيوش المظفرة ويخوضون المعارك، ويريد البحتري أن يمجد بني حميد، فيخاطب القصر خطاب باك حزين على هؤلاء الفرسان المغاوير، ثم يعدد قـبورهم بأطراف الثغور قبراً قبراً، مستمطراً على كل قبر دمعة حزن ولوعة، ذارفاً على كل جدث عبرة فيقول:

أ "قصرَ حُميدٍ "! لا عزاءَ لمغرمِ ولا قَصرَ عن دمعٍ وإن كانَ من دمِ

أفي كل عامٍ لا تزالُ مُروعـاً بفـذٍّ نـعيٌّ تـارةً أو بتـوأم

مضى أهلُكَ الأخيارُ إلا أقلهم وبادُوا كما بادت أوائلُ " جُرهُم"

فَصرتَ كَعُشٌ خَلفَتـهُ فِراخُهُ بعَليـاءِ فـرعِ الأثلَـةِ المُتهشَم

أحبَّ بَنوكَ المكرُمـاتِ ففرّقت جَماعتُهُـم في كُل دهيـاءَ صيَلم

تدانت منايـاهُم بهم وتبَاعَدت مَضاجِعُهُـم عـن تُربـكَ المُتنسم

فكُلٌ لـهُ قَبـرٌ غَريبٌ ببلدةٍ فمن مُنجدٍ نائي الضريحِ ومُتهِـم

قـبُورٌ بأَطرَاف الثغـورِ كأنما مَواقعُهـا منـها مواقـعُ أَنـجُم

بشَاهقة البذينِ قَبـرُ " محمد " بَعيـدٌ عن الباكـين في كل مأتم

تَشقُّ عليهِ الريـحُ كل عشِيةٍ جيُوبَ الغمَامِ بين بـكرٍ وأيـم

وقَبرانِ في أعلي النباج سقتهما برُوقُ سُيوُفِ الغوث غيثاً من الدم

أقبرا "أبي نضرٍ" "وقحطبة" هما بحيث همـا ، أم يذبـل ويرمرم؟

وبالموصل الزهراء ملحد "أحمد" وبين ربى القاطول مضجع "أصرم"

وكم طلبتهم من سوابق عبرة متى مـا تنهنـه بالمـلامة تسجم

نـوادب في خراسان جاوبت نوائـحَ في بغـداد بـح الترنم

لهن عليهم حـنةُ بعـدَ أنـةٍ   ووجـدٌ كدفـاعِ الحريـقِ المضـرم

ويمضـي البحتري في رثاء القوم بالإشارة الى ما عرف عنهم من فروسية وشجاعة، وقيادة للجيوش وحنكة مظفرة للفوز بالنصر بحيث لم يمت أي منهم إلا وهو أمير على رأس جيشه:

مضوا يستلذونَ المنايا حفيظةً   وحفظاً لذاك السؤدُدِ المتقدمِ
وما طعنوا إلا برمحٍ موصلٍ ،   وما ضَربـُوا إلا بسيفٍ مثلم
ولما رأوا بعضَ الحياة مـذلةً   عليهم وعز الموتِ غـيرَ مُحرم
أبوا أن يذوقُوا العيشَ والذمُ واقعٌ   عليه ، وماتوا ميـتةً لم تُذممِ
وكلهُم أفضى اليـه حمامُهُ   أميراً على تدبيرِ جيشٍ عرَمرَمِ

وصف بمنتهى الإجادة لهؤلاء الأبطال الغر الميامين، هؤلاء الفتية الذين استلذوا الموت، فداء لأوطانهم وكـرامة أمتهم. وينشيء البحتري في رثاء أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري الطائي قصيدة نفيسة، يبكي فيها الفارس المقدام ذي المحامد والمكارم التي يعددها الشاعر في إطار من القول المشرق المبين، ثم يقـف عـلى قبره معددا شمائل ساكنه، ولكن البحتري بملكته الفذه وشاعريته السوية السخية يقدم مجموعـة من المعاني الحزينة، التي تجمع إلى سمات الحزن ولمسات الصناعة تمجيد الفقيد والوقوف عليه مودعا بالتحية والسلام:

قـبرٌ تكَّسرُ فوقـهُ القَنـا   من لـوعةٍ ، وتُشـقَّقُ الأعـلامُ
ملآنُ من كـرمٍ فليس يضُرهُ   مَـرُ السحاب عليهِ وهوَ جهَـامُ
بـي لا بغيري ترُبـةٌ مجفُـوةٌ   لـكَ في ثَـرَاها رِمـةٌ وعظـام
حالت بكَ الأشياءُ عن حالاتها   فالحـزنُ حِـل والعـزاءُ حـرامُ
تستقصرُ الأكبـادُ وهـيَ قريحةٌ   ويُـذمُ فَيـضُ الدمعِ وهو سِجَام
فعليكَ يا حلفَ النَّدى وعلى   الندى من ذاهبـينِ تحيـةٌ وسلام !

تأتـيه الألفـاظ وكأنها أمواج بحر فيمتطي اعلاها كي يبحر في شواطىء الحزن مبيناً حرقة الأكباد ولوعـتها وفـيض الدموع المدرار ألماً على حليف الندى، واصفاً إياه بالبطل المدافع عن شرف الأمة وقـيمها ويسـقط شـهيداً، ومن المراثي التي ذهب فيها البحتري مذهبا متباينا عن مذهبه في مراثية السابقة، مرثيته في أبي عيسى العلاء بن صاعد، لقد ذهب البحتري في هذه القصيدة ذلك إلى اصطناع الحكمة التي تتسق كل الاتساق مع مواقف الرثاء، وقد بدا فيها حكيما أكثر منه شاعراً، تحدث عن علـل الأشياء، وعن الدهر وسر الحياة منتهيا من خلال هذا المسلك الحكمي إلى معاني الرثاء. يقول البحتري في مرثيته هذه:

أخي متى خاصمتَ نفسكَ فاحتشد	لها ، ومتى حدثتَ نفسكَ فاصدُقِ
أرى عللَ الأشياءِ شتى ، ولا أرى	التجَــمُعَ إلا علـــةً للتفــرُقِ
أرى العيشَ ظِلاً تُوشكُ الشمسُ نقلَهُ	فكس في ابتغاءَ العيشِ كيسَكَ أومُقِ
أرى الدهــرَ غُــولاً للنفُوسِ ، وإنما	يقي اللهُ في بعضِ المواطنِ من يقي
فلا تتُبــعِ الماضي سُؤالك لم مضى؟	وعرج على الباقي فَسائلـــهُ :لم بقي؟
ولم أرَ كالدنيـــا حليلـــةَ وامـــق	مُـــحبٌ متى تَحُسن بعينيـــه تَطلُقِ
تـــراها عيانـــاً وهي صنعـــةُ واحد	فتحسبُها صُنعي لطيف وأخـــرَقِ
ذكرتُ " أبا عيسى " فككفتُ مُقلةً	سفُوحاً متى لا تسكُبِ الدمـــعَ تأرقِ
فتى كـــان هم النفسِ أو فـــوقَ همها	إذا ما غدا في فضلِ رأيٍ ومصـــدقِ

ولعـــل من طرائف الأمور أن تكون هذه القصيدة، آخر قصيدة يقولها البحتري في العراق، فقد شنع عليه بعض أعدائه بسبب بعض المعاني التي جاءت بها، واتهموه بأنه ثنوي، فخاف من العامة في بغداد فقال لأبنه: قم يابني حتى نطفي عنا هذه الثائرة بالرجوع لبلدنا ونعود، فخرج إلى بلده منبج، وأقام بها ولم يعد إلى بغداد، وكأنما كان ناعيه يناديه حتى يكون ترابه في الأرض التي عليها خلق وعلى أديمـــها نمـــا ونشأ.بدت شخصية البحتري شديدة الطمع والبخل ولاسيما مع أهله وتقتيره عليهم لحد التقتير برغم غناه الفاحش وظهر هذا من خلال حياته فهو رث الثياب عديم الأناقة وعرف بعدم وفائه حتى لأقـــرب مـــن أحسن إليه، ناهيك عن عبثه بالغلمان ومعاقرة الخمرة شأنه في ذلك، شأن بعض أهل زمانه، برغم فحولته الشعرية وإبداعه الفني في الوصف والرثاء وإجادته للشعر، ولقد شهد في حياته الكـــثير من التغيرات وكان لديه قدرة فائقة على التلاؤم والتكيف والمسايرة مع الوسط الذي يعيش فـــيه، ممـــا يدل على ذكائه ومعرفته بنفسية من يعاشره، فقد عرفناه مادحاً لأغلب ملوك بني العباس واحداً تلو الأخر، وبرغم تعاقبهم على الخلافة فقد ظل محظوظاً عندهم قريب الجانب، حتى أنه كان يماطل بدفع ما عليه من ضرائب لقاء ضياعه وأملاكه.

<u>حكمة:</u>

(من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر، واحذروا، أن من لا يرجى خيره فلا يؤمن شره، وإذا أردت أن تسعد مع الناس فعاملهم بما تحب أن يعاملوك به، ولا تبخسهم أشياءهم، ولا تضع من أقدارهم).

بشار بن برد

حكمة:

(لا تفـتـح صدرك للرياح حتى لو كانت نسيم، وأعلم أن من لم يسعد في بيته؛ فلن يسعد في أي مكان آخر، وأعلم أن أنسب مكان لراحة النفس وهدوء البال والبعد عن التكلف هــو بيتك).

يا أبناء أمتي، أيها الراكبون متون الأمواج العاتية المذللون مدها وجزرها.كم من مرة أبحرتم في أحلامي ! وها قد أتيتم ورأيتكم في يقظتي التي هي أعمق أحلامي.أحبوا بعضكم بعضاً؛ ولكن لا تقيدوا المحبة بالقيود، بل لتكن المحبة بحراً متموجاً بين شواطىء نفوسكم.نعم إنه بشار بن برد المعروف بحدة الطبع وتطــرف المــزاج، ممــا جعــل هذا التطرف سببا في الكثير من روائعه، والتي سلط عليها أنصاره والمتحمســون له أضــواء متلألئة من التركيز بحيث لا تخطئها العين ولا ينكرها البصر، عاش الجانب الأطول من حياته في عصر بني أمية، ولد سنة**714**م وتوفي سنة**784**م، فهو أموي الثقافة متأثر بكل شعراء المدرسة الأموية غير أن تأثره بهم لا يعني أنه سرق معانيهم، ولكنه سار في دربهم، ثم هيأت له بعض ظروفه الشخصية من فقدان للبصر ومخالطة لأهل الكلام وشعوبية واستهتار بالقيم أن يجرؤ على معايير الشعر وقيمه، فجاءت هذه الطرائف التي صادفت هوى ورضى في صدور الناس وتقبلا وحسن تلــق من العامة ولاسيما النساء، فميزته من غيره من جمهرة الشعراء المعاصرين له، والذين لم يجرؤوا عــلى التهجم على القيم جرأته، ويدعو إلى عدم الاهتمام بالناس، أو إقامة أي وزن أو اعتبار للقيم، فكان أن جنى ثمرة جسارته التي نظمها في أقواله من شعر:

لا خيرَ في العيشِ إن كُنا كذا أبداً　　　لا نلتقي وسبيلُ الملتقى نهجُ

قالوا : حرامٌ تلاقينا فقلْتَ لهم :　　　ما في التلاقي ولا في قبلةٍ حرجُ

من راقب الناسَ لم يظفر بحاجتِه　　　وفازَ بالطيباتِ الفاتكُ اللهِجُ

ويحــك يا بشار ألهذه الدرجة تصل بك الأمور بالتطاول على القيم والأخلاق؟ أما تستحي من ذلك النصح !!إنك تدعوا العشاق للتلاقي جهرة دون حرج، وتؤكد فوزهم بالإلحاح على قضاء حاجاتهم، وإن الفوز حليفهم؟ ثم أخذ هذا المعنى نفسه وحسّنه تلميذه ومعاصره سلم الخاسر فقال:

من راقبِ الناسَ مات همّاً　　　وفــاز باللــذةِ الجســورُ

لقد كان بشار فاتكاً حسب تعبيره وجسورا حسب تعبير سلم الخاسر، ولكنه لم يكن فاتكا في الحرب ولا جســوراً عــلى الجيوش، فذلك شيء بعيد عنه كل البعد، ولكنه كان فاتكاً على أعراض الناس جسوراً على القول الجارح البذيء الخادش للحياء، حياء من يستحيون، وليس العامة و بذلك قد فتح بابا للشعر الشرير الذي يجلد رهق الشباب بسوط لا يرحم، ويشكك في عفة النساء ويزعزع مقاومة

الحرائر بأسلوب من الشعر الشيطاني الجريء مما دفع بالملك العباسي المهدي أن يمنعه من هذا اللون من القــول، بل من الغزل كله، إن شعر بشار في هذا المجال كان ذا أثر من الإفساد، مماثل للأثر الذي تــتركه كتــب الجــنس الرخيصة وبعض روايات السينما والأفلام الخلاعية في الوقت المعاصرعصر الفضائيات. هذه الحقائق ليس الهدف منها النيل من قدرة بشار، فهو شاعر كبير واسمه بشار بن برد بن يرجوخ ويكنى بأبي معاذ، ويلقب بالمرعَّث وهو من سبي المهلب بن أبي صفرة في طخارستان، ولقد ولد بشار أعمى حيث يذكر ذلك في شعره ويربط بين العمى والذكاء في قوله:

عمِيتُ جنيناً والذكاءُ من العمى فجئتُ عجيبَ الظنِّ للعلمِ موئلاَ
وغاضَ ضياءُ العينِ للقلبِ رائدا بحفظ إذا ما ضيَّعَ الناسُ حصَّــلاَ
وشعرٍ كزهرِ الروضِ لا أمتَ بينهُ نقــيٍّ إذا ما أحزَنَ الشعرُ أسهلاَ

يقــدم بشار تحليلا عميقاً لذكاء المكفوف الذي لا يكون بالضرورة موروثا، ولكن طبيعة الآفة تكوّنه وتجعله مكتسباً، إنه ظاهرة من مظاهر الحفاظ على النفس وحب البقاء، وبما أن المواهب تولد مع المرء ولا تكتسب، فإن بشاراً ولد شاعراً موهوباً وقال الشعر وهو ابن عشر، وحين صار ابن عشر صارت الــناس تخشــى لسانه، فكان أبوه يضربه ضربا مبرحا وكانت أمه لا تفتأ تقول لأبيه: أما ترحم هذا الصــبي الضرير وأنت دائم الضرب له، فيجيبها: إني والله لأرحمه ولكنه يتعرض للناس فيشكوه لي، فيســتمع بشــار إلى قــول أبيه ويحس نغمة العطف في إجابته فيطمع فيه ويقول له:يا أبت إن الذي يشــكونه مني إليك هو قول الشعر، وإني إن ألممت عليه أغنيتك وسائر أهلي، فإن شكوني إليك فقل لهــم: أليس الله يقول: ("ليس على الأعمى حرج ").فلما عاود الناس شكواهم قال لهم برد ما قالــه بشار فانصرفوا خائفين وهم يقولون:(" فقه بُرد أغيظ لنا من شعر بشار"). و بحكم نشــأته في بني عقيل كان فصيحاً بعيداً عن التردي في الخطأ، وذات مرة يقع نظره على جرير الذي كــان صــاحب القــدح والذم في مربد البصرة، يصارع الشعراء ويصارعونه فيغلبهم فيلوذون منه بالفــرار، وبشــار بصري يعيش على مرمى حجر من ساحة جرير، إذن فليتجه إليه ينازله ويهاجيه، ولكن جرير العملاق يستصغر شأن الصبي الصغير الذي يقذفه من أسفل قدميه بحبات الحصى فلا يرد علــيه، ويكــبر بشار ويتذكر محاولته مع جرير ويتحسر على استصغار جرير لشأنه ويقول: هجوت جريــراً فاستصغرني وأعرض عني، ولو أجابني لكنت أشعر أهل زماني.وبشار من ناحية هيئته وشكله فيما يروي الأصمعي: ضخم عظيم الخلق والوجه مجدور طويل، جاحظ المقلتين قد تغشاهما لحم أحمر، فكان أقبح الناس عمى وأفظعهم منظراً، وكان من عادته إذا أراد أن يقول شعراً صفق بيديه وتنحنح وبصق عن يمينه وعن شماله،واتصف بشار بنظافته في ملبسه حيث جعل لردائه طابعاً خاصاً يمكنه لبسه

بأســرع وقت، وكان له أخوان قصابان هما بشر وبشير، وعُرف بعطفه عليهما كثيراً، ولكنهما كانا ينتقيان ملابسه النظيفة فيرتديانها بدون إذن منه، فتتلطخ بالدم وتتلوث بالروائح الكريهة حتى اضطر آخـر الأمر أن يلبسها بوسخها ورائحتها، فقيل له: ما هذا يا أبو معاذ ؟فأجاب: هذه صلة الرحم. وقد استغل خصوم بشار هذه الصفات الخلقية القبيحة فيه، والتي لم يكن له ذنب فيها، فاستغلوا نقطة الضعف فيه، وهي عماه مع قبحه، فبدأوا يهجونه ويستترفون ماله الذي كان يحصله من الناس حتى لا يهجوهم، ووجدت أبيات لحماد عجرد في هجائه بلغت من الفحش مبلغا يؤذي الأذن سماعها وتقذي العين قراءتها، وأوجع بيت لحماد عجرد في هجاء بشار هو:

يا أقبح مــن قردٍ إذا مــا عَمِيَ القــردُ

عــلى أن بشارا رغم حدة مزاجه وشعوره الدائم بالنقص نتيجة لعماه، كان يعمد إلى الانعطاف إلى ميدان الفكاهة والسخرية بمن يعامله معاملة المبصرين، فمن هذه الطرائف أن بشاراً دخل على المهدي العباســي وعــنده خالــه يزيد بن منصور الحميري فأنشده الشعر، فلما أتم إنشاده قال له يزيد: ما صناعتك ياشيخ ؟ فأجابه بشار بجواب ملؤه السخرية قائلاً: أثقب اللؤلؤ، فقال له المهدي: أتهزأ بخالي ؟ ويحــك ثكلــتك أمُك ! فقال: يا أمير المؤمنين، فما يكون جوابي لمن يرى شيخاً أعمى ينشد شعراً فيسأله عن صناعته؟!.وجاء رجل إلى بشار يسأله عن مترل رجل بعينه فوصفه له، وجعل يفهمه وهو لا يفهم، فما كان منه إلا أن أخذ بيده وقاده إلى مترل الرجل وهو يقول:

أعمى يقــودُ بصيراً لا أبالكــمُ قد ضَلَّ من كان كانت العميانُ هَديهُ

فــلما أوصل بشار الرجل إلى المكان قال له: هذا هو مترله يا أعمى. واستطاع أن يتغلب على عقدة العمــى في حــياته عن طريق الفكاهة والسخرية التي عمد إليها في كثير من سلوكه، ولهذا فإن قدرة بشار على التكيف والانسجام مع عقدة العمى هي دليل قاطع على قوة شخصيته وثقته بنفسه وترفعه عن عاهته بالسخرية ممن يتعرض له، على أن عقدة العمى دفعت بشاراً إلى قول أرق مقطوعاته وأجمل قصائده، تلك القصائد التي وضعته صاحب مدرسة في التجديد ومن شعره الذي يقوله:

يا قومُ أُذني لبعضِ الحي عاشقةٌ والأذنُ تعشقُ قبلَ العينِ أحيانا

قالوا: بمن لا ترى تهذي؟ فقلت لهم: الأُذن كالعينِ توفي القلبَ ما كانا

هل من دواءٍ لمشغوفٍ بجاريةٍ يلقى بلقيانها روحا وريحانا؟

لله درك وأنت الأعمى تجيد الوصف أجمل بمئات المرات من الأسوياء؟ يدل هذا على البراعة ولقد احتوت هذه الأبيات صورة العشق الطريفة المستمدة من ضرره، فذاعت بين النقاد وشاعت بين الناس في كــل زمــان، ومن المعاني الجديدة التي نالت إعجاب المتأدبين تصور بشار وتوليده المعاني في نطاق

إعاقــة كف بصره هذه القصيدة التي قالها في صاحبته" عبدة"، وهذا يؤكد أن عقدة العمى ليس في البصر بل في البصيرة:

يا ويح نفسي أراها كلما انبعثت ألقى عليها صباباتِ الكرى القدرُ

بليتُ والشوقُ أبلاني تذكُرُهُ من غادة بيتُها دانٍ ومهتجرُ

هيفاءُ مقبلةً عجزاءُ مدبرةً لم تجفَ طولاً ولا أزرى بها القصرُ

غراءُ كالقمرِ المشهورِ حين بدت لا بل بدا مثلها حين استوى القمرُ

لمــا رأيت الهــوى يبري بمديته لحمــي وحلأني الزوارُ والسمرُ

إبداع في التصوير يتجاوز إطار وصف الأسوياء ناهيك عن دقة الأحاسيس والمشاعر.ومنذ متى كانت المشــاعر والآهات حكراً على الأسوياء ؟ أليس لهؤلاء المعاقين قلوب تنبض بالجمال والحنين والشوق فتجعل الظلام نوراً في أفئدة هؤلاء المبصرين!!:

أصبحت كالحائمِ الحرانِ محتبسا لم يقضِ ورداً ولا يرجى له صدرُ

قالت عقيل بن كعبٍ إذ تعلقها قلبي فأضحى به من حبها أثرُ

أني ولم ترها تصبُو فقلت لهم : إن الفؤاد يرى ما لا يرى البصرُ

قالوا جهلت بذكرها فقلت لهم : لا بل جُننتُ فكفوا اللوم وازدجروا

ما لان قلبي لناهٍ عن زيارها وهل يلينُ لقلبِ الواعظِ الحجر

لا تكثروا لومَ مشغوفٍ بجاريةٍ لا يشتكي سهراً منها وما السهرُ

إنــه يعــاني زفرات الألم ويحس بلواعج الحنين ويطلب كف اللوم.أليس من حقه أن يعيش ؟ ويشعر بخفقــان قلــبه ونبضــاته الجياشه! وعلى الرغم من عقدة العمى فهنا تتجلى معرفته بمشاعر النفس ودوافعها، فيصف خلجاتها وانفعالاتها أدق الوصف والإحساس؟:

لا يذكر الدهرَ أو يسري الخيالُ له إلا تغنى بها أو مسه ضررُ

ما بال عبدةَ لا تأوي لمكتئبٍ والوحشُ يأوي له والجن والبشرُ

من كان معتذراً من حبٍّ غانيةٍ فليس من حبها ما عاش يعتذرُ

يرجو عبُيدةَ يوماً أن تجودَ له وإن تطاولَ ما يرجو وينتظرُ

يضــع منهجاً للحياة لا يمكن تجاهله ويبين صعوبة الحياة واستحالتها بدون خليل يشاركه تعب الحياة وهمومهــا، وما فائدة الأعذار عندما يستحكم الغرام الأفئدة ! فالمخلوقات على أجناسها لا مناص لها مــنه. ولا فكاك من جراحه ويميز بشار هنا بذكائه صراعات النفس الإنسانية، ويتألم بشار من إيذاء الناس وتعييره بعاهة العمى:

وعيرني الأعداءُ والعيبُ فيهمو فليس بعـــارٍ أن يقال ضــريرُ

إذا أبصرَ المرءُ المروءةَ والتُقى فإن عمى العــينين ليس يضــيرُ

رأيتُ العمى أجراً وذُخراً وعصمة وإني إلى تلــكَ الثلاثِ فقــيرُ

ونعود مرة أخرى إلى شعر بشار في نطاق إعاقته لنجده في معان رقاق ينفذ بها في يسر ورفق من أذن السامع إلى قلبه، فيقول في صاحبته عبدةَ وقد أحبها بقلبه البصير وليس بعينه المبصرة:

يزهدني في حب عبدةَ معشرٌ قلوبهُم فيها مخالفةٌ قلبِ

فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى فبالقلبِ لا بالعين يبصر ذو اللبّ

وما تبصر العينان في موضعِ الهوى ولا تسمع الأُذنان إلا من القلبِ

لقد زادني ما تعلمين صبابةٌ إليكِ فللقلبِ الحزينِ وجيب

يـــبين أن قلوب العشاق لا تحتاج لعيون مبصرة، فالقلوب بحدسها تجد الدليل، وهنا يبين أن المثيرات السمعية أكثر فاعلية من المثيرات البصرية، فهذه الرؤية النفسية تجعله صاحب فلسفة في التجديد مع الحـــياة وكيفـــية التعامل معها، فهو بحدسه وخبرته يرسم مشاعر الإنسان كمحلل نفسي بكل معنى الكلمة.ويبين حرصه الشديد على كتمان الهوى خشية كلام الحساد والحاقدين:

أبيتُ وعيني بالدموعِ رهينةٌ وأصبحُ من شوقٍ إليكِ غروبُ

إذا نطق القومُ الجلوسُ فإنني أُكبُّ كأني من هواكِ غريبُ

يقولون داءُ القلبِ جنٌّ أصابهُ ودائي غزالٌ في الحجالِ ربيبُ

إذا شئتُ هاج الشوقُ واقتادهُ الهوى إليكِ من الريحِ الجنوبِ هبوبُ

لاشـــك في أن بشار يطوع المعاني لعواطفه في هذه الأبيات العذبة تطويعاً خلابا، ويربط هواه بريح الجـــنوب الوافـــدة من" عمان" حيث مستقر صاحبته إلى البصرة حيث مستقره ومقامه، ويمضي في قصيدته هذه الجميلة حين يضفي أسبابا من التقى على سلوكه وألوانا من العفة على حبه فيقول:

وقائلة : إن مُتَّ في طلب الصبا فلا بد أن تحصى عليكَ ذنوبُ

فرُم توبةً قبلَ المماتِ فإنني أخافُ عليكَ اللهَ حينَ تؤوبُ

فقلتُ لها : لم أجنِ في الحب بيننا أثاماً على نفسٍ فممَّ أتوبُ؟

أرانا قريبا في الجوارِ ونلتقي مراراً ولا نخلو وذاكَ عجيبُ

ألا ليبَ شعري هل أزوركِ مرةً وليس علينا يا "عبيدُ" رقيبُ

فنشفي فؤادينا من الشوقِ والهوى فإن الذي يشفي المحبَّ حبيبُ

معـــان جميلة وصياغة أخاذة وإيقاع مبدع دون شك، لأن بشار يقول أبياته في ظل الحرمان، و بحكم

إعاقته يجعل الطريق إلى قلبه من خلال الأذن وليس من خلال العين، وفي كل مرة بسوغه صياغة تبدو وكأنها جديدة كل الجدة، فكأنه طبيب النفس وحكيمها فمن قوله:

لقد عشقت أذني كلام سمعتهُ رخيماً وقلبي للمليحة أعشقُ
ولو عاينوها لم يلوموا على البكا كريماً سقاهُ الخمرَ بدرٌ مُحلقُ
وكيف تناسى من كأنَّ حديثه بأذني وإن غُنيتُ قُرطٌ معلقُ

فيعمد بسبب عماه إلى الغزل الموحي به عن طريق الأذن لا العين، فيكثر من وصف حديث المرأة ويجيد صورته أكثر إجادته من الغزل الذي يكون وحيه النظر والرؤية، فهو يأتي بصور تأخذ بمجامع الإعجاب والإطراب، وهل هناك أجمل وأدق من هذه الصورة التي أوحتها الأذن، فإن بشاراً نهج أسلوب الميسر المبسط حتى سحر ملوك الشعر العربي في قوله:

أيهُا السَّاقيانِ صُبَّا شرابي واسقياني من ريقِ بيضاءَ رُودِ[88]
إن دائي الصدى وإن شفائي شربةٌ من رُضابِ ثغرٍ بَروُدِ
عندها الصبرُ عن لقائي وعندي زفراتٌ يأكلنَ قلبَ الجليدِ
ولها مبسمٌ كغُرِّ الأقاحي وحديثٌ كالوشي وشيَ البُروُدِ
نزلت في السوادِ من حبةِ القلبِ ونالت زيادةَ المستزيدِ
ثم قالت نلقاكَ بعد ليالٍ والليالي يبلين كل جديدِ
لا أبالي من ضن عني بوصلٍ إن قضى الله منكِ لي يومَ جُودِ

يأتي إلى وصف أشياء تمتاز بمنتهى دقة الملاحظة بحيث يعجز عنها المبصر، وبذلك يتجاوز الوصف التقليدي للمشاعر والعواطف والإحساس الحسي إلى الإحساس السمعي مبيناً أن إعاقته لم تعق جوارح قلبه. وتبدو عقيدة الإسلام عند بشار دافعة إلى الطهر وعاصمة من الخنا والوقوع في المعاصي، وقد ضمن هذا المعنى الجليل في وصف الحرائر من الصبايا المسلمات عندما قال:

أُنسٌ غرائرُ ما هممنَ بريبةٍ كظباءِ مكةَ صيدُهنَّ حرامُ
يُحسبن من أُنسِ الحديثِ زَوَانيا ويصُدُّهنَّ عن الخنا الإسلامُ

يوضح حصانة الإسلام كدين في صيانة الفرد من الانحراف وراء المعاصي، فيشيد بالفتيات المسلمات في تجنب الانحراف، إن بشاراً فنان في كل ما يقول من شعر صادر من منطلق إعاقته، ومن بدائع قوله في معاني طول الليل واليأس من طلوع النهار في انتظار الحبيبة كي تفِ بوعدها، وبزوغ الضياء حيث

---

[88] -الرود: الشابة الناعمة الحسناء.

يقول:

خليليَّ ما بالُ الدُّجى لا تزحزحُ ... وما بالُ ضوءِ الصبحِ لا يتوضحُ

أضلَّ الصباحُ المستنيرُ طريقهُ ؟ ... أمِ الدهرُ ليلٌ كُلُهُ ليسَ يبرحُ ؟

أَظنُّ الدُّجى طالت وما طالت الدُّجى ... ولكن أَطالَ الليلَ همٌ مبرحُ

ويحك أنت الأعمى ما لك تتكلم عن الصباح، فدع الأمر للمبصرين؟وأخذ يرسم صورة للهموم بأدق المشاعر، فيصفها بالدهر الذي لا تنتهي مصائبه!! ويحاول بشار أن يوهمنا حين يصف طول الليل، ولكن الحقيقة أن الليل الذي يصفه بشار لم يكن ليل العاشقين، ولم يكن الليل الذي هو عكس النهار، وإنما هو يصف أيامه التي هي ليل كلها، ودهره الذي هو ظلام جميعه، إن ليلته، حسب تعبيره تزداد طولا ويتساءل أليس بعدها نهار؟ ثم ينهج نهج المبصرين تمويها وتنفيسا حين يأتي بالمعنى الفريد الذي يجعل سبب عجز عينه عن التغميض قصر جفونها:

أقول وليلتي تزدادُ طولا ... أما لليلِ بعدهمُ نهار

جفتْ عيني عن التغميض حتى ... كأن جفُونها عنها قِصارُ

على أن كل صور الوصف عند بشار لم تصدر كلها عن أصالة في بعض الأحيان، ولكنها في بعض الأحيان كانت تصدر عن تقليد، ففي قصيدته الفريدة والتي تجري على كل لسان، حيث يفخر فيها بشار بولائه العربي وهي من أشهر قصائده وأجملها وأشهرها وأروعها، إنها القصيدة البائية التي أذاع شهرتها بيتها الأول، والذي يعدّ من معجزات الوصف والحكمة التي تصدر عن أعمى:

جفا وده فازور أو مل صاحبه ... و أزرى به ألا يزال يعاتبه

خليلي لا تستنكرا لوعة الهوى ... و لا سلوة المحزون شطت حبائبه

إذا كان ذواقا أخوك من الهوى ... موجهة في كل أوب ركائبه

فخل له وجه الفراق و لا تكن ... مطيه رحال كثير مذاهبه

أخوك الذي إن ربته قال إنما ... أربت وإن عاتبته لان جانبه

إذا كنتَ في كل الأمور معاتباً ... صديقكَ لم تلقَ الذي لا تعاتبه

فعش واحداً أو صل أخاك فإنه ... مُقارفُ ذنبٍ مرةً ومجانبه

بوركت في تحديد صفات الصاحب الطيب، وكأنك تلامس جراح المتعبين من الأصدقاء الذين يعلنون عكس ما يضمرون، وهؤلاء ليس لهم دواء إلا الهجر والتجنب والابتعاد عنهم.وراح يدعو إلى التسامح مع الأصدقاء والخلان والصبر على هفواتهم، ويبين أن كثرة اللوم والعتاب من أسباب الفرقة والهجران، فكأنه يضع إرشاداً ومنهجاً للناس في هذه الحياة وسط شغبها المرير:

إذا أنتَ لم تشرب مراراً على القذى ظمئتَ وأي الناس تصفو مشاربه

ومن ذا الذي ترضي سجاياه كلها كفى المرءَ نبلاً أن تعدُ معـائبه

ويحـذر من أن ما من فرد إلا ويذوق الألم والمرارة أحياناً من الأصدقاء وبأسلوب مريح للنفس، وفي الوقـت نفسه يقول إنها سنة الحياة، وما من مخلوق يسلم من متاعب الزمان حتى ولو كانت سجاياه كلها أخلاق ووقار، وما على الإنسان إلا الصبر والتسامح وغض النظر عن العيوب التي يراها ضماناً لاستمرار الحياة، وهنا يقدم نفسه بشار كمرشد نفسي بكل معنى الكلمة، وكحكيم خبر الحياة وذاق ألآمها يقدم النصح والإرشاد:

وجيشٍ كجنح الليل يزحف بالحصى وبالشوك والخطـّي حُمراً ثعالبه

غدونا له والشمسُ في خدر أمـها تُطالعنا والطَّلّ لم يـجر ذائبـه

بضربٍ يذوقُ الموتَ من ذاق طعمُه وتدُركُ من نجّـى الفِرارُ مثالبه

كأن مثارَ النقعِ فـوقَ رُءُوسنا وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبه

يفتخر بقبيلة قيس عيلان مواليه التي ينتمي إليها في هذه القصيدة، وتظهر براعة صوغها ورقة معانيها وفخامة بنائها، فضلا عن أبيات الحكمة العميقة التي توشيها كما توشي خيوط الذهب الثوب النفيس حيث يقول:

لألفى بني عيلان إن فعالهم تزيد على كلّ الفعال مراتبه

أُلاك الألى شقوا العمى بسيوفهم عن الغي حتى أبصرَ الحق طالبه

إذا ركبوا بالمشرفية والقنا وأصبح مروانٌ تُعدُ مواكبه

فأي امرىء عاصٍ وأي قبيلةٍ وأرعنَ لا تبكي عليه قرائبه

أحلت به أُمّ المنايا بناتها بأسيافنا إنا ردى من نحاربه

إذا الملكُ الجبارُ صَعرَ خدَّه مشينا إليه بالسيوفِ نُعاتبه

ويمضـي بشار في نشوة هذا الفخر الذي يبلغ من الغلو درجة الجاهلية، فيضع به مواليه العرب من قيس عيلان أرفع مقاماً من الشجاعة والبأس والإقدام والجبروت، بل يصفهم وصفا مبالغا فيه، بحيث يكاد يجعل منهم دولة ذات سيادة وجيش كثيف يحجب ضياء الشمس، فيقلب النهار ليلاً أسود يسود جوانـب الأرض ويمـلأ الفضاء ويزلزل الجبال وهنا يطلق اللجام لانفعالاته وعواطفه وفق تداعيات نفسية تأتي بصور النفس المتألمة وخبايا مكنون اللاشعور:

وكنا إذا دبَ العدو لسخطنا وراقبنا في ظاهرٍ لا نراقبهُ

ركبنا له جهراً بكلّ مثقفٍ وأبيضَ تستسقي الدماء مضاربه

وجيشٍ كجنحِ الليلِ يرجفُ بالحصى　　وبالشولِ والخطيِّ حُمرٌ ثعالبه
غدونا له والشمسُ في خدرِ أمها　　تُطالعنا والطلُ لم يجرِ ذائبه
بضربٍ يذوقُ الموتَ من ذاق طعمه　　وتُدركُ من نجى الفرارُ مثالبه
بعثنا لهم موتَ الفجاءة إننا　　بنو المُلكِ خفاقُ علينا سبائبه

يجيد الوصف ونقل المشاعر ببراعة فنية لا مثيل لها، فتجعل القارئ يعيش الحدث كواقعٍ يراه أمام ناظريه، إنه فنان نفسي يعطي الصورة والكلمة في إطار مشوق ورائع.فيصور الجيش الزاحف بعدد الحصى وقد غلب لون الدم على الجنود، فبدذ الجيش ظلام الليل بحيث لا يستطيع أحد الفرار من الموت من الأعداء:

فراحوا فريقٌ في الإسار ومثله　　قتيلٌ ومثلٌ لاذ بالبحر هاربه
وأرعنَ يغشى الشمس لون حديده　　وتخلسُ أبصارَ الكماة كتائبه
تغصُ به الأرضُ الفضاءُ إذا غدا　　تزاحم أركانَ الجبالِ مناكبه

فبشار على الرغم من خروجه من زمرة المتكلمين بقيت فصاحتهم في لسانه، وظل حسن ترتيبهم للكلام في جنانه، ولعل درة الدرر في شعر الحكمة عند بشار، هي أبياته المشهورة في الشورى حيث بلغ بشار بهذا الفكر الرفيع المصوغ في إطار ذهني بارع التعبير، ومن يقول مثل هذا الشعر جدير بأن يحتل مثل هذه المرتبه الرفيعة، تلك الأبيات التي جرت على ألسنة الحكماء والعقلاء من العرب في كل زمان، مما دفع الأصمعي إلى إن يقول لبشار: يا أبا معاذ إن الناس يعجبون من أبياتك في المشهورة:

إذا بلغَ الرأيُ المشورةَ فاستعنِ　　برأيِ نصيحٍ أو نصيحةِ حازمِ
ولا تجعل الشورى عليكَ غضاضةً　　فإن الخوافي قُوةٌ للقوادمِ
وخلِّ الهويني للضعيفِ ولا تكن　　نؤوماً فإنَّ الحزم ليس بنائمِ
وما خيرُ كفٍّ أمسكَ الغلُ أُختها　　وما خيرُ سيفٍ لم يؤيد بقائمِ[89]

يجعل مبدأ الشورى والحوار التشاور ويرى أن الحوار في مناقشة المسائل امراً عاماً وضرورياً وحقاً،وكأنه يضع أسس للديموقراطية التي يفتقرها عصرنا الحالي، ويجعلهاحق لكل فرد بعيداً عن التفرد في علاج الأمر وتحاشياً للملامة، ومهما بلغ الفرد من الحكمة فهناك أشياء لا تبدو له، فيراها غيره، وفي الوقت نفسه يطالب بالحزم وترك الأمور البسيطة لضعاف العقول، ويبين أنه لا خير يرجى

[89] -الغل: القيد ، القائم : قائم السيف.

مـــن البخـــيل، فالبخيل حتى في ساحة الحرب بخيل بالدفاع عن وطنه، ولا خير في حيله، إذا لم يكن رجـــال الســـيف والمروءة والشهامة يقومون بالذود عن الأهل والوطن.وبذلك يكون بشار واعظاً ومرشدا اجتماعياً في حكمه هذه:

وحارب إذا لم تُعطَ إلا ظُلامةً   شبا الحربِ خيرُ من قبول المظالم

وأَدنِ على القربى المقربَ نفسَهُ   ولا تُشهدِ الشورى امرأً غير كاتمِ

فإنكَ لا تستطرد الهم بالمنى   و لا تبلغ العليا بغيرِ المكارمِ

يـــرفض بشـــار الظـــلم مهما كانت نتائجه ومبرراته، ويدعو للموت في الوقائع والقتال لأنه أحفظ للكـــرامة، ويوصـــي بكتمان الأمور عملاً بنصيحة النبي صلوات الله عليها القائلة: (عليكم بقضاء حوائجكـــم بالكتمان)، ويرى ضرورة عدم مشاورة عديمي الثقة ولو كانوا من الأقارب فقد يكونوا أحـــيانا كالعقارب، ويبين أن النصر لا يأتي بالأماني، بل يأتي بالشجاعة في ساحات القتال، ويشير إن المكارم ما انقادت يوماً لحالم بقدر ما هي فعل الخير والتضحية في سبيل العزة والكرامة.فيجيبه بشار: يا أبا سعيد إن المشاور بين صواب يفوز بثمرته، أما إذا أخطأ فيشارك في وزره. فيقول له الأصمعي وقد أخـــذت حكمـــة بشار عليه إعجابه:أنت والله في قولك هذا أشعر منك في شعرك". وتشاء مجريات القضاء والقدر أن تموت للمهدي ابنة اسمها البانوقة، فيحزن عليها حزنا شديدا، ويأمر ألا يحجب عنه أحد، فيدخل الشعراء والخطباء يعزونه ويدخل بشار فلا يقول شعرا، وإنما يقول كلاما أكثر نفاذا إلى قلب الملك المرزوء من شعر أبلغ الشعراء، يقول بشار للمهدي: يا ابن معدن الملك وثمرة العلم، إنما الخلق للخالق وإنما الشكر للمنعم، ولا بد مما هو كائن، كتاب الله عظتنا ورسول الله ﷺ أسوتنا، فأي عظة بعد كتاب الله وأي أسوة بعد رسول الله ﷺ ؟ مات فما أحسن الموت بعده ! . الحق أن الذي يقرأ هذا الكلام لبشار يصيبه العجب حين يقرأ أنه مات على الزندقة، ومن نفيس ما يؤثر عن بشار مـــن كلام حكيم منثور قوله:" لقد عشت في زمان وأدركت أقواما لو احتفلت الدنيا ما تجملت إلا بهم، وإني الآن لفي زمان ما أرى فيه عاقلا حصيفا ولا فاتكاً ظريفا ولا ناسكاً عفيفا ولا جوادا شريفاً ولا خادمـــاً نظيفا ولا جليساً خفيفا ولا من يساوي على الخبزة رغيفا". ثم ختم هذه الأسماع العذبة ببيت من الشعر عميق المعنى:

فـــما الناسُ بالناسِ الـــذين عرفتهم   ولا الدارُ بالدارِ التي كنتُ أعرفُ

لعـــل من الحكمة الوقوف عند نقطتي الضعف عند بشار وهما: (كف البصر والميلاد على العبودية)، فهمـــا الآفـــتان اللتان أسهمتا في حدة مزاج بشار، فأبعدتاه عن التوسط في معالجة الأمور، ووضعتاه دائمـــا ســـواء أكان هذا التطرف أقصى اليمين أم أقصى اليسار، وإلا كيف نفسر فخره بالفرس إلى

الدرجة التي يحط فيها من قدر العرب، ثم نجده من الناحية الأخرى يفخر بالعرب وبمضر وقيس خاصة فخـــرا لم يرتفع إلى مستواه فيه شاعر آخر ؟ويحكى أنه لما دخل بشار على المهدي قال له: بمن تعتد يا بشار ؟ فأجابه: أما اللسان والزي فعربيان، وأما الأصل فعجمي كما قلت في شعري يا أمير المؤمنين:

ونُبئتُ قوما لهم جنةٌ يقولون : من ذا ؟ وكنتُ العلم
ألا أُيها السائلي جاهلاً ليعرفني أنا أَنفُ الكرم
نمت في الكرامِ بني عامر فروُعي وأصلي قريشُ العجم
وإني لأغني مقامَ الفتى وأصبي الفتاةَ فلا تعتصم

لا تثريب على بشار في فخره الجميل هذا، فقد أجرى موازنة جميلة بين منتماه في الكرام من بني عامر والكـــرّام من رهطه الأعجمي، الذين شبههم لشرف مقدارهم بين الفرس بقريش الشريفة القدر بين العرب.وينفلت بشار من ولائه للعرب لدرجة ما، ويربط هذا الولاء بمولى الجميع وهو الله عز وجل مـــن عـــربٍ وعجم وملك الملوك في شرق وغرب، فيقول مخاطباً نفسه زائحا عن كاهله كل عبء وولاء، إلا لله سبحانه وتعالى. فيقول هذه الأبيات العميقة المعاني البعيدة الأهداف:

أصبحتَ مولى ذي الجلالِ وبعضهم مولى العُريبِ فخذ بفضلكِ فافخرِ
مولاكَ أكـــرمُ مـــن تميمٍ كُـــلها أَهـــلِ الفعالِ ومـــن قريشِ المشعرِ
فارجع إلى مـــولاكَ غير مُدافع سبحانَ مـــولاكَ الأجـــل الأكبرِ

رغـــم محاولة بشار الانفلات من سيادة العرب، فإنه يبدو مهذبا معهم غير متحامل عليهم معلنا بعض فضـــائلهم، فتميم أهل فعال وقريش حارسة المشعر الحرام، ومن ثم فهو يهم في أبياته وكأنما ينطلق في رحاب شفافية هي أقرب إلى معارج الصوفية منها إلى مسالك الشعراء. على أن لبشار رائيته في الفخر بفارســـيته، وتبرير عبوديته التي جاءت نتيجة لأسره، والأسر لا يعيبه، فكم من عظماء الرجال وقعوا أسارى في الحرب؟. ثم يحمل على العرب حملة شعواء ويهجوهم هجاء فاحشاً بأسلوب لم يتوافر لغير بشار إذ يقول:

سأخبرُ فاخرَ الأعراب عني وعنهُ حين بارزَ للفخارِ
أنا ابن الأكرمين أباً وأُماً تنازعني المرازبُ من طخار
أسرتُ وكم تقدمَ من أسيرٍ يُزينُ وجهُهُ عقدَ الإسار
فكيفَ ينالني ما لم ينلهم أعد نظراً فإن الحق عاري

إذا انقلبَ الزمانُ علا بعبدٍ وسفَّل بالبطاريق الكبارِ[90]

ويحكَ يا بشار أما تخجل من هذا القول في تفضيلك النار على الطين؟ وتعتد بأنك من أكارم المرازبة؟ وتفخـــر بالأسر لأنه مفخرة الرجال في الحرب، وتذم الزمان الذي حرر العرب من العبودية، وشتان بينهم كعبيد وبين بطاريق الفرس العظام!!.ولا يقف الأمر ببشار عند هذا الفخر القوي بفارسيته إلى درجة من الحرراة والحمى، ولكنه يمضي فيحمل على العرب حملة شعواء، وإذا أردنا الدقة والصدق، فإنه يحمل على الأعراب حملة كلها قسوة وازدراء وتجريح وتحقير، فيقول موجهاً كلامه إلى الأعرابي الذي عناه بهذا القول:

أحينَ لبستَ بعد العريِ خزاً ونادمتَ الكرامَ على العقارِ
ونلتَ من الشبارقِ والقلايا وأُعطيتَ البنفسجَ في الخُمارِ
تفاخرُ يا ابن راعيةٍ وراعٍ بني الأحرارِ؟ حسبُكَ من خسارِ!
لعمرِ أبي لقد بدُلتَ عيشاً بعيشِكَ والأمورُ إلى مجاري
وكنتَ إذا ظمئت إلى قراحٍ شركتَ الكلبَ في ذاكَ الإطارِ
وتقضمُ هامة الجعلِ المصلَّى ولا تُعنى بدراجِ الديارِ
وتُدلجُ للقنافذِ تدَّريها وينُسيكَ المكارمَ صيدُ فارِ
وتغبط شاوي الحرباءِ حتى تروحَ إليه من حُب القتارِ
وتغدو في الكراءِ لنيلِ زادٍ وليس بسيدِ القومِ المكاري[91]

يدأ الحقد واضحاً على العرب من بشار وهو الساكن بين ظهرانيهم، يصفهم بالعراة الهائمين وقد نالت أشواك البراري منهم وأدمتهم، والآن يرتدون الحرير، ويسبهم برعي المعز والأغنام أباً ونسباً وحسباً، وكذلك إشراكهم الكلب في مشربهم ومطعمهم، وبأنهم يأكلون الحشرات ويتلهون بصيد اليرابيع عن فعـــل المكارم، وأطيب مشاويهم من الحرباء وغيرها من حيوانات الصحراء، وبأنهم يجوبون الصحراء على ظهور الحمير عبيداً يتنقلون من مكان لآخر، فهذه الصفات ليست صفات كرام، وليس للعرب الحق بالفخر والسيادة، فلقد تعلموا من الفرس السيادة والكرامة، فلا يحق لهم أن ينكروا فضلهم.إن الذي ينظر في هذه الأبيات يجد فيها من التعريض بالعرب أو بطائفة منهم ما ينال من كرامتهم ويحط مـــن مروءتهم، وبالتالي يكون قائل هذا الشعر وهو بشار قد بلغ درجة من عدائه الصريح للعرب لم

[90] –المرازب:تعني الرئيس من الفرس، طخار: بلدة من بلاد الفرس مسكن أجداد بشار ، البطاريق : قادة الجيوش عند الروم.

[91] –الخز: الحرير ، العقار: الخمر ، الشبارق: الثوب المقطع ، القلايا : اللحم المقلى ،الجعل : خنفساء سوداء تعيش على روث البهائم ، المصلى:شواه على النار ، تدلج : تسير ليلا ، تدريها : تأخذها بالحيلة ، القتار: ريح الشواء .

يصل إليها أحد، ولم يجرؤ عليها شاعر في مثل مرتبته،كشاعر مدين للعرب بشهرته ومجده وبيانه، وقد جعلته شعوبيته ينظر بعداء أبدي للعرب.ولكن لو تتبع الفرد السبب في قول القصيدة، أو المناسبة التي قيلت من أجلها لا يلبث أن يلتمس العذر لبشار، ويعرف أن بشاراً لم يقصد إهانة العرب قصدا، وإنما يرد فيها على إعرابي جلف تحرش به بغير سبب ونال من كرامته لغير ما داع، إلا لغرور وصلف به، وذلك عندما دخل على مجزأة بن ثور السدوسي وعنده بشار وعليه بزة الشعراء، فقال الأعرابي: من الرجل ؟ فقيل له:شاعر فقال: أمولى أم عربي ؟ قيل له: بل مولى. فقال الأعرابي مستخفاً: وما للموالي وللشعر؟ فغضب منه بشار: وسكت هنيهة ثم قال لمجزأة: أتأذن لي يا أبا ثور ؟ فقال له: قل ما شئت يا أبـــا معاذ، فأنشأ في حمى غضبه هذه القصيدة النارية التي أنشدها تحت وطأة هذه المناسبة المهينة، ثأراً لكرامته ونيلاً من أعرابي يعتدي على الناس بغير سبب يدفعه إلى الاعتداء، وألا أن بشاراً مولى وليس بعربي صريح، وعلى قدر ما وصل من شعر لبشار واستعراض قصائده التي يفخر فيها بفارسيته، لم يعثر له على قصيدة تنال من العرب هذا القدر من النيل.لكن بشاراً يمدح قيساً ومضراً في رائيته المشهورة والتي يسميها ابن المعتز رائيته العجيبة حيث يقول :

أمنتُ مضرَّةَ الفحشاءِ إني ... أرى قيسا تضرُ ولا تُضارُ

لقد علم القبائل غيرَ فخرٍ ... على أحدٍ وإن كان افتخار

بأنا العاصمون إذا اشتجرنا ... وأنا الحازمون إذا استشاروا

ضمناً بيعةَ الخلفاءِ فينا ... فنحنُ لها من الخلفاءِ جارُ

لنا بطحاءُ مكة والمصلى ... وما حاز المحصبُ والجمارُ

وساقيةُ الحجيجِ إذا توافوا ... ومبتدرُ المواقفِ والنفارُ

وميراث النبيِّ وصاحبيه ... تلاداً لا يباعُ ولا يعارُ

أحســـنت يا بشار بهذه القصيدة الرائعة، والتي تناولت فيها فضائل العرب وطيب معاملاتهم وحسن أخلاقهم وكرمهم وفروسيتهم وشجاعتهم.والحق أن هذا القدر من القصيدة لا يغني عن قراءتها فهي غزلية سياسية فخرية تاريخية صيغت في هذا الثوب من الفحولة وهذا النهج من الإيقاع الجميل.وهي واحـــدة من أشهر قصائد بشار، ومهما قيل في رقة غزلها وخطر المذهب السياسي الأموي المنبث فيها من أولها إلى أخرها، فقد كان بشار أموي الهوى كما هو معروف، فهي من أرفع درجات الفخر بنزار ومـــا تفرع منها من قبائل.ومن أبرع الهجاء في اللفظ المهذب،قصيدة صاغها في أخو كعب بن قزعة ولاسيما المعنى المؤلم في هجاء بشار لعبيد الله ابن قزعة:

خلَيليّ من كعبٍ أعينا أخاكمـــا ... على دهـــره إن الكريم معينُ

ولا تبخــلا بخلَ ابن قزعةَ إنــهُ مــخافةَ أن يُرجى نَداه حــزين

كأن عُبيدَ اللهِ لم يلــقَ ماجــداً ولم يَدرِ أن المُكــرمُاتِ تــكون

إذا جئتَه فــي حاجةٍ سَدّ بابــهُ فلــم تلقَــهُ إلا وأنت كــمين

مــا هذا الإسراف في إهانة الرجل ووصفه بالبخل الشديد، ونعته برحيل المكارم عنه وهروبها منه، و استحالة سماعه بالكرم ما بقي على قيد الحياة، حتى ولو نصبت له كمينا لمباغتته، فإن ذلك من الأمور المحالة فهو أشبه بالندى الذي يصعب توقعه متى يحدث .ويبين بشار فنه في إجادة الهجاء، ويعمد بشار في إحدى قصائده الشيطانية إلى مخاطبة الغريزة عند الفتيات الغريرات في تشجيع الإباحية عند الصبايا واللعب بغرائزهن وكأنه عالم بخبايا النفوس وما توسوس الشياطين لها:

عجبت فطمةُ من نعتي لها هل يجيدُ النعتَ مكفوفُ البصر

بنتُ عشرٍ وثلاثٍ قُسمت بين غُصنٍ وكثيبٍ وقمر

درةٌ بحــريةٌ مكنونــةٌ مازها التاجرُ من بين الدُرر

أذرتِ الدمعَ وقالت : ويلتي من ولوعِ الكفِّ ركابِ الخطر

أمتي بــددَ هــذا لُعبي ووشاحي حلهُ حتى انتشر

فدعيني معــهُ يــا أمتي علنا في خلوةٍ نقضي الوطر

لا يقــف الأمر بشعر بشار عند هذا الانحراف الاجتماعي والأخلاقي، وجلد الصبايا بسوط لا يرحم من لفت أنظارهن إلى ما ينبغي صرفهن عنه بوسائل القول المهذب الذي يجنبهن فترة الخطر في مرحلة صباهن الباكرة، وإنما يعرج على الحرائر فينال من قدرتهن على دفعهن للانحراف، بل ويدعو للتشجع والمجاهرة بالمعصية، ويشكك طلاب اللذة والإثم في مقدرة المحصنات على الاحتفاظ بعفتهن، فيدعو إلى الفحشاء وينال من الحرائر والطاهرات من نساء زمانه وزمان غيره في قوله:

قاسِ الهمومَ تنل بها نُجحا والليلُ إنَّ وراءهُ صبحا

لا يؤيسنَكَ من مخبأةٍ قولٌ تُغلظُهُ وإن جرحا

عُسرُ النساءِ إلى مياسرةٍ والصعبُ يمكنُ بعدما جمحا

لقد ضج شرفاء مجتمع العراق من هذا اللون من الشعر الفاجر، وثار المصلحون من أمثال واصل بن عطاء ومالك بن دينار وسوار بن عبد الله ويزيد بن منصور الحميري خال المهدي، حتى اضطر المهدي إلى أن يأمر ببشار، فيحضر أمامه ووجه إليه من الشتائم ما لا يتوقع خروجه من فم أمير المؤمنين، إنه يقــول لبشــار تعلــيقا على أبياته السابقة: تلك أمك يا كذا... أتحض الناس على الفجور وتقذف المحصــنات المخبآت ؟ والله لئن قلت بعد هذا بيتا واحدا في نسيب، لآتين على روحك، وهكذا أقلع

بشار مرغما عن قول النسيب، وربما كانت هذه الأبيات ومثيلاتها هي التي جعلت المهدي ينهي حياة بشـــار جلدا بالسياط.لقد عاش بشار في هذا المجتمع الفكري الرفيع ينفث سموم الإباحية والانحراف والدعوة إلى التحلل الخلقي، وعده صاحب الأغاني من رجال المعتزلة وأصحاب الكلام الستة، ومهما كان الأمر فإن مشاركة بشار في علم الكلام، لا بد أن تجري الحكمة على لسانه مختلفة الألوان متعددة الموضـــوعات، متنوعة الأهداف مرتبطة كلها بأحداث الحياة وصروف الزمان، وعلاقة الناس بعضهم الـــبعض في نطـــاق الصلات الشخصية والرغائب والحرمان والتمنيات، ويقول بشار معبرا عن طمع الناس في الممنوع:

قد أدركُ الحاجةَ ممنوعةً وتولعُ النفسُ بما لا تنال

والهمُ ما أمسكتَه في الحشا داءٌ وبعضُ الداءِ لا يُستَقال

فاحتملِ الهمَّ على عاتقٍ إن لم تسُاعدك العلندي الجلال[92]

ويصـــطنع بشار الحكمة فيجعلها سبيلا إلى التعامل مع الناس ودستورا لروح التسامح بين الأصدقاء، ويصوغها في هذا الإطار النفيس من الشعر العذب الإيقاع كقوله:

إذا كنتَ فـــي كل الأمورِ مُعاتباً صديقَك لم الذي لا تُعاتبُه

فعش واحداً أو صل أخـــاكَ فـــإنه مُقارفُ ذنبٍ مرةً وُمجانُبه

إذا أنتَ لم تشرب مراراً على القذى ظمئتَ وأيُّ الناسِ تصفُو مشاربُه ؟

الـــناس في شـــكوى أبديـــة من الزمان، إنهم يعتبون دائما عليه وهكذا تمضي سنة الحياة، فالناس لا يرضيهم الدهر، وإن أرضى القلة أسخط الكثرة، وبشار واحد من هؤلاء الذين يتعاملون مع الزمان، شأن من يتعامل معه من البشر ويلقى منه ما يلقون، فيقول في إطار من الحكمة:

عتبتُ على الزمانِ وأيُّ حَيٍّ من الأحياءِ أعتَبَهُ الزمانُ

وآمنةٍ من الحدثانِ تُزري عليَّ وليس من حدث أمانُ

وليس بزائلٍ يرمي ويرمي مُعانٌ مرةً أو مُستعانُ

متى تأبَ الكرامةَ من كريمٍ فما لكَ عنده إلا الهوانُ

ولِمَ هـــذا التشـــاؤم والحقـــد على الزمان! قل لي ما هي أفضال الإنسان على الزمان!! غير ارتكاب المعاصـــي و فعـــل السوء!!! لا بد من العودة لله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب ؟.ويتابع شكواه من الزمان في قوله:

---

[92] -العلندي : الجمل القوي ، الجلال: العظيم .

يا خليليَّ أَصيبا أو ذرا ليس كلُّ البرقِ يُهدي المطرا
لا تكونا كامرئ صاحبتُه يتركُ العينَ ويبغي الأثرا
ذهبَ المعروفُ إلا ذكرُهُ ربما أبكى الفتى ما ذكرًا
وبقينا في زمانٍ مُعضلٍ يَشربُ الصفوَ ويُبقي الكدرا

إن شكوى بشار في أبياته هذه من الزمان تحمل معاني عميقة من المرارة ولا شك في أنه قالها في آخر حياته حينما تفرق أحبابه، ورحل خلانه الذين كانوا ذات يوم يملؤون الحياة عليه، فأين هم الآن منه!!؟ وقد قال في الصحبة الناكرين الجاحدين القيم والوفاء، وللأسف هذه هي حال بني البشر في الشدائد والمحن، إلا من رحم ربي وغفر وستر:

أحسن صحابتنا فإنكَ مدركٌ بعضَ اللُبانة باصطناعِ الصاحبِ
وإذا جفوتَ قطعتُ حبلَ مودتي والدَّرُّ يقطعُهُ جفاءُ الحالبِ
تأتي اللئيمَ وما سعى حاجاتُهُ عددَ الحصى ويخيبُ سعيُ الدائبِ

الرأي الشائع عن بشار أنه زنديق بعيد عن الإسلام، ولقد ظهرت زندقته في صور متعددة لعل أبسطها دعوته إلى الفسق وتحريضه على الفساد، وتصدره حركة الانحلال الأخلاقي نحو الزندقة والإلحاد.ومن الغريب أن بشارا ارتدى ذات يوم مسوح الإيمان، وإن لم ينهج سبيل الاستقامة، وذلك حين ارتبط بواصل بن عطاء برباط المودة ووشائج الفكر المستقيم، ثم ما لبث أن تخبط في عمايات الريب ومتاهات الشكوك وعقائد الملاحدة ومسالك الزنادقة، وأخذ يدين بالرجعة حسب رواية الجاحظ ويكفر جميع الأمة، وزعم أن جميع المسلمين كفروا بعد وفاة الرسول ﷺ. وكان فيما لو صحت الرواية–قد بدأ أول أمر انحرافه يمجد النار على الطين على طريقة إبليس ويقول:

الأرضُ مظلمةٌ والنار مشرقةٌ والنارُ معبودةٌ مُذ كانت النار
إبليسُ خيرٌ من أبيكم آدم فتنبهوا يا معشر الفُجار
النارُ عنُصرُهُ وآدمُ طينةٌ والطينُ لا يسمو سمو النار

والواقع أن هذا المذهب الذي يعبر عنه بشار هو مذهب المجوسية التي تؤله النار، وتجعل لها بيوتا على نحو ما هو معروف في تاريخ العقائد الفارسية.ويؤكد الشريف المرتضى زندقة بشار، بأنه كان دهرياً[93]، ويعدد معه عصبة الملاحدة الدهريين، وكلهم من الشعراء الذين عبروا عن زيغهم في وضوح وفي غير خوف، ومنهم حماد الراوية، وحماد عجرد، وحماد الزبرقان، وعبد الله بن المقفع، وعبد الكريم

93 –الدهريون: قوم ذهبوا إلى قدم الدهر وإسناد الحوادث إليه ولا يؤمنون بالآخرة .

بن أبي العوجاء، وصالح بن عبد القدوس الأزدي والوليد بن يزيد، وغيرهم[94]. ويعبر بشار عن الشك الذي يميز عقيدته حسب رواية المرتضى على لسان ابن خلاد بقوله:

طُبعتُ على ما فيَّ غيرَ مُخيرٍ هوايَ ولو خُيرتُ كنتُ المهذبا

أَريدُ فلا أُعطى وأعطى ولم أُرد وغيُبَ عنِّي أن أنالَ المغيبا

وأُصرفُ عن قصدي وعلمي مبُصرٌ فأمسي وما أعقبتُ إلا التعجُبا

لكن هذه الأبيات على الرغم من أنها أبيات بلاغية، قد لا تكون تعبيرا عن الشك الديني بقدر ما هي تعبير عن الحيرة والتعجب أمام تصاريف المقادير، فليس في الأبيات من الصراحة ما ينسب إلى الإنكار أو الإلحاد أو الزندقة، وما أمر تهمة الزندقة أو الإلحاد في شعر بشار، إنما بسبب سلوكه الذي قد جعل أكثر الناس أعداء له إلى المدي الذي جعل الناس ولو صحت الروايات يقابلون خبر موته بالكثير من السرور والفرح، وكانوا يهنئون بعضهم بعضا ويتصدقون[95]. والأصح أن بشار إستغضب الملك العباسي المهدي ووزيره القوي يعقوب بن داو ود حين قال البيتين السياسيين اللذين كانا السبب المباشر في قتله، وليس تهمة الإلحاد كما إستغضب بشار كبير علماء البصرة وشيخ المعتزلة واصل بن عطاء حين هجاه بأبيات، مما حرض واصل بن عطاء على قتله ووصمه بالإلحاد، وهي وصمه لا بد أنها بلا شك تشريع وفتوة قاتلة، لأنها صادرة من رجل له وزنه عند الخاصة والعامة:

لا يأيسنَّ فقيرٌ من غنيً أبدا بعد الذي نالَ يعقوبُ بنُ داو ود

قد صار من بعدِ إشراف على تلفٍ وبعدَ غُلٍّ على الزندينِ مشدود

لئن حسُدتَ على ما نلتَ من شرفٍ لقد عنيتَ زماناً غير محسود

ويحك ما لهذه الجرأة في تحدي ولاة الأمر؟ والذي ثمنه حياتك!؟ فتبين أن ابن داود ظهر في زمن لا يحسد الزمن على هكذا رجال!! يدّعون أنهم ولاة الأمر ويفعلون بعكس ما يقولون، لقد طفح الكيل وكأنك تقود روحك للهلاك:

ظِلُّ اليسارِ على العباسِ ممدُودُ وقلبُهُ أبداً في البُخلِ معقود

إن الكريمَ ليخفي عنك عسرته حتى تراهُ غنياً وهو مجهود

وللبخيلِ على أموالهِ عللٌ زرقُ العيُونِ عليها أوجهٌ سود

ماذا الوصف لولي الأمر بالبخل ! إنك تشوهه وتضعه مسبة للتاريخ عبر الأزمان بسبب ما وضعت فيه من صفاتِ كريهة لا يقبلها أحد، وإن خير الأمويين بقي في يسر ونعم، وما أن جاء أبن يعقوب

---

[94] -الأمالي 128/1.

[95] -الأغاني 248/3.

حتى ساد القل والبخل والقحط فلله دَرك؟!

بني أُميّةَ هبوا طَال نومُكم ... إن الخليفةَ يعقوبُ بنُ داوُد
ضاعت خلافتُكم يا قومُ فالتمسوُا ... خليفةَ اللهِ بينَ الزِّق والعودِ

مالك تنبه بني أمية وتحذرهم من خليفة يسوس الأمة من وراء اللهو والعربدة وفعله المنكر؟ وهل يروق هــذا القول لسامع؟ وإن كان في قولك ثمة شيء من الصحة، إنك تجاوزت الأعراف وتطاولت على الأشراف. والمتتبع لشعر بشار يصعب عليه إيجاد مخرج له من صفة الزندقة التي اتهم بها لو صحت نسبة الأبيات التي مجد فيها إبليس وفضل النار، أما تصرفات بشار فبالرغم من شرورها فقد تضعه في مكان العصيان دون مكان الكفر. ، ولكنه في الآخر يؤمن بيوم القيامة والبعث والحساب حين يتعجب من الذين يبكون على الأطلال، ومستهزئاً بهم بأنه سيأتي يوم لا نفع فيه للبكاء، وإنما فعل الخير هو عين الصــواب ولعل تفكير الإنسان بفضل الله ونعمه وعقابه للعصاة والمجرمين يكفي الفرد، ويشغله عن الوقوف والبكاء على الأطلال، وهنا يرشد العقول لأن تصحو من غفلتها وجهلها وتعود إلى الله عز وجــل. ويحك يا بشار: فالفرد فيك يحار؟ تدعو للعصيان من جهة وتغرز بالدعوة لسلوك الانحراف وتــبين أن لا خير في الدنيا سوى الإيمان وطلب الصفح من الواحد الديان إنها مفارقة غريبة!! ،لكنه يقول :

كيف يبكي لمحبسٍ في طُلول ... من سيُقصى ليوم حبسٍ طَويلِ
إن في البعثِ والحسابِ لشُغلا ... عن وقوفٍ برسمِ دارٍ محيلِ

ويكرر بشار إيمانه بالمعاد في قوله :

أنا من قد علمتِ لا أنقض ... العهدَ ولا تستخفُّني الأهواءُ
وعجيبٌ نكثُ الكريم ... وللنفس معاذٌ وللحياة انقضاءُ

وبشــار يحــب الرسول وصحابته وأهل بيته الكرام، ولحبه الرسول، يحب أحفاده وآل بيته من أبناء فاطمــة، برغم كونه أموي الهوى، و يعبر عن ذلك في قوله في مدح إبراهيم بن عبد الله في القصيدة المشهورة التي حولها إلى مدح أبي جعفر المنصور:

من الفاطميينَ الدعاةِ إلى الهُدى ... جهاراً ومن يهديكَ مثلُ ابنِ فاطمِ

يحــب أحفــاد الرسول و يحرم على نفسه هجاء من يمتون إلى الرسول بصلة القربى من بني العباس، ويــتورع عــن هجائهم. يقول ابن المعتز: إن المهدي لما قتل بشاراً ندم على قتله وأحب أن يجد شيئا يــتعلق به، فبعث إلى كتبه فأحضرها وأمر بتفتيشها طمعا في أن يجد فيها مما ضربه عليه، فلم يجد من ذلك شيئا، ووجد صحيفة مختومة فظن أن فيها شيئا، فأمر بفضها ونشرها فإذا فيها:

بســم الله الرحمن الرحيم، إني أردت أن أهجو آل سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس، فذكرت قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمنعني ذلك من هجوهم، ووهبت جرمهم لله عز وجل، وقد قلت بيتين لن أذكر فيهما عرضا، ولم أقدح في دين وهما:

دينار آل سليمانٍ ودرهمهم كالبابليين شُدا بالعفاريتِ

لا يوجدان ولا يرجى لقاؤهما كما سمعتَ بهاروتٍ وماروتِ

أحــس بشار في حياته لكثرة من عاداهم وأخطأ بحقهم واقترافه من الآثام، بأنه سوف يُرمى بالزندقة ويوصم بها بعد مماته، وأراد أن يثبت للأجيال التالية أن تلك التهمة بعيدة عن الصحة، فكتب هذه " الوصية" التي برأت جانبه والتي ترجح جانب الإسلام في عقيدته، ونفت عنه وصمة الكفر والزندقة.

وربما يجد المتتبع في شخصية بشار الكثير من التناقض والسبب يعود من جهة لعقدة العمى، ومن جهة أخــرى لكونه من الموالي، فشخصية بشار تنازعتها صراعات متناقضة وهذا ما ظهر من خلال أقواله وجــرأته أحــياناً على ولاة الأمر، مما أودى به إلى الهلاك، وفي الوقت نفسه كان يدعو المراهقين إلى الانحــراف بطريق الرذيلة، وبمكان أخر يؤمن بالقضاء، وأنه لا بد من نهاية للإنسان وسيلقى جزاءه، وبكل الأحوال يصعب الحكم عليه بموجب ماقيل وما نقل عنه. فمصادر التاريخ هي الحكم والفصل.

ورحم الله جبران خليل جبران إذ يقول:

(...إذا جــاء أحدكــم بالــزوجة الخائــنة إلــى المحاكمة، فليزن أولاً قلب زوجها بالموازين، وليقس نفسه بالمقاييس، وكل من شاء أن يلطم المجرم بيمينه يجدر به أولاً أن ينظر ببصيرة ذهنه إلى روح من أوقع الجرم عليه، وإن رغب أحد منكم في أن يضــع الفــأس على أصل الشجرة الشريرة باسم العدالة فلينظر أولاً إلى أعماق جذورهــا، وهــو لا شــك واجد أن جذور الشجرة الشريرة وجذور الصالحة، وغير المثمرة، كلها مشتبكة معاً في قلب الأرض الصامت.

أمــا أنتم أيها القضاة الذين يريدون أن يكونوا أبراراً، أي نوع من الأحكام تصدرون علــى الــرجل الأمين بجسده السارق بروحه؟ أم أي عقاب تنزلون بذلك الذي يقتل الجسد مرة ولكن الناس يقتلون روحه ألف مرة؟).

دعبل الخزاعي

حكمة:

(عـيوب الناس نحفرها على النحاس، أما فضائلهم فنكتبها على الماء، وما أجمل الإنسـان الذي يجعل الفرح شكراً، والحزن صبراً، والصمت تفكراً، والنظر اعتباراً، والنطق ذكراً، والحياة طاعة، والموت أمنية).

أنا اللهيب وأنا الهشيم اليابس وبعضي يأكل بعضي، فهلا حولت وجهك عني لكي لا يعميك دخاني!

إنـما العيشُ خـلالٌ خمسـةٌ حبـذا تلـك خـلالاً حبَّـذا

خـدمةُ الضَّيفِ وكـأسٌ لـذّةٌ ونديـمٌ وفتـاةٌ وغنَـا

وإذا فـاتَكَ منـها واحـدٌ نَقَـصَ العيشُ بنقُصـانِ الهـوى

إنـه أبـو علي محمد بن علي بن رزين الملقب دعبلاً من بني خزاعة من أصل عربي، ينتهي نسبه إلى قحطان، ولد في الكوفة سنة 765م وتوفي سنة860م، ونشأ ناقماً هجاءً، جمع إلى بغضه للناس جفاءً في الطبع، يعاشر الخلعاء والشطار والصعاليك، و انتقل إلى بغداد في بداية حياته، ويعد شاعراً فحلاً، من أعلام الشعر، وفي الوقت نفسه كان تلميذا لمسلم بن الوليد ملازما له، ومعجباً به متلقياً عنه نظم الشعر، فكان دعبل يقول مفاخرا:

أينَ الشبابُ وأيَّـةً سَلَكَا ؟ لا أينَ يُطلَبُ ؟ ضَلَّ بَل هَلَكا

لا تعجبي يـا سلمُ من رجلٍ ضَحِكَ المشيبُ برأسه فبَكَـى

يـا ليتَ شِعري كيفَ نَومكما يا صاحبيَّ إذا دَمِـي سُفِكَـا

لاَ تأَخُذوا بظلامتـي أحـداً قلبِي وطَرفِي فـي دَمي اشتَركَا

والحـق أن بيـت الشعر الثاني لدعبل قد جرى على كل لسان، وغنته أكثر القيان المغنيات المجيدات لفـترة طويلة من الزمان، بل إن " المكارية" كانوا يتغنون به وهم يسوقون حميرهم التي تحمل ركابها، وحدث ذات مرة أن دعبلاً نفسه كان يكتري بغلاً، فإذا به يسمع المكاري من خلفه يتغنى بالبيت(لا تعجـبي ياسلم..)، فسر دعبل لذلك، وأراد أن يشغل المكاري بحديث، يصرفه عن حث البغل على السـرعة في المسير. فقال له: أتعرف لمن هذا الشعر يا فتى ؟وتوقع دعبل أن يلقى جواباً يرضيه، أو يسـمع اسمـه عـلى شـفتي المكاري، ولكن المكاري كان من سلاطة اللسان، فأجاب: هذا الشعر لمـن....أمه).ولعل هذا الشعر قد دفع بالرشيد، للسؤال عن قائله، فقيل له:دعبل بن علي الخزاعي، فأمـر الرشـيد بإحضاره، في أن يراه متى يشاء. وحياة الشاعر فيها ملامح بارزة ليس من سبيل إلى تجاهلها، فلقد نشأ دعبل نشأة غريبة، حوت شراً كثيراً وخيراً قليلاً. فقد أصطحب الشطار وشاركهم

جرائمهم، واشترك في التربص لصراف في الكوفة، وقتله في الطريق بقصد الاستيلاء على المال الذي يحملـــه، ولشد ما كانت خيبة أمله مؤلمة حين أكتشف، أن الصراف القتيل لم يكن يحمل معه كيسه. هـــذه الشخصـــية الشريرة دفعت بصاحبها إلى التصعلك والأسفار الطويلة، والتي صورت تصويراً ملكـــت عـــلى المأمون إعجابه، و بهذه الأسفار كان دعبل يقابل الشراة والصعاليك فلا يؤذونه، بل كـــانوا يؤكلونـــه ويشـــاربونه ويبرونه، فلقد جاب دعبل الأقطار والأمصارّ، فبينما هو في الأهواز وخراسان، إذ به في مكة والحجاز، ثم إذ هو في أقصى جنوب مصر في أسوان، و يصور رحلاته بقوله:

وإن امرءاً أمست مساقطُ رَحلِه　　　بأســوانَ لم يترك له الحرصُ معلَماَ
حللتُ محلاً يَقصُــرُ البرَقُ دُوَنَـــهُ　　　ويَعْـــجزُ عنهُ الطَّيفُ أن يتَجَشَّما

يـــبين تجشمه للأهوال والمصاعب فكأنه خلق لها، ويعدُّ نفسه معلماً ومتمرساً في المخاطر، أغلب الظن أن هـــذه الحياة الشرسة التي عاشها دعبل كانت عاملاً فعالاً في تطاوله على الناس، وهجائهم هجاء مقذعاً، يسوي في ذلك بين الكبير والصغير، الخليفة والحقير.وهجا دعبل أبا سعيد المخزومي الشاعر مـــن بني مخزوم، حتى أخذ شكل النقائض، فما كان من بني مخزوم، وحفاظاً على أعراضهم من لسان دعبل، إلا أن يتبرأوا من أبي سعد، وادعوا أنه مجهول النسب، وأصدروا في ذلك إعلاماً للناس، مع أن أبا سعيد هذا لم يفعل مع دعبل أكثر من أن رد عليه، حين تعرض دعبل لقومه بالهجاء بقوله:

عِصابَةٌ من بَنِي مخزوم بِتُّ بهم　　　بحيثُ لا تطمعُ المِسحَاةُ في الطِّين

ومن الطريف أن سعدا، وقد شعر بالمرارة وخيبة الرجاء إزاء قرار قومه، رأى أن يتبرأ هو الآخر منهم، فجاء (بنقاش)، ونقش على خاتمه هذه العبارة: " أبو سعد العبد بن العبد بريء من بني مخزوم".وهجاء دعبل للمأمون الخليفة المثقف مشهور، والغريب أن الخليفة، كان يتلذذ بسماع شعر دعبل على الرغم مـــن سلاطة لسانه على بني العباس ورجالاتهم، وكان كثيراً ما يطلب من جلسائه والمقربين إليه، أن ينشـــدوه شعراً لدعبل، ويروى أنه كان كثير الترديد لأبيات جميلة أنشأها دعبل في سفرة طويلة قال فيها:

وقائلةٍ لما أستمـــرَّتْ بها النوَّى　　　ومَحجرُهـــا فيـــهِ دمٌ ودُمـــوعُ
ألم يأنِ للسفرِ الذين تحملوا　　　إلى وطـــنٍ قبلَ المـــماتِ رجُوُعُ
فقلتُ ولم أملك سوَابقَ عَبرة　　　نطقنَ بـــما ضمت عليـــه ضُلُوعُ
تَبيَّنْ فكمْ دارٍ تَفرقَ شَملُها　　　وشَمل شَتيت عادَ وَهـــوَ جميع
كذاكَ الليالِي صَرفُهن كما تَرى　　　لِكُـــلِّ أنـــاسٍ جدبَـــةٌ ورَبِيعُ

ثكلتك أمك يا دعبل ! ما هذه البراعة في وصف ألم الفراق؟ وغرغرة الدموع في المحاجر؟ حتى سلبت

فؤاد المأمون بكلام تضج اللوعة والحكمة في ثناياه، وهو الأديب الذي يقدر قيمة الشعر ويجله، لقد كان المأمون حرياً بأن يغرم بترديد هذه الأبيات، فهي من أجود الشعر وأرقه وأجزله، وأكثره أخذاً بمجامع الوجدان والإفهام. كان المأمون يقول: ما سافرت قط إلا وكانت هذه الأبيات نصب عيني في سفري وهجيري، ومسليتي حتى أعود. إن لدعبل مكانة رفيعة القدر في دنيا الشعر، الأمر الذي جعل المأمون يفتن بشعره برغم هجائه إياه، والأمر الذي جعل البحتري يفضله على مسلم بن الوليد على الرغم من هجائه لأبي تمام أستاذ البحتري وصاحب الفضل الكبير عليه بأبيات طعن فيها في نسبته إلى طيء. ولولا تطرف دعبل في الهجاء ونيله من أعراض الكرام، لكان له شأن آخر، ومع ذلك فإن له من الشعر الرصين المتين أبياتاً ما زالت تجري على ألسنة صفوة المتأدبين مجرى الإعجاب، فهو صاحب القول:

يموتُ رديءُ الشعرِ من قبلِ أهلِهِ ⁂ وجَيدُهُ يحيا وإن ماتَ قائلُهْ

قول سديد ينطبق على الشعر في كل زمان ومكان، ولعله أكثر ما يكون انطباقاً على بعض شعر زماننا هذا الذي نحياه، أليس هو القائل هذين البيتين الرقيقين الحكيمين:

وإنَّ أولى الموالي أن تُواسيهُ ⁂ عندَ السرورِ لمَن واساكَ في الحزنِ
إنَّ الكرام إذا ما أسهلوا ذَكَروا ⁂ من كانَ يألفُهم في المنزلِ الخشنِ

تشيع دعبل لآل البيت النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فكان محباً لهم متعلقاً بهم تعلقاً شديداً، وشعره فيهم شعر رائع مفعم بالعاطفة، في زمن كان التعلق فيه بآل بيت رسول الله، يعدّ جريمة كبيرة من وجهة نظر الحاكمين، ولكن دعبلاً قال قصيدته الجميلة الرقيقة(مدارس آيات خلت من تلاوة)، ويكتبها على ثوب ثم يحرم مرتدياً هذا الثوب المزين بهذه القصيدة الخالدة في آل رسول الله، ولم يكن حظ آل البيت من شعر دعبل قصيدة أو قصيدتين، وإنما أنشأ فيهم عدداً من القصائد، وكلها عذب رقيق، غير أن أشهرها جميعاً التائية الكبرى وهي:

مدارسُ آياتٍ خلت من تلاوةٍ ⁂ ومنزلُ وحيٍ مقفرُ العرصاتِ
لآل رسول اللهِ بالخيف من منى ⁂ وبالركن والتعريف والجمراتِ
ديارُ عليٍ والحسين وجعفرٍ ⁂ وحمزةَ والسجادِ ذي الثفناتِ
قفا نسألِ الدارَ التي خفَّ أهلها: ⁂ متى عهدُها بالصوم والصلواتِ ؟
ملامَكَ في أهل النبي فإنهم ⁂ أحبايَ ما عاشوا وأهلُ ثقاتي
تخيرتُهم رشداً لأمري فإنهم ⁂ على كل حال خيرة الخيراتِ
فيا ربِ زدني من يقيني بصيرةً ⁂ وزدْ حبَّهم يا ربّ في حسناتي

ألم ترَ أني مُـنذ ثلاثين حجـةً أروحُ وأغـدو دائـمَ الحسرات
أرى فيـئَهم في غيرهم مُتَقَسماً وأيديـهُم من فيـئهم صفَـرات
فآل رسولِ الله نُحفٌ جسومهم وآلُ زيـادٍ جُفْـل القَصَـرات
بنات زيـادٍ في القصور مَصونةٌ وآلُ رسول الله فـي الفَلَـوات
إذا وُتِروا مـدوا إلى واتريـهم أكُفـاً من الأوتـار مُنقبَضات

يشـيد بـأهل النبي ﷺ وبسمو سجاياهم وخلقهم الكريم، وتمسكهم بالصلاة والمواظبة على أدائها وبالعبادات والطاعات، فهم الذين يحيونها بشعائرها، وكيف يتذكرهم بالخير والصلاح، وكم يتمنى أن يحظى برضاهم؟ ويتفطر حزنا ودمعا، لما حل بهم من قبل المخطئين من آل بني أمية، ويتساءل مستغربا ؟ ! آل الـنبي ﷺ يتيهون بالفلاة، يعانون ومضطهدون، وبنات زياد بن أبيه، وقومه يرفلون بالقصور مـنعمين مكـرمين، ولقد أعجب الشيعة بهذه القصيدة إعجاباً شديداً، واهتموا بها حفظاً وترديداً في محافـلهم، وكذلك في المناسبات والمواسم التي يحيون فيها ذكر آل البيت، بل إن بعض أدبائهم، قد أضافوا إليها أبياتا تناهز التسعين لم يقلها دعبل، ولم تخطر معانيها له على بال.بل إن دعبلاً يزور الإمام عـلي الرضـا عليه السلام ويستوهبه ثوباً، فقد لبسه ليتبرك به ويجعله في أكفانه، فيخلع الإمام جبة كانـت علـيه ويعطيها له، ويصل خبر الجبة إلى أهل" قم" وكانوا متطرفين في تشيعهم لآل البيت، فسـألوه أن يبـيعهم إياها بثلاثين ألف درهم، ولكنه رفض ذلك، فخرجوا في الطريق وأخذوها منه غصباً، ولكنه هددهم بأن يشكوهم إلى الإمام، فأعطوه الثلاثين ألف درهم وكُمًّا واحداً من بطانتها.
وهكذا يجمع دعبل في سلوكه بين النقيضين، الشطارة والصعلكة والعدوان على أرواح الناس، وسب أعراضـهم وهجائهم، وبين التشيع لآل البيت وحبهم، الأمر الذي كان ينبغي أن يؤدي به إلى جادة الصـلاح وسبيل الرشاد، ومن الأجدر به أن يتعلم من مدرستهم مدرسة المثل والأخلاق ومكارمها.
لـيس ثمـة شك في أن دعبلاً كان يذوب حبـاً في آل بيت الرسول ﷺ، وله من أجمل وأمتع الشعر العربي فيهم:

طَرَقتْك طارقةُ المُنَى ببَيات لا تُظهِري جزعاً فأنتِ بدات
في حبِّ آلِ المصطفى ووصيِّه شُغُلٌ عن اللَّذات والقينَات
إنَّ النَّشيدَ بحُـبِّ آلِ محمـدٍ أزْكَـى وأنفَـعُ لي مِـنَ القَيْنَاتِ
فَاحشِ القَصيدَ بهمْ وفَرِّغْ فيهمُ قَلـباً حَشَوتَ هـواهُ باللـذات

ليكن حب آل النبيﷺ مدرسة ومنطلقاً للتسامي والرفعة بالأخلاق، وترك الدنيا وبهرجتها وما فيها من مفاسـد والتوجه للخالق بقلب سليم لا يعرف إلا الخير للبشر جميعاً.يشعر الفرد بصدق دعبل حين

يجعل حب آل المصطفى شغلا عن لذاته وقيانه.ولا تسريب عليه في هذا الوفاء والحب والتبرك من هؤلاء الأبرار،أصحاب مدرسة الهداية والنور والإيمان والتقوى. وهناك في حياة دعبل خبر فيه من الطرافة، ومفاده أن دعبلاً تقلد ولاية أسوان بمصر بعض الوقت، أي أن هذا الشاعر الذي قطع الطريق يوما ما، وتصعلك لفترات طويلة في حياته، قد أصبح بين عشية وضحاها من الحكام، وأي حكام ؟ حكام مصر، ولكنه لم يتولَ حكم أسوان لعبقرية سياسية، أو أدارية جعلته جديراً بهذا الموقع، ولكنه وفد على المطلب بن عبدا الله بن مالك والي مصرمادحاً إياه بقوله:

أبعدَ مصرٍ وبعدَ مُطلبٍ ترجو الغنى إنَّ ذا منَ العَجَبِ
أن كاثرونا جئنا بأُسرَتهِ أَو وَاحّدونا جئنا بمطلبِ

يبين أن غنى مصر يكمن بقيم الرجال وشهامتهم ورجولتهم، وعبد الله والي مصر ليس له مثيل، فهو الغنى بحد ذاته، والبيت الثاني والذي يعد من عيون الشعر، يفتخر دعبل بعبد المطلب لأنه مثله خزاعي. ولسبب ما ينقلب دعبل على عبد المطلب، ولعل السبب ينحصر في طباع الشاعر وخلقه ومزاجه المتقلب، ويهجوه أمر الهجاء وأقذعه بقصيدة طويلة يقول في بعضها:

تَلعَق مصرُ بكَ المخزياتِ وتبصُقُ في وَجهكَ المُوصلُ
وعاديتَ قوماً فما ضَرَّهمْ وشَرَّفْتَ قوماً فلمْ ينبُلُوا
شِعَارُكَ عندَ الحروبِ النَّجَا وصاحِبُكَ الأخوَرُ الأفشَلُ
فأنتَ إذا ما التَقَوا آخرٌ وأنتَ إذا انْهزَمُوا أَوَّلُ

الغدر صفة النفوس الشريرة، والحكمة التي تقول (**اتق شر من أحسنت إليه**) تتمثل في دعبل قولاً وسلوكاً، فها هو يعدّ عبد المطلب والي مصر رمز العار والخزي الذي ألحق بدوره العار بمصر، لمخازيه وسجاياه الرديئة، حتى أن الموصل أصابها البلاء بسببه، لله درك من هجاء محترف يجيد صنعته؟ إذا مدحت رفعت وإذا هجوت أثقلت وأوجعت بهجاء مرير وموجع ما بعده إيلام، وقد بلغ عبد المطلب خبر هذه القصيدة، وقصائد أخرى لدعبل فيه. وسعى الخليفة للتخلص منه بسبب هجائه له، حيث راح يفكر بطريقة يعزله من ولاية أسوان، وفي الوقت نفسه يشفي ألما في صدره من دعبل، فلقد جعل عملية العزل بحركة مسرحية يهين بها دعبلاً إهانة تليق بفعلته، حيث أرسل إليه كتاب العزل مع مولى له وقال له: انتظره حتى يصعد المنبر يوم الجمعة، فإذا علاه. فأوصل الكتاب إليه وامنعه من الخطبة، وأنزله عن المنبر واصعد مكانه.فما إن علا دعبل المنبر وتنحنح ليخطب ناوله الرسول الكتاب، فقال له دعبل: دعني أخطب فإذا نزلت قرأته، فقال الرسول: لا فقد أمرني أن أمنعك الخطبة حتى تقرأه، فقرأه وأنزله عن المنبر معزولاً.وهكذا على كل حال قد وصل إلى ما لم يستطع المتنبي أن

يصل إليه، وهو ولاية إحدى محافظات مصر. من أبرز ملامح حياة دعبل غرامه بالهجاء، حتى لكأنه قد خلق لكي يهجو الناس، ومن هجائه المرير لمالك بن طوق، أحد كبار رجال الدولة العباسية وقوادها المظفرين، فقد لج في هجائه وأقذع في النيل من عرضه، وتعرض لأهله مثال قوله:

سألتُ عنكــمُ يا بني مــالك ... فــي نــازحِ الأرضيــنَ والدانيــةْ

طُــرًّا فلــمْ تعُــرفْ لكم نسبةٌ ... حــتى إذا قلــتُ بــني الزَّانِيــةْ

قالــوا فَدَع داراً عــلى يَمْنــةٍ ... وتلــكَ هَــا دَارُهــم ثانِيــهْ

سفاهة في الهجاء يرسمها محترف في فن القدح والذم، ولم لا، فهذه مهنته التي احكم نسجها، لقد بلغت مالكــاً هذه الأبيات وأبيات أخرى أكثر منها فحشاً، فأرسل إلى دعبل من ظل يتتبع آثاره حتى عثر علــيه في الأهــواز في قرية يقال لها سوس، فاغتاله بأن ضرب ظهر قدمه بعكاز مسموم فمات بتلك القــرية، وهــو في الثامــنة والتسعين من عمره. وليس أبو سعد الشاعر المخزومي الفرد الوحيد من الشــعراء الذين هجاهم دعبل، إذ لو كان أمر هجاء الشعراء وقف عند أبي سعد لهان الأمر، ولكنه هجــا أكــبر شاعرين في عصره، هجا مسلم بن الوليد أستاذه ومعلمه النظم وأبا تمام الطائي، ومن الغريب أن يهجو دعبل مسلم بن الوليد. وذلك عندما تولى مسلم بن الوليد إمارة طبرستان، فذهب دعبل للقائه هناك، وكان مسلم بن الوليد قد بعد عن أسباب اللهو التي كان دعبل يتعشقها ويعيشها، فمــا كان من دعبل إلا أن هجاه بقصيدة مريرة على بلاغتها، موجعة لبراعة فن القول فيها، استهلها بالبيت:

أبا مَخلَــدٍ كنَّــا حَليــفَي مــودَّة ... هوانَــا وقلبانَــا جميعاً معاً معاَ

غَشَشتَ الهوَى حتى تَدَاعت أُصُولُهُ ... بنا وابتذلتَ الوصــلَ حتى تقَطعا

وأنزلتَ من بينِ الجوانحِ والحَشا ... ذَخيــرةَ وَدٌّ طالمــا قَــد تَمنَّــعَا

فلا تَلحيــَني لم أجِد فيكَ حيــلةً ... تَخَرقتَ حتى لم أجِد فيكَ مَرقعَا

فَهبْكَ يــميني استأكَلتْ فاحتَسَبْتُها ... وجَشَّمتُ قَلــبِي قَطعَــها فَتَشجعا

إنــه تطاول التلميذ على المعلم، وإن كان السبب النكران والجحود للقيم.فيطلب دعبل من أستاذه العودة لحياة اللهو والمجون، ويلومه على تخليه عن سلوك الانحراف، وتركه المعاصي والعودة إلى جادة الصواب وتوبته، ويحتقر دعبل أستاذه، ويصفه بالغشاش الكاذب والخائن للمودة التي كانت بينهما، وهــذا يعــد من أشر أنواع الهجاء إيجاعاً وأكثره احتقاراً للمهجو. إلا أن مسلم بن الوليد يرد على دعبل رداً قاسياً في "مياس"، وقد ذكرت بعض المصادر أن مياساً، ليس إلا لقباً لدعبل الخزاعي تلميذ مســلم، الذي ما لبث أن خاصمه في آخر أيامه، يقول مسلم من أبيات تعدّ من النماذج التي تتلمذ

عليها ابن الرومي في أهاجيه:

"مياسُ" قُلْ لي أينَ أنتَ من الورَى لاَ أنتَ مَعلُـومٌ ولا مَجهُولُ
لو كُنتَ مَجهُولاً جعَلتُكَ مُعلماً أو كُنتَ مَعلوماً لغَالَـكَ غُولُ
أما الهجَاءُ فَدَقَّ عِرضُكَ دُونَهُ والمدحُ عَنكَ كَمَا عَلمتَ جَليلُ
فاذهَب فَأنتَ طَليقُ عَرضِكَ إنَّهُ عرضٌ عَزَزتَ بِـهِ وَأَنـتَ ذَليلُ

يـرد الأستاذ على التلميذ العاق بوصفه بالبعد عن مكارم الأخلاق لأن طباعه الخبيثة لا يزيحها سوى الهجـاء والقـدح بغيره، ويند به قائلاً أين أنت من القيم والأخلاق فالقيم بعيدة عنك وتتجنبك بل وتتحاشـاك بسبب خستك ودناءة طبعك. ويتابع دعبل هجاءه أبا تمام فكان أكثر إيلاما من هجائه لمسلم بن الوليد، لأنه طعن في نسبه وشكك في طائيته حين قال في استخفاف:

انظـر إليـه وإلـى ظَرفِـهِ كيـف "تطايـا" وهـو مُنشـورُ
ويلَـكَ ! ! من دلاكَ فـي نِسبةٍ قلبُـكَ منـها الدهـرَ مَذعـورُ
لو ذُكِـرَتْ "طـيٌّ" على فَرسخٍ أظلَـمَ فـي نـاظِرِكَ النـورُ

يطعـن دعبل بنسب أبي تمام ساخراً من هيئة جسمه وطوله، ووصفه بضعف البنية وفقدانه للصفات الـتي تجعلـه في عداد قبيلة طي العربية، ويرد على انتمائه للعرب ببعده عنهم بعد النور عن الظلام، ومهمـا حلم بهذه النسبة، فسيبقى قلبه غير مرتاح بسبب خوفه لأن جوارح قلبه ليست عربية الهوى بالأصل. ولم يكن دعبل يكتفي بهجاء الأحياء، بل كثيراً ما كان يهجو الأموات من كرام الناس، فقد هجا الكميت الأسدي شاعر آل البيت، وناقضه في القصيدة النونية" ألا حييت عنا يا مدينا " وعرض به بقصيدة مطلعها:

أفيقِي من ملامِـكِ يـا ظَعينَا كفَاكِ اللـومَ مرُّ الأربعينَـا

وقد أضرت هذه القصيدة بدعبل، ونالت من شعبيته عند خاصة الأدباء وجمهرة الشيعة، وحطت من قـدره عـند الذين كانوا يحملون له التقدير ويكنونه. لقد أرسل الرشيد في طلبه بعد سماع شعره، وأجلسه في حضرته ووصله بصلات سنية، ومع ذلك، فإن الرشيد لم يسلم من هجائه بعد موته، فقد هجاه في قصيدته التائية(مدارس آيات) وذلك قوله:

قَبـرانِ في طُـوسَ : خيرُ الناسِ كلـهِمُ وقبرُ شرِّهُـمُ هـذا مِنَ العِبـرِ
ما يَنفعُ الرجْسَ من قُربِ "الزكيِّ" ولا على الزكيِّ بقـربِ الرجسِ من ضَرَرِ
هيـهاتَ كلُّ امرىءٍ رِهْنٌ بـما كَسَبَتْ له يداهُ فخُـذْ مـا شِئتَ أو فَـذَرِ

أن دعبلاً غريب الأطوار، فهو لا يرحم الأموات، فها هو يجري مقارنة بين الرشيد وقبر آخر، فيجعل

من قبر الرشيد بؤرة للأقذار والخبائث ورأى في روحه أنها مرهّنة ليوم الحشر بالرزايا والمعاصي، وبعكس القبر الآخر الذي يضج بعبير المسك والعطر الذكي وشتان بين هذا وذاك.كما كان دعبل كثير الهجاء للمعتصم شديد الحملة عليه في حياته، مع أن المعتصم كان سيف العز والكرامة لبني العباس وفارسها، وفاتح بلاد الروم وموقع الهزائم بالمعتدين على ديار الإسلام، وقد مدح بما لم يمدح به خليفة عباسي همته في الحرب وفروسيته في الفتح، ولكن ما كاد يموت المعتصم، ويلي الواثق أمر المملكة حتى ينشط دعبل قائلاً لمن حوله على البديهة:

الحمد لله لا صبرٌ ولا جَلَدُ ولا عزاءٌ إذا أهل البَلاَ رَقَدوا
خليفةٌ ماتَ لم يحزن لهُ أحدٌ وآخرُ قام لم يَفرح بِهِ أحَدُ

إن دعبلاً هجاء هاو ومحترف، فإذا قال الهجاء أحس قارئه، وكأنه يقرأ لشاعر خلق لكي يقول هجاء، إنه لا يتعثر ولا يتعسف المعاني رغم خبثها، ولكنها تأتيه وكأنها فيض قريحته وعفو خاطره، يحسن الصوغ ويتقن توليد المعنى، ويمتع ويطرف مع الإيجاع إلى الحد الذي يجعل المهجو، يطرب حين يسمع شعره، وقد هجا المأمون فما زال المأمون في طلبه، حتى تحايل دعبل، ودس إليه قوله في عمه إبراهيم المهدي الذي كان قد خرج عليه وبايعه الناس خليفة على بغداد بين سنتي **201-203** هجرية حيث يقول:

إن كانَ إبراهيمُ مضطلعاً بِها فَلَتَصلُحَنْ من بَعدِهِ لِمُخارِقِ
ولتصلُحِنْ من بَعدِ ذاكَ لِزَلزَلٍ ولَتَصْلحُنْ من بعدِهِ لِلمارِقِ
أنى يكونُ ولا يكونُ ولم يكنْ لينالَ ذلكَ فاسقٌ عن فاسِقِ

فلما قرأ المأمون هذه الأبيات ضحك، وقال قد صفحت عن كل ما هجانا به، إذ قرن إبراهيم بمخارق في الخلافة، لقد كان دعبل من الخبث بمكان في أبياته هذه، فلقد كان إبراهيم بن المهدي مغنياً عازفاً مجيداً وكان مخرق مغنيا، وكان زلزل ضارب دف، وما دام إبراهيم وهذه صفته قد تسنم الخلافة، فإنها ولا شك صالحة لمخارق المغني وزلزل الطبال.وكان إبراهيم بن المهدي قد بويع بالخلافة في بغداد على النحو الذي مر ، ومما يروى أن مال خلافته قد قل، فحبس العطاء عن الناس وجعل يسوفهم ويعدهم بالمال، ثم لم يلبث أن بعث إليهم من أعلن أمامهم أنه لا مال عنده، فقال بعض غوغاء بغداد: أخرجوا إلينا الخليفة ليغني لأصحاب العطاء ثلاثة أصوات من الغناء، فتكون بمثابة عطاء لهم. ويقتنص دعبل هذا القول وينطلق من مضمونه ليهجو إبراهيم بهذه الأبيات الساخرة الموجعة:

يا معشر الأجنادِ لا تقنطوا وأرضَوا بما كَانَ ولا تَسخطُوا
فسوف تُعطَونَ حُنَينِّيةً يَلتَذُّها الأمرَدُ والأشمط

والمعبَـديـّاتُ لقـوَّادِكُـمْ لا تَدخـلُ الكيسَ ولا تُربَـطُ
وهكـذا يَـرزُقُ قُـوَّادهُ خليفـةٌ مُصحفُـهُ البَربـطُ

سخرية ما بعدها سخرية يخاطب الشعب الجائع والموعود بالعطايا من الخليفة إبراهيم، مندداً ويحكم لا تيأسوا ولا تقنطوا فسوف يخرج عليكم الخليفة إبراهيم بعطايا الكلام وهبات الأماني ووعود العطف، وهـذه بعينها الأكاذيب والأضاليل، أما هجاؤه في المأمون فكان هجاء نال به من مقام الملك الخطير، وعـرض به وبأخيه الأمين الذي قتله جيش طاهر بن الحسين الخزاعي، ومن ثم فأن سيوف الخزاعيين هي التي أقعدت المأمون على كرسي الخلافة ومن هذا المنطلق يهجو دعبل المأمون فيقول:

أَيَسُومُني المأمـون خطَّـةَ جاهلٍ أوَ ما رَأى بالأمسِ رأس مُحمَّدِ
إنِي من القـومِ الذين سُيُوفهُم قتلَت أخاكَ وشرَّ فُـوكَ بِمَقعدِ
رفعُوا محلَّـكَ بَعدَ طولِ خُمُولِهِ واستَنْقَذُوكَ مِنَ الحضيضِ الأوهَدِ

يهـدد الخليفة المأمون بأن من أجلسه على كرسي الحكم هم بنو خزاعة بعد أن قتلوا أخاه ونصروه ليجلس على كرسي الحكم، ويذكره بأنه كان في الحضيض، فقوم خزاعة هم ذوو الفضل عليه الذين رفعوا شأنه، لقد كان المأمون يطلب دعبلا ليوقع به، ولكنه كان لا يلبث أن تصفو نفسه ويردد شعره ويستحسـنه، كما كان يضحك لسماع هجاء دعبل في إبراهيم بن المهدي وأبي عباد الكاتب.ويظل دعـبل مستلماً ملوك بني العباس يهجوهم الواحد تلو الآخر، بدأ بالرشيد، وثنى بإبراهيم بن المهدي وثلَـث بالمأمون ثم يأتي دور المعتصم، وترتيبه الثامن في ملوك بني العباس، فينكر عليه دعبل حقه في الملك ويقول هذه الأبيات الهجائية الموجعة:

مُلـوكُ بنـي العباسِ في الكُتبِ سَبعَةٌ ولم تأتِنـا عن ثامـن لهُـمُ كتبُ
كذلكَ أهـلُ الكهفِ في الكهف سبعة كرامٌ إذا عُـدُوا وثَامِنُـهُم كَلبُ
وإني لأعلي كَلبَـهُم عنـكَ رِفعَةً لأنَّـكَ ذو ذَنبٍ وليس لـه ذَنْبُ
لقد ضاع مُلكُ الناسِ إذ ساس مُلكَهُم وصيفٌ وأَشناشٌ وقد عَظُمَ الكرب

كـلام قاس وبمنتهى القسوة عندما يفضل الكلب على الخليفة، ما هذه الصفاقة التي لا يقبلها عاقل، وكالعـادة يطلب الخليفة المهجو دعبلاً ليقتله، ولكنه يفر ويستتر لأيام، بل لسنوات ويدعي في هذا المقـام أن هـذه القصيدة ليست له. ويموت المعتصم فلا يسلم وحتى وهو ميت من لسان دعبل، إن دعـبلاً يُظهر المعتصم رغم موته صورة للطاغية المستبد الشرير، ويطلب له العذاب في نار جهنم التي يستحقها الشياطين والطغاة والظالمون فيقول:

قد قُلتُ إذ غَيَّبُـوهُ وانصَرفُـوا في شَـرِّ قَبـرٍ لِشَـرِّ مدفُـونِ

اذهبْ إلى النَّار والعَـذَاب فَـما ... خلتُـكَ إلاّ مـنَ الشَّيـاطيـنِ

ما زلتَ حـتى عَقَدتَ بيـعَةَ مَن ... أَضَـرَّ بـالمسلمـينَ والديـن

لم يهج شاعر الموتى مثلما فعل دعبل، وهذا يبين مدى الحقد والكره الذي يكنه للعباسيين، غير مبالٍ بحـرمة الموت ووقعه على الآخرين، فيطلب له العذاب في لحده والنار مشبها الخليفة بالشيطان الذي أفسد أمر الإسلام والمسلمين، فإذا جاء دور المتوكل، فإن دعبلا يهجوه ببيت واحد، ولكنه بيت قاس موجع، لأنه ينال من مروءة الخليفة الأنيق المترف ويعرض برجولته، وذلك بقوله:

ولستُ بقائـلٍ قَذعـاً ولكن ... لأمـرٍ مـا تَعبَّـدَكَ العَبيـدُ

ومـن صفة دعبل مدح الرجل إذا اجزل له العطاء، فإذا لم يعطه جائزة يرضاها انقلب عليه وهجاه، وقد فعل ذلك مع عدة رجال منهم أبو نصير بن حميد الطوسي الذي قال فيه قولاً موجعاً مراً:

أبا نُصَيرٍ تَحَلحَلْ عن مَجَالِسِنا ... فإنَّ فيك لمَنْ جَارَاكَ مُنتَقَصاً

أنتَ الحمارُ حَرُوناً إن رَفَقتَ بهِ ... وإن قَصَدتَ إلـى مَعرُوفه قَمَصَا

إنِي هَزَزتُكَ لا آلـُوكَ مُجتَهِداً ... لو كنتَ سَيفاً ولكنّي هَزَزتُ عَصَا

أوجعت أبا نصير هذه الأبيات، فمن المعيب أن يشبهه بالحمار العنيد الذي لا فائدة منه، فلم يجد أمامه غير أبي تمام الشاعر يشكو دعبلا إليه، واستعان به عليه فهجاه بقصيدة يقول في بعضها:

أدعبلُ إن تطاولتِ الليـالي ... عليكَ فإن شعري سُمُّ ساعَـه

وما وَفَـدَ المشيبُ عليكَ إلا ... بـأخلاقِ الدنـاءة والرضَـاعة

ووَجهُكَ إن رضيتَ به نديماً ... فأنتَ نسيجُ وَحدكَ في الرقَاعَة

أبـيات ركيكة متخاذلة إذا ما قيست بهجاء دعبل و لكنها لا ترقي للشتم، وربما أنف أبو تمام ذلك، وخشـي منازلة هذا السفيه الذي لا يرحم، ولا يرعي حرمة لكبير أو لصغير. وتظهر براعة دعبل في الهجـاء حـين يهجو مجموعة من الأعلام دفعة واحدة مجتمعين غير متفرقين، لقد فعل ذلك حين هجا مجموعة من الناس مكونة من دينار بن عبد الله وأخيه يحيى، والحسن بن سهل، والحسن بن رجاء وأبيه فقال:

ألا فاشترُوا منِّ ملـوكَ المخـرِّم ... أَبِعْ " حسَناً " " وابني رجاءٍ" بدرهَم

وأَعطِ " رجاءً" فَـوقِ ذاكَ زيادةً ... وأَسمَح " بدينار" بغَـيرِ تَنَـدُّمِ

فإن رُدَّ مِن عَيبٍ عـليَّ جميـعهم ... فليس يرُد العَيبَ " يحيى بنُ أكثَم"

الشتم والهجاء دم يجري في عروق دعبل، لا يخشى أحد ولا ينهاه خلق عن ذلك، فأخذ يقذع الشعراء وكرام القوم، ويجعل قيمتهم أقل من دينار ولا يجد من يرغب بهم، لأن أخلاقهم لا تعدل درهما بل هي

دون ذلـــك، لكثرة عيوبهم، وهكذا نشأ دعبل ومات ناقماً هجاءً، لا يرضى إلى مدح أحد، ينقاد إلى النقد والسلب، وظل طوال حياته ساخطاً على الجنس البشري جميعاً فيقول:

إني لأفتحُ عيني حـــين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا !

و جمع إلى بغضه للناس جفاءً في الطبع، فقضى سواد أيامه يذرع الآفاق متشرداً تحت كل كوكب، في صحبة الصعاليك وقطاع الطرق واللصوص، وطوى أكثر عمره متخفياً متوارياً عن العيان، خشية أن يقـــع في قبضـــة أحد الكبار الذين هجاهم.وقد أعتسف الطريق من العراق إلى الشام ومصر وبلاد فـــارس، فترك في كل بلد عدوا ينذر دمه، ولم يدع أحداً في مأمن من خبث لسانه، فيفحش في هجاء الناس شأن بشار بن برد، ليحمل الآخرين على اتقاء شره وإسكاته بشيء من المال، وهو إذا هجا لجأ إلى الـــتجريح والسب والطعن، في فحش وإقذاع مسرفين، ويركن خصوصاً إلى سلب مهجوه جميع الفضـــائل التي تفخر بها النفس البدوية الصارمة كالنخوة والكرم والبأس...ومات مقتولاً سنة **246** هجرية.وهكذا بدت شخصيته غير سوية منحرفة لكونها سارت في طريق الهجاء المؤلم والموجع، لم يرع حـــرمة فيها لأحد، فتجاوز حدود الحشمة والوقار، مما دفعه ذلك لحياة كلها تشرد وهروب، وتخفي خشـــية القـــتل، ولا احد يغبطه على هذه الحياة التعيسة التي ارتضاها لنفسه، ومهما كانت الدوافع والغايـــات، فإنه لا مبرر لسلاطة لسانه وتطاوله على من أحسنوا إليه وأكرموه، حتى من بني خزاعة أهلـــه وعشـــيرته، لم يســـلموا من هجائه اللئيم، فجاءت شخصيته غريبة الطباع والأطوار متناقضة الأهواء، كثيرة الانفعالات، منحرفة السلوك.

حكمة:

(لا عيش لممقوت ، ولا راحة لمعادي، ولا أمن لمذنب، ولا محب لفاجر، ولا ثناء علـــى كاذب، ولا ثقة بغادر، ومن كان بيته من زجاج فعليه، ألا يرشق بيوت الناس بالحجارة، وكم كنت أذم إليك الزمان إلا أنني بعد حين صرت أذم فيك الزمان).

ديك الجن الحمصي

حكمة:

(من أولع بقبح المعاملة أوجع بسوء المقابلة، ومن أعطى نفسه كلما طلبت؛ تشتت قلبه، وضاع أمره، وكثر همه؛ لأنه لا حد لمطالب النفس؛ فهي أمّارة غرّارة).

إذا كنت لا ترى إلا ما يظهره النور ولا تسمع إلا ما تعلنه الأصوات، فأنت بالحقيقة لا ترى ولا تسمع. إنه عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب بن زيد بن تميم، ولد في حمص سنة752م وتوفي سنة 849م، نشأ خليعاً ماجناً متلافا، مقبلا على معاشرة المجان ومخالطة أهل الخلاعة، حسب ما تذكر المصادر، وكان له ابن عم يكنى بأبي الطيب لا يتوانى عن وعظه وإسداء النصح له.فكان يقابل ذلك بالاستخفاف وانتهى به الأمر إلى إنشاء قصيدة طويلة يجاهر فيها بالانحراف ويهجو ابن عمه هجاء مراً ومقذعاً مطلعها:

مولاتنا يا غلامُ مُبتكره ... فباكرِ الكأسَ بلا نظرَه

غَدتْ على اللهوِ والمجونِ على ... أنَّ الفتاةَ الحَيِيةَ الخَفِره

لِحُبِها لا عَدِمتُها حُرَقٌ ... مطوية في الحشا ومنتشِرَه

والقصيدة طويلة يفخر بها في فعل المعاصي مجاهرة بدون استحياء، وعرج فيها ديك الجن على هجاء ابن عمه، هجاء حوى أسباباً من الفحش والقسوة والمرارة، والخطاب موجه هنا إلى ابن عمه بقوله:

سُبحان مَنْ يُمسِكُ السماءَ على ... الأرضِ وفيها أخلاقُك القَذِرة

يتعجب ديك الجن ساخطاً من أمر الخالق في خلقه معاتباً ولائماً ! لماذا خلقت هذا الكائن القذر؟ المتمثل بابن عمه،وما مبرر هذا الهجاء واللؤم كله؟، كل ذلك التهجم والقسوة سببهما إرادة الخير يتمناها ابن العم لأخيه الشاعر من أجل نهيه وزجره عن خلاعته ومجونه، ودعوته إلى الحشمة والاستقامة.وكان ديك الجن في مضمار مجونه يشبب بفتى من حمص اسمه بكر، وأكثر من قول القصائد والمقطوعات غزلا به متشبباً فيه، ولكن الأمر الذي يبدو غريبا أن ديك الجن على رغم مجونه وخلاعته وانحرافه عن الجادة، كان متشيعاً تشيعاً حسناً، مستمسكا بحب آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم. وله في مدحهم ورثاء حالهم، والبكاء على الحسين قصائد كثيرة، لعل أشهرها التي يقول فيها:

يا عينُ لا للقضا ولا الكُتُبِ ... بُكا الرزايا سِوَى بُكَا الطَّرَبِ

غير أنه كان شديد التشعب والعصبية على العرب، يقول: (ما للعرب علينا فضلٌ، جمعتنا وإياهم ولادة إبراهيم، وأسلمنا كما أسلموا، ولم نجد سبباً لماذا فضلهم الله علينا، بعد أن جمعنا الإسلام)، وبدا ديك الجن فضلاً عن ذلك إنه شعوبي الانتماء يحمل على العرب، ويتحمس لغيرهم، بل يفتخر بعدم

انتسابه إلى العرب وذلك في قوله:

إن كان عُرفُكَ مذخوراً لذي سببٍ فاضمُمْ يَدَيكْ على حُرٍّ أخي نسب
أو كنتَ وافقتهُ يوماً على نَسبٍ فاضمُمْ يدَيكْ فإني لستُ بالعربي
إني امروءٌ باذلٌ ذروتي شرفٌ لقيصرٍ ولكسرى محتدي وأبي

ويحك من هذا القول الذي تسيء فيه؟ إذا عددت نفسك معتقداً بالإسلام أو على الأقل تميل للإسلام؟ أين السلام في الإسلام منك؟ عندما يقول باني نهضة الإسلام النبي الكريم ﷺ: **(لا فرق لعربي على عجمي)**،وأين أنت من تشيعك لآل بيت النبي ﷺ؟ الذين ضربوا أروع الأمثال في المعاملة الإنسانية. ويتخذ ديك الجن من الوقوف على الأطلال ذريعة للتهجم على العرب والتعريض بهم، فمن قوله:

قالوا السلامُ عليك يا أطلالُ قلتُ السلامُ على المحيلِ مُحالُ
عاجَ الشقيُّ مُرادُهُ دِمَنُ البلى ومرادُ عُيني قُبةٌ وحجالُ
لأغادينَّ الراحَ وهي زلالُ ولأطرُقَنَّ البيتَ فيه غَزَال
ولأتركَنَّ حَليلَها وبقلبِهِ حُرَقٌ وحَشدُ فُؤادِهِ بَلْبَالُ

لك الحق في أن تنتمي إلى من شئت، لكن أليس من العيب أن تعيش مع القوم، وتسفه قيمهم؟ وأنت تقيم بين ظهرانيهم، وتجاهر بفعل المعاصي وتسب الأطلال وتصف العرب بالأشقياء وتطال كرامة النساء الحرائر. إن ديك الجن في بيته الثالث الذي يسترخص فيه حرمات البيوت، إنما يناقض به الخلق العربي الحريص على العفة والفضيلة والحفاظ على الجارات الذي يتمثل في قول عنترة العبسي:

وأُغضُّ طرفي إن بدت لي جارتي حتى يواري جارتي ماءاها

وعلى النهج نفسه في كراهية العرب والإساءة اليهم يمعن في التمادي في أبيات أخرى ساخراً من ظاهرة الوقوف على الأطلال.ولم يحاول أن يذهب إلى بغداد التي كانت قبلة الشعراء والأدباء ومركز العلم والثقافة والوجاهة والسياسة مثلما يفعل شعراء زمانه، وإنما أصر على البقاء في موطنه يشدو بشعره المختلف الألوان والأشكال، حتى سافر شعره دونه إلى بغداد وغير بغداد، الأمر الذي جعل كبار الشعراء في بغداد يفدون إلى حمص ويطرقون باب بيته، ويكيلون له الثناء والإعجاب ويجزلون له التحايا.لا يذكر ديك الجن إلا وتذكر معه حادثة رهيبة أثرت في حياته، وجعلته دون سواه يؤسس في التراث الشعري لونا من فن الرثاء المخلوط بالغيرة المتلفع بالندم المشوب بالدماء، فلقد أحب فتاة نصرانية اسمها ورد، ثم جعلها تعتنق الإسلام وتزوجها، وتصادف أن غاب ديك الجن عن بيته لبعض الوقت، وحين عاد سمع من أفواه الناس ما يسيء إلى سمعة زوجته وعفتها، وربما كان في الأمر مؤامرة

عـــلى الزوجة المسكينة، فما كان من ديك الجن إلا أن ضربها بسيفه فقتلها، ولما أفاق من غضبته ندم على فعلته، وأخذ يبكيها بكاء مراً تارة، وتارة أخرى يخلط البكاء والرثاء بوجوب الثأر منها والانتقام لشرفه وعرضه، وسواء صحت هذه الرواية أو كانت موضوعة، فقد وقعت الحادثة، وكانت مصدر إلهـــام ونـــبعاً من الأحزان، وفاجعة للشاعر أمدته بلون من الشعر، يشتمل على الكثير من الأعذار والعواطـــف، ولكنه مشبع في كل حالاته بالدماء.ويقول ديك الجن مصورا قتل زوجته بسبب الغيرة وبخلاً بحبها على سواه:

يـــا طَلعـــةً طلـــعَ الحِمَامُ عليها وجنـــى لـــها ثـــمَرَ الرَّدى بيدَيها
رَويتُ من دمِـــها الثـــرى ولطالما رَوَّى الـــهَوى شفَتَيَّ مـــن شَفَتَـــيْها
مَكَّنـــتُ سَيفي في مَجـــال خناقها ومـــدامعي تجري علـــى خَـــدَّيـــها
فوحَقِّ نَعلَيـــها وما وَطِيءَ الحصى لا شيءٌ أعـــزُّ عَلَـــيَّ مـــن نَعلَيـــهَا
ما كان قَتْليـــها لأنـــي لم أكُنْ أبـــكي إذا سقطَ الغُـــبارُ عليـــها
لكِنْ بَخِلتُ عـــلى سِواي بحُبِّها وأَنِفْتُ من نَظَـــرِ الغُـــلامِ إليـــها

الغيرة نار ملتهبة تكوي القلوب، وتفقدها طيبتها فتعمي البصيرة وتضيق بساحة الفكر، فيصبح الفرد منحرفاً بسبب فقدانه لقوى العقل المسيطرة على الإرادة، ويتصرف على وفق ما تمليه انفعالاته البهيمة فيصـــبح شـــأنه كـــالأعمى الذي يرتكب الجريمة، وها هو ديك الجن أسير هذه الأهواء والنزوات الحيوانـــية، فيقتل رفيقة عمره وحبيبته، وبعد هدوء عاصفة الغيرة الظالمة أحيانا، يستيقظ على وجع الضمير الواعي، ولكن هيهات هيهات !! فما فائدة الندم، فلقد سبق السيف العذل.وفي أبيات أخرى يـــبين ندمه وأسفه، ومحاولاً تبرئة نفسه حيال فعلته، ويظهر الحزن والبكاء والأسى، ولكن أساه ليس على ما فعل، بل على ما فعلت هي، فيقول:

ليتَـــني لم أكُنْ لِعَطفِـــكِ نِلْتُ وإلى ذلـــك الوِصـــالِ وَصَلـــتُ
فالذي منـــيَ اشتملتُ عليـــه ألعَـــارٌ ما قـــد عليـــه اشتملـــتُ
قال ذُو الجهلِ قد حَلُمْتَ ولا أعلمُ أنـــي حَلمتُ حـــتى جَهلْـــتُ
لا تُـــمْ لـــي بجَهلـــه ولمـــاذا أنـــا وَحـــدي أحببتُ ثـــم قَتَلـــتُ
سوف آسَى طُولَ الحياةِ وأبكيك علـــى مـــا فَعَلـــتِ لا مـــا فَعَلـــتُ

لا فائدة للدموع بعد فقدان الحبيب الذي رحل إلى عالم الذكرى وأصبحت، النفس تعيش على تركة الماضـــي وإرثه المنصرم، وترك الألم والآهات المشوب بالندم على الأخطاء، ومتى كان الأسى والندم يصحح مسيرة الظلم؟فليبرر ما يبرر ديك الجن ما فعلته يداه، فلقد جرفته أمواج الغيرة الظالمة، ويظل

ديـك الجن سادرا في خضم غضبه ويثير في خواطره الإحساس بالتمرد على هوى الغواني، ويرميهن بالكذب في عواطفهن والنفاق في مشاعرهن، ثم ينعطف إلى زوجه القتيلة مصدراً حكمه عليها بالقتل لخيانتها قائلا:

لـكِ نَفْـسٌ مُـواتِيـهْ والمَنَـايَـا مُعَـادِيـهْ
أيُّـها القلـبُ لا تعُـد لِهـوَى البيضِ ثانِيـهْ
ليس بَـرقٌ يـكون أخلَبَ من بَرقِ غانِيـهْ
خنُـتِ سِـرِّي ولـم أخنُـكِ فمُوتـي عـلانيهْ

يحاول فك حصار ظلم نفسه بنفسه، متهماً زوجته بالخيانة، غير أنه ليس سوى عزاء ووساوس نفسه الـتي تتجرع كأس مرارة الألم، إنه البحث عن سراب كي يبرر فيه ما فعله، وكي يريح روحه المعذبة بالأنانـية القاتله للخير، ويزيح عن نفسه الاتهام الذي جناه بما فعله، غير أن ديك الجن لا يلبث أن يـنهار أسى وينفطر حزناً على زوجته القتيلة برغم خيانتها له والله أعلم، فتزدحم في خاطره شحنات كاسحة من العواطف والذكريات فيفرغها جميعاً في هذه الأبيات الرقيقة الحزينة الباكية:

أشفَقْتُ أن يَردَ الزمان بغَدرِه أو أُبتَلى بعد الوِصالِ بهَجـرِه
قَمَرٌ أنَـا استخرجْتُه من دَجنه لِبَلِّيـتي وجَلـوتُـهُ مـن خِدْرِه
فقتلْتُهُ ولـه عـليَّ كرامـةٌ مِلءَ الحَشَى ولـه الفؤادُ بأَسرِهِ
عَهْدي بـه ميتاً كـأحسنِ نائمٍ والحُزن يسفحُ عَبرتـي في نَحـرِه
لو كان يدري الميتَ ماذا بعدهُ بالحيّ حَـلَّ بَكَى لـه في قبْـرِهِ
غُصَصٌ تكـادُ تَفِيضُ منها نَفسهُ وتكـادُ تُخرِجُ قَلبَهُ مـن صدرِهِ

لم تـتوقف شحنات العواطف والذكريات في خاطر ديك الجن، فبكى زوجته على الرغم من خيانتها هـذا البكاء الذي بدا صادقاً، ورسم صور الجمال عذبة خلابة في عناية وتأنق وافتنان، قال ديك في ورد التي صارت له زوجة ثم ضحية:

انظُرْ إلى شمسِ القُصورِ وبَدرها وإلى خزُامَاها وبَهْجـةِ زَهـرِها
لم تَبلُ عَينُك أبيضاً في أسودٍ جَمَعَ الجمال كوَجهِـها في شعرها
وَرديَّةُ الوَجَنات يَختبـر اسمها من ريقِـها من لا يُحيطُ بخُبرِها
وتمايَلتْ فضَحكتُ من أردافِها عَجَباً ولكنِّـي بكيتُ لخصـرِها
تَسقيكَ كـأسَ مُدامةٍ من كَفِها ورديـةٍ ومُـدامةً مـن ثَغـرِها

لقـد اقـترف الشـاعر جريمة قتل بحق من أحب حباً شديداً، ومن ثم أحس بمضاعفات الوزر الذي

ارتكبه، ثم أراد أن يهرب من هذا الوزر، وما يستتبعه من هواجس أقضت مضجعه وبلبلت خواطره، فكان عليه لكي يهرب من واقعه الأليم، أن يقنع نفسه بشرعية ما اقترف وصواب ما ارتكب، ومن ثم فقد اندفع يقول شعراً يحمله هذه المعاني، ولكن كوامن إحساسه بالحسرة والندم كانت تفرض واقعها عليـه، فتغلبه على أمره، فكان نتاج أحاسيسه هذا الشعر الغريب الفريد الذي جمع من الرقة نهايتها ومن العاطفة أعمقها، ومن الأحاسيس ألواناً متنافرة متعاركة متداخلة. ويتغزل متابعاً نهج مدرسة عمر بن أبي ربيعة:

ومعدولةٍ مهما أمالت إزارَها   فَدِعصٌ وأمــا قَدُّهَا فَقَضِيبُ
لها القمرُ الساري شقيقٌ وإنها   لَتَطلُــعُ أحيَانــاً لــهُ فيـَغيب
أقولُ لها والليلُ مُــرْخٍ سُدُوله   وغُصْنُ الهوى غَضُّ الشبابِ رطيبُ
ونَحنُ به فَردَانِ في ثِنْيِ مئــزرٍ   بِكِ العيشُ يا زينَ النسَاءِ يَطيب
لأنتِ المُـــنى يا زينَ كُلِّ مَليحة   وأنتِ الهوى أُدعَى لــه فــأُجيب

لــيس من شك في أن هذه الأبيات رقيقة النسج عذبة الإيقاع، ولكنها شبيهة بالكثير من شعر المحبين السابقين زماناً على ديك الجن، ممن كانت حياتهم إلى البداوة أقرب منها إلى الحضارة، ولاشك في أن أبا نواس كان صادقا الصدق كله، حين أبدى إعجابه بشعر ديك الجن ومنها:

بها غيرُ معــدولٍ فــداوِ خُمــارها   وصل بعشيات الغبــوقِ ابتكارهــا
وقُمْ أنت فاحثثْ كأسها غير صاغرٍ   ولا تَسقِ إلا خمــرها وعُقَــارهــا
فقــام تكادُ الكأسُ تحــرقُ كــفهُ   من الشمسِ أو من وجنَتيه استعارَهَا
موردةٌ من كــفِّ ظــبيٍ كــأنما   تناولهــا مــن خــده فــأدَارَهــا
ظَلِلنَا بأيــدينا نتُعتِعُ روحَــها   وتــأخُذُ من أقدَامنا الراح ثَارَها
وَنُلْ من عظيمِ الوِزرِ كلَّ عظيمةٍ   إذا ذُكِرتْ خافَ الحفيظانِ نَارَهَــا

لديك الجن قصائد رثاء كثيرة، لعل من أشهرها قصيدتيه الطويلتين، الأولى كانت عزاء لجعفر بن علي الهاشمي في فقده ولده، والثانية في رثاء جعفر نفسه لما مات ومطلع مرثيته لجعفر:

على هذه كانت تدورُ النوائبُ   وفي كــلِّ جَمعٍ للــذهابِ مذَاهِبُ

وفيها يقول مصطنعاً الحكمة التي تمتزج عادة مع مواقف الرثاء:

نَزَلنا على حُكْمِ الزمــانِ وأمرِهِ   وهل يقبَلُ النَّصْفَ الألَدُّ المُشَاغِبُ
وتَضحَكُ سِنُّ المرءِ والقلبُ مُوجَعُ   ويَرضَى الفتَى عن دَهرِه وهوَ عاتِبُ
ألا أيُّها الرُّكبَانُ والــردُ واجبٌ   قفوُا حَدثُونا ما تقُــولُ النوادِبُ

إلى أيِّ فتيانِ النَـــدى قَصَدَ الردَى   وأَيَّهُـــمُ نَـــابَت حِمَـــاهُ النَـــوَائِبُ

ثم يزيد ديك الجن معاني أخرى أمدته بها نفسه الحزينة على فقيده العزيز الذي كان يبره ويعطف عليه، والـــذي كان أحد القليلين الذين مدحهم، هذا ولم ينس الشاعر أن يعمد إلى صنعة خفيفة كانت من حسن العرض وخفة النسج بحيث لم تفرض ثقلها على السمع ومن ثم لم تفسد موقف الرثاء ومعانيه:

فيا لأبي العباسِ كم رُدَّ راغبٌ   لفَقدكَ ملهُوفاً وكم جُبَّ غَارِبُ

ويـــا لأبي العباسِ إن مَنَاكِباً   تنوءُ بِمـــا قد حَملَتـــها النَوَاكِب

فيا قَبرهُ جُد كُلَّ قبرٍ بجُودهِ   فَفيكَ سمـــاءٌ ثَـــرةٌ وسَحَائِـــب

فإنكَ لو تدري بما فيك من علا   علوتَ وباتت فـــي ذراكَ الكواكب

أخاً كنتُ أبكيهِ على الأجرِ   واقفٌ ولا أنا في عمرٍ إلى اللهِ راغب

ويغمس الشاعر نفسه في تيار الحزن عميقاً في مناجاة نفسية يظهر الصدق والعمق فيها بجلاء وذلك في قوله:

أأسعى لأحظى فيكَ بالأجرِ ؟ إنهُ   لسعي إذن مني لـــدى اللهِ خائب

وما الأثمُ إلا الصبـــرُ عنكَ وإنما   عواقبُ حمدٍ أن تُـــذَمَّ العـــواقب

يقولون: مِقدَارٌ على المرءِ واجبٌ   فقلتُ : وإعوالٌ على المرءِ واجب

هو القلبُ لما حُم يومُ أبن أُمه   وهي جانبٌ منهُ وأُسقمَ جانب

ترشفتُ أيـــامي وهـــن كوالحٌ   عليكَ وغالبتُ الردى وهو غالب

وحـــين انـــتقل إلى ذكر شمائل المرثي ومناقبه، وهي أصعب ما يعالج الشاعر في مضمار الرثاء لتداول معانيها واشتراكها مع معاني المديح، فإن ديك الجن يصورها حزين النفس عفوي العطاء لا تعسف في اقتناص معنى ولا تعثر في اصطياد خاطرة:

فتىً كان مثلَ السيفِ من حيثُ جئتَه   لِنَائِبـــةٍ نابَتـــكَ فهُـــو مُضارِبُ

فتىً هَمّهُ حمدٌ على الدَّهْرِ رابحٌ   وإنْ غابَ عنه مالهُ فهو عازبُ

شمائلُ إن يشهد فهُن مشاهدٌ   عظامٌ وإن يرحل فهُن كتَائبُ

بكاكَ أخٌ لم تحوِهِ بقرابةٍ   بلى إن إخوانَ الصفاءِ أقاربُ

وأظلمتِ الدُّنيا التي كنتَ جارَهَا   كأنَّكَ للدّنَيا أخٌ ومُناسب

يبرّدُ نيرانَ المصائبِ أنّني أرى   زمناً لم تبقَ فيه مَصائب

نعم إنه فارس من فرسان الشعر المشهود لهم به، يخوض وقائع الشعر بمعاني قوية جزلة تحرك الوجدان، فـــيذكر صـــفات صديقه السمحة وكرمه وجوده في أحلك المواقف وأصعبها، ويبين أنه يوجد أخوة

أوفياء يمدون يد العون على نوائب الدهر، أفضل من أخوة الأب والأم الذين يتبرمون أحيانا من أداء أقل واجبات الأخوة بكل معنى الكلمة، وكثيراً ما كان ديك الجن يعمد إلى الصنعة والصورة اللفظية الجميلة ولا يتنازل عن الجوهر فمن قوله:

سقى الغيثُ أرضاً ضُمنتكَ وساحةً لِقَبركَ فيه الغيثُ والليثُ والبدرُ

وما هي أهلٌ إذ أصابتكَ بالبلى لِسُقيا ولكن من حوى ذلَكَ القبرُ

ولديك الجن قول في الأخ الذي لم يكن أخاً بكل ما تعنيه الأخوة، ويندد ما الفائدة من أخوته؟ إذا لم يعن على مصائب الزمان وغدره ويوضح أن الطبع هو أساس المكارم وليست التربية، وبهذا يعد من المناصرين لتيار الوراثة على التربية:

وإني بريءٌ من أخي وانتسابه إلي إذا ألفيتُ في طبعه بخلا

فإن لم تكن بالطبعِ نفسٌ كريمةٌ وإن كرُمَ الآباءُ لم أرَهُ فَضلاَ

وكذلك لديك الجن قول في الحفاظ على السر، لأن فيه السلامة، ومن أبجديات الحياة البسيطة صون السـر، وعـدم البوح به، والنبي الكريم صلوات الله عليه يوصي بقضاء الحاجات وبالكتمان عليها (عليكم بقضاء حوائجكم بالكتمان):

لقد أحللتُ سركَ من ضميري مكاناً لا يُحسُّ بـه الضمير

فماتَ بحيثُ ما سِمعتـهُ أُذنٌ فلا يُرجـى له أبـداً نُشورُ

ربمـا سمـي ديك الجن بهذا الاسم لكونه نهج طريقا جديداً في الشعر من خلال قوله ووصفه للديك الرومي، والذي يمثل رمز الغيرة حتى الموت في الدفاع عن حظيرته، والذي يقرأ أبيات ديك الجن في وصـف الديك يلحظ هذا الاتجاه في أسلوب الشاعر، ويستطيع أن يرى صورة حقيقية ذات ألوان زاهـية رسمها الشاعر بمنتهى الروعة تمثل جانباً من شخصيته، فجاءت ألوان الديك الفاقعة والموزعة عـلى عـرفه وجانبي رأسه وعنقه وريش جناحيه، بحيث تبدو لوحة متحركة، وتنم بدقة عن حركة الديك عندما يصفق بجناحيه كي يهم بالأذان، وفي الوقت نفسه تعبير رمزي عن مأساته على وفق لون جديد، يقول ديك الجن:

أما ترىَ راهبَ الأسحارِ قد هتفا وحثَّ تغريده لما عَـلاَ الشعفا

أوفى بصبغِ أبي قابوسَ مَفرِقُهُ كدرةِ التاجِ لما أن عَـلاَ شَرَفَا

مُشَنفٌ بعقيقٍ فـوقَ مـذبحه هل كنتَ في غيرِ أُذنٍ تعرفُ الشنفا

لما أراحت رعـاةُ الليلِ عازبـةً من الكواكبِ كانت ترتعي السدفا

هَز اللـواءَ على ما كان من سنةٍ فارتجَّ ثم عَـلاَ واهتز ثم هفـا

ثم استمرَّ كما غنى على طَرَبٍ   مريحُ شربٍ على تغريده وضفا
إذا استهلَّ استهلتْ فوقه خُصلٌ   كالحيِّ صِيحَ صباحاً فيه فاختلفا

ولديـــك الجن صورة أخرى مرحة رسمها لديك آخر، ولكنه ديك عجوز قدم طعاماً في مأدبة أقامها عمـــير بـــن جعفر، كان ديك الجن مدعوا إليها، ولعل الحوار الذي أجراه الديك الشاعر الآكل مع الديـــك المذبوح المطهو المأكول تعد من أطرف أنواع الحوار وأمتعه، يقول ديك الجن في أبياته تلك الفكهة الساخرة اللطيفة:

دعانا أبو عمرٍو عُميرُ بن جعفرٍ   على لحمِ ديكٍ دعوةً بعد موعِدَ
فقدمَ ديكاً عُـــدَّ دهـــراً ذملقاً   مُؤنسَ أبياتٍ مـــؤذنَ مسجـــد
يُحدثُنا عن قـــومِ هُـــودٍ وصالحٍ   وأغرَبِ ما لاَ قاهُ عمرُو بنُ مرثد
وقال : لقد سبحت دهراً مُهـــلَّلاً   وأسهرتُ بالتأذيـــنِ أعْيُنَ هجد
أيذبحُ بـــينَ المسلمين مُـــؤذنٌ   مقيـــمٌ على ديـــنِ النـــبي محمد
فقلت له : يـــا ديكُ إنكَ صادقٌ   وإنكَ فيـــما قُلتَ غـــيرُ مُفنـــد

يريد بحواره هذا أن يقدم صور لوقائع الحياة وما تتركه من بصمات لها على حياة الإنسان، حيث يشير منـــبهاً إلى أقـــوام عاشوا ودثروا! وكم من فاعل خير طالته الأيام بجرائرها؟ وكم من كاذب أسعدته بأيامها، ألها الدنيا وبحرها المتلاطم الأمواج، حيث يغرق الجميع برغم وجود قوارب النجاة.

أحرقـــت الغـــيرة كوامن الخير في قلبه، وجعلته منحرفا وقاتلاً، فأفقدته صوابه، وراح يجد العذر في الندامة والحسرة، إنه التطرف السلوكي والانحراف النفسي بذاته، وكذلك الإفراط في الأنانية، ويمثل طغـــيان غريزة الشر على قوى الخير بقتله زوجته بدعوى الثأر لكرامته ونسي مجونه، تلك شخصية ديك الجن برغم مراسه في الشعر الذي لا يشق له به غبار، وهذا دليل لتجنب الغيرة والأنانية، وخطر ذلك على حياة الإنسان في تعامله مع نفسه ومع مَن حوله.

<u>وقفة تأمل مع النفس:</u>

(لا تخـــف مـــا صنعت بك الأشواق.....وأشرح هواك فكلنا عشاق، وإذا كنت تدري فـــتلك مصـــيبة، وإن كنت لا تدري فالمصيبة أعظم، وأعلم أن الحزن لا يرد الغائب، والخـــوف لا يصلح للمستقبل، والقلق لا يحقق النجاح، وإذا لم تجد عدلاً في محكمة الدنـــيا فـــارفع ملفـــك لمحكمـــة الآخرة؛ فإن الشهود ملائكة، والدعوى محفوظة، والقاضي أحكم الحاكمين).

الإمام الشافعي

حكمة:

(قال الإمام علي كرم الله وجهه:لا تكون بما نلته من دنياك فرحاً، ولا لما فاتك منها ترحاً، ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل، ويؤخر التوبة لطول الأمل).

يحسبوني مجنوناً لأنني لا أبيع أيامي بدنانيرهم وأحسبهم مجانين لأهم يظنون أن أيامي تباع بالدنانير، أنه أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن يزيد بن هاشم بن عبد المطلب، فهو قُرشي هاشمي، ولد في غزة بفلسطين سنة767م وتوفي سنة820م في مصر بمدينة الفسطاط ومقامه فيها مشهور إلى اليوم.حفظ الشافعي القرآن الكريم ودرس الحديث والفقه، وسكن البادية مع بني هذيل فأخذ عنهم اللغة الفصيحة وروى أشعار شعرائهم، فكان عالما باللغة والأدب، فهو الذي استنبط علم أصول الدين وهو شاعر مقل قريب المعاني وبعض أشعاره مشهور ومنه:

ولولا الشعرُ بالعلماء يُزري لكنتُ اليومَ أشعرَ من لبيد

يمضي قارب السفر إلى ميناء الإمام الشافعي متوجها إليه، بعد عناء يوم طويل، تقوده الآمال والأشواق إلى منهل الحكمة والموعظة، لموطن الأخلاق وسموها، حاملاً وساوس وهواجس ملها العقل.منشداً قول أحدهم: (نونية أبي الطيب صالح بن شريف الرندي في رثاء الأندلس)

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدها دول من سره زمن ساء ته أزمان

وهذه الدار لا تبقي على أحد ولا يدوم على حال لها شان

فجائع الدهر أنواع منوعة وللزمان مسرات وأحزان

وإذ بصوت جهوري يطوي عتمة أعماق الليل، ويبدد ظلامه الدامس ،يقترب ويقول : ويحك أتبكي عبر الزمان وعظاته؟ فقلت نعم سيدي:جئت إليك أرجو النصح والموعظة، لأنني أبحث عن حلم يقلق صدري، وما زلت تلميذا أتعلم من مدارس الزمان وكتب الأيام، جئتك أتعلم أجوبة تدور في خلدي.دخلت ميناء الإمام العظيم والتعب أهلك جسمي، وأضناني السفر الطويل، متنقلا من مكان إلى آخر، بحثاً عن أشياء تجول في نفسي كسراب، لا أعرف ما أريد بسبب الضياع وخيبة الأمل ،كرمني الإمام الفاضل بالدخول إلى مينائه الكبير، كبر بحار العالم، والواسع وسع الكون بقيمه السمحاء وبعلمه الغزير، وطلبت من حضرته الزاد العلمي والمعرفي، والوعظ الروحي، فقال لي عليك بالصبر: فالخالق عز وجل وعد الصابرين جنان الخلد، وأخذ يدعوني للتأمل والتفكير ومنشداً:

دع الأيام تفعل ما تشاء وطب نفساً إذا حكم القضاء
ولا تجزع لحادثة الليالي فما لحوادث الدنيا بقاء

نداء للتسليم بقضاء الله وقدره ودعوة صادقة فيها كل الحكمة، فكل ما في الوجود يسير ويجري بعلم الله ومشيئته، ومهما عظمت مصائب الدنيا على الإنسان، فهي إلى زوال ولا داع للخوف والحزن، وأخذ ينبه ويعظ محذرا بأسلوب إرشادي، تتجلى فيه رقة المشاعر وصدقها ونبلها:

ولا ترج السماحة من بخيل فما في النار للظمآن ماء
ورزقك ليس ينقصه التأني وليس يزيد في الرزق العناء
ولا حزن يدوم ولا سرور ولايأس عليك ولا رخاء

لا أمل في عطاء البخيل، ولا رازق إلا الله، والرزق عطاء من الخالق سبحانه وتعالى. أليس هو القائل بحديث قدسي؟ : (كتب على ساق العرش: لا شفاعة في الموت، لا راد لقضاء الله، لا حيلة في الرزق، لا راحة في الدنيا، لا سلامة من ألسنة الناس) وينبه الإمام الشافعي الأذهان إلى القناعة ومعتبرها أساس السعادة النفسية مرشداً:

إذا ما كنت ذا قلب قنوع فأنت ومالك الدنيا سواء
ومن نزلت بساحته المنايا فلا أرض تقيه ولا سماء

لاشيء يدوم غير وجه الله، فحياة الإنسان أشبه بتيار نهر يجري، فاللحظات التي تمضي لا تعود، ولا داع للوقوف على أطلال الماضي والتغني بأمجاده، إلا لأجل العبرة والعظة، والإنسان مطالب بالسماحة وطيبة النفس، والصبر على البلاء والمحن، و لا بد من نهاية الجريان ذات يوم، وإن طالت مدته.قال الله تعالى:(أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة..")[96]:

وأرض الله واسعة ولكن إذا نزل القضا ضاق الفضاء
دع الأيام تغدر كل حين فما يغني عن الموت الدواء

نزلت السكينة إلى نفسي و شعرت بسعادة تغمرني لا أعرف لماذا، وبينما في حيرة من أمري تذكرت قوله تعالى:(ومن يتق الله يجعل له مخرجا)[97]، ثم أية أخرى كقوله تعالى:(... فاعتبروا يا أولي الأبصار)[98]،فذابت نفسي في عالم بعيد، وانتابني شعور كأنه شبح، امتدت يده تمسح شعري، وتجفف دموعي المنهمرة، فنهضت بأدب أرجو الإمام الحوار. فقلت سيدي:يا طبيب النفوس

---

96 -سورة النساء الآية رقم78

97 -سورة

98 -سورةالحشر الآية 2

كـــيف يقوى الإنسان على أهوال الأيام الشديدة إذا حلت؟ ولماذا يصبح هذا الكون الفسيح ضيقاً لدرجـــة الاختناق؟هنا ابتسم وقال: عليك بالصبر فكل شيء بقدر وعلم الخالق، وذكرني بقوله عز وجل شأنه: (إنا كل شيء خلقناه بقدر..)[99] وراح يقدم النصائح ويرشدني:

فدع عنك سوآت الأمور فإنها حرام على نفس التقي ارتكابها

وأد زكاة الجاه واعلم بأنها كمثل زكاة المال تم نصابها

دعوة صادقة لترك أفعال السوء ،والسعي الدؤوب لفعل الخير والذي يعد بمثابة فرض، كفرض الزكاة يجب تأديتها، والسعي الدائم للقيام به من أجل التواصل الإنساني ودوام الألفة والمحبة.

ولا تمشين في منكب الأرض فاخراً فعما قليل يحتويك ترابها

ومن يذق الدنيا فإني طعمتها وسيق إلينا عذبها وعذابها

تحذيـــر من الكبر والتكبر على عباد الله، فكل ما تراه عينك أيها الإنسان من ملذات ومتع فهي إلى زوال، وقريـــبا ستطال سهام الموت الإنسان، ومهما ذاق من ملذات، فلا بد من يوم تزول فيه هذه المسرات. والخالق عز وجل يقول:("..وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور")[100].

فلم أرى إلا غروراً وباطلاً كما لاح في ظهر الفلاة سرا بها

وما هي إلا جيفة مستحيلة عليها كلاب همهن اجتذابها

فإن تجنبتها كنت سلماً لأهلها وإن تجذبها نازعتك كلابها

الدنـــيا دار امتحان وبلاء وفناء ،وليست دار بقاء ،وما فيها من مغريات ومفاتن ما هي إلا جثة ميتة ،فلا تغرنك أيها الإنسان الدنيا بألوانها المتعددة وصورها الجذابة .وأن سعيت في طلبها نازعتك همومها ومصائبها ولقيت من أصحابها البلاء والعناء:

فطوبى لنفس أولعت قعر دارها مغلقة الأبواب مرخى حجابها

قـــول جميل وبيان سهل في تشبيهك الدنيا بالجيفة الميتة، وخلاف الناس عليها وما هي إلا دار للفناء حيـــث يقول الله تعالى:(وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور..)[101] ،ما هذا الإرشاد النفسي ؟الذي تنشده النفس بكل حب وشوق والمطمئن للقلب ،وأنت في عظاتك طبيب الروح والنفس بكل معنى للكلمة،لكن يخطرني سؤال سيدي الإمام: ما هي زكاة الجاه وماذا تعني بها؟اعرف زكاة الفطر وزكاة المـــال ! أجابني إن زكاة الجاه هي أدب الفرد وخلقة في معاملة واحترام الآخرين ومخاطبتهم بحسب

---

[99] -سورة القمر الآية 49

[100] - سورة الحديد الاية20

[101] -سورةآل عمرانالآية185

مكانتهم، وإعطاء كل ذي حق حقه، وعدم بخس الناس مقاماهم. عندئذ شعرت بنشوة عارمة أثلجت جوارحـــي، لم أذق طعمهـــا في حياتي. سيدي أرغب بالسفر لحظات الزمان البعيدة، لأنني أجد توتراً وضـــيقاً في نفســـي، أريد أن اشبع شوق روحي التواقة للعلم والمعرفة فقال:عليك بالسفر والترحال ونبيـــنا الكـــريم صلوات الله عليه وسلامه حث على الترحال: (سافروا تغنموا)، واوصاني الإمام بتجنـــب العجز والكسل والتوقف، فالحياة مستمرة وفي الاستمرار والحركة بركة، ونبهني إلى أشياء جديـــدة وحكم لا يعرفها إلا المسافر، موضحاً أن الشمس لا تشرق في كل يوم، إلا لتكشف أسرار عتمة الليل الذي أحب الهدوء فاسمع ما أقوله:

ما في المقام لذي عقلٍ وذي أدبٍ من راحة فدع الأوطان واغترب

سافر تجد عوضاً عمن تفارقه وانصب فإن لذيذ العيش في النصب

الهجـــرة والـــترحال لطلب العلم والعمل فرض على أصحاب العقول وغيرهم، من أجل البحث عن أسباب العيش والسعي من دون كلل أو ملل، وتحمل العذاب بكل أناءة وصبر وشدة، وجمال الحياة رهن النجاح في تجاوز صعابها وتخطي لياليها:

إني رأيت وقوف الماء يفسده إن ساح طاب وإن لم يجرِ لم يطب

والأسد لولا فراق الغاب ما افترست والسهم لولا فراق القوس لم تصب

يبين بالأدلة والبراهين أن حياة الإنسان يجب أن تكون دائماً في عمل متواصل لتحقيق أفضل العيش، وســـبل الحياة الكريمة كالماء الجاري، فإذا ساح طاب حيث يعذب طعمه ويطهر، في حين لو توقفت مســـيرة طلـــب العلم والعمل، لأصبحت حياة الإنسان أسنة غير صالحة، شأنها شأن بركة المياه غير الجاريـــة، تصبح أسنة وموطناً للأمراض والأوبئة والحشرات الضارة، وهكذا نفس الإنسان في سعيها للمجد بخلاف الخامل الكسول:

والشمس لو وقفت في الفلك دائمة لملها الناس من عجم ومن عرب

والتبر كالترب ملقى في أماكنه والعود في أرضه نوع من الحطب

فلـــما تغرب هـــذا عـــز مطلبه ولما تغرب ذاك عـــز كالذهب

دعـــوة طيبة تحث النفوس والعقول الطامحة للسفر والترحال للمجد، فجريان الماء يجعله طيب المذاق بخلاف الماء الساكن الذي يفسد وتحل به الأوبئة، وكذلك الشمس لو بقيت من دون حركة، لعزف الناس عنها وملها، فالإمام يرشد الناس لطلب العمل والاجتهاد والسعي الدؤوب للحياة الرغيدة.

إن زمن الحوار مع الإمام يمضي بسرعة هائلة ويهرب بلحظات السعادة حيث تقصر المسافات البعيدة، وكأنها حلم في منام، لكنني قررت قهر النوم، وعشت مع حكمه، وأقواله اهل المعرفة، وسألته كيف

عشيرة الناس، إنني أرى العداوة والكراهية ولا أعرف أحياناً الأسباب، ولم أجد وفياً، وهل قل الوفاء، أرجوك إنه الألم الذي يعتصر فؤادي، فقال في اعتزال الناس:

ليت الكلاب لنـــا كانت مجاورةً وليتنا لا نرى مما نرى أحـــدا

إن الكلاب لتهدأ فـــي مواطنها والخلق ليس بهاد شرهم أبـــدا

فاهرب بنفسك واستأنس بوحدتها تبقى سعيداً إذا ما كنت منفردا

أ هـــذا الحـــد الضيق من الناس ومن شرهم؟حيث يتجاوز الإنسان بظلمه القيم والأعراف، و يهلك الحـــرث والنسل، حتى أن الوحدة أحياناً في بعض الأحوال أفضل من عشرة هؤلاء البشر، ولاشك لديك القول الكثير، فزدني من فضلك. فقال:

تمن رجال أن أمـــوت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحـــد

وما موت من قد مات قبلي بضائري ولا عيش من قد عاش بعدي بمخلدي

لعل الذي يرجو فنائي ويدعي بـــه قبل موتي أن يكون هـــو الردي

عفواً سيدي الإمام أسمع العجب، وأنت الذي تتقي الله وترعى حدوده، من هم هؤلاء الراغبون بك الســـوء. فأجابني: مهلاً ما زال قاربك صغيراً لا يقوى على الإبحار، فهناك تبدو هادئة، لكن موجها قاتل يؤدي إلى التهلكة فاسمع:

ولما أتيت النـــاس أطلب عندهم أخا ثقة عنـــد ابتلاء الشدائد

تقلبت فـــي دهري رخاء وشدةً وناديتُ في الأحياء هل من مساعد

فلم أرى فيما ساء بي غير شامت ولـــم أرى فيما سرني غـــير حاسد

مهلاً أنت كريم السماحة والأخلاق، والعالم الجليل الذي خبر أهل الزمان وعرفهم خير معرفة، ومالي أرى في قولـــك إلا إشارة لمعاناة قاسية منهم، هل لي أن أسألك عنهم ؟ فقال لي في مصاحبة الناس ما يأتي:

إني صحبت الناس مـــا لهم عدد وكنت أحسب أني قد ملأت يدي

لمـــا بلـــوت إخلائي وجدتهم كالدهر في الغدر لم يبقوا على أحد

إن غبت عنهم فشر الناس يشتمني وإن مرضت فخير الناس لم يعد

وإن رأوني بخـــير ســـاءهم فرحي وإن رأوني بشر سرهم نكدي

عجبت من غدر بعض الناس وحسدهم لبعضهم، وتمنيهم زوال النعم عن غيرهم، وهذا يذكرني بقول الخالق عز وجل(قل أعوذ برب الفلق*من شر ما خلق* ومن شر غاسق إذا وقب* ومن شر

النفاثات في العقد* ومن شر حاسد إذا حسد)[102] .عندئذ قلت مولاي لابد من الإبحار بعيداً عـــن هذه الأهوال والعزوف عن الزمان وأهله، ففي صحبة الناس بأغلب الأحوال مصائب ومكائد، ولكن هناك تخوف من السفر والموت من الفراق وترك الأهل والأولاد، فابتسم وعلت ثغره ابتسامة لطيفة فقال:

كم ضاحك والمنايا فوق هامته   لو كان يعلم غيباً مات من كمد
من كان لم يؤت علماً في بقاء غد   ماذا تفكره في رزق بعد غد ؟
تغرب عن الأوطان في طلب العلا   وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
تفرج هم واكتساب معيشةٍ   وعلم وآداب وصحبة ماجد
وإن قيل في الأسفار ذل ومحنة   وقطع الفيافي واكتساب الشدائد
فموت الفتى خير له من حياته   بدار هوان بين واشٍ وحاسد

ســـيدي الإمام من فضلك هل أثق بالليالي؟ولقد تعلمت أن الليل يعني الظلام الدامس ،هكذا زرعوا الخوف في أعماقي منذ طفولتي،فكانت زراعة منتجة للقلق الدائم، وذلك بسبب قصصهم ومعاناتهم، ولقد صدق القوم الذين شبهوا الليل بالبحر الهائج الذي يقتلع الآمال ،إني شعرت بخوف من المغامرة وبماذا تنصحني؟ فأجابني:

تاه الأعيرج واستعلى به الخطر   فقل له خير ما استعملته الحذر
أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت   ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
و سالمتك الليالي فاغتررت بها   وعند صفو الليالي يحدث الكدر

لا داع للـــتوتر والخوف والقلق، فالأيام سوف تبادرك بما حذرت نفسك منه، ففي لياليها ينقفأجابني بقوله ويوضح قمرها المنير ظلمات الجهل والغرور.وسألته عن شحذ الهمم لطلب العلم والعلا والتزود مـــن معـــارف الدنيا وأهلها وإدراك سرها، فأجابني بقوله محذراً من صفو الليالي، فرد قائلا: عليك بالعلم لأنه سفينة النجاة والخلاص من الجهل والظلام :

العلم مغرس كل فخر فافتخر   وأحذر يفوتك فخر ذاك المغرس
واعلم بأن العلم ليس يناله   من همه في مطعم أو ملبس
فاجعل لنفسك منه حظاً وافراً   واهجر له طيب الرقاد وعبس
فلعل يوماً إن حضرت بمجلس   كنت الرئيس وفخر ذاك المجلس

[102] -سورة الفلق الآيات 1-5.

سيدي الإمام ببلاغتك هذه، تحث النفوس لطلب العلم وسهر الليالي لهجران النوم والملذات، وتستنهض قواها لتحزم أمرها للمضي للعلا، فأنت تصنع الأمل والثقة والرغبة في النفس، وتقوي دافعيه الطموح والنجاح فأجابني مهلاً:

سهري لتنقيح العلوم ألذ لي من وصل غانية وطيب عناق
وصرير أقلامي على صفحاتها أحلى من الدوكاء والعشاق
وألذ من نقر الفتاة لدمها نقري لألقي الرمل عن أوراقي
وتمايلي طرباً لحل عويصةٍ في الدرس أشهى من مدامة ساق
وأبيت سهران الدجى وتبيته نوماً وتبغي بعد ذاك لحاقي ؟

طاب السهر وهجر النوم عيني، وأحسست بنفسي نسراً محلقاً، وبحاراً قرر قهر المحيطات بقاربه الصغير بما أعتمر صدري من هيام وشغف للعلم والسعي إليه، وعقدت العزم على ذلك، وخشيت أن اثقل بحواري على العالم الجليل، وبينما يتلعثم لساني بكلمة تقدير وشكر للإمام، وإذ به يفضي قولا يحذرني به،و مفاده:

إذا المرء لا يرعاك إلا تكلفاً فدعه ولا تكثر عليه التأسفا
ففي الناس إبدال وفي الترك راحة وفي القلب صبر للحبيب ولو جفا
فما كل من تهواه يهواك قلبه و لا كل من صافيته لك قد صفا
إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة فلا خير في ودٍ يجيء تكلفا

لا خير في حياة، إلا حياة العز والنجاح والعمل، أنها دعوة لهجر الحياة التي تدعو للذل بجوار الآخرين من أجل التماس العطف والشفقة والحنان . وبين أن هذا أمر طبيعي أن يختلف الإنسان مع أحبابه، لكن عليه أن لا يندم على صديق ليس أهلاً للمودة والوفاء:

ولا خير في خل يخون خليله ويلقاه من بعد المودة بالجفا
وينكر عيشاً قد تقادم عهده ويظهر سراً كان بالأمس قد خفا
سلام على الدنيا إذا لم يكن بها صديق صدوق صادق الوعد منصفا

فهمت من قولك البديع، وربما أكون فيه جانبت الحقيقة، ومعناه لا خير في الدنيا إذا خلت من صديق صدوق. ما هذه الدعوة الصريحة للنفس الإنسانية التي تدعو الإنسان لأن يكون جديراً لمسائل الحياة، ولا خير في عيش إلا أن يكون كريم، إذ لا يليق بالكرامة، عند ذلك بادرني بالنصيحة:

ارحل بنفسك من أرض تضام بها ولا تكن من فراق الأهل في حرق
فالعنبر الخام روث في مواطنه وفي التغرب محمول على العنق

والكحل نوع من الأحجار تنظره في أرضه وهو مرمي على الطرق
لما تغرب حاز الفضل أجمعه فصار يحمل بين الجفن والحدق

جـــزاك الله خيراً وثواباً، راح يرددها لساني أيها الإمام، وبشكل عفوي وبسعادة جياشة، لأنه بقوله أفرج عن هم كان يرزح على صدري دهرا طويلاً، ولأنه فتح لقلبي أفاقاً لتجشم الغربة والسعي إليها، ونما لدي طموحاً ودافعاً بركوب المخاطر لا مثيل له، وشعرت أنني ولدت من جديد على يد هذا العالم الجليل والمربي العظيم، ورجوته المزيد، فقال في صون النفس وعزها والدعوة لرفعتها:

صن النفس واحملها على ما يزينها تعش سالماً والقول فيك جميل
و لا تولين النـــاس إلا تجمـــلاً نبا بك دهر أو جفاك خليل
وإن ضاق رزق اليوم فاجر إلى غد عسى نكبات الدهر عنك تزول

حياة الإنسان مليئة بالكثير من الأمور التي قد لا يريدها أو يرغبها، وينسجم إرشادة مع حكمة الإمام عـــلي بن أبي طالب رضي الله عنه موضحاً أن الصبر ضروري لحياة الإنسان حيث يقول: (الصبر: صبران–صبر على ما تحب، وصبر على ما تكره)، ويمضي الإمام الشافعي بإرشاده قائلاً:

ولا خير في ود امرئ متلون إذا الريح مالت مال حيث تميل
وما أكثر الإخوان حين تعدهم ولكنهم فـــي النائبات قليل

ســـيدي لا يسع الفرد منا إلا مشاركة الناس حياهم والتعامل معهم، فرد علي في معاشرهم ضرورة أخذ الحيطة والحذر:

لم يبق في الناس إلا المكر والمـــلق شوك إذا لمسوا زهر إذا رمقـــوا
فإن دعتـــك ضرورات لعشرهم فكن جحيماً لعـــل الشوك يحترق
إذا المـــرء أفشى ســـره بلسانه ولام عليه غيره فهـــو أحمـــق
إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه فصدر الذي يستودع السر أضيق

وبعد هذا اللقاء والحوار الطويل مع الإمام خشيت أن ينصرف عني بما أثقلته من حوار، وإذ به يقول:

كلمـــا أدبني الدهر أراني نقـــص عقلي
وإذا مـــا أزدت علماً زادني علـــماً بجهلي

إلا أنـــه أوصـــاني بالإعراض عن الجاهل والأحمق والسعي لطلب العلم، فكمال عقل الإنسان مرتبط بسعة علمه:

قالوا :سكت وقد خوصمت قلت لهم: إن الجواب لباب الشر مفتاح
والصمت عن جاهلٍ أو أحمـــق شرف وفيه أيضاً لصون العرض إصلاح

أما ترى الأسد تخشى وهـــي صامتة والكلب لا يخشى لعمري وهو نباح

وقال في الجاهل وتحاشي الخلطة معه، لأنه لا يعرف ولا يحس بمكانة الآخرين:

أعرض عن الجاهل السفيه فكل ما قال فهو فيه

ما ضر بحر الفرات يوماً إن خاض بعض الكلاب فيه

وأشــار إلى مــداراة الحسود والابتعاد عنه محذرا صعوبة العيش معه والدعوة إلى تجنبه، لأن الحاسد يتمنى زوال النعم عن الآخرين:

وداريت كل الناس لكن حاسدي مداراته عزت وعز منالها

وكيف يداري المرء حاسد نعمة إذا كان لا يرضيه إلا زوالها

وقــال بضرورة العلم والحث عليه والسفر إليه كونه يرفع الإنسان لأعلى المراتب، وذكرني بحديث النبي صلى الله عليه وسلم:(اطلب العلم من المهد إلى اللحد .... أطلب العلم ولو في الصين) :

تعلم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو علم كمن هو جاهل

وإن كبير القوم لا علم عنده صغير إذا التفت عليه الجحافل

وإن صغير القوم إن كان عالماً كبير إذا ردت إليه المحافل

وهممت بالانطلاق إلى ميناء آخر، إلا أنه استوقفني، وطلب مني أن اعتمد على نفسي والانتباه قائلا:

ما حك جلدك مثل ظفرك فتول أنت جميع أمرك

وإذا قصدت لحاجـــة فاقصد لمعترف بقدرك

ثم طلبت منه التزود من الوصايا في ترحال العمر، وشكرته شكر العارفين، فرد مبتسماً:

ثلاث هن مهلكة الأنـــام وداعية الصحيح إلى السقام

دوام مدامةٍ ودوام وطـــأ وإدخال الطعام على الطعام

فلولا العلم ما سعدت رجال ولا عرف الحلال ولا الحرام

وأخذ ينبهني إلى سر النجاح والجد في الحياة قائلاً:

أخي لـــن تنال العلم إلا بستةٍ سأنبيك عن تفصيلها ببيـــان

ذكاء وحرص واجتهاد وبلغـــة وصحبه أستاذ وطول زمـــان

ويمضي الإمام بإسداء النصح والإرشاد النفسي لدرء ا لأخطار:

إذا رمت أن تحيا سليماً من الردى ودينك موفور وعرضك مصون

فلا ينطقن منك اللسان بسوءة فكلك سوأت وللناس أعين

وعينك إن أبدت إليك معائباً فدعها وقل ياعين للناس أعين

وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى   ودافع ولكن بالتي هي أحسن

ودعاني إلى ترك الهموم والتسليم   بما جاء من عند الله، وتكرار القول الآتي: قل ما قدر الله وما شاء فعل:

سهرت أعين ونامت عيــون   في أمور تكون أو لا تكــون

فادرأ الهم ما استطعت عــن   النفس فحملك الهموم جنون

إن رباً كفاك بالأمس ما كان   سيكفيك في غدٍ ما يكون

إنه الصدق مع بيان وإرشاد الإمام الشافعي رحمه الله الذي يعطر النفس بالحكم والموعظة الحسنة وفق أسلوب نفسي جذاب يأسر النفس ببلاغته وفصاحته، فهو يقدم علاجاً نفسيا للهموم من خلال الصبر والتبصر بهذه الدنيا وعبرها، وقدم نفسه خبيراً عالماً بكل حوادثها وصعابها.سيدي الإمام عفواً أصحيح ما وجه لك من اتهام؟ بأنك من إتباع مذهب الرفض: (مذهب الذين رفضوا أتباع زيد بن عليٍ لأنه أبى أن يبطل خلافة أبي بكرٍ وعمر)فقال:

يا راكباً قِفْ بالمُحَصَّبِ من مِنىً   واهتفْ بقاعدِ ضيفــها والناهضِ[103]

سَحَراً إذا فاض الحجيج إلى منى   فيــضاً كمــلتطمِ الفُراتِ الفائض[104]

إن كان رِفضاً حــبُ آلِ محمدٍ   فليشــهدِ الثقلانِ أنــي رافضــي !

شخصية فذة، سوية السلوك، تعلمت العلم وأبحرت فيه، فحملت الدرر والياقوت والمرجان وراحت تعلم الأجيال القيم والأخلاق، إن الإمام الشافعي مدرسة علم النفس في الأخلاق قولا وفعلاً وعملاً، وعــلى الأجيال أن تقرأ بعيون منفتحة هذه الشخصية النادرة التي تركت أثراً علمياً متكاملاً تحتاجه الأجيال في حياتها، إن إرشاد الشافعي وعظاته وحكمه هي نواميس للسلوك الإنساني.وكم الإنسانية بحاجــة إلى هــؤلاء القــدوة الحســنة!! فسبحان الله الخالق العظيم.. ربنا لك وحدك تسجد الجباهُ !!..ولعظمــتك تخشــع القلــوب !!.. ومــن خَشيتك تدمع العيون!!.. ربنا اجعلنا من: (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار)[105].

والأيام مطية ابن آدم،فهنيئاً لمن استعملها في طاعة الله،**قال الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه:**

---

[103] –المحصب: منسك من مناسك الحج يجتمع فيه الحجاج لرمي الجمار ويكون اجتماعهم في يوم واحد.

[104] – الفرات الفائض: نهر الفرات في إبان فيضانه.

[105] –سورة آل عمران الآية191

(أغتنم خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك). وقالﷺ : (لا تزول قدما عبد من بين يدي الله عــز وجل حتى يسأل عن أربع:شبابك فيم أبليته؟ وعمرك فيم أفنيته؟ ومالك من أيــن اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وعملك ماذا صنعت فيه؟! والكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني).

علي بن الجهم

حكمة:

(كـــل شيء يبدأ صغيراً ثم يكبر إلا المصيبة فإنها تبدأ كبيرة ثم تصغر، وطوبى لك يـــا طائر! ترد النهر، وتسكن الشجر، وتأكل الثمر، ولا تتوقع الخطر، ولا تمر على سقر، فأنت أسعد حالاً من البشر).

كـــم هو بليد ذاك الفرد الذي يرقع نظرات الحقد والبغض في عينيه باصطناع ابتسامة في شفتيه! إنه ولـــد في بغدادسنة188هـ وتوفي سنة 249هـ ونشأ يقرأ كتب الفلسفة، ويناظر في قضايا علم الكلام ويهاجم المعتزلة ويجادل الزنادقة، ولكن حب الأدب وقول الشعر غلبا عليه.وكان صديقاً حميماً لأبي تمام، وحظي في مطلع حياته عند نفر من خلفاء بني العباس، فولاه المعتصم ديوان المظالم في حلوان، ثم عظمت منزلة ابن الجهم عند المتوكل إلى أن أفسد الحساد بينهما، فأبعده المتوكل إلى خراسان، وكتب إلى والـــيها طاهـــر بن عبدا لله بن طاهر بأن يصلبة من الصباح إلى الليل، فصلبه طاهر ثم أعاده إلى الســـجن، وبعـــد أن رضي عليه المتوكل، عاد إلى بغداد وعاش فيها مُهملاً عيشة بلهو وفسق، وقال عندما حبسه المتوكل:

قالت: "حُبستَ ! فقلتُ:ليس بضائرٍ	حبَسي وأيُ مُهند لا يُغمدُ ؟
أومـــا رأيتِ الليثَ يـــألفُ غيلَـــهُ	كبِراً وأوباشُ السّـــباع تَردَدُ[106]
والشمسُ لـــولا أنهـــا محجوبـــةٌ	عن ناظـــريكَ لما أضاء الفرقد
والبدرُ يدركُه السِرار فتنـــجلي	أيامُـــهُ وكـــأنـــه مُتجـــدد[107]
صَـــبراً فإن الصبرَ يُعقبُ راحـــةً	ويـــدُ الخليـــفة لا تطـــاولها يد
والحبسُ مـــا لـــم تغشـــهُ لِدَنيـــةٍ	شنعاءَ نِعـــمَ المـــنزلُ المتوردُ

يفخر بأسلوب من الحكمة ومشبهاً نفسه أثناء سجنه بالسيف المغمد، إذ لا يضره إذا كان في الغمد. فهـــذا لا يلغي حدته أبداً، وكذلك شأنه عندما يسجن فإن شهامته وفروسيته تبقى علماً يشار إليها بالبـــنان، ويبين أنه عندما ترد الثعالب إلى أكمة الأسد، لا يضيره ذلك، والشمس لولا غيابها لما بان وظهر القمر، فالأيام فيها تداول عجيب وما عاقبة الصبر إلا النصر، ومهما دام حكم الخليفة بالسجن عليه فعاقبته الفرج، لأن شيمته العفو والصفح، وليس بمقدور أحد غيره أن يفعل الصفح والإخلاء، ويبين علي بن الجهم أن بقاءه في السجن لا يضيره ولا يقلقه أبداً، فالسجن مكرمة للرجال الأشداء،

---

106 -الغيل: الشجر المتلف. السبع: الحيوان المفترس. الأوباش: الأخلاط والسفلة. أوباش السباع: الكلاب والجروان.تردد:تروح حرة.

107 -السرار:القمر في آخر الشهر القمري وعندما يتجدد.

ولـيكف اللائم عذله، فدخول السجن لأجل الكرامة مفخرة ورفعة، وليس وصمة عار أبداً.ويقول حين صُلب في" الشاذياخ" بخراسانَ:

لـم ينصبـوا بالشاذياخ صبيـحة　　الاثنـين مَغموراً ولا مجهولا
نصبـوا بحمـد الله مـلءَ عيونهـم　　شَرفاً وملءَ صُدورهم تبـجيلا
هـل كـان إلا الليثُ فارقَ غيـله　　فرَأيتـهُ في مَحمِـلٍ محمولا
مـا عـابه أن بُـز عنـه لباسُـه　　فالسيفُ أهولُ ما يُرى مسلولا
إن يبُتذل فالبـدر لا يـذري بـه　　أن كـان ليـلة تـمه مبذولا

يحمد الله علي بن الجهم لأنهم نصبوه علماً حيث يعرفه الجميع، فيحترمونه و يجلونه رغم صلبه، فهو أسـد في مأمـنه وكذلك في غيله قوياً مهاباً، ولا يعيبه بل ولا يضيره ما فعلوه به من هوان، فليس بمقدورهم أخفاء البدر ليلة تمامه، لأن نوره ساطع في قلوبهم ووجدانهم عزيزاً مكرماً أبياً.

أو يحبسوه فليسَ يُحبسُ سـائرٌ　　من شعره يَدعُ العزيزَ ذليـلا
إن المصائبَ مـا تعـدت دينـهُ　　نِعَـمٌ وإن صَعُبت عليـه قليلا
والله ليسَ بغافـلٍ عـن أمـرهِ　　وكـفى بربـك ناصراً ووكيلا
هل تـملكون لدينـه ويقينـه　　وجَنـانه وبَيـانـه تبـديلا
لم تَنقُـصوه وقـد ملـكتُم ظُلمَـه　　ما النقصُ إلا أن يـكون جهولا
كادت تكون مصيبـةً لـو أنـكم　　أوضحتمُ ذَنبـاً عليـه جَليـلا
أو كان سف إلـى الدنيـةِ أو رأى　　غـيرَ الجميل من الأمـور جميلا[108] !

ويفخـر بحادثة صلبه، لأنه عزيزٌ، ومتى المصائب كانت تذل الرجال؟ وما قالوا عنه من اتهام وأباطيل بحقـه، لم تسء إليه، بل زادته رفعة وشرفاً، بسبب عجزهم عن إيجاد دليل لاتهامه، ولعلي بن الجهم قصـيدةٌ مشهورة بمطلعها في الغزل مدح فيها المتوكل، ولا ريب في أنها من أحسن الشعر ويقال أنه عندما قدم علي بن الجهم ليمدح المتوكل في المرة الأولى مدحه بقصيدة جاء فيها:

أنت كالكلب في حفاظك للود　　وكالتيس في قراع الخطوب

وعندما سمع الخليفة هذا الشعر أمر بطرده من المجلس لأنه في ضوء فهم الخليفة قد أساء الأدب لمقامه السامي، فتدخل أحد الحكماء ملتمسًا العذر للشاعر، ومبرراً له قول هذا الشعر لأنه يعيش في البادية ولا يعـرف حـياة الحضر فهو ابن الصحراء و لا يعرف سوى البوش والهوش والكلاب والماعز ولا

---

[108] –سف : انحدر ، نزل .

حـــرج عليه فيما قال، فلقد مدحك بما يعرفه من لغة الصحراء فدعه في بلاطك يعيش حياة القصور، وربمـــا يقول شعراً جميلاً، فأمهله الخليفة بعض الوقت ثم جاء بعد ذلك وأنشد قصيدة تعد من عيون الشعر:

عُيونُ المَــها بين الرُصـــافةِ والجسرِ   جلبنَ الهوى من حيثُ أدري ولا أدري[109]
أعَـــدنَ لي الشوقَ القديمَ ولم أكُـــنْ   سلوتُ ولـــكن زدْتُ جمراً عـــلى جمر
ولكـــنه أودّى الشبابُ وإنـــما   تُصـــادُ المَــها بـــين الشبيبة والوفر
وبتنـــا على رغْمِ الوشاة كـــأننـــا   خليطان من مـــاء الغَمامـــة والخمر

ويعرض أجمل الكلام من عذب الشعر وأرقه، فلقد افقده جمال الصبايا صوابه فهو التائه والحائر، ومن أيـــن للحائر المعرفة؟ بل متى كانت تنقاد المعرفة لحائر؟فهو لا يستطيع فكاك روحه وقلبه من آهات الشـــوق القديم، حتى راحت تشتعل نار الشوق من جديد، ويعز عليه أفول نجم الشباب الذي أقعده رغمـــاً عنه في طلب الهوى، برغم ما يقوله الحساد، فلقد عاش أجمل لحظات السعادة بقرب الأحبة، ويتحدث عن جمال الهوى ومُرهِ عند بعد الحبيب عن القلب:

خليلي مـــا أحـــلى الهوى وأمـــره   وأعلمـــني بالحـــلو فيـــه وبالمَـــر !
بما بيننا من حُرمـــةٍ هل رأيتُـــما   أرقَّ من الشكوى وأقسى من الهجر ؟
وما أنسَ مِ الأشياءِ لا أنسَ قولها   لجارتـــها: " ما أولـــعَ الحُبَّ بـــالحـــر ! "[110]
فقالت لها الأخرى:"فما لِصديقنـــا   مُعـــنى ؟ وهل في قتلهِ لكِ مـــن عُذر
صِليه لعل الوصلَ يُحييه وأعلمي   بأن أسيرَ الحُب فـــي أعظـــم الأسر
وأيقَنَتا أن قـــد سَمِعتُ فقالتا :   " من الطارقُ المصغي إلينا وما ندري ؟ "
فقلتُ : " كأني بالقوافي سَوائـــرا   يردنَ بنا مِصراً ويصدرنَ عن مِصر
فقلتُ :"أسأتِ الظن لستُ بشاعرٍ   وإن كانَ أحياناً يجيش بـــه صدري
صِلي واسألي من شِئتِ يُخبركِ أنني   على كل حالٍ نِعـــمِ مستودعُ السرِ ! "

يجـــري حواراً بين العشاق المحرومين، فينقلك إلى لغة الأحاسيس والانفعالات، وماهية العتاب وحقيقة الشكوى ولوعة الأنين، ويوضح أن دواء الحب يكون بالوصل لا بالهجر، فيقارب بذلك خبايا النفس ومشاعرها بأحسن مقاربة من حيث الوصف والتصوير والتعبير الدقيق عن العواطف، وذلك بأسلوب شيق تسوده اللوعة والحرقة:

---

[109] -الرصافة :الجانب الشرقي من بغداد . الجسر : الجسر الذي يصل الرصافة بالكرخ .

[110] -ما أكثر علوق الحب بالرجل الحر(النبيل السامي الخلق).

ومـــا أنـــا ممن سار بالشعر ذكرهُ ولـــكن أشعاري يسير بـــها ذكـــري
ومـــا الشعرُ مـــما أستَظِلُ بظله ولا زادنـــي قـــدراً ولاحط من قدري
ولكن إحسانَ الخليفـــةِ جَعفـــرٍ دعـــاني إلى مـــا قلت فيـــه من الشعر
فسار مسيرَ الشمسِ في كل بلدة وهب هَبوبَ الريح فـــي الـــبر والبحر
ولو جَل عن شُكر الصنيعة منُعمٌ لجَل أمـــيرُ المؤمنـــين عـــن الشـــكر
ومن قال إن البحر والقطر أشبها نـــداه فقد أثنى عـــلى البحر والقطر
ولو قُرِنت بالبحر سبعةُ أبحـــرٍ لـــما بلغت جـــدوى أناملـــه العَشـــر

يفخـــر بكرم وإحسان الخليفة جعفر عليه، ويؤكد أن ذكر كرمه وجوده سافر إلى كل أقاصي الدنيا، فساد البر والبحر، و تعجز الكلمات عن الشكر، ولا يكفي أن تكون بحار العالم السبعة قطرة في بحر كرمه وجوده، أو أن تبلغ عشر أنامل يديه الطاهرتين في العطاء:

ولا يجمعُ الأمـــوال إلا لبذلـــها كـــما لا يساق الهـــديُ إلا إلى النحر
وفَرَقَ شـــملَ المال جودُ يـــمينه على أنـــه أبقـــى لـــه حَسَنَ الذكـــر
إذا مـــا أجال الفكرَ أدرك فكرُه غرائبَ لـــم تَخطُـــر ببالٍ ولا فـــكر
أغـــيرَ كتابِ الله تبغون شـــاهداً لكم يـــا بـــني العباس بالمجد والفخر ؟
كفاكُم بـــأن الله فوض أمـــرَهُ إليكم وأوحَى أن أطيعوا أولي الأمـــر

يقـــول الشاعر عليّ بن الجهم ليس للخليفة جعفر هم، سوى إنفاق المال في المكرمات والهبات، حَتى خلدت ذكره الأيام بعطاياه الطيبة، ويشير مستشهداً بمجد بني العباس وإن الله حباهم بهذه المكرمات، وعهـــد إليهم رعاية وحماية الأمة الإسلامية وتولي زمامها.بدت شخصيته عزيزة الجانب قوية العزيمة، كريمة الخصال تأنف العار والضيم.يفخر بنفسه ويعتز بها ويبدو واضحاً أثر البيئة في تنشئة الإنسان، فلو أمعن الفرد في حياة الشاعر عندما قدم من الصحراء ومديحه للخليفة وغضب الخليفة من شعره، لبدا جلياً أثر البيئة في مفردات الإنسان، بل أن البيئة هي ثقافة الفرد بما تملكه وما تزوده بما فيها، وما أن عـــاش الشاعر في بلاط الخليفة حتى انقلبت الأمور وتغيرت، فلقد أتصل الشاعر ببيئة جديدة هي بيئة الحضر وراح يصفها أجمل وصف، وهذا ما يؤكد دور البيئة في صقل شخصية الفرد بل في تحديد ســـلوكه وتفكيره كونها مصدر ثقافة الفرد المتوفرة له ولا بد من قول الحقيقة أن البيئة تترك بصماتها عـــلى حياة الفرد، فتلونه بما فيها من عادات وتقاليد وقيم ومعارف، وهكذا نرى أن سبب الفروق الثقافية بين الأفراد والمجتمعات تعود في أغلبها إلى فروق بيئية.

موعظة:

(إذا كنت سنداناً فاصبر، وإذا كنت مطرقة فأوجع، وإذا خشيت البلل فأنك لن تصطاد سمكاً أبداً، واترك التردد في إتخاذ القرار وإياك والتذبذب في المواقف؛ بل اجزم واعزم وتقدم).

أبو الطيب المتنبي

حكمة:

(إنــك لا تجني من الشوك العنب و الخيل أعرف بفرسانها، وأعلم أن ما أصابك لم يكــن ليخطــئك، وما أخطاك لم يكن ليصيبك، فأسعد بما أنت لاقٍ، ولا حيلة لك في القضاء).

أخي من نحن؟ لا وطن ولا أهل ولا جار، إذا نمنا إذا قمنا ردائنا الخزي والعار، لقد خّمت بنا الدنيا كما خّمــت بموتانا القفار، فهات الرفش واتبعني لنحفر خندقاً آخر نواري فيه ما بقيا منا !!إنه أبو الطيب الذي ولد سنة910م، حيث يعبس له الدهر فيشب ناقماً شجاعاً، فيتمكن ببلاغته وحماسة الشباب أن يجــوب الأقطار طموحاً إلى المجد، ولكنه كان يعرف قيمته وتأثيره في إكرام الناس له، معجباً بنفسه حريصاً على أن يعجب الناس بها أيضاً، يمثل في شعره عواطف العرب وخيالاهم وهو كثير الشوق إلى معيشتهم فخور بنسبه إليهم ، ويرى في فرسانهم منتهى الشجاعة، مات سنة965م، و لا تجد في حياة المتنبي أو شعره ما يدل على ميل إلى ترف، أو عبث حيث يقول:

وأتعب خلق الله من زاد همه   وقصّــر عما تشتهي النفس وجده

فلا مجــد في الدنيا لمــن قل ماله   ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

يــبين أنه لا مجد لمن لا علم له، ولا قيمة للمال إلا بالعلم، وكيفية التدبر، فهو بهذا يرشد الناس إلى النظر بمسائل الحياة، وينهي النفوس عن الركض وراء هموم الدنيا الوضيعة.ويقول:

أعز مكــان في الدنى سرج سابح   وخير جليس في الزمان كتاب

ويحــذر مرشدا الناس على أن أفضل جليس لهم يكون بكتب العلم، لأنه بالعلم ترتقي النفوس، وأن خــير الحــياة إن لم يكن بالعلم، فالموت على ظهور الخيل أرقى وأعز مجداً للفتى فيظل محمود الذكر. عاش منذ صباه جاداً رزيناً لا يهتم بما كان يهتم به أكثر الشعراء من شرب مدام، أو مغازلة حسان أو الأنصراف إلى المطربات وإنشاد الألحان، ولم يكن المتنبي حشاداً للمال مخافة الفقر:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله   مخافة فقــر فالذي فعل الفقــر

يرســم مبادىء الحياة للأجيال ومنبهاً بأن جمع المال والطمع به، هو الفقر بحد ذاته بما يسببه من هموم وضــياع للوقــت في الــتفكير بجمعه والسعي وراءه مدى العمر.نشأ أبو الطيب احمد بن الحسين في الكوفــة، وتلقى فيها جانباً من العلوم، وفي نفس المتنبي نزعة عربية شديدة، ولا غرابة فهو عربي يمني مــن جهة الأب وهمداني من جهة الأم، وزد على ذلك أنه ظهر في عصر ضعفت فيه شوكة العرب، وقلــة هيبتهم، وأصبحت أكثر البلدان الأسلامية في أيدي أمراء من الفرس والترك، فأوقد ذلك في

نفوس العرب غيرة قومية وحمية عربية، ولذا يكثر في شعره الفخر بأصله العربي، وذم الأعاجم كقوله مخاطباً سيف الدولة:

إن كنت عن خير الأنام سائلاً فخيرهم أكثرهم فضائلا

من كنت منهم يا همام وائلا الطاعنين في الوغى أوائلا

والعاذلين في الندى العواذلا قد فضلوا بفضلك القبائلا

يفخر بالعرب وبفضائلهم الجليلة، ويشيد بحروبهم الفاصلة مع أعدائهم، ويتحسر من زمن ساد فيه العبيد على أربابهم، ويخاطب سيف الدولة مفتخراً ببطولته وعزته ونصرته على أعداء العرب من ترك وفرس وروم لرفع راية العرب، ويكرر كثيراً ذكر العرب مفاخراً بهم كقوله:

رفعت بك العرب العماد وصيّرت قمم الملوك مواقد النيران

أنساب فخرهم إليك وإنما أنساب أصلهم إلى عدنان

ويرجّع نسب سيف الدولة لقبائل عدنان العربية، ولما لا يكون فارسها؟ وموقد النيران في ديار أعداء الأمة العربية، ومن أمثلة تعصبه للعرب قوله يمدح علي بن إبراهيم التنوخي:

أحقٌّ عافٍ بدمعك الهمم أحدثُ شيءٍ عهداً بها القدم

وإنما الناس بالملوك وما تُفلح عُربٌ مُلوكُها عجمُ

لا أدبٌ عندهم ولا حسبٌ ولا عهودٌ لهم ولا ذِمم

في كل أرضٍ وطئتها أممٌ تُرعى بعبد كأنها غنم

يَستخشنُ الخزَّ حين يلمُسهُ وكانَ يبري بظفره القلُم

لا يرضى المتنبي أن تكون قيادة الأمة من العجم وغيرهم، بسبب عوزهم وافتقارهم للقيم المتأصلة والمتجذرة بالعرب من قيم وأخلاق وأدب، ويصفهم بالبعد عن حياة الحضر، فهؤلاء لا يصلحون إلا أن يكونوا عبيداً وإماء وجواري وقيانا. ويسخر من الأمة إذا قادها عجمي، فيشبهها بقطيع من الغنم، ويستحيل عليها الرقي والتقدم بهؤلاء القادة، وكأنه بطل قومي يدعو للوحدة العربية، ومن المبادىء التي آمن بها المتنبي نزعته إلى القوة التي اعتنقها وآمن بها سبيلاً وحيداً لتحقيق المطامح والآمال العربية وبلوغ مراتب المجد والعظمة، وشريعته للتفوق سواء على الصعيد الفردي أو على الصعيد الجماعي:

ولا تَحسَبَنَّ المجدَ زِقّاً وقينةً فما المجدُ إلا السيفُ والفتكةُ البِكرُ

وَتركُكَ في الدُّنيا دوياً كأنما تَداوَلَ سَمعَ المَرءِ أَنمُلُهُ العَشرُ

يبين أن عز الإنسان ومجده يكون بالصارم البتار في ساحات الوغى، وأن المجد لا يأتي لكسول وخامل وجبان، وأنه من العيب على الفتى مغادرة الحياة من دون ترك بصمات المجد ترتفع عالياً بالثناء والحمد

له، وذلك بمقارعة الخطوب وتحديها مهما شمخت، فالإرادة القوية والصلبة تحطم المصاعب، وتشرب منهل المجد صافياً عذباً طيب المذاق والطعم، وتظهر نزعته البدوية للأعرابيات ومقابلتهن بالحضريات ومحبته لسيف الدولة وله أبيات منها:

من الجآذرُ في زي الأعاريب حُمْرَ الحُلى والمطايا والجلابيب
ما أوجه الحضر المستحسنات به كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب
أين المعيز من الآرام ناظرة وغير ناظرةٍ في الحسن والطيب
أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
قالوا: هجرتَ إليه الغيثَ ! قلت لهم: إلى غُيوث يديه والشآبيب
إلى الذي تَهبُ الدولاتِ راحته ولا يمنُ على آثار موهوب
أنتَ الحبيبُ ولكني أعوذ به من أن أكون محباً غير محبوب

يفخر بالفتيات العربيات،بنات الصحراء ويسخر من بنات القصور وحياتهم بمقارنة جميلة الإبداع، فيشير إلى جمال البدويات الساحر، وعفتهن الطاهرة،ويشبهن بالظباء لجمال عيونهن،ويرحل لسيف الدولة ،ذلك البطل فيشبهه بعطاياه كالغيث الذي تحن إليه الأرض العطشى، وهكذا حال الأمة وحاجتها إليه لينقذها من الأعداء، فالمتنبي يمثل في شعره عواطف العرب وخيالاتهم وهو كثير التحنان إلى معيشتهم، فخور بنسبه إليهم، وقد دعا نفسه في قصيدة مغاني الشعب " الفتى العربي " حيث يقول:

مغاني الشعبِ طيباً في المغاني بمنزلةِ الربيعِ من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها غريبُ الوجه واليد واللسان
ملاعبُ جنةٍ لو سار فيها سليمانٌ لسارَ بترجمان

لم يحظ شعر عربي من الشهرة بمثل ما ناله شعر المتنبي، ولم يكن حظه في عصره بأقل من حظه اليوم، فما زال محط الأنظار للقراء عبر صروف الأيام والأزمان.ولد طموحاً مهووساً بالمجد، فلم يتمالك عن أن يصيح في وجه الزمان قائلاً:

لئن لذّ يوم الشامتين بيومها لقد ولدت مني لأنفهمِ رغما
وإني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنفٌ أن تسكن اللحم والعظما
كذا أنا يا دنيا إذا شئت فاذهبي ويا نفس زيدي في كراهتها قدما
فلا عبرت بي ساعة لا تعزني ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما

وهكـــذا كنت في أهلي وفي وطني إن النفيـــس غريب أينـــما كانـــا

يرشـــد ويشحذ الهمم للسباق نحو مكارم العلا والأخلاق، فلا يرضى بعيش كله ذل ولا يقبله مهما كان مترفاً، و لا تسعده لحظة تعبره في حياته أو تمر به من دون سؤدد، إن لم يكن فيها شيء من المجد، وتضيق نفسه الطموحة من ذاتها إذا هي سكنت وخنعت، ويشعرها بالغربة إن رضيت بالسكون، بل عليها السعي الدؤوب لبلوغ مراتب المجد. طمح المتنبي إلى شيء من النفوذ لنيل ولاية، وتحصيل عيش رغد، فأثار في نواحي حمص فتنةً بين الأعراب، ودعاهم إلى الامتناع عن دفع الضرائب، وليس أحب إلى البدو من مثل هذه الدعوة، فأخذه لؤلؤة والي حمص من قبل الإخشيديين، واتهمه بالتنبؤ ثم سجنه مدة، فلزمه منذ ذلك الحين لقب المتنبي، وكان أبو الطيب يكره هذا اللقب، على أن هذا الاتهام لأبي الطيب بالتنبؤ جاءه، لأنه أراد استمالة البدو في بادية حمص للخروج على طاعة ولي الأمر، ومما يروى أنـــه كـــان يزجـــر لهم المطر على ما تقول بعض الروايات، أو يتنسم لهم الأخبار، ثم يخبرهم بها قبل انتشارها. ويلقى في السجن وهو في نحو التاسعة عشرة من عمره بأمر من والي حمص بسبب طموحه فيقول مفتخراً بالسجن وغير مبال بظلامه:

كن أيها السجن كيف شئت فقد وطنت للموت نفس معترف

لو كان سكناي فيك منقصةً لم يكن الدر ساكن الصدف

يعتز بوضعه بالسجن، ويبدي مقارنة رائعة، فيبين أن الدرر الغالية الثمن تحبس بالصدف، ولا يضيره هذا السجن مادام على حق، لأنه لم يرتكب جناية عار ولا إثم ولا فاحشة، إلا جناية السعي للمجد، ولـــو كلفه ذلك حياته، فروحه رخيصة للمعالي وفداء لها، أنه يظهر الاستخفاف بأهواله لدى دخوله الســـجن غير مبالٍ، وتمر به الأيام حيث لقي عذاباً شديداً، فقد وضعوا القيود في رجليه وعنقه، ولما طـــال اعتقاله نفد صبره، فنظم قصيدة يمدح فيها الوالي ويعتذر إليه، بأن ما فعله كان ذنباً، دعاه إليه طـــيش الصبا ووسوسة النفس اللوامة، ثم دافع عن نفسه بإنه صغير السن ولم يجب عليه حتى فرض الســـجود بعد، فلا يجوز أن يعاقب بالحبس، وأراد الوالي التخلص منه، فأخرجه من السجن على أن يبتعد عن منطقة حمص ما أمكن، فأرسل، إلى الوالي قصيدة يستعطفه، ويعتذر إليه بصغر سنه، وأن له أماً تبكيه فقال:

دعوتك عند انقطاع الرجاء والموت مني كحبل الوريد

دعوتك لما براني البلاء وأوهن رجلي ثقل الحديد

آهات وأنات رجل متضايق، فقد نفد صبره وذاق أصناف العذاب والقهر، وخاف مغبة الأمر وآلمته أثقـــال القـــيود المربوط بها، وهاله الأمر وكرب البلاء وغمه السجن، ثم راح يستثير عواطف الوالي

ورحمته فقال:

بيدي أيها الأمير الأريب   لا لشيء إلا لأني غريب
أو لأم لها إذا ذكرتني   دم قلب بدمع عين يذوب

يستعطف الوالي بدموع أمه الباكية والتي نحل جسمها كمدا وحزنا على وليدها، ويبين حلم الوالي وبأنه حكيم، وأن من صفات الحكماء الرحمة والشفقة، مشيراً للوالي بغربته وتوبته، فذهب المتنبي إلى جنوب الشام وجعل يطوف في البلاد، ويمدح نفراً من الأمراء والولاة والأعيان، وقد نظم شعره الموسوم بشعر الصبا، وكان بعضه قصائد مطولة في المديح والفخر وذم الزمان فيقول:

فؤادٌ ما تُسليه المُدامُ   وعيشٌ مثلَما تَهبُ اللئامُ
وما أنا منهمُ بالعيشِ فيهم   ولكن معدنُ الذهب الرغام[111]
أرانبُ غيرَ أنهمُ مُلوكٌ   مفتحةٌ عيونُهمُ نيامُ
أطاعنُ خيلاً من فوارسها الدهر   وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبر ؟
وأشجعُ مني كلَّ يومٍ سلامتي   وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر

لا يرغب بمعاقرة الشراب ومجالسة القيان ولا يرضى بعيش الذل والهوان، ويتوجع من زمنه ويتبرم منه ومن الناس المحيطين به، وكأن ملوك هذا الزمان أشبه بالأرانب الغافلة النائمة، لا تدري الأخطار المحدقة بالأمة العربية، وماذا بوسعه أن يفعل سوى أن ينصح ويرشد ويعظ هؤلاء الغافلين للذود عن الأوطان، ولكنه يجد نفسه وحيداً، فيعود إلى صبره ويلوذ به لدرء الهموم والمتاعب فنجده جلداً على الشدائد، وفي الوقت نفسه يجد بداخله روحاً ونفساً تزداد منعة وصلابة ضد الأخطار، ولا تخشى الرزايا لأنها ثابتة لا تعصف بها المخاوف مهما بدت وهذا يبين إرادة المتنبي الصلبة في حث أمته لمكارم العلا والمجد :

تمرستُ بالآفاتِ حتى تركتُها   تقول : أماتَ الموتُ أمْ ذُعِرَ الذُعر
وأقدمتُ إقدام الأتي كأن لي   سوى مُهجتي أو كان لي عندها وتر[112]
ذرِ النفسَ يأخُذْ وُسعَها قبل بينها   فمفترقٌ جارانِ دارُهما العمر
ولا تحسبَنَّ المجد زقاً وقينة   فما المجدُ إلا السيف والفتكة البكرْ[113]

لله دره بقوله عندما يبين أن خبرته في الإقدام على المخاطر دفعت الموت أن يهرب منه مذعوراً بسبب

---

111 – الرغام : التراب. معدن : أصل.

112 – الأتي : السيل . وتر : ثأر.

113 –الزق : وعاء الخمر . القينة : الجارية المغنية . البكر: العظيمة التي لم يسبق مثلها.

جسارته وصلابته، ويوضح لِمَ هذا الخوف والجبن والتراجع عن المبادىء السامية في اقتحام الأهوال، مادامت أن الروح سوف تغادر الجسد عاجلاً أم آجلاً، وما هما سوى جارين! ولا بد من افتراق الجيران مهما كانت النتائج ؟، ويحث النفوس أن تأخذ نصيبها من المجد والعز، مادامت نهايتها الموت، وبلوغ المجد لا يتأتى إلا بحد بالسيف، فهو يعزز الثقة بالنفس من خلال بيانه وحكمه، فيشعر الفرد معه بالفخر واستطاع بأسلوبه النفسي أن يثير دوافع النفس ورغباتها أن تخاطر وتغامر. ويروي ابن خلكان: أن الوالي استتابه وأطلقه وربما كان سبب سجنه ادعاؤه النبوة وهو قول يحتمل الشك:ويحكى أنه تنبأ في صباه، وقد فتن شرذمة من القوم بقوة أدبه وحسن كلامه على زعم ابن جني تلميذ المتنبي إذ يقول:

أينَ فضلي إذا قنعتُ من الدهر بعيشٍ معجل التنكيد
عش عزيزاً أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود
لا كما قد حييتَ غيرَ حَميدٍ وإذا مِتَّ مِتّ غيرَ فقيد
فاطلب العز في لظى ودع الذل ولو كان في جنان الخلود
ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود
أنا ترب الندى ورب القوافي وسمام العدى وكيدُ الحسود

يتساءل ما قيمة حياة الإنسان إذا لم تكتسب مجداً ؟فالحياة الكريمة والعزيزة الشريفة هي ببلوغ ذرى المجد وسنامه، ولا خير في حياة إذا لم يكن الفرد فيها محمود الذكر بفعاله، وعلى الفرد طلب العز حتى لو كانت المهالك تحوطه في كل صوب، ودعا لرفض حياة الذل حتى ولو كانت في جنان الخلد، ويندب المتنبي حظه العاثر الذي أودى به لقوم يرشدهم للعز، وهم عنه ساهون غافلون، منشغلون باللذائذ، بينما شغله الشاغل بلوغ المجد الذي لا يغادر فؤاده، وبرغم ذلك لا يطاول الحسد الذي يضمرونه له منهم على طموحه، ويتزاورون منه فهو من مأمن منهم:

أنا في أمةٍ تداركها الله غريب كصالح في ثمود
مفرشي صهوة الحصان ولكن ولكن قميصي مسرورةٌ من حديد
ضاق صدري وطال في طلب الرزق قيامي وقل عنه قعودي
ما بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي

يبين أن موقعه بين قومه عالي المقام، ولكنه مبتلى بأمةٍ رضيت بالذل والهوان، فأصبح بينهم غريباً كغربة النبي صالح عليه السلام في قومه، ولقد ضاقت به الأرض بما رحبت في سعيه لطلب الرزق الشريف، ويفتخر بنفسه لا بقومه، إلا أن قومه يفخرون بانتسابهم إليه.وتموت جدته فيرثيها بقصيدة

ملأها بالفخر بنفسه فممـــا قاله:

ألا لا أُري الأحداثَ مدحاً ولا ذمــا   فما بطشُها جهلاً ولا كفها حلما
عرَفتُ الليالي قبل ما صنعت بنــا   فلــما دهتـني لم تزدنــي عِلما
أتاهـــا كتابي بعـــد يأسٍ وتـــرحةٍ   فماتت سروراً بــي فمتّ بها غما
وكنت قُبيلَ الموتِ أستعظم النوى فقد   صارت الصغرى التي كانت العظمى[114]
هبيني أخذتُ الثأر فيك من العــدى   فكيف بأخذ الثأر فيك من الحُمـــّى
ولو لم تكوني بنت أكرم والــدٍ   لكانَ أباكِ الضخمَ كونك لي أُمــا

يـــنظر إلى الأهـــوال نظـــرة الواثق من نفسه، فلا يخشاها ولا تهتز له شعرة منها،بل علمته الخطوب والمخاطر الشجاعة والإقدام، وجعلته يرى عظائم الأمور سهلة،وينظر إلى وفاة جدته نظرة شموخ وعزة وإباء، واعتداد بالنفس وان الموت برغم عظمته لا يخيفه أبداً،ولو بمقدوره الثأر من الموت لفعل ذلك، ولم يدعه يختطف جدته الكريمة الحسب والنسب.وعندما أطلق سراحه من السجن أخذ يجوب في أقطار البلاد الشامية مادحاً أعيانها، على أنه لم ينل في هذه السنوات ما يستحق الذكر، حتى ألقته المقادير إلى ســيف الدولـــة، فأجازه الجوائز السنية ومالت نفسه إليه وأحبه، وعظم مقام المتنبي في بلاط سيف الدولـــة، وكان سيف الدولة أديباً محباً للأدب، قد جمع في بلاطه من الأدباء والشعراء والعلماء، ما لم يجـــتمع إلا في بلاط هارون الرشيد، فعرض سيف الدولة على المتنبي أن يصحبه إلى حلب، فاشترط المتـــنبي عـــلى سيف الدولة ألا ينشده الشعر إلا وهو جالس، وألا يقُبل الأرض بين يديه، وعلى أن يضـــمن له سيف الدولة ثلاثة آلاف دينار في العام على ثلاث قصائد سوى ما يخطر له.ولعل سيف الدولة أدرك الطموح في نفس المتنبي إلى السلطان والحكم، فأقطعه قرية قرب حلب، لكنها لم تطفىء غُلـــة المتنبي ولهفته إلى الأمارة، ولأنه كان مقدماً على الجنود والشعراء حين يذهب في الغزوات مع سيف الدولة، كان ذلك يؤجج حسد رِفاق المتنبي له، ناهيك عن الحظوة العظيمة لدى سيف الدولة، فقد ينال على القصيدة الواحدة ألف دينار، بينما كان في البلاط مائة شاعر لا ينالهم مثل هذا المبلغ، فمـــا زال هـــؤلاء يوقعون بين المتنبي و سيف الدولة، وضاق صدر سيف الدولة بمن معه: إذ كانوا يتنازعون في الألفاظ والإعراب والأشعار، ويطلبون العطاء لينفقه معظمهم على الغزل والخمر، بينما كـــان الـــروم يهـــاجمون البلاد وهو عاجز عن قتالهم إلا قليلا، وذات مرة أصيب سيف الدولة من دُملٌ(مرض جلدي مؤلم أحياناً)، فقال المتنبي في ذلك قولاً ومبدعاً مشهداً رائعاً:

---

[114] -كنت أرى البعد عن جدتي امراً شديداً فلما ماتت أدركت أن البعاد أمر عادي تافه بالنسبة إلى الموت.

أيدري ما أرابكَ من يريبُ ... وهل ترقى إلى الفلك الخطوب ؟
وجسمكَ فوقَ همه كلُ داء ... فَقُـربُ أقلها منه عجيب ؟
وكيف تعُلكَ الدنيا بشيءٍ ... وأنتَ بعلةِ الدنيا طبيب ؟
وكيف تنوبكَ الشكوى بداءٍ ... وأنت المستغاثُ لما ينوبُ ؟
مللتَ مُقامَ يومٍ ليسَ فيه ... طعانٌ صادقٌ ودمٌ صبيب
وأنت المرءُ تُمرضه الحشايا ... لهمسته وتشفيه الحروب

يضع المتنبي استغرابا جميلاً على وفق مقارنة مليئة بالحكمة إعندما يتعجب من المرض الذي جاء للطبيب وهو سيف الدولة والذي يداوي كل الأمراض وعللها، فسيف الدولة يرسل الأمراض لأعدائه، وهو الفلك العالي الذي يصعب أن تلحقه الأمراض، وما أمراض سيف الدولة إلا من الهمم الضعيفة بالحرب والطعان، فهو الذي يغيث القوم أثناء البلاء. وراح يمدحه بأجمل القصائد ولازمه تسع سنين سجل فيها حروبه وغزواته ضد الفرنجة. وأحسن مديح المتنبي يأتي مع وصف المعارك، ذلك لأن المتنبي فارسٌ شهدَ المعاركَ مع سيف الدولة، وأحسن شاهد على ذلك وصف قلعة الحدث الحمراء ومديح سيف الدولة:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها ... وتصغر في عين العظيم العظائم
يكلف سيفُ الدولة الجيشَ همه ... وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم
ويطلبُ عند الناس ما عند نفسه ... وذلك ما لا تدعيه الضراغم
هل الحدثُ الحمراءُ تعرفُ لونها ... وتعلمُ أيُّ الساقينِ الغمائم

يشير إلى أن الأحداث الجسام والوقائع الشديدة ليس لها إلا سيف الدولة الكريم المعطاء الفارس المغوار، الذي دحض الأكاذيب بنصره في قلعة الحدث الحمراء، فجعلها خرابا منذ سالف الأزمان لشدة بأسه على الروم، ولقنهم درساً في التضحية والفداء، حتى ارتوت الأرض بالدماء والجماجم.

سقتها الغمامُ الغُرّ قبل نزوله ... فلما دنا منها سقتها الجماجم
بناها فأعلى والقنا يقرع القنا ... وموجُ المنايا حولها متلاطمُ
وكان بها مثلُ الجنونِ فأصبحت ... ومن جُثث القتلى عليها تمائم
طريدة دهرٍ ساقها فرددتها ... على الدين بالخطي والدهر راغمُ
وكيف تُرجي الروم والروس هدمها ... وذا الطعنُ أساس لها ودعائم
وقد حاكموها والمنايا حواكمٌ ... فما ماتَ مظلومٌ و لا عاش ظالم

أتوك يجرون الحديد كأنما سروا بجياد ما لهن قوائم

إذا برقوا لم تعرف البيض منهم ثيابهم من مثلها والعمائم

جعل سيف الدولة من النصر على الأعداء في قلعة الحدث الحمراء عبرة وعظة للأعداء، وبين كيف المنايا أنشبت أظافرها بالروم، فقد جاءهم بجيش عرمرم،صُبغ بدماء القتلى باللون الأحمر، حتى بدت ثياب الأبطال وكأنها عمائم وتركت جثث الأعداء طعاماً لوحوش الفلاة.

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه وفي أذن الجوزاء منه زمازم

تجمع فيه كل لسنٍ وأمةٍ فما يفهم الحداث إلا التراجمُ

وقفت وما في الموت شكٌ لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمةً ووجهك وضاحٌ وثغرك باسم

جاء الفارس سيف الدولة بجيشه لقلعة الحدث الحمراء فملأ الأرض شرقاً وغرباً، وبلغ صوت صهيل الخيل وقعقعة صليل سيوف الفرسان عنان السماء لكثرة العدد والعدة، ونشبت المعركة الفاصلة، ووقف سيف الدولة في ساحة الوغى يصول ويجول فلا يهاب الموت، وكأن الموت يحتضن سيف الدولة بين أجفانه بسبات، فيدعه في حفظه ورعايته وكأنه في نوم عميق، بينما الفرسان الجريحة يقطر دمها وتجري هاربة لائذةً بالفرار من الموت الذي يطاردها.

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى إلى قول قوم أنت بالغيب عالم

ضممت جناحيهم على القلب ضمه تموتُ الخوافي تحتها والقوادم

بضربٍ أتى الهامات والنصر غائب وصار إلى اللبات والنصر قادم

ومن طلبَ الفتحَ الجليلَ فإنما مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

نثرتهم فوق الأحيدب كله كما نثرت فوق العروس الدراهم

يفخر المتنبي ببطولة سيف الدولة، ويرى أن أفعاله في ميدان الحرب قد فاقت كل تصور، واذهلت الأعداء من قتاله الشرس، ولقنهم العبر بان النصر له فراح ينثر جثثهم في ساحات القلعة، كما تنثر الدراهم بأفراح العرس:

لك الحمد في الدُرّ الذي لي لفظه فإنك معطيه وإنيَ ناظم

ألا أيها السيف الذي ليس مغمداً ولا فيه مرتابٌ ولا منه عاصم

هنيئاً لضرب الهام والمجد والعلى وراجيك والإسلام أنك سالم

يبارك المتنبي لسيف الدولة بالظفر بالأعداء وكسر شوكتهم، ويشكره لأنه حقق أماني أمة الإسلام بالعزة والكرامة في دحر أعدائها.وحين دخل المتنبي حلقة سيف الدولة، وقد وجد فيها كبار الشعراء

والأدباء، فشق على نفر منهم، أن ينال ما ناله من الأمير، وفي مثل هذه الحال كان سيف الدولة يضطر إلى أن يستمع إلى الشعراء في بلاطه فيتناقشون في شعر للمتنبي: فيزعمون مرةً أن المتنبي سرق معناه من شاعر سبقه؛ ويقولون للمتنبي مرةً أخرى: أسأت التشبيه الفلاني، أو أتيت بوجه ضعيف من الإعراب، وزاد غيرهم منه وكرههم له ما في نفسه من صلابة وتعاظم،وصلف وغرور، والحقيقة أن مدائح المتنبي في سيف الدولة تعد أحسن مدائحه كلها على الإطلاق، فهو يبالغ في وصفه لأنه كان يحب سيف الدولة فوق احترامه له وإعجابه به، فلقد رفعه فوق مرتبة البشر، فقال يمدحه ويلومه أحياناً لسماع أقوال الوشاة:

لكلّ امرىءٍ من دهره ما تعودا وعادةُ سيفُ الدولة الطعنُ في العدا

هو البحرُ غُصْ فيه إذا كان ساكنا على الدرّ واحذرهُ إذا كان مزبدا

ورُبّ مُريدٍ ضُره ضرّ نفسه وهاد إليه الجيشَ أهدى وما هدى

ومُستكبرٍ لم يعرفِ الله ساعةً رأى سيفه في كفهِ فتشهدا

تظلّ ملوكُ الأرضِ خاضعةً له : تُفارقُه هَلكى وتلقاه سجدا

أزلْ حسد الحساد عني بكبتهم فأنت الذي صيرهم لي حسدا

يستغرب المتنبي ويتألم ! لماذا أخذ سيف الدولة يسمع الوشاة والحاقدين، وهذه ليست من عادته أبداً، وإنما من عاداته الحكمة والتروي والصبر؛ وكم من معركة قادها بقلب شجاع لا يخشى الموت شاهراً سيفه لسنام المجد، ثم يعاتب المتنبي سيف الدولة لسماعه الحساد، الذين يوغرون صدره ضد المتنبي، ويحل به الهم والحزن من جراء هذه الفعال الخسيسة التي يحيكها الحساد والأعداء، حيث تضيق الدنيا بناظريه.و يزداد أرقاً من ذلك قوله:

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر ضعيف يقاويني قصير يطاول

يفتخر المتنبي معتزاً بنفسه، وبأنه يترفع عن هؤلاء الشعراء الأقل مرتبة منه، وليس لديه الوقت للإلتفات لهؤلاء، وأن لديه من الأخلاق والسمو ما يجعله فوق تلك المهاترات الهزلية. خص سيف الدولة الشاعر بالعطف، لكنه رغم ذلك أصغى إلى أقوال خصومه فيه، فتجرأوا عليه حتى كان ما كان من ضرب ابن خالويه له بالمفتاح في حضرة سيف الدولة، فأصابه بجرحٍ في وجهه، فغضب المتنبي وغادر حلب إثر نظم من البيان مفاده:

وأحر قلباه ممن قلبه شبم ومن بجسمي وحالي عنده سقَم

ما لي أكتم حباً قد برى جسدي وتدعي حبَّ سيف الدولة الأمم

إن كان يجمعنا حبٌّ لغرته فليت أنا بقدر الحب نقتسم

قد زرته وسيوف الهند مغمدةٌ وقد نظرت إليه والسيوف دم

فكان أحسنَ خلقِ الله كلهم وكان أحسن ما في الأحسن الشيم

يتألم المتنبي من شدة حبه لسيف الدولة ويتحسر بلوعة الولهان، لأنه مبتلى بهذا الشغف والشوق القاتل الــذي ملأ عليه عقله وجسمه حتى أصبح نحيلاً ضعيفاً، و يتساءل متعجباً من روحه الوفية كل هذا الوفـــاء لأمـــير راح يســـتمع إلى الوشاة الحاقدين، الذين يريدون قطع أواصر المحبة بينه وبين أشجع الفرسان وأنبلهم وأكرمهم، الذي لا يعدله إنسان، إنه سيف الدولة الشهم ذو السجايا الحميدة:

يا أعدلَ الناس إلا في معاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

أُعيذُها نظراتٍ منك صـــادقةً أن تحسبَ الشحمَ في من شحمُهُ ورم

وما انتفاعُ أخي الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنـــوار والظُلم ؟

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا بأنني خير من تسعى به قدم

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من بـــه صمم

يخاطـــب سيف الدولة العادل في حكمه قولاً وفعلاً والظالم لمحب له، يعشقه حتى الموت،ومتسائلاً ما فائدة العيش عندما يبدل الحبيب موقفه من حبيبه؟ لا خير ولا سعادة في حياة بعد غضب سيف الدولة علـــيه، ويمضـــي المتنبي مفتخراً بأنه أفضل ممن سار على الأرض قاطبة بعد سيف الدولة، وهو الذي أصـــبحت أقوالـــه عظة وعبرة لكل مخلوق ينهل منها علماً ومعرفةً.ولكن ذلك كله لا يرضي سيف الدولة الذي راح يحاكمه بأقوال الوشاة زوراً وبهتاناً.

أنامُ ملِءَ جفوني عن شواردها ويسهرُ الخلقُ جـــراها ويختـــصم

وجاهل مـــده في جهله ضحَكِي حتـــى أتته يدٌ فراسةٌ وفم

إذا رأيت نيوبَ الليث بارزة فـــلا تظننَّ أن الليث يبتسم

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

بأيَّ لفظ تقول الشعر زعنفة تجـــوز عنـــدك لا عُرب ولا عجم

وراح المتـــنبي يبين فضله على خصومه، وموضحاً سعه علمه ومعرفته وقوة بيانه وفصاحة أقواله، فلا فارســـاً في أقاصـــي المعمورة بعده في الحرب ولا عالماً بالعلوم بعده أبداً، وراح يهجو هؤلاء الوشاة المعـــتدين على الشعر والذين لا يميزون به بين الغث والسمين. فلقد استغل بعضهم المناسبة وبسرعة الـــبديهة لـــلموقف فقال: وماذا أبقيت للأمير، فأنت فارس الفرسان وأعلم الناس بالبيان ؟ إثر ذلك أنزعج سيف الدولة من النظم، وقد شج رأس المتنبي بسبب ضربة بالمفتاح فقال مخاطباً الأمير:

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم

ما كان أخلقنا منكم بتكرمةٍ لو أن أمركم من أمرنا أمم
أن كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرحٍ إذا أرضاكم ألم
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفةٌ إن المعارف في أهل النهى ذمم

ما أصعب قسوة الفراق من حبيب ظالم لمحبه، فكل غالٍ بعده لا قيمة له، وكم كان المتنبي يحلم ويتمنى أن يرى من سيف الدولة سعة خلق!! ليطرد هؤلاء الوشاة، ولكنه يبرر لسيف الدولة اختلاط الأمور عليه من هؤلاء الوشاة، ولكن ما العمل مادام الأعداء قد وصلوا لبغيتهم، فلتكن روح المتنبي فداء للأمير، ولا يجرؤ المتنبي أن يسمح لنفسه بالخطأ بحق سيف الدولة لأنه غمره بالمكارم، وله فضل كبيرعلية، وليس بمقدوره أن ينسى العشرة معه، لأنه من أهل الفضائل الذين يحفظون العهد.

كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفي أنا الثريا وذان الشيب والهرم
شرّ البلاد مكانٌ لا صديق به وشر ما يكسب الأيام ما يصم

ويعاتب المتنبي سيف الدولة متمنياً أن يجد له عذراً لفعلته بطرده وضربه، وهذا الأمر أفرح الحساد والخصوم والأعداء، وما دام ذلك يرضي الأمير، لا غرو في ذلك، ويبين المتنبي مفتخراً، أنه أبعد عن العيب والفجور بعد نجم الثريا، ويفصح بجوارح قلبه استحالة الحياة بدون صديق مثل سيف الدولة، وأسوأ ما في حياة الإنسان بلوغ أسماعه قبائح العيوب التي يكون منها براء، وهنا تتجلى عبقرية المتنبي النفسية في تصوير انفعالات النفس ووساوسها ومخاوفها أدق تصوير وأبلغ بيان.ورأى المتنبي أنه لا يستطيع دفاعاً وانتقاماً في حضرة أمير نافر منه وخصوم يتربصون به، فترك حلب بدعوى المسير إلى تفقد أملاك له، وفي نفسه من الغيظ، وقصد الشام فالرمله ثم ذهب إلى مصر ليمدح كافوراً الإخشيدي المستبد بحكم مصر آنذاك، وهو يرجو أن ينال من كافور إمارة أو ولاية، يغيظ بها الذين كادوا له في حلب وأخرجوه منها، ظناً منه أن كافور المغتصب للسلطان يهون عليه أن يتنازل عن قطعة أرضٍ بأيسر مما يتنازل عنها أمير أصيل استولى عليها بسيفه كسيف الدولة، ولم يفعل كافور ذلك، ثم أنه لم يلبث أن رحل إليه ونفسه تسّول له أنه سيبلغ هناك من المجد ما يغيظ الحاسدين وقد قال بذلك:

أبا المسك أرجو منك نصرا على العدى وآمل عزاً يخضب البيض بالدم
ويوماً يغيظ الحاسدين وحالةً أقيم الشقا فيها مقام التنعم
ولم أرجُ إلا أهل ذاك ومن يرد مواطرَ من غير السحائب يظلم
فلو لم تكن في مصر ما سرت نحوها بقلب المشوق المستهام المتيم

ولا نبـــحت خيـــلي كـــلابُ قبائلٍ كأن بها في الليل حملات ديلم
فاحسنُ وجهٍ في الورى وجه محسنٍ وأيمنُ كفٍّ منهم كفّ منعم

يتمنى المتنبي من كافور أن يعوض له ما حل به من قهر وأهانة عند سيف الدولة، وكله أمل أن يسمع هـــؤلاء الخصوم والأعداء بعلو مكانته وسمو رفعته، أنها أمنية الهروب من واقع مرير، وهنا تظهر حيل النفس الدفاعية في مثل هذه الحالات، وتبرز الصراعات النفسية التي يجترعها المتنبي كتيار جارف والتي أصبحت تقوده بأحلامها، ولكن هيهات أن تتحقق هذه الأحلام.ويبين في رحلته إلى كافور وما وجده مـــن مشـــاق ومعاناة للوصول إليه، وما تعرض له من قطاع الطرق، ولكنه انتصر عليهم بشجاعته وصلابته التي لا تعرف الكلل ولا الملل، طلباً لبلوغ سنام المجد:

وأشرفهم من كان أشرف همةً وأكثر إقـــداماً على كل منعم
وما كـــلّ هـــاوٍ للجميل بفـــاعلٍ و لا كـــلّ فعـــال لـــه بمنعم
إذا ساء فعلُ المـــرء ســـاءت ظنـــونه وصـــدق ما يعتـــاده من توهم

ولكـــنه لم يبلغ ما كان يروم، فلقد قصد المتنبي كافوراً وتنازعته عاطفتان: الأولى ما كان يشعر به من الغـــيظ لما أصابه في حلب، والثانية رغبته أن يحصل بوساطة كافور على ولاية، لكن غيظه من سيف الدولة لم يصل إلى حد الكره، إذ بقيت في نفسه بقية من الحب والوفاء له، وقد صرح بذلك في بعض قصائده لكافور كقوله:

فراقٌ ومن فارقتُ غير مـــذمم وأمٌ ومن يممـــت خير ميمم
وما منزل اللذات عندي بمـــنزل أذا لم أبجـــل عنـــده وأكرم
رحلت فكم باكٍ بأجفـــان شادنٍ عليّ وكم باك بأجفان ضيغم
فلو كان ما بي من حبيب مقنّعٍ عذرت ولكن من حبيب معمم
رمى واتقى رميي ومن دون ما أتقى هوى كاسر كفي وقوسي أسهمي

يبين المتنبي أنه ليس بمقدوره أن ينسى سيف الدولة حتى ببعده عنه ولو في أقاصي الدنيا، لأنه ما زال يحـــبه وقلبه معلق بسجاياه وخصاله الحميدة، ولكنها وشاية الأعداء والحساد التي غلبت حلم وسعة صدر سيف الدولة وجعلته بعيداً عن أمير قلبه. وبين هاتين العاطفتين الغيظ والطمع مدح كافور بعشـــر قصائد هن من أفخر ما نظمه، على أن اتصاله بهذا الأمير العبد لم ينله مراده.صحيح نال منه كثيراً من الخلع والجوائز والأموال، ولكن الأمر الذي كان يصبو إليه، تلك الأمنية التي شغلت عقله/ تولي حكم إمارة/، ولا سيما بعد أن وعده كافور بأن يبلغه جميع ما في نفسه، لم يأنس في وجه ممدوحه غير الأعراض عنها، فاضطربت روحه حتى صار يستثقل وجوده في مصر، ويتمنى الخروج منها. وقد

لحـــظ ذلـــك منه كافور فخاف أن هو أطلقه أن ينقلب عليه بالطعن، وهو المستبد بحكم مصر دون ملـــيكها الحقيقي، فمنعه من الرحيل.وفي هذا الوقت بلغ شعر المتنبي غاية نضجه وكثرت فيه الحكم والأمثال، ثم أرعوى المتنبي فترك التهور واعتدل في طموحه، وأخذ ينظر إلى الأمور بعين العقل بعد أن صـــدمته الحياة في حلب وفي مصر صدمات متوالية، وظل على هذه الحالة المزعجة سنته الأخيرة في مصـــر لا يلقـــى كافوراً إلا أن يركب، فيسير معه في الطريق لئلا يوحشه، وله في ذلك قصيدة غراء يصـــف بها حاله ويصف حمى الربع، لأنها تعود في كل أربعة أيام مرة (الملاريا) أصابته وهو في مصر فقال يشكو من المرض وكنى الحُمى بكلمة زائرة وليس في هذه القصيدة غير شكواه من المرض ومن إقامته في أرض مصر لا يحارب ولا يقوم بعمل جميل مطلعها:

ولما صـــار ودّ الناسِ خباً   جزيتُ على أبتســـام بابتســـامِ
ولستُ بقانعٍ من كل فضلٍ   بأن أعزى إلى جـــد هـــمام
ولم أرَ في عيوبِ الناسِ عيباً   كنقص القادرين على التـــمام
أقمتُ بأرضِ مصر فلا ورائي   تخبّ بي الرِكابُ ولا أمامـــي
قليلٌ عائدي سقمٌ فؤادي   كثيرٌ حاسدي صعبٌ مرامي

يشكو المتنبي الزمان وتقلبه مع الأخيار، ويتساءل متعجباً من هذه الدنيا الغادرة التي أصبحت ثعالبها تقتل أسودها، وأصبحت المفاخر بالرذائل عوضاً عن المكارم بسبب النفاق والحساد، وكم الحياة صعبة ومؤلمة!!

ملومكما يجلّ عن الكلام   ووقع فعـــاله فوق الكلام
ذراني والفلاة بـــلا دليـــل   ووجهـــي والهجير بـــلا لثام
وصرت أشك فيمـــن أصطفيه   لعلمي أنـــه بعض الأنام
وانف مـــن أخي لأبي وأمـــي   إذا ما لم أجده من الكـــرام
ومن يجـــد الطريق إلى المـــعالي   فـــلا يذر المطى بلا سنام

يشكو المتنبي من الدهر وصروفه مع الناس، ويبين أنفته منه وكرهه للقبائح والعيوب التي راح يتفاخر بها الناس، ويرغب بطموحه أن يركب ذرى المجد، حتى ولو كان معبداً بالصعوبات، فالمشاق هي ذخر الشجاعة وعنوان النجاح، وعلى هؤلاء الكسالى أن يبتعدوا عن دروب المجد، لأنها شاقة عليهم وليس من طباعهم السعي لسنام المجد حتى ولو كان سهل الوصول إليه:

وملني الفراش وكان جنـــبي   يمـــل لقاءه في كل عام
قليل عائدي ســـقم فؤادي   كثير حاسدي صعب مـــرامي

عليل الجسم ممتنع القيام شديد السكر من غير المدام
وزائرتي كأن بها حياءً فليس تزور إلا في الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت في عظامي
يضيق الجلد عن نفسي وعنها فتوسعه بأنواع السقام
إذا ما فارقتني غسلتني كأنا عاكفان على حرام
كأن الصبح يطردها فتجري مدامعها بأربعةٍ سجام
أراقب وقتها من غير شوق مراقبة المشوق المستهام

يصور المتنبي طموحه للمجد والمشاق لبلوغه بالحمى الممرضة، بأنها صراعات النفس بين صراعات الأقدام والإحجام، تلك الصراعات التي تجعل النفس حيال موقفين متناقضين وفي الوقت نفسه ترغبهما، فيبين المتنبي طموحه العالي الذي لا يفتأ عن حثه للعلا، ويذم تقاعس النفوس الضعيفة عن المكارم وظروف الحياة المؤلمة من حوله:

ويصدق وعدها والصدق شر إذا ألقاك في الكرب العظام
أبنت الدهر عندي كل بنت فكيف وصلت أنت من الزحام
جرحت مجرحاً لم يبق فيه مكان للسيوف ولا السهام
وفارقت الحبيب بلا وداعٍ وودعت البلاد بلا سلام
يقول لي الطبيب أكلت شيئاً وداؤك في شرابك والطعام
وما في طبه أني جواد أضر بجسمه طول الجمام
تعودَ أن يغُبر في السرايا ويدخل من قتامٍ في قتام
فأمسكَ لا يطالُ له غيرعى و لا هو في العليق ولا اللجام
فإن أمرض فما مرض اصطباري وإن أحمم فما حم اعتزامي
وإن أسلم فما أبقى ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام
تمتع من سهاد أو رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام

أن أوجاع المتنبي تكمن في طموحه للمجد، ولكن حظه العاثر أوقعه بين ظروف سيئة كثيرة الرزايا والبلايا، حيث كانت تقف أمامه كجدار منيع، تتكسر عليه رغبات النفوس الحالمة بسنام المجد، وهذه القصيدة من بدائعه، وكان في ذلك يعد العدة للهرب حتى تمكن من ذلك يوم عرفة سنة**350** هجرية، فقصد العراق متوجهاً إلى الكوفة فلم يجد الأمور على ما يشتهي، وأخذ على نفسه أن لا يمدح فيها أحداً لا الخليفة المطيع ولا أمير الأمراء معز الدولة بن بويه، ولا الوزير المهلبي فأغرى المهلبي به

الشـــعراء، فأخذوا بهجائه وشتمه، وفيها يعدد الأماكن التي مر بها، ويصف شجاعته وأقدامه ووصف مسيره بقصيدة مطلعها:

لتعلم مصر ومن بالعراق ومن بالعواصم أني الفتى

وأني وفيت وأني أبيت وأني عتوت على من عتا

ومن يك قلب كقلبي له يشق إلى العز قلب التوى

يفـــتخر بنفسه وبشموخه وعزة نفسه الأبية، ثم يختمها بهجاء كافور.وله في هجائه بضع قصائد ،وقد أوحاها إليه حب التشفي والفشل:

عيد بأية حالٍ عدت يا عيد بما مضى أم بأمر فيك تجديد ؟

يصـــور يوم خروجه من مصر بأنه يوم عيد على وجه الحقيقة،فقد رحل في وقفة عيد الأضحى، وهو يتساءل لعل هذا اليوم يجيبه، فهو يريد أن يطمئن إلى حقيقة الماضي ، وهل انتهى أم أن له عودة أخرى إليه. وإذا كان ثمة عودة فهل فيها من جديد أم أنها لن تجدد شيئاً؟ ويعيش كما كان من قبل ويتابع:

أما الأحبة فالبيداء دونهم فليت دونك بيد دونها بيد

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي شيئاً تتيمه عين ولا جيد

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه أني بما أنا باك منه محسود

أصخرة أنا مالي لا تحركني هذي المدام ولا هذي الأغاريد

خرج المتنبي فعلاً، وآثر تحمل المشقة في سبيل طموحه،وباءت مساعيه بالفشل، فوقع في حيرة من أمره فراح يشكو الدهر ويصور حزنه لما أصابه من خيبة أمل، فقد رآه يسلبه كل شيء، ولم يترك له فرصة التمـــتع بشـــيء ،ويصر المتنبي على كشف حقائق حياته حين يبكي حظه في هذه الدنيا أينما ذهب ،صـــحيح أن الآخرين وجهوا إليه سهام حسدهم وأحقادهم ،وكانت صلته بكافور هي الدافع وراء تلك الضغائن كلها ،فقال:

إني نزلت بكذابين ضيفهمُ عن القرى وعن الترحال محدود

أصبحت أروح مثرٍ خازنا ويداً أنا الغني وأموالي المواعيد

أراد أن يكشـــف حقـــيقة هذه الصلة التي لم تكن عليه إلا وبالاً، فهي لم تثر منه إلا آلامه وشكواه المســـتمرة من علاقته بهذا الحاكم، أنه لم ينل منه شيئاً يذكر بالقياس إلى آماله الكبار التي عقدها على مجيئه إليه، إذ أن ما ناله لم يتجاوز مجموعة من الوعود والأضاليل والأماني الكاذبة، تلك التي ضاعت أدراج الـــرياح مـــن دون أن تكون في حاجة إلى يد الشاعر تسيطر عليها، أو خازن له يحتفظ له بها ويمضي قائلاً:

جود الرجال من الأيدي وجودهم		من اللسان فلا كانوا ولا الجود

ما يقبض الموت نفساً من نفوسهمُ		إلا وفي كفه من نتنها عود

أدرك المتنبي طبيعة الخديعة منذ أن حل بمصر بين قوم من الأخشديين فوجد أن-ديدهم الخداع والكذب، فهم لا يجودون بشيء لضيفهم إلا القول فحسب، ولذا راح يدعوا عليهم بالفناء، ويتمنى لجودهم المزعوم ألا يصير جوداً له ذكر بعد هذا.ويصور ببراعة فائقة التصوير أن الموت يرفض أن يمد يده إليهم لما يعرفه عنهم من بخل ونتن وبلاء، فهو في حاجة إلى وسيلة تنقذه من هذا النتن القذر فيستعين بعصاه حتى لا يلمسهم- على سبيل التشخيص-بيده مباشرة.وينبه قائلاً:

صارَ المخصيّ إمامَ الآبقينَ بها		فالحر مستعبدٌ والعبدُ معبود

نامتْ نواطير مصرٍ عن ثعالبها		وقد بشمن وما تفنى العناقيد

العبد ليس لحرٍ صالحٍ بأخٍ		لو أنه في ثياب الحر مولود

لا تشتر البعد إلا والعصا معه		إن العبيد لأنجاس منا كيد

يتحدث المتنبي عن العبيد، فيحقر شأنهم ،ويبين موقعهم في الدرك الأسفل بعيداً عن مستوى الأحرار في درجاتهم العليا،وهو يرفض أن تصبح المساواة في المولد مبرراً للمساواة في الحياة،ذلك أن العبد والسيد وإن تساويا في المولد فإن طبيعة كل منهما تنتهي إلى الاختلاف الجوهري عن الأخر ، ذلك أن العبد لا تسيره إلا العصا نظراً لما اعتاده من عيش محكوم بالذل والعبودية والعنف، بينما الحر تكفيه الإشارة، وهنا يظهر الفارق جلياً بين النمطين ويشكو الزمان:

ما كنت أحسبني أحيا إلى زمن		يسيء بي كلب وهو محمود

جوعان يأكل من زادي ويمسكني		لكي يقال عظيم القدر مقصود

ينعي المتنبي حظه في علاقته بهذا العبد،فهو يتمنى ألا يكون العيش قد بلغ به اليوم الذي أساء إليه هذا(الكلب) على حد تعبيره،واضطر بسببه إلى الزيف والنفاق الاجتماعي،فكان واحداً من مادحيه،ويصور دناءة كافور حين أتى على زاد المتنبي وطموحه، مما دفعه إلى ركوب ناقته قانعاً من الغنيمة بالإياب إلى بلاده، وكأن ناقته أنجدته من هذا العبد، فهي لم تخلق إلا لمثل هذه الأحوال التي يصبح فيها الفرار ضرورة نفسية لصاحبها ونعمة ومنة من الله، ويمضي في وصف أخلاق العبيد:

من علم الأسود المخصي مكرمةً		أقومه البيض أم آباؤه الصيد؟

أم أذنه في يد النخاس دامية		أم قدره وهو بالفلسين مردود

أولى اللئام كويفير بمعذرة		في كل لؤم وبعض العذر تفنيد

وذاك أن الفحول البيض عاجزة		عن الجميل، فكيف الخصية السود؟

يستخلص المتنبي عزاء لنفسه في هذا الموقف من تعميم تلك الإساءة، فإذا كان السادة الكرام قد أعجزهم أخلاقهم عن مجاملة المتنبي واستمرار الإحسان إليه، فكيف ينتظر ما افتقده عندهم، عند مثل هذا العبد الحقير الذي لا يمكن له إلا أن سجل لنفسه أدنى مكانة في عالم الكرم أو الشجاعة أو الخلق الإنساني النبيل. ترك مصر قاصداً الكوفة ثم أم بغداد والأرجح أنه قضى سنتين في الكوفة حيث رفض أن يمدح الوزير المهلبي ،فنقم الوزير ذلك منه وحرض عليه شعراء بغداد حتى نالوا منه ، وتبارزوا في هجائه وتماجنوا وتناذروا فلم يجبهم ولم يفكر فيهم، وقيل له في ذلك ،فقال: أني فرغت من إصابتهم بقولي لمن هم أرفع طبقة منهم في الشعراء:

أرى المتشاعرين غروا بذمي ومن ذا يحمد الداء العضالا

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

يترفع المتنبي عن منازلة هؤلاء الشعراء، ويصفهم بالداء العضال الذي لا شفاء منه ولا أمل فيه، ولذا يجد نفسه مخطئاً إذا بادلهم الرد. ورثاء المتنبي ليس فيه شيءٌ من عاطفة الخنساء أو جرير أو ابن الرومي وليس فيه تفجع أو جزع، فهو إذا رثى ذكر حسنات الميت في الحياة ومدح أهله وربما افتخر في رثائه بنفسه ويضرب الأمثال، وقد توفيت أم سيف الدولة فقال يرثيها:

نُعِدّ المشرفيّةَ والعوَالي وتقتُلُنا المَنونُ بلا قتالِ

ومن لم يعَشْقِ الدُنيا قديماً ولكنْ لا سبيلَ إلى الوصال

رماني الدهرُ بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال

فصرْتُ إذا أصابتني سهامٌ تكسرّتِ النصالُ على النصالِ

وليستْ كالإناثِ ولا اللواتي تُعَدّ لها القبُور من الحِجال

مشى الأمُراء حوْليهْا حفاةً كأن المرْوَ من زفّ الرئال

وما التأنيثُ لاسمِ الشمسِ عيبٌ ولا التذكير فخرٌ للهلال

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلتِ النساءُ على الرجال

يدفّن بعضنا بعضاً ، ويمشي أواخرنا على هام الأوالي

أسيف الدولة ، استنجد بصبر وكيف بمثل صبرك للجبال !

ويموت صديق المتنبي أبو شجاع فاتك وكان قائداً وصديقاً لكافور، وحين استبد كافور بحكم مصر وقعت الوحشة بينهما، فاعتزل فاتك إلى ضيعة له بالفيوم، وتوطدت الصداقة بين المتنبي وفاتك لكرهما كافوراً، وراح المتنبي يرثي فاتكاً بالشجاعة والكرم وسمو الهمة فيقول:

الحزْنُ يقْلقُ والتجمل يردعُ والدمعُ بينهما عصيّ طيعُ
أني لأجبنُ عن فراقِ أحبتي وتُحسّ نفسي بالحمام فأشجعُ
تصفو الحياةُ لجاهلٍ أو غافلٍ عما مضى فيها وما يتوقعُ
ولمن يغُالطُ في الحقائقِ نفسه ويسومُها طلبَ المُحال فتطمعُ
أين الذي الهرمان من بنيانه ؟ ما قومه ؟ ما يومه ؟ ما المصرع ؟
تتخلفُ الآثارُ عن أصحابها حيناً ويدركها الفناءُ فتتبع
يا من يبدل كل يومٍ حُلةً أنى رضيتَ بحلةٍ لا تنزع !
ما زلتَ تدفعُ كلّ أمرٍ فادحٍ حتى أتى الأمر الذي لا يدفع
قبحاً لوجهك يا زمانُ فأنه وجهٌ له من كلِ لؤم برُقع
أيموتُ مثلُ أبي شجاعٍ فاتكٍ ويعيشُ حاسده المخصيّ الأوكع
أبقيتَ أكذب كاذبٍ أبقيته وأخذت أصدق من يقول ويسمع
من كان فيه لكل قومٍ ملجأ ولسيفهِ في كل قوم مرتع

يرثي صديقه ببيان جميل عذب القول معددا مناقبه، ولكنه يعود إلى مشيئة الله في خلقه، فالزمان يأخذ الرجال العظام ويبقى اللئام كي يبقوا عبرة لمن أراد العظة والعبرة.وتوفيت خولة أخت سيف الدولة وبلغ الخبر إلى المتنبي وكان قد ترك مصر وجاء إلى الكوفة فنظم في رثائها قصيدة بارعة، بعث بها إلى سيف الدولة يعزيه، هذه المرثية فوق مراثي المتنبي كلها جودة واتقاد عاطفة، إنها رثاء صحيح وقد وقف نفر من النقاد ومؤرخي الأدب من المتنبي من أجل هذه القصيدة موقفاً قاسياً:قالوا إن المتنبي كان يحب خولة، ولولا ذلك لما جرى رثاؤها على لسانه بمثل هذه العاطفة والجودة حيث يقول:

يا أختَ خيرِ أخٍ يا بنتَ خيرِ أبٍ كنايةً بهما عن أشرف النسب
أُجلُّ قَدرك أن تسُمَيْ مُؤبنةً ومن يصفكِ فقد سماك للعرب !
طوى الجزيرةَ حتى جاءني خبرٌ فزعتُ فيه بآمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه كذباً شرقتُ بالدمع حتى كادَ يشرقُ بي
أرى العراقَ طويل الليل مذ نُعيتْ فكيف ليلُ فتى الفتيان في حلب
يظُنّ أن فؤادي غيرٌ ملتهب وأن دمعَ جفوني غيرُ منسكب
فليتَ طالعةَ الشمسين غائبةٌ وليت غائبةَ الشمسين لم تغب
وليتَ عينَ التي آب النهارُ بها فداءُ عين التي غابتْ ولم تؤب

حاشى للمتنبي أن يصرف وقته للغرام كما فعل بعض الشعراء، فهو عزيز النفس وطموحه للمجد

كـــان حافزاً قوياً يشغله عن العشق وما شابه ذلك. فشعر المتنبي مملوء بالحكم وتدور في الأكثر حول كـــرهه للـــناس وسوء الظن بهم وقلة المبالاة بالدهر وهو معجب بالقوة أشد الإعجاب وله في الحياة والمـــوت وأحـــداث الدهـــر أقوال كثيرة صائبة، والمهم في حكم المتنبي أنه أخرج بعضها مخرج المثل المضروب، فسارت على ألسن الناس واستشهد بها الكتاب في كتاباتهم ومناقشاتهم من ذلك قوله:

مـــن يهـــن يسهلِ الهـــوانُ عليـــه ... مـــا لجـــرح بميـــت إيـــلامُ

يضع قواعد للكرامة الإنسانية ويبين أن الموت في مواقف الرجال هو الحد الفاصل:

إذا غَامـــرتَ في شـــرَفٍ مَـــرُومِ ... فـــلا تقنـــع بمـــا دُون النُجـــومِ

فطعمُ المـــوتِ فـــي أمرٍ حقـــيرٍ ... كَطعـــمِ المـــوتِ في أمـــرٍ عَظـــيم

ويمضي وراء طلب المجد مهما كان غالياً فقيمة الحياة بالثمن الغالي:

ذو العقلِ يشقى في النعيم بعقله ... وأخـــو الجـــهالة في الشقاوة ينعمُ

يرشد المتنبي القوم بالسعي للمجد ولا خير في حياة الذل والهوان ولو كانت بجنان الخلد، ويوضح أن الموت واحد المذاق والطعم سواء كان في العز أو الذل، فليمت الإنسان في سبيل العز والمجد بدلا من الموت ذليلاً، فجروح النفس أشد إيلاماً من جروح الجسد، ويبين أن أصحاب العقول في تعب مستمر وقلـــق دائم كونهم يعرفون الحياة تمام المعرفة، وشتان بين معرفتهم الفذة وبين معرفة الجهلاء للحياة، فالأغبياء والحمقى تعساء بالنعيم لأن عقولهم غير مدركة لمعاني الحياة وقيمتها، ويفصح المتنبي عن أن مـــن يرضى بحياة الذل والهوان لا يهتم لشرف ولا لقيم، فكأنه أشبه بالحيوان لا يعي ما حوله، وبهذا يكـــون المتنبي قد مارس الإرشاد والوعظ النفسي في إثارة الحوافز والرغبات والدوافع للسعي لذرى المجد، مبيناً أنه لا خير في نفس ترضخ لحياة العار بعيدة عن المغامرة والنجاح.

لا يسلمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذى ... حـــتى يُـــراقَ على جوانبـــه الـــدمُ

والظلمُ من شيمِ النفوسِ فان تجد ... ذا عـــفة فلعـــلة لا يظـــلم

يدرك المتنبي أن مهر المجد غالٍ ولا بد من الموت في سبيله كي يحصنه بالمنعة والرفعة عن الأذى، ويشير لدوافـــع الشـــر والعـــدوان والظلم المتأصلة بداخل الإنسان ومن الواجب قمعها وقتالها من خلال التمســـك بفاضل الأخلاق ومكارم العفة والطهارة، وهنا يبدو المتنبي أستاذا في علم النفس والسلوك البشري موضحاً أن غريزة الشر موجودة لدى الإنسان، ولكنه يشير إلى دور التربية الخلقية في تهذيب غريزة العدوان:

شيخٌ يرى الصلوات الخمسَ نافلـــةً ... ويَستَحِـــلُّ دَمَ الحجـــاجِ في الحرم

ومـــن البلية عـــذلُ من لا يرعوي ... عن جـــهلة وخـــطابُ من لا يفهم

ويبين كموجه ومرشد نفسي صفات الذليل:

والذل يظهر في الذليلِ مودةً　　وأودّ منه لمن يودّ الأرقم[115]

ينبه القوم من المتسترين بالتقوى والأيمان وإلى خطر هؤلاء الذين يبدون تمسكاً بالدين، ويبين أن في خطاب بعض رجال الدين المنافقين، يكمن السم الزعاف لفعل الأذى وإيقاع الفتنة والضرر، بحيث يقع ضحية أفكارهم بسطاء القوم الذين يعدّون كلامهم قولاً متزلاً، و يزداد خطرهم على المجتمع لأنهم يرسلون ويبثون أفكارهم بأساليب من الرقة والمودة، والتي تستحوذ على العقول والقلوب، ويظهر المتنبي عالماً بخفايا النفس البشرية من خلال هذه الإرشادات والتوجيهات لسلوك المنافقين من رجال الدين والحذر والحيطة من الوقوع بشباكهم كونهم يقولون بعكس ما يضمرون. وللمتنبي مقطوعة في الحكمة نظمها في مصر وهي:

صَحبَ الناسُ قبلنا ذا الزمانا　　وعناهم من أمرِه ما عنانا

وتولوا بُغصةٍ كلهم منه　　وإن سرّ بعضهم أحيانا

وإذا لم يكن من الموت بُدٌ　　فمن العجزِ أن تكون جبانا

يفسر نواميس الزمان موضحاً أنه يتوجب على الفرد أن يتعظ وأن يموت عظيماً لا وضيعاً:

إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملكته　　وإن أنتَ أكرمتَ اللئيم تمردا

ويبين صفات الكرماء وكذلك ضعاف النفوس:

ومن يك ذا فمٍ مُرٍ مريضٍ　　يجدْ مراً به الماءَ الزُلالا

يقدم المتنبي عظات من غدر الزمان وتقلبات أيامه، ويشير إلى أن حياة الفرد تضيع في أروقة الدهر الذي لا يتركك من دون مصائب أو رزايا، بل يسعى جاهداً لإلحاق الأذى والضرر بالشرفاء، وينبغي على الفرد أن لا يكون جباناً في مواجهة نوائب الزمان، ويقدم دليلاً بعدم مصادقة اللئام لأنه لا عهد لهم ولا ذمة، ومهما تفعل من خير لهم لا تجد سوى الخذلان والنكران والعدوان، وهذا ينطبق مع الحكمة (اتق شر من أحسنت إليه)، ويبين المتنبي ضرورة مصاحبة الكرام والبحث عنهم، وتجنب اللئام لأن طبعهم شرير، فمن كان طعم فمه قذراً يستحيل أن يتذوق الماء الصافي العذب لأنه خبيث.وحين خروج المتنبي من بلاط سيف الدولة كانت حرارة الثورة قد أخذت تتضاءل في نفسه وأخذت معالمها تنحسر في شعره شيئاً بعد شيء ليحل محلها التشاؤم والمرارة والشعور بالهزيمة والأنكسار:

---

[115] – الذليل :(المغلوب على أمره) يظهر الحب لك ولكنه يبطن لك عداوة أشد من عداوة الحية .

بِمَ التعلُّلُ ؟ لا أهلٌ ولا وطنُ ... ولا نديمٌ ولا كأسٌ ولا سكنُ

أُريدُ من زمني ذا أن يبلغني ... ما ليسَ يَبلُغهُ من نفسه الزمَنُ

لا تلقَ دَهركَ إلا غيرَ مُكترثٍ ... ما دامَ يَصحَبُ فيه رُوحكَ البدَنُ

ما كل ما يتمنى المرء يدركه ... تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

فما يُديم سُرورٌ ما سُرِرتَ به ... ولا يرد عليك الفائت الحَزَنُ

يا من نُعيتُ على بُعدٍ بمجلسه ... كُلٌّ بما زعم الناعون مُرتهن

كم قد قُتلتُ وكم قد متُّ عِندكم ... ثم انتفضت فزال القبرُ والكفن

ويشير إلى تداول الأيام وما فيها من خير وشقاء وبلاء:

بذا قضتِ الأيامُ ما بين أهلها ... مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائد

تضيق الدنيا في عينيه، وتؤلمه الرزايا، فلا يجد عونا له في طلبه للمجد، فيقف متحسراً من هذا الزمان الغادر الذي لم يترك له ثانية في ملاحقته، وبين أن الآمال تضيع مع بين تبدلات الأيام ولياليها، فلا سرور يدوم ولا حزن يستمر، فالحياة أشبه برحى دائرة تأخذ معها الأحلام والشقاء سواء بسواء، وأخيراً يسلم أمره إلى قضاء الله وقدره وكله أمل بأن تتحقق أحلامه، ويوضح أن بعض المصائب قد تكون بلاء لبعض القوم وبنفس الوقت قد تكون فوائد لغيرهم، وبينما هو في الطريق إذ تعرض له جماعة يطلبون دمه و يريدون قتله، فخرج إليهم وقاتلهم قتال الأبطال، وحاول الهرب والنجاة بروحه، فتبعه غلام له يذكره بقوله. ألست أنت القائل يا سيدي:

الخيل والليل والبيداء تعرفني ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فما أن سمع هذا القول حتى عاد للقتال من جديد، وقد قال لغلامه لقد قتلتني قاتلك الله، فعاد كرة للقتال، فقاتل حتى قتل، وبذلك انتهت حياة المتنبي شاعر الطموح والنجاح والسعي للمجد، لكنها الحياة لا تمنح الفرد إلا ما قدر له فيها من نصيبٍ.

عكس المتنبي بسلوكه وطموحه هوساً شديداً للمجد أتعبه في مشوار حياته، فلقد اندفع في طموحه للمجد برغبة جامحة جعلته يجوب البلاد غربها وشرقها، كي ينال ولاية تشبع دوافعه المتنامية لذرى المجد، لكن حظه العاثر أوقعه في ظروف اجتماعية سيئة، كانت سائدة في معظم البلاد العربية والتي تعيش حياة ممزقة بسبب حكام أغلبهم من العنصر الأجنبي يحكمون العباد والبلاد، ويسعون جهدهم الحط والنيل من كرامة الإنسان العربي، فوجد المتنبي نفسه وحيداً وسط ظروف قاسية لا ترحمه ودوافع تطارده لتحقيقها. ولعله قد أجاد بقوله:

ومن نكد الدنيا على الحر أن ... يرى عدوا ما من صداقته بد

قول مأثور:

(ألا كــل مـــا هو آت قريب ولا بد للأرض من كل حي نصيب ،وأعلم إذا سلمت من الأســـد فــلا تطمع في صيده، وتيقّن أن كل من تعاملهم من أخ وابن وزوجة، قريب وصديق، لا يخلو من عيب؛ فوطّن نفسك على تقبل الجميع).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المراجع

1-إبراهيم عبد الرحمن محمد 1976: قضايا الشعر في النقد الأدبي، مكتبة الشباب.

2-إبراهيم عبد القادر المازني1944:بشار بن برد، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

3-إبراهيم العريض1962: فن المتنبي بعد ألف عام، دار العلم للملايين، بيروت.

4- أبو الفرج الأصفهاني1959م: الأغاني، طبعة الحاج محمد الساسي المغربي، وطبعة التقدم بالقاهرة 1323هجرية، وطبعة دار الكتب المصرية 1936م، وطبعة دار الثقافة بيروت.

5- إحسان عباس:1962:(تحقيق)، ديوان لبيد لبيد بن ربيعة العامري، ط الكويت.

6-إحسان عباس1965: وفيات الأعيان –أبن خلكان:أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، ط دار الثقافة بيروت.

7-أحمد أبو حاقة 1960: أبو فراس الحمداني، دار الشروق، بيروت.

8-د.أحمد أبو حاقة1979:الالتزام في الشعر العربي، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت.

9-أحمد أحمد بدوي1955:حياة البحتري وفنه، مكتبة الانكلو، القاهرة.

10-احمد أمين الزين، والابياري1950: (تحقيق)، العقد الفريد لأبن عبد ربه:أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد الأندلسي، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر مصر.

11-احمد شاكر(تحقيق)1967: الشعر والشعراء، ابن قتيبة:أبو عبد الله بن مسلم الدينوري، ط دار المعارف مصر.

12-د.أحمد محمد الجوافي1979:أدب السياسة في العصر الأموي، الطبعة الخامسة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة.

13-أحمد مطلوب وعبدا لله الجبوري1964:ديوان ديك الجن الحمصي، دار الثقافة، بيروت.

14-أسامة عانوتي1957:أبو العتاهية رائد الزهد في الشعر العربي، بيروت.

15-إسكندر أغا ابكاريوس1958:روضة الأدب في طبقات شعراء العرب، بيروت.

16- الأعـــلم الشـــنتمري 1992م: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، مختارات من الشعر الجاهلي؛ شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، ط1، دار الجيل، بيروت.

17- الأعلم الشنتمري 1983م: أشعار الشعراء الستة الجاهليين؛ ت 476هـ، الجزء الأول، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط3، بيروت.

18- أنيس المقدسي 1994: أمراء الشعر العربي في العصر العباسي الطبعة الثامنة عشرة، دار العلم للملايين، لبنان، بيروت.

19-إيليا سليم حاوي1959:ابن الرومي، فنه ونفسيته، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
20_جعفـــر خريباني 1991:أبو العلاء المعري رهين المحبسين طبعة أولى، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت.
21-جورج صيدح1957:أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية، طبعة ثانية، بيروت.
22-جورج غريب1966:أبو فراس الحمداني، دار الثقافة، بيروت.
23-جوســـتاف فـــون غرينـــبام 1959: دراسات في الأدب العربي، ترجمة إحسان عباس،وأنيس فريحة،ومحمد يوسف نجم، وكمال يازجي ،بيروت.
24-د.حسين الحاج حسن 1997:أدب العرب في عصر الجاهلية، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت.
25-حسين القرني1925:بشار بن برد: شعره، وأخباره، المطبعة العربية، القاهرة.
26-د.حنا الفاخوري1987:تاريخ الأدب العربي، الطبعة الثانية عشرة، منشورات المكتبة البوليسية، لبنان، بيروت.
27-حنا نمر 1982: دراسات في الأدب والفن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت.
28-خليل مردم1949:ديوان علي بن الجهم، المجمع العلمي العربي، دمشق.
29-خير الدين الزركلي، الأعلام ،ط2 ، القاهرة 1959م.
30-رضـــوان الشـــهال1961:أبـــو الطيـــب المتـــنبي عملاق الواقعية في الأدب العربي، مطابع البحتري.بيروت.
31-ســـعدي الضـــناوي1994: شرح ديوان طرفة بن العبد، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت.
32-شاكر وهارون1964:(تحقيق)، المفضليات-المفضل بن محمد الضبي، دار المعارف مصر.
33-شفيق جبري1930:المتنبي مالىء الدنيا وشاغل الناس، مطبعة الشرق، دمشق.
34-شكري فيصل1965:أبو العتاهية أشعاره وأخباره، مطبعة جامعة دمشق، دمشق.
35-د.شوقي ضيف1995:التطور والتجديد في الشعر الأموي، الطبعة العاشرة، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، القاهرة.
36-د. شوقي ضيف 1996:العصر الإسلامي، تاريخ الأدب العربي 2، الطبعة السابعة عشر، دار المعارف، القاهرة.

37-د.شوقي ضيف 1997:العصر الجاهلي (تاريخ الأدب العربي)، الطّبعة التاسعة عشرة، دار المعارف، القاهرة.

38-د.شوقي ضيف1976:الفن ومذاهبه في الشعر العربي، الطبعة التاسعة، دار المعارف بمصر، القاهرة.

39-طه الحاجري1950:بشار بن برد، دار المعارف، بيروت.

40-عباس محمود العقاد1963:ابن الرومي:حياته من شعره، الطبعة الخامسة، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.

41-عباس محمود العقاد1954:الحسن بن هاني أبو نواس، مكتبة الانجلو، القاهرة.

42-عبد الحليم المصري1944:أبو نواس، دار المعارف، القاهرة.

43-عبد الستار فراج 1960: معجم الشعراء -المزرباني -أبو عبيد محمد بن عمران، دار إحياء الكتب العربية مصر.

44- عبد الصاحب الدجيلي1962:ديوان دعبل بن علي الخز اعي، مطبعة الآداب، النجف.

45-عبد العزيز سيد الأهل1953:عبقرية أبي تمام، دار العلم للملايين، بيروت.

46-عبد العزيز سيد الأهل1953:عبقرية البحتري، دار العلم للملايين، بيروت.

47- عبد القادر البغدادي1981م: خزانة الأدب، ولب لباب العرب؛ ت 1093هجرية، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.

48-عبد الكريم الأشتر1962:شعر دعبل بن علي الخز اعي، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق.

49-عبد الكريم الأشتر1964:دعبل بن علي الخز اعي شاعر آل البيت (دراسة تحليلية لحياته وشعره)، دار الفكر، دمشق.

50-عبد اللطيف شرارة1962:أبو العتاهية شاعر الزهد والحب الخائب، دار الشرق الجديد، بيروت.

51-د.عبده عبد العزيز قلقيلة 1990:خط سير الأدب العربي، دار الفكر العربي، القاهرة.

52- عزة حسن1968: شعر الوقوف على الأطلال، ط الترقي دمشق.

53- عفت الشرقاوي1979: دروس ونصوص في قضايا الأدب الجاهلي، دار النهضة العربية، بيروت.

54- علي بن عبد العزيز1945: الوساطة بين المتنبي وخصومه-الجرجاني_، ط إحياء الكتب العربية.
55-د.علي الجندي1998:في تاريخ الأدب الجاهلي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.
56-علي شلق1960:ابن الرومي في الصورة والوجود، دار النشر للجامعيين، بيروت.
57-علي شلق1954:غزل أبي نواس،بيروت(دار الحكمة)، مجلة الهلال عدد خاص1936، القاهرة.
58-علي عبد عبدان الخز اعي 1965:دعبل بن علي الخز اعي شاعر آل البيت، المطبعة العلمية، بغداد.
59-علي النجدي، ناصف1955:حماسة أبي تمام، مكتبة نهضة مصر، القاهرة.
60-عمر الدسوقي 1949: النابغة الذبياني، دار الفكر العربي مصر.
61-د.عمر فاروق الطباع1994: ديوان النابغة الذبياني، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، بيروت.
62-د.عمر فروخ 1954: أبو فراس فارس بني حمدان وشاعرهم، مكتبة منيمنة، بيروت.
63- د.عمر فروخ 1997:تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم الجزء الأول)، دار العلم للملايين، بيروت.
64-د.عمر فروخ1997:تاريخ الأدب العربي، الطبعة السادسة (الأعصر العباسية ــ الجزء الثاني)، دار العلم للملايين، لبنان، بيروت.
65-د.عمر فروخ 1957، تاريخ الأدب العربي، الجزء الأول، ط2، دار العلم للملايين، بيروت.
66- د.فاطمة طحطح 1993:الغربة والحنين في الشعر الأندلسي (أطروحة)، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء.
67-فؤاد أفرام البستاني1958: الشعر الجاهلي، سلسلة الروائع، ط الكاثوليكية بيروت.
68-كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، الجزء الأول، ترجمة عبد الحليم النجار، منشورات الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، دار المعارف، القاهرة، 1959م.
69-كامل كيلاني1924:ديوان ابن الرومي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.
70-كمال حلمي 1930:أبو الطيب المتنبي:حياته، خلقه، شعره، أسلوبه، مطبعة الشباب، القاهرة.
71- لويس شيخوط 1986:(تحقيق)، ديوان الخنساء تماضر بنت عمرو بن الشريد، الكاثوليكية بيروت.

72_محسن الأمين 1945:أبو فراس الحمداني، دمشق.
73-محسن الأمين 1947:أبو نواس الحسن بن هاني، مطبعة الإتقان، دمشق.
74-محمد أبي زهرة1947:الشافعي:حياته وعصره وآراؤه وفقهه، دار الفكر العربي، القاهرة.
75- محمد بن سعيد مولوي1970: (تحقيق)، ديوان عنترة بن شداد العبسي، ط المكتب الإسلامي.
76-محمد زكي العشماوي1966:الأدب وقيم الحياة المعاصرة، الدار القومية للطباعة والنشر،القاهرة.
77- د.محمد صالح ناصر1998:الأدب والنصوص(ج1، ج2)، جمعية الاستقامة للدراسات الإسلامية بزنجبار.
78-محمد صبري1946:أبو عبادة البحتري، القاهرة.
79-محمد عبد الرحمن شعيب1964:المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث، دار المعارف، القاهرة.
80-محمد عبد الغني حسن 1955:ابن الرومي، دار المعارف، بيروت.
81-محمد عبد القادر أحمد 1983: دراسات في أدب ونصوص العصر الجاهلي، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
82_محمد عبده عزام1947: ليال خمس مع أبي تمام، دار الكاتب المصري، القاهرة.
83-محمد قره علي1986:سنابل الزمن، الطبعة السادسة، مؤسسة نوفل ش م م، بيروت، لبنان.
84-محمد كرد علي1921:أبو الطيب المتنبي، القاهرة.
85-محمد النويهي1953: نفسية أبي نواس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
86- محمد يوسف نجم1962:ديوان دعبل بن علي الخزاعي، دار الثقافة، بيروت.
87-محمود شاكر1952:(تحقيق)، طبقات فحول الشعراء-محمد بن سلام الجمحي، ط دار المعارف مصر.
88-محمود شكري الألو سي 1945:بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، مطبعة دار السلام بغداد.
89-محيي الدين اللاذقاني، أسطورة طرفة المدخل العربي إلى القصيدة الكونية؛ تنظيم مؤسسة الأيام بالبحرين، ملتقى طرفة بن العبد من 14-17 مارس 1998، المنامة،1998م.
90-مدحت عكاشه1947:ابن الرومي، دمشق.

91- د. مصــطفى الشــكعة 1997: رحلة الشعر العربي من الأموية إلى العباسية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة.

92-د.مصــطفى الشكعة1986:الشعر والشعراء في العصر العباسي، الطبعة السادسة، دار العلم للملايين، لبنان، بيروت.

93-مصطفى عبد الرازق1961:الإمام الشافعي، دار إحياء الكتب العربي، القاهرة..

94-ناصر الدين الأسد 1956: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار المعارف مصر.

95-نجيب البهبيتي1945: أبو تمام الطائي:حياته وحياة شعره، دار الكتب، القاهرة.

96-نديم مرعشلي1960:البحتري، دار الشرق الجديد، بيروت.

97- نعمان أمين طه1971 :(تحقيق)، ديوان جرير جرير بن عطية الخطفي، ط دار المعارف مصر.

98- نعمان أمين طه 1958 :(تحقيق)، ديوان الحطيئة جرول بن أوس، ط الحلبي.

99-نــوري حمــودي القيسي 1974: وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية، مؤسسة دار الكتب، جامعة الموصل العراق.

100-وهب أحمد رومية1974: الرحلة في القصيدة الجاهلية، ط جلمصة القاهرة.

101-يعقوب العويدات1947:ديك الجن الحمصي، مطبعة المقتطف والمقطم، مصر.

102-يوسف خليف1981: دراسات في الشعر الجاهلي، مكتبة غريب، القاهرة.

103-يوسف خليف 1983: الروائع من الأدب العربي، الجزء الأول، العصر الجاهلي، (مراجعة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.



فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة




رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com



رؤية نفسية

لروائع مختارة من الشعر العربي



دار عمار للنشر والتوزيع
عمّان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري
تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١ عمّان ١١١٩٢ الأردن